الأعمال الكاملة

يوسف إدريس

القصص القصيرة "١"



دار الشروق

يوسف إدريس

القصص القصيرة ١

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

يوسف إدريس



القصص القصيرة "١"

الغلاف للفنان حلمي التوني



بيت من لحم

بيتٌ مِن لحم

الخـاتم بجـوار المصبـاح. الصمت يحـل فتعمى الآذان. في الصمت يتسلل الأصبع. يضع الخاتم.

في صمتٍ أيضاً يطفأ المصباح.

والظلام يعم.

في الظلام أيضاً تعمى العيون. الأرملة وبناتها الثلاث. والبيت حجرة. والبداية صمت.

***

الأرملة طويلة بيضاء ممشوقة، في الخامسة والثلاثين.

بناتها أيضاً طويلات فائرات، لا يخلعن الثوب الكـاسي الأسود بحـداد أو بغير حـداد. صغـراهن في السـادسـة عشـرة وكبـراهن في العشـرين.. قبيحات ورثن جسـد الأب الأسمر المليء بـالكتـل غيـر المتناسقة والفجوات، وبالكاد أخذن من الأم العود.

الحجرة، رغم ضيقها تسعهن في النهار. . رغم فقرها الشديد مرتبة أنيقة، يشيع فيها جو البيت وتحفل بلمسات الإناث الأربع. في الليل تتناثر أجسادهن كأكوام من لحم دافىء حي، بعضها فوق الفراش، وبعضها حوله، تتصاعد منها الأنفاس حارة مؤرقة، أحياناً عميقة الشّهيق.

الصمت خيم مذ مات الرجل، والرجل مات من عامين بعد مرض طويل. انتهى الحزن وبقيت عادات الحزانى وأبرزها الصمت. . صمت طويل لا يفرغ اذ كان في الحقيقة صمت انتظار، فالبنات كبرن والترقب طال والعرسان لا يجيئون. ومن المجنون الذي يدق باب الفقيرات القبيحات، وبالذات إذا كن يتامى؟. ولكن الأمل بالطبع موجود، فلكل فولة كيال ولكل بنت عدلها. فإذا كان الفقر هناك فهناك دائماً من هو أفقر، وإذا كان القبح هناك فهناك دائماً الأقبح، والأماني تنال. . أحياناً تنال بطول البال.

***

صمت لم يكن يقطعه إلا صوت التلاوة. .يتصاعد في روتين لا جدة فيه ولا انفعال. والتلاوة لمقرىء، والمقرىء كفيف، والقراءة على روح المرحوم وميعادها لا يتغير. . عصر الجمعة يجيء بعصاه ينقر الباب، ولليد الممدودة يستسلم، وعلى الحصير يتربع. وحين ينتهي يتحسس الصندل، ويلقي بتحية لا يحفل أحد بردها، ويمضي. بالتعود يجيء. . بالتعود يقرأ. . بالعادة يمضي، حتى لم يعد يشعر به أو ينتبه اليه أحد. .

دائم هـو الصمت، حتى وتلاوة عصـر الجمعة تقـطعه أصبحت وكأنها قطع الصمت بصمت. دائم هو كالانتظار،كالأمل. . أمل قليـل ولكنه دائم، فهو أمل في الأقل. دائماً هناك لكل قليل أقـل، وهن لا يتطلعن لأي أكثر. . أبداً لا يتطلعن.

يـدوم الصمت حتى يحدث شيء. . يجيء عصـر الجمعـة ولا يجيء المقرىء. فلأي اتفاق مهما طال نهاية وقد انتهى الاتفاق.

وتـدرك الأرملة وبنـاتهـا الآن فقط كنـه مـا تقـدم، ليس فقط الصوت الوحيد الذي كان يقطع الصمت، ولكن أيضاً الرجل الوحيـد الـذي كـان ولـو في الأسبـوع مـرة يـدق البـاب، بـل أشيـاء أخـرى يدركن. . فقير مثلهن هذا صحيح، ولكن ملابسه أبداً كانت نـظيفة، وصندله دائماً مطلى، وعمامته ملفوفة بـدقة يعجـز عنها المبصـرون، وصوته قوي عميق رنان.

والاقتراح يبدأ: لمـاذا لا يجدد الاتفـاق ومنذ الآن؟ ولمـاذا لا يـرسـل في طلبـه هـذه اللحـظة؟. مشغـول، فليكن! الانتـظار ليس بالجديد. وقرب المغرب يأتي، ويقرأ وكأنه أول مرة يقرأ،. والاقتراح ينشأ. . لماذا لا تتزوج احداهن رجلاً يملأ علينا بصوتـه الدار؟. هـو أعزب لم يدخل دنيا، وله شارب أخضر، ولكنه شاب. وبالكلام يجر الكلام، ها هو الآخر يبحث عن بنت الحلال.

البنات يقترحن والأم تنظر في وجوههن لتحدد من تكون صاحبة النصيب والاقتراح. ولكن الوجوه تزور مقترحة ـ فقط مقتـرحة ـ قـائلة

بغيـر الكـلام: أنصـوم ونفـطر على أعمى؟. هن مـا زلن يحلمن بالعرسان، والعرسان عادة مبصـرون. مسكينات لم يعـرفن بعد عـالم الرجال، ومحال أن يفهمن أن الرجل ليس بعينيه.

ـ تزوجيه أنت يا أماه.. تزوجيه.

ـ أنا؟. يا عيب الشوم!. والناس؟

ـ يقولون مـا يقـولـون.. قـولهم أهـون من بيت خـال من رنين صوت الرجال.

ـ أتزوج قبلكن؟. مستحيل.

ـ أليس الأفضـل أن تتزوجي قبلنـا، ليعرف بيتنـا قـدم الـرجـال فنتزوج بعدك؟ تزوجيه يا أماه.

وتـزوجتـه.. زاد عـدد الأنفس واحـدة، وزاد الـرزق قليـلاً، ونشأت مشكلة أكبر.

الليلة الأولى انقضت وهمـا في فـراشهمـا، هـذا صحيـح. ولكنهما حتى لم يجسرا على الاقتراب.. ولو صدفة! فالبنات الثلاث نـائمات، ولكن من كـل منهن ينصب زوج من الكشافـات المصـوبـة بدقة إلى المسافة الكائنة بينهما.. كشافـات عيون، وكشـافات آذان، وكشافات احساس. البنات كبيـرات، عارفـات ومدركـات، والحجرة كأنما تحولت بوجودهن الصاحي إلى ضوء نهار. ولكن بالنهار لم تعد ثمة حجة، وواحدة وراء الأخرى تسللن ولم يعدن إلا قرب الغروب،

مترددات خجلات يقدمن رجلاً ويؤخرن رجلاً، حتى يزددن قرباً. وحينذاك يدهشهن.. يربكهن.. يجعلهن يسرعن ضحكات.. قهقهات رجل تتخللها سخسخات امرأة.. أمهن لابد تضحك، والرجل الذي ما سمعنه إلا مؤنباً خاشعاً ها هو يضحك! بالأحضان قابلتهن ولا تزال تضحك، رأسها عار وشعرها مبلل ممشط ولا تزال تضحك، وجهها.. ذلك الذي أدركن للتو أنه كان مجرد فانوس مطفأ عشعش فيه العنكبوت والتجعيدات، فجأةً أنار، ها هو أمامهن كلمبة الكهرباء مضيء. ها هي عيونها تلمع وقد ظهرت وبانت وتلألأت بالدمع الضاحك.. تلك التي كانت مستكنة في قاع المحجر.

الصمت تلاشى واختفى تماماً، على العشاء وقبل العشاء وبعد العشاء نكت تترى وأحاديث وغناء! صوته حلو وهو يغني ويقلد أم كلثوم وعبد الوهاب، صوته عال أجش بالسعادة يلعلع.

خيراً فعلت يا أماه! وغداً تجذب الضحكات الرجال، فالرجال طعم الرجال.

نعم يا بنات، غداً يجيء الرجال ويهل العرسان. ولكن الحق أن ما أصبح يشغلها ليس الرجال أو العرسان ولكنه ذلك الشاب. كفيف فليكن، فما أكثر ما نعمى عن رؤية الناس لمجرد أنهم عميان. هذا الشاب القوي المتدفق قوة وصحة وحياة، ذلك الذي عوضها عن سنين المرض والعجز والكبر بغير أوان.

الصمت تلاشى وكأن إلى غير رجعة، ضجيج الحياة دب.

الزوج زوجها وحلالها وعلى سنة الله ورسوله، فماذا يعيب؟ وكل ما تفعله جائز، حتى وهي لم تعد تحفل بالمواربة أو بكتمان الأسرار. حتى والليل يجيء وهم جميعاً معاً، فيطلق العقال للأرواح والأجساد، حتى والبنات مبعثرات متباعدات يفهمن ويدركن وتتهدج منهن الأنفاس والأصوات، مسمرات في مراقدهن يحبسن الحركة والسعال. . تظهر الآهات فجأة فتكتمها الآهات.

كان نهارها «غسيل» في بيوت الأغنياء، ونهاره قراءة في بيوت الفقراء، ولم يكن من عادته أول الأمر أن يؤوب إلى الحجرة ظهراً، ولكن لما الليل عليه طال والسهر أصبح يمتد، بدأ يؤوب ساعة الظهر يريح جسده ساعة من عناء ليل ولى واستعداداً لليل قادم. وذات مرة بعدما شبعا من الليل وشبع الليل منهما، سألها فجأة عما كان بها ساعة الظهر، ولماذا هي منطلقة تتكلم الآن ومعتصمة بالصمت التام ساعتها؟ ولماذا تضع الخاتم العزيز عليه الآن ـ إذ هو كل ما كلفه الزواج من دبلة ومهر وشبكة وهدايا ـ ولماذا لم تكن تضعه ساعتها؟

كان ممكناً أن تنتفض هالعة واقفة صارخة. كان ممكناً أن تجن. كان ممكناً أن يقتله أحد. فليس لما يقوله إلا معنى واحد، ما أغربه وأبشعه من معنى!

ولكن غصة خانقة حبست كل هذا وحبست معه أنفاسها. . سكتت. بآذانها التي حولتها إلى أنوف وحواس وعيون راحت تتسمع وهمها الأول ان تعرف الفاعلة. إنها متأكدة لأمر ما أنها الوسطى. إن

في عينيها جرأة لا يقتلها الرصاص إذا أطلق.. ولكنها تتسمع! الأنفاس الثلاثة تتعالى عميقة حارة كأنها محمومة.. ساخنة بالصبا تجأر، تتردد، تنقطع، أحلام حرام تقطعها.. أنفاس باضطرابها تتحول إلى فحيح.. فحيح كالصهد الذي تنفثه أراض عطشى، والغصة تزداد عمقاً واحتباساً. إنها أنفاس جائعات ما تسمع، بكل شحذها لحواسها لا تستطيع أن تفرق بين كومة لحم حي ساخنة مكتومة وكومة أخرى. كلها جائعة! كلها تصرخ وتئن، وأنينها يتنفس ليس أنفاساً، ربما استغاثات. ربما رجوات.. ربما ما هو أكثر.

غرقت في حلالها الثاني ونسيت حلالها الأول.. بناتها! والصبر أصبح علقماً، وحتى سراب العرسان لم يعد يظهر. فجأة ملسوعة ها هي كمن استيقظ مرعوباً على نداء خفي.. البنات جائعات! الطعام حرام صحيح ولكن الجوع أحرم.. أبداً ليس مثل الجوع حرام! انها تعرفه.. عرفها ويبس روحها ومص عظامها، وتعرفه ـ وشبعت ما شبعت ـ مستحيل أن تنسى مذاقه.

جائعات وهي التي كانت تخرج اللقمة من فمها لتطعمهن.. هي التي كان همها حتى لو جاعت أن تطعمهن، هي الأم، أنسيت؟

وألح مهما ألح تحولت الغصة إلى صمت. الأم صمتت ومن لحظتها لم يغادرها الصمت.

وعلى الإفطار كانت ـ كما قدرت تماماً ـ الوسطى صامتة.

وعلى الدوام ظلت صامتة.

والعشـاء يجيء، والشاب ـ سعيـداً وكفيفاً ومستمتعـاً ـ ينكت لا يـزال، ويغني ويضحك ولا يشـاركه الضحـك إلا الصغرى والكبـرى فقط.

ويطول الصبر ويتحول علقمه إلى مرض، ولا أحد يطل.

وتتـأمـل الكبــرى ذات يـوم خـــاتم أمهـا في أصبعهـــا وتبـدي الاعجاب به، ويدق قلب الأم وتزداد دقاته وهي تطلب منها أن تضعـه ليوم، لمجرد يوم واحد لا غير. وفي صمت تسحبه من أصبعها. وفي صمت تضعه الكبرى في أصبعها المقابل.

وعلى العشاء التالي تصمت الكبرى وتأبى النطق.

والكفيف الشاب يصخب ويغني ويضحك، والصغرى تشاركه.

ولكن الصغرى تصبح ـ بالصبر والهم وقلة البخت ـ أكبر، وتبدأ تسأل عن دورها في لعبة الخاتم، وفي صمت تنال الدور.

والخاتم بجوار المصبـاح. . الصمت يحل فتعمى الآذان. وفي الصمت يتسلل الأصبع صاحب الدور ويضع الخاتم في صمت أيضاً. ويطفىء المصباح والظلام يعم، وفي الظلام تعمى العيون.

ولا يبقى صاخباً منكتاً مغنياً، إلا الكفيف الشاب.

فوراء صخبه وضجته تكمن رغبة تكاد تجعله يثور على الصمت وينهـال عليه تكسيـراً. إنـه هـو الآخـر يـريـد أن يعـرف. . عن يقين

يعرف. كان أول الأمر يقول لنفسه إنها طبيعة المرأة التي تأبى البقاء على حال واحد، فهي طازجة صابحة كقطر الندى مرة، ومنهكة مستهلكة كماء البرك مرة أخرى. ناعمة كملمس ورق الورد مرة، خشنة كنبات الصبار مرة أخرى. الخاتم دائم وموجود صحيح، ولكن وكأنما الأصبع الذي يطبق عليه كل مرة أصبع. إنه يكاد يعرف، وهن بالتأكيد كلهن يعرفن، فلماذا لا يتكلم الصمت؟ لماذا لا ينطق؟

ولكن السؤال يباغته ذات عشاء، ماذا لو نطق الصمت؟ ماذا لو تكلم؟

مجرد التساؤل أوقف اللقمة في حلقه.

ومن لحظتها لاذ بالصمت تماماً وأبى أن يغادره.

بل هو الذي أصبح خائفاً أن يحدث المكروه مرة ويخدش الصمت. ربما كلمة واحدة تفلت فينهار لها بناء الصمت كله، والويل له لو انهار بناء الصمت.

الصمت المختلف الغريب الذي أصبح يلوذ به الكل.

الصمت الارادي هذه المرة، لا الفقر، لا القبح، لا الصبر ولا اليأس سببه.

إنما هو أعمق أنواع الصمت، فهو الصمت المتفق عليه أقوى أنواع الاتفاق، ذلك الذي يتم بلا أي اتفاق.

***

الأرملة وبناتها الثلاث.

والبيت حجرة.

والصمت الجديد.

والمقرىء الكفيف الذي جاء معه بذلك الصمت، وبالصمت راح يؤكد لنفسه أن شريكته في الفراش على الدوام هي زوجه وحلاله وزلاله وحاملة خاتمه، تتصابى مرة أو تشيخ، تنعم أو تخشن، ترفع أو تسمن، هذا شأنها وحدها، بل هذا شأن المبصرين ومسئوليتهم وحدهم! هم الذين يملكون نعمة اليقين، إذ هم القادرون على التمييز. وأقصى ما يستطيعه هو أن يشك، شك لا يمكن أن يصبح يقيناً إلا بنعمة البصر، وما دام محروماً منه فسيظل محروماً من اليقين، إذ هو الأعمى، وليس على الأعمى حرج.

أم على الأعمى حرج؟

أكانَ لابدَّ يا لي لي أن تضيئي النور؟

في البدء كانت النكتة.

وفي النهاية ربما أيضاً تكون!

والنكتة في النكتة أنها ليست نكتة، ولكنها واقعة حدثت لأهل النكتة، صناعها المهرة، ورواتها العتاة.

النكتة لم تكن أن يستيقظ هذا العدد الكبير من الناس لأول مرة في تاريخ حي الباطنية، وكر الحشيش والأفيون والسيكونال ليؤدوا صلاة الفجر، هو الذين يبدأ نومهم بأذان الفجر.

وليست النكتة أيضاً أنهم أدوا الصلاة أنصاف مساطيل، أنصاف يقظى، ينسى الواحد منهم أنه قرأ الفاتحة فيقرؤها ثانية ويعود ينساها، أو يعود يتذكر فيعود ينوي للصلاة في منتصف الصلاة.

النكتة في الحقيقة حدثت قرب نهاية الصلاة، نكتة لا تزال تتفجر بها صدور «الحشاشين» في الحي.. أولئك الذين تعايشوا مع النكت المروية حتى ألفوها، فما كادوا يعثرون على نكتة حقيقية

صارخة دارت وقائعها أمام أعينهم حتى تلقفوها كما يتلقفون «الشيشات» الجديدة، وعربات الكارو، والموتوسيكلات والأطفال الجدد، فيظلون يدندشونها، وبمزاج يزخرفونها ويتقنون روايتها ويتفننون في اختراع التفاصيل التي لم تحدث حتى أصبحت أهم وأعز جزء من فولكلور الحي وتاريخه وقصصه، توارت بجانبها في الحقيقة ملاحم بطولة ليس أقلها ملحمة «حنتيتة» ونسائه الأربع أمام الضابط والمخبرين في واقعة زقاق التعبان.

النكتة أنهم صلوا الركعة الأولى في أمان الله، وكذلك الثانية، ولم يعد باقياً على انتهاء ركعتي الفجر إلا السجدة الأخيرة.. ثم قراءة التحيات والتشهد والتسليم. أما السجود فقد سجدوا.. قال الامام الشيخ: الله أكبر. ثم سجد.. وسجدوا جميعاً وراءه. عشرة صفوف طويلة ملأت الجامع الصغير. أناس ساجدون في خشوع وإن كان سجوداً غير مريح، فمعظمهم كان لم يقرب الصلاة من مدة، ومفاصلهم وعضلاتهم تصلبت حتى لم تعد تقوى على أوضاع الصلاة. ورددوا «سبحان الله» ثلاثاً، ولكنهم حين لم يسمعوا «الله أكبر» من الامام ايذاناً بنهاية السجدة بدأ الوسواس يوسوس للكثيرين أنهم أخطئوا العدد ومن جديد، وعلى مهل قالوها، وأيضاً لم تأت التكبيرة المنتظرة، وأقلية هذه المرة هو التي عاودها الوسواس! وأقلية أيضاً هي التي بدأت تستنيم للوضع وتريح رءوسها المتعبة الدائرة لا تزال بما فيها من ارهاق وكيوف.. أما الأغلبية فقد بدأ شيء من الاستغراب القليل يخالجها.. استغراب كان ينهيه احساسهم أن حالاً

سينطق الامام التكبيرة ويعتدل وينتهي الوضع. وكلما أمعنت اللحظة في مضيها دون أن تأتي التكبيرة بدأت نقطة الاستغراب القليل يخالجها.. استغراب كان ينهيه احساسهم حقيقة ثم ذهول، حين تأكد للجميع حتى للأقلية الموسوسة والمستنيمة أن السجدة طالت حقيقة، وأنها ليست بطئاً من الامام أو دعاءً خاصاً اختار لقوله وضع السجود، كما تأكد للجميع أنهم ليسوا أمام شيء عابر إنما هم بالتأكيد يواجهون حدثاً. لا بد أن شيئاً قد حدث ومنع الشيخ من اتمام السجدة. هنا تحركت الدهشة الحقيقية وتوزعت ألف احتمال واحتمال راحت تجوب الأدمغة المنحنية لا تجرؤ على الاعتدال.. رائحة غادية، متماثلة متناقضة.. أمرض؟ أمات؟ أأغمي عليه؟. أتكون حشيشة أغراه بها شيطانٌ منهم وبدأت «تكبس» على يافوخه؟

وأيضاً، ورغم هذا كانوا متوقعين في كل لحظة تالية أن يرتفع صوته بالتكبيرة طارداً الهواجس، معيداً الثقة ـ بأن كل شيء طبيعي ولا غبار عليه ـ إلى عقولهم التي بدأت تسرح وتمرح وتنطلق إلى ما شاءت من خيال.

ولكن وقتاً مضى، بالضبط لم يستطع أحد تحديده وإنما حسب رواياتهم بين الدقيقتين ونصف الساعة.. إذا تجاوزنا عن مغالاة البعض وقولهم إنه استمر حتى سمعوا أذان الظهر من الجامع الأزهر.. ناهيك عن المهولاتية الذين يصرون على أنهم للآن لا يزالون ساجدين.

ولكن المؤكد أن وقتاً مضى بحيث أصبح مؤكداً حتى لأكثرهم غياباً عن الوعي أن الشيخ ليس أبداً على ما يرام، وأن التكبيرة بالتأكيد لم تصدر عنه وتنهي سجودهم الذي جعل الشخير يتصاعد من حلقين على الأقل من الحلوق التي تراخت وبدأ لعابها يسيل.

وهنا فقط بدأ يتجسد أمامهم إشكال حقيقي يواجهه كل منهم منفرداً ولأول مرة في حياته.. ماذا بالضبط عليه أن يفعل؟ وما هو حكم الدين في موقف كهذا؟ وهل إذا رفع أحدهم رأسه تفسد صلاته ـ وربما صلاة الجماعة بأسرها ـ ويحمل هو وحده ذلك الوزر كله؟ وهل يحتمل أحدهم أن يكون هو دوناً عن الساجدين جميعاً المتسبب في افساد للصلاة؟ العودة الحديثة لله وبيته وحظيرة الدين جعلتهم مرة أخرى يرون الله ماثلاً بجناته وجحيمه ووعده ووعيده أمام عيونهم.. هم كالتلاميذ يعودون ومن تلقاء أنفسهم إلى المدرسة بعد طول «بلطجة» و «تزويغ».. الرهبة من الخطأ أو من الإقدام عليه مسألة لا يمكن أن يحتملها تائب حديث التوبة مثلهم.. أو يفكر فيها.

ولكن الوقت يمتد، الوقت الحقيقي يمتد، ووقت كل منهم الخاص الممدود بطبيعته يمتد ويتضاعف وتصبح الدقيقة فيه بعام.. يمتد الوقت حتى لتبدأ أفكار شيطانية خبيثة تخطر لبعضهم أكثرها شراً بالتأكيد فكرة أن يضحك، ليس فقط على الوضع الذي هم فيه وإنما على ما يمكن أن يحدث لو أن الشيخ الامام قد وافته سنة من النوم

مثـلاً، أو الأدهى. . لو كـان مات! وأنهم سيبقـون هكذا سـاجـدين. ربما إلى اليوم التالي وربما إلى يوم الدين، دون أن يكتشف أحد من أهـل الحي ما حـدث، فالجـامع عنـدهم مكان غيـر مطروق، مجـرد المرور عليه يوقظ الضمير.

ولكن كل الأفكار الشيـطانية هـزمت فلم يضحك أحـد، وحتى لم يطل تفكيره في الوضع كوضع مضحك كي لا يخونه صدره العائم بطبعه ويفلت منه الضحك.

ولم يعد هناك شك لدى آخر المتفائلين فيهم أنهم أصبحوا في مأزق حقيقي، حين بدأ ضوء الشروق يتسلل وينـافس ضوء الكهـرباء القليل، وهم قد بدأوا الصلاة والظلام كامل. الآن بالاستطاعة القسم أن السجدة طالت طولاً غير طبيعي، وأن السعلات التي بدأت تتكـاثر وتتحشـرج بها الصـدور المحنية لم تكن كلهـا سعـالاً، أكثـرهـا كـان علامة تململ. . وتململ لا حـل له، فمعـرفة مـا حدث تستلزم رفـع الـرأس والاستطلاع، ورفعهـا نقض للصلاة. فليتـظر إلى أن يفعلهـا غيره ليكون البادىء، ويكون ذنبه هو ذنب التابـع. . وفرق كبيـر بين ذنب الفاعل الأول وذنب التابع.

استمـر السجـود إذن حتى انتصـر حقيقـة على كـل مـا اجتـاح الرءوس من احتمالات أو مخاوف أو ضحكات.

ولأن لا نكتة هنا والضحـك الحقيقي لـم يبدأ بعـد. . فلنتركهم

هكذا ساجدين كل منهم لا يريد أن يكون البادىء بالمعصية.

لنتركهم ساجدين!

إذ هكذا بالضبط تركتهم أنا.

أنا الشيخ عبد العال إمام مسجد الشبوكشي في الباطنية.

أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟!

***

أنا قطعاً سبحان فالق الإصباح. النوم في صوتي، فعيوني لا تتفتح إلا حين الوصول إلى «استغاثات» الفجر. أنا.. أنا صاعد سلم المئذنة الأفعواني المظلم. أنا.. مشفقاً على صدري وصوتي من الندى. أنا.. عيناي تقتحمهما البرودة وتغلقهما العادة والاحساس بأداء الواجب وإني إنما أؤذن في مالطة، وإن الأتقياء في الحي قليلون، والأتقياء تماماً يفضلون جامع الأزهر القريب. وإجهاد الصوت لا فائدة منه فماذا يفعل صوتي وسط غابة المآذن المحيطة المزودة بحناجر ميكروفونية يغرق بينها صوتي مهما ارتفع. أنا أنا.. أؤذن لنفسي.. ويكفيني أن الله يسمعني ويعرف أني أؤذن الفرض كما أمر ويغفر لسكان الحي النائم منهن واليقظان.. فنائمهم بمعصية، ويقظانهم لمعصية، والحظ وحده أو لعلها الحكمة هي التي دبرت تعييني في جامع أقامه صاحبه وقفاً من قديم الأزل، تركي كان هو.. بالسياط سلب وضرب، واعتقد أنه بالجامع وبضريحه

المقام بجوار القبلة يجني ثمار الدعوات.. ستحمله صلوات الناس جيلاً بعد جيل لتقربه من الجنة. حتى رحلة الجنة تقطعها على أكتاف الآخرين يا.. تركي؟

أنا الخريج الحديث من الأزهر، من صغري أحببت الله وبإرادتي ربطت وجودي بدينه. أكاد أبسم اشفاقاً ممن يتصورون أني دخلته لأصبح فقيهاً ومقرئاً ما دام قد وهبني الله هذا الصوت. أعرف أن صوتي جميل وأني كي أداريه لا أكشف للناس كل جماله.. ولكن ما لهذا اخترت الأزهر، وما لهذا حفظت القرآن صغيراً، ومن ابتدائي مدارس حولت إلى ابتدائي أزهر السبب أعمق.. السبب إلهي.. السبب موقفي من كون ليس فيه ما يستحق الحياة سواه.

أكان لابد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟

أكان لابد؟

كم بدا النور باهراً وسط تمام الظلام! مصباح واحد في حجرة السطوح الواحدة هذا صحيح، ولكنه يكاد يضيء الباطنية كلها.. قابعة كمعسكر مزدحم نفق قاطنوه أو رحلوا. البيوت مريضة تتساند، أحشاؤها صغيرة بارزة محشوة كرحم القطط بآدميين.. رعيتي ومسئوليتي ـ بالأدق فشلي ـ بالرغبة المستعرة في ايقاظ الله في نفوس تريد أن تنسى فكرة وجوده.

قاتلت! بعد أسبوع ظفرت بأول بارقة.. انتعش الأمل..

استمت. تخلوا عن الوعود الكاذبة والصهينة وبدأ الضيق.. إلحاح آخر.. حمر العيون وبالوعيد جاءوا.. أسمع! خميرة عكننة مش عايزين، وحسابنا في الآخرة نحن عارفين.. والحساب يجمع. بأدبك أهلاً وسهلاً، تدوشنا تاني أنت واللي يصح لك. وبالسليقة عرفت أنهم صادقون، في أعماقهم أيضاً صادقون.. يرغبون في الله حقاً وفي أعماقهم مؤمنون.. ولكن الحياة.. حياتهم لا تحتمل الله الكامل. إما أن يقبلهم هكذا.. وهكذا يعبدونه وإما فلا. لهم دينهم حقاً، الصلاة فيه ركعتا جمعة كل أسبوع، والنهار صيام في رمضان هذا صحيح. ولكن المهم أن من الفطار إلى السحور حشيش، وأيمان بالله ما هو ـ الحشيش ـ حرام: اديني آية نزلت تحرمه. الزكاة معظم أغنيائهم يخرجونها فعلاً، بل إن أحدهم كان عينياً كما أمر الدين، ومن «بضاعته» كان يزكي. والحج تاج على رءوس كبار المعلمين وعلى الأقل يتيح القسم ساعة الصفقات بشباك الرسول. كسبت منهم بالكاد خمسة وخسرت الثقة بأني خير مبشر ومبين.. ثم أدركت أن الخطأ خطئي، وأني قبل أن أهديهم لابد أن أعرفهم أحياناً لأغيرهم، أصبح منهم ليصبحوا مني.. إن لهم لغة أخرى وقيماً أخرى ومفاتيح خاصة بغيرها تبقى دائماً خارج السور والصدور. ومن العزلة هبطت.. إلى القهاوي أجلس، إلى الداعين أزور، لأدير الوجه لما يحملون أو يدخنون. أو يفعلون، بقلبي معهم أرى وأسمع.. وأقترب.

أكان لا بد يا «لي لي» أكان لا بد؟

أم أنـه لابد هي أو غيـرها لابـد! لم أكن قـد عـرفت أن العفـة معـراة إلى هـذا الحـد، ولا طـرأ بعقلي أني رغم حب الله شـاب في الخامسة والعشرين. أنا متبتل، سعيد حتى بالحي الذي كـان قاطنـوه القدامى من طوائف «الباطنية» قد اعتزلوا بالحي دنياهم.. ربما نفس عـزلة سكـانه الحـاليين. في «قعـداتهم» نفس التـأمـل. الفـرق أنهم يتأملون ما يضحك، بينما الباطنيون الأول كانوا يتأملون ما يحب، وما يقود إلى ينبوع الحب.. الله.

لم أفـطن إلا بعـد أن تعـددت المـظاهـر، وإلا بعـد أن لاحت عـلامات رغم كـل حسن النيـة.. لا تقبـل الشـك. قـرأت لهم مـرة فـأعجبهم صوتي واستعـادوني، وأحسست فجأة أني دخلت قلوبهم، وأن المغلقين يفتحون الأبواب، ولم يعـودوا يريـدون مني إلا الصوت والتـلاوة. رفضوا الـواعظ والمبشر والامـام ولم يعد أمـامي إلا صوت يجذبهم لما أريد. الله المجرد صعب، ولتكن البـداية على هـدى آية من آياته.

السميعة بقربي دائماً رجال، ولم أكن أعـرف أن أعداد النسـاء خلفهم أكبـر! وأني مـا أن أبـدأ أقـرأ حتى يشيـع الخبـر في الحي كالموضة، وكالموضة يتزاحمن، ومن صدورهن تتصـاعد مـع وقفاتي الآهـات. متاعب بـدأت.. في كـل أوبـة للمسجـد لا بد من حـرمـة منتـظرة، ولابـد من سؤال أو حجـة سؤال. عيني أبـداً مـا ارتفعت.. أسعـد باقتنـاعهن وأستبشـر. الصـلاة بين النسـاء بدأت، وهن اللاتي

يحببن للرجال الصلاة. سؤال زلزل كياني مرة. من شابة كان.. الاقدام التي تسمرت عيني عليها كانت بالقطع شابة. المشكلة تبوح بها في تردد، ثم بلا خجل تنطق.. الزوج كف من شهور عن معاشرتها! ولا فائدة فإدمانه السبب، وإدمانه موئس، ومحاولاتها فشلت وتخاف الفتنة.. ماذا تفعل؟

بل الأكثر لم تعد هناك أسئلة.. كلها أصبحت اعترافات..

ـ ماذا أفعل وقد راودني الصبي عن نفسي حين أرسله المعلم بالخضار وغلبني الشيطان؟

ـ ماذا أفعل وقد حلمت بك يا مولانا؟

ـ ماذا أفعل وأخي يأتي عميان من سهراته، ومهما فعلت لا يسكت حتى أذعن، وكل ليلة أذعن، وأريد أن أتوب؟ أتقبل من مثلي التوبة؟ على يديك أتوب..

وتمسك بيدي امساكة لا توبة فيها ولا رادع.

الشيطان.

هؤلاء أناس انفرد بهم الشيطان طويلاً وكثيراً.

ولم يعودوا يعرفون طريقاً آخر إلا طريق الضلال.

الشيطان.

حولي وفي كل مكان.. في همسة الحرمة، في النظرة تصوب إليّ من خلفي لاسعة كسيخ الحديد قادمة لتوها من جهنم.فلأرى الشيطان وجهاً لوجه! ولا أعود أغض البصر، أصبحت بعينين واسعتين أحدق، وبما أصبه من خلالهما أنفي من نفسي الخجل والعفة، وبهما قد أصبحت مركز اغراء.. بعيني أنهر، ومن خلالهما أصعق السائلة بنظرة تتفجر بإيمان كثيف يضيق به القلب.

أكان لابد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟

ـأنا اسمي «لي لي» ما سمعتش عني؟.

صوبت عيني.. ارتدت نظرتي بصدام مع نظرة أقوى.

بالطبع سمعت عنها. انها نصف اشاعات وأحاديث واستنكارات واستحسانات واتهامات وبراءات أهل الحي.«لي لي» أعجوبتهم بنصفها الانجليزي ونصفها المصري. بشعرها الأحمر الطويل الكثيف وعيونها العسلية المصرية.«لي لي» ثمرة الزواج الذي دام أسبوعاً بين أمها وبين عسكري انجليزي اسمه «جوني» قضى مع «بديعة» الأم ليلة، ولم يفعل كشبابنا «الحدقين» ويكتفي بما أصاب من متعة ويفر. العبيط طلب منها في الصباح الزواج.. وتم.. وبعد أسبوع سافر، وبعدها لم يعد! مات في الحرب! وتكفل هذا الأسبوع الواحد بضمان معاش شهري لم تكن تحلم به «بديعة» ظلت تصرفه من السفارة البريطانية بشيك يأتي من لندن رأساً لمدى خمسة وعشرين عاماً.. معاش هو الذي أجرى في يدها النقود وأغراها أن

تكـون «بنكاً» يمـول صغـار تجـار المخـدرات في حيهـا. وفي الحي نشأت ليلى كما سمتها أمها،و«لي لي» كما نادتها جدتها لأبيها وجدها حين حضرا من انجلترا بعد الحرب خصيصـاً ليريـا حفيدتهمـا. وكم من مبالغ عرضوها لتتنازل أم «لي لي» عن «لي لي»، وكم استعبطوها وشتموها، وكم رفضت وبـابنتها كـروحها تمسكت. وعلمتهـا، ورغم الرجال الطالعين النازلين من عنـد أمها الجـالسين معظم الـوقت على عتبة الشقة ـ وأحياناً على عتبة باب الشارع ـ كاشفـة كل مـا خفي من جسـدها لا يهمهـا من حي هي فيه صـاحبة مـال، وصبيانهـا رجـال، وعلاقاتها علناً وعلى رءوس المـارة والجيران. . و «لي لي» ستعلمهـا ولآخر المدى. . وستجعل منها ست الستات.

والخواجاية مغرية، فإذا كانت الخواجـاية مصـرية كـان الاغراء أكبـر. تعلمت «لي لي» أو لم تتعلم، وتعلمت ولم تتعلم. طمـوحـة كانت، من صغرها وهي تحس أنها أرقى، ولا بد أن تكون الأرقى. . وحتى وهي تعب المشروبات الـرخيصة في الكبـاريهات منضمـة إلى الفرق الأجنبية، وتقضي الوقت تتردد على مكاتب ريجسيري الـدرجة الثـانية، كـانت تؤمن تمـامـاً أنهـا يـومـاً مـا ستصبـح ست الستـات، وسيسجد لها العالم وتكون أشهر وأمتع امرأة فيه.

ـ ربنا يفتح عليكي وينور لك طريقك.

ـ طب ما تنور هولي أنت ينوبك ثواب!

ـ النور لا بد من الداخل. . من القلب. نورك في ايدك.
ـ أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟

أكان لا بد؟!

ـ عايزاك تعلمني الصلاة.

ـ عندي كتاب خذيه.

ـ أنا عايزة درس خصوصي!

ـ أستغفر الله العظيم. . روحي الله يغفر لك ويسهل لك.

انقطع المعاش وجفت النقود. . وكبرت المعلمة ومرضت ولم يعد هناك إلا ما تكسبه «لي لي» من قروش.

أكثر من مرة حاولت تفاديها فكانت تقتحمني. عيونها شرارة كهرباء تخترق الهواء قافزة من قطبها المصري إلى قطبها السكسوني. جمالها طاغ على الحي محرم. بالقوة حاولوا. . بالنقود. . بالزحف على البطون. «لي لي» لا تقرب إلا الأجانب. . لم تكن تقول، ولكنه السر. سرها الدفين. في النهاية كعهدهم أمام كل مستعص قبلوها كما هي! احترموا أنها ليست لأحد، وما دامت كذلك فهي للكل يحمونها ويوصلونها، أخت الجميع المحرمة المرغوبة.

***

النور.

نافذة من نور ساطع.

عيني لا تحتمل.

النور قريب.

بيني وبينه فقط الشارع.

مجرد عرض الشارع غير العريض.

دائرة المئذنة في مستوى النافذة.. فركت عيني أتطلع.

نظرة واحدة جذبتني كالعاصفة العاتية من قاع الغفوة إلى قمة اليقظة. لا شيء كان ينبهني إلا استغاثتي الأولى. انتباهي هذه المرة انتباه آخر.. انتباه مرعوب.. أنا أمام شيء مروع.

الغرفة بها سرير خشبي مرتفع.. ماذا غيره هناك؟ لا أعرف.

على السرير ترقد امرأة بيضاء. شاهقة البياض، ممدودة بطولها وقد أحنت ساقاً، ولا شيء عليها سوى قميص نوم لا يكاد يكفي لإخفاء نصفها الأعلى.

أول مرة في حياتي أرى ـ فجأة ـ هذا الكم الهائل من جسد امرأة. أفقت لأجد نفسي في منتصف السلم هارباً.. هابطاً ألهث.. ومن أقصى الرعب اندفعت إلى أقصى الغضب.

أنا في شرك!

أنا الذي جاء يطرد من هنا الشيطان، وتضاءلت طموحاته حتى أصبحت مجرد أن يبعد فقط عن نفسه الشيطان.. وعن أوكاره وتنكراته؟ أجد نفسي هذا الفجر في الشرك.. تماماً في الشرك؟ أنا الذي أردت هزيمته في الناس أجري خوفاً من أن يهزمني في نفسي؟

ولكن عذري يا شيطان أنك كنت تعرف أين كنت أنا؟ ولم أكن أعلم أنا من أنت، ولا أين أنت؟. وكم نقشوا على قلوبنا الأخطاء عنك حتى ارتسمت في أذهاننا دائماً رجلاً.. بشعاً، ولم يفكروا أن يقرنوك بالجمال مرة، مع أنك لا يحلو لك التربص إلا محاطاً بالجمال، وإلا على هيئة ست، وإلا في أكثر الأماكن نعومة وإمتاعاً، وفي أحلى البسمات، بل أحياناً في النكتة.. في أروعها تنصب الشباك.

عدت.

ما رأيته محوته من ذاكرتي كأن لم يكن. في عقلي أطفأت نور النافذة، وألغيت الحجرة والشارع والبيت.. بل الحي كله ألغيته. فلتكن حرباً اذن ولتندحر.

يا رب!

استنكرت أن أكون قائلها.. ما هكذا تعودتها وتعودتني. بعد التسابيح الخاشعة فجأة أطلقها حادة مدببة لا نهاية لطولها، تقطع في

ومضة كل ما بين الأرض والسماء لتصل اليه في الملأ الأعلى . من أعماقي تخرج وإلى السماء تصعد، مستحيلة من شيء أرضي إلى كائن سماوي . أطلقها قوية لتحمل كل ضعف البشر، كل عجزهم ومحدوديتهم تستغيث بالقادر اللامحدود.

هذه المرة خرجت همساً، لهاثاً، مكبلة بالعجز، لا لتصل إلى السماء وإنما لتتهاوى من فوق المئذنة وعلى الأرض تموت.

خائف أنا . . أنا خائف! لا من الشيطان خائف . . من نفسي أخاف؟ من نفسي أجل. كم مرة ضبطتها من شكوى المحرومات أو الفاسقات تصغي بانتباه واندماج أكثر مما يجب. كم مرة ضبطت داخل نظرتي شعاعاً من حب استطلاع مرة، ومن تلمظ الجائع الصائم الراغب في الطعام مرة.

يا رب!

أعني . . نعم أنا أعرف . . أحببتك نقياً كالماء الصافي، وحيداً . . كأنك خلقتني وحدي. أعرف أني كان لابد أن أمتحن. أعرف أني لو نجحت فسأعرف أني أخيراً بالقبول جدير . . وسأجعله يا ربي امتحاناً صعباً.

لن أهرب.

سأضاعف الاغراء.

سأنظر.

وسأعاود النظر.

سأرتكب الذنب الأصغر ليتعاظم انتصاري على الذنب الأكبر.

نظرت.

هي «لي لي» بالتمام. هي الشيطان كاملاً غير منقوص. فالاغراء فيها كامل غير منقوص. نائمة هي تتقلب.. جسدها فائر، يغلي، وعلى الفراش وفي دفعات يتدفق. هذا صدرها. هذا شعرها يسيح وعلى موجات يغطي الصدر، والبطن.. وينحسر، وتتقلب!

يا رب.

مستغيثاً صرخت. ليست استغاثة أرض لملأ أعلى، ولا ناطقة بلسان ضعف البشر. هي استغاثتي أنا. كنت قد بدأت أغرق. أواصل النظر لا عن رغبة في المجابهة وتصعيب الامتحان، وإنما عن عجز أن أكف عن النظر. قتل الانسان ما أكفره!

ما أكفرني حين تصورت أني وحدي أقهر الشيطان. وحدك أنت لا شيء. وحدك أنتَ أضعف من دابة، وبالناس وبالله وبما فيك منه أنتَ الأقوى.

يا رب!

راجية مستسلمة دامعة أطلقتها.

الشيطان استولى على بصري وعلى جسد «لي لي» سمره،

وبكل قواه يجذب ومن بصري يريد أن يخلع روحي من جذورها، أحس حقيقة بالجذور تتخلخل.

لم أكن أعرف أني بهذا الضعف.

يا رب!

يا سميعي ولا مجيب سواك. يا مدرك عجزي وأنت القوة. يا مانح العبد الارادة. يا أنت الذي تعلم ما بي. رحماك.. يا رب.

يا رب!

إن كان بصري قد ضاع فلازلت أمتلك الصوت والحنجرة.. بغير أن أسمع نفسي استغيث وأترجى. أنا انتهيت.. فقط ألهج بكل قواي أعتصر العمر كله وأطلقه مخلصاً صادقاً. أرعبتني المفاجأة، وأذهلني ما اكتشفته في اللحظة الحاسمة من تفاهة ما كنت أسميه قوتي. بإيمان أصبح وجهاً لوجه في قبضة الشيطان، بإدراك أن هذه معركة العمر بها أوجد أو بها أمحى. انطلقت بصوتي أقاتل.. الصوت سلاحي، والصوت أنا، والصوت كل ما تبقى فيّ من ذاتي، والصوت أملي الذي لا أمل سواه.. أن أعود أنا.

ولم يعد أذاناً ما أقوله. لم يعد الكلام المنغم المحفوظ. كنت استغيث حقيقة وأعرف أن لا مغيث لي سواه، ومنه وحده ولما أعانيه أطلب الغوث.

يا رب!

هل يرضيك أن نسقط؟ هل يرضيك أن نأثم؟. هل يرضيك أن يتلبسنا الشيطان ويسود؟ أغثني يا إلهي! أدركني! ساعدني! أنا في الهاوية. . من ينتشلني سواك؟

أكان لا بد يا «لي لي» أن تظلي تتقلبين حتى ينحسر القميص إلى أعلى، ويتبدى جسدك تحت وهج الضوء الساطع أبيض يكاد من بياضه يضيء، عارياً تماماً، ملتوياً في الفراش، ناشراً أطرافه، قابضها؟ أي حجيم كان في داخلك! لا يطفئه عري ولا فجر ولا برودة الدنيا كلها!

وكل هذا في النور الساطع.

أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟!

***

لم يبدأ الناس يستيقظون لأن صوته العالي أقلق منامهم. . فلا أحد يذكر أنه تنبه من نومه المخدر ضجراً من الأذان المرتفع الذي أيقظه من أحلى منامة. الحقيقة كان الواحد منهم يستيقظ على شعور أن ثمة شيئاً جميلاً رائعاً يحدث حوله ولابد من اليقظة للتمتع به. كان الصوت قد استحال إلى عطر نفاذ أليف امتلأ به جو الحجرة وراح يتسرب إلى أنفه النائم، وبرقة زائدة يتسلل إلى خياشيمه تسللاً ممتعاً، يستيقظ من شدة متعته دافئاً ملتاعاً عميقاً حنوناً. . يسري كالموسيقى الهفهافة المعطرة. يبدأ النائم يعتقد أنه حلم، ولكنه بعد

حين يدرك أنه لا يحلم وأنه استيقظ ومع ذلك لا يزال ينتشي بالصوت الذي يأتيه حقيقة. . لا شك فيها.

يا رب!

كم مـرة قيلت، كم مرة تلونت وتنـوعت وطالت. . ورقت! كم من المعـاني قيلت فيها وبهـا، كم استعـطفت، كم استنجـدت، كم غضبت، كم امتعضت، كم تـدللت، كم دمعـت وابتسمـت. . كم جاءت وكأنها آخر الأنفاس، وكم جاءت وكأنها أول علامة حيـاة، كم صدرت عن طفل وعن رجل وعن خاطىء وعن مستغفر. . وعن تائب وعن مؤمل وعن يائس وعن معلق بين اليأس والأمل.

كلمــة. . ولكنهـا أيقـظت الحي كله. حتى من لم تفلح في إيقاظـه أيقـظه من استيقظ. في أسـرتهم وفي أمـاكن نـومهم راحــوا يستمعـون. ثم وكـأنمـا أصبـح للكلمـة قـوة جـذب استخـرجتهم من رقدتهم وغادروا بيوتهم بشعور غـريب، يشيع في صـدورهم لأول مرة شعور طازج محير لم يألفوه أبداً، شعـور وكأنهم أصبحـوا قربـاء جداً من الله وأن الله غيـر غـاضب وأنـه رحيم أليف، شعـور يملؤهم على الفـور بالسعـادة، إذ في أعقابـه يحسون أنهـم وكـأنما اكتشفـوها للتـو يحبون الله، وأن الله يحبهم وأنه جـد قريب لم يبق بينهم وبينـه سوى خطوة.

وفي الجـامع تـلاقت الوجـوه. . غارقـة لا تـزال بمـاء الإفـاقـة والوضوء. ولأنهـم لـم يعتادوا التلاقي في زمن كهـذا ومكان كهـذا فقد

أحسوا أنهم وكأنما يتعارفون حالاً، واليوم فقط يبدؤون. صامتين مذهولين بالنشوة جلسوا يمتصون بآذانهم رحيق الأذان.. يستعذبونه، يختزنونه في أنفسهم كما يختزن غذاء الروح ليوم تجوع فيه الروح.

وتحول الجامع إلى مظاهرة. وغادروا مبنى الجامع إلى الخارج ليصيروا إلى المئذنة والشيخ عبد العال أقرب.. الكلمة تنطلق منه فتكاد بما تحتويه تنير حجب الظلام. يتطلعون، يتأكدون أن من يؤذن حقيقة من البشر وأنه بالتأكيد نفس الشيخ عبد العال، فالحق أن ما يسمعونه كان صوتاً لا يمت إلى البشر ولا إلى الأرض وإنما هو قادم مباشرة من السماء.

بل ومن فرط ما سكروا نشوة لم يفطنوا أن الشيخ عبد العال هبط من المئذنة دون أن يؤدي الأذان الشرعي، شاحباً ممصوصاً كمن نزف الحياة.. صوتاً ومقاومة هبط. اندفعوا يحيطونه، بإشارة أوقف الاندفاع. من فوره اتجه إلى القبلة ونوى الصلاة.

أجل. نويت الصلاة.

أنا الآن أهل لها؟

***

أهل لها فقد انتصرت.. بشائر النصر بدأت حين عدت أمتلك بصري. حين استيقظت «لي لي» من نومها على صوتي المدوي المجلجل، وفي الفراش جلست.. مبعثرة جلست نفس جلسة أمها

على العتبة. نحوي سددت البصر مدهوشة.. مذهولة.. ثم مستمتعة بـدأت ترنـو. أعتصر نفسي أنـا.. أهرب منهـا وأتلوى.. وهي أيضاً تتلوى. أتلوى أنـا احتراقـاً وتمزقـاً وألماً.. وتتلوى هي جـذلاً. حتى قامت تنظر من النافذة، وحينذاك تحولت ببصري وأصبح ملكي وعـاد لي الوعي. وجدت نفسي حطام بشر.. بقايا حياة.

رفعت عيني إلى السمـاء ولم أنطق، فقـط ملأت بصـري بنظرة شكر. أحسست أن شيئاً لي قد حدث.. لم أعد أنا. كـان في خزين ايمان قوي ذهب.. قذفت به كله في أتون المعركة.

منتصراً هبطت. مجرحاً. قلت الصلاة بلسم الجراح.

استقبلت القبلة ونويت.

***

ظل السجود قائماً ومستمراً حتى ملأت الشمس الحديثة صحن الجامع. نـام البعض، وشخر آخـرون، وسرح كـل منهم في ملكوتـه وعـالمه، والحجـة قائمـة وموجـودة.. هم في انتظار تكبيـرة الشيخ. فوجئوا مرة بضحك هـائل غـريب.. خشن.. عرفـوه للتو. هـو معزة الأفيونجي الذي كثيراً ما تطرده امرأته ويتخذ المسجـد منزلاً ومقـاماً. ضحك استمر حتى نفذ كل ما لدى صاحبه من مخزونه لسنوات طوال مقبلة، وجاء بعده كـلام.. كلام فـارغ صحيح ولكنـه جاء.. شـوفوا الناس المساطيل اللي ساجدة وبتصلي من غير إمام.

***

منتصراً هبطت.. مجرحاً قلت الصلاة بلسم الجراح.. استقبلت القبلة ونويت.. فتحت عيني.. كانت «لي لي» في منتصف القبلة نائمة، عارية، مبعثرة، مفتحة، يتموج شعرها على جسدها وينحسر. عفوك يا الهي! فلقد أخفيت عنك الحقيقة.. الشيطان انتصر!

وبينما الجميع ساجدون كالقطيع بعد طول ضلالة، كنت قد تسللت عبر النافذة الملاصقة للقبلة، وفي لمح البصر كنت أدق غرفة الدور الثاني السطوح في البيت المقابل. «لي لي» وقد لفت نفسها بملاءة السرير تفتح. بابتسامة مرعوبة قلت لها وأنا أفك أزرار الكاكولة الأعلى:

ـ جئت أعلمك الصلاة.

انزلقت الملاءة عنها، فضمتها بقوة وهي تستدير توليني الظهر وتقول:

ـ أنا اشتريت الأسطوانة الانجليزي اللي بتعلم الصلاة. لقيتني أفهمها أكتر. متأسفة.

وأطفأت النور.

***

أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟!

على وَرق سيلوفان

من العربة هبطت. فاتنة هبطت. نعنش روحهـا الغزل الصـادر من عـابر سبيـل مسرع. دخلت الحـديقة. بتؤدة عبـرتهـا. . السـلالم راحت تصعـدهـا، سلمــة، وسكتـة، وسلمــة. في آخـر سلمــة، اضطربت. خائفة اضطربت.

ماذا لو عرف؟ ماذا لو كان طـول الوقت يعرف؟.

ولكن كيف يعرف؟ مستحيل أن يعرف. الهرم بعيد، و «الركن» الذي كانا فيه لا يقصده أحد في الصباح. سائحتان فقط كانتـا هناك، كيف يعرف؟

أمـام كشك الاستعـلامـات الـزجـاجي وقفت. المـوظف العجـور مشغول بمحادثة تليفونية. حدق نـاحيتها مـرة ولـم يرفـع عينه. كـانت تزيح عدسة النظارة السميكة وتتحسسسها مربعاً مربعاً. كل مسـاهمته في الحـديث أصبحت: أيـوه. . آه. . أيــوه. . آه. . فـرغ صبــرهـا وسألت. . وضع السماعة في الحال وانتبه. مـوجود؟ أيـوه موجـود. . دقيقة واحدة نسأل، دقيقة، سرحت.

الأبيض مستشر وكأنه وباء يبيض له كل شيء. الوجوه معظمها أيضاً شاحب أبيض. المرة الأولى التي جاءته هنا لا تكاد تذكرها، من سنين طويلة، عشر سنوات ربما. .

هذه ثاني مرة، ولولا ميعاد اليوم ما جاءت. المضحك أن الاقتراح كان اقتراحه سهل لها المهمة تماماً. مساكين هؤلاء الرجال ونواياهم الحسنة. أيستحق؟ بالطبع يستحق. ليس هناك رجل لا يستحق، حتى المحبون منهم زائفو العيون كذابون حتى وهم يحبون.

ابتلعت ريقها. لماذا يجف حلقها باستمرار هذا الصباح؟ لماذا جف حتى سعلت وهو يمسك بيدها ويضغط عليها بين يديه؟

انفعالها لحظتها لم يكن أنثوياً خالصاً. لا. كان هناك شيء آخر لا تعرف كنهه. وأتتها فكرة أن تجري. تسحب يدها وتظل تجري حتى تجد عربتها وتنطلق عائدة إلى البيت. البيت؟ يا لها من كلمة مضحكة.

الدكتور موجود في حجرة العمليات يا أفندم. مشغول. ولكنه ينتظرني. بلغوه أني جيت. مش ممكن. قولوا له المدام. المدام؟ سعادتك المدام؟ لماذا سعادتك؟ وماذايدهش في كونهاالمدام؟ لماذا الضجة والوقوف والترحيب المبالغ فيه وبصوت عال؟ لماذا تريد الانفراد بنفسها الآن؟ حلمها مكان قصي ليس فيه أحد. تنكفىء على نفسها فيه وتلقي على داخلها كله نظرة، لتدرك ـ فقط تدرك ـ كنه ما

حدث. وما يحدث. ما هذا الذي يحدث؟

يـا افندم، هـو يقوم بـإجراء عمليـة الآن فعلاً، ويبلغنـاه الخبر، وطلب أن تتفضلي وتنتظريه في استراحة العمليـات. يووه. تنتـظر.. تنتظر.. لقد عاشت طول عمرها تنتظر. ولا ثانيـة ستنتظر بعـد الآن. ولكن كيف تتصـرف واستصحـابـه والعـودة بـه إلى البيت هـو سبب خروجها الوحيد اليوم؟ كيف إذن تعود بمفردها؟ فلتكن آخر مرة تنتظر فيها، آخر مرة، هو أو غيره، آخر مرة.

تفضلي.. تفضلي من هنا. هذا الأرجـوازا لماذا لم يكـف عن الانحنـاء واختـلاس النـظر من تحت النظارة؟ إذن هي من جـديـد ستنتـظره. بحق بحق. هل تكـرهينه؟ هـل تحبين هـذا الآخـر؟ حين كنت تحبينه ماذا كنت تفعلين؟ هل تحسين بنفس المشاعـر الآن تجاه الآخـر؟ لـطيف شكله.. ريـاضي.. طـويـل.. شعـر صـدره كثيف كالفروة. عن عمد ـ وله حق ـ يفتح قميصه. أكبر منك بعام فقط بينما هـو أكبر بسبعـة أعوام. لمـاذا يطرأ هـذا الخاطـر السخيف؟ إذا فعلاً خيرت أن يموت أحدهما، فمن تختارين؟ هو؟ الآخر؟ يموت. هكذا بسهـولة. ابتسـامته العـذبـة تمـوت. ذقنـه الغـزيـز؟ غمـازتـاه؟ يـداه الضخمتان الحمراوان من باطنهما، الغامقتان من الظهر بالشعر؟ يـداه الضخمتان جداً إذا قورنتا بيديه هـو، القويتـان.. أصابعهمـا غليـظة سميكة، من الصعب ثنيها؟ أين هذا من يديه هو؟ يديه الصغيرتين إذا انطبقتا حتى لتبـدوان كزوج من الفيـران الصغيرة، وأصـابعه النحيفـة التي توشك أن تنكسر. من اليدين تتبدى شخصية الـرجل. شبـهِ كبير

بين شخصية الرجـل وشخصية سبـابته، سبـابته هـو في طول أصبعـه الأوسط، طـويلة رقيقة كـأنها من عـظم كسي بالجلد. سبـابـة الآخـر كماسورة المسدس، قوية دائماً تريد الشيء وتحـدده ولا تعود إلا به. لماذا إذن تختاره ليموت؟. ألأن الزوج هو الذي ينفق ويتيح الفساتين والمتعة والماس، أم لأن العشرة لا تهـون؟ أم لأنـك لا زلت تحبينه؟ هل لا زلت تحبينه؟ لا تخجلي! اعترفي إن كنت لا زلت. لو لم يكن هنـاك فمه الـواسع المتثـائب في الصباح، الجـريدة التي يغـرز بصره فيها، منظره ببنطلون البيجامة والبيجامة مفتوحة والسروال ظاهر، هذا التجشؤ منه بصوت عال بعد الماء الكثير الذي يشربـه! عشر سنـوات ومنـظره وهـو داخـل الحمـام وهــو خـارج منــه نفس المنـظر، نفس الـطريقـة، نفس الغيـاب الـطويـل. عشـر سنـوات تسمـع منـه نفس التعليقات عن نفس الأشياء وبنفس النبرات. عشر سنوات تعرف عنـه كـل شيء، كيف كان يعـامله أبوه، كيف دللتـه أمه، كيف أحب أول مرة، تعرف حتى ماذا يقوله في الساعة الخامسة غداً وبعد غد. لو دق الجرس من طريقته في الدق تعرف ما يريد، وتطلب من السفرجي أن يحضــره. البيت! لكم تكـره كــل ركن فيـه، فهي قــد رأتــه آلاف المرات.. موبيليته لـم تعد تراها من كثرة ما تعـودت رؤيتها، مـطبخه يخنقها، صوت أزيز الثلاجة من طول ما سمعته يلسعها ويؤرقها ويملأ جسدها بالشياطين. في التاسعة عشرة حين تزوجت كان الجنة. كـان هـو أعظم وأجمـل وأكرم وأرق رجـل في العـالم. الخمس السنـوات الأولى قضتهـا لا ترى رجـلاً غيره. الـرجال بـالنسبة لهـا لـم يكونـوا

افـراداً، لم تلحظ أيهم ذات مرة كـواحد وحـده، كـانـوا كتلة، أهم شيء فيها أنه ـ هو ـ منها.

***

اتفضلي حضرتك. دقـائق. حاجـة ساقعـة؟ قهوة؟ أنـا ماشي. حـاضر. متشكـر. استراحـة هذه أم قبـر؟ حاولت فتـح زجاج النـافذة الـوحيدة، لا يفتـح. جلست، تطلعت، مـلابس، بـدل رجـال. أين بدلته هو؟

هي المـطلة من الدولاب.. معلقـة بعناية شـديـدة كـالعـادة. الأحذية الطويلة الرقبة هذه. هذه الآثار. دماء؟ دم! بشع، جـزارين! قـامت. دارت. أمسكت بقميص عمليـات أبيض دمـور رخـيص. البنطلون دمور أيضـاً. أقذر دمـور. الأبيض. لماذا كـل شيء أبيض؟ حتى الأحذية الـطويلة كاوتش أبيض. ألا يملون هؤلاء الأطبـاء؟ هي ملت. الملل. أبشـع أنـواع الملل. الملل من شيء لا تستـطيـع الاستغناء عنه كأنما تمل من نفسك. عشر سنوات ملل. لن تبـالغ.. ساعات وأيـام صحيح كـانت خاليـة من الملل، ولكن يوم ملل واحـد يجعلك تمل من العام كله. إنه كالسم، أقل القليل منهُ يقتل. أيـكون هو الذي جعلها بدلاً من التجاهل تبتسم للآخر؟ كـان قد سبقهـا إلى العربة بعد جلسة استمرت ثلاث ساعات في النادي لم ينطق خـلالها إلا بثلاث كلمات. أين ذهب الكلام من فمه؟ ثاني أو ثالث مـرة ترى هذا الشاب يتابعها. هذه المرة تجرأ.. حياها. كان ممكناً أن تزجـره ولو بالاهمال.. لماذا ابتسمت؟ لماذا أحس أنها ابتسمت؟ حتى قبـل

أن ينـطق في التليفـون عـرفت أنـه هـو الآخـر، وأنـه اختـار الصبـاح ليحدثها حيث البيت خال. مغامرة؟ ولم لا؟ كل صـديقاتهـا يغامـرن. لماذا لا تجرب هي؟ المهم ألا يعـرف أحد. تصنـع الدهشـة لم يعد يجدي، ولا كذلك تصنع الغضب. انتهت المكالمة مفتوحة.

ثاني يوم، ثالث يوم، رابع يوم، كان صوته هناك. كـان الخوف أقل. التطلع لشيء مثير جديد أكثر. بماذا تجيبه لو طلب للمرة المائة أن يقابلها؟

وجـدت جـرسـاً. دقت عليـه. لم يحـدث شيء. دقت أكثـر. سمعت أقـداماً. ظهـرت على الباب ممرضة سمينـة جداً وصغيـرة في السن ربما لا تتجاوز السـابعة عشـرة. لا تعرف مـا قالتـه. فقط قالتـه بصـوت عـال جـداً شحب لـه وجـه الممـرضـة الملظلظ وانسحبت بسرعة. هدأت.. صفر خاطر مروع كالصرخة الأولى التي تنطلق في سكون الليل ونعرف بها أن ساكناً في الشارع مات لتـوه، كيف فعلت ما فعلت؟ كيف انساقت؟ كيف سقطت الملكة أيضـاً، ولم يعد أحـد أحسن من أحـد؟ خيانـة؟ لا، لم يحدث. كـلام مجرد كـلام. لقاء، كـأنه كـلام. والموعـد القـادم؟ لن أذهب. لا، ليست خيـانـة. كـل الخـائنات لا يعتـرفن. يفعلن أي شيء ويسمـونـه أي اسم إلا الاسم الحقيقي. كـرهتيه؟ اتـركيه. أليس هـذا ما كـانت ترده. الاشمئـزاز الذي كان يعتريه جسدها حين تتأكد أن صديقتها أو فلانة هي الأخرى قد سقطت. إن اشمئـزازها الآن من نفسهـا. لماذا هي بـاردة هكذا؟ أين تأنيب الضمير؟ لكأن شيئاً قط لم يحدث. فقدت حتى الاحساس

بـالذنب. أنـا لـم أجرم. . لـو تركتـه. . ولم أعد أحبـه. النتيجـة أني فقدت العقل! جنون. أنا مضطرة لإخفاء كل شيء لأن ضميري يـأبى عليّ تركه. يموت ما فعلته. اعترفي أنـه ادعاء للجنـون فأنت استـاذة في تعليق كـل شيء تفعلينه على شمــاعـة من خــطأ الآخـرين، أو خطئك. الجنون. الكـره. الضيق، حتى حب الاستطلاع، شمـاعة، مجرد شماعة.

عادت الممرضة السمينة. هبت واقفة. . ماذا يقـول؟ مرة ثـانية يرجوني. . أمـامه نصف سـاعة؟ ومـاذا أيضاً؟ مسكين والله. في قمـة مشغوليته يفكـر فيّ، يقترح أن أذهب لحجـرة العمليات لأتفـرج على العملية وأتسلى. يريد تسليتي ولو بحجـرة العمليات. هـل ممكن أن أذهب إلى هنـاك؟ ارتدي هـذه المريلة وهـذا الحـذاء وقنـاع؟ فقط. لا. . أشكـرك وأشكـره. أنــا لا أضمن نفسي. الجـراحــة تثيـرني. صحيـح هو جـراح أطفال مشهـور ولكني أنا أخـاف من نقـطة الـدم. أحسن أنتظر. طبعاً تنتظرين. . وحبذا لو تألمت وأنت تنتظرين. فأنت في الواقع تريدين أن تتـألمي، ويكون هـو بالـذات مبعث ألمك حتى تشعـري ببعض من راحة الضميـر. هـذا الـذي طـول الـوقت رابض داخلك يـراقب ولا يتكلم تريـدين رأيه وتخـافينه. ولهـذا تريـدين أن تتحـركي وتشغلي نفســك عن السؤال بــاستمـرار. السكــون مؤلم. الضمير يتكلم حين نسكت. الممرضة لم تبتعد كثيراً. ربما قـريباً من باب الحجرة تجلس. لابـد أنه هـو الذي طلب منهـا أن تسهـر على رعايتها. يدللني كثيراً. لو يكف عن تدليلي. لو يفعل شيئـاً يجرحني

ويغضبني ويجنني، حتى لا أحبه لأنه لا يفعل شيئاً أبداً. يا لهذا الاحتكاك الأليف الدائم! الرجل حين شيئاً فشيئاً تتساقط عنه مظاهر الرجولة واحدة بعد الأخرى، الهيبة التي تمضي وتذهب، الأسد وهو يتحول إلى جرو يؤثر السلامة ويقنع بوضع ذيله بين رجليه. بشع هذا الاحتكاك الدائم الأليف! المرأة المطلوبة المشتهاة التي لا يلقاها أحد إلا بميعاد واستعداد، حين تصبح بضاعة حاضرة في متناول كل ليلة وكل لحظة. بطاقة تموين عائلية تصرف في كل أسبوع مرة! الحب.. من رغبة متأججة إلى واجب كزيارات رد الزيارة، كالتعازي في المآتم والتهاني في الأفراح. لابد أن طول الاحتكاك هذا يجعل الرجل أقل رجولة، تعديه أنوثةالمرأة وتظل تؤنثه أكثر وأكثر، ولابد أنه هو الآخر يعديها برجولته فتسترجل أكثر وأكثر، ويكادان في النهاية أن يتقاربا ويصبحا بطول الزمن وكأنهما من نفس جنس آخر ثالث.

هل تترك نفسها تموت؟ هي تموت. هو يموت. كل شيء يبهت.. يموت ويبهت. حتى الألوان نفسها تتلاشى وتموت وتبهت ولا يبقى سوى ذلك اللون المستشري الواحد.. الأبيض، الأبيض. الأسود، هناك شيء أسود، حذاء أسود، حقيقة حذاء أسود، بين الدولاب والحائط محشور، طويل الرقبة ومحشور. قامت.. بيد ممتعضة أخرجته. لا دماء عليه. صغير هذا «البوت»، فلتجربه. خلعت حذاءها، أدخلت قدميها، ارتدته. أما من مرآة ترى نفسها فيها؟ فتحة الضلفة المواربة. وهنا مرآة أيضاً. لم يبد الحذاء بشعاً. طويلاً يصل إلى ما دون الركبة بقليل ولكنه جميل وغريب. تمشت،

استدارت. ادارت عنقها بقوة لترى كيف يبدو من الخلف. انتقل بصرها فجأة إلى المريلة البيضاء المعلقة ومنها إلى الحذاء. إلى المريلة! ومدت يدها، ارتدتها وفتحتها إلى الأمام كالبالطو. فطنت للخطأ، قلبتها، أمسكت بالفتحة من الخلف وضمتها بيدها بشدة، ظهر وسطها، نفر صدرها رغم صدر المريلة الواسع. إلى اليمين واليسار خطت. أصبح منظرها في المريلة والبوت أهم ما يشغلها. حزام.. تريد حزاماً.. اسمعي يا! جاءت اليا. الحزام رباط شاش. عقدت لها الحزام. الرباط عريض، منظره كحزام رائع. ثبتت المريلة بزرار من أسفل الرقبة. برز صدرها أكثر. أجيب «الماسك»؟ نعم، هاتي القناع، والله فكرة. غابت ثانية، عادت، حاولت ارتداءه بمفردها، لم تعرف.. تركت البنت تفعل. نظرت في المرآة فجأة. يا للروعة! عيناها مدهشتان من خلال فتحة القناع كأنها لأول مرة تراهما. شكلها طبيبة، طبيبة رائعة الجمال. لا فرق! حلمت يوماً أن تكون طبيبة، فشل الحلم، ربما لهذا الشبب فضلته. يجنن هذا الزي، يجنن. حضرتك ح تروحي أوضة العمليات؟ أنا؟ توقفت. تذهب؟ أنا بخاف م الدم. مفيش دم أبداً دي حاجة نضيفة خالص. تذهب؟ ترى ماذا يقول وهو يراها هكذا؟ لم يتمالك نفسه، سيجن. كلما ارتدت شيئاً جديداً رغم ثقتها من امتعاضه الباطن. ففي الظاهر يجن ويطري ذوقها، وأحياناً لا يتمالك نفسه نفاقاً ويقبلها. حتى النفاق أنا في حاجة اليه. أذهب. بجوارها تمضي السمينة، يدها اليمنى مدلاة، فيها دبلة. حتى هذه الأخرى مخطوبة! الزواج لا

يصلح إلا للحمقى والمفلسين فهـو قلة حيلة. لمثل هـذه البنت نعمة فهي بغيره حتماً الخاسرة. لمثلي أنا جنون. الـرجال تحت أقـدامي، في متنـاول أصبعي وحسبما أريـد. هو أيضـاً جـراح مشهـور، ورغم جسـده القصير النحيـل وسيم. وألف مريضـة وألف حكيمـة وقـريبـة وزائـرة وبنت عـائلة يتمنينـه. ليتـه في مـوقفي. على الأقـل أستمتـع بكوني المظلومة. أجد مبـرراً كي أبكي وأشكو وأخـون أنا الأخـرى. ولكنـه دائمـاً يفعـل الصـواب، حتى اطـراء النسـاء لـه يعيـده أمـامي ليغيظني أو يبتعث غيرتي. . ليته! إنما بدافع من ارضاء ضميره. ربما لو كان صوته مختلفاً، لو كان أكثر خشونة، لو كان أطـول أو أضخم، أخبث حتى، لو يضحك عليّ مـرة، لو يشككني فيـه لحظة، لـو كان «مدردحاً» مثل أيام زمـان. . الأيام التي ذهبت ولم يعـد لي من عمل إلا التحسر عليها، بينما الحاضر ينزلق. . بسـرعة مخيفـة ينزلق. في العـام القادم ستكـون أكبر بعـام جديـد! ستنتقص أنوثتي بمقـدار عام كامل. الزمن يتسرب ويحول الحاضر إلى ماضٍ، ويلتهم المستقبل. وأنا لم أعش. ما كـدت أبداً أرى وأتلفت حـولي وأعي أني فتاة حتى قابلته. بهرني، خلب لبي، الأحلام ازدحمت في عقلي، على الفـور استجبت. . المقاومة كانت عبثاً.

كـانت الاستجابـة حلمي. الآن أحلم بأشيـاء أخرى، أحلم أن أقابل الآخر، أحبه، وليكن الخطأ خطئي أو خـطأه أو خطأ الاحتكـاك الممـل المستمر أو العمـر الذي يجـري. غير مهم، المهـم أن أعيش أولاً، أولاً أعيش، يعود قلبي يدق، أعـود أهيم وأسرح! أحس أن لي

شيئاً خاصاً، سراً حبيباً، أكتمه، أخاف أن يعرفه أحد. أعـود أكذب، أختلق الحجج والمناسبات، أنتظر، أستمتع أني على الجمر أنتـظر. لأعش أولاً، وليحرقوني بعد هذا ساعة الحسـاب فأنـا لا أعيش.. لا أعيش.

***

تفضلي! مؤدبـون جـداً هؤلاء النـاس. أدب القـرود لا بـد. ستنتظرني هنا، فالدخول بالنسبـة اليها محرم. أأدخل وحـدي؟ وماذا فيهـا؟ الدكتـور هـو اللي أمـر، ومـا دام أمـر مين يقـول لأ. أتنـافقهـا بالتضخيم في منزلته؟ دخلت.

للحظة ضاعت. أين تنظر؟ كان مفـروضاً أن يكـون على الباب ينتظرها. فتشت، الغرفة واسعة جداً تصلح صـالوناً لسراي، أو صـالة معيشـة كبيرة مـدهشة. في الـركن الأقصى هناك كميـة أبيض كثير لا تخطئه العين، متجسدة على هيئة أشباح بيضاء كثيرة. داخل الأشبـاح منضدة ملحق بها أجهزة كثيرة خضـراء وبنية، ومن طـرفها يـطل رأس أسود صغير مغطى بالشعر.. رأس طفل لابد. يا للبشـاعة! أكـل هذا التجمـع ينهش في لحم ذلك الـطفل؟ الجـو قابض قـاتل، الـرائحـة خانقة لا تحتمل، رائحة ماذا؟ فينيك؟ يوسول؟ أحماض لا تعرف لها أسماء؟ أم صبغة يود؟ أم هذا كله معـاً؟ أم هي بالـذات رائحة اللون الأبيض؟ يـا لبشاعتـه حين يتحـول إلى رائحـة! لمـاذا لم ينتبـه أحـد لدخولها؟ لماذا هم متزاحمون حول الصبي المسكين، صامتـون ذلك الصمت المستمر المريب، وكأن مؤامرة تدور؟

بـدوار قليـل بـدأت تحس. أتخـرج؟ أتصـرف النـظر عن المفاجأة.. مفاجأته؟ ولكن مفاجأته مهمة، ستستغرقه تماماً وتستغرق أسئلتـه ولن يلتفت أبداً إلى مغـادرتها البيت مـن سـاعتين مضتا، فلو حتى عن طريق الخطأ سألها لانهارت وقالت كل شيء. إنها لم تتعود أن تكذب. لا عودة إذن، فلتستمر.

انتظرت.. نط عقرب الـدقائق في السـاعة المثبتـة في الحائط عدة مـرات. كل مرة بدقة لها دوي وسط بحر السكون الشامل. لابد أن هنـاك خـطأ مـا. المجمـوعـة واقفـة كمـا كـانت وكـأنهم صـورة فـوتوغـرافية لم يتغيـر فيها وضـع ولا يتحرك داخلهـا أحد. لم يلتفت واحد إلى الباب وهو يفتح، ولا ناحيتها، ولهـا زمـن تنتظر ومـا ألقى أحدهم بنظرة. ماذا تفعل الآن؟ إنها تريده أن يراها عن بعد فمنـظرها بالمريلة و «البوت» عن بعد أفضل، وشيء فيها صغير لا يزال يحـاول أن يأسره، رغم كل شيء لا يزال فيها شيء يحاول أن يـأسـره. كيف تلفت بصره والصمت لا يجرؤ شيء ولا مخلوق على خدشه؟ صمت يبدو كصمت الصلاة خـدشه حـرام. تسير؟ خـطواتها حتمـاً ستجذب الانتبـاه. سارت.. بـلا صـوت سـارت رغم محـاولاتهـا أن تحـدث بسيرها صوتاً. قـطعت أكثر من نصف المسـافة.. لا صـوت. البوت اللعين مـن المطاط والأرض مطاطيـة لعينة هي الأخـرى. مهما دقت وخبطت فلا صوت.

قطعاً حين تصل سيفسحون لها مكانـاً، لتختر حينـذاك المكان المـواجه لـه مباشـرة. وصلت. حتى التومـرجي الذي يـروح ويحمل

أشياء وينقلها ويعود بأخرى لم يلق ناحيتها نظرة. لا بد حسبوها طبيبة لا تستدعي التحقق أو تلفت الانتباه. قريباً من طرف المنضدة وقفت. عيونها تتفحص الواقفين من خلال فتحات أقنعتهم. لا عين من عيونهم أخطأت ورنت بنظرة. تنحنحت أيضاً. كأن شيئاً لم يحدث. أين هو فيهم؟ لا أحد من الموجودين جميعاً يشبهه، فأين هو؟ أيكون هذا الواقف في الوسط منهمكاً في شيء أمامه؟ بالضبط هو. رغم الطاقية ذات الحافة والقناع، فقد عرفته من أذنيه. هو ذا إذن، والباقون حوله لا حراك. مدت يدها تعدل المريلة وتضبط فتحة القناع، استعداداً للحظة التي يرفع رأسه المنحني فيها ويقع عليها بصره. قطعاً سيهلل للمفاجأة حتى لو كان هنا، فهو يلقاها دائماً بترحاب من لم يرها من عام.. حتى لو كان غادرها من ساعة. الدقائق تمضي ولا ينظر، لا يحرك عيناً عن البقعة المثبتة عليها عيناه. تنحنحت مرة أخرى. غمغمة.. سمعت غمغمة لا مجاملة فيها: اللي عايز يكح يمشي يطلع بره يكح. صوت من هذا؟ أيكون صوته؟ ألم تعرفه لأنه منحن ويتحدث من خلف قناع؟ أم لأن هناك شيئاً آخر.. بالتأكيد ثمة شيء آخر. يا.. وجدت نفسها تهتف. كانت تظن أنه ما أن تفتح فمها حتى تستدير الأعين كلها لتراها. حين لم يتحرك أحد.. حين ظل الصمت ثقيلاً رابضاً لزجاً حتى لتكاد إذا مددت يدك تلمسه، خانتها شجاعتها. لم تكمل النداء، سكتت، تبلدت ملامحها وسكتت. أتراه عرف؟ أيكون التجاهل عن عمد؟ لو فقط يكف هذا الصوت المنتظم، لو تكف الحشرجة.. حشرجة لها وقع كأنها حنجرة ذات جسد يزحف على أربع، وبين كل نقلة لساق

من سيقانها ونقلة وقفة، وتعود تـزحف. الرائحـة القابضـة تجثم على الصدر توقف حركته، تمسك الهواء أن يـدخله، وتمنعه أن يخـرج. ماذا أتى بها؟ مالي ولحجرة العمليات التي يدوشوننا بها في سهراتهم هؤلاء الأطباء والجراحون؟ هذا هو العالم الذي يقضون فيه ساعة إذن ويجعجعون بما حدث فيه ألف ساعة. لها حق إذا كانت تكـره العمل وحديث العمل، هي وكـل صديقـاتها. مـا يكاد الـرجال يبـدؤون فيه حتى تكون البدايـة اشارة البـدء لهن. الحلقة تتكـون وبسرعـة مذهلة تتفاهم. من يراهن لأول مـرة يحسبهن شقيقات معـاً نشأن، وبعضهن لم يعـرف الآخر إلا من لحـظة. قبيلة الإنـاث تتجمـع، شفـرة النـوع الـواحد بينهم كـالسحر تسـري، متـراثيـات متحـاسـدات متـذاكيـات متغابيات، أبداً لا يختلفن، ولا صوت لهن يرتفع. بالعكس كل دقيقة أخرى ينخفض الصوت ويصبح التفاهم أشمل، وبالأزياء كمـوضـوع لجس النبض يبـدأ الحديث، وينخفض وهـو ينتقل إلى فـلانـة وكيف تلبس وفلان وكيف يلبس فلانة؟ وينخفض الحديث أكثـر اذ لابد قـد وصـل الاتفاق حـد النـميمة وتبـادل آخـر أخبـار الفضـائـح، وينتهين بحـديث لابد يخـدش الحيـاء ولهـذا يقلنـه همـسـاً. ويـظل الهمس المتـوافق المنسجم يخفت ويخفت حتى يستحيـل الـحـديث إلـى اشارات وغمزات وقد أصبح التفاهم تاماً وكاملاً، بينما الـرجال العبط قد أخذتهم الحماسة، ودب بينهم في الحـال مهما كـانوا أصـدقاء أو أقارب الخلاف، وبالاختلاف والزعيق ينتقلون من العمل إلى مشـاكل العمل، إلى السياسة بالطبع، إلى الخناق. فلابد أن لأحدهم رأياً يخالفه فيه الآخر بشدة، ويأبى تمـاتمـاً الانتقـال إلى موضـوع آخر، ولا بد أن

تضيع الليلة وكل منهم يحاول افهام الثاني أنه الأذكى والأصح. العمل! زمان كانت تغار منه، تعتبره كالزوجة الأولى صاحبة النصيب الأكبر. تحول مجرى الحديث إذا حاول هو جرها اليه. وكيف لا تحوله ومعنى اشتراكها فيه اعتراف بشرعية «الضرة» وحقها في ساعاتها هي؟ الساعات التي يقضيها معها في البيت والمفروض أن تكون خالصة لها. كثيراً ما سمعت الثناء عليه حتى من حساده.. عن شطارته، عن نبوغه، تبتسم مجاملة وقد تعلق بكلمة. إنها في أعماقها كانت تتمنى لو لم يكن له بالمرة عمل، لتصبح هي عمله الوحيد الأوحد. ولكن هذا كان أيام الحب زمان. في السنين الأخيرة لم تعد تغار، بل أصبحت تشجعه على العمل أكثر. العمل أكثر يعني دخلاً أكثر. النقود أهم وليس مهماً كيف يأتي بها.

فجأة شعرت بغربة. هنا لا مكان لها. شيء في صدرها كالروح المختنقة يرفرف. شتان بينها الآن وبينها من ساعة مضت حين كانت حواسها تتدغدغ تحت وقع حديث الآخر الرخيم المتعمد البطء. عما فعلت به، عن عيونها حدثها، عن جلدها ونعومته طال حديثه، عن رقبتها، عن.. عن شفتيها، عن شعرها المنساب انسابت كلماته، عن قوامها وجسدها وعذوبة روحها والرجل السعيد الحظ الذي يملك هذا كله مضى يتكلم، وهي تقشعر لوقع كلماته. وربما لهذا بدأ يتصاعد بحديثه خطوات أخرى.. ألفاظه بدأت تتعرى، لمساته طالت، الجرأة في عينيه بدأت.. بدأت تشع وقاحة. خدودها هي أيضاً بدأت تلتهب ونبضها يسرع. الخوف، الخوف بلا سبب،

راح كالشهب يتساقط ويغور في صدرها ويصنع حفرة بالغة العمق لا قاع لها. مرعوبة صارت ولم تعد تحتمل. الآن تذهب، في الحقيقة تهرب.

جسدها يسخن لمجرد أنها تتذكر. هو لايزال لم يلتفت، يتركها هكذا صامتة ساكتة. الشيطان يتحرك حين نسكت. لو ظلت هكذا ساكنة ساكتة فلن يكون لتفكيرها حد. ستسبح كما يهوى الشيطان ويريد. ستندم على المقاومة التي ظل جسدها يبديها لكلمات الآخر ولمساته، ستضيق بهذا الصوت الذي يهتف لها.. لا،لا، لايمكن، مستحيل، الموت أهون. لماذا لم تستسلم كاملة للحظة المتعة؟ لماذا حتى بكلماته بدأت تضيق؟ للمساته تقشعر انكماشاً ورفضاً؟ بالموضوع كله تستسخفه وتنفر منه؟

تحركت.. اقتربت من الرأس الأسود المسجى وعلى فمه وأنفه قناع التخدير المتصل بالجهاز. رئة الجهاز صغيرة كرئة الصبي. الولد قمحي، شعره غامق السواد لامعه، ملامحه نائمة. صعب عليها! هو ذا الصبي إذن الذي استمر حديثه عنه وعن رئته ساعة وهي تتثاءب ولا تفقه من حديثه حرفاً، غير مهتمة أبداً أن تعرف. كلمات تطن في أذنها عائدة.. أخطر عملية، الأولى في الشرق. لا مناص، لو لم أقم بها مات. هو الآن يفعلها. ماذا بالضبط يفعل لا تجرؤ على النظر.. إلى مستوى عينيها فقط نظرت.. سيدة هي لا تشك، الواقفة بجواره تناوله الآلات قبل أن يطلبها، سيدة.. صغيرة في السن ولكن يا لذكائها! تتابع ما يفعله وقبل أن ينطق تكون قد

استعدت بالآلة التالية. غريبة هذه الآلات، معقدة! يبدو أن الجراحة ليست مجرد مشرط وملقط.. شيئاً فشيئاً تخفض رأسها إلى أسفل. لا دم! إلى أكثر.. لادم! مرة أخرى. لاشيء! قطعة قماش مبللة بسائل باهت كماء البطيخ.. ولا شيء! لا، إنهما قطعتان بينهما فاصل كالخندق المحمر، أيكون هو الجرح؟ أجرح بلا دم؟ نظيف كأنه مبطن بجلد داخلي؟ كم تخدعنا الكلمات! على أية حال لم يخرج عن حدود الأدب.. احترمني وقدر شعوري، وربما إذا لم أره طعنني في ظهري! كسبه أحسن. أروضه حتى يذهب بريق الرغبة في عينينه.. ويحل بريق الهيام. قادرة أنا، وليكن اختباراً لمقدرتي.. وعلى أسوأ فرض لو حدث شيء رغماً عنا.. أو رغماً عني! فسيكون درساً أول وأخيراً لا أطمئن بعده لأحد.. حتماً سأعرف. وجهه صريح يظهر رغباته، وبمجرد أن يفكر سأعرف، وفي الوقت المناسب.. أهرب. وإلى أن يحدث أنا أتسلى، أقطع الوقت، أحيي قلباً لم يعد ينبض.. فلأتسل. لماذ ببطء ببطء يعمل؟ له ساعة وهو يدخل أصبعين في الخندق ويرفع الرأس إلى أعلى ويتحسس شيئاً في الداخل. يا لطول باله! يمرضني طول باله! وهو يخلع ملابسه، قطعة قطعة يساويها ويعلقها ويظل دهراً يجيء ويروح، ويروح ويجيء حتى من الغيظ أنام، وما أكاد أفعل حتى أشعر به يسحب الغطاء ويمد يداً ناحيتي أبادر بدفعها.. من لحظات وبلكاعته ذهبت رغبتي. أنا الآن جثة. أصرخ. جثة.. يرضى بالجثة. ما إن أصير أحيا وينتفض فيّ دم طال عليه الركود حتى يكون هو قد أفلس. لم

يكن أبداً كذلك. معاً كنا دائماً. الآن افترقنا. أنا افترقت. هو باق لا شك.

ـ عرق . .

دوى الصوت، انتفضت، لم تفهم . . في آخر لمحة أدركت أنه صوته . . لابد صوته . . ما هذا العرق؟ آلة جديدة؟ تعبير طبي؟ بدأت تفهم. «السستر» بجواره تختار شاشاً مطبقاً بعناية من مجموعات الشاش بجوارها. دون أن يحرك وجهه أو يستدير تتخلع هي «السستر» وبكل دقة وحرص حتى لا تلمس بأصابعها جبهته تجفف عرقه. عيناه لا تريان أو تشعران بما تفعله، كأنه لأول مرة يعرق . . في البيت لم تره أبداً يعرق. دائماً هو مستريح جداً، مثقل الجفون تماماً، لا يتحرك من مكان لآخر إلا بدافع حياة أو موت. كيف تطيع هذه المرأة بجواره أمراً يصدر بهذه الطريقة الحادة الباترة، كالسبة، وحتى من غير «من فضلك»؟ لو كانت هي اصدر لها أمراً بهذه اللهجة لصفعته. إنه اهانة وليس أمراً. الغريب هو صوته، رفيع كما تعرفه، لا يرن كصوت الرجال ولكن فيه أشياء أبداً لم تكن فيه.

ـ امسك كويس . . إذا فلتت ح أحط المشرط في عينك.

قال هذا وصوب عينيه أمامه مباشرة إلى حيث المساعد. عينان رأتهما بزاوية ولكن حتى نظرته من الجانب تبدو مختلفة. مائة في المائة ليست نظرته. هذه تملكها شخصية طاغية آسرة لا تملك إلا طاعتها. نظرة كأنها لرسول مؤمن برسالته إلى حد الجنون والبطش،

مليئـة بالثقة وكأنها تصدر عن فيض من امتلاء النفس بالثقة . . إن لها شهراً وأكثر لم تر عينيه ولم تحس أن له نظرة . نظراته دائماً كقطة أليفة تتبعهـا ، توجههـا حيث تشاء . . من خـلال عينيهـا يـرى . عينـاه حين تـواجهها دائمـاً مـا تكـون البـادئـة بـالانسحـاب وقصـر الشـر . نـظرة تشفق على مـا تحفل بـه من مسكنـة دائمـة ، وكـأنـه الـطفـل يـذوب باستمرار ، وباستمرار يطلب الغفران .

لابد أنه يمثل أمامها ، يريد اغاظتها . هنا مملكته وعبيده وهنا لا بأس من مزاولة سلطان مؤقت أمامها . ولكن كيف عرف أنها أصبحت بالحجرة ، ومذ دخلت لم يرفـع عينه عن مكـان العملية ولا همس في أذنه أحد أو أخبره؟

لا هو ، ولا الموجودون جميعاً ، لا أحد شعر أو يشعـر بها . هم في ملكوت آخر ، هم قد امتصهم شيء مذهل محير ألهاهم حتى عن أنفسهم وعن الزمان والمكـان . . وأيضاً عن الآخـرين . ما هـذا الذي يدور؟ هي لا ترى شيئـاً ، لا ترى إلا أصـابعه وهي غـادية رائحـة من الجـرح . . إلى الآلات . . إلى الجرح . لا شيء هنـاك سوى أصـابـع تتحرك في قفازها المطاطي ، أصابع طويلة نحيفة مركبة في يـد ملساء صغيـرة تعرفهـا أيضاً . مـا هذا المعجز فيهـا الـذي يمتص وعي هؤلاء الناس وانتباههم ، كمـا لو كـان أعظم عـازف كمان في العـالم يعزف والأنفاس معلقة بأنامله؟

ـ لا . . قلنا إبرة أرفع .

وطار ملقط مركبة فيه ابرة فوق الرؤوس، وسقط على الأرض غير بعيد عنها. دق قلبها في عنف.. من الشخطة قبل أن يدق من السقطة.

ماذا حدث له؟ لم تره هكذا أبداً. إن شخطه مرعب.. على الأقل يرعبها. إنها لا تخاف من الرجال إلا شخطاتهم فقد عاشت طول عمرها مدللة ملفوفة بورق سيلوفان، يتناولونها بحرص، وبحرص بالغ يربونها ويعلمونها.. ويعاملونها. وما عليها إلا أن ترغب وليس أمامهم سوى اجابة الرغبة.. لم يقل لها أحد في حياتها.. لا.. لم يشخط فيها أحد.. حتى هو، كانت الرقة تذوب من صوته إذا تحدث اليها. لماذا يشخط الآن هذا الشخط المرعب.. الشخط الذي يجعلها تحس بالذعر، وبأنه رجل آخر غريب تهابه، تحس أمامه أنها فعلاً امرأة ضعيفة خائفة؟ ما هذا الاهتمام الصارم المركز على وجهه؟ لم تشهده حتى وهي تناقش معه أخطر ما دار في حياتهما أو يدور؟ وما هذا الاهتمام العظيم الذي يبديه الآخرون بأصابعه.. أصابعه الدقيقة ويده الصغيرة التي تشبه الفأر؟ لا يمكن أبداً أن تكون هذه أصابعه. إنها يد وأصابع مختلفة تماماً. هذه كائنات رفيعة طويلة أخرى بالغة الحذق والنشاط تلتف على بعضها البعض، تستدير، تنحني، تلتقط، تلضم، تخيط، تمسك، تجفف، تتفرق، تتجمع، تتحسس، تتداخل، تندس، الآلات في قبضتها تتحول كائنات حية، وكأن أصابعه تتشكل على هيئة الآت. لا يمكن أن تكون هي نفس الأصابع التي ما رأتها إلا

مسترخية، أو مغطية فمه المتثائب، أو حتى إذا نشطت فإنما تنشط لتعبث ـ في أحيان نادرة ـ بشعرها هي، وكأنما تؤدي واجباً مدرسياً، أو لتضغط على أذنها وكأنما لتقرصها حيث لا تدري ماذا غير هذا بوسعها أن تعمل. بالتأكيد ليست هي أبداً الأصابع التي تعرفها ويثير مرآها بعض اشمئزازها. . هذه أصابع تتعلق بها الأنفاس ولابد أنها تقوم بأخطر عمل. . فالصمت المخيم ليس صمت مؤامرة أو ضجر. إنه صمت الترقب الأعظم وكأن في الحجرة تدور مغامرة كبرى، الخطأ الصغير فيها قد يكلف حياة. من المحتم أن الصمت المقدس هذا يخيم على معجزة تحدث، وهو الذي يقوم أمامهم وأمامها بالمعجزة، وهو «بتاعها». أهو «بتاعها» لا يزال؟ هذه النظرة المحددة الثاقبة التي تنفذ في أعماق مساعديه ومن حوله من الرجال فتهز أعماقهم، هذا العرق الغريب الذي يبدو لفرط نظافته معقماً طاهراً، هذا الوجه الذي لم يستطع حتى القناع الشامل أن يخفي الشخصية الطاغية التي تملكه، هذه الملامح التي يسيطر عليها تماماً، المحددة متى وكيف تتحرك، هذا «هو» لم تره أبداً، «هو» آخر لا يمت اليها. . هو مخيف، مرعب، ذكر. رجل يمثل ما لم تحس به كرجل وهو في قمة مزاولته للرجولة معها. أمامه وعن عمد تضع الآخر في مواجهته، بشعر صدره، بيديه الكبيرتين، بذقنه الغزير، بقامته. غير معقول هذا أبداً غير معقول! إنه يتضاءل، إنه يصبح أقل شباباً وأهمية. كل ما فيه من مزايا وخصال تذوب وتتلاشى كفقاعات من صابون أمام هذه الارادة الحديدية التى لا تقهر، والتي تنبعث منه هو

وتـأمر الحيـاة في أعماق الطفل المـريض أن يستيقظ، أن تنشط، أن تبـدأ وتستمر وتـظل حية مستمـرة. كادت تبكي . . لم يتضـاءل الآخـر وحـده، هي نفسها بـدأت بكـل رغبـاتهـا وغيـظهـا، بكـل أحـلامهـا وضيقها، بكل دلالهـا وأنوثتهـا تتضاءل . . تتضـاءل، وهو يكبـر ويكبر وتحيطه هالة مقدسة لا تجرؤ على خدشها حتى بـالنظر، هـالة الـرجل وهو يعمل، هالة لم ترها أبداً، وما كان مقدراً أن تراها لـولا الحجة. والمضحك أنها حجة لخداعـه . . الدمـوع تجمعت فعلاً في عينيهـا. إن كل ما تتمناه الآن أن يحادثها هذا الرجل المقدس أن يعترف أمـام النـاس أنها لـه زوجته، وأنـه لمروع أن يعتـرف بهـا فعـلاً كحبيبتـه. غفرانك وعفوك! لو تسمح لي بتقبيل يـديك الصغيـرتين وكل أصـابع من أصابعك! لو تسمح لي بتقبيل أقدامك! يا الهي وأنت الاله الآن. انحنت فعلاً ونظرت أسفل المنضدة تـريد أن تـرى قدميـه، تريـد أن تـرى كل شيء فيـه من جديـد. عرفتهمـا . . رغم «البـوت» والـرقبـة الطويلة فهذة العزيزة أقـدامه. اعتـدلت، أحست بالقنـاع مبتلاً حـول أنفها وفمها، كانت الدموع تتكون بسرعة وتنهمر، وكان بصرها مضبباً ولم تعد ترى وكأنها في حلم من ضباب، رأت الباب وأسرعت وكأنما تنقذ نفسها. وعند الباب وقفت، ومن خلال فتحته الـزجاجيـة راحت تجفف دموعها وتكمل النظر . . يـا لصوتـه وهو حتى يـأتيها غيـر آمر، وهو يشرح لـزملائـه ما يفعله. كـل كلمة منـه تستثيرهـا وكأنهـا لمسة حبيب راغب . . حتى سكوته مثير وهائـل. في حنجرتـه زئير رجـال، في حنجرته أسد هي أمامـه غزال لا حـول لها، والحجـرة غابـة، ولو

بحاجبه . . بمجرد حاجبه أشار، لطاوعته في الحال هنا وأمام الملأ .

انتهت العملية وبدأت اجراءات حمل الطفل. أزاح قناعه إلى أسفل وخلع قفازيه، كذلك فعل مساعدوه وزملاؤه وهم يحضرون اليه يصافحونه ويهنئونه. وجهه حافل بابتسامة لا حدود لسحرها. ثم من أين جاء هذا الاكتفاء، هذه السعادة كلها . . كيف طفرت من ملامحه؟ سعادة أكثر بكثير من أيه ليلة حب قضياها معاً، حتى وهما في شهر العسل؟

وأحست، فجأة، أن قلبها بدأ يغوص.

أكبَر الكبَائر

لا يخيفنكم الاسم فالقصة* نفسها تميت من الضحك، ولو أن محمد حسين حين يرويها لا يضحك أبداً، ولا يرى فيها ما يبعث حتى على الابتسام. بالعكس، يتهدج صوته كثيراً حتى يكاد يبكي وفي أحيان يسأل السامع، إن كان السامع من العارفين أو المتنورين، سؤال المستغيث، أن كل ما فعله وما يزال يفعله حراماً، وهل ممكن أن يدخل النار بسببه؟ وحقيقة كان محمد يفاجأ حين يجد السامعين يضحكون، ويغرقون في الضحك، ولا يكفون إلى الآن عنه.. محمد من هؤلاء الفلاحين الذين يطلق عليهم نساء القرية «الجدعان» لا من الجدعنة، ولكن من حداثة السن والعزوبية وخلو البال.

(*) «لهذه القصة قصة، لقد كتبتها ونشرت بجريدة الجمهورية في أغسطس ١٩٦٣ ولكني نسيت أني كتبتها فلم تضمها مجموعة آخر الدنيا أو لغة الآي آي أو النداهة، ولولا الصديق الناقد صبري حافظ وسؤاله مؤخراً عنها وعن سبب اهمالي لها ما تذكرتها، ولولا الصديق الناقد عبد الرحمن أبو عوف وأرشيفه الكامل لوجدت صعوبة شديدة في العثور عليها إذ حتى كنت قد نسيت العام الذي كتبتها فيه، فإليهما وبكل العرفان أهديها.

ولكنه جدع ولا يلبس جلباباً من السكروتة، وعمره ما جلس على قهوة، ولا ذهب أبداً إلى البندر. . فلاح من هؤلاء الفلاحين الذين حملوا عبء اخضرار بلادنا لسبعة الآف عام أو تزيد، فهو مهما اشتغل في الغيط لا يتعب، ومهما نام لا يستريح، ومهما أكل لا يشبع، وأبداً لم يرتد في حياته جلباباً، فهو دائماً بلباسه وفانلته وفوق الفانلة صديرى لم يحل لونه فقط، ولكن انمحى «وجهه» اللامع تماماً وبقي على البطانة الدمور، والفانلة متآكلة مثقوبة في أكثر من موضع، واللباس به رقعة غير جيدة الصنع فقد صنعتها له أمه، وأمه نظرها ضعيف وتزهق من لضم الابرة.

ولكن محمد على أية حال شاب في الثامنة عشرة وإن كان يبدو في الثامنة والثلاثين، وله أيضاً كل نزوات الشباب، بل ويعرف البصبصة، ويغني أحياناً، ويلقح بالكلام على البنات إذا عملن معه في الحقل أو ضمته واياهن ماكينة الطحين. ولكن تجاربه في الحقيقة بدأت مع الحيوانات، كل الحيوانات من الماعز إلى الأبقار والجواميس، وانتهت إلى المشهورات جداً من النساء، أولئك اللائي يقعن بمجرد وقوع النظر، بل أحياناً بالسمع . . ولم يكن أبداً في حياته يحلم بما حدث، بله أن يحدث في يوم صيف حار كافر كهذا اليوم، قضى كل صبحه يجري خلف حمار «القنادلة» الذين يعمل عندهم، حاملاً نقلات السباخ إلى الغيط البعيد، وقد أتم الثلاثين نقلة أي ما يوازي بلغتنا نحن الستين كيلو متراً قطع نصفها جرياً وراء الحمار، ونصفها الآخر راكباً اياه تكاد سلسلته الظهرية العجفاء

البـارزة تقسمـه إلى نصفين، ركـوبـة أسهـل منهـا بكثيـر الجـري أو السحل. . في ذلك اليوم عطش واستبد به العـطش إلى درجة أصبـح يحلم فيها بالماء، ومن شدة ظمئه نفى من خاطـره أن يشرب من بيت القنادلة، فالماء لـديهم يحتفظون بـه في البلاليص وهـو دائماً سـاخن ودائمـاً فيـه عكـار. الشـربـة الحقيقيـة لا تكـون إلا من بيت الشيـخ صديق، ومن زير أم جاد المولى النـظيف ومائهـا البارد المقـطر الذي تضـع فوق فتحـة زلعته شـاشة بيضـاء تمنـع الـواغش والغبـار، ويـرد منظرها الروح. هكذا صمم محمد وهو يلكز الحمار الكسـول وينخره ليسرع به إلى أول البيوت حيث بيت أم جاد المولى.

وما يكاد يطل من الباب وتتعود عيناه رؤية ما يغلفه شبه الـظلام في الداخل حتى تسمر محمد في وقفته خجلاً واحتراماً وأدبـاً. . فقد وجـد أم جاد المـولى تصلي وبالـذات تركـع، وقد أعـرض جسـدهـا بطريقة لم يملك معها محمد إلا أن يقف خجلاً واحترامـاً وأدباً. ولم تطل الصلاة فسرعان ما جاءت التحيات، وحين التفتت بوجهها لتسلم زادت من التفاتتها لترى من الواقف. وعافى عليها محمـد وسألهـا إن كانت تسمح له بشربة ماء؟ وهزت أم جاد المـولى رأسها مـوافقة دون أن تنطق بحرف واحد فقد كـانت تتمتم بختام الصـلاة. وأشارت إلى الزير الذي كان محمد من فوره قد توجه اليه وأمال الزلعة وملأ الكـوز وشـرب. . شـرب كـوزين، وارتـوى. أحس بجسـده يلهث من فـرط الـري والاكتفاء، وأحس أنـه مـدين لأم جـاد المـولى أو كمـا تعـودوا تسميتهـا الشيخة «صـابحة» لا لأنهـا زوجـة الشيـخ صـديق ولا لأنهـا

تصلي وتداوم على الصلاة ولا تسلم عليك مرة إلا وقد أحاطت يـدها بثوبها حتى لا تنقض الوضوء،ولكن لأنهادوناً عن النساء جميعاً كانت تفضل أن تلف رأسها بطرحة بيضاء. أحس أنه مدين للشيخة صابحة بدين كبير حاول أن يرد بعضه، فسألها وهو في طريقه إلى الباب إن كان باستطاعته أن يؤدي لها خدمة؟ وقالت الشيخة أم جاد: كتر خيرك يا خويا.. كتر ألف خيرك.

وكاد يدلف مسرعاً إلى الخارج ليلحق بالحمار الذي تركه ومضى، حين سمع كلمة: بس! والتفت خلفه ليلمح ابتسامة أم جاد المولى المعوجة قليلاً والتي لا تظهر من خلالها سوى أسنان قصيرة، ويجدها تطلب منه في تردد إن كان باستطاعته أن يصنع لها معروفاً ويرفع بلاص الماء الاحتياطي ويدلقه في الزير الذي انخفض ماؤه. بس كده؟ وبجذبة واحدة رفع البلاص، ودون حتى أن يسنده على حافة الزير أمامه ومضى الماء يخرج من فتحته على دفعات ضخمة هادرة.

في ذلك الوقت لم يلحظ محمد أن الشيخة صابحة ترمقه للمرة الأولى منذ أن دخل البيت، وفي الحقيقة لم تكن ترمقه كله كان بصرها مستقراً على ساقيه السوداوين المجرحتين بالشقاء والملبدتين بالشعر، وليس على ساقيه بالذات بالدقة على ذلك الشيء الذي انتفخ فجأة في سمانة كل من ساقيه وهو يشب ليسيطر على البلاص ويصبه. شيء بدا صلباً وكأنه كتلة حديد قد تكونت من تلقاء نفسها تحت الجلد، شيء لا يمكن أن يحدث أبداً إلا من جسد رجل، وهو

شيء ليس غـريباً على أم جـاد المولى فلزوجهـا الشيخ صـديق شيء مثله. ولكن سيقـان زوجها هـزيلة رفيعة كـالبوصـة، إذا شب أو سـار تصلبت سمانتاه أيضاً ولكنه تصلب لا ينتج إلا كتلة صغيرة مفرطحة لا تكاد تظهـر من الجلد. ولـم تكن تلك المرة الأولى التي تعقـد فيها أم جـاد المولى مقـارنة بين زوجهـا وبين أي رجـل تـراه أو تلقـاه، فلهـا سنين وهي تعقد تلك المقارنـات.. بالضبط أربـع سنوات منـذ هذه الـطوفة التي جـاءته وجعلتـه يبدأ يغـالي في التـدين وصـلاة الضحى والتـراويح ويسهـر الليالي في المـوالد يـذكر ويجعـل من نفسه إمـاماً للذاكرين، ويؤمن بتلك الطريقة الدمـرداشية ويتـروحن ويحدثهـا عن الوصـول، والسادة والأولياء والامـام الغزالي وكبـار الواصلين ويفـرض عليها الطرحة البيضاء والسبحة.

في الحقيقة لم تدهش أم جـاد المولى لهـذا التحول، فـالشيخ صديق طول عمره نحيف ضعيف خفيف الصوت شـاحب اللون قليل الطعام كثير نوبات حرقان القلب والمغص، لا يقطع فرضاً، ولا يؤذي نملة. حتى في صباه كان الشبان جميعاً يكتفون بارتداء طواقيهم وهـو وحده الذي ينفرد بالتعمم عليهـا. ولكنه كـان فلاحـاً خبيراً بـالفلاحـة يحب الأرض والزرع ويجن شغفاً بالمواشي ويفرح بولادتها ربما أكثر من فرحه بولادة الابن، والقراريط التي يـزرعها دائمـاً فيها خضـرة أو شيء لا يزرعه الناس. ولكن تلك الروحنة لم تأتـه إلا من أربع سنين لكـأنما كـانت و «بلوغ» ابنهـم اسماعيـل على ميعاد، وكـأنما جـاءت ليصب هو نقمته عليها لأنها لا تصلي، فإذا صلت ظل يـواصل نقـاره حتى تصوم «الستة» ولـم يتركها إلا وقد ألبسها الطرحة البيضـاء، وهي

قابلة على مضض الضيق أول الأمر بكل الهلوسة التي اجتاحته وعلى تركه للأرض مهملة لا تجد من يعتني بها ويسقيها، وعلى إهماله لها وللدار ولكل شيء، وتفرغه تماماً لنوبات العبادة التي تبدأ مع العشاء ولا تنتهي إلا بعد الفجر حيث يصلي وينام للضحى، ويروح منهم «دور» الماء في الساقية، ويعطش القمح وتفضى سنابله، ولا يصح لهم من الفدان إلا أردبان . .

قابلة على مضض الضيق أول الأمر، ثم على مضض الصابر، ثم على يأس المستسلم، ثم على محاولة للتروض وللوصول إلى عزاء لا أكثر وطلباً للسلوى. ولكن نوبات النقاش والمناكفة ومحاولة تذكيره بترك المسبحة جانباً وامساك الفأس كثيراً ما كانت تراودها وتجعلها تعقد بينه وبين غيره من الرجال المقارنات أمامه وخلفه، ولكنها المرة الأولى التي تعقد مقارنة بين سمانة رجله وسمانة إي رجل آخر.

كل هذا لم يلاحظه محمد، وحتى لو كان قد لاحظه لما فهمه. كل الذي لاحظه حقيقة أنه وجد أم جاد تقوم فجأة وتأتي لتقف بجواره أمام الزير وتمد يدها تريد انتزاع البلاص منه وهي تقول: عنك انت يا خويا بقى . . كفاية عليك . . زمانك تعبت.

وهو يجذب البلاص ناحيته ويتشبث به: والله أكبر كلمة لا يمكن . . تعبت ايه هو ده اسمه كلام؟

ـ والنبي يا محمد الهي يخليك لشبابك. هاود بس!

ـ واللي نبي النبي لا يمكن.

وجذبة إلى هنا وجذبة إلى هناك احتك كوعه بطرحتها البيضاء

فأزاحها قليلاً، واحتك ذراعه بذراعها وفانلته بثوبها وبالذات سمانة ساقة بجانب ساقها.

وفجأة دق قلب محمد وكأن أحدهم ساهاه وقذفه فجأة في الترعة، فقد أحس ـ هكذا ـ أن الشيخة أم جاد المولى امرأة. لم تكن جميلة ولا صغيرة ولا تعوج القمطة، بل لونها كزوجها يميل إلى الصفرة، وعيناها صغيرتان، وصوتها ناعم مسلوخ وكأنما يخرج من فتحة في ظهرها، ورائحتها كلون رائحة طرحتها بيضاء ذلك الأبيض الشاحب الرمادي. ولكنه أحس بها كامرأة.

كيف أحس بهذا رغم طرحتها، والفرض الذي كانت من هنيهة تؤديه؟ رغم ابنها الأفطس الأنف الذي يحوم حوله ذباب خاص دائم والذي لا يمكن أن تصدق أن أمه امرأة؟

كيف أحس بأم جاد كامرأة، ومن المسئول عنه؟ لا يعرف. وحين وجد شاش الطرحة من الشد والجذب ينزلق من فوق رأسها، ثم يراها ويرى رأسها ووجهها بشعر وبلا طرحة.. حين رأى هذا أحس أن كل شيء قد انتهى، وبدلاً من أن يمسك بأذن البلاص مباشرة لف ذراعه ـ بلا خبث أو تدبر، بالغريزة ـ وراء رقبتها، وقبض على البلاص بقوة، فأصبحت هي بقوة أيضاً في حضنه.

وحاولت أن تتملص قائلة: أوعى بقى نقضت وضوي يا شيخ..

ولكنه لم يفعل إلا أن شدد من التفاف ذراعيه ليجبرها على السكوت التام، ولحظتها لم يكن يريد لها أو لنفسه أكثر من مجرد

السكوت التام والثبات، مجرد الثبات على هذا الموقف. .

وكانت كلمتها التالية: لا لا، أنا في عرضك. . الشيخ صديق زمانه جاي.

وقال لها بصوت مبحوح متحشرج وكأنما مصدره صراخ داخلي ينبع منذ الأزل: هو فين؟

فقالت: زمانه بيصلي الضهر وجاي.

فقال: أمال وقتيه؟

فقالت: بعد العشاء.

وارتجفت ركب محمد وكأنما غشاها زلزال لم يلبث أن اجتاح صوته فقال بشفة عليا ترتعش: هو مش حا يكون هنا؟

فقال: لا، حداه الليلادي مولد.

وفي نوبة جنون حاد ضمها محمد حتى كاد يحطم ضلوعها، ورفعها ودار بها هي والبلاص فرحاً، أكبر وأعظم وأروع فرحة مرت بحياته.

***

وعلى السطح، سطح كبيت الشيخ صديق نفسه، كمعظم البيوت، كله فتحات ومساقط وصوامع وقش وأرز وحطب وغرابيل قديمة وأسلحة محاريث صدئة وسحالى. . على هذا السطح كان الميعاد. . وبرغم خوفها الشديد ورعبها، ورغم سبها لنفسها وتفكيرها ألف مرة في الاحجام، إلا أن أم جاد وضعت لمحمد سلمها الناقص

بضع سلالم المصلوب بحبل، وجلست تنتظر، وألف هـاتف تطالبهـا بالقيام وسلاسل من حـديد تربطها إلى المكـان. قوة قـاهرة كـالزمن والأقدار تجعلها تصم آذانها وعيونهـا عن كل شيء وهـاتف، وتمضي تضـع السلم أو تحبـك الـطرحـة البيضـاء وتـدلـك وجههـا بقـطرات اقتـرضتها من مـاء الورد وتفعـل هذا كـالمنومـة كـالمسـوقـة إلى قـدر محتوم.

والغـريب أن محمـد لم يستعمـل السلم أبـداً في صعـوده إلى السطح، فالسـطح لم يكن عاليـاً، وبقفزة واحـدة كقفزة جن كـان قد صعد الحائط الواطي. ولم ير جيداً، فهو لا يجيـد الرؤيـة بالليـل ولا حتى بـالنهار، وعيـونه لا تـرى إلا إذا دعكها، وإذا دعكهـا احمرت، وإذا احمـرت رأى الصـومعـة صـومعتين، وفي الحقيقـة لم تكـونـا صومعتين، احداهما فقط كانت كذلك، والأخرى كانت أم جاد. وقد رأتـه ورأت حيـرتـه ولكنهـا قبعت في مكـانهـا سـاكنـة لا تتحـرك ولا تفتح فماً. وبدلاً من أن يبدأ محمد بحثه عنهـا قبع هـو الآخر بجـوار الصومعة من نـاحيتها الثـانية، ولـو ترك العنـان لنفسه لـدخلها واختبـأ فيها، فقد كان خائفاً جداً، خـائفاً من الشيـخ صديق أن يعـود فجأة، ومن الله أن يغضـب، ومن الجيـران أن تحس أو تعـرف. ولكنـه رغم ذلك الخوف كان الدق الذي في قلبه دق فرح، فرح غامر دافق حينما زهق من معرفة سببه قال لنفسه لابد أنـه الحب الذي يتكلمـون عنه، فهو لأول مرة في حياته يواعد امرأة في بيتها وتـواعده لا عن طمـع أو من أجل بضعة كيزان أذرة تشويها، ولكن من أجله هو فقط ومن أجل

سواد عيونه، رغم أن سوادها أبيض بما فوقهما من سحابات تمنع الرؤية، وحتى لو كان أعمى كلية وكانت أم جاد مشلولة تماماً لالتقيا في تلك الليلة، فكل ما فيه كان مرهفاً إلى كل ما فيها مشدوداً اليه بقوة لا يمكن أن يوقفها ظلام أو تحول بينه وبينها صوامع أو حطب. .

وكان لقاءا هو بنفس الفانلة واللباس وبوجه خشن حافل بالبقع والثقوب، وهي بجسدها القصير الأصفر صفرة لا سبب لها ولا تفسير، وبابتسامتها المتدلية إلى ناحية تدلياً لم يلحظه محمد ولم يره فقد كان مشغولاً عنه تماماً، عقله مع الخوف من عودة الشيخ صديق والله والجيران، وجسده مشغول تماماً بجسدها، وكلاهما واقف، وكلاهما يرتعش، والدنيا مظلمة ظلاماً ليس فيه بارقة أمل.

ومن بعيد جداً، وكأنما من بين النجوم جاءهما صوت الشيخ صديق وقد بدأ يمسك بحلقة الذكر ويلعلع، وعلى وقع لعلعته المتقطعة التي لا يمكن التمييز بين كلماتها كانت أجساد الذاكرين تتمايل، وتتهدج الأصوات الخارجة من صدور تخفق بالخوف والأمل، بالمعصية والحاجة، بالارادة والاستحالة، بالصبر الشديد وطول ضيق البال.

وتقريباً، وعلى نفس الوقع بدأ سقف البيت المعرش بأشجار وسدد يهتز، ويخفق خفقات كنبض القلب، كلهث المحموم، بلا معنى وبلا هدف إلا أن تظل تخفق، وتظل الأفرع تزيق وعيدان الحطب وقش الأرز توشوش وتتغامز وتسري بينها الاشاعات الصوتية

والهمسات الآثمة. صوت الشيخ صديق المنغم نفس نغمة صوت محمد وتمايل الأجساد وتمايل الأعواد، وتهدج أصوات الذاكرين وتهدج أصوات الملتقين، نغمة واحدة تكاد تشمل الكون كله، وعلى وقعها خفق وعلى وقعها مستمر يخفق، أما السحالى فقد توقفت ذلك التوقف الغريب الذي يحدث لها أحياناً، توقف تام وكأنما ترد به على الحركة الكونية الهائلة من حولها، وتشاهده وتشهد إذا لزم الأمر عليه. لم تتحرك إلا هناك حين بدأت أصوات الذاكرين تضطرب، وبدأ بعضها يرطن بالسريانية ويصل ويغيب عن الوجود، والحركة أيضاً تغيب عن السقف، وتموت الهمسات والاشاعات في مهدها على أطراف عيدان الحطب.

***

وفقط كانت تلك هي المرة الأولى، ولم تكن أبداً الأخيرة. فقد عرف محمد الطريق إلى بيت الشيخ صديق، وبالذات إلى سطح البيت وكان مستحيلاً أن يكف عن التردد عليه. كان كلما سمع الشيخ صديق يؤذن أو يحيي مولداً أو ليلة يترك ما في يده ويتجه إلى البيت وبقفزة واحدة كان يصبح على سطحه، ودائماً وهذا هو الأغرب كان يجد الشيخة صابحة هناك بنفس طرحتها البيضاء وكأنها وصوت زوجها على ميعاد.

وفي تلك الأيام بالذات كان الشيخ صديق في أسعد حالاته، فقد كفت زوجته تماماً عن مناقشته الحساب وتذكيره بالفأس والأرض

واكتفت بإلقاء نصائحها لابنها جاد الذي بدأ هو يخرج الفأس من مكمنها ويسرح بها الغيط، بل الأكثر من هذا أنه بدأ يلاحظ أن زوجته قد أصبحت شيخة بحق وحقيق كما يناديها الناس، ففي صلاتها إخلاص حقيقي، وفي دعواتها إلى الله أن يغفر لها ما تقدم من ذنوبها وما تأخر تبتهل بصوت خارج من أعماق نفسها، ولم تعد أبداً في حاجة إلى أن يذكرها بالنوافل أو توزيع الحسنات.

وهكذا ترك لنفسه العنان وارتفع آخر حاجز كان يحول بينه وبين التفرغ كلية للتبتل والوصول، واستبدل السبحة المائة التي كان يسبح بها بسبحة ذات ألف حبة، وعدية يس كان يقرؤها كل ليلة وفي كل مساء أيضاً لابد من ذكر. وكلما تطور الشيخ صديق في وصوله وانغماسه واندماجه وتفرغه، كان محمد هو الآخر يتطور ويتهور حتى إنه كان يذهب إلى سطح البيت مرتين في الليلة أحياناً أو حتى في النهار. بل تطور الأمر بمحمد إلى الحد الذي جاء عليه وقت أصبح مجرد سماعه لصوت الشيخ صديق وهو يؤذن أو وهو يضرع مستغيثاً في مولد يجعله يحس بذلك الشيء في جسده يدق وينتشر الدم الفائر يعمي عينيه.

ولكن التعود كالزمن يقتل الأشياء، وبالتعود لم يعد محمد شديد الحماس لترك ما في يده كلما سمع صوت الشيخ مناجياً أو مستغيثاً بعيداً عن الدار ويقفز إلى سطح أم جاد، بل ربما نوبات قلة الحماس تلك التي أصبحت كثيراً ما تنتابه، هي التي بدأت تحل

عقدة لسانه وجعلته مستعداً لفتح مكنون قلبه ومكنون سره ـ ربما سره الأوحد ـ لأصدقائه، ثم لمعارفه، ثم بناء على طلب السامعين حتى أصبحت القصة كلها كمصير أي سر معروفة مشهورة لا تضر أحداً أو تجرح أحداً، مثلها مثل أي كلام، كل الفرق أن محمد في نهاية حكايته كان صوته يتهدج ويمتلىء بالتأثر إلى حد يوشك أن يستحيل معه إلى بكاء وهو يتساءل: ترى. . هل حقيقة سيدخل النار جزاء ما فعل؟

***

ومن ناحيتنا كثيراً ما تداولنا نحن الصغار القصة، وكنا حين نأتي إلى النقطة التي تهم الصغار كثيراً، نقطة الجنة والنار ومن سيدخل ماذا؟ كنا نؤكد لبعضنا البعض ونجمع بكلمات عالية باترة أن اللذين سيدخلان النار حتماً هما محمد وأم جاد. . ولكن. . ربما هذا الاجماع الغريب هو الذي كان يجعلني أفكر في الأمر بيني وبين نفسي أكثر، وأكاد أضحك على هاتف ساخر عربيد كالبلياتشو ينتصب أمامي فجأة ويؤكد لي ويقسم أن الشيخ صديق هو داخل النار حتماً، ومن أوسع الأبواب.

العُصفور والسِّلك

اختار أعلى بقعة وحط*. كانت سلكاً. . مكاناً بين عمودين من سلك تليفون. مخالبه تشبثت برفق. هبت الريح وصفر السلك. . تمايل، تشبث أكثر. هو لا يكف عن الحركة، والحركة عنده مفاجئة، فجأة تأتي، فجأة تحدث، فجأة تبلغ أقصى المدى. فجأة شقشق، فجأة تلفت، فجأة رفرف، فجأة صوصو. انتشى فجأة، طار، حام، حوم، حط، تشبث، تلفت. على مقربة لمح الأليفة، رفرف، رفرفت. اقترب، اقتربت. صوصو، شقشقت. حك المنقار بالمنقار، حكت. أمال رأسه، أرقدت رأسها فوق رأسه. انتشى، نط. بالقفزة أحب بالقفزة هبط. بالنشوة تبرز، بصقة براز أبيض لونت السلك.

السلك صديء قديم غير سميك. يحمل في هذه اللحظة بالذات ـ وفي نفس الوقت ـ سبع مكالمات معاً. لا شيء في الظاهر يحدث، في الداخل تدور عوالم وأكوان. . سلامات، احتجاجات،

(*) كتبت في مايو ١٩٧٠ ولم تنشر.

تحيات، صفقات، وداعات، استغاثات، أرض تباع، بلاد تباع، أصوات غلاظ، صوصوات رقيقات، تختلط الكلمات، تتمازج، تتوحد، كلها في النهاية تصير ـ مادياً ـ الكترونات. شحنات متجانسات، متشابهات، كلمة الحب لها نفس شخنة البغض، كهارب الصدق هي كهارب الكذب، الصراحة كالنفاق، اللوعة كاللعنة، الليل كالصبح كالنهار، الحرام كالحلال، النضال كالخيانة كالكفاح، البطولات كالنذالات. كلمات! شحنات! الكترونات متحفزات متحركات! في ومضة بحركتها تتغير مصائر، تجهز مشاريع، تنتهي وتبدأ حيوات واتجاهات. ومضات وتتم موافقات، وتبرم صفقات، وتدبر مؤمرات، بالكلمات، بنفس الكلمات الطيبات.

والسلك قديم صدىء صامت داكن، لا ينم مظهره عن شيء مما في داخله يعتمل ويدور، ولا يبدو منه أو عليه أقل تغيير، مستمر في وجوده الظاهر الطويل الممتد.

والعصفور متشبث بالسلك، بمخالبه البريئة يمسك بهذا كله ويحتويه، في ملكوته الخاص يحيا، لا يدري حتى بأن السلك سلك، بله بأن ما يسري فيه يسري فيه. إن هو إلا مكان عال للوقوف. . وقوف كلما فرغ صبره منه فجأة يتقافز، يرفرف، يشقشق، يطير، يحوم، بالقفزة يزاول مع وليفته الحب، وبنفس القفزة يهبط، وبالنشوة يصوصو، وبالنشوة خالي البال يتبرز، بصقة براز صغيرة بيضاء على السلك، نفس السلك، كالزمن، كالصدأ تتراكم.

الرّحلة

أنت وأنا ومن بعدنا طوفان* لا تخف! سنرحل حالاً، سنرحل إلى بعيد بعيد. إلى حيث لا ينالك أو ينالني أحد. إلى حيث نكون أحراراً تماماً نحيا بمطلق قوتنا وارادتنا وبلا خوف. لا تخف! لقد اتخذت الاحتياطات كلها. لا تخف! كل شيء سيتم على ما يرام. أعرف أنك تفضل اللون الكحلي. ها هو البنطلون إذن. ها هي السترة. بالتأكيد ربطة العنق المحمرة فأنا أعرف طبعك. . لست بالغ الأناقة نعم ولكنك ترتدي دائماً ما يجب، ما يليق. سأساعدك في تصفيف شعرك. أنت لا تعرف أني أحب شعرك. خفيف هو متناثر وكأنما صنع خصيصاً ليخفي صلعتك ولكنه أبيض كله سهل التمشيط. بيدي سأمشطه. بعدها وبالفرشاة نفسها أسوي شاربك. حتى هذا النوع من الشوارب أحبه. هكذا رأيتك مئات المرات تفعل، وهكذا أحببت كل ما تفعل. كل ما أصبح لك عادة، حتى كل ما يصدره كنزوة. أتعرف أني فرحان فرحة لا حد لها. فرحة الإقدام

(*) هذه القصة بالذات كتبت في يونيو ١٩٧٠.

على أمر لن يعرفه سوانا. لست مريضاً هذه المرة وأستصحبك كالعادة إلى طبيب، ولسنا في طريقنا لزيارة أقارب مملين. فليظل الأمر إذن سراً بيني وبينك.

باب المصعد يغلق.. من أسفل يسحب. لابد أن أحداً في القاع ينتظر. لا يهمك أرح جسدك.. اتكىء عليّ ولا يهمك. ما أكثر ما اتكأت عليك أنا، ما أكثر ما حملتني وأنا صاح ومدعي النوم، فقط كي تحملني، كي أحس أني على كتفك أنت أستقر وأن ذراعك هي التي تحوطني وأني أشعر بالأمان.. أحلى وأعذب وأمتع أمان. اتكىء ولا تخف، ولينظر لنا الداخلون إلى المصعد بريبة، وليظنوا بي أو بك الظنون. إنها أول مرة نراهم فيها وآخر مرة. البواب سهل أمره، بيدي وبالنصف ريال يا عم عبد الله افتح العربة. ها هو يجري ويسبقنا. ها هو يساعدني في اراحتك على المقعد. الآن استرح واجلس. ضع ساقاً فوق ساق كما يريحك دائماً أن تفعل. أشكو من ضيق عربتي الصغيرة ومن طول ساقيك، فلكم أحب دائماً أن أبتسم لك وأسمع. المارش والفيتس والأول.. العربة تنطلق. الثاني.. غادرنا الشارع. الثالث.. نلف حول الميدان. وحدنا أنت وأنا والعربة تستقيم وتنطلق. لقد نجحنا! بضربة حظ جبارة نجحنا! والعربة ها هي بنا أخيراً، ووحدنا، تنطلق.

تعرف أنها ليست المرة الأولى التي أجلستك في عربتي وأسوق أنا، ليست الأولى التي ننفرد فيها معاً، ولكنك لا تعرف أني هذه المرة أحس بحق أني لأول مرة ربما أكون معك.. بكل كياني معك،

ولك، بكل كيانك لي ومعي. الآن لا شريك لك فيّ ولا شريك لي فيك. أنت لي تماماً كما أنا لك. والأجمل أننا ـ تصور ـ سنظل هكذا إلى الأبد.

الشوارع مزدحمة، الناس محيط، العربة جزيرتنا، العيون تنصب كزواحف ديناصورية رهيبة تقتحم الجزيرة، تملؤها، تغرقنا، تلتهمنا. يا سيدة، يا عانس، انظري أمامك. ألم تري أبداً شاباً يسوق بجواره رجل يرتدي بدلة كحلية ورباط عنق محمر. أأعجوبة هي. أظاهرة؟

يا خسارة! الاشارة أغلقت، النور أحمر، الحمرة طالت، امتدت، أصبحت زمناً. الزمن يحمر ويتوهج، الزمن يحترق، اشم رائحته.. رائحة جلد آدمي يحترق.. جلدي أنا. الأصفر يومض، الحريق يلتئم. الأخضر، السهم المنطلق الأخضر، النور المخضر يمتد يصبح مساحات.. زرعاً ونباتاً وأشجاراً. النور يحيا، يتجسد، يزهر. الأصفر، اللا أحمر، الأصفر قمح، القمح يتماوج، الموج يعلو، قمم الأشجار تتمايل، رأسك أيضاً يتمايل. أنت موافق اذن؟ أنا سعيد. أحسب أنك تهورت الآن مثلي أو أنا تعقلت مثلك. صغرت أنت أم كبرت أنا لا أعرف، ما أعرفه أن كل ما أردته فيك وأردت أن أكونه، هأنذا الآن فيه. كل ما كرهته لم أعد أكرهه. كل ما كان يعجبك فيّ قد أصبح بمعجزة يعجبك،تريد أن أكون أنت، وأريد أن تكون أنا، تطابقنا وها نحن نطير، وبالعربة وبك أطير، ألامس الأرض وأطير، أتلوى جذلاً وأسوق. أنت لا تعرف كيف

تسوق، أنت من جيل القطار. . القطار الذي لا خيار فيه، لا تختار إلا عبوديتك، أنا من جيل العربة، الحرية عربة، الرأي عربة، وحدك تحدد متى وأين، وحدك تعدل، تمضي، تلف، تدور، النهاية في يدك لحظة تريد.

- قف. .

لابد أن نقف؟ نحن في طريقنا إلى خارج المدينة، وهنا تفتيش. نعم يا سيدي، البطاقات. هذه بطاقتي، وهذه رخصة قيادتي. من هذا؟ أين بطاقته؟ أنا بطاقته. ألا ترى أنفي من أنفه؟ حواجبي لها استدارة حواجبه؟ عرقي حتى له طعم عرقه؟ شكراً يا سيدي العسكري، شكراً! جميل شاربك والله العظيم جميل.

لننطلق! وقد أصبحت بطاقتك. أحبك وأنا مسئول عنك، نفس حبي لك وأنت في طريقك إلى النوم، وأنت في طريقك إلى اليقظة، أحبك عائداً من العمل، متعباً، نخلع عنك الحذاء والجورب، ونضمخ أنوفنا الصغيرة برائحة أقدامك، ونفصل أصابعك الملتصقة تعباً ووقوفاً عن بعضها البعض، وأتولى أنا توزيعها على اخوتي وأختص نفسي بالأصبع الأكبر.

ولكن ألذ من الذكرى الحاضر، وألذ من الحاضر أننا كالسهم ننطلق. طبعاً أنت لا تريد أن تعرف إلى أين، متعتك الكبرى مثل متعتي أن تفاجأ. انك لا تعرف. . المعرفة قيد، طبعاً في رأيك المعرفة قيد، المعرفة وصول، وأنت وأنا لا نريد أن نصل. أنا

شخصياً باستمرار أريد أن أبدأ، حتى نهايتي أريدها بداية، فأنا لا أحب النهاية.. النهاية سخف وضيق أفق. ما أروع أن نبدأ دائماً، وأن نبدأ بأن نبدأ، وأن تكون البداية بداية لبداية أجد وأمتع.

رجل بوليس آخر يقترب. كشك. أنا لا أخاف شيئاً ما دمت معي. أنت الوحيد في الدنيا الذي كنت أخافه.. كنت دائماً هناك في بيتنا تربطني، تشدني أنى أذهب، ألف وأعود وكان لي في بيتنا جذر.. الآن جذري معي. أنا النبات الذي تحرر وانطلق. رجل البوليس يشير، بيده كالسيمافور الأبيض والأسود تشير. لم أضق قبلاً برجال البوليس مثل أن أضيق بهم الآن. لماذا هم كثيرون؟ لماذا دائماً يقطعون الطريق؟ أفندم! الرقم والرخصة والبطاقة. أفندم! لماذا تمد أنفك في العربة وتتشمم؟ وتبلغ بك الجرأة أن تسأل؟ لماذا يا سيدي لا أشم رائحة، لا رائحة هناك. أين هي الرائحة؟

وداعاً يا سيدي يا ذي الأنف الطويل وداعاً.

بالطبع هو لا يفهم.. كيف يسمي رائحتك رائحة.. هو لا يعرفها، لا يدرك انتماءها اليه مثلما أدرك وأحس أنا. تطابقنا تماماً أيها العزيز حتى أصبحت رائحتك نفسها هي رائحتي.

الآن أنا في حاجة إلى سيجارة. ألا تلاحظ أننا لا نختلف وأنك لأول مرة توافق أن أدخن أمامك؟ لماذا كنا نختلف؟ لماذا كنت تصر وتلح أن أتنازل عن رأيي وأقبل رأيك؟ لماذا كنت دائماً أتمرد؟ لماذا كرهتك في أحيان؟ لماذا تمنيت في لحظات أن تموت لأتحرر؟

مستحيـل أن أكون نفس شخصي الآن الـذي يدرك أنـه حر الحـريـة الكاملة بوجودك معه، إلى جواره، موافقاً على كل ما يفعل.

***

املأ يا فتى خزان البنزين إلى آخره، وضع زيتـاً أيضاً وافحص الاطـارات. أجـل، نحن على سفـر. . سفـر طـويـل لـو علمت كم يطول. هذه هي النقود. . خذ. رائحة؟ رائحة البنزين على ما أعتقد؟ ماذا تقول؟ ميت؟ فلتمت أنت! اخـل الطريق يـا وغد، ولا أراني الله وجهك.

تصور: السافـل يظن أن معنـا ميتاً في حين ليس معي سـواك، أمؤامـرة هي بين رجل البـوليس وعامـل البنزين، مؤامـرة طولهـا مائـة كيلومتر؟

***

لقـد خدعنـاهم جميعاً. . أليس كـذلك؟ مـا أجمل أحيـانـاً أن ينخدع بكلامنا الآخرون!

هذه المدينـة فقدت العقـل. أنّى نذهب يفتـح الناس أفـواههم خلفنـا دهشة، ويمـدون عيونهم إلى آخـر المدى يبصـرون. قبـل أن نصلهم أنـوفهم تستنشق الهـواء البعيــد وتتشمم. بعـد أن نغــادرهم يسرعون خلفنا يصرخون. . الجثة! تصورا يريدونك أنت الحي جثة

يدفنونهـا. مستحيل، يقتلونني قبـل أن يأخـذوك، ففي أخذك مـوتي، في اختفائك نهايتي، وأنا أكره النهاية كما تعلم. . أكرهها أكرهها.

***

المدينة التالية هجرها سكانها قبـل أن نصل، لابـد أن الرائحـة كمـا يزعمـون وصلتهم قبل أن نصـل. جميل هـذا جميل. يكفي أن تكـون معي ليكـون العـالم كله معي، يكفي هـذا وليهجـر المـدن سكـانها، ولتحتـرق القرى والنجـوع، يكفي أنـك معي. أنت أنـا. . أنت تاريخي وأنا مجرد حاضـرك. . والمستقبل كله لنـا. مستحيل أن أدعهم يأخذونك، يميتونك، يقتلونك.

***

يبدو أن هناك خطأ ما، فـأنا في الحقيقـة بدأت أشم الـرائحة. لا، ليست رائحـة حذائك وجـوربك فلقـد خلعتهما وألقيت بهمـا من النافذة. إنهـا أقوى من رائحـة الربيـع والزهـر ومساء الصيف. أقـوى منك، ومني، ربما أقوى من أي كائن حي.

عفوك! ولكنني لم أعد أستطيع. . الـرائحة تختـرق خياشيمي، وتتلوى مع تلافيف أنفي وعقلي وتكتم أنفـاسي. والمرعب أنـك أيها العـزيز الغـالي مصدرهـا. الناس من حـولنا يهـربون، كـل الكائنـات الحية، حتى الذبـاب، تهرب، من حـولنا تهـرب. أنا نفسي لم أعـد أستطيع.

***

لابد ـ حتى لو كنت أكرهها وتكرهها أنت ـ من النهـاية. ولابـد من أن أختـارها أنـا. صحيح لا قلب لي، لا عقـل، لا ارادة، ولكن الـرائحة أبشـع من الموت. أمـوت ولا أشمها. وإذا شممتهـا أموت، أنفـاسي تختنق، الروح بلغت الحلقـوم. لم يعد هنـاك منـاص، إمـا حياتي أو موتك. لم يعد هناك مناص، لابد أن تنتهي أنت لأبدأ أنا.

***

ولقد تركتك.. عامداً في الطريق تركتك.. في العـربة نفسهـا تركتك وتركتها لك قبراً ولحداً. وهأنـذا أكملها وحـدي، وعلى قدمي أسير، حزين للفراق تماماً. ولكن، وهذا هو المؤلم سعيد بـالخلاص منك، سعيد أني تـركتك وتـركت العربـة لك. سعيـد أني حتى على أقدامي أسير، وأستنشق الهواء، الهواء النقي الذي ليس فيه أبداً تلك الرائحة الملعونة الغالية.. رائحتك.

حَلَاوة الرّوح(*)

في لحظة واحدة كثر الماء، أصبح أكثر وأكثر. الشاطىء قريب.. أمتار. الشماسي ملونة مبعثرة، منارات مبعثرة تحتها الأجساد مرصوصة بلا نظام.

أنا في طريقي إلى الشاطىء بعد حمام منعش.. الشاطىء والاسترخاء والأمان. السيجارة بعد الحمام.. الأحلام. الماء يكثر أكثر، فلآخذ إلى الشاطىء الطريق الأقصر، ولكن الماء يظل يكثر. صدري يختفي رويداً رويداً ورئتاي بدأتا تحسان بضغط الماء. التيار السلفي أشعر به الآن أوضح.. الماء الجاري بخبث تحت الماء.. الماء بريء الهدوء من فوق والتيار يجذب من أسفل. اللعبة مسلية أنا أجذب والتيار يجذب، وأنا مطمئن فأنا قاب قوسين من الشاطىء والمنطقة بالتأكيد ضحلة. يجذب وأجذب، يسحب فأشد، يشد فأسحب، أقدامي تتعثر، التيار يقاوم وإلى الخلف يجذب، أقاوم وأتقدم. كل شيء هادىء على سطح الماء، والجذب لا يرى

(*) كتبت في شتاء ١٩٧٠.

فالمعركة اللعبة تدور من أسفل. قبلت اللعبة يا بحر. اجذب من أسفل وسأبقى صامداً من أعلى. «شنكل» فأنت تعبث وسوف أرد عبثك بعبث.. عبثاً بعبث يا بحر اعبث، العب! الدنيا أمان والشاطىء قريب، العب! أنت تغالي في اللعبة يا بحر فماؤك يكثر ويضغط وصدري رغم استماتتي يغوص أكثر وأكثر، والماء يقوى على الدوام أكثر. حذارأن تقلبها جداً فأنا أعبث، أو اقلبها إن كنت قادراً فأنا أقدر، وحتماً سأقدر. لا تغرقني يا بحر أرجوك فأنا الغريق وما عاد يخيفني بللك.. الدنيا غريقة يا بحر فهل أنت أغرق؟ أنا الأعرف، أنا الانسان يا بحر، أنا البحر الأكبر، أنا بحرك.

التيار يجذب، الماء يكثر، اللعبة تسخن. الموج يقبل، يهدر، يعلو، يكتسح، ثم يرق ويتبدد. أنا أتأرجح، هات أمواجك نفسها يا بحر واجذب، وادفع، هاتها وادفع، فشاطئي ها هنا قريب وأنا أشطر. ادو يا بحر وغن! ارغ وازبد! العب لعبتك العجوز اليتيمة وقلص مياهك وتمددا انتشر وتجمع! ارض واغضب! تقدم حتى تتقهقر. والآن كفى! اتركني فأنا أريد الشاطىء.. أريد أن أرجع.

ولكن الماء لا يريد.. ضغطه يتزايد ويشتد، السحب من أسفل يتعاظم حتى يشل خطوي، الماء الشفاف الواهن المتناهي الضعف.. الماء الذي استأنسناه طويلاً وغليناه وشربناه وبصقناه ومن فرط إلفتنا له نسيناه، الآن وهو ملايين ملايين من البصقات والقبصات والأكواب ها هو يحاول أن يرينا عينه الحمراء. على الصدر يضغط، بقوة يسحب. الماء وصل إلى رقبتي، لم أعد أتقدم تجاه الشاطىء

خطوة، بل هو التراجع بدأ والجذب السفلي يشتد ويقوى. اللعبة سخفت قليلاً. . العبث طال عليه صبري.

فلتتوقف اللعبة!

واستدعيت إلى الوجود قوتي الأقوى، بدأت تغوص رقبتي.

واستدعيت القوة الأكبر، الشماسي صغرت.

فلأستدع القوة الأعظم، الشاطيء أصبح مجرد خط.

إني أشم رائحة الغدر، أفينا الخيانة يا بحر! أتغدر؟

أرجوك! ليس منك. . أنت يا بطلي العنيف العربيد الرقيق الشاعر الصاخب الأحمق الأهوج المغتر المقطر عذوبة الجالس على عرش الجلال. وليس لي. . فليس في نفسي موضع لغدر جديد. أنا معك ها هنا وحدي، نحن وحيدان معاً، أنت بلا نهائيتك وأنا بمحدوديتي. لا تخن لا تغدر!

***

رفعت ذراعي.

الرابعة تماماً.

تشاءمت.

من النادر أن ترى ساعتك فجأة فتجد أنها أمامك، حتى لو كانت الرابعة.

وصل الماء إلى ذقني.

أنا في بئر مائي لا شك.

الشاطىء يبتعد أفقياً ورأسياً إلى أعلى وإلى أبعد، لم يعد ثمة بحر.

ماء.. فقط ماء! كم هائل الحجم والضخامة من الماء الذي لا شاطىء له ولا حافة ولا حد. النمل حين يصنع بمجموعه جبالاً هائلات من النمل. الصرخة الواحدة حين ترددها مئات آلاف الملايين من الحناجر فيهتز الكون.

التيار السفلي نما حتى وصل إلى السطح ولم يعد للماء من فوق براءة.
كشر عن أنيابه تماماً.
الجذب. تاماً وكاملاً.
إذا قاومته غصت أكثر.
إذا سكت ابتلعني أسرع.

الشاطىء أصبح أبعد من السماء.. مجرد سراب سماوي غير كائن. ويكف في حجم الصخرة لطمت رأسي موجة، رأسي البارز في حجم عقلة أصبع، وعلى أثرها لطمة.

ثم دفعة.

ثم جذب لا يقاوم.

وانسحقت.

الماء طغى وتجبر، الماء أصبح له صوت، الماء رعد، الرعد أصم، الرعد أخرس، أعمى.

هذا ماء غريب من كون آخر، بحر لا أعرفه أبداً.

هذا عدو.

دوامة العدو تبدأ.

الدوامة كفم حوت فاغر الفم، أنا في قلبها حشرة.

الدوامة تدور.

كل الدوائر إلى أعلى، دائرتها إلى أسفل. أعلاك يا بحر أسفل، قمتك قاعك.. أنا في الطريق اذن لقاعك القمة.

يا لئيم! لقد غدرت وانتهى الأمر.

***

البرق يخيفنا وهو في سماه بعيد وبيننا وبينه ما بين الأرض والسماء. القيامة تروعنا حتى في الأساطير.

أنا في قلب الظاهرة الكونية نفسها. البحر استحال إلى تمرد كوني، تمرد موجه لي وحدي، أنا وحدي أواجه يوم القيامة.

***

ولكني لم أفقد الأمل بعد.

أنا وحيد ولكني أقوى. . أعتى. أستطيع أنا الآخر أن أتجبر، جسدي هذا فيه ماردي أنا، فيه القوة الأقوى، فيه مدخر الحياة كلها من الطاقة.

والحياة أقوى.

ان الحياة لأقوى.

***

المستحمون حولي كثيرون، حتى وأنا مخضوض المحهم. أقربهم إليّ سيدة، ترمق بإعجاب ما تخيلته من جرأتي على خوض المياه الأعمق.

***

صخرة مائية أخرى تنهار فوق رأسي. . أغوص أكثر، الماء فوق أنفي. صخرة أخرى تنهار، الجبل كله بدأ ينهار، العالم المائي حولي كله ينهار ويتفجر. والمرعب في براكينه وانفجاراته وجباله أنها مائية، مائية لكنها أعتى من الصخر. . الصخر أرحم.

إني أغطس.

أغوص وأغطس.

رأسي أصبح تحت الماء.

بجنوني كله أقاوم لأعلو كي أتنفس.

يصعد رأسي ليواجه بجبل موجي قادم.

أريد أن أتنفس.

أتنفس.

مـاء.. ماء أتنفس. أحس بـطعمه القـابض يملأ جـوفي وينفخ بطني، الجذب يشتد إلى أعمق وأعمق، إلى أعمق وأعمق وأعمق.

أنا حقيقة أغرق.

ضربت الماء بأقوى ذراعين كـانتا لي. بـأقوى سـاقين وفخذّين حشدت القوة كلها.

طفوت.

السيدة القريبة ترمقني بـإعجاب، ابتسـامتها بلهـاء. يا سيـدتي إني أغـرق، إني أموت وأغـرق، إن كـل مـا فيّ يستنجـد بـأي شيء فيك. أمددي يدك وسأمدد يدي وفي لقاء اليدين نجاتي. إني أغرق، إني فقط خجل إن أصرخ، سأموت شهيد خجلي يا سيـدتي فامـددي يدك لأنجو.

مستحيل! بإرادتي أنا لابد أن أنجو.

غصت.

حين حاولت أن أطفو وجدت الغابـة.. غابـة امتلأت بـوحوش مـائية مصنـوعة من مـاء، الرعب منهـا يجمد القلب. وحـوش تـزأر،

وحوش تنهش، وحوش خرافية هائلة الضخامة بأقدامها الأسطورية تطأ وتضغط. ضاق الخناق، جذبت نفساً عميقاً لأتنفس.. حتى وأنا أعلم أنه ماء جذبت نفساً لأتنفس. امتلأ رأسي بالهدير، اختفت الألوان والكتل والأحجام، صار كل شيء هلاماً ضبابياً رمادياً متغامقاً مؤدي حتماً إلى السواد الكامل. أنا مرعوب رعباً يحدث لي لأول مرة، رعب من نوع آخر، رعب لا يحدث في العمر إلا مرة، ولا يحدث إلا وفي أعقابه موت.. عزرائيل هو ذلك الرعب.

طفوت.

من فرحتي لم أتنفس.

غصت.

من رعبي تنفست ماء.. ماء أكثر. الوحش البحري يريد أن يحولني ماء، يهضمني، يتمثلني، يقتلني حياً، ويحييني ماء. بلورة ذاتي المركزة تتخفف. أنا أذوب في الماء، والماء يخترق مسامي ويذوب جسدي.. بإجرام وإصرار سادر في تذويبي. ارادتي تتميع، تتراخى، طعم البحر يتغير، يمسخ، حماسي لها يفتر ويصبح ما له طعم ماء البحر المالح.

***

تخدر الزمن وتوقف.. سألت نفسي: لماذا التحدي؟ لماذا لا أستسلم وأموت؟

ليس الموت هو التجربة التي ندخرها لتكون آخر تجاربنا. لماذا لا تكون الآن؟

لقد عشت كثيراً، ودهشت كثيراً، وأحببت كثيراً، وضحكت قليلاً، وبكيت كثيراً وكثيراً، وما تبقى من حياتي لن يكون سوى تكرار ممل، وما لم أفعله قط أني لم أمت فلماذا لا أموت؟

انطلق من جوفي الرعب الأعظم.

العقل توقف، طار شعاعاً.

الارادة غير الواعية قفزت، تفجرت، تعاظمت، أصبحت وحشاً. من داخلي غابة بدائية انطلقت، مليئة بوحوش شديدة الفتك.

العناد البدائي ألغاني تماماً.

وحدي أنتصر، بقوتي أعيش. . سأعيش.

غصت.

معركة الوحوش مع الوحوش، الغابات مع الغابات، يوم قيامة البحر مع يوم قيامتي أنا، الانسان مع القوة الغاشمة.

رغم إرادتي طفوت لثاني مرة.

السيدة قريبة لا تزال ولكني لن أستنجد. أبداً لن أصرخ، حتى ولو لم يبق على الموت إلا طفوة أخيرة واحدة.

غصت.

***

الماء الماء! الماء يمور ويدور وأدور به وفيه.. لا شيء ثابت! القبضة تستميت على اللاشيء. الرمادي يزرق، والزرقة تغمق. ومن الأفق يطل الرهيب الأسود.

الفقاقيع حولي تتكاثر! غربان المأساة، ضياع الجثث الغرقى. جسدي تفتحت بواباته، الماء يدخل، الحياة تخرج، الطعم يتقارب، اللون يتماثل، المعالم أفقدها، أتكور، قطرة ماء كبيرة أصبح، ماء ملون بالحياة، معلق في كون مائي. أرضي ماء، سمائي ماء، هوائي ماء. ماء ألمس، ماء أرى، ماء أسمع، حواسي كلها ماء، عيوني بالذات ماء. أستنجد بالارادة، إرادتي ماء. أستغيث بالوعي، الوعي ماء. لا مستيقظ أنا ولا أنا نائم وأحلم، الزمن كله ماء أصبح.

ذبالة وعي أخير قبل الظلام التام.. هذه آخر مرة إذن أعي فيها بالموت القادم.

***

حين كنت أغادر المياه بأسرع ما أستطيعه، والبحر ينحسر تماماً حتى يسلمني إلى الرمال، لم أنتبه إلا وقدماي بعد أول خطوة تتوقفان أمام الاحساس المروع الجديد.. إنهما ثابتتان فوق أرض ثابتة. الاحساس الحبيب بالثبات! إنها الأرض من جديد.. إنها الثبات الأم.

لا أذكر شيئاً.

وكـأن أول ما فعله العقـل حين عاد أن محا الحادث تمـاماً من الذاكرة.

ولكن رغم الضباب فهناك ثبات آخر أكاد أذكره.

إنه يبرق في الذاكرة الواهنة الملغاة.

***

ثبـات بالقـطع أحسته الأصـابع. . أصـابعي، وهي تنقبض في تشنج قاتل أخير حـول أصبعين طريتين نحيلتين متـرددتين. . أصبعي سيدة.

ثبـات من نوع آخـر. قبله أو بعده أو على أثـره أو لم تحدث إطلاقاً أصداء صرخة. . صرخة أعرفها تمامـاً. . صرختى أنـا وإن لم تعـد تصـدر عني أبـداً. بـالتـأكيـد لم أصـرخ، أم أكـون رغم أعتى الارادات صرخت؟

***

وقفت إلى بعيد داخل الرمل لا أجسر أن أرمق البحر.

أوليه ظهري.

أبقايا رعب؟

أم هو الخجل؟

أني هزمت وحدي.

وأن نصري جاء باستماتة الأصابع على الأصابع.

***

نظرت في الساعة.

كانت الرابعة ودقيقة.

الخدعة(*)

لابد لكل مـرة من أول مرة. وأول مـرة كانت ليـلاً وهناك قمـر ينشر سلاماً فضياً، والنبع صاف يتدفق ماؤه على مهل وبخرير حنون، ولا تملك حين ترى الماء وقـد ذاب فيه القمـر ذوبانـاً طازجـاً يحدث أمامك، وفي الحـال، إلا أن تظمـأ وتحاول أن تشـرب أو على الأقل تتـذوق، وملت بجسـدي كله، ومـددت يـدي ومـا كـادت القـطرات المتلألئة الباردة تصل إلى فمي، ما كدت أستمتـع بلذة التذوق الأول حتى رأيت، بجـوار صورتي المهتـزة اهتزاز درجـات الأبيض والأسود فيها واهتزاز القمر، صورة رأس آخر. . رأس طويـل ممتد إلى الأمـام وكأنما امتدت يد جذبت ملامحه كلها بعنف إلى خـارج وجهه، رأس طويل ينتهي بشق عرضي واسع سعة لا حد لها، وكأنما لا يكفي هذا فأيضاً شق بالطول. . رأس جمـل لابد، بلا صوت، بلا ضجة، بـلا حـركة. . فجـأة كان الـرأس. لـم أذعر ولا صـرخت، فقط التفت لا لشيء إلا لأتـأكد. كـان قد ذهب القمـر واختفى النبـع والخـريـر ولا

(*) كتبت في إبريل ١٩٦٩ وكانت أول قصة نشرت بعد التحاق الكاتب بالأهرام.

فضة. كنت وحدي وأمامي غير بعيد عني ذلك الرأس يطل عليّ من فوق، لا أرى له جسداً وإنما فقط رقبة غليظة طويلة مقوسة، حادة من أسفل كأنها مخرطة.. رقبة تنتهي من أمام برأس.. ذلك الرأس، ولا جسد، والأغرب أني لا أعجب ولا أتساءل كيف يمكن لرقبة أن تنبع من لا جسد، فهمي كله كان ذلك الرأس المطل عليّ من أعلى، فهو حتى لم يكن يطل عليّ وكأنه لا يرى بي أو لست هناك بالمرة، وخوفي كان أن يراني فجأة فينقض ويعض. ولكن أبداً! لا غضب في عينيه، لا انفعال، لا شيء، إنما عينان كبيرتان مستقرتان على الأمام، ولا شيء أمام.

وكأنما رداً على تساؤلاتي وظنوني التي تنشأ وتدور بلا حماس، في ركن المنظر الأيمن وفي برواز صغير مربع وكما يحدث في برامج التليفزيون وعلى شاشته، حدث بدأ يدور، غامضاً كتمثيليات الكهنة في حجرات المعابد الخلفية، كالتشخيص الصامت الذي يعيد به القسس العشاء الأخير وصلب المسيح، رأيت ذلك الجمل مسحوباً وساحبه صاحبه، وعلى وقع متئد وكأنما كل خطوة حدث وتاريخ يمضيان. ثم بلا مقدمات، بلا معركة، بلا فاعل أو طلقة أو سلاح، بلا شيء على الاطلاق يسقط الرجل ذو الجلباب الأبيض والعمامة. سقط الصاحب، سقط قتيلاً فحول رأسه المطروح فوق الأرض ورغم ظلام المشهد كانت بركة دم. وأيضاً لا انطلق الجمل هارباً ولا جعجع ولا ثار أو «ضرب بالقلة». ظل واقفاً وقد تدلى مقوده في الهواء ينظر من عل أيضاً إلى الأمام، نظرة مليئة بكل

شيء إلى درجة اللاشيء، ثابتة مستمرة وكأنما كانت أبداً وستظل تكون.

ورغم تأكدي أني لا أحلم وأن ما حدث رأيته، قلت: حلم يقظة، رؤيا، تخريف. . أبداً لن تعود.

وفي الصباح - أي صباح - فلا زمن، كنت أستحم تحت الدش حولي ستارة تمنع تسرب الرذاذ، مستمتعاً إلى أقصى حد بأني داخل الحمام الخالي، وداخل الستارة النيلونية المزركشة مع نفسي تماماً. وإذا بشيء يداعب الستارة النيلونية المزركشة ثم يزيحها، وتظهر الشفتان الضخمتان أو بالأحرى الثلاث شفاه؛ منفرجة ومفتوحة وكأنما تنوي ابتلاع كل شيء، بينها تبدو الأسنان كبيرة مطبقة محكمة وكأنما تخاف إذا فتحت أن تفلت شيئاً أي شيء.

ثم أصبح الرأس كله معي داخل الستارة، تحت الدش. دهشت قليلاً ولكني واصلت الاستحمام، ورحت من خلال أسلاك الماء الرفيعة أتطلع ملياً إلى العينين لعلي ألمح شيئاً، لعلي أعرف لماذا أطل وماذا يريد، لعلي أدرك للحظة أنه يراني حتى، ولكن أبداً! كان يطل من عل، وأيضاً إلى أمام.

فتحت الجريدة أقرؤها، ولم أدهش حين شعرت بحركة، ولا حين اهتزت السطور ثم تباعدت، وبلا صوت تمزيق اخترق الرأس الجريدة، وأصبحت لا أرى سوى شفاهه الثلاث، بشع منظرها قريبة جداً من وجهي. فتحات أنفه الواسعة أراها بكل شعرة داخلها،

والأسنان كبيرة منظمة منطبقة ليس بينها فرجة . .

ركبت الأتوبيس والازدحام واصل حد الاختناق، ولا هم لكل منا إلا المحافظة على كيانه. وفجأة وجدت الرأس الصامت الصائم عن الحركة يطل، كان مشهده كفيلاً بإثارة الذعر أو على الأقل التطلع. ولكن الغريب أن النادر من الركاب هو الذي انتبه، وحتى لم يطل انتباهه، إنما هي نظرة ألقاها كأنما تعود أن يلقيها ثم عاد إلى معركة المحافظة على ذاته. . الأغلب الأعم لم يحفل حتى بمجرد الانتباه.

وفي المساء داخل غرفة النوم المغلقة، ولا شيء هناك سوى الحب والرغبة، إذا بي أكتشف أن شيئاً يتسلل بغلظة بيننا، بلا عنف وبلا حياء وربما بلا وعي بما يدور ولكنه أصبح في النهاية بيننا. ولم تحتمل هي، بكل عنف وغضب واستنكار أزاحته جانباً فانزاح، ولكنه بتؤدة وبصبر وبإصرار عاد يتسلل بين صدرينا وبطريقة بدا معها أن لا فائدة من إزاحته.

ورغم أني لم أكن مندهشاً أو غاضباً بشدة أو مستنكراً، إلا أن شعوراً ما بدأت أحسه، شعوراً لا أجد له وصفاً، فالقدماء ربما لم يعرفوه ولم يكتشفوا له اسماً، لكنه أصبح موجوداً وملحاً. وهكذا أخبرت زملائي في المكتب وأصدقائي، وواحداً منهم فقط هو الذي أبى أن يصدق أما الباقون جميعاً فقد ضحكوا وظلوا يشيرون حيالي ويضحكون وكأني ـ أخيراً ـ رويت نكتة قديمة. كان واضحاً أنهم من

زمن يعانون نفس الشعور، وأن رأس الجمل يظهر لهم في كـل مكان وفي أي ساعة. ولكن السؤال أهو نفس الرأس يظهر للجميـع؟ أم أن لكل منا رأس جمله الخاص، كما يقـولون في الأسـاطير أن لكـل منا أختـه تحت الأرض أو فوقهـا، أو ككتابـه يوم القيـامة الـذي يعلق في عنقه؟

تشعبت المنـاقشات وامتـدت، والغريب أن الجـزء الأكبر منهـا كـان في حضوره وقـد أطل علينـا من الباب المؤدي لمكتب المـدير، أطل بنفس طريقتـه.. من فوق، أمـامنا يحـدق، صامت لا يتحـرك، عينـاه حـافلتـان بكل شيء إلى درجـة اللاشيء، والمنـاقشات حـامية صارخة أحيـاناً قـد تؤوب إلى هـدوء حين يتخذ أحـدهم وضع العـالم العارف، وبصوت خافت يتكلم ويحلل، بينما رأس الجمل يطل عليه من فوق. مناقشات كالزوابع الصغيرة أو الكبيرة لا تلبث أن تذوب في بحر ساكن تماماً كـأن سطحـه من زجاج.. بحـر واسع لا حـد له ولا شاطىء.

أنا شخصياً رغم أنـه يظهـر لي أحيانـاً أكثر من مـرة، وفي آخر الأمـاكن توقعـاً أن أراه، أحيـانـاً أكـاد أشـك في عقلي وفي حـواسي وأرفض أن أصدق ما أرى.. بل حتى ما يـراه الآخرون معي. هنـاك خـطأ ما لا بـد! أثـور وأرفض مـا تشـاء لى الثـورة والـرفض، ولكنهـا نوبات.. ليست سـوى نوبـات لا تلبث بهدوء أن تـذوب بنفس التؤدة التي يظهر بها رأس الجمل. كل ما يحدث أنه لدى كل نوبة ـ خاصة إذا أدت بي إلى غيظ أو انفعال ـ تزداد بشدة مرات ظهـوره بحيث أراه

كلمـا تلفت، أينما سـرت، أينمـا ذهبت، من أمـامي وورائي ويميني ويسـاري، بل ـ وهـذا هو المـرعب ـ أحيانـاً أراه داخلي أنا، مـوجوداً بتحديقته الأمامية التي لا تطرف داخل ذاتي الخاصة تماماً وأسراري، بل أحياناً أراه في طفولتي يطل على أمي وهي تضعني، أو ربما على أبي وهو يخلفني. أحيانـاً وأنا أرنـو إلى المستقبل، ومن خـلال أكوام المشاريع والخطط، بأذنيه الصغيرتين الغريبتين تزيحان الأكوام جـانباً ليظهر الرأس ويعلو، ويبدأ يأخذ وضعه التقليدي.

ماذا أفعل؟

كلما سألت الناس قالوا افعل مثلما يفعل الناس. وأسـأل مـاذا يفعلون؟ فأجدهم لا يفعلون شيئاً بالمرة. أحياناً يحاول البعض لمسـه والتمليس عليه وهدهدته، أحياناً يثـور البعض ويغضب ويسبه، بعض آخر يركله وينـطحه. ولكن رأس الجمـل يبقى دائماً كمـا هو، ويبقى النـاس كمـا هم، يبـدو لهم بـطريقـة يعجبـون لهـا أول الأمـر، ثـم يتحدثون فيها، ثم يملون الحديث، ولا يعـود ذلك الـوجود الغـريب لرأس الجمل ظاهرة قابلة للتوقف أو حتى النظر. بل تتحـول على يد الناس ـ وهم في هذا عباقرة ـ إلى ظاهرة مفيدة، مرة في الاعتذار عن تـأخير، في تبـريـر اشتـداد الحـرارة في الصيف، في التبشيـر بحلول النعمة إذا حلت أو العثور على علامة للنقمة.

ويتم هـذا كله دون أن يثير دهشـة أحد أو استغـرابـه، أو حتى يفكر لحظة ويتأمل. وربما لهذا فـرأس الجمل لا يكف عن الـظهور! ربما لو اندهشنا، فقط اندهشنا، كلنا اندهشنا كلما ظهـر، لما ظهـر.

ربما نحن مرضى.. كلنا مرضى قد أصبنا يوماً بمس في خيالنا ترك أثاره على هيئة رأس جمل، أو ربما الاصابة قضت فينا على مراكز الدهشة والعجب، أو ربماشيء آخر، ربما التطور. . أجل التطور قد وصل بنا إلى مرحلة الانسان الذي لابد أن يظهر له رأس الجمل، بحيث تكون الكارثة لا أن يظهر، وإنما أن نستيقظ ذات صباح فنجده لا يظهر. أي مصيبة ساعتئذٍ وأي ضياع! وماذا نفعل ونحن قد أصبحنا لا نحيا الحياة أو نزاولها لأننا لا نريدها وإنما لأنه يطل علينا كلما شرعنا في عمل الشيء أو مزاولة الانفعال؟ لولا إدراكنا أنه سيطل لما أقدمنا أبداً على شيء، ولولا إدراكي لوجوده ما كنت أبداً قد أقدمت على ما أقدم عليه الآن. فالآن وبلا ذرة دهشة أو غرابة ودون أن أرفع رأسي، متأكد أن رأس الجمل يطل عليّ، ذلك الرأس العالي الطويل، وكأنما مطت ملامحه كثيراً إلى أمام والشفاه الثلاث الكبيرة إلى حد الورم، والأسنان المتراصة، سنة كبيرة بجوار سنة كبيرة، منطبقة تماماً ولا فرجة بينها، إلى أمامه يتطلع ولا يتحرك، لا يغضب ولا يرضى، لا يحفز ولا يثبط، لا يفعل شيئاً أبداً إلا أن يطل، مجرد طل..

سِنوبزم(*)

حكـاية الـدكتور عـويس حكايـة. الأغـرب أنـه لم يحكهـا ولا يحكيها. ولا تزال لا تحتل من اهتمامه أي مكان بالمرة. حكاية هايفة في رأيـه. فالمـوضوع المهم هـو اللائحـة. واللائحـة هي «جنـونـة» الدكتور عويس هذا الموسم. فهو له في كل موسم أو كل شهر أحياناً «جنونة».

صدفة رأيته يعبر ميدان التحرير بأقصى سـرعة. كـدت أضحك لمجرد أنه يجري، فهو ليس وقوراً فقط ولكنه من النوع الذي يـراعي الوقار حتى في غير حضرة الناس. وقار زائد مبالغ فيه وجـدية خـطيرة تكسو ملامحه، حتى إني كلما رأيتـه تساءلت كيف يستـطيع التخلص من هـذا كله وهو مـع زوجته في الفـراش، أو الأدهى، كيـف يتصرف معها بكل هذا الوقار؟

لم يرني.. أنا رأيته وصحت به. توقف، تلفت، تحرج، مسح العرق، أنا ذهلت. كان لأول مرة بلا نظارة ـ نظارتـه التاريخية التي لا

(*) كتبت في أوائل سبتمبر ١٩٧٠.

يغيرها ـ بدأ وجهه كالعورة حين يخلع عنها السروال. سلامات وأنت فين وكيف حالك ولا مؤاخذة وعامل ايه، وأنا أتطلع وأكتم شيئاً كبركان الضحك يدمدم في صدري. . لا لملامحه بغير نظارة فقط، وإنما لعينه اليسرى وقد أزيلت تماماً ومعها جزء من الوجنة والحاجب. لم تزل وإنما ارتطمت بها كرة من «البلا» الأزرق سدت عينه ومحجرها واستقرت بارزة زرقاء ناتئة كفانوس عربة نقل مطلى باللون الأزرق. كدمة! كدمة لابد سببتها «بونية» صوبت بمهارة ومن بطل ملاكمة محترف من الوزن الثقيل على الأقل. المسألة فيها علقة إذن. انفجر البركان وضحكت بأعلى وأبشع ما ضحكت في حياتي. كان لا يزال يتحدث ولا أسمع، سادر في الضحك أكاد أسقط فوق الرصيف. أخيراً لمحت فمه يغلق، ويتلفت، ثم يواجهني بعينه السليمة مليئة بحيرة طفولية حقيقية ربما يتساءل بها عما يضحكني، أو ربما يحاول تشخيص حالة عقلية حادة أصابتني وجعلتني أضحك بلا سبب معقول. وفقدت السيطرة على نفسي وانثنيت واعتدلت أضحك وأضحك وأضحك. وربما تخلصاً من حيرته لما اعتراني بدأ يشاركني في الضحك بطريقة واضحة الافتعال. ثم لما لاحظ أني كلما نظرت إلى وجهه الأيسر ضحكت فطن أخيراً فابتسم لشدة بلاهتي ربما وقال: آه. . عشان دي يعني؟

وأشاح بيده كمن يطرد ذبابة غير مهمة، وقال: يا أخي خلينا في المهم. عارف حصل ايه الأسبوع اللي فات؟ اكتشفت أن ثلاثة على الأقل من أعضاء هيئة التدريس يدبرون مؤامرة صغيرة ضد

مشروع اللائحة.

وبـالقوة كتمت الضحـك بيد وأشـرت متسائـلاً عن سبب تـورم عينه وفقده نظارته بهذه الصورة. أشاح أيضاً بلا اهتمام قائلاً: أبداً.. حادثة بسيطة من الأسبوع اللي فات. المهم أن المؤامرة ضد اللائحة هذه بدأت من عشرة أشهر. تصوروا عشرة أشهر.

أخيراً نطقت أنا:

ـ الأسبوع اللي فات امتى وازاي؟

ـ بقول لك من عشرة أشهر، اللائحة.

ـ أنا أقصد عينك.

ـ لا دي حكـاية بسيـطة لا تذكـر. حادثـة كـده، نـاس أوباش، سنوبز..

المسألة إذن فيها علقة أخذها الدكتور عـويس.. وفكرة ضـربه علقة ليست غريبة، كثيراً ما خطرت لـزملائـه في الجامـعـة أو لبعض تلاميذه أو لي حتى شخصياً. ترى من سبقنا جميعاً ونفذها؟

أستاذ.. أي نعم أستاذ. رئيس قسم «الأنثربـولوجي» على عيننـا ورأسنا. التفكير في الضـرب سببه الاحسـاس المبالـغ فيه بهـذا كله، والمبالغ فيه كلمة متواضعة لا مبالغة فيها. البارانويا أو جنون العظمـة ربما أصلح.. الاحساس بـأنه مبعـوث العناية الالهية ليس لإصـلاح الكـون الفاسـد وإنما ليعين وبـواسطة حق سمـاوي مطلق ومن جهـة

كونية عليا مصلحاً للكون الفاسد. الحرية تؤمن بها صحيح، ولكن ويلك إن استعملتها في مناقشة رأي له. الحرية هي حريته أن يقول الرأي، وحريتك أن تقتنع به. فإذا لم تفعل، إذا كان لديك رأي آخر فأنت من الأوباش الذين يسميهم الـ «سنوبز».

ـ تصور عشرة أشهر وأنا أكافح من أجل اللائحة.

ـ إذن هي السبب في الخناقة؟

ببراءة سألت وأنا أشير لعينه اليسرى البارزة كعين ضفدعة وحيدة العين.

أحس لتساؤلي بنوع من التقزز. وفي عز الحر، وعلى رصيف مزدحم بالمارة يتخبطون بنا مضى يحكي لي في تدفق قصة كفاحه من أجل وضع لائحة تنظم سلوك الطلبة وهيئة التدريس في كليته، ربما تمهيداً لتطبيقها في الجامعة كلها ثم بواسطة هيئة الأمم في العالم أجمع. ولساعة ونصف ظللت أستمع، لكي أنتهز فرصة يلتقط فيها نفسه أو يحاول تذكر اسم وأسرع بتوجيه سؤال صغير أستفهم به كنه « العلقة» التي نالها الدكتور عويس، وعن هذا المجهول الذي استطاع أن يقتحم الهالة العلمية التي يحيط بها نفسه، وحصانة الأنبياء التي تبدو بها وسط الناس ويصل إلى عين ذاته المصونة تلك، ويبهدلها على هذا النحو.

وقصة اللائحة مسلية تماماً أنبتت في ذهني أكثر من فكرة مسرحية، فقد جسدها لي بنفس الأهمية والدقة التي جسد بها شكسبير مسرحيته المشهورة يوليوس قيصر، والمؤامرة التي حيكت

ضده، وكل التيارات الخفية والظاهرة، وحتى بروتس كان هنـاك، ولا تنس خطبة مارك أنطوني، وسـذاجة الجمـاهير، والخنجـر، والخنجر هنا كان آدمياً، بل شخص العميد بذاته.

ولكن العلقــة ظلت ـ ربمـا على رأيــه لتفـاهتي ـ هي محــور اهتمامي، ومن الأسئلة المختلسة والاجابات السـريعة المشمئـزة التي يلقيها لي كالفتات حتى أستطيع أن أواصل الاستماع لقصة الـلائحة، من هذا كله أدركت ما حدث، ويا له من حدث.

الدكتور عويس لا يملك عربة، ومع أنـه مساعـد أستاذ ورئيس قسم إلا أن ماهيتـه لا تكفي كي يستعمل التاكسي في مشواره الطويل بين بيته وبين الجامعة . . وفي أوتوبيس ٩٩٩ وقعت الواقعة.

من أسبــوع مضى كـانت الكتلة البشـريـة المعتـادة يمتلىء بهـا الأوتوبيس، وكان الدكتور عويس ومحفظة أوراقه الرهيبة رافعاً بها يده كالراية السوداء، فقد كانت تحوي أهم الأشياء في حيـاته. . محـاضر وتقارير ومذكرات ومسودات موضوع اللائحة. كان بـلا هيلمان، بـلا قـدسية، بـلا نفخة صـدر، قـد تضـاءل حتى احتـل مكـانـاً لا يكفي «للبشة» قصب تحوي عشرة عيدان وسط هذا الحشد من أجســاد فقد كـل منها كيـانه الخـاص، وتداخلت انبعـاجات أحـدها في التـواءات الآخر لتصنع خليطاً من الأجساد البشرية المدكوكة بإحكام، كما يدك الشاري الطماع «الكيلة» بالقمح ليجعلها تحوي ـ جوراً وحراماً ـ فوق طاقتها بكثير.

يبـدو أن السؤال التالي السـريع استفـزه، فعقـد مـلامحـه لأول مـرة، ونسي اللائحـة لبرهـة وانفجر مجيباً: اسمع! على لسـاني قل ولـك حق أن تقول، وانشـرها في الصحفـ التي لـك بهـا صلة، قـل لركاب أوتوبيس ٩٩٩ الذي غادر ميدان التحرير الساعة التـاسعة يـوم تسعـة في الشهر الحـالي أنهم أبداً لن يفلتـوا من العقـاب. . عقـاب التاريخ أقصد وضمير البشرية العام. فالفرد حين يرتكب جريمة مسألة تدخل في نطاق العقل، أمـا الجماعـة حين تجرم هكـذا، وبالتلقـائية وبدون اتفاق سابق وبالاجماع الذي لا يشـذ عنه أحـد عن عمد وبـلا تردد وفي وضح النهار تجرم، حين تفعل هذا فنحن أمام أنثروبولوجية لـم تعرفها البشرية من قبل. . ظاهرة قد أعهد ببحثها إلى أحد تلاميـذ الدكتوراه عندي، ولكن قل لهـم ـ وهنا ولصوته المرتفع كان قد تجمع حولنا بعض المارة فبدا كما لو كـان يخاطبهم، ومبهـورين مشدهـوين غيـر فاهمين وقفـوا يستمعـون ـ قـل لهم أيضـاً وعلى لسـاني أنهم لن يفلتـوا من العقاب. . ليس عقـاب القانـون ولا الدولـة، ولكن عقاب الأنا الكبرى.

واستجابة للكزاتي وغمزاتي فطن إلى المجتمعين، فالتفت إلى الناحية الأخـرى ونطق كلمـة واحدة «سنـوبز». والتفـاتته جعلت كـرة «البلا» الأزرق تواجهني، وجعلتـه يبدو كمـا لو كـان يحدق فيّ بهـا. وشعرت وكأنما بإلهام أن هذه ليست ربما المرة الأولى التي أشعـر أنه ينظر إليّ أو إلى الآخرين ـ أو أحياناً لبعض الحوادث ـ من خلال هذه العين الوارمة الـزرقاء البـارزة إلى أمام. أدركت وكـأنه كثيـراً ما كـان

يستعملها ليعطي أو ليستقبل وجهة نـظر. كل مـا في الأمر أنهـا كانت وارمـة إلى الداخـل، ولم تفعل «البـونية» التي تلقـاهـا أكثـر من أنهـا «نطرتها» وجعلتها بادية للعيان.

ـ«سنوبز»! ولكن هـذا كله ليس مهماً. . هـذه حكـايـة هـايفـة جداً. المشكلة أن المشروع الأول للائحة كنت قد قدمته بديمقـراطية شديدة. .

ولكن. . فلنعـد نحن إلى مـوقف الـدكتـور عـويس في ٩٩٩، وقفتـه بالضبط جـاءت بجـوار العمـود الفـاصـل بين الـدرجـة الأولى والثانية. وكان كعادته قد قـرر أن يهرب بـأفكاره من مضـايقات البيئـة الموقوتة إلى خططه ومشاريعه لتفويت اللائحـة، إلى أن حدث وأجبرته هـزة قيام الأوتـوبيس أو وقـوفـه لإدراك أن من يقف أمـامـه سيـدة. و «يقفـ» أيضاً ليست الكلمة الـدقيقة لـوصف ما اكتشفـه، فقد اكتشف أن جسديهما في حـالة تقـارب لا تسمح بـه الحرمـة البشريـة. فلكل جسد بشري في رأيه حرمـة وحد أدنى من المسـافة الـواجب توافـرها لكي تحفظ كيانه كوحدة انسـانية مستقلة. ولم تكن هـذه أول مرة في ركوبه للأوتوبيس يحـدث شيء من هذا، وكـانت طريقتـه لحل هـذا الاعتداء على حرمة جسده واعتداء جسده على حرمة غيـره أن يتحرك حتى يولي السيدة ظهره.

ولقد حاول هـذه المرة فـوجد أن تحـريك رقبتـه نفسها أو ادارة وجهه فقط عملية تبدو مستحيلة. ولم يكن ثمة بـد مما ليس منـه بد،

وأستطيع أن أتصور الكفاح الرهيب النفسي والعصبي والجسماني الذي بذله الدكتور عويس ليستعمل حقيبته التي تعادل قدس الأقداس في نظره، وليهبط بها من مكان الراية السوداء التي يرفعها كالغريق ليفرضها بالقوة القاهرة حائلاً بين جسده وجسد السيدة، التي لابد وأنها شكت في نواياه وتحركاته أول الأمر، ولكنها حين أدركت في النهاية هدفه بدأت تبذل المستحيل لمساعدته ـ مشكورة لا شك ـ فجسدها كان سميناً كثير الانبعاجات صعب الحركة، وحين ـ بعد جهد جهيد ـ تمت العملية بنجاح وأصبحت كل وثائق اللائحة وأسرارها مضغوطة بشدة وقائمة ـ ليس بمعناها كلائحة لتنظيم السلوك وإنما بمادتها كورق ودوسيهات ـ قائمة لتصنع سوراً يحافظ على الحد الأدنى لحرمة جسده، بصعوبة لفت السيدة رقبتها الممتلئة، وبالكاد لف هو احدى عينيه، ومن خلال التقاء البصرين قالت له كلمة امتنان صامت أرضت كبرياءه التي نادراً ما ترضى. ومن خلالها أيضاً أدرك أنه كان على صواب، فالسيدة بدت وقورة من النوع الذي لا يعجبه سواه، وجهها أبداً لم يتعود الابتسام وإنما يطفح بشيء آخر كالايمان. حدث نفسه بأنها ربما متدينة، ربما زوجة محترمة لرجل دين، ربما هي من عائلة أجادت تربيتها حتى أشرفت على الثلاثين كما بدت له سنها.

حاولت سبق الأحداث وأنا أستمع طوال ربع الساعة المستمر التالي لأعرف كيف نشأت المشكلة، فواضح الآن أن كل شيء على ما يرام. وبلهفة متزايدة كنت أسأل وأنتظر وقصة اللائحة دائرة بأقصى

سرعتها، وأعود أسأل لأعرف في النهاية أنه الكمساري. المشكلة بدأت بمجيء الكمساري. كيف جاء؟ كيف تسرب؟ كيف أمكن ويمكنه أن يتحول إلى كائن أثيري يخترق الأجساد؟ لا أحد يعرف. المشكلة أنه مر ولكي يمر أحدث في الأجساد المدكوكة في فراغ العربة بقوى قاهرة ثابتة.. أحدث خللاً كالخلل الذي يحدث لأوضاع النجوم والكواكب إذا مرق بينها نجم هوى وتغيرت به قوانين الجاذبية. إذ في لحظة اكتشف الدكتور عويس أن من أمامه أصبح رجلاً، وأصبح بقامته الأقصر الحائل بين الدكتور وبين السيدة. ولابد أن ارتياحاً عظيماً انتاب الدكتور عويس وأعفاه من كل الضغوط وجعله مرة أخرى يرفع المحفظة إلى أعلى.. رايته السوداء الخفاقة. المحتويات اللائحية في أمان الآن.

ـ أوباش مدعون! أوغاد منافقون!

ـ لم أفهم.

ـ أوباش!

ـ ماذا حدث.

ـ اعفني أرجوك من هذه التفاهات.. دعنا في المهم.

والتفاهات بدأت بتحركات لهذا الراكب القصير غير مفهومة للدكتور عويس، ثم حين تكررت أوحت اليه بفكرة النشل. استبعدها. نقوده في جيب السترة وموضع الجيب فوق كتف الرجل تماماً، ومن المحال أن يستطيع لوي أي من أذرعته ليصل إلى

الجيب. آه.. كده؟ إنه يعرف أن أشياء كهذه يقال إنها تحدث، لها عنده تفسيرات سيكولوجية وحضارية وأخلاقية ـ وبالطبع وعلى رأس القائمة ـ أنثروبولوجية. هوبكنز تحدث عنها، أدوارد. ج. أدوارد له فيها بحث طويل، الألماني ريختـه أضافها إلى الطبعة الجديدة من كتابه.

ولكن هذا الرجل المتحرك القصير الواقف أمامه الآن لا شك خبيث، ولا شك لم يحط بهذا المكان صدفة. انتهز فرصة التخلخل الحادث لمرور جسد الكمساري واحتل هذا الموقع الاستراتيجي خلف السيدة. وحتى هذا كله ليس مهماً، كل هذه السفاسف سيجرفها التحضر يوماً. حتى لو كان الدم قد غلا لوقت عابر في عروقه البحراوية، فما يجب أن يشغل به نفسه أهم.

ولكن الدكتور عويس اضطر لأن يؤجل انشعال نفسه بما هو أهم.

فالسيدة قد بدأت تتململ، وبقوة خارقة تتحرك محاولة أن تستدير بجسدها وتأخذ وضعاً أفضل. وأخيراً حين بدا أنها مجبرة على الثبات في مكانها لا تتحرك شعرة، لوت بكل ما تملك من قوة عنقها وقالت: بلاش مضايقة بقى. اتاخر اتاخر شوية.. الله.

ولأن وجهها بدا كما لو كان يوجه الكلام للدكتور عويس الأطول، ففجأة وجد عويس نفسه محط أنظار العيون كلها وكل تساؤلها. طارت المشاغل وحتى اللائحة من رأسه فوراً وسألها

بحماس وسرعة :

ـ حضرتك بتوجهيلي أنا الخطاب؟

بصوت أعلى قالت:

ـ لا أنا بكلم الجدع اللي ورايا ده .

وتنفس الدكتور عويس في ارتياح بعد أن كان قد فقد النفس. أما الرجل القابع خلفها فقد بدأ يتكلم. كلماته صف طويل من صفائح «الجاز» الفارغة التي تهاوت تقرقع وتتخبط وتصنع زعيقاً صفيحياً أجوف أكثر منها كلمات مفهومة .

ـ ولزومه ايه الكلام الفارغ ده؟ مانا غصب عني، أنا قادر أتحرك؟ ما هو لازم نستحمل بعضينا، ولكها محطة وكل واحد يروح لحاله. ما الناس كلها مستحملة بعض انت يعني اللي على راسك ريشة!

أو هكذا قال .

السيدة المؤدبة المتربية سكتت. العيون انصرفت. الدكتور عويس قرر أن يقاطع ما يحدث أمامه فكرياً تماماً وأن ينصرف إلى ما سوف يقوله في الاجتماع الخطير الذي سينعقد بعد ساعة واحدة .

كل ما في الأمر أن الرجل الدمنهوري فيه كان بين الحين والحين يطل برأسه ويدفعه إلى العودة لمتابعة المشهد ليطمئن إلى أن الرجل قد كف تماماً عن مضايقة السيدة، ولكن اطلالات الرجل

الدمنهوري كثرت حتى طردت تماماً اهتمامات أستاذ الأنثروبولوجي وصاحب مشروع اللائحة. الرجل رغم كل ما حدث استأنف المحاولات وبجرأة أكثر، حتى والسيدة بين الحين والحين تجبر عنقها المكتنز على الالتواء وتصويب نظرات صاعقة هلعة مستبشعة راجية، أخيراً بدأ يطفر منها دمع متحجر صامت. نظرات كان واضحاً منها أنها تتعذب عذاباً لم تذقه في عمرها، إذ كانت تتألم ذلك الألم القاتل الذي لا يستطيع فيه المرء أن يصرخ أو ينطق أو يقول لا. والرجل وكأنه فقد الانسانية والحيوانية معاً لا يولي شيئاً من هذا كله أي اعتبار، مندمج بكليته في متعته الدنيئة الغارق فيها لا يرى سواها ولا يهمه إي ألم هائل تعانيه السيدة لقاء لحظة المتعة تلك. كان على الدكتور عويس أن يستحضر ذاته العلمية بكل قواه وقواها حتى لا يندمج ويقوم من فوره بمهمة المصلح الاجتماعي الأخلاقي المباشر، هذه الأعمال والتدخلات المباشرة اليومية ليست مهمة رجل علم مثله. رجل العلم مهمته أشمل بكثير، أن يغير البشرية كلها، فإذا تناولها فرداً فرداً وحالة حالة غرق فيما يغرق فيه انسان الحياة اليومية وضاعت رسالته إلى الأبد. عالم هو وكعالم فليراقب بلا أي انفعال وكأنه يراقب فئران تجارب، وهمه كله أن يستخلص من التجربة مغزاها ليكتشف للظاهرة حلها العلمي الصحيح لا أن يتدخل لرفع ظلم مؤقت تعانيه فأرة من فأر. هذه مهمات الفتوة والقانون ورجل البوليس والجدع الشهم، وكلهم أيضاً في التجربة العلمية فئران..

وهكذا لم يبد غريباً للدكتور عويس ـ وإن كان قد اعتبره اكتشافاً جديداً حقاً ـ أن يلحظ أنه لم يعد وحده الذي يتابع ما يجري، وأن أكثر من عين تختلس النظر، بل وهذا مدهش حقاً في بعض النظرات متعة وترقب وحماس من حماس المتفرج أو المتابع، يكاد يقترب الأمر من المتعة.

نظرات كثرت، والرجل قد بدأ يمد يديه، وبأصابع ترتجف انفعالاً لا خوفاً يرفع ثوب السيدة شيئاً فشيئاً، مجمعاً قماش الثوب في قبضتيه اللتين يستعملهما في نفس الوقت لزيادة احتضانه لها.

الأوتوبيس مشحون صامت، يخترق شوارع ضيقة تنفذ ضجتها اليه وتغرق كموجات البحر صمته. الركاب كل في ملكوته، حتى القليلين الذي يتتبعون الجاري بما فيهم عويس قد احتواهم هذا الملكوت الخاص المفاجىء حقاً، هو هذه الكلمة التي خرجت مجرحة بالغيظ مخنوقة بالدموع مكتومة وكأنها تتصاعد من أظافر القدم:

ـ الحقوني يا ناس.. دا بيقلعني هدومي.

صرخة.. شبه صرخة! ذهول مؤقت.. صفارة طويلة من الكمساري. فرامل سريعة من السائق. تحرك اللحم في العربة مندفعاً بتأثر الوقفة المفاجئة اندفاعة شديدة كادت تدلقه إلى أمام، ثم دلقة أشد حين تم الوقوف إلى الخلف. وهكذا تغير الحال تماماً ولم يعد أحد في مستقره، حتى الدكتور عويس وجد نفسه في قلب

الدرجة الثانية وفوق رأسه تماماً سبت يتساقط من شقوقه ماء سمك طازج.

ـ مالك يا ستي؟ حصل ايه.

في انفجار باكية مغيظة، أشارت السيدة إلى الرجل الذي كان واقفاً خلفها والذي كان قد أصبح في الدرجة الأولى بينه وبينها ركاب.

ـ دهه.. ابن الـ.. دهه.. كان.

ـ أنا؟

لا قرقعة صفائح هذه المرة، وإنما عواء ذئب صارخ، أو ربما زئير ضبع أو أسد. أنا؟ واندفع ناحيتها. أنا يا قليلة الأدب. وبكف صغيرة جافة هوى قلم، وقلم. .

وسأل السائل الأول:

ـ حرام تظلمي الناس. انتي متأكدة؟

وفتحت فمها لترد.

وطويل، هائل الطول هذه المرة، واحد من ذوي الأعين التي رآها الدكتور عويس ومتأكد أنها ترى كل شيء وتعرف، جعجع:

ـ ده كان بينه وبينك سبع ركاب. وأنا كنت واقف وراكي وانتي اللي عمالة تتحككي.. بقى..

وصفعة أخرى. . ودفعة، وكوع لكز وركبة، بغل ضربت، أصوات تداخلت:

ـ تستاهل! يعملوا العملة وبعدين يعملوا شرفا.

سيدة تعلق:

ـ ويعني الشرف حبك قوي؟ كانت استحملت وبلاش الفضائح.

زغدة، كتف، دفعة أشد، أكثر من ذراع، السلم. دفعة ظهر إلى الأرض لا حراك بها فوق الرصيف، حزام الفستان مفكوك، أزراره تفتحت، شرابها تهدل، شعرها انفكت الشريطة التي تضمه، تبعثر كهشيم في كل اتجاه. وما أن استقرت في الخارج حتى هدأت الأصوات الزاعقة، وبدأ كل منهم يتنفس في ارتياح. . الحمد لله.

احتاج الأمر ارادة من حديد كي يحول الدكتور عويس بين نفسه وبين أية انفعالات ذاتية. فليرتفع ضغط دمه! فلينفجر غيظاً! فليتقطع قلبه اشفاقاً! ولكن فليبق هو المراقب في حدود دوره كعالم، يرى ويلحظ ويسجل. لتبق له مساحة عقلية تكفي ليعرف أيضاً ويتساءل. . والتساؤل الذي يلح عليه قاس لا يرحم. حادثة السلوك الشاذ من الراكب تفسيرها واضح، مريض الرجل لابد في حاجة لعيادة وطبيب. حادثة العيون التي ضبطها تختلس المتعة تفسيرها أبسط. المذهل المحير ليس أن تستغيث فلا تجد المغيث، السؤال الملح هو هذه الرغبة التي لابد أنها نبتت بتلقائية ـ وفي كل نفس على

حدة ـ لإثبات كذب المرأة ونفي الموضوع وكأنه لم يكن. بـل والأكثر عقابها الجماعي على تلك الصورة لأنها فتحت الفم ونطقت، وبلغت بها الجرأة أن استغاثت وحددت الفاعل.

في ثوان طاف عقـل الدكتـور عويس بحصيلة ثـلاثين عامـاً من المعرفة والقراءة وحتى التخصص. . في ثوان وبكل قوة تـوهجت كل قدرته على الاستنتاج والجشتالت، وفي ثوان أيضاً أدرك أن لا جـواب لديه ولن يقدر بذكائه وحده أن يصل إلى جواب.

ولأول مرة مذ وقعت الـواقعة وركب الأوتـوبيس يبدأ المـوضوع يتخـذ في عقله خطورة مـا، فقد أدرك فجـأة أنه أمـام ظاهـرة تحدث أمامه، بل وربما في صميم اختصاصه، ولا يملك لها أي تفسير.

وإذا كـانت الرغبـات هي محركـاتنا الأسـاسية للفعـل، فـرغبـة الدكتور عويس للمعرفة كانت هي قوته الدافعة الأولى. . أقوى رغباته جميعاً. يكفي أن يحس بها حتى ينسى أي شيء وكل شيء وينتصب أمامه ذلـك الهدف السـاحر الـذي لا يقاوم. . أن يعـرف. بعد ثـوان ستكون الفئران قد اختفت والاجابة ضاعت، وهي لحظة واحدة وعليه أن يختار.

وفجأة وسط جو لا يزال مشحوناً ملبداً تنحنـح صوت لا عـلاقة بين نبرته ومقـامه وبين كـل ما سمـع من أصـوات وضجيـج. . بنفس طريقته وهو يرفـع الكلفة مـع تلاميـذه ليأخـذهم تحت ابطه ويحـظى منهم بـالاعتراف قـال: اسمحوا لي بكلمـة. أقدم لكم نفسي أولاً. . أنا الدكتور فلان الفلاني الأستاذ بكلية كذا بجـامعة كـذا، وعديـد آخر

من الأوصاف، وأرجوكم لا تعتقدوا أني أقصد التدخل في شئونكم الخاصة. (حب الاستطلاع وصل في جو العربة هنا إلى حد مخيف) وإنما أنا أستاذ مادة الانثروبولوجيا ولا يهمني ما حدث أبداً من الناحية الأخلاقية أو القانونية. أنا يهمني الناحية العلمية. (تحول حب الاستطلاع إلى شك). لقد أتاحت لي وقفتي قريباً من هذه المرأة التعسة ـ كاد سائق الأوتوبيس يضغط على البنزين ويمضي ولكنه عدل، الكمساري كف عن عملية الاطمئنان على نقوده ـ أن أرى كل شيء وأن أرى أن آخرين غيري يرون نفس الشيء.. وليس هذا مهماً أبداً عندي.

رمقه الرجل مفلفل الشعر بالمشيب مرتكزاً على عمود الوسط وبنوع من الاستغراب المشبع بالانذار سأله: انت عايز ايه يا أستاذ بالضبط؟ عايز تقول ايه احنا مش فاضيين؟

بصوت عال واضح قال:

ـ عايز أعرف ايه اللي ضايقكم أنتم في تصرف السيدة وفي اتهامها للأفندي؟ زعلتوا ليه؟ حتى الستات.. اضايقت ليه؟ لأسباب علمية محضة أرجوكم أن تجيبوني لأن هذا مهم لي في مادتي جداً.

سكت الجميع ينظرون في استغراب ويقررون إن كان مهفوفاً أولاً أو عليهم أن يعاملوه كالعاقلين؟ وإن كان يسأل حقيقة أو أنه ينصب بسؤاله مصايد وفخوخاً؟ وفجأة قال مفلفل الشعر:

ـ أنت بتقول انك شفت واننا شفنا. هو ايه اللي شفته وشفناه؟

ببلادة قال:

ـ شفت اللي حصل.

ـ وهو حصل ايه؟ انت شفت حاجة حصلت؟ إحنا ما شفناش انت شفت؟

ـ الله. كل ده وما حصلش حاجة؟ أمال الست..

ـ كذابة!

ـ والأفندي؟

ـ ما عملش حاجة.

ـ وأنا.

ـ وأنت نصاب باين عليك.

قالها شاب كان ضمن الكتلة الملتصقة التي تسد الباب الخلفي، وما لبث أن انخلع منها وتقدم في اتجاه الدكتور عويس مستمراً بصوت يتزايد علواً:

ـ على فكرة أنا طالب في كلية كذا بجامعة كذا اللي بيقول عليها دي. وأعرف كل الأساتذة والمعيدين ويمين بالله ما في كليتنا أستاذ بالاسم ده ولا شفت الخلقة دي قبل كده من أصله. ده شكل أستاذ جامعة ده؟

وفعلاً كان المتحقق في ملابس الدكتور عويس وهيئته التي لا تترك له اهتماماته الأستاذية الأنثروبولوجية وجنوناته وقتاً للعناية بها،

يستطيع ببساطة أن يجزم أنها قد تكون لأي انسان إلا لأستاذ أو مدرس أو أي شيء له صلة بالجامعة.

صرخة أخرى:

ـ وعلى فكرة. دا هو اللي كان واقف وراها.

ـ تمام تمام دا باين عليه ديوس قارح.

الله الله! المسألة تتطور بسرعة مخيفة.

ـ ياحضرات أنا مابالومشي أنا بسأل سؤال علمي.

ـ علمي يا ابن الـ..

وبألفاظ الدكتور عويس نفسه:

ـ احسست بمساحة لها كثافة الكاوتشوك وصلابته وكأنما من ارتفاع برج الساعة، وترتطم برقبتي من الخلف. كان أول «قلم» أتلقاه على قفاي في حياتي. والألم الجسدي لم أشعر به، إذ فجأة شعرت أن آدميتي كلها تبعثرت. كل شيء يكون ذاتي تشتت وسال تحت الأقدام. كرامتي تاريخي، كل ما هو أنا انهار ومضت الأحذية تطؤه. القفا أعقبه ثان وثالث، وعلى الوجه والرأس وبالشلاليط، وآخر ما شعرت به نظارتي وهي تتدشدش وينغرز بعض زجاجها في جلدي ثم عيني اليسرى وقد أخذت تنتفخ بسرعة خارقة وتوشك كالبالونة على الانفجار. يا أخي هذا موضوع هايف كنت نسيته وخلاص. لماذا تلح في تذكيري به؟

لم أعد أستطيع . . وبحسم أوقفته مستعملاً لهجة الأمر الذي لا يقبل النقاش لأول مرة، أريد أن أعرف بقية ما حدث .

ـ لا بقية ولا شيء! لقيت نفسي متمدد جنب الست ع الرصيف والأوتوبيس مشي من زمان وجه غيره، وانتهى الموضوع .

ـ انتهى ازاي؟

ـ أخيراً قررنا عمل اجتماع عشان اللائحة عند العميد.

عميد ايه؟ ولائحة ايه؟ ماذا بعد الضرب؟ ماذا فعلت؟ هل أبلغت البوليس؟ هل شكوت؟ هل كتبت للجهات؟ . . هل؟

ـ ولا هل ولا شيء. أشكي مين؟ أوتوبيس؟ وأشكي ليه؟ المسألة سوء تفاهم لا غير. أنا كان قصدي سؤال علمي هم افتكروا حاجة تانية . . مجرد سوء تفاهم. شوية «سنوبز» إذ المجرمين الحقيقيين المتآمرين هم الناس اللي وقفوا ضدي في الاجتماع . دول عارفهم كويس وعارف وقفوا ليه ووراهم مين والهدف من المؤامرة ايه؟

لم أستطع إلا أن أفقد السيطرة وأنفجر وقد فاض بي الكيل، وأستمع إلى كلمات اللوم والغضب وهي تتدفق بحرارة من فمي، استمع بلا أي لوم أو غضب. فقط ظل ينظر لي مشفقاً وكأنه أرسطو يتأمل قروياً يونانياً ينقذه بشدة ويشتمه على «مربعه» الفلسفي المشهور الذي ابتلى به البشرية .

ظل يستمع حتى ـ من نفسي ـ سكت، وطبطب على كتفي

وكأنه يرضي طفلاً أضاع معه وقته وقال:

ـ أنا متأسف لأني مضطر أسيبك عشان ألحق الاجتماع. . أنا دلوقتي بس أدركت أني ضيعت وقتي معاك، أنا بقالي ساعة أحاول أقنعك أنك ـ بصفتك راجل مهتم بالمشاكل العامة ـ تقف مع قضية عادلة زي قضية لائحة السلوك العام، إنما الظاهر أني ضيعت وقتنا نحن الاثنين. عن اذنك ألحق الأوتوبيس.

ـ الله. انت لسه بتركبه؟

ـ طبعاً.

ـ و٩٩٩ برضه.

ـ هو وغيره. ليه لأ؟

ـ وبتشوف برضه تجارب علمية وتسأل. . . و. . .

ـ ماباشوفشي حاجة أبداً. أنا صحيح جبت واحدة جديدة صحيح إنما عشان أستعملها بس في الحرم الجامعي.

إنما خارج كده، أنا لا أرى زي ما أنت شايف.

ـ ولا بتسمع استغاثات.

ـ أبداً. . أبداً. . الظاهر أن الست دي كانت آخر واحدة تشذ وتستغيث، وأنا كنت آخر أحمق يقول أنا شفت. . يعني كانت آخر علقة. دلوقتي تركب ٩٩٩ أو غيره تلاقي كله تمام. . اللعبة بتتم في صمت ولا أحد يخرج على قواعدها، والقاعدة إنك ما تشوفش، وإذا

شفت كـأنك مـا شفتش. وإذا حصل لغيـرك مالكش دعـوة وحتى إذا حصل لك أنت ولا كأنه حصل لك. حل عبقري مش كده؟

نـظرت اليه مـذهـولاً، ليس إلى عـويس «الجنـونـة» أو رسـول العناية للإصلاح، أو بطل الكفاح من أجل اللائحة. كان ذهولي ربما أكثر بكثير من ذهوله حين وقعت له منذ أسبوع الواقعة.

ـ عن إذنك.. ٩٩٩ بتاعي جـه. ولا يهمك بكـره لما الـلائحة تقر حتشوف.

وعلى طريقته تخلى عن وقاره العظيم للحـظة، وانطلق يجـري ولسانه رغماً عنه يفلت كلمة «سنوبز» وبقفزة هـائلة وضع قـدمه فـوق السلم، ومـا كـاد يستقـر ويمسـك العمـود بيـد وقـد انـدش بين الممتشعبـطين، حتى استـدار نـاحيتي وأشـار إليّ بمحفـظة أوراقـه السوداء مودعاً وعلى فمه نفس ابتسامة أرسطو المشفقة وهو يرمـق بها ثورة القروي الجبلي على «مربعه» المشهور.

حمّال الكراسي

صدقوا أو لا تصدقوا فمعذرة* لا يهمني أبداً رأيكم يكفي أني رأيته وحادثته وقابلته وشاهدت الكرسي، فاعتبرت أني رأيت معجزة. ولكن المعجزة الأكبر، الكارثة، أن لا الرجل ولا الكرسي ولا القصة كانت تستوقف أحداً من المارة في ميدان الأوبرا لحظتها ولا في شارع الجمهورية ولا في القاهرة أو ربما الدنيا كلها. كرسي هائل تراه فتظن أنه قادم من عالم آخر أم أقيم من أجل مهرجان.. ضخم كأنه مؤسسة، واسع القاعدة، ناعم، فرشه من جلد النمر، ومسانده من الحرير. وحلمك كله إذا رأيته أن تجلس عليه مرة أو لحظة.. كرسي متحرك، يتقدم بتؤدة كأنه موكب المحمل حتى لتظن أنه يتحرك من تلقاء نفسه، وتكاد من الرعب أو الذهول تخر أمامه وتعبده وتقدم له القرابين. ولكن في آخر وقت ألمح بين الأرجل الأربعة الغليظة المنتهية بحوافر مذهبة تلمع، ساقاً خامسة ضامرة غريبة على الفخامة والضخامة، ولكن لا لم تكن ساقاً، كانت انساناً نحيفاً

(*) كتبت في أواخر ١٩٦٨.

معروفاً قد صنع العرق على جسده ترعاً ومصارف وأنبت شعراً وغابات وأحراشاً. صدقوني فأنا بالأمانة المقدسة لا أكذب ولا أبالغ، بل أنقل في عجز ما رأيت. كيف استطاع نحيف هش كهذا الرجل أن يحمل كرسياً كهذا لا يقل وزنه عن الطن أو ربما أطنان؟ ذلك هو المذهب للعقل وكأنه شغل حواة، ولكنك تتمعن وتعود تتفحص فتجد أن ليس في الأمر خديعة وأن الرجل حقيقة يحمل الكرسي وحده ويتحرك به.

والأعجب والأغرب والمثير للذعر أن لا أحد من المارة في الأوبرا أو في شارع الجمهورية أو ربما القاهرة كلها يندهش أو يستعجب أو يعامل الأمر إلا وكأنه مسألة عادية مفروغ منها، وكأنه كرسي فراشة يحمله صبي ويمضي به. أنظر إلى الناس وإلى الكرسي والرجل عليّ ألمح ارتفاعة حاجب، مصمصة شفاه، أو صيحة عجب.. لا شيء مطلقاً.

وبدأت أحس أن الموقف كله شيء من المرعب استمرار التفكير فيه. وفي تلك اللحظة كان الرجل بحمله قد أصبح على قيد خطوة مني وأصبحت أرى وجهه الطيب رغم كثرة ما فيه من تجاعيد، ومع هذا لا تستطيع أن تحدد له عمراً. ورأيت ما هو أكثر، فقد كان عاري الجسد لا يغطيه إلا حزام وسط متين يتدلى منه ساتر أمامي وخلفي من قماش قلوع المراكب، ولكنك لابد تتوقف وتحس بعقلك قد بدأ كالغرفة الخالية يصنع صدى، إنه يبدو في لباسه غريباً ليس على القاهرة وإنما على العصر كله. تحس أنك رأيت له شبهاً في كتب

التـاريخ أو الحفـريات، وفـوجئت هكذا بـابتسامـة فيها ذلـة السؤال، وبصوت وبكلام.

ـ الله يرحم والديك يا بني ـ شفتش عمك بتاح رع؟

أهـو هيـروغليفي منـطوق بـالعـربيـة، أم عـربيـة منـطوقـة بالهيروغليفية؟ أيكون الرجل من المصريين القدماء؟

وهجمت عليه:

ـ اسمع.. أوع تقول إنك من المصريين القدماء.

ـ لهو فيه قدماء وجداد؟ أنا من المصريين وبس.

ـ وايه الكرسي ده؟

ـ شيلتي.. أمال أنا بادور على عمك بتاح رع ليه؟

عشان زي ما أمرني أشيله يؤمرني أني أنزله, أنا اتهد حيلي.

ـ أنت بقالك كتير شايله؟

ـ كتير قوي ما تعدش.

ـ من سنة؟

ـ سنة إيه يا بني؟ قول من ييجي سنة وشوية الآفات.

ـ الآفات ايه؟

ـ سنين..

ـ من أيام الهرم يعني؟

ـ من قبل، من أيام النيل.

ـ نيل ايه؟

ـ من أيام ما سموا النيل، ونقلوا العاصمة من الجبل للضفة جانبي عمك بتاح وقال لي يا شيال شيل! شلت، وأدور عليه في سلقط في سلقط بعد كده عشان يقول لي حط. من يوميها للنهارده مش لاقيه.

وتماماً توقفت كل قدرة أو رغبة في الدهشة عندي. إن من يحمل كرسياً بهذه الضخامة والثقل للحظة، ممكن أن يحمله لآلاف السنين. لا دهشة ولا اعتراض كل ما في الأمر سؤال:

ـ وافرض مالقيتشي عمنا بتاح رع تفضل شايله؟

ـ أعمل ايه؟ أنا شايله ودي أمانة، خدت الأمر أني أشيلها إحطها ازاي من غير أمر؟

ربما غضب.

ـ تحطهازهق يا أخي! تعب. .ترميها، تكسرها، تحرقها، دا الكراسي اتعملت عشان تشيل الناس مش عشان الناس تشيلها.

ـ ما اقدرش. هو أنا شايله غية؟ أنا شايله أكل عيش.

ـ ولوا ما دام هادد حيلك وقاطم وسطك يبقى ترميه، ومن زمان ترميه.

ـ دا عندك أنت لأنك ع البر مش شايل ما يهمكش. أنا شايل

ودي أمانة وشايل الأمانة مسئول عنها.

ـ لغاية امتى إن شاء الله؟

ـ لما يجيني الأمر من بتاح رع.

ـ دا مات وشبع موت.

ـ من خليفته ـ من وكيله، من ولد ولاد ولاده، من حسد معاه أمارة منه.

ـ طيب أنا بأمرك أهه انك تنزله.

ـ أمرك مطاع وكتر خيرك.. بس انت تقرب له؟

ـ للأسف لأ.

ـ معاك أمارة منه؟

ـ ما معاييش.

ـ يبقى عن اذنك.

ولكني صرخت ـ وقد بدأ يتحرك ـ أوقفه، فقد لاحظت شيئاً كالاعلان أو اللافتة مثبتة في مقدمة الكرسي، بالضبط كانت قطعة من جلد غزال وكان عليها كتابة قديمة وكأنها النسخ الأولى للكتب المنزلة، وبصعوبة طالعت:

«يا حمال الكراسي

«لقد حملت ما فيه الكفاية.

«وآن لك أن يحملك كرسي . .

«هذا الكرسي العظيم .

«الذي لم يصنع مثله .

«لك أنت وحدك .

«احمله

«وخذه إلى بيتك

«وضعه في الصدر

«وتربع فوقه طول عمرك .

«وحين تموت

«يكون لأبنائك .

وهذا هو أمر بتاح رع يا سيادة شيال الكراسي . أمر صريح صادر في نفس اللحظة التي أمرك أن تحمل فيها الكرسي، وممهور بإمضائه وخطوشه .

بفرح عظيم قلت له هذا، فرح متفجر كمن كاد يختنق . فمنذ رأيت الكرسي وعرفت القصة وأنا أحس وكأني أنا الذي أحمله وحملته عبر الأف السنين، وكأن الذي انقضم ظهري أنا، وكأن الفرحة التي انتابتني هي فرحتي للخلاص يأتي أخيراً .

برأس منكس استمع الرجل ولا اختلاجة، انتظار منكس أيضاً

أن أنتهي، وما كدت أفعل حتى رفع رأسه. كنت أتوقع فرحة مماثلة، انفراجة حتى، ولكني وجدت لا شيء.

ـ الأمر مكتوب فوق راسك أهه ومن زمان مكتوب.

ـبس أنا ماباعرفش اقرأ.

ـمانا قريته لك.

ـ أنا ما باصدقش إلا بأمارة.. معاك أمارة؟

ولما لم أجب، غمغم غاضباً وهو يستدير:

ـ أهو مابينوبنيش منكم غير العطلة.. يا ناس، والشيلة تقيلة والنهار الواحد يدوبك لفة.

ووقفت أرقبه وقد بدأ الكرسي يتحرك، حركته المتئدة الوقورة التي تظن أنها من تلقاء نفسه، والرجل قد أصبح مرة أخرى ساقه النحيلة الخامسة القادرة وحدها على تحريكه.

وقفت أرقبه وهو يبتعد، لاهثاً يئن وعرقه يسيل.

وقفت حائراً أتساءل أألحقه وأقتله لأنفس عن غيظي؟

أأندفع أسقط الكرسي عن كتفه بالقوة وأريحه رغماً عنه، أم أكتفي بالسخط المغيظ منه؟

أم أهدأ وأرثي لحاله؟

أم أصب اللوم على نفسي أنا لأني لا أعرف الأمارة؟

سُورة البقَرَة

مـا كادت الفـاتحة تقـرأ ويسترد يـده من يد الـرجل، ومبـروك! ويتأمل مليـاً البقرة التي حصـل عليها، ثم يتـوكل ويسحبهـا خارجـاً، حتى بعد خطوات قليلة وضع فلاح شاب طويل مهول يـده فوق اليـد الممسكة بالحبل، وبقوة الضغط والعضلات أوقفه قائلًا: ألا قـول لي يا شيخ . . بالذمة والأمانة والديانة . . وقعت بكام؟

وحتى لو لم يذممه فقد كان يريد قول الحقيقة، لكي يعرف من وقع الرقم إن كان هو الخاسر أم الكاسب في الصفقة، أجاب:

ـ بالذمة والأمانة والديـانة بسبعـة وتمانين جنيـه وربع وبـريـزة للسمسار. .

ولم يتـح له أن يقـرأ في وجه الشـاب الضخم، فما كـاد يقـول الرقم حتى كان الشاب وكأنما انتهى غرضه منه تمـاماً، فسحب يـده ومضى إلى حاله مغمغماً بكلام مدغوم لا يلوي على شيء.

وبعـد باب السـوق بخطوة انـدفع نـاحيته رجـل بشارب هـائش وصوت مزعج عال وكرش، قائلًا: سلام عليكم.

ـ سلام ورحمة الله.

ـ بالذمة والأمانة يا شيخ بكام؟

وبصوت واضح وحرص شديد هذه المرة على ألا تفوته بادرة، فالبقرة أيام جده كانت بثلاثة جنيهات، وكان أبوه رحمة الله عليه يقول له إن أول بقرة اشتراها في حياته كانت بخمسة، قال: بالذمة والأمانة بسبعة وتمانين وربع وبريزة للسمسار.

قال الرجل من تحت شاربه المهوش: هم.. هيه.. فيها لبن؟

أجاب وأمره إلى الله: ما فيهاش.

ـ وراها عجل؟

ـ ماوراهاش.

ـ معشرة؟

ـ طالبة عشر.

ومرة أخرى قال الرجل بغيظ مكتوم لا يعرف سببه، وبحزن لا يعرف سببه أيضاً:

ـ هم.. هيه.. مبروكة عليك.

ومشى.

وعند أول منعطف للطريق الجانبي الماضي إلى الطريق الزراعي العام، رفع فلاح كان يعزق الأرض المجاورة صوته سائلاً:

ـ بتقول بالذمة والأمانة بكام؟

فقال: بسبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

فعاد الفلاح يصيح مرة أخرى:

-بتقول بكام؟

ورفع صوته عالياً جداً أعلى بكثير مما يجب، لا ليسمعه الفلاح فقط وإنما ليصل إلى كل الرجال القريبين والبعيدين حتى يكفوه مئونة رد آخر:

-بسبعة.. وتمانين.. جنيه.. وربع.. وبريزة.. للسمسار..

وقبل أن يسمح لنفسه أن يسمع الرد أو التعليق كان قد أغلق أذنيه ومشى.

وحين وصل إلى الطريق الزراعي الموصل إلى بلده كان قد سئل ثلاث مرات، وأجاب ثلاث اجابات، نقص الذمة والأمانة في ثالثتها حين كسل أن ينص على بريزة السمسار.

كانت الدنيا لا تزال ضحى والسوق منتصبة منذ الشروق هذا صحيح، ولكن كان هناك على الطريق قادمون كثيرون، أولئك الذين لا يريدون ضياع اليوم فأنهوا بسرعة أعمالهم ثم أقبلوا مهرولين يلحقون السوق.

وعلى أول الطريق الزراعي سأله شيخ معمم بجبة كالحة وقفطان:

-دفعت فيها كام الذمة والأمانة والديانة إن شاء الله؟

فقط لو أنهم لايذممونه ويستحلفونه بالأمانة والدين!

ـ سبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

وبعد خطوة واحدة وإذا برجل وكأنه عمدة، يمتطي ركوبة ويستظل بشمسية يزعق بصوت مسلوخ: بتقول بكام؟

ـ غالية شوية إنما تتعوض.

ـ وما كاد يخرج علبة الدخان ويبدأ في لف السيجارة حتى حوذ عليه رجل مسن له لحية اختلط فيها السواد بالبياض:

ـ سلام عليكم.

ـ سلام ورحمة الله.

ـ دستورك منين؟

ـ من هرية.

ـ شاري والا بايع؟

ـ مانتاش شايفني راجع؟ شاري.

ـ واصل ع الشيخ منصور؟

ـ واصل إن شاء الله.

ـ طب بذمتك وحياة الشيخ منصور على قلبك، بكام؟

ـ بسبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

ـ يا راجل أنا ذممتك وحلفتك بالشيخ منصور؟

ـ وحياة الشيخ منصور والذمة والأمانة والديانة، وحياة شيخ العرب السيد بسبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

ـ يا راجل انت اشتريت خلاص، بريء ذمتك وقول الحق.

ـ وأنا يعني ح أكدب عليك ليه؟ ما قلت لك الحق.

ـ بقى بذمتك وديانتك والأمانة عليك وبركة الشيخ منصور وديتها رقبتك بسبعة وتمانين جنيه وربع؟

ـ وديني وما أعبد وحياة ربنا اللي أكبر من الشيخ منصور ومني ومنك ومن الدنيا كلها بسبعة وثمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

ـ طب روح يا شيخ الهي إن كنت كذبت ما توعى تعلقها في المحرات.

وتركه ومضى. ولو كان قد بقي أمامه لحظة أخرى لما كان قد استطاع كبح جماحه الخاطر الذي كان يلح عليه باستمرار.. أن ينتف ذقنه شعرة شعرة.

وما كاد يمشي أربع أو خمس قصبات حتى ـ برجاء حار ـ استوقفه شخص كان منتحياً جانباً، يعمل مثل الناس على حافة الخليج الموازي للطريق، وحتى قبل أن ينتهي وهو لا يزال القرفصاء لوى رقبته وسأل:

ـ بالذمة والأمانة بقد ايه؟

ـ بسبعة وتمانين وربع بريزة.

ـ ايه اللي سبعة وتمانين وربع بريزة. هم مش يبقوا سبعة وتمانين وخمسة وتلاتين صاغ؟

ـ طب يا سيدي ماتزعلش سبعة وتمانين وخمسة وتلاتين صاغ.

ـ أمال الأول قلت وبريزة ليه؟

ـ عشان هي بسبعة وتمانين وربع وبريزة للسمسار.

ـ بقى أبقى محلفك بالذمة والأمانة وتكذب؟

ـ أنا كدبت؟

ـ مش قلت بريزة للسمسار. هي البريزة تخش في التمن؟

ـ ما دام دفعتها تخش.

ـ لا ما تخششش.

ـ تخش.

ـ لا ما تخششش.

ـ تخش.

ـ أنت كداب.

ـ أنت بارد.

ـ تفوه عليك نفر.

ـ تفوه عليك وعلى اللي خلفوك.

وهو لا يزال متشبثاً باستماتة في حبل البقرة اندفع ناحية الرجل

يريد أن يطبق عليه وينتهي منه، وكان الرجل هو الآخر قد أوقف ما كان يقوم به واندفع ناحيته ويده مستميتة هي الاخرى على «دكة» السروال المفكوك، وبيد متشبثة والأخرى طليقة تريد أن تغور في زمارة رقبة الآخر. كادا أن يتماسكا لولا أن أولاد الحلال وما أكثرهم على الطريق حالوا بينهما في آخر لحظة، وبعد محاولات لصلح فاشل اندفع كل منهما، الرجل إلى حافة الخليج وهو ناحية بلده، وبينهما حبل طويل غليظ من الشتائم ظل يمتد ويرق كلما ابتعدا حتى انقطع وصار مخنوقاً. ومد يده يبحث عن العلبة ليلف السيجارة غير أنه اكتشف أنه فقدها في الخناقة، وبلغ به الغيظ حد أنه لم يحتمل مجرد فكرة العودة والبحث عنها في مكان الخناقة.

وهو في قمة غيظه إذا برجل يرتدي في عز الحر عباءة، مؤدب وقصير، ما كاد يفتح فمه ويقول: بالذمة والأمانة عليك. حتى كان قد رفع يده إلى آخرها دون أن يدري ثم هوى بها على صدغ صاحب العباءة الممددة في أدب ووقار.

وارتاع الرجل حتى سقطت العباءة من فوق كتفه، وفكر أن يمسك بخناقة ولكنه في اللحظة التالية كان قد راجع نفسه، وحين تلفت حوله فلم يجد أحداً من المحتمل أن يكون قد رآه وهو يصفعه عاد للسير وكأن شيئاً لم يحدث وهو يقنع نفسه أن الرجل لابد مجنون هارب من مستشفى المجاذيب.

وما كاد هذا يحدث حتى وجد صاحب البقرة نفسه يضحك ضحكاً عالياً متواصلاً وكأنه قد جن فعلاً، وبلغ به الاستهتار حد أنه

حين سمع السؤال يلقى عليه من جانب الطريق أندفع ناحية السائل ورفع يده يحاول أن يهوي بها على صدغه، ولكنه فوجىء بيد حديدية تقيد يده في مكانها، وبكف كأنها من بلوط تهوي على صدغه هو بأربعة أقلام سخنة نظيفة جعلت عينيه تقدحان شرراً، بل أعمته إلى درجة لم يـر معها ضاربه، ولا فطن إلى أنه ضرب إلا بعد أن أصبح بينه وبين المعتدي مشوار ومشوار.

وعند كشك المرور تماماً سأله تاجر قمح تخين كان يفرش على جانب الطريق يشتري بالاقداح والشروات من الذاهبات إلى السوق: إلا قولي يا شيخ العرب، بالذمة والأمانة بكام؟

ولم يكن عربياً أو شيخ عرب، ولكنه بمنتهى التأدب أو بهدوء غريب لا أثر مطلقاً لأية ثورة فيه أجاب: بسبعة وتمانين وربع وبريزة للسمسار.

وكأنه لأول مرة يدرك ـ وبصفاء أيضاً ـ أنه باع كل شيء ليشتري هذه البقرة بعدما ماتت جاموسته في أول شعبان، بل فطست ولم يلحقها الجزار بالسكين حتى، ولثلاثة أشهر وهو يدبر، وعلى المحصول الذي لا تزال أمامه أربعة أشهر طويلة، ومحفظته إن كانت لم تسرق في الخناقة فليس بها غير جنيه وربع هي آخر ما تبقى معه من نقود في الحياة.

ـ بسبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

قالها مرة أخرى، وبصوت مخنوق أعلى حتى حدق فيه التاجر

مذهولاً لا يستطيع النطق.

وما كاد يلتفت حتى هبط من فوق جسر السكة الحديد رجل كان يحمل عنزة على كتفه، وما أن فتح فمه لينطق حتى قال:

- بسبعةوتمانين وربع وبريزة للسمسار.

وبعد برهة قابلته امرأة تحمل مقطفاً ثقيلاً وتنوء بحمله، وقبل أن يصلها أو تدرك وجوده رفع صوته وقال:

- بسبعةوتمانين وربع وبريزة للسمسار.

-وقالت المرأة: «يه؟» ثم حثت الخطو وكأنها تهرب من شبح.

وعند التابوت كانت جماعة قادمة من طريق التوت بعضها راكب وبعضها ماش، ورفع صوته إلى أقصى ما يستطيع وقال:

- بالذمة والأمانة بسبعة وتمانين وربع وبريزة للسمسار.

وضحكوا وقال واحد: الناس انهبلت، بينما تخلف ولدان راحا يشبعانه تريقة وسخرية.

وعلى مدخل البلدة رأى جاموسة ترعى على حافة «القيد» فصرخ فيها:

- بسبعة وتمانين وربع وبريزة للسمسار.

واستدارت الجاموسة ناحيته ورمقته في بلادة وكسل، ثم عادت تعسعس بشفتيها وأسنانها على الحشيش.

وحين دخل بلده كان يصيح سواء سأله أحدهم أم لم يسأله، قابل شخصاً أم لم يقابل، يقولها هكذا للزرع وللحيطان، وللحر أو للسما وللأوز وللجنيه وربع، وللأربعة أشهر والأربعة أولاد والولية، وللبهيمة التي ماتت، وللبقرة التي يسحبها، وللشيخ منصور، ولنفسه، وللدنيا كلها:

ـ بالذمة والأمانة والديانة، وبكل كتاب أنزل، بسبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

هي

ـ هوووه(*)

مبكراً وقبل يقظتي التامة جاءني الصوت منخفضاً قوياً فيه همس «الفانفار»

أقشعر جسدي قلت:

ـ هوووه.

عاد يقول:

ـ قوم.. عندك ميعاد في العتبة.

استيقظت تماماً. نسيت الشاي، غادرت البيت، أصبحت في العتبة. عندك ميعاد في العتبة. أين؟ لا جواب. متى؟ لا جواب. مع من؟ لا أعرف. انتصف النهار، بدأ اليقظ، ضوء الشمس اشتد وكأنما شحنت بطارياتها إلى آخرها. كثر الذباب، تزاحم الناس أكثر وعزلتهم وضحت. عندك ميعاد في العتبة، أنا في العتبة، القلب القديم لقاهرة قديمة. قاهرة واحدة كان لها قلب واحد.. اليوم بمائة

(*) كتبت في مايو ١٩٦٩.

قلب، بلا قلب، الميعاد في العتبة. كيف أطيع الصوت وأنا العلمي الذي لا يؤمن بالدجل؟ حاولت العودة، فشلت، أصبحت لا أعرف كيف. مقيداً حبيس الميدان وحولى سور خفي مكهرب لا أستطيع اجتيازه. الميعاد متى ومع من ولماذا؟ لا أعرف. الميعاد في العتبة.

مر أسبوع وأنا سجين القهوة واللوكاندة والميدان، حدودي فتحات شوارع محمد علي والعباسية ومسرح الازبكية والمطافي. البنايات القديمة حراسي. الناس، النظرات، أجنحة الذباب، مقيدة مثلي بقوى قاهرة. كل شيء قديم تهب منه رائحة الزمن كجو مقبرة تفتح بعد مائة عام. الميدان يضيق، خطواتي فيه تتحدد أكثر، لم يعد باستطاعتي إلا أن ألف حول عربة الترام الثابتة في الميدان. في نهاية اليوم العاشر لم أعد أستطيع التحرك شددت قدماي بطريقة حاسمة ومجهولة إلى جوار العربة. ظللت في مكاني يومين بلا نوم أو طعام. في الضحى، وفي موكب أقبلت عربة «بويك» زرقاء من آخر موديل حلياتها النيكل مصنوعة من ذهب، العيون والأفواه المفتوحة حولها وتتبعها، قائدها كالسائقين لدى العائلات الكبيرة يرتدي معطفاً أبيض وقفازاً أبيض وقبعة ذات حافة.. توقف أمامي وقال:

ـ اركب.

لمحت خيبة الأمل في كل العيون المعششة حولنا وكأن كلاً منهم كان يتوقع نفس الدعوة.

ـ أنا.

ـ أيوه أنت.

ـ متأكد؟

ـ أنت مش عندك ميعاد في العتبة؟ اركب.

أأركب.

سألت: على فين؟

قال: هي عايزاك.

ـ هي مين؟

ـ اركب.

أأركب؟

خفت.

التقت عينانا.

لم أجسر على المعارضة.

ركبت.

انطلقت العربة.

غادرنا العباسية في اتجاه ترب الخفير. بدأ طريق يصعد بنا، كان واضحاً أنهم انتهوا من رصفه من لحظات وأنه يطوى طياً بعد أن تمر به العربة.

ـ أحنا في المقطم؟

سـألت وقد بلغنـا أعلى نقطة. لم تستـدر الرقبـة الغليـظة، لم أظفـر بجواب. أعـدت السؤال مجدداً وبصـوت أعلى. لم يـأتني إلا الصمت. سكت، أتكـون هي؟ هي هي؟ أتكـون هي؟ أم تـراهـا أسـطورية كعـائشة التي قـرأت عنها صغيـراً. ولكنا لسنـا في روايـة. أعـرف الفرق تمـاماً بين الاحـلام والواقـع وبين الاساطيـر والحقيقة. العربة حقيقية والسائق حقيقي وهضبة المقطم حقيقية، حتى «فانفـار» هوووه لا يزال يرن في أذني رنيناً حقيقياً له وجود كوجود حركة عقرب الثواني في ساعـة معصمي. معصمي حقيقي ومستيقظ ويؤلمني حين أعضه.

ـ انزل.

كانت العربة دون أن أشعر قـد وقفت، وكان عقـرب الثواني لا يزال يتحرك ولكن الزمن توقف. . مع العربة توقفلم أنزل.

ـ انزل.

الأمر صريح. . نزلت. انطلقت العربة بسرعة خاطفـة، أختفى هيكلها قبل أن يختفي صوتها. عدت إلى ما حـولي، صحراء واسعـة ممتـدة، صحراء غيـر مستويـة، لا شيء هنـاك ولا في أي اتجـاه. لا أحلم، قـطعاً لا أحلم. خلعت السـاعة، قـربتهـا من أذني، التكتكة. مسموعة. أنا لا أحلم، أنا موجود والقاهرة مختفية في مكان ما ولكنها قريبة وموجودة.

سـرت خطوات. . عشـر خطوات كيفمـا اتفق. فجـأة وجـدت

أمامي . . بوابة بالتأكيد من زمن فعمرها لا يقل عن نصف قرن. بـابها من حديد هائل الضخامة قد تراكمت فوقه طبقات الصدأ، عليـه زرع أخضر له سيقان غليظة عمرها أكثر بكثير من عمر الرجـل، وزهورهـا حمـراء طـازجة نبتت من سـاعـات. البـوابـة مغلقـة لم تفتـح من أحقـاب. الظل جميـل بعد لفـح الشمس، الخضرة تجعـل من الظل جنـة، البوابـة من جماد ولكنهـا أشعرتني بـالونس. افتـح يا سمسم! تفتح البوابة. واضح أنها مستحيل أن تفتح.

جلست أنتـظر. . لم يكن أمامي إلا أن أنتـظر. غابت الشمس نمت، صحـوت. أشـرقت الشمس، مـالت، غـابت. نمت، حلمت أني أمثل دوراً في السينما وجني احتضن البـطلة أمام مخـرج عجوز. عيون الكاميرا كانت تضايقني. صحوت، أنـا جوعـان، بدأت أمضـغ الأغصان الجافة، أحسست لها بلذعة كففت أن تكون نباتات سامة أو مخـدرة، أخـطأت وألقيت نـاحيـة الشمس نـظرة. لم أستـطع سحب نظرتي، جذبتها الشمس تماماً وابتلعت وعيي. عميت. . عمي أبيض مليء بحـرة كـالـدم. حين غـربت الشمس عــدت للوعي والـرؤيـة ووجـدت البـوابـة مفتـوحـة. دخلت، انـطلقت بكـل قـواي أجـري. الحديقة واسعـة، مزدحمـة بالاشجـار. الظلام يتكـاثف، أنا جـوعان والأشجـار أشجار جـوافـة. أكلت، عـاودت الجـري في خط مستقيم ربمـا أصـل إلى هـدف. شعشـع الفجـر، أحسست بـطريقـة مـا أني محاصر. توقفت، من خلف كل شجـرة برز مـارد أطول مني بكثيـر، ربمـا مائة أو أكثر. أحـاطوني، اكتشفت حين اقتـربـوا أنهم عـرائس

خشبية ضخمة وأن مفاصلها من خيوط وأسلاك. تحركنا، أنا في الوسط وهم حولي. طال المشوار، غابت الشمس.

لم أنم، ظل حراسي مستيقظين. في منتصف الليل سمعتهم يتحدثون وقد انقلبوا من عرائس رجال إلى عرائس نساء.

سألت أقرب جاراتي الحارسات:

- من تكون هي؟ أتكون هي هي؟

لم تجبني. غمغمت لجارتها:

- هذا الجلف.. إنها أجمل من كليوباترا.

- أكثر أنوثة من أفروديت.

- ساقاها أمتع من وليمة جنسية.

- فخذاها غيبوبة أروع من الوعي.

- هذا الجلف.

أشرقت الشمس.

كنت وحدي بلا حراس ولا عرائس.

في مواجهتي تماماً باب أنيق لقصر، القصر مبني بطريقة حديثة كأنه ديكور فيلم من أفلام المستقبل.

كان الباب مفتوحاً.

دخلت.

الصالة مساحتها عشرة فدادين، السجادة كيلو متر مربع، في الصالة ثلاثة كراسي في ثلاثة أركان.

كنت متعباً، جلست على أقرب كرسي، نمت. استيقظت لأجد الجدران قد حفلت بألف باب.

عرفت أن أخمن وأختار.

اخترت أبعد الأبواب.

دخلت.

مشيت عاماً.

أين تراها؟

تعبت.

حاولت العودة.

وجدت نفسي في منتزه واسع مفتوح، والدنيا ربيع وفي الوسط «بيسين» يتسع لمدينة تستحم، وكانت فيه امرأة واحدة عارية تماماً وبعيدة جداً.

كانت هي.

وكان عليّ أن أنتظر.

وانتظرت أنا والشمس، هي تشرق وتغيب وأنا لا أتحرك. وبعد أيام عرفت أنها غادرت الحمام وأنها في طريقها إلى التعطر والمنام.

وانتظرت.

- هوووه!

هوووه!

- ادخل.

بعد أحقاب.

دخلت المخدع.

السرير كرسي عرش ممدود، والجدران لوحات بانورامية حية، والنور المصنوع مختلط بنور القمر بلا تفرقة، وبأصبعها أشارت وسرت، وبأصبعها أشارت وتوقفت عند قدمي السرير وخلعت ملابسي، وأشارت وأقبلت جواري حملتني إلى الحمام، وأشارت وجيء بي وقد أعددت تماماً، وأشارت وأصبحت بجوارها تماماً في الفراش. وجيء بالطعام، وأكلت. . لي أعوام وأنا جوعان. وبالشراب، وشربت. لي أعوام لم أغب عن الوعي. وفعلت كل هذا وأنا ذاهل، فقد كانت هي أجمل وأروع من كل ما حلمت وتصورت، لكأنما كل نساء العالم قشور وهي قلبهن جميعاً، أعماقهن، كل ما فيهن من رقة وحنان وأنوثة.

وجاءت اللحظة واسترخت فوق الفراش تناديني، ولبيت النداء. وأشارت وأطفئت الأنوار، وأشارت وانطفأ القمر. وتحسست جسد ـا وأنا ذائب معها في قبلة، واقشعرت يدي وهي تلامس

فخذها. كانت خشنة مليئة بالشعـر رفيعة طـويلة كساق المعـزة تنتهي بحافر كحافر الحمار. اكتشفت أن الأنثى التي أنا غـائص فيها كـانت مؤخرة رجل فـاجر الشـذوذ. غاص قلبي وانطلقت أجري أبحث عن باب المخدع. . أتعثر في غثياني وأبحث عن باب المخدع ولا باب. أجري ولا باب، وأتعثر في غثياني ولا باب.



لغة الآى آى

حالة تلبس

حينما ضبط المنظر . لم يكن عميد الكلية هو الذي غضب والتهبت الدماء في عروقه ، ولكنه الطفل الذي ولد وتربى في « سوهاج » ومنذ أن بدأ يعي فهم أنه قد يكون مباحاً للرجل وعيباً للشباب ومحرماً تحريماً قاطعاً على الأطفال ولكنه للنساء جريمة ، أكثر من جريمة ، قد يوازي هتك العرض ، فما بالك وهي ليست رجلاً ولا طفلاً ولا حتى سيدة ولكنها فتاة ، بنت لا تتعدى السابعة عشرة بأي حال .

وحين وصل الغضب قشرة العقل المكتسبة ، وانفعل العميد الذي فيه ، كان أكثر ما ضايقه أنها لابد في السنة الأولى ، طالبة جديدة ، يعني بالأمس فقط كانت طفلة في ثانوي .

ورغم كل غضبه لم يتحرك إلا حينما تحرك الوالد الذي فيه وتململ ، وأدرك كالمدهوش ، أنها تكاد تكون في سن ابنته (لمياء) ، حينما فقط استدار مغادراً النافذة في طريقه إلى حيث أزرار الجرس الموضوعة في مكانها الخالد الذي يتوارثه العمداء فوق المكتب .

وربما لو كان في الحجرة أحد .. أستاذ أو لجنة أو حتى لو كانت في انتظار مقابلة كائن ما لكانت الحركة قد اكتملت وكانت يده حتماً

قد وصلت إلى الزر .. والساعي المرابط أمام الباب حضر والفصل لأسبوع أو لأكثر من الكلية أو حتى الزجر والضرب قد حدث .

ولكنه كان وحده في حجرة العميد الواسعة المهولة ذات النافذة الجانبية الضيقة . والحجرة تغري بالتريث ، والنافذة الضيقة تغري بتدقيق النظر . وفي حالته كان الإغراء كبير بإعادة النظر .

وعاد إلى إستمرار النظر .

الحجرة في دور أول لا يرتفع عن الأرض قليلاً . والفناء الخلفي الذي تطل عليه النافذة الجانبية خال تماماً من الطلبة فهو في العادة مكان غير مرغوب من الطلبة ، والساعة اقتربت من الثالثة . واليوم الدراسي انتهى ولولا مراجعة جدول الامتحان لما كان هو نفسه قد بقى إلى هذا الوقت ولما قام من النافذة منهكاً يتثاءب ويتمطى ويأخذ فكرة عن الجو بالخارج . ولما شاهدها ، تلك الطالبة الصغيرة التي ما أن بدأ عقله يتساءل عما أتى بها إلى هذا المكان المهجور ، وبعد انتهاء الدراسة . حتى كان الغضب قد اجتاحه . وجدها بكل بساطة وتحت أنف نافذته تخرج بل أخرجت فعلاً علبة سجائر من حقيبة يد مستطيلة ضخمة وعبثت بكراريس المحاضرات المختلطة بأدوات التجميل قليلاً وما لبثت أن أخرجت علبة كبريت أيضاً .

طالبة . واضح تماماً أنها لابد في السنة الأولى . تدخن وتحمل معها في الحقيبة علبة سجائر وعلبة كبريت ؟!

هكذا من النظرة الأولى تفجر الغضب .

ولكن النظرة التالية كانت نظرة مذهولة يستبعد تماماً أن يصدق أن

شيئاً كهذا ممكن أن يحدث ، مؤجلاً التصديق إلى أن يراها فعلاً وهي تدخن .. خاصة والفتاة كانت لاتزال ممسكة السيجارة في يد والكبريت في يد أخرى وكأنما لم تقرر بعد ماذا تفعل بشأنهما .

وتأملها العميد ، كانت طالبة عادية لا يمكن إذا رآها في مجموعة أن تستوقف النظر ، شعرها مهوش على طريقة الجيل الجديد في الأناقة وعيناها ذابلتان لابد من المذاكرة والسهر . متكئة تكاد تكون مستلقية بعد يوم متعب حافل على الأريكة المهملة التي لا يستعملها أحد ، ولكن شبابها الفائر يكاد يقفز من وجنتيها المحمرتين رغم قمحية بشرتها ، ومن جسدها البارز في أكثر من مكان من ملابس الطالبة الرخيصة التي ترتديها .

وبوغت العميد حقيقة وهو يلحظ فجأة أنها بأصابع اليد الواحدة .. أصابع تلون سبابتها آثار الحبر قد فتحت علبة الكبريت ، وباليد الأخرى ، بيد ثابتة لا اضطراب فيها ولا خوف وبحركات تلقائية ليس فيها من مجهود الإرادة شيء ثبتت السيجارة في فمها وادارتها دائرة كاملة بين شفتيها وكأنما لتبلل ، كالمدخنين العتاة ، فمها (الفلتر) ، وبنفس التؤدة والتلقائية وبضربة لا أثر للتدبير فيها أشعلت العود ولم تقربه من السيجارة في الحال ، أهملته بين اصبعيها قليلاً وكأنما تستمتع برؤيته يحترق . ثم ما لبثت ببطء ، ودون أن تنظر ، وبعينين هائمتين في جدار الفناء البعيد ، أن قربت العود بحيث لامست شعلته طرف السيجارة دون أن تحيد يميناً أو يساراً وكأنما يدها مدربة على الطريق . وجذبت نفساً واحداً اشتعلت بعده السيجارة . وبالدخان الخارج . بعد ابتلاعه ، من

فمها ، أطفأت العود ، ثم لم تلبث أن القته في إهمال غريب فوق عشب الممشى القريب .

وجن جنون العميد ، أنها مدمنة داعرة الإدمان أيضاً ، أنه هو نفسه يدخن ولا يفعل شيئاً كهذا ، أنه يشعل السيجارة كلشنكان وبدخنها كيفما اتفق ، ولكن هذه ، متى وكيف وفي أي بؤرة فساد قد تعلمت كل هذا . أنها حتى لا تشعل الكبريت كالنساء التي قرأ مرة أنهن يشعلن العود من الناحية البعيدة عنهن خوفاً غريزياً من ناره على ملامحهن وشعرهن ، وفقط بعد الاطمئنان إلى شعلته بعد خفوتها يجرؤن على تقريبه منهن أما هذه الـ .. الطالبة . طالبة أولى هذه .. لا تخاف العود ولا النار ويبدو أنها لا تخشى شيئاً في الوجود .. إنها لا يمكن أن تكون في السابعة عشرة .. سن ابنته .. لابد أنها أكبر بكثير .. بسنتين لابد أو حتى بأيام .. إنها جرثومة ، ان الفصل أسبوعاً واحداً لا يكفي أبداً .. الرفد النهائي هو ما يجب عمله لا أقل من الرفد النهائي .

ولكنه لم يعرف كيف حدث هذا فقد وجد شيئاً أكبر بكثير من كل غضبه وكل حماسه للضغط على الجرس واستدعاء الساعي واتخاذ بقية الإجراءات ، شيئاً أجبره على أن يقف في مكانه لا يتحرك وينتظر ويراقب ويعاود الرؤية .

ورفعت الفتاة يدها إلى فمها مرة أخرى ، ولكنها انتظرت قليلاً بفم السيجارة قريباً من فمها ثم بدا وكأن الوقت قد حان وهكذا ببطء لا تلكؤ فيه أسبلت جفونها حتى كادتا تغلقان تماماً ثم ضمت شفتيها حتى

ضاقت الفتحة بينهما وتكرمش غشاؤهما ومن الفتحة الضيقة أدخلت فم السيجارة ، وجذبت نفساً ، لا لم يكن جذباً ، كان إمتصاصاً ، ليس امتصاص دخان ، لكأنه رشف أعظم سعادات البشر ، رشفة ببطء وباستعذاب وبملايين الأفواه ، كل خلية من خلاياها بدت وكأنما أصبح لها فم تجذب به وترتشف ويتموج جسدها كلها تموجاً غير منظور ، وعلى دفعات وكأنه عطشان يجرع أعذب الماء ويريد أن يستمتع بكل قطرة من قطراته ، حتى إذا ما بدا أن كل دقيقة فيها قد أخذت كفايتها وظفرت بسعادتها الخاصة ، رفعت السيجارة عن فمها ببطء ، وكبرياء وعينين قد فتحتا ببخل شديد وكأنها تخاف أن تهرب من فتحتيهما النشوة .

واستحال غضب العميد إلى لحظة صدمة مفاجئة تكاد تتحول إلى ذعر .. خوف شديد أن يستمر في الرؤية ، خوف الخائف على نفسه هو من استمرارها ، والفناء بدا له كالبقعة المهجورة المقطوعة عن العالم ، يحفل بسكون ، وزمتة ، ورائحة ربيع مقبل مخيف ، وقرب أيام نهاية العام والامتحان ، والفتاة كأنها جنية من جنيات الظهر انشقت عنها خرابة الفناء فجأة ، متكئة تكاد تكون مستلقية فوق الأريكة ذات الحديد المتراكم فوقه الزمن والصدأ ، الناقص مقعده خشبة الوسط .

وبرهبة المذهول هذه المرة راح يترقب كيف تخرج النفس .. فمها المضموم أبقته مضموماً هنيهة ، ثم فتحته نصف فتحة وبحركة فيها كسل أنثوي ضاقت له عيناه راحت توسع من فتحته قليلاً قليلاً في نفس الوقت الذي كان صدرها قد بدأ يتسمع وكأنها بسبيلها إلى التنهد حرقة ولوعة ،

ربما على فراق تلك السحابة الدخانية الصغيرة التي فجرت في جسدها المستلقي تعباً واسترخاء حيوية وأضافت إلى صباها صبا . يتسع حتى ليجذب الدخان إلى أعمق أعماقها ، ليلامس أقصى أرجائها وليلتقي بكل جزء من صميم صميمها لقاء الوداع وفي نفس الوقت الذي يعود فيه الصدر إلى وضعه الطبيعي وحجمه ، يكون الدخان هو الآخر قد بدأ يخرج ، من الشفتين المنفرجتين أضيق أوسع إنفراج .. تخرج دفعاته الأولى مرسلة على سجيتها دون ضغط أو إكراه ، تصنع دوائر لولبية وضبابات ثم تتلوها الدفعات الخارجة بالإرادة متأنية موجهة قد شحت دخانها وتغير لونه وكأنما امتصت منه كل النضرة والحياة .

قطعاً لابد من فصلها . في منتصف السيجارة تماماً والجريمة سيدق الجرس ويهمس إلى الساعي ويذهب الرجل ويطبق عليها وساعتها سيعرف اسمها ويفصلها .

ذلك كان قراره ولكن ما ضايقه في الحقيقة أنه بدا وكأنه قرار شخص آخر ، بعيداً عنه جداً ، ذلك البعد الذي أصبح بين عقله وإرادته ، إرادة لا يدري لماذا هي رخوة لا تستطيع أن تنفذ أمراً وكأنما هي واقعة تحت تأثير مخدر سخيف ملعون لا يعرف كنهه ، إدارة لم تعد تستطيع أن تفعل إلا أن تنظر وتستمر تنظر .

وأخذت الفتاة نفساً آخر ، وهذه المرة أخرجت دخانه من فمها وأنفها معاً ، أنف فتحاته صغيرة دقيقة كأنها براعم فتحات يخرج منها الدخان باهتاً معتصراً ليصطدم بالدخان الخارج من الفم الضيق المضموم المكرمش ..

وأحس العميد بأشياء داخله تتنبه . وتلفحه سخونة ليس مبعثها الجو .. وبسرعة في دقات القلب لا علاقة لها بمرض الضغط ..

وتوالت الأنفاس ، وفي كل مرة تجذب النفس على مهلها وبتلذذ سعيد تنغلق له عيناها ، وكأن شفتيها المضمومتين على فم السيجارة تبتهلان لشيء أو ترشفان شيئاً ، رحيق السعادة ربما أو أكسير الحياة ويسترخي جسدها ويتدغدغ للنفس ثم تبدأ عملية الإخراج ، وتفعل هكذا كله بإندماج شامل تام وبلا إرادة .. وبطبيعية لا تكلف فيها ولا اصطناع ، والأنفاس تتوالى ويستحيل ما يحسه العميد إلى تيار غريب يجوب جسده كله مع كل نفس ، ولا يوقظه من تعب يوم أو إنهاكه ولكن يوقظ أجزاءه وأجهزته من رقدة عمر طويل ، ويمحو هكذا في ومضة آثار سنين وأمراض ومشاغل وحياة تصلبت وجفت واستحالت إلى درب ضيق محدود من ناحية منه زوجة جف منها ماء الحياة ولم تعد تفعل إلا أن تناكف وتضايق وفي الناحية الأخرى عمل وروتين لا جدة فيه ولا أمل . وصراع ، وما بينه وبين رئيسه مدير الجامعة من حزازات ، وهو كالبندول رائح غاد بينهما ، الكلية تدفعه إلى البيت والبيت يدفعه إلى الكلية ، بندول عجوز مصاب بأكثر من مرض ووجع وفي صدره أحقاد .

ومنتصف السيجارة الذي كان قد حدده وصلته الطالبة ولكنه كان في حال لم يعد يعرف أن كان ما يحسه سخطاً أم إعجاباً أو أن كان إنفعاله إنفعال نشوة أم إشمئزاز ، كل ما أصبح يفعله ، حتى ولو لم ترض إرادته ، أن يظل يرى الفتاة ويراقبها .. جسده نفسه ، عيناه ، أنفاسه ،

لسانه الذي بدأ يجف في حلقه ، ساقاه اللتان شدت عضلاتهما واشرأبت ، كلها تراقب ، كلها مع الفتاة وسيجارتها في التحام لا يمكن فصله أو إنهاؤه ، التحام متواصل حي ينبض نفس نبضها حين تطبق بفهما الضيق على فم السيجارة وتجذب وتدوخ بالنشوة ثم حين تفتحه نصف فتحة وبه أو بأنفها أو بهما معاً تخرج اللوعة والحرقة والنفحات الهاربة وفي أعقابها تلك التي تدفعها لتخرج برفق وحنان وتؤدة .. نبض متوال متسارع ، والتحام ذو حرارة مستمرة متزايدة تتصاعد إلى أعلى مراتب عقله وتذيب ، تذيب أشياء كثيرة ، تذيب أفكاراً تحجرت كالمومياء المصبرة وأصبحت حكما وعقائد ، وتفتح مناطق حاصرتها التقاليد وعزلتها ، وتفد الأفكار بسهولة وتنطلق بسهولة ويبدو المستحيل ممكناً ، ولماذا الحرس والساعي والتأنيب والفصل ؟ ألأنها تدخن وسنها سبعة عشرة عاماً ولأنها طالبة وما الفرق بين أن تدخن وهي طالبة وتدخن وهي خريجة وكله تدخين في تدخين ، ولماذا نحرمه على جسد شاب فائر ، ونحلله لسيدة أو لعجوز تسعل وتكح وتبصق كلما جذبت نفساً ، أليس هو قائل نفس المبادئ وهو في العشرين والثلاثين حين كان في بعثته يرى أن مشكلة مجتمعه الأساسية أن أفراده يحيون في عصر بتقاليد قرون مظلمة مضت ، وأن بلاده لا يمكن أن تصل إلى أي تقدم علمي أو صناعي أو حضاري إلا إذا تم التحرر وعاش الناس فيه بتقاليد عصرهم نفسه وقيمة وأنواع حرياته .. بإعطاء أفراده حتى حرية الخطأ وألا نمنعهم بالنصح والزجر عن خوض التجارب ونورثهم صوابنا نحن وخطأنا بل نتركهم لكي يستخلصوا هم من تجاربهم ما يرون أنه الصواب وما يرون أنه الخطأ .

وبدأ جسد الطالبة الصغيرة يتململ ويتلوى ، ونهمها إلى جذب الأنفاس يشتد ويتلاحق وكأن في داخلها تحفر فجوات هائلة تحدث فراغات سريعة مذهلة تطلب الإمتلاء لا بالدخان ولكن بالمتعة الحادثة من حريتها في أن تنفرد بنفسها وبالسيجارة وتمتص منها ما تشاء وتبتلع ما تشاء ، والعميد يحس بجفاف ريقه يزداد وحنجرته تتسع وتزداد قدرتها على الرنين وكأنها تستعد لإطلاق صرخة العمر ، وعرق غريب ذو رائحة نفاذة لم يشمها من سنين ينبت تحت ابطيه ، وعرق آخر أكثر غزارة يبلل وجهه ويضبب زجاج نظارته حتى ليخرج منديله بسرعة المحموم ويمسح زجاجها لكي لا ينقطع أبداً إبصاره والدنيا حافلة بمؤامرة صمت تام ، سكون غريب لا يمكن أن يكون إلا بفعل قوة خارجية قاهرة ، سكون مركز في تلك البقعة من الفناء الخلفي ، سكون ليس خارجه سوى العدم ، سكون عالم خال من الحياة تماماً ليس فيه حياة سواه وسواها ، هي في أقصى درجات الاستمتاع وهو في أقصى درجات الإنفعال .. وبينهما ، تفصلهما تماماً ، وتربطهما تماماً ، تلك السيجارة . والحياة تبدو حلوة جداً ، كل لحظة فيها عمر بأكمله ، وإرادته قادرة على اكتساح الجبل ، ولا شيء في الوجود مستحيل ولن يرضى بأقل من أجمل وأغنى بنات العالم زوجة له ، وخمس سنوات فقط يصبح فيها أعظم علماء مصر بل الشرق والغرب معاً وماذا تكون جائزة نوبل مكافأة له . وحقيقة ما هذه الحزازات بينه وبين المدير أليس هو أكبر منها وأقدر بكثير ولماذا الحزن والمرارة لكل ما فات والآتي أروع منه بكثير ولماذا التعنت مع أستاذ القسم المساعد ، لماذا لا يعطيه الفرصة أنه شاب ومن حقه أن يطمح إلى كرسي الأستاذ .. المشاكل نحن نخلقها

حين نفتقر إلى التفاؤل والتفاؤل هو الإرادة ، وبالإرادة القوية تصبح الحياة كالبساط الممهد ، بساط الريح .. عش واضحك وامرح واطلب القمر يأتيك .. أرده إرادة قوية حقيقية يأتيك .. وكله .. كل ما في الحياة آت لا ريب فيه ..

واقتربت السيجارة من نهايتها ، وتلاحقت أنفاس الفتاة في صعود القمة ومضى جسدها يتهدج وقد أصبح كله صدراً يلهث وشفاها بدأت من الجرعات المتلاحقة ترتعش وتضطرب ، اضطراب الحمى ، حمى شملته هو كله .. والينبوع الخفي فيه يتفجر بأقصى قوته ويصل به إلى قمة الإنفعال تلك التي ينتفي معها الزمن ، ولو للحظات يتوقف الزمن ، يغرب إلى ما وراء الادراك ، ويصبح الحاضر مجرد لون . لون أحمر مدمم في لون الشفق .

وأخذت الفتاة من السيجارة التي كادت نارها تحرق الأصابع نفساً ، كآخر شهقة ثم سكنت تماماً وكأنما غابت عن الوجود . ومن بين أصبعيها اللذين انفرجا استرخاء انفلتت بقية السيجارة واستقرت ذابلة ممصوصة مغضنة على الأرض .

وأحس العميد بعد الرعود والانفجارات والحمى بسلام مفاجىء ممتد كأنه سيبقى إلى الأبد ، يشمله ويجعله يتمنى أن يكف الكون عن حركته لتبقى اللحظة في ديمومة لا تنتهي ..

ولكن الديمومة انتهت فلأمر ما بدت الفتاة وكأن العيون المستترة التي تحس الخطر دون أن تراه قد أدركت شيئاً فقد ضمت جفنيها بشدة ثم

فتحتهما على آخرهما ليلتقيا ، هكذا ، كالطلقة المصوبة بدقة ، يعيني العميد في تطلعهما من خلف زجاج النظارة .

وللأزمن التقت النظرات ، ولكنه لم يكن لقاء ولا وقتاً ، ولا شيء يقاس ، كان إرتطاماً ، سقوطاً من حالق ربما ، ماء بارداً كالثلج ، برودة الواقع الذي ترتجف لهوله المدارك ، الثلج الصاعق .

وتكهربت النظرتان بخجل ، لا قبل لأيهما به ، خجل سريع مغور ، جارح .

وفي جزع هائل انتفضت الفتاة جالسة وقد غاص قلبها وبيد ترتجف بالرعب دلقت كل محتويات حقيبتها لتستخرج في لمح البصر كتاباً ، تعود معه تنكب ، كالطالبة المجتهدة على صفحاته .

وكانت حركته ليعود عميداً أبطأ .. ممزوجة بخجل أعظم وبتأنيب أشد هولاً ، وتحرك خافض البصر طويلاً نحيلاً عجوزاً محني الأكتاف حاملاً متاعب الدنيا كلها من جديد ، وليس في رأسه واضحاً سوى الواجب ، ومالابد من عمله .. والدائرة البيضاء الملساء الصغيرة فوق مكتبه ، والعقاب .

وبأصبع عادت إليها كل عصبيتها وكأنما تمتد من صدر ضاق بالدنيا ، ضغط على زر الجرس .

ولكن أصبعه كانت لا تزال بها بقية من ارتعاش ، ارتعاش ليس بالكبر أو الضغط سببه .

ديسمبر ١٩٦٢

الـزوار

ما كاد آخرهم يخرج ، ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة كالقطار المزدحم حين يصل إلى محطة النهاية ، حتى التفت « مصمص » (وهو ليس اسم دلع ولكنه اسمها الحقيقي) إلى سكينة التفاتة حادة ، وقالت بصوت عالٍ :

ـــ بقى اسمعي يا ..

واحتارت قليلاً هل تقول لها يا بت يا سكينة ، أم سكينة فقط .. وسكينة كان اسمها سكينة وهي سكينة فعلاً . وهو اسم قد يبدو ريفياً ولكنها لم تكن ريفية النشأة أو الملامح . كانت من مدينة ما ، واحدة من عشرات مدننا أنصاف الكبيرة مؤدبة جداً خجولة جداً ورقيقة أيضاً . وكانت تحتل السرير المجاور لمصمص المرأة الضخمة الكبيرة الصدر والثديين التي يميل لونها إلى السمرة ، ودائماً ترتدي قميص نوم أبيض .

والسريران كانا في عنبر واحد من العنابر الكبيرة التي تحفل بها مستشفياتنا العامة والمركزية والجامعية والصدرية ، العنبر المعهود ذو

الإثنين والعشرين سريراً .. عنبر الحريم يسمونه .. له تومرجية سليطة اللسان ومنفوخة الجسد مكورة كالبطة . وتومرجي أعمش مفروض أن لا يدخل العنبر وأن يقتصر عمله على المطبخ ودورة المياه ، ولكن أحداً لم يعلن يوماً هذا المفروض وأحداً لم ينفذه .

وكانت سكينة الضعيفة الرقيقة الحنونة تحس إذا أطلت النظر إليها أو عمقته أن هناك فعلاً أناساً ضعفاء محتاجين إلى الشفقة ، كانت مريضة بمرض مزمن ولها في المستشفى ثلاثة أشهر وأمنيتها الكبرى أن تغادره وتخرج ، ولكنهم لا يخرجونها ولا يصرحون لها بالخروج ولا يفعلون هذا بعنف أو بحزم كما قد يعتقد البعض ، أنهم يفعلونه بأنصاف الابتسامات أحياناً وبهز الرءوس والطبطبة أحياناً أخرى ... وأحياناً بمجرد القول : حالاً .. إن شاء الله تخرجي .. أما سبب بقائها أو إبقائها فهو أن مرضها من نوع غريب يحلو للأستاذ أن يحاضر طلبته وأطباءه الصغار عليه .. وأن يريه لزملائه الكبار ، كما لو كان يريهم قطعة نادرة ضمن مجموعة أصداف أو طوابع بريد يقتنيها ..

وسكينة لم تكن مقطوعة من شجرة .. كان لها إخوة . في الحقيقة أخ واحد غير شقيق واختنان . وكان لها خالات وعمات وقريبات كأي إنسان منا وكل إنسان . ولكن رغم هذا كله فلم يكن لها زوار بالمرة . طوال الأشهر الثلاثة التي مكثتهم بالمستشفى لم يزرها أحد .. من يوم أن أتى بها أخوها وأودعها العنبر لم تر وجهه . تلك حقيقة تعرفها هي .. ويعرفها الجميع حتى التومرجية السليطة اللسان تعرفها .. وقد تكون مشكلة الخروج تلح على سكينة في أحيان كشيء لابد منه ولابد من حدوثه ولابد أن تكلم الطبيب الكبير بشأنه ، ولكن مشكلتها الأكثر

حدة في الواقع أن يزورها أحد .. أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد يداً توقظها من النوم أو الغفوة وتقول لها : قومي يا سكينة .. جالك زوار ..

طوال أيام الجمع والاثنين ، والحقيقة طوال أيام الأسبوع يفد العشرات والمئات والآلاف على المستشفى ويوزعون على عنابره ثم على أسرته وقد يخص كل سرير زائر أو خمسة أو عشرة .. ماعدا سريرها هي لم يكن يهوب ناحيته أحد ، أو للدقة كان زوار جارتها مصمص يتخذون سريرها كأريكة يجلسون عليها وهي من خجلها لا تعترض أو تأتي بحركة تسبب حرجاً لأحد كانت تغادر الفراش نهائياً وتذهب تتمشى في الطرقة أو تخرج إلى شرفة العنبر القدرة هناك حيث تتخذ مستودعاً لأكوام الزبالة وقشر البرتقال والموز واليوسفندي الآتي لابد مع كل زيارة .

وهناك .. في تمشيها هذا كانت سكينة تحزن وتنقبض وتحس أنها مظلومة وأن لابد ثمة خطأ في الكون جعلها تبقى بغير زوار .. إن أخاها باستطاعته أن يخطىء مرة ويزورها وكم زارت هي أخوتها وبنات خالاتها وكان واجبهم في هذه الحالة أن يردوا الزيارة . ماذا حدث حتى جمد قلوبهم ، وقساها ؟ ماذا حدث حتى نسيها الجميع هكذا ونسوا أنها في مستشفى ! ماذا حدث حتى تنقطع صلتها هكذا بعائلتها وأقربائها وحتى بصديقاتها وبالدنيا كلها ؟ لم تكن تدري حتى مجرد إرسال خطاب .. ما أرسل لها أحد خطاباً أو بعث بسلام ..

إحساس لم يكن يشاركها فيه أحد .. كانت أعمق أعماق قلبها هي

التي تكتئب وتحزن فقط .. أما كل ما على السطح من وجه وملامح فقد كان يلتف دائماً بابتسامة لا فرق بينها وبين مئزر الصوف الذي تتلفع به ..

وطالت المدة ثلاثة أشهر .. وأربعة وخمسة ، والمرضى يتغير معظمهم حتى لم يبق من القدامى سوى جارتها مصمص والوضع على ما هو عليه ، وضع عجيب غريب . فهي صحيح ضيقة بالمستشفى والبقاء فيه تريد بشق النفس أن تخرج وتغادره . ولكنها في نفس الوقت ، وإذا ما سألت نفسها لا تعرف أبداً لمن وإلى أين تذهب وماذا بالضبط ستفعل .. لقد كانت قبل دخولها تحيا مع أخيها تخدمه في انتظار أن يتزوج هو أو يأتيها هي عريس ، ولكنها مرضت وكانت تقضي الليل كله تنهج وتكح حتى ضاق بها الأخ وانتهز أول فرصة أدخلها المستشفى ربما كي لا تعالج بقدر ما يتخلص منها ومن حشرجات أنفاسها . بل انها سمعت أنه بعد دخولها المستشفى تزوج وعزل من البيت .. وشقيقاتها كلهن متزوجات ، وهي ليست جميلة حتى يرحب بها زوج أي أخت بل لقد ذبلت وكبرت حتى على الزواج فإلى من تذهب وإلى أين ؟

وضع عجيب غريب ، فهي ضيقة بالمستشفى ضيقاً لا حد له ومستسلمة لهذا الضيق والحياة في المستشفى استسلامًا لا حد له أيضاً كالسجين الذي يتوق إلى الخروج من السجن إلى الحياة والحرية ولكنه حين يجد أنه إذا خرج فلن يعرف ماذا ولا كيف يفعل بحريته تلك ، يستسلم للسجن . يضيق به ويستسلم له ويكاد يجن بين الضغطين ..

ولم تأت المسألة فجأة .. بل وإلى الآن لم تفكر فيها سكينة تفكيراً

جدياً أو تدبرت ما فعلت ، ولكنها هكذا جاءت .. مصمص كانت زوجة أحد المعلمين الكبار الذين لا يقل عدد أقربائهم وأنسبائهم وأولادهم ونسائهم وبناتهم عن المئات بأي حال من الأحوال ، ولهذا كان لا يمر يوم دون أن يزور مصمص لا أقل من خمسة أو ستة زوار .

يوم العطلات والأعياد يرتفع الرقم حتى يصل إلى الخمسين .. وكان يبدو على مصمص أنها في الوقت الذي تعتب فيه على فلانة الفلانية لأنها لم تزرها ما يكاد الزوار يغادرونها حتى تلهث تعباً وحتى تغمغم ببرطمة لا يفهم منها سوى الضيق الشديد بالزيارة والزوار ، والمسألة بدأت بأن راحت سكينة تسأل مصمص عن الزوار إذا قدموا ، من هم . وما هي درجة قرباهم لها . وماذا يشتغلون ، ولم يكن الأمر مجرد سؤال . دأبت سكينة على ملاحظتهم بدقة ومعرفتهم بالاسم حتى لتطفح السعادة من وجهها حين تقول لمصمص بعد خروج زائر ..

ــ مش ده كان مصطفى ابن خالتك اللي بيشتغل في السكة الحديد ..

فتبهت مصمص وتقول :

ــ الله .. وانتي إيه اللي عرفك ؟

حينئذٍ تحس سكينة الناحلة الهادئة الساكنة بسعادة داخلية لا حد لها .. غير معقول بالمرة أو مقبول فقد أصبحت لمجرد أنها عرفت من الزائر وخمنته وجاء تخمينها بالضبط مطابقاً للحقيقة .

ولكن هذه السعادة ، بالتكرار . لم تعد تحدث ووجدت سكينة نفسها مدفوعة إلى خطوة أخرى كي تحس بنفس سعادتها السابقة .

فبدأت تقدم مساعدات وتسرع مثلاً وتحضر كراسي لزوار مصمص — أو إذا أرادت الأخيرة أن تعزم عليهم بالقهوة أو الشاي أو الغازوزة أسرعت سكينة إلى البوفيه .. تحضر الطلبات بنفسها .. وكانت مصمص تأخذ الأمر في أوله باعتبار أنه نوع من الطيبة من سكينة لا أكثر ، ولكنها بدأت تعجب فعلاً وقد راحت سكينة تقوم بأعمال غير معقولة أبداً تأخذ الأطفال من الأمهات الزائرات وتداديهم أو تذهب بهم إلى دورة المياه ، وتلعب مع الأبناء الكبار وتقول لهذا الزائر .. والنبي وحياتك ابقى سلم على فلانة وفلان وكأنهم أقرباؤها هي ..

بدأت مصمص تستعجب ، ومصمص لم تكن سهلة ولا طيبة ولا مسكينة أبداً أنها جهنم الحمراء إذا انفتحت وإذا رأت في الأمر ما يريب .. وكانت سيكنة قد زودتها في نظرها كثيراً وبشكل أصبح لا تفسير له ولا تبرير ، تجلس مع الأقرباء والأصهار طوال الزيارة . ولا تغادرهم للحظة وكأنها منهم وعليهم يتحدثون عن أدق أمورهم العائلية الخاصة فلا تخجل ولا تبتعد . بل أكثر من هذا تهتم بها وتناقشها مناشة المتحمس الغيور ، وتبدأ الآراء أيضاً .. وتنتظر مصمص على أحر من الجمر أن « تحس » سكينة مرة فتقوم أو تغادر الفراش أو على الأقل تولى إنتباهها إلى الناحية الأخرى بلا فائدة إذ كانت سكينة لا تفعل شيئاً من هذا أبداً ، بل تظل طوال الجلسة بأكملها وبعد الجلسة أيضاً تتحدث وتعقب وتحاول أن تدخل مع مصمص في أخص الشئون وفي الغويط . ومصمص . تكظم وتكظم . فصحيح أن سكينة تتدخل ولكنها تفعل هذا وهي راقدة في نفس فراشها لا تغادره . بالعكس أن زوارها هم

الذين يجلسون على فراش سكينة وبهذا يعطونها الفرصة للإندماج والتدخل ..

بل تطور الأمر إلى ما هو أكثر وبدأت سكينة تقتنص زائراً أو زائرة من الجالسين على فراشها وتنخرط في حديث لا ينقطع معه أو معها بحيث تنتهي الزيارة وهم لم يتبادلوا كلمة واحدة مع قريبتهم مصمص وكأنهم جاءوا لزيارة سكينة أصلاً ..

ولقد تكرر الأمر مرة ومرة ، ومصمص صابرة تكظم إلى أن كان هذا اليوم الذي قررت أن تفجر فيه ، وهكذا ما كاد آخر زائر في يوم الزيارة يخرج ويفرغ العنبر محتوياته المكتظمة كقطار وصل إلى محطة النهاية حتى التفتت مصمص إلى سكينة التفاتة حادة ، وقالت بصوت بالغ العلو ..

ـــ بقى اسمعي يا ..

واحتارت قليلاً .. أتقطع العشم والعلاقة والعيش والملح مرة واحدة وتقول يا بت يا سكينة ، أم تكتفي بنهرها وتقول يا سكينة فقط ، فإذا قالت لها يا سكينة فيكف تستطع أن تصب عليها بهذه البداية ما يتفجر به صدرها الضخم العالي الأسمر من غضب وضيق ، احتارت مصمص .. وكالبندقية صوبت عينيها إلى سكينة وكأنما لتزيد برؤيتها لها جرأتها وعنف إنفجارها .. كانت قد قررت أن توقفها عند حدها وأن تنذرها بأنها إذا استمرت في اقتناص زائر أو أكثر من زوارها هكذا فسوف تمرمط الأرض بزوارها . زوار سكينة إذا جاءوا والعين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم ..

صوبت مصمص عينيها إلى سكينة لتجدها راقدة في سريرها نصف مغطاة الجسد تحملق أمامها كمن يجتر ذكرى لحظة سعيدة مرت .. وفجأة اكتشفت مصمص الجهنمية أن تهديدها الذي يكاد يفلت من فمها لا معنى له بالمرة . أجل هكذا . في وضمة مفاجئة اكتشفت مصمص أن سكينة لا يأتيها زوار ولا ينتظر أن يأتيها أحد .. وهكذا بعد أن كانت قد استدارت واستدار السرير لاستدارتها وقالت : بقى اسمعي يا ..

وحين التفتت سكينة بدهشة ونوع من الذعر تسأل : نعم يا ست مصمص .. لم تغير مصمص رقدتها ولا رفعت عينيها عن وجه سكينة .. كل ما في الأمر أن صوتها إنخفض فجأة حتى كاد لا يسمع ..

وقالت :

لا .. ولا حاجة .. ده كانت كلمة كدة وعدت ..

قالت هذا وهي ترمق الفتاة بعينين مشتتين فوق وجهها . يكاد يطفر منهما الدمع .. وظلت مثبتة عينيها فوق وجه سكينة لا ترفعهما وكأنها تراها لأول مرة .. رفعية نحيلة مقطوعة من شجرة ...

ديسمبر سنة ١٩٦٢

معاهدة سيناء

الأبطال هنا ثلاثة .. لا بل أربعة ، إذا حسبنا « المكنة » التي كان لها دور لا يقل خطراً عن دور الإنسان .. وأول الثلاثة هو « ماشنسكي » الروسي الذي يسميه العمال في المعسكر « ماشا » وهو أحمر الوجه فاقع الحمرة ، تلك التي تميز وتقف حداً فاصلاً بيننا نحن شعوب آسيا وأفريقيا وبين الأوربيين .. والثاني كان « بيل » أو إذا أحببت الدقة « وليم » الأمريكي المعضم . ذو القتب والنظارات والجسد الرشيق النحيل الذي ربما طال في الهواء لو نفخته . أما الثالث فلم يئن بعد أوان الحديث عنه .. أما رابعة الأربعة ، المكنة . فهي آلة ضخمة جداً في حجم البيت الصغير أو أكبر قليلاً وثمنها كذا عشرة آلاف جنيه ، وأصلها روسي . انتجتها مصانع ليننجراد وجاءت إلينا كجزء من القرض . وجاء معها ماشنسكي ليديرها ويشرف عليها ومن أول يوم له في المعسكر ألغى العمال والموظفون كلمة ماشنسكي نهائياً واستبدلوها بوعي أو لا وعي بكلمة « ماشا » .. والكنة وماشا والمعسكر كله .. هناك .. على مدد السفر .. بعيداً جداً ، قرب حدودنا الشرقية المطلة على ساحل البحر الأحمر .

وذات يوم حدث للمكنة . مثلما يحدث لأي مكنة في الدنيا أن تعطلت ووقف ماشا أمامها يدور حولها ويفتح مفاتيح ويغلق صمامات . ويختبر ويجس . وأخيراً نطق وقال للمهندس المصري المشرف على المعسكر (وهو رجل في حوالي الأربعين وشعره أسود تماماً وله كرش وكان زمان يعتبر نفسه دون حوار) قال ماشا بوجه صارم مبتئس : إن الآلة قد كسرت فيها قطعة مهمة جداً ، ولا يمكن أن تعمل إلا إذا جيء لها بقطعة الغيار تلك ..

وهكذا أرسل إلى مركز المؤسسة رسالة مستعجلة بطلب النجدة .. وبقي هو والخمسمائة عامل والخمسون موظفاً وتكنيكيا في إنتظار رد القاهرة .. وهدأت الحركة في المعسكر فلا حفر ولا ضوضاء آلات ولا أصوات مكن . ولا أغاني عمل . لا شيء سوى مواويل الحظ والكسل تنطلق خافتة من عقيرة حمدان أبو طالب صعيدي قنا القح والمغنى شبه الرسمي للمعسكر .

هدأوا جميعاً ينتظرون . ولكنه انتظار بلا أمل . فلم يكن أحد منهم يتوقع أو يصدق أن الروتين في المركز سيحقق المعجزة وأن قطعة الغيار ستصل بأسرع وقت كما طلب السيد عبد الحميد في استغاثتة ..

ورغم أن رسالته أو قعت مركز المؤسسة بالقاهرة في دوامة حرج شديد إذ أن قطع غيار هذه الماكينة بالذات لا توجد إلا في روسيا ودون إحضارها من هناك مصاعب نقدية ومصرفية وإقتصادية لا تعد ولا تحصى بحيث لا أمل في حضورها قبل ستة أشهر أو سنة ..

رغم هذا ، إلا أن قطعة الغيار أحضرت على وجه السرعة ، وجاءت في وقت كان المعسكر كله قد جاءه أمر بالاستعداد للرحيل وإنهاء العملية وقد رأى المركز أن يستغني عن الحفر في تلك المنطقة كلها .

أما كيف أحضرت تلك القطعة فلا أحد يدري للآن ، ولا أحد يدري كيف تسرب الخبر إلى شركة « إنترناشيونال » الأمريكية ولا كيف استطاعت بين يوم وليلة أن تتصل بالمركز وتخبره أنها على إستعداد لتوريد قطعة الغيار اللازمة ، وفي الحال .

وبين تهييص وطبل وأغان وفرحة وصلت قطعة الغيار إلى المعسكر ووصل معها المستر « وليم » أو كما أصبح هو يطالب الذين يعملون معه بأن يطلقوا عليه الاسم الذي تعود الناس أن ينادوا به وليم وهو « بيل » . ما كاد يظهر المستر بيل بالعربة وفوقها الصندوق الخشبي الضخم الذي يحوي قطعة الغيار حتى اعتقد الجميع أن خلاص ، المشكلة انتهت ، وليس هناك سوى بضع ساعات يتم فيها تركيب قطعة الغيار ويستأنف العمل سيره .

وبأنفسهم ذهب العمل وعلى رأسهم السيد عبد الحميد يزفون الخبر لماشا الذي لم يكن قد غادر من لحظتها حجرته . وكانوا يتوقعون أي شيء إلا ما حدث ، إلا أن يزجرهم ماشا ويهب في وجوههم ثم ينطلق خارجاً ذاهباً إلى حيث قد تجمع حول المكنة عدد كبير من الناس يحيطونها ويحيطون بيل وصندوقه الخشبي معها . وما كاد يصل حى صرخ ماشا في الجميع قائلاً : لا .. لا يمكن ..

ــ لماذا يا ماشا ؟

ـــ مستحيل أن تصلح قطعة غيار أخرى غير القطع الروسية للمكنة .

ـــ ولماذا لا نجرب ونرى ؟

ـــ لا .. لا يمكن .

وقلت اننا لا نيأس ، وعلى هذا بينما كان ماشا يرفض ويصر على الرفض كان العمال يفكون الأسلاك من حول الخشبة ويخرجون قطعة الغيار من الصندوق ويضعونها أمام ماشا قائلين : فلنجرب .

ولكن ماشا أصر على الرفض قائلاً :

إن المكنة السوفيتية لا تصلح لها إلا قطع غيار سوفيتية ..

قال هذا وهو يشد على كلمة سوفيتية الأولى والثانية .

وانقضى يوم ، وكاد يوم آخر ينقضي والتوتر لايزال قائماً على أشده ، والعمل معطل تماماً ، والعمال جالسون القرفصاء ورءوسهم بين ركبهم يسلون بعضهم البعض ويضحكون ، وكلما خرج ماشا من حجرته أو دخل لابد يلمح هذا العدد الضخم من العمال ، والظاهر أن شيئاً قد تغير في تفكيره . إذ فوجىء الجميع به يخرج إليهم قائلاً لأجل خاطرهم فقط ولأجل أن يثبت لهم أنه على حق وأنه على خط سيجرب أمام أعينهم قطعة الغيار الأمريكية ..

وهاص المعسكر فجأة .

وكان لابد لاختبار قطعة الغيار الجديدة من عقد (كونسنتو) هندسي من ماشا وبيل والمهندس المصري المختص . مؤتمر ظل ماشا في

أوله ينظر شزراً وباحتقار شديد إلى بيل ، وبيل يقابل نظراته بعينين كأنهما فوهتا مسدسين من مسدسات رعاة البقر في أفلام السينما . ولكن الحقيقة أن تلك النظرات لم تستمر كثيراً فسرعان ما أدرك ماشا أن بيل يفهم حقيقة الميكانيكا وأن الناس في الولايات المتحدة ليسوا جهلة كما كان يظن ، واكتشف بيل هو الآخر أن ماشا الروسي ليس مجرد اسطوانة مسجل عليها أقوال ماركس ولينين ، وإنما هو آدمي أيضاً يغضب أحياناً ويثور ، وأحياناً يرضى ويبتسم ، ابتسامة صافية جداً كابتسامات الأطفال .

وكان عمل المهندس المصري أول الأمر أن يمنع الاحتكاك المباشر ، ويلطف الكلمات الحادة ، ويقول لبيل : طب امسحها في دقني أنا ، ويقول لماشا : معلشي عشان خاطري ، إلى أن بلغ مراده وبدأ الجو يهدأ ، وبدأ الاثنان يتناقشان المناقشة الهندسية الخالصة .

وثبت من المناقشة ومن الاحتكام للمقاسات ، ومن التجربة العملية أن قطعة الغيار الأمريكية تصلح لتحل محل القطعة الروسية .

وتهلل وجه المهندس المصري طرباً للنتيجة ، النتيجة التي كان مفروضاً أن يسر لها ماشا وبيل ، ولا أحد يدري إن كان أيهما قد تولاه السرور ، إنما الذي لاشك فيه أن أحداً لم يكن ليستطيع أن يمنع الصدام الذي نشب حالاً .

فما دامت قطعة الغيار قد أثبتت صلاحيتها فلابد إذن من تركيبها وتسيير المكنة بها ، من يركبها ؟ ذلك هو الصدام المروع الذي نشأ .

ماشا يقول : إن المكنة روسية وأي تغيير فيها أو تبديل يجب أن يتم بمعرفته هو . وبيل يقول هذه المكنة كانت روسية وهي الآن وبغير قطعة غيار الأمريكية مجرد كتلة من الحديد الخردة ، ولابد له هو أن يتولى عملية التركيب والتشغيل .

ويثور ماشا ويقول لا يمكن أن أسمح لمندوب شركة أمريكية احتكارية رأسمالية متعفنة أن يعيث فساداً في مكنة أنتجتها أيدي الطبقة العاملة السوفييتية .

ويستشيط بيل غضباً ويقول : أيها الشيوعي الـ ..

وترتفع أكثر من مائة يد صعيدية وبحراوية ، أيد مشققة وأيد ناعمة مثقفة ، تحول بين الاثنين وتطلف الموقف .

ويعود العبوس العظيم يحتل وجه السيد عبد الحميد ، فخلاف ماشا وبيل ليس نقمة ولكنه نعمة تهبط أول ما تهبط فوق رأسه .

وتطور الخلاف وتبودلت الكلمات الزاعقة الطائشة حتى عاد المعسكر إلى إنقسامه فلازم ماشا غرفته ، وجلس بيل جلسة المتحفز أمام بابه ، ووقف السيد عبد الحميد ينقل بصره بين المكنة المفتوحة البطن وبين قطعة الغيار الراقدة بجوارها ، وهو لا يحس مطلقاً بالشمس المنصبة فوق رأسه . وبآخر ما يستطيع من جهد حاول مرة أخرى أن يجمع ماشا وبيل كي يتفقا ويركب أحدهما أو كلاهما القطعة ويستأنف العمل ، ولكنه ما كان يجمعهما إلا ليتشادا ويتفرقا ..

وكل منهما يقف موقفاً صلباً عنيفاً وكأنما قد استحضر في جسده

الواحد عناد أمته بأسرها كل طاقتها على القتال . أجل .. في تلك البقعة النائية من شبه جزيرة سيناء ، وتحت لفح نيران حامية تتأجج من صفرة الأرض وزرقة السماء ، هناك حيث لا حياة ولا جمال ، ولا شيء سوى الرمل والصحراء والجبل والعمل ، هناك حيث المعسكر مقام ، كان يقف ماشا وبيل وجهاً لوجه ، شابان متقاربان في السن ، لهما نفس المهنة وربما نفس الهوايات ولكن كلا منهما مستعد أن يقتل الآخر مثلاً لو ظل الآخر على صلفه وعناده .. كل منهما عنيد صلب يريد أن يذبح الآخر ويصفي دمه ، كل منهما يعتقد أنه على حق وأنه لو تراجع قيد إنملة فكأنما كرامة بلده وشعبه هي التي تتراجع .

والحقيقة أن السيد عبد الحميد لم يكن يقف يرقب المكنة وقطعة الغيار وحده ، كان يقف معه محيي الدين ، أو كما يسميه العمال « النمس » وهو رغم نهمه الشديد وحبه لالتهام الطعام ، رغم تزويغه من الشغل كلما عنت له فرصة إلا أنه دائماً جلاب المشاكل ، عمل مع ماشا فالتقط منه الصنعة وعمل مع الألمان فتعلم الميكانيكا . ورغم هذا فيدوبك كان يفك الخط . ولكنه كان يقرأ الصحف بمهارة ، متحمساً . أسمر . مبتور البنصر الأيمن غزير العرق ، شعره أكرت قد أصبح له لون الصحراء الأصفر من كثرة ما علق به من تراب وغبار . ولكن أحداً في ذلك الوقت لم يكن يلقي بالا كثيراً إلى النمس أو إلى السيد عبد الحميد ، فالجميع ، حلقات ، حلقات ، مشغولون بتتبع أخبار المعركة الدائرة بين ماشا وبيل وآخر أنواع الشتائم التي كان يطلقها كل منهما خلف الآخر وأمامه .. وعدد صفائح البيرة التي يقذفها ماشا ، وعدد جرعات بيل .

واستمر الأمر هكذا ، طيلة اليوم ، وحتى غربت الشمس . وجزءاً لا بأس به من الليل .

وفي الصباح فوجيء الجميع بشيء لم يكن يتوقعه أحد .. فوجئوا بالمكنة ، منذ الصباح الباكر . تدور وقد ارتفع صوتها وتوالت تكتكاتها تشق عنان السماء .

كان الثمس ، على ضوء كلوب ، وبمساعدة زميل له ، قد قام ، من وراء بيل وماشا ومن وراء الباشمهندس ، في الليل ، بتركيب قطعة الغيار الأمريكية والتصرف في أجزائها وصواميلها حتى طابقت تماماً المكنة الروسية .

وعلى صوتها هب الجميع من النوم غير مصدقين . وتجمعوا بعيون نصف مغمضة يرقبون المكنة الدائرة وبجوراها الثمس وعلى وجهه الطويل ترتسم إبتسامة ظفر عريضة والزيت يقطر من سواعده وجبهته ويديه .

ومن بين الوجوه ، مئات الوجوه ، تطلع ماشا إلى بيل ، وبدا من نظرتهما المتبادلة كمن سيوشكان على الإنفجار ضحكاً أو غيظاً .

• • •

وظلت المكنة بعد هذا تدور . وإلى الآن وهي لا تزال دائرة . نصفها أمريكي ونصفها روسي ، والذي يديرها هو الثمس بعينه وسمرته ، وبنصر يمناه المبتور .

ديسمبر سنة ١٩٦٢

قصة ذي الصوت النحيل

في مثل هذا الأوان (بصوت واهن كأنه الحفيف غير مبال باهت ، محدود) .. بدأ كل شيء وكانت المشكلة دائمة أن يبدأ كل شيء ، مشكلتي ومشكلة زوجتي والآخرين ، سأتحدث بالتفصيل عنهم . كنت هناك وكانت الدينا ليلاً أسود يخيف ، مليئاً بالأشياء التي تخيف .. هناك كلام لابد أن أقوله لأي أحد ، لابد أن يعرف واحد على الأقل كل شيء المهم كل شيء .

نفس العمارة ، عمارتنا التي نسكنها الآن ، قلت لسايس الجاراج والبوابين كل شيء ، ووعدوني هم أنهم ساعة ما يرونهم سيخبرونني بكل شيء ، بالتفصيل كل شيء . السكان القاطنين فوقنا كويسين وعرفنا نتفاهم بسهولة ، إنما السكان اللي تحت ، تحتنا ، ناس كتير ساكنين في الشقة الواحدة ييجي خمسين نفر ، كتير قوي زي النمل لو شفت عنيهم ، عيون غويطة إذا بصيت فيها تغرقك وتبلعك ، وبقهم واسع قوي يبلغ البطيخة يبلع كل شيء ، إنما أصلهم عمرهم ما شافوا نفسهم أبداً ، لو شافوها مرة واحدة كان خلاص انتهى كل شيء .

شكسبير في روايته بيقول العين ترى كل شيء ولا ترى نفسها . إنما

عيني أنا بتشوف كل حاجة . كانت هي اللي شافتهم . أول عينين شافوهم . ومن ساعتها وفيه قدام عيني ضباب كتير كئيب زي ضباب الصيف في يوم حر ، ما أعرفش ليه ما اتخنقوش من الضباب ، بالعكس كانوا بيستخبوا مني فيه . حاولت استرضاهم بعت لهم زوجتي يعني .. شتموها . دول ولا كأن البلد بلدهم لوحدهم .. أصلنا أتاكلنا أونطة واحنا خلاص بنتهي وكل يوم عامل زي ما يكون بيقطع فينا كل يوم حتة لما ح ييجي اليوم اللي ما يفضلي فينا حاجة . وبيسلطهم علينا وكل يوم تأميم ، هم سمعوا حكاية التأميم دي وخرجوا لك من الضباب وحاصروني . عايزين مني إيه ؟ ما تعرفش ، ما عندهم البلد واسعة وغنية قوي لو حاولنا نبيعها تتباع بكام ، بمليون مليون مليون مليون ، إنما دلوقت مصر دي ما تساويش عندي حاجة أبداً .. سرقوها اللصوص . أمال نسميهم إيه .. لصوص . نهب . سلب .. قبشوطة ، ده فيه أسرار كتير قوي بس مش قادر أقول كل حاجة . أنا حاولت كتير معاهم بالذوق بالحيلة مافيش فايدة ، عايزين كل حاجة حتى ابني كانوا عايزين يأخذوه لولا وديته عند عمته في مصر الجديدة .

ضحكوا على الخدامة وبنجوها وجت لنا مبنجة إما سابتوش بالزعيق دور وبالمحايلة دور كانت النتيجة أنهم قالوا على اللي قالوه . ولما حصلت الحكاية كنت أتوقع طبعاً إن مراتي تقف جنبي ، تلاقي عيلة مراتي حد منهم مسلطها علي .. طبعاً كان لازم نأخذ موقف ، أما تبقي معاهم وأما تبقى معايا .. للأسف ده يحصل منها .. جايز يكون حد من عندنا اتهمهما بأنها السبب في الحالة اللي أنا فيها دي وجه رده عليها خلاها

تتنرفز وتأخذ الجانب التاني . وكل اللي بيحصل لنا ده من غلطنا إحنا .. لو كنا سبقنا وضربنا قبل ما نضرب ما كنش حصل حاجات من دي ولا كانوا جابوا سيرة للملكة فريدة ، أصلها ساكنة قدامنا وعمرها ما ظهرت لنا وشفناها فاية الداعي يشركوها في الموضوع .. وأنت عارف بقى .. أطلع ألاقيهم مراقبين .. ادخل عينيهم ورايا .. أصل عينيهم صعبة قوي وخصوصاً عينين السكان التي تحت دول . كل عين كأنها ماسورة بندقية والنظرة منها بتيجي منشنة تمام في الصميم .. مش ع الحسد يعني .. حسد إيه .. كانت تبقى أهون .. ده فيه حاجة تانية أكثر م الحسد كتير .. حاجة زي النار لما بتولع بتفضي على كل شيء .. لما ظهرت الحكاية وأتأكدت أن الملكة فريدة مالهاش ذنب بره الموضوع خالص وإن اللي تحت هم اللي كانوا ملفقين التهمة ، أخويا الكبير جه وقال لي لازم نعزل خلاص ماعندناش قادرين نقف قصادهم وإننا لازم نسلم ونعزل .

قلت له مش ممكن يهزمونا .. أنا لا يمكن أعزل .. أنا شاب في الأربعين إنما خلوني شيخ في التمانينن .. نعزل ليه .. ونهزم نفسنا بأيدينا ليه .. مش كفاية هو علينا .. هو فاكر نفسه كل حاجة .. هو فاكر إن أي حاجة عايز يعملها يقدر يعملها هو فاكر إن الناس رغيف عيش يفضل يقطعه بالسكينة حتة حتة لغاية ما يخلص عليه ، هو عايز يعمل مننا بني آدمين زي الحيوانات من غير إرادة ممكن يسوقها زي ما هو عايز ، بيسلطهم علينا .. السكان اللي تحت بيسلطهم علينا ويراقبونا ويأكلونا بعينيهم أكل ، عينيهم سوادها كله جوع وبياضها أسود من

سوادها .. أنا بأرفض للنهاية ، أنا إنسان لي كيان وعيلتي ولي أرضي حتى لو خدوها برضك بتاعتي .

أنا حاولت كتير أتجنبهم وقعدت على طول في البيت عشان ما أقابلشي حد فيهم طالع السلم واللا في الاسانسير . أصل لما حد منهم كان يبص لي كنت بحس اني بغرق وغرقان لشوشتي في نار سوده جوه عينين ثابتة زي عينين الميتين ، أسأل بتوع الجاراج يقولوا لك . بقوا يجيبوا سلالم حبل علشان ينطوا علينا من الشبابيكِ فسمرنا الشبابيك ، وبقوا ييجولنا من تحت عقب الباب فبقيت أحط أكياس رمل ورا الباب وأحط الكنبة كمان عشان ما يقدروش يزقوها ، لما ليقوا مفيش فايدة بقوا يسلطوا علي التمرجي يديني الحقنة وكانوا يدوبوا مية عينيهم فيها ويحقني بيها في العضل أقوم أحس بعد كده بيهم ، هنا ، جوايا ، وأخرتها قالوا لكل الناس اني عيان ، والناس صدقوهم تصور المصيبة الناس تصدقهم وتكدبني أنا ، كل الناس تصدقهم ، حتى مراتي أنا تصدقهم وتتفق مع الدكتور أنهم يدوني حقنة بنج عشان ما أقاومش ، كانوا عايزين يدوني الحقنة عشان ما أقدرش أعمل حاجة قدام السكان اللي تحت .. خطة موضوعه .. وللأسف زوجتي اشتركت بعبط وهبالة فيها .. يخدروني أنا عشان دكهم يهجموا عليا ويأكلوني . أنا عندي كلام كتير عايز أقوله ، كلام خطير ، ده خسر كل حاجة حتى مراتي ، عايز أقوله لأي حد ، يعرف الحقيقة عشان ييجي اليوم اللي كل الدنيا تعرفها فيها لازم حد يعرف إحنا قاومناهم إزاي واننا رغم كل شيء ماعزلناش وأن الملكة فريدة مالهاش ذنب في الموضوع اللي حاولوا يعملوه بينا وبينهم واسأل البوابين وبتوع الجاراج .

أنا زهقت خلاص من محاربتهم ، بيتهيألي اني أسلم زي أخويا وأعزل ، واللا أسلم ليه ده يبقى انتصار لهم ويفرحوا فينا ، بس أنا خلاص بعدوني عنهم ومش قادر ولا عارف أقاوم ، تفتكر كل شيء انتهى .. تفتكر انتهى كل شيء ... صحيح كل شيء أصبح لا شيء .. تصدقها أنت دي .. هو احنا عقب سيجارة نتشرب ونتفعص ونصبح لا شيء ، إزاي الناس حواليه ساكتة وكأن ما فيش حاجة حصلت .. إزاي بياكلوا ويشربوا وهم مبسوطين .. هم مش عارفين أن كل شيء أصبح لا شيء ، أنا لسة عندي كلام كتير وخطير عايز أقوله بس (مستمراً بصوت واهن كأنه الحفيف ، غير مبال ، باهت ، محدود) لازم حد يعرفه ، لازم حد يعرف الحقيقة التي ما حدش راضي يعرفها .

ديسمبر سنة ١٩٦٢

الورقـة بعشـرة

كان صلاح زوجاً ، وكانت له إبتسامة ، ليست كالإبتسامات الحية تولد طفلة طازجة وتتفتح فجأة على الوجه ثم تزول ، ابتسامة كانت لا تظهر ولا تختفي ولا تولد أو تموت ، ولكنها محنطة على وجهه كالمومياء . وكانت بالضبط تعبر عن حياته فهو الآخر يحيا كالمومياء المحنطة ، أو على الأقل كان هذا رأيه في نفسه ، فهو زوج ، وهو كمعظم الأزواج ساخط على الزواج يحس أن حياته المملة الرتيبة تقتله تميت فيه الحياة بالتدريج .

ولهذا كانت أمانيه .

وهز رأسه وحسرات كثيرة تتبعثر من فمه ومن قلبه . مستحيل . كيف يحتفل بعيد زواجه من روحية . وكيف يهديها شيئاً هي التي لم تفكر في إهدائه إلا الكلمات السامة المنتقاة ، والشخطات التي لا رحمة فيها ولا عاطفة .

وهكذا لم تطل حسراته ، فقد أعاد العشرة جنيهات إلى الخزانة ، وأغلق أدراجه ، وكان موعد الإنصراف قد حان ، فأخذ طريقه إلى الباب ، والشارع ، ومن ثم إلى البيت وهو يحس بمغص حاد ينتاب قلبه ،

ومرارة تملأ نفسه ، وكأنه ذاهب لقضاء بقية اليوم في السجن المؤبد الذي عليه أن يقضي بقية عمره فيه .

ولكنه طوال الطريق كان يفكر في الورقة ذات العشر جنيهات ، والإهداء الذي كتبه عليها ويقول لنفسه : نعم .. لابد أن هناك حياة أخرى .. حياة مليئة بالهدايا ، والحفلات ، والبسمات .

ومع أنه كان فاقد الأمل في حياته تلك وزوجته ، إلا إنه لم يمنع نفسه من تمني شيء : أن تكون روحية قد تذكرت المناسبة وأعدت له مفاجأة ، أو على الأقل استعدت لتحتفل بالعيد .

غير أن المفاجأة التي كانت تنتظره ، أنه لم يفاجأ بجديد . فما أن فتح الباب حتى طالعة صراخ الأولاد ، وحتى طالعته روحية نفسها واقفة في وسط الصالة ، وشعرها واقف أيضاً ، وهي تحاول أن تضرب ابنه الأصغر ، والولد يصرخ ، وهي تصرخ والجدران تتهاوى وتستغيث ، والأبواب تتخبط ، ورائحة القلي والطبيخ يتعلقون برجليه ويتعثر في أرجلهم ، وألف مشكلة وكارثة ومطالبة لابد تنتظره .

إنها خانقة ، تلك الحياة ، وتلك الزوجة .

ألا تعرف ما هو اليوم ؟

أجل ، اليوم ، اليوم يوم عشرة واللبان لم يأخذ نقوده ، وبائع الثلج والأولاد جننوني ، ولا شيء آخر ؟ لا شيء ألا الهم والغم والدروس التي يجب أن تأخذها بنتك قبل الامتحان لتنجح . إنه يكرهها . إنها لم تعد امرأة يشتهيها ، ولا حتى صديقة يأنس إليها . ما الذي يربطه

بها وكل ما بينهما حرب مستعرة مستمرة وخلاف يتجدد في كل ثانية . كل يوم يفكر عشر مرات في طلاقها أو الانتحار ، وكل يوم لا يطلقها . ولا ينتحر ، وكل يوم يفكر في حياة جديدة وزواج جديد ، وكل يوم لا ينفذ حرفاً واحداً من القرارات الحازمة الباترة التي إتخذها ! كل يوم يفكر حتى في خيانتها ، وكل يوم لا يخونها . ما الذي يربطه بها ، حتى الأولاد ، إنه يكرههم من أجلها ويكرهها أكثر من أجلهم ، ومع هذا لا يتركهم جميعاً و « يهج » ، ولا يتروكونه ، ما الذي يبقى هذه العائلة السخيفة متماسكة ، وكل ما فيها يتنافر مع كل ما فيها . الخلاف البسيط يؤدي إلى نقار والنقار إلى شجار ثم يتطور الأمر ويغادر المنزل غاضباً وحين يصل السلالم تخرج منه الزوجة ، وتقطع الشجار وتقول :

ـــ إياك تنسى تشتري البزازة ؟

ويخرج وهو مصمم على ألا يعود ولا أن يشتري البزازة . ولكنه ما أن يلمح أجزخانة حتى يتوقف ، ثم يتصور خيبة أملها حين يعود بلا بزازة فيدخل ويشتريها .

لماذا يشتريها ؟ ولماذا وكل ما بينهما حرب يراعى شعورها ، وتراعي أحياناً شعوره ؟ ما كنه تلك العلاقة الغريبة التي تجمعهما .

لماذا يستسلم لتلك الحياة ، لماذا لا يبدأ حياة جديدة ، لماذا لا يبدؤها فوراً والآن ؟

ولكنه لم يبدأ شيئاً أبداً ، فقد دخل كالعادة ، وحل بعض المشكلات وعقد بعضها وتبودلت بضع زغرات وتلميحات وشتائم ، وتغدى ،

وكالعادة نام ، وحين استيقظ بعد الظهر كان قد نسى كل شيء عن ١٠ مايو وعيد زواجه ، والعشرة جنيهات وكلماته المكتوبة فوقها بخط أنيق .

• • •

ومرت الأيام ، وهو لا يحس بمرورها . فمن يوم أن تزوج لم يعد يحس بالزمن وكأنما فقد ذاكرته حتى أنه لا يذكر ماهية نفسه قبل الزواج وكأنما وعي فوجد نفسه زوجاً .

مرت الأيام وهو دائب الإحساس أنه يذوب ويذوب ، ويفقد ذاته ونفسه ، حتى فوجيء ذات يوم بشيء استغرب له جداً .

كان يفحص مبلغاً واراد إلى البنك ، وإذا به يعثر على ورقة من ذات العشرة مكتوب على دائرتها البيضاء : إلى زوجتي العزيزة .. بمناسبة عيد زواجنا الخامس .

ولم يكن الخط خطه .

واحتجز الورقة وظل يقرؤها ويضحك من أعماقه .

كان أحدهم لا ريب قد ساقت إليه الصدف الورقة التي كتب عليها الإهداء فظن أن أزواجاً صالحين يهدون زوجاتهم أوراقاً كتلك في أعياد زواجهم ، ففعل مثلهم ، وكانت النتيجة هذه الورقة .

ظل يضحك ويلعن الزواج المغفل الذي صدق النكتة .

وبعد أن انقشعت موجات ضحكه أحس بشيء قليل من الندم . فقد أدرك أنه بطريقة أو بأخرى قد خدع ذلك الزوج ، وأنه قطعا مسئول إلى حد ما عن تلك الخديعة .

• • •

غير أنه بمرور الأيام تضاعف ضحكه وتضاعف تأنيبه لنفسه ، فقد تبين أنه لم يضحك على زوج واحد فقط ، ولكنه خدع كثيرين ، فقد وجد إهداءات كثيرة مكتوبة على أوراق بنكنوت من ذوات العشرة والخمسة والخمسين ، وأحياناً المائة — ولم يعد يستطيع كتمان الأمر عن زملائه ، فأطلعهم على الأوراق ، وحكى لهم القصة وهو لا يتمالك نفسه . وطبعاً ضحك الزملاء كثيراً . وتبادلوا الضربات على الاكتاف ، وقال أحدهم إن أعظم زوجة في العالم لا تساوي قرش صاغ واحد فما بالك بعشرة أو بخمسة أو بخمسين جنيهاً .

وأصبحت المسألة مصدراً لا ينضب للضحك ، فما يكاد يرد إلى صلاح ورقة عليها إهداء حتى يشير بالورقة إلى زملائه من بعيد وكأنما يقول : وآدي مغفل جديد .

ولكن عدد المغفلين كثر بشكل أفقد المسألة ما كانت تثيره من ضحكات ، بل كثر بشكل أزعج صلاح نفسه ، لقد قرأ يوما إهداء وكان موجهاً من زوجة إلى زوجها .

وأصبح تأنيب الضمير على الخدعة التي ابتكرها لا يكفي ، أصبح لابد من التفكير ، ما هي حكاية هؤلاء الناس ؟ وهل هي مجرد محاكاة

لما فعله ، أم لابد أن في المسألة سراً خطيراً لا يدريه ؟

وكان عليه لكي يكشف السر ، إن كان هناك سر أن يجرب .. وبهرته الفكرة ، وأحس لها بحماس شديد ..

● ● ●

كان يوم ١٠ مايو قد اقترب ، وعام جديد قد أضيف إلى عمر زواجه ، فلماذا لا يفعلها ويجرب ؟

أجل ، فليجربها في عشرة جنيهات . ولكن تفكيره ما أن حوم حول الرقم حتى هبط حماسه في التو . عشرة جنيهات !؟ إنها تكاد تبلغ ثلث مرتبه أو نصفه . إذا كان لابد من التجربة فليجربها في جنيه مثلاً . ولكن ، أيصح أن يهدي زوجته جنيها واحداً في عيد زواجها . المسألة حتى من الناحية الشكلية محرجة ، ولكنه إذا نظر إليها من الناحية الأخرى فإنه لا يمكنه أن يهديها عشرة جنيهات مرة واحدة . فهو لا يهدي زوجته ، إنه يهدي غريمه ، فلتكن خمسة إذن . تكفي خمسة .. إنها كافية جداً .

وهكذا جاء يوم ١٠ مايو ، وجاءت الساعة الثامنة منه ، وصلاح عائد إلى البيت وفي جيبه الورقة والإهداء على دائرتها البيضاء حبره لم يجف بعد ، وكل ما يحسه هو الفرحة لأنه مقبل ، في حياة قاتلة الملل ، على تجربة جديدة ، رحب استطلاعه يكاد يطل من عينيه إذ ترى ماذا ستفعل روحية ؟ وهل يغمى عليها .

وكالعادة فتح الباب ، وواجه سوق روض الفرج المعتاد ، وبعد أن تم الغذاء والحساب والعتاب ، نادها على حدة في غرفة النوم ، ومع هذا أصر ابنه المتوسط على عدم مغادرة الحجرة وأمسك بروب أمه واستمات عليها . وظل صلاح يتعثر نصف ساعة في كلمات لا معنى لها ، ثم أخرج الورقة ذات الخمسة جنيهات ، ووضع الدائرة البيضاء أمام عينيها لترى الإهداء .

وبدت الصدمة واضحة على ملامحها ، وظلت واقفة في مكانها لا تتحرك ، كان لسانها أول ما تحرك فيها ، وأول ما فعله اللسان أن فتح له محضراً طويلا عريضاً . وراحت تسأله وتضيق عليه الخناق لتعرف من أين جاء بالخمسة جنيهات وميزانيته كلها تعرفها بالمليم والصلدى وقال لها أنه استلفها لتخصم على شهرين من مرتبه . ومعنى هذا أن ينقص إيرادهم في الشهرين القادمين . وهكذا شبت النار ، وبعد لحظات قصار أصبح الحديث إتهامات متبادلة ، وشتائم وتهديدات ، وإيمانات مغلظة ، خرج على أثرها صلاح من الحجرة غاضباً لاعناً تاركاً الجنيهات الخمسة تنعي من أهداها .

وجلس في الصالة يغلي وينفخ .. لا فائدة على الإطلاق . إنها حرب لا هوادة فيها . إنه عسكري في جيش وليس زوجاً في بيت إنه لا عمل له إلا الدفاع عن نفسه ، والحرب أدابته وهدته ، وأتت عليه ، حتى العسكري يحظى بهدنة وراحة أما هو فمعركته لا تتوقف .

وبينما هو يغلي وينفخ ، كان عقله يعمل ويحلم ، أجل ، لابد أن هناك حياة غير تلك ، حياة رحبة ، لا قتال فيها ولا خناق ولا ملل ، حياة

مليئة بالبريق وبالرائع الجديد ولا ينقصها سوى الجريء الذي ينهي حياته وجبنه وينطلق إليها .

وبوغت حقاً حين رأى روحية قد خرجت من حجرة النوم ووقفت قبالته على بابها لا تتحرك والورقة في يدها . ورمقها وهو يلعنها . لابد أنها الآن أطمأنت أن الجنيهات الخمسة لم تضع وأنها على أية حال باقية في البيت . ولكيلا يلعنها ، فقد أصبح يضايقه حتى أن يلعنها ، حول وجهه عنها .

غير أنها سألته وهي واقفة من بعيد إن كان جاداً حقاً في كلامه وإهدائه . وطبعاً زفر ولم يجب . ولكنها ظلت تلاحقه بالسؤال ، ولأنه يعرف أنها إن صممت على شيء فلابد أن تعرفه ولو فرقعت مرارته وحطمت رأسه ، فلكي يخلص منها قال لها :

أيوه يا ستي هدية بحق وحقيق ... بمناسبة عيد الزفت الزواج .

وفوجيء حين وجدها تنخرط فجأة !! لا ليس فجأة .. فقد حدثت في وجهها تغييرات متوالية مضحكة وإنقباضات وانبساطات وتجعيدات ، ثم إنخرطت في بكاء ضاحك . تضحك وتبكي وتبكي وتضحك ، وشعرها منكوش ، وروبها مفتوح ، والولد لا يغادر مكانه بين ساقيها .

وأخيراً قالت إنها قد أعدت له هدية هي الأخرى . إه يا ستي . وناولته الورقة . وتحت إهدائه وجدها قد كتبت : إلى زوجي العزيز الغالي المحب بمناسبة قراننا .. من المخلصة جداً زوجتك .

وفرت الدموع في الحال من عينيه . لا لأن ما كتبته كان غريباً ولكن لأنه صدر منها وبخطها . ما أروع كلماتها . إلى زوجي العزيز الغالي ، حتى أخطاءها الإملائية ، حتى إمضاءها ، حتى طريقتها الساذجة في التعبير عن نفسها ، ولو كانت أجمل إمرأة في العالم هي التي كتبت له هذا لما بدا أروع من كلمات روحية ، روحية ذات الخرابيش والصوت الحاد اللافح ، إنه شيء لا يحتمل ، أبداً لا يحتمل .

وأخذها على كتفه وقبلها . وأحمر وجهها جداً وهي تقبله ، وربما كانت هذه أولى قبلاتها له . وربت على كتفها ، وربتت على ظهره ، وبكيا ، وتعانقا وكما يضيء البرق فجأة تزاحمت الخواطر في عقله . إن حياته معها كره في كره وخلاف في خلاف ومواقع أثر مواقع هذا صحيح .. ليلة أن صفعها مثلاً وخربشته بأظافرها وتدشدش طقم الشاي ، ليلة أن أختلفا حول اسم تامر ، ليلة أن إصطدمت بالمرحومة أمه ، ألف ليلة وليلة من الألم القاسي الممض » .

العجيب أنه لا يحس شيئاً من هذا الألم الآن ، وكأن الأمل في حينه يصبح ذكرى بعد حينه فكل ما يحسه الآن أنه كان شاباً وأنها كانت صغيرة وأنهما كانا طائشين ، وما أعذب الطيش حين تمضي أيامه ويصبح مجرد لحظات تستعاد . إن الخلاف ينفر ولكن العجيب أن خلافاتهما كانت تقربهما أكثر . والخلاف يقولون أنه يخرب البيوت والخلاف عمر بيته فقد كان لهما حجرة واحدة والآن عندهما ثلاث ، ولم يكن هناك أولاد والآن لهما أربعة وحين تزوجها لم يكن معه إلا التوجيهية والآن معه بكالوريوس ، وهي تزوجته وهي مدللة لا تعرف سوى قلي البيض

وتخطيط الحواجب والآن بشهادته أمهر خياطة وطباخة ، وكانت بالكاد لا تقرأ إلا « حواء » لتعرف الموضة وهي الآن تناقشه في السياسة وتبزه تلك التي يعتبر نفسه ضليعاً فيها .

ألف خاطر عن له ، لو كان قد تزوج مطيعة لا ترفض له رغبة أو طلباً لما تحرك من مكانه وموضعه ولما تحركت هي الأخرى . إنه مغفل . أيكون ما يعيش فيها هو سعادة الواقع وهو لا يدري . إنه كان يفكر دائماً كأحد طرفي الخلاف ولكنه أبداً لم يفكر كزوج لابد له زوجة ولا تتم سعادتهما إلا معا ، ولا يسعد الشخصان معاً إلا إذا اقتربا احتكا واختلفا ونتج عن احتكاكهما موجات من الرضا والغضب والسخط والألفة والحب والكره .

أتكون هذه الموجات هي نفسها السعادة التي طال سمعه عنها .

أتكون كالشرر لا يحدث إلا إذا طرق الحديد بالحديد والحجر بالحجر .

تلك المرأة التي يضمها بين يديه الآن ، رفيقة العمر ، التي صاحبته لحظة بلحظة وساعة بساعة ، لابد أنها كانت تقاسي مثله ، وكانت تكرهه مثلما يكرهها ، وتحملته مثلما تحملها . وكل ذلك قد مضى ، ويمضي ، ويصبح ذكريات أهم ما فيها أنها مرت وطعمها الآن من طعم العمر المولي ألذ وأطيب وأمتع طعم . إنها الآن بين يديه ضعيفة ، مستسلمة قد أسعدتها هديته البسيطة إلى درجة البكاء والنشوة .

ألف خاطر وخاطر ، وعاطفة قوية مبهمة تتفجر في نفسه ، وإعزاز

غريب مفاجىء لروحية يكتشف أنه يملأ صدره . أيكون كل ما كان بينهما من خلاف وتعنت وكره هو الحب ، الحب الأكبر . أكان من حمقه يحلم بالحياة السعيدة الأخرى والحياة الأخرىٰ هو فيها ، ويفكر في الهجرة إلى دنيا جديدة وهو يغمض عينيه عن دنيا الحقيقة الجديدة ويقول أنها إنهاء حياته الخاملة تلك في حاجة إلى شجاعة ، والشجاعة هي أن يتقبل حياته هذه ويؤمن أن روحية زوجته والأولاد والبيت بيته هو دعامته والمسئول عنه .

ألف خاطر وخاطر ، وهما واقفان ، بين دهشة الأولاد ، متعانقان وكأنهما كانا غائبين لعشر سنوات مضت ، وكل هذا بغلطة ، بلفتة ، بنكتة ، بكلمات قليلة على ورقة .

• • •

ولم تكف أوراق البنكنوت ذات الإهداءات عن الورود لصلاح ، مكتوبة على أوراق من فئة العشرة والخمسة والجنيه والخمسين قرشاً بعض الأحيان . وكلما قرأ صلاح الإهداء ، وتأمل اللحظة التي لابد سبقته واللحظة التي أعقبته ، كانت سعادة غامرة تملأ جوانحه ، وكأنه قد اخترع إختراعاً للسعادة البشرية أو اكتشف إكتشافاً ، ولفرط سعادته باكتشافه حاول ذات يوم أن يبدأ في عد الأوراق ذات الإهداءات ليعرف كم من السعادات تسبب فيها وأحدثها .

ولا يزال صلاح إلى الآن يعد ، ويبدو أنه لن يتوصل أبداً إلى معرفة الرقم الصحيح ، فالأوراق لم تكف أبداً عن الورود .

يناير ١٩٥٧

فوق حدود العقل

دونت الاسم والسن والمسكن مرتين وفي صفحتين متقابلتين كما تقضي التعليمات ، ولم يكن قد بقي سوى سؤال واحد أو سؤالين عن سلوك الشاب ، وأوقع ، وينتهي الأمر . ولكن الأمر في ذلك اليوم لم ينته أبداً .. إلى الآن ، وأنا لا أعرف ماذا حدث بالضبط وجعلني أشك .. كانت وقفة الشاب عادية .. نفس الوقفة التي وقفها قبله كثيرون ، والتي أعرف أن كثيرين غيره سيقفونها .. نفس النظرة الذاهلة الباحثة عن لا شيء ..

سألت .. بصوت ضجر ، وأذن متعبة ، وعقل كان عليه أيضاً أن يتلقى الكلمات الكثيرة وينقيها من الضجة ، ويترجمهما إلى إصطلاحات يمليها على قلمي المشروع ليسد بها الخانات وينتهي كل شيء ..

سألت : ما الذي فعله ؟ وجاءتني الإجابة .. قام في الليل وأمسك بالسكين وحاول ذبح زوجته التي لم يدخل بها إلا من أسابيع . وحين حاولوا منعه كاد يفتك بهم ، تغلبوا عليه وأخذوا السكين منه .. إتجه إلى النافذة يريد أن يلقى بنفسه منها ، فاضطروا حينئذ لتكتيفه وضربه والإستغاثة بشرطة النجدة .

وتوقف القلم وعدت أسأل : متى ؟ .. منذ بضع ليال ، وبدأ القلم يضيق بوقفته التي طالت دون أن يسد خانة .. وقلت أخيراً : ليس هذا بكاف .. هل تكررت أعماله هذه ؟ هل فعل شيئاً آخر ؟ .. وجاءتني الإجابة :

ــ يوهوه ... كتير .. يقوم في الليل ويظل يصرخ ويوقظ الجيران ويتصور أشياء لا وجود لها .. يعتقد أن إخوته يتآمرون عليه ويريدون انتزاع أرضه التي ورثها عن أبيه ، وكثيراً ما يكلم الهواء على أنه الأب الذي مات من عام ويشكو له هذا الأخ أو ذاك ..

بارانويد شيزوفرينا .. جنون الإضطهاد .. هكذا خمنت ، وكتبت ، وأحكمت الحيثيات .. وآخر ما كان قد تبقى ليصدر حكمى بتحويل الشاب إلى مستشفى الأمراض العقلية ، ونقله من خانة العقلاء إلى خانة المجانين .. سؤال ، مجرد سؤال واحد ألقيه على (المتهم) بمرضه ، للتثبت من التشخيص لا أكثر ، ولكي يطمئن ضمير القاضي الذي في .

ــ صحيح كنت عايز تقتل مراتك ؟

ولم تأتني إجابة ما ، وسألت مرة أخرى ، وجاءت نهنهة .. إجابة ليست غير متوقعة ، فما أكثر ما تأتي إجابة المجانين على هيئة بكاء .

ورفعت عيني ، وكأنما إيذاناً بانتهاء الجلسة .. كان الوضع لم يتغير .. حجرة مفتش الصحة في المكتب البالي الحافل بالإزدحام والضجيج ، الباب نصف مفتوح يطل منه وجه التومرجي تزاحمه عشرات الوجوه ، والكنبة البلدي بملاءتها الدمور ، ولوحة كشف النظر التي حال لونها

واصفر وأصبح بنياً بارزة من ركن الحجرة .. كعلم مرفوع بالتسليم والإذعان لوطأة الزمن ..

وفي الوسط تماماً .. كان الشاب نحيلاً في « قميص الكتاف » القذر الواسع ، مقيد اليدين بأكام القميص الطويل من الخلف ، وبجواره العسكري المعهود ، فلابد مع كل مجنون يرسله القسم من عسكري ، ولكنه هذه المرة طويل ، مهيب الطلعة أنيق البزة ، يصلح ليكون على رأس قره قول شرف .. أو ليتقدم موكب المحمل ..

تأملت المشهد برهة ، ثم قلت : خذوه ..

قلتها وأنا حزين ، نفس الحزن الذي يروادني لثانية في كل مرة تخرج من فمي الكلمة ، حزني على دنيانا التي فقدت عقلاً ، وما أشد حاجتنا إلى كل عقل .

تكاسل الشاب قليلاً ، ودفعه العسكري بغلظة غير عادية . واستعد التومرجي وفتح الباب ، وتراجعت الوجوه ، وكادت الحجرة تخلو .. لولا أني تذكرت الخانة التي كنت أنسى ملئها دائماً ، الخانة التي يقيد فيها اسم قريب المريض الذي أدلى بالمعلومات عنه ، وعنوانه .

وقلت : استنى .. فين قرايبه ؟

وجأر صوت عيد التومرجي ، كالمبلغ في صلاة الجمعة الذي يعد كل ما يقوله الإمام :

ـــ استنى .. فين قرايب المريض ؟

وسأل العسكري :

ـــ حضرتك عايز قريبه مين ؟

قلت : قرايبه اللي كانوا بيقولولي على مرضه دلوقت ..

ـــ أنا اللي بقول لحضرتك ..

ـــ أنت قريبه ؟

ـــ أنا أخوه ..

ـــ أخوه ؟! ..

مرة ثانية رحت أنظر إلى العسكري . وأخيه المريض ، ولا أكاد أصدق ..

ـــ أنت أخوه صحيح ؟

ـــ أنا ح أكدب يا دكتور .. الكرنيه أهه شوف سيادتك ..

في الواقع لم أعد السؤال للتأكد ، أعدته فقط لأسكت إحساساً حقيقياً بالشفقة ، لا على المريض وإنما على أخيه .. إن الجنون هو المرض الوحيد الذي يمرض فيه الشخص ويحس آلام مرضه الآخرون .. أن المجنون لا يتعذب ، العذاب يحل بأهله وأقربائه وذويه .. فهذا العسكري ، تراه كم تألم وهو يستصحب أخاه إلى القسم مجنوناً ، ثم وهو يمضي أوراقه من الرؤساء ، ثم وهو يقف أمامي يحكي بلسانه ما فعله ويدلل على جنونه ، ويعريه ، خاصة وهو لم يكن عسكرياً عادياً ، إذ اكتشفت أن على ذراعه أشرطة أربعة كان واضحاً أنه مهتم بها ، وبمركزه .. وقد صنعها من حرير أحمر أنيق ..

ولكن إنسانيتي لم تستغرق سوى لحظة ، عدت بعدها أطمئن على الروتين .. فالمفروض ألا يرسل المريض مع أقربائه . لابد من عسكري يوفد لحراسته ، حتى لو كان قريبه ضابطاً أو شاويشاً .. الروتين هو الروتين .

وسألت : أين العسكري ؟

ومن بين الوجوه الكثيرة المتزاحمة على الباب ، برز وجه ما لبث أن أصبح له جسد رسمي أسود ، وبندقية ، أعقبتها خبطة قدم ، وتحية ، ولم يكتمل الروتين إلا بتأنيبه ، وإلا باعتذاره لم يكسر القاعدة وينتظر بالخارج إلا بناء على رجاء من الأخ الباشاويش .

ـــ خلاص يا دكتور نمشي ؟

قالها الأخ متردداً ، محرجاً ، وكأنما يستعجل مغادرة الحجرة وإنهاء الموقف .. ولكنني لم أكن معه ، كنت أحدق في الأخ المريض الذي بدأت ألحظ عليه أشياء .. كان في وجهه ورقبته كدمات وآثار ضرب ، ورقبته بالذات كانت بها عضة واضحة اشتركت في صنعها قواطع وأنياب ، ولم يكن قد كف عن البكاء ..

ووجدت نفسي أسأله عما يبكيه ، وأنتظر إجابة من الإجابات المريضة المعتادة .. ولكنه إزداد بكاء ولم يجب .. وأعدت السؤال ، وأيضاً لم يجب ، رفع رأسه وبجانب وجهه ألقى على أخيه الشاويش نظرة ، إنفرطت على أثرها دموع كثيرة من عينيه بلا كلام .. ووجدت نفسي أنظر أنا الآخر إلى الشاويش .. ودهشت قليلاً حين وجدته يصوب أشعة محمية من عينين واسعتين مبحلقتين ، وكأنما يأمر بها أخاه

أن يكف عن البكاء ، ويكف عن النظر إليه .

ومرة أخرى وجدت نفسي أسأله عما يبكيه ، وهذه المرة أيضاً لم يجب .. غير أنه بلمحة جانبية خاطفة ألقاها على أخيه سكت ، وعاد ينكس رأسه إلى الأرض .

وأحسست ، رغم الصمت المستتب ، أن الجو مشحون .. وأنني أنا الآخر بدأت أنتبه ، وأتفرس ، وأحاول أن أستخلص من الصمت سره .

وفجأة التفت المريض كلية إلى أخيه الشاويش وقال :

ــ خذ الأرض يا أخي في ستين داهية .. هات عقد البيع دلوقت وأنا أمضي لك عليه ، إنما بلاش تبهدلني كده يا بدري وأنا أخوك ..

وكف عن البكاء ، وخفت أن يكون ما قاله مقدمة لنوبة ، وما أبشع نوبات مرضى الإضطهاد .. إنها النوبات التي يقتلون فيها ويعتدون ويصبحون كالوحوش الهائجة التي لا يوقفها خوف أو تهديد ، خير ما تفعله حينئذ أن تقتنع بكلامه .. وتجاريه ، وقلت :

ــ هو عايز يأخد أرضك ؟

وبإنفعال حقيقي ، كانفعال البشر العاديين ، وجدت كل ذرة من من جسده تنتفض داخل قميص الكتاف ، وصدره يكاد يمزق القماش صاعداً هابطاً لاهثاً وهو يقول :

ــ ده يا بيه أخويا ابن أمي وأبويا ، وأبويا مات وساب لنا تسع قراريط ، واحنا ثلاث أخوات .. بدري دهه اللي بيشتغل شاويش

وبياخد له يبجي عشرين جنيه من الحكومة ، وواحد تاني ، وأنا الصغير .. كل واحد منا نابه تلاث قراريط !! ليه وليه إلا بدري أخويا عايز ياخدهم مني عشان يبقى حداه ربع فدان ، بقى له ست أشهر وهو كل يوم يهددني ويضربني وآخرتها عايز يوديني السراية .. عشان يستولى عليهم .. كدة يا بدري .. روح يا شيخ الله يسامحك ..

كان بدري قد هم أكثر من مرة أن يقاطع أخاه ، ولكني باشارات قاسية كنت أزجره وأرغمه على السكوت ، وما كاد أخوه ينتهي حتى إنطلق كالبركان المتفجر يقول :

ــ بلاش فضايح يا محمد .. كفاية بقى الحتة كل يوم تتفرج علينا .. جاي هنا كمان عايز تفرج علينا الدكتور ..

ثم إلتفت إلى كمن لا حيلة له قائلاً :

ــ أهو زي ما أنت شايف كده يا بيه .. كل ساعة على ده الحال .. لما أنا نفسي قربت أتجنن ..

وسألته :

ــ إنما صحيح أبوكم فات لكم تسع قراريط ؟

ــ وحياة سعادتك ولا سهم .. حتى اسأل مراته .. يا فرحانة .. يا فرحانة .. تعالي هنا ..

ودخلت فرحانة .. كالعروسة الحلاوة الملفوفة في ملاءة من ورق سولوفان ، لا يخفى بقدر ما يظهر ويجمل ويجعل الريق يسيل .

ـــ أنت مراته ؟

ـــ قسمتي يا بيه ؟

ـــ هو صحيح بيعمل الحاجات اللي قال عليها أخوه ؟

قلت هذا وأنا أتفرس فيها ، وأعجب بيني وبين نفسي لزوجة يجن زوجها ويمرض ، وتذهب معها إلى مكتب الصحة بهذه الحواجب المرسومة والروج الموضوع بصبر وأناقة والبال الخالي .. الخالي حتى من نظرة تلقيها على الزوج المريض ..

ـــ يا بيه .. أنا في عرضك .. دي مش مراتي .. دي مراته هوه ..

هنا فقط التفتت إليه ودبت على صدرها بيد مثقلة بالغوايش والخواتم قائلة :

ـــ هي حصلت يا محمد .. بقى ماتناش عارفني كمان .. اخص عليك .

ـــ والله ما هي مراتي يا ناس .. مراتي حابسينها في البيت وجايبين دي تعمل مراتي .. يا بدري أنا ف عرضك إن كنت عاوز الأرض خدها .. هات العقد وأنا أمضي لك عليه ..

ولدهشتي .. وجدت بدري يأخذ كلامه جداً ، ويلتفت إليه قائلاً بعينين ناريتين :

ـــ أرض إيه يا بني اللي أخدها .. ماربك غانيها من غير أرض .. أنا بتاع كلام من ده ..

وربما كلامه هو الذي شجع الزوجة ودفعها لأن تقول :

ـــ أرض إيه يا محمد اسم الله عليك .. عقلك يا خويا أحسن من ستين أرض .. مش عيب تقول على أخوك كده .. ربنا يشفيك .. يا بيه ده موتني م الضرب ليلة إمبارح .. أنا راجل كلوباتي على قد حالي وهوه شاويش في البوليس ومخوف الحتة .. وعاوز يأخذ التلات قراريط بالقوة .. ياخدهم ياخدهم .. بس بلاش توديني السراية وأنا مضروب يا عالم وجسمي مكسر .. إتفضل شوف ..

ـــ والله يا بيه أنا ما ضربته ولا مديت إيدي عليه . ده حصل وإحنا بنحوشه وهو رافع السكينة على مراته دي .. ده طول الليل قاعد يهربد في نفسه ومطلع عنينا معاه .. كده واللا لا يا فرحانة ؟

وهزت فرحانة رأسها وبكت وأخرجت من صدرها منديلاً صغيراً أبيض جففت به الدموع .

وبدأت الحجرة تمتلىء بالضباب .. أتفرس في وجه الشاويش فأجده ضخم الجسد ، ناصع البدلة مدبب الملامح ، صاعق النظرات ، أشرطته الأربعة نافرة على كتفه تكاد تضيء بنور أحمر وهاج ، وبجواره أخوه الصغير ، ملفوفا كرطل العظم المشفي في خرق بالية وقميص كتاف . وبينهما فرحانة تبكي بحرقة وتدنب حظاً لا يعرف صاحبه . والعيون كلها زائغة لا فرق بين عيون بدري العاقل أو محمد المجنون والأعصاب مشدودة والحقيقة قد بدأت تضيع ، حتى من العسكري الواقف يحرس هذا كله ويحمي القانون ومني أنا صاحب أسوأ موقف الوحيد من بين

الحاضرين جميعاً ، الذي كان عليه أن يقرر ، في دقيقة أو جزء منها ، أين يكمن الحق ، ويحكم بين أخوين لم يرهما إلا منذ دقائق ، وكل منهما يكذب الآخر ولابد أن أحدهما على الأقل كاذب والآخر إما مجرم أو مجنون .. وبدأ شيء يبرز وسط الضباب .. ولم يكن شيئاً .. كان رجلاً ارتفع صوته بالخارج ، قائلاً للتومرجي : أوع .. ثم ما لبث أن اقتحم الحجرة وانتصب قريباً من الأخوين على هيئة عسكري آخر ضخم أيضاً وطويل ، وعلى صدره كوردونات خضراء كتلك التي يرتديها حرس مجلس الأمة أو الوزراء لا أعرف ، وكان شاحب اللون يلهث ، وقبل أن يلتقط أنفاسه بدأ يتكلم ، موجهاً كلامه للأخ الشاويش الأكبر قائلاً :

بقى كده يا بدري عايز تعملها وتودي محمد السراية .. الله يلعن أبو الأرض .. دول تلات قراريط يا بدري تعمل في أخوك كده عشانهم .

وقبل أن أسأله عمن يكون .. تطوع هو بتقديم نفسه قائلاً إنه الأخ الثالث الأوسط ، وإنه علم منذ قليل أن بدري قد استصحب محمداً بالقوة ليدخله السراية ، فجاء يجري ليمنع الجريمة .

وبكى ، وضايقني بكاؤه ، وصرخت فيه ماذا يبكيه وهو الراجل الوافر القوة والقدرة ، وإذا به يقول :

ــ ما يغركش يا بيه .. أصل أنا أعصابي تعبانه شوية ، واتعالجت عند الدكتور ناشد فهمي المدرس بتاع الأمراض النفسانية في الدمرداش .

قلت في سري : المسألة إذن وراثية .. وخيط الجنون يسري في العائلة ، وسألت :

ــ إتعالجت من إيه .

ــ أصلي حصل لي إنهيار في أعصابي .. أصلي قتلت مرة حرامي ، ومن يومها وأنا بدوخ وكل ما أشوف بندقية نفسي تغم عليه ..

ولابد أن روح الهزل هي التي تستبد بنا أحياناً .. فقد وجدت نفسي أنسى الموقف تماماً ، ولا يعود يهمني سوى حالة هذا الأخ الأوسط الذي بدأ يرتجف أمامي ويهتز ، وأكاد أضحك كلما قارنت بين جسده الضخم المهيب وصدره العريض الحافل بالكوردونات وبين ساقيه المرتعشتين والدموع السائلة من عينيه ، ولم أكن قد رأيت قاتلاً يعترف أنه قاتل من قبل ، بل لم أكن أتصور أن يحدث للعسكري إذا قتل لصاً كل هذا « الإنهيار الأعصابي » .

وسألته ، وأجاب :

ــ أصلي كنت عسكري داوريه وبعدين شفت حرامي بيكسر دكانة ، لما شافني جري ، ضربت طلقة في رجليه أهوشه ما وقفش ، فضربت في المليان قام جت في ضهره ومات .. وفضلت واقف جنبه لما النهار طلع وخادوني ع القسم .. وبعدين بقيت أهلوس في الليل ، وماأرضاش أطلع دوريات قعدوا يجازوني وبعدين لما لقيوا ما فيش فايدة حولوني ع المستشفى وخدت ١٢ جلسة في مخي على سنة ونصف .

وبدأ يمد يده في جيبه ليخرج الروشتات وأوراق العلاج ولكني لم

أكن في حاجة لأدلة أو إثبات ودهشتي الأولى كانت قد خفت قليلاً ، وبدأت أعود إلى القضية المعلقة أمامي في انتظار الحكم . وطلبت من القادم الجديد رأيه فيها ، وبدأ الأخ الأكبر بدري يحتج ويقول :

ــ يا دكتور ما تسمعش كلامه .. ده مهفوف ومتضايق مني عشان أنا أغنى منه ومابرضاش أديه فلوس عايز يلبسني تهمة يا دكتور ، هو ده معقول أدعي على أخويا أنه مجنون ..

ــ ده أنت تعملها .. وتعمل أبوها ، .. دانت مجرم .. اقسم بالله أنك مجرم .. يا بيه ..

والتفت الأوسط إلي شارحاً كيف مات أبوهم وترك لهم القراريط التسعة وكيف أن أخاهم الأكبر هذا بخيل أناني جشع يستولي على إيجار الأرض ويريد أن ينتزع ملكيتها وكيف أنه يضع المليم فوق المليم ويحرم نفسه ويقتات بالملح والفلفل حتى يجمع ثمن فدان ، وكم مرة حلف بشاربه وبتربة أبيه أنه لن يرجع حتى يصبح مالكاً لزمام فدان ، وكيف أنه استغل ضعفه وضعف أخيه الأصغر محمد ليفرض عليهما جبروته وسلطانه .

وإحنا التلاتة عايشين في بيت واحد ، كل واحد واخد أوضه هو ومراته وولاده ، ومحمد لسة مجوز جديد ، وبدري ده محتل الصالة بالعافية ، ويبقى الفطار عنده ويسيبه ويجي يقعد بالقوة يفطر مع واحد فينا عشان يوفر ، وما يهون عليه يشتري باكو شاي واللا بقرش سكر ولما يشم أن واحد فينا عمل شاي ييجي يستولي على البراد بالرزالة .. وأخرتها عاوز يودي محمد في داهية عشان يتعين وصي عليه ويلهف التلات قراريط ..

ومرة أخرى بكى ، ونظر إلى أخيه محمد وهو يبكي ، فبكى محمد هو الآخر ، وتصاعدت من حناجرهما أصوات متحشرجة مختلطة بالدموع تعاتب بدري وتدعو عليه وتطلب من الله أن يظهر الحق ويجازي كل ظالم على ما يرتكبه .. أما بدري فقد وقف زائغ النظرات يصرخ فيهما ، وينهر أخاه الأوسط ويعجب كيف يوجه له إتهاماً كهذا .. القصد منه لاشك أن يحاكم ويفصل من وظيفته وهو يعلم تمام العلم أن أخاه مجنون وأنه على حق .. أما فرحانة فكانت قد إنسحبت من الحجرة تاركة المشهد يحتله الأخوة الثلاثة ووراءهم يقف العسكري الرسمي صامتاً ، بليد الملامح وكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يفقه مما يدور أمامه حرفاً .

وهكذا وجدت يدي تمتد ، وتقطع الاستمارة ووجدت نفسي أعور مرة أخرى لفحص قوى محمد العقلية ، بنظرة محايدة جديدة ، ولدهشتي وجدت إجاباته كلها معقولة ، ولدهشتي الأشد لم أجد إجاباته تختلف كثيراً عن الإجابات التي بنيت عليها احتمال جنونه ، نفس الجمل تقريباً ، بنفس الألفاظ . كل الفرق أنني أسمعها بأذن محايدة .. إذ الظاهر أنه يكفي أن تفرض الجنون في إنسان حتى تجد في كل ما يقول أو يهمس به أدلة تثبت جنونه ، ويكفي أن تفترض العقل في إنسان ، حتى لو كان غير متمالك لقواه العقلية حتى تجد في كلماته وإجاباته ما يدعم إيمانك بأنه عاقل .

واتضح أن حكاية القراريط الثلاثة صحيحة ، والتهديد صحيح ، الضرب والتعذيب قام بهما الأخ الأكبر فعلاً ليرغم أخاه على بيع الأرض له بعقد صوري ..

ليس هذا فقط ، بل بمكالمة تليفونية مع القسم ، اتضح أن القسم لا علم له بالورقة المحولة إلي ، وأنه هو الذي كتبها ووقعها .. واستطحب العسكري الذي كان لا يزال منتصباً في مكانه لا يفقه حرفاً مما يدور .

وحين عدت إلى مسرح الأحداث في وسط الحجرة كان الأخ الأوسط يحتضن الأصغر وتتبادل عيونهما الدموع وبدري الأكبر واقفاً شاحب الوجه يدافع بآخر رمق عن نفسه ، وكلما تكشف الموقف عن دليل جديد ضده كلما إزداد شحوبه ونبت على جلده العرق الصغير الأصفر .

وأمرت بفك القميص عن محمد وبدأت أتمل الموقف بيني وبين نفسي لأعرف ماذا يجب أن أفعله إزاء بدري ، وهل أحيله إلى النيابة أم أكتب بلاغاً لمأمور القسم ليتصرف معه .. واستقر رأيي على إبلاغ القسم ، وبكل الحقد الذي بدأ يغلي في صدري على هذا الأخ المجرم أمسكت بالسماعة أريد أن أملي بنفسي الإشارة التي ستكلفه وظيفته وأشرطته الحريرية الأربعة والقراريط التي ورثها وزوجته الحلوة التي بدأت تولول في الخارج وتعوي ، وأكثر من هذا حريته إذ بالتأكيد سيحكم عليه بالسجن ، ولن يقل سجنه عن أعوام ..

وهنا وجدت المارد الضخم ينهار وهو الذي راح هذه المرة يبكي وقد جفت دموع أخويه ويستعطف ويتهاوى على الأرض يريد أن يقبل قدمي ، وكلما رأيت هذا كله ، إزداد الحقد في صدري عليه .. إزداد إلى درجة رحت معها أهدهد على الأخوين بكلماتي وأذكر لهما أن

أخاهما الآثم وقع في الحفرة وأنه لن يخرج منها .

وصاح الأخ الأوسط : ينصر دينك يا شيخ .. يحيا العدل ..

وقال الأصغر بصوت واهن : مش قلتلك يا بيه ..

وقال بدري في هلع : أنا في عرضك .. أنا صاحب عيال .

ثم التفت إلى أخويه قائلاً : مبسوطين يا ولاد طلبة .. أهو بيتي أتخرب يا محمد يرضيكوا كده يا ولاد طلبة يا ولاد الحرام .

وقال الأوسط : جزاك ما صح لك .

وقلت في سري : وكل هذا من أجل قراريط ثلاثة ..

وفوجئت بالحجرة تتحول إلى مناحة ، بدري يشهق بصوت عال ، والأخ الأوسط بدأ يضم الأصغر حتى بعد أن انتصر ويبكيان ، ولا ريب أن أباهم طلبة كان هو الآخر في قبره يبكي ويتلوى .

وجاءني من السماعة صوت أخنف مزعج يقول :

أيوه هنا القسم .. أنت مين ؟ ..

وأجبت : إحنا مكتب الصحة .. خد الإشارة دي ..

وعلا بكاء بدري إلى درجة غير معقولة ، بينما كف الأصغر عن البكاء وراح يتطلع إليّ ، ثم إلى أخيه .. ثم وجدته يترك ذراع الأوسط الذي يضمه ويتقدم إلى المكتب ويرجوني ، بكل ما في طاقته من ذلة ، أن أوافق وأحيله إلى المستشفى ، إن كان في هذا إنقاذ لأخيه ..

وسكتت الحجرة كلها .. ووقف بدري جامداً في مكانه كالمصعوق ...

ثم وجدته يندفع إلى محمد يحاول عناقه ، ولكن محمد دفعه عنه قائلاً :

ـــ دا مش عشان خاطرك .. دا عشان خاطر أولادك ..

ـــ يا حبيبي يا محمد .. أنا عارف برضه إن ما أهونش عليك .

وفوجئت بالأوسط هو الآخر يتقدم ويرجوني ، إن لم يكن جاء محمد صالحاً للتنفيذ أن استبدل الاسم الأول في الخطاب . الاستمارة وأن أضع اسمه بدلاً منه وانهياره الأعصابي والعلاج الذي أخده يؤهلانه لدخول المستشفى واثبات أن بدري على حق وأنه لم يزور ولم يكذب .

واحترت ماذا أفعل والسماعة في يدي بدأت تنقنق وتقول :

أيوه يا مكتب الصحة .. وبدري يقول :

أنا أستاهل ودني في داهية ما ترحمنيش ..

والأصغر يقول : كل اللي قاله بدري مضبوط ، أنا مجنون .

والأوسط يقول : ما تسمعش كلامه أنا بداله ..

والسماعة معلقة في يدي ينبعث منها الصوت الأخنف المزعج مستعجلاً نص الإشارة وكأنه صوت القانون يطالب بتطبيقه وإبلاغ الإشارة وسجن الأخ .

ويالها من لحظة ، تلك التي تحس فيها أن مصير انسان معلق بكلمة تقولها أو زناد تضغطه .

لحظة خيل إلى إنها طالت وامتدت وأن المشهد نفسه طال وامتد وتجمد وأنه سيظل هكذا لن يتحرك أو تدب فيه الحياة إلا حين أفتح فمي وأنطق كلمة .

ولا أمر ما أحسست أني ، بدموع داخلية ، أبكي . وأتذكر إخوتي ، وأحس أني رابع الثلاثة الواقفين أمامي ..

وصرفني الشعور بأني لا يجب أن أفعل كما فعل الأخ الأوسط وأضرب في المليان ، وعن عمد قررت أن أنسى القانون ، وأخطىء ، وأنصت للهاتف في داخلي ، وأسكت صوت السماعة ..

سنة ١٩٦١

هـذه المـره

كان الضابط كريماً ، ولم يشأ أن تتم الزيارة في الحجرة المخصصة للزوار المملوءة بضجة عشرين مسجوناً يقابلون بلهفة مجنونه مائة أو أكثر من الأهل ، والجميع يصرخون في وقت واحد ، عبر السلك الأصم المستمتع بصممه ، لأمر ما جعلها الضابط زيارة خاصة تتم في حجرته ، ربما لأن الزائرة كان جميلة رقيقة ممشوقة القوام تضع على عينيها نظارة سوداء أنيقة وترتدي جورباً من النايلون الغامق . و « إمام » كان يعرف منذ الصباح الباكر أن له زيارة ، ولأربع ساعات طوال كانت ينتظر ، والإنتظار في السجن ليس مؤلماً ، أنه عمل ، عمل طويل لا ينقطع ولا ينتهي ، يتسلمه المسجون لحظة أن يضع أقدامه في العنبر ، إذ عليه من لحظتها ، حتى لو كان الحكم مؤبداً ، أن ينتظر لحظة الإفراج ، وكل ما يفعله بين ساعة دخوله سجيناً وساعة خروجه حراً طليقاً ، أن ينتظر ، ينتظر الليل إذا جاء النهار ، وينتظر الغروب حين تشرق الشمس ، وينتظر وجبة العشاء المتواضعة أثناء توزيع الإفطار ، انتظار يتكفل الزمن بتغيير طعمه ولونه حتى ليؤديه الإنسان بلا ملل ، وإنما باستسلام تام للإنتظار وخضوع مطلق له .

منذ الصبا وهو ينتظر أن ينادي عليه الشاويش قائلاً : « إمام محمد إبراهيم .. لك زيارة » ، أربع ساعات طوال وليس في عقله إلا المفتاح حين يدور في القفل ، أو صوت الشاويش الغليظ الهادىء الملول وهو يقول : زيارته .

أجل ستزوره سهير مرة أخرى . وهي دائبة على زياراته منذ أن دخل السجن ، لم تنقطع إلا مرة أو مرتين ، ولكنها دائبة ، ودود ، مستمرة ، كالإحساس الدافىء بالأمل . وهو في كل شهر ينتظرها ، ولا يمضي الشهر إلا إذا جاءت ، إذا تأخرت يوماً أو أسبوعاً توقف الشهر يوماً أو أسبوعاً ولا يتحرك ولا يبدأ شهر جديد إلا إذا جاءت .. إن ما بينهما ليس غراما مشبوباً ، فلقد كان يحبها ويحن إليها ويعشقها كما تعشق الليلات والجولييتات وهو حر ، ويرغب فيها أحياناً ويشتهيها كما تشتهي راقصة البطن حين تتلوى بإغراء مثير أمامك ، وأحياناً يطمئن إلى حنانها الأكبر من عمرها وطاقتها ويهفو ، وأحياناً يزود عنها ويضيق ، مثلما يضيق معظم الناس بحياة الزواج ، يحبها ويحب ابنته منها ، وابنتهما جزء من ذلك الحب ، كأنها التجسيد المادي لعواطف لا ترى ولا توزن ، ابنته كانت صحيحة حلوة ضاحكة متفتحة ، بضة وذات دلال ، تماماً كما تتدلل أمها إلى درجة لابد أن يتساءل الإنسان معها ، ترى أهي صورة من أمها التي تحبه ويحبها أما هي صورة لما بينهما من حب . والخوف أيضاً كان هناك . لقد انقضت ثلاث سنوات منذ أن كان معها في فراش واحد ، ولقد رآها تضمحل ويسألها عن طعامها فتخبره أنها لا تجد لديها الرغبة في أن تأكل ، أو حتى أن تحيا ، وكان في مرات يلحظ لونها أحمر على غير العادة كأنها تعاني من حمى ، ولا ينسى أبداً رعشة يدها ذات

مرة ثم شفتيها ، ثم رعشتها كلها حين ذلك كفها المدود إليه وهو يودعها ذات زيارة . أحياناً كان يواتيه خاطر مجنون يهب به أن يخذها ، هكذا أمام الملأ وداخل السجن ، وليطلقوا عليه النيران ، كان هو الآخر يعاني ، ليس فقط من جسده ، وإنما من كبت وجداني كان الجسد وسيلته إلى تخليصه منه .. يعاني من إحساسه باختناق قدرته على إعطاها ، من حرمانه أن يمنح بسرف وبذخ كما تعود أن يكون عطاؤه .

كان قد تزوجا عن إعجاب شديد تطور إلى غرام وغيرة ومحبة وتضحية كقصص الحب العاصفة وتكفل الزواج بصهرهما معاً ، لم يعد يحس بها منفصلة عنه .. أو كائناً آخر مستقلاً .. لكنها أصبحت جزءاً أنثوياً منه أو لكأنما أصبح جزءها المذكر .. إنها معه ، فهي ، داخله ، وهو يحس بنفسه هناك . في روحها ، في أعماق نظرتها ، داخل كل إنكماشة وانبساطة في ضلوعها الدقيقة وهي تأخذ الشهيق أو تصدر الزفير . إنه حتى يحس بنفسه داخل شعوره بها ، كل متلاحم كالكائن الحي لا يمكنه فصله ، وأي فصل له أو إنقسام لا يزيده إلا حياة وقوة وإتصالاً .

ودار المفتاح في القفل ، ولم يسمع ــ رغم ترقبه له ــ ما نطق به الشاويش ، سار أمامه ، حليقاً ، قضى وقتاً طويلاً يوصي المسجون الحلاق كي يجتث كل ناشز من شعره وينعم ذقنه ، قام بمحاولات الدنيا كي يستحم بماء ساخن ويلقاها نظيف الجسد لامع الوجه ، كان كأنما هو ذاهب لملاقاة الحياة ، تلك التي يبقى ميتاً طيلة الشهر حتى تشرق عليه في النهاية ، وبنظرة واحدة منها تلمسه لمسة ترد إليه الحياة ، حقيقة يحس بجسده يضطرب بتيار عارم متلاحق متشابك من الإنفعالات

والأحاسيس ، يحس بنفسه قد اتصل ببحر الحياة ، أصبح جزءاً واعياً متفائلاً من الوجود الميت الأحمق .

ودخل الحجرة ، وشكر الضابط بكلمات غير واعية ، وعيناه تبحثان عنها ، كانت بجواراه تماماً ولم يرها ، لم يرها إلا حين سمعها ، تقول : وكأنما تعبر عن الدهشة لنفسها : إمام . إلتفت . كانت هناك . لم يتبين وجهها أول الأمر ، كعادته ، كان دائماً يخاف ، كلما مرت بخياله في وحدته ، أن يفقد القدرة على تذكر وجهها بكل دقائقه ، وفي كل مرة يراها كان يجدها متغيرة ، أبداً لم ير لها نفس الوجه مرتين ، كل مرة يراها فيها سواء في السجن أو خارج السجن كانت بوجه ، دائماً جديد في السجن أو خارج السجن ، كانت بوجه ، دائما جديد ومختلف وكأنه لم يره ، دائماً متغير وكأنه لم يثبت عل حال ، ولكنه ما يكاد يرى وجهها حتى يعرف ويدرك أنه وجهها ، وأنه هكذا كان يبدو ، وهكذا سيظل يبدو إلى آخر العمر ، وجهها .. الذي له ، يضحك له ، ويعبس بسببه ، ويحلم به ويشتاق ، ويشع حباً من خلاله . وكما التقيا كانت تحدث هذه الإلتماعة ، في عينيها وعينيه ، حتى لكأن شرارة تحدث ، وضوءاً مفاجئاً ينسكب فيعشيهما معاً .. لومضة ، ويحس أنها لا تراه بقدر ما تدرك وجوده . وتحس كأنما عثرت على كنزها المنشود الذي ظلت تبحث عنه ولا تكاد تصدر عثرت عليه ورغم هذا لا تطمئن أبداً إلى عثورها عليه .

ودون أن يشعرا ، اقتربا ، وتلاصقا ، كما يحدث دائماً كل اقتراب لهما وتلاصق ، وأمسك بذراعيها في قبضتيه ، ومن أول لمسة أحس

بذلك الشيء الذي كان عليه أن يدركه حالاً . وتأملها عن قرب . كان لا يزال غير قادر على رؤيتها بدقة ، وكأن الشرارة المعشية لا تزال هناك ، وكانت تبتسم ، ولكنه كان يحس أنها تبتسم لأنها تريد بإرادتها أن يراها مبتسمة وليس لأنها في أعماقها تريد الإبتسام . ربما لو تركت نفسها لسجيتها لبكت أو لعانقته أو لاندفعت مقدمة على عمل أعمق . كانت ابتسامتها ربما علامة عجز ، عجز عن أن تصنع شيئاً آخر . وصدرت عنها الكلمات السريعة المتلاحقة التي تصدر عن كل الناس في مواقف كتلك . أزيك . صحتك . وحشتنا . نوسة ، كلمات ، تحركات أفواه وتقلصات ألسنة وحناجر ليس إلا ، فالعقل مشغول بعملية تفحص كاملة تامة ، كل يتفحص الآخر ، بأجهزة لا أسماء لها تقيس كل دقيقة فيه ، ليطمئن إلى أنه هو ، وأنه لم يتغير ، أو إن كان قد تغير فإنما إلى إرتباط أكثر وحب أقوى وتعلق لا حدود له . أجهزة دقيقة شاملة منتشرة في كل إتجاه ، تستقبل وترسل ، وتمتص وتفرز ، كل خلية وكل عضو في الجسد كأنما يريد الإطمئنان على الجزء المقابل له . كان يشتاق إليها بنفسه كلها ، بيديه وأنفه وشعره المجعد .. بشاربه الحليق ، بالحسنة السوداء في أذنه ، يشتاق إليها كلها ، للبحة في آخر صوتها ، لرائحتها الغينية حين تنطقها ، لتغابيها عليه . لتدليلها إياه ، لفمهة الغناء غير الجميلة حين تدندن بها في ساعات التجلي ، لكل شيء حتى لأصبع قدمها الصغرى الخالية من أي ظفر .

وأحس بنفسه قلقاً على غير العادة ، أطالت أجهزته التفحص والقياس والإستقبال ، وأكثرت من التجاوب والإعطاء ، لم تستقر على رأي

بعد ، ربما لهذا ظل يردد .. أزيك .. صحتك .. اللذيذة نوسة وضرسها المؤلم الفاسد .. في كل مرة كان عقله يستمر يردد هذه الكلمات إلى أن تكتفي أجهزة جسده وتعطيه إشارة خفيفة أنها انتهت ، حينئذ كان العقل يبدأ عمله ويستطيع أن يعود يعقل وينظر ، ويتأمل ويدقق ، لتبدأ النظرة الثانية . النظرة المتمهلة المتمعنة التي لا قلق فيها ، ولو كان موعد الزيارة معروفاً فاللقاء دائماً مفاجأة يطير لها الصواب ، نظرة المتعة بالرؤية والإلتهام ، إلتهاماً ، بالمزاج والراحة وأقصى درجات السعادة . إزاي نوسة ؟ رابع مرة في دقيقة واحدة يسألها سؤالاً أقرب للاستعجال منه إلى السؤال ، وليس استعجالاً لها وإنما إستعجال لنفسه اللاواعية أن تنتهي من إجراءاتها الكثيرة المعقدة وتؤوب إليه ، ليؤوب إليه إطمئنانه ووعيه . كويسة قوي ، مشتاقة لك . هي الأخرى تجيبه ناظرة في عينيه ، شاخصة إليه كأنما تنتظر أن ترى في عينيه شيئاً ، إشارة أمان تعودت رؤيتها ، جواز مرور ، نظرته هو . الحقيقة التي تعرفها حين ينظر بها إليها هي ، وتراه ينظر إليها دونا عن الكون والدنيا ، هي فقط التي تكون في عينيه وكأن العينين تصبحان عينيها ، عينيها وحدها ، عيناه وعيناها ، وبدأ القلق يدب ويهدد بأن يصبح توتراً ، ولم يكن يريد أي توتر . كان يحلم منذ الصباح بأن تتالى ، في نعومة ويسر ، نظراته ، الأولى المذهولة ، والثانية المستمتعة . والثالثة حين تبلغ المتعة حد النشوة ، والرابعة الحالمة المكتسحة الخارجة به وبها من خلف الأبواب الموصدة إلى الدنيا المتسعة ، إلى الغد ، الغد الطويل الممتد الذي لا نهاية واضحة له . أي تلكؤ حرمان ، وزمن الزيارة قليل ، وعقله من خوفه يساهم في الإسراع ويكاد يقسم لأجهزته وحواسه الظاهرة والخفية كل شيء

على ما يرام وإنها هي ، وجهها القمحي هو هو ، عيناها العسليتان الواسعتان ذواتا الحدقتين المكونتين من ألف لون ولون ، المشعتان بألف شعاع وشعاع ، شعرها الأسود اللامع أسود ولامع ، فورمته مختلفة ولكنه شعرها ، روحها هي نفس روحها أو تكاد ، لا خلاف يذكر أو يلحظ ، ولا يمكن أن يكون هناك خلاف ، أن أي خلاف معناه إختلال في نظام الكون لابد ، صحيح أنها معتنية بزينتها أكثر من كل مرة ، قلم الحواجب واضح خطه في حواجبها ، والريميل يرمل أجفانها أكثر ، وإن كانت فسفوسة صغيرة لابد من أثر الجو أو الهضم قد نبتت من زاوية فمها إلا أن شفتاها هما شفتاها ، بروزهما إلى الأمام لم تتغير درجته والروج ينطبق تماماً على حوافهما كما تحب أن تبدو ، لا شيء تغير ، بل ربما اللهفة أكثر ، وقلقها للعثور عليه في عينيه وعلى نفسها داخله أكثر .

ولكن نفسه استمرت تتفحصها غير مبالية بقلقه أو إستعجاله أو ضيقه ، مندهشة لا تزال ، غير مدركة تمام الإدراك ما ترى ، تتفحص ، بلا وعي تتفحص ، دون أن يشعر بها أو يسمح لها تتفحص ، كأنه يراها لأول مرة تتفحص ماذا هناك يا ترى ؟ ماذا يوقفها ويبقيها ؟ ماذا يدهشها ويذهلها ؟ ما المجهول فيها وهو يعرف كل لمحة منها وفيها .. لا أحد ، لا عقله . ولا جهاز من أجهزته يرحمه ويجيب ، أو حتى يعرف ويدرك ولا يجيب . وكلمات الشوق والترحيب مستمرة ، عصبية من وراء القلب ، ولمجرد قول شيء ، مستمر ، والحجرة تبدو أحياناً واسعة كفناء السجن . وأحياناً تضيق لتصبح أضأل من الزنزانة ، والضابط

جالس إلى مكتبه منجعص إلى الخلف بالجريدة مفتوحة وبعين نصفها يقرأ ونصفها الآخر مضاف إليه انتباهه كله ، يراقب ما يدور بين الرجل والمرأة ، لا يراقب محرمات أو مخالفات ، وإنما على الرغم منه ، ولمجرد حب الإستطلاع يراقب ، مراقبة لا يراها أي منهما ولكنهما يدركانها تمام الإدراك ويستعجلان اللحظة التي يندمجان فيها معاً ويغيبان عن الوعي بالزمن والمكان وحتى بهذه الرقابة من الضابط .

لحظة طالت وامتدت حتى أصبح تأخرها أمراً واضحاً لاشك فيه ، أمراً يدفع الموقف بكميات أكبر من القلق ، قلقه ، وقلقها ، على قلقه .. وقلقه حتى من قلقها عليه .

فجأة أفلت الزمام منه ، ووجد نفسه يسألها : إيه اللي حصل ؟

وكان بوسعها أن تسأله ما يقصد ، وعن أي شيء بالضبط يتحدث ، ولكنها مثله لا تريد للوقت أن يضيع ، ويخاف أن يضبطها في لحظة تغلب ، أن السؤال وإن كان يبدو مائعاً عائماً إلا أن الصوت الذي نطقه به كان محدداً مستغيثاً يطلب إجابة حاسمة تشفي الغليل . وبسرعة وبحسم قالت : لا شيء حدث . مالك ؟ أنا !؟ مامياليش .. لا .. لازم فيه حاجة .. حاجة إيه ؟ ولا حاجة . إنتي متغيرة . أنا ؟! متغيرة إزاي ؟ لازم مش إنتي . إزاي مش أنا ؟ أنا أنا .. كل مرة أنا أنا .. إنما المرة دي انتي مش إنتي .. أمال مين ؟ أنا مين ؟ أنا سهير بتاعتك مش فاكر ! صحيح بتاعتي ! ودي عايزة سؤال يا إمام .. بتاعتك بتاعتك بتاعتك .. إنما برضه يا سهير لازم فيه حاجة ..

ولاحظ إرتجافة عابرة جداً سرت بشفتيها لم يكن ليلحظها لولا فسفوسة عسر الهضم . أمام الحاجز الذي أقيم بدت العواطف تتجمع بسرعة وتتزايد وتتراكم وتهدد باكتساح السد الذي أقامه بلا سبب معقول أو غير معقول أو بصناعة مجرى جانبي آخر . وهكذا كان لابد أن تأتي النظرة الثانية ، بحكم قانون القوة جاءت ووجدت وأصبحت أمراً واقعاً ، ولكنها لم تأت كما تعودت أن تأتي كل مرة ، حين تحل محل النظرة الأولى الحيرى المتسائلة المذهولة ، جاءت النظرة الثانية هذه المرة دون أن تختفي الأولى أو تزول ، تراكمت فوقها ، فوق الذهول والحيرة والتشتت ، وأيضاً لم تكن نظرة استمتاع والتهام متمهل سعيد منتش ، جاءت مختلفة ، غريبة ، مجرد رغبة أعظم في بحث متعجل حادّ ، لهفة ، إحساس دافق قوي بضرورة العثور على نهاية ، على قاع ، على حقيقة .

ــ فيه إيه يا إمام ؟

سؤال منزعج من فم منزعج والملامح التي أطلقها فيها رجفة لابد رجفة اضطراب ، لم يكن قد حدث ما يستدعي السؤال أو الإنزعاج ، كما لم يكن قد حدث ما يستعدي سؤاله المفاجىء عما يمكن أن يكون قد حدث . ولكن المشكلة أنه لم يكن مطلوباً أن يحدث شيء واضح ليسأل أحدهما الآخر ، أو ينزعج ، إن الحياة معاً في حب أو زواج . صنعت مثلما تصنع لكل الناس . ذلك الإلتحام الشامل الذي ــ يجعلك تفهم الآخر وتحسه ربما قبل أن تفهم نفسك أو تحسها ، تفاهم بالإحساس يتم بالتأكيد قبل أن يتم التفاهم بأي لغة أخرى حتى لو كانت لغة العين والنظر ، إنه تشابك الأفرع والأغصان والأوراق وتداخلها في

شجرة إحساس واحد مسيطر ، حالة لا يزيدها البعد إلا حدة ، والحرمان إلا شحذاً ومقدرة ، وكلما إزداد الطرفان بعداً ، اقتربا وأصبحا أكثر تشابكاً .. فانفصال أيهما عن الآخر في الزمن أو المسافة لا يبعد ولا يعزل ولكنه يقرب ويكثف ويربط ، فيه إيه !؟ أي نعم فيه إيه .. وإيه بالضبط ري سؤالك حصل .. انطق .. تكلم .. فيه إيه .. أبداً ولا حاجة .. إذن لم يحدث شيء وليس هناك شيء !؟ ما الأمر إذن ؟ ماذا هناك ؟ ماذا دهاك . ولو كان الوقت يسمح لاستمرت المطاردة الخالدة غير الجديدة على علاقتهما .. إلى ما لا نهاية .. ولكن الوقت ، كان مدبباً . كالترس المسنونة تروسه . كلما دار وخز وألم ونبه وجأر بأنه يدور ويمضي مهدداً بقرب إنغلاق دائرة الدقائق العشر المصرح بها .

ولكن ماذا يصنع أو يقول في موقف لم يحدثه هو بإرادته ، في موقف تكوم وتكون وتراكم وتشكل حقيقة واقعة دون أي تدخل إرادي أو عقلي أو حتى وجداني منه ، إنما حدث هذا وكأنما حدث بواسطة جسده وأعضائه وعضلاته وعظامه والأجهزة اللاإرادية الغريبة المركبة فيه ، في موقف عاجز عن فهمه وإدراكه . موقف حدث لا يدري كيف ، ومستمر في حدوثه لا يدري كيف أيضاً ، وسادر في استمراره إلى ما يبدو إنه اللا حل واللا نهاية ، لا يدري كيف أيضاً ، سهير يا حبيبتي أنت أنت ، لم يتغير فيك شيء ، أليس كذلك !؟ بل تغيرت يا إمامي وأصبحت أحبك كما لم أحبك من قبل أو من بعد .. ليتك تؤجلين الكلام عن الحب ، كل كلام عنه أحس به غير طبيعي .. ومصطنع من أجل

هذا الموقف ، إن الحب يأتي بعد الاطمئنان ، وأنا لا أزال لم أطمئن ، نفسي التي تحركني وتشعر لي لم تطمئن ، عقلي لا يزال مذهولاً يبحث عن خلجة إطمئنان ، ومنك يأتي إطمئناني ، وفي يدك الحل إذ التفسير لابد عندك . أنا أنا لم أتغير يا سهير ، أنا كجدران الزنزانة ، كساعة (التمام) بعد الظهر كوقع الأحذية الثقيلة على بلاط العنبر ، أنا مثل أي شيء وكل شيء هنا لا أتغير ولم أتغير . أنا ثابت وأنت المتحركة ، أنت الطليقة ، أنت المتغيرة .

ولكن يا حبيبي برغم أني طليقة ومتحركة ، برغم وجودي في الخارج الحر أنا معك ثابتة لا أتغير . أنا هنا وإن كنت أبدو هناك ، أنا سجينة داخل ما هو أفظع من سجنك ، داخل الحياة الطليقة ، كلام جميل مثل حوار أفلام الحب ولكني لا أريده ، وإن كنت في كل مرة أسمعه . أجن إلا إني لا أريده . هناك شيء مؤلم حاد يشتتني ويجعلني لا أريد أن أصغي قبل أن أوقن وأعرف . تعرف ماذا ؟ أعرف من أنت ؟ إن فيك شيئاً لا أعرفه يجعلني أحس أني لا أعرفك كلك ، شيء جديد غريب عليّ ، حواسي تحوم حوله وتجفل ولا تستطيع إدراكه . أراه ببصري ولكن لا أعيه . أيكون قد حدث شيء يا سهير ؟ أيكون ؟ أرجوك . دعيني أعرفه ، كيف ؟ أعرفيه أنت واعترفي لنفسك به فأعرفه أنا . حوار غير منطوق أو مسموع أو حتى مار عبر العيون ولكنه رائح غاد في سرعة وتحفز ككرات البنج بونج لا يستقر ولا يهدأ وإنما تزداد به النظرات جهلاً واستيحاشا وتوتراً ، ويزداد به الزمن وخزاً وإيلاماً ، لم يبق على إنتهاء الزيارة سوى دقائق ثلاث أو أربع . سهير يا سهير .

أنت لي . كلك لي . حتى ما فيك من خطأً لي . بحقك عليّ وحقي عليك أخبريني ماذا حدث ، إذ مهما كان ما حدث فهو فسفوسة يا سهير بالقياس إلى حياتنا ، فسفوسة لا أعرف لها مكاناً ولا سبباً ولا اسماً ، أحس بها تافهة سطحية تكفي ضغطة صغيرة لتنمحي وتتلاشى . كل ما يضخمها ، كل ما يعرقلني عنك ، إنها غريبة عليّ لأنها غريبة عليك .

ــ أنت شايف إيه ؟ ..

ــ مش عارف .

ــ عايز تقول إيه ؟

ــ مش عارف .

ــ شاكك في إيه ؟

ــ مش عارف .

ــ أمال فيه إيه ؟

ــ مش عارف . أنا خايف .

ــ من إيه ؟ عليّ .. ما تخافش .

ــ ده كلام يمكن من قدامي بس .

ــ قدامك ومن وراك .

ــ أمال أنا حاسس بيكي متغيرة ليه ؟

ــ يمكن إحساس خاطيء ..

ـــ وهو عمر إحساس اللي بيحب بيخطىء .. أبداً أبداً يا سهير .. عمر إحساسي بلك ما أخطأ .. عقلي بيغلط إنما إحساسي لا .. وده هو اللي تاعبني ..

ـــ أنت بس إلى عاوز تتعب نفسك .

ـــ واحد بيعوز يتعب نفسه ؟

ـــ أيوه .. لما يكون مسجون بعيد .. وبيحب .. يخاف على حبيبته أو مراته فيشك ويخاف ويتعب نفسه ..

ـــ ده كلام معقول . إنما أنا اللي حاسه حاجة فوق العقل . حاجة قبل العقل .. حاجة أصدق وأعمق من العقل ..

ـــ اسمح لي دي قلة عقل .

ولكنها قالتها بروح لا مرح فيها ولا رغبة في المداعبة ، وهذا ما أحزنه ، لو قالتها كنكتة لبدت طبيعية وربما حلت الموقف كله ، ولكنها أخذتها جداً .. وأردفت :

ـــ اشمعنى المرة دي يعني ؟

ـــ ده بالضبط اللي بقوله لنفسي ، كل مرة تيجي تزوريني هنا ، اشمعنى المرة دي ؟

ـــ أيوه اشمعى المرة دي ؟ ..

ـــ لأن لازم حصل فيه حاجة يا سهير . أنا حاسس .

والكارثة في هذا الإحساس الذي لا يناقش ، كالحكم الذي لا نقض له ولا راد ، كالأمر الواقع ، إحساس غير خاضع لمنطق أو فكر ، ولكن

له قوة أعتى من قوة المنطق والفكر . للمرة المائة يتأمل وجهها ، إنه هو الآخر أمر واقع ربما ينجح في دحض إحساسه ونسفه ، ولكن حتى وجهها تكفلت المنطقة الغريبة المجهولة بالزحف عليه والإمتزاج بلونه وملامحه وتغير لونه كما يتغير لون الماء إذا سقطت فيه نقطة حبر .

ومالت على أدانة مرة وهمست له بكلمة ، أعقبتها بضحكة عالية جعلت الضابط يرهف أذنه ويكاد يمدها لتتسقط ما بين فمها ومسامعه ويعرف سبب الهمسة والضحكة . أما هو فلم يهضم لا الهمسة ولا الضحكة في مظهرها بريئة ، قريبة منه ، تبدو كنفس ضحكتها البريئة ، ولكنها البراءة وقد زحف عليها ذلك الشيء الغريب المجهول فأحالها إلى ما يشبه التهتك والرقاعة ، إن رأسه يكاد ينفجر . لم يعد باستطاعته أن ينظر إليها أو يشعر بها كما تعود أن ينظر أو يشعر ، في غيبة عقله ، كما لابد في غيبته حدث شيء . شيء غامض محير مجهول ، لو كان طليقاً لظل وراءه يبحث ويستقصى حتى يدركه ، ولكنه هنا مقيد محبوس ، ووظيفته الأولى أن يبقى جاهلاً بمعزل عن كل ما يمكن أو بالاستطاعة معرفته . إنه هنا فقط يسجل ، يسجل حتى دون أن يشعر ، وقد سجل ما فيها من غربة ، ولينفجر عقله محاولة التفسير أو التبرير فإحساسه لن ينفعه ، سيغادره تاركاً إياه وحده مع التصرف أو بالضبط مع عدم القدرة تماماً على التصرف . إنه الجحيم حتماً ، بل ربما الجحيم أرحم ، إنه السجن .

صيف ١٩٦٤

لغة الآي آي

لم تكن بالضبط صرخة ولكنها كانت الأولى بعد منتصف الليل بقليل ، تصاعدت ، غير آدمية بالمرة ، حتى الحيوان ممكن إدراك كنه صوته ، ولكنها بدت لأول وهلة جمادية ذات صليل ، كعظام تتكسر وتتهشم تمسكها يدا عملاق خرافي القوة وبنية صارمة لا رحمة فيها تدشدشها .. فجأة وفي المنزل الهادىء المظلم الفاخر الإظلام ، السابح في سكون مسود تلمع فيه حواف الموبيليا الأنيقة الموزعة بعناية وذوق ، بيت ساكن نائم يرفل في رائحته الليلية الخاصة التي تميزه عن أي بيت ، وفي الحي المترف الذي تتثاءب نوافذه وأضواؤه واحدة وراء الأخرى ويؤوب إلى الرقاد على ضجة المدينة ووسطها المستيقظ كغمغمة غارق في الأحلام .

وفي وسط هذا كله ، ومن مكان لا تستطيع تحديده أو تعرف إن كان يمت حتى إلى الحي ، تصاعد ذلك الشيء الغريب الغامض الأول ، مفاجئاً وكالطعنة الملتاثة ، حافلاً بأنين التمزق ، وكأنه صادر من حنجرة تتمزق أحبالها الصوتية لتصدر الصوت ويكاد يمزق طبلة أي أذن يقع عليها .

ودونا عن سكان الحي والبيت ، بدا وكأنه الكائن الوحيد الذي سمعه . كان مغمض العينين لا يزال بينه وبين النوم مشكلة لابد لها من حل ، ومر الصوت مفاجئاً غير مألوف من الصعب تبينه ، ولكن جسده في اللحظة التالية كان يقشعر بخوف طفلي مذعور ، وإن لم يستغرق زمناً ، اسلمه إلى عينين مفتوحتين لآخرهما ، وقلق وعاصفة من الاضطراب ، فالإحساس التالي الذي واتاه كان إحساساً بالذنب ، شعور غامض يربطه بالصوت ، ويؤكد أن الصلة بينهما من صنعه ومسئوليته ، وأن عليه وحده يقع التحمل للنهاية ، وبالغريزة التفت ، كانت زوجته لا تزال على وضعها ، فقط في اللحظة التي إلتفت فيها ماءت مواء طال بعض الشيء ، ثم بارادة نائمة انتقلت إلى جنبها الأيسر وقربت ساقها ، ربما كان الأثر الوحيد الذي أحدثه الصوت في جسدها المستسلم لأول مراحل النوم . وارتاح وبعض الشيء إطمأن وهو يواجه الأمر وحده ، فقد كان ظهورها على المسرح لحظتها كفيلاً بزيادة إرتباكه .

ما هذا الصوت ومن أين جاء ؟

في لحظة مر بخياله ألف احتمال ، إلا الاحتمال الوحيد الذي كان يخاف مروره . لم يكن قد تغير في البيت أو في الحي أو في دنياه كلها شيء ما عدا ذلك الشيء الواحد الذي اغتم له . ولابد أن يكون الصوت الجديد من صنع القادم الجديد حتى ولو نفي عقله بشدة ، وأبى أن يصدق .

ولم يشأ أن يفكر أكثر ، مجرد صوت وحدث ، المهم ألا يعود يحدث ، ومر بعض الوقت ، أحال اللحظة إلى دقيقة ، أو دقائق ، ولا

شيء يتغير داخل الليل الساكن ، والأمل يقوى ..

ولكن وشوشة غامضة حدثت ، إندفع منها إلى أعلى فجأة صوت كالطوفان الهادر العمودي له وقع العظام نفسها وهي تسحق وتتدشدش ، صوت أقرب إلى رعد تنفثه السماء في ماسورة مكتومة ، ما لبثت أن فتحت وسلكت في إستغاثة راعدة مولولة ممدودة يخاف صاحبها أن ينهيها وكأنما الموت عند نهايتها .

انتهى الأمر . لم تعد هناك فائدة .

كان هذا الصوت الثاني مزعجاً حقاً حتى أنه ، مع علمه هذه المرة وتأكده من مصدره ، لم يستطع كبح جماح إرتجافته ، ليس خوفاً منه ، وإنما من الشيء المجهول المروع الذي يختفي لابد وراءه ويحدثه . مزعجاً ومحيراً إلى درجة لم يلحظ معها أن رفيقة الفراش قد اعتدلت نصف اعتدالة والتفتت إليه قائلة بهستريا مفاجئة :

ـــ إيه ده ؟ قول لي بسرعة وحياتك إيه ده ! وحياتك بسرعة بسرعة بسرعة .

وقبل أن يفكر فيما يقول انخلعت عنه ، ناظرة إليه بشك متوحش :

ـــ أوع يكون هوه ؟

وقبل أن يفتح فمه أردفت :

ـــ أنا مش قلت . أنا مش قلت . اتفضل بقى . اتفضل بقى . أنا مش قلت .

وحقيقة لقد قالت وعارضت وكل ما حدث كان رغم قولها

وإرادتها ، وبالتأكيد هي الآن بسبيلها إلى إعادة ما قالته . وعليه أن يتذرع بالصبر ، ويقول لها كلاماً مطمئناً كثيراً .. إنها مجرد آهة .. آهة ستمر ، ويعود كل شيء إلى سابق عهده ..

أكان معقولاً أن يعود أي شيء ليلتها إلى سابق عهده ؟ الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها .

وما فائدة الكلام ، والكلام الذي دار كثير ، وقد كان ممكناً ، مادام الوضع هكذا . زوجة حلوة قوامها كقوام المانيكان ، وساقاها حتى في الظلام يظهران من قميص النوم في إغراء لا جمهور له ، وحتى هناك تواليت وماكياج للنوم وعناية خاصة بالشعر ، ودهان مخصوص للبشرة وزوج هناك دائماً بينه وبين لحظة النوم مشاكل لابد لها من حل ، زوج امتلأت روحه بالتجاعيد مثلما فقد رأسه الكثير من الشعر وعيناه القدرة على الرؤية .. مادام الوضع هكذا . فقد كان ممكناً أن يدور الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها حول أي موضوع ، كالعادة ، لا تلتقي عنده وجهات النظر . المهم أنهم أصبحا بشيء من التحدي ينتظران الصرخة الثالثة ، التي لن تجيء كما يؤكد الزوج والتي لابد أن تأتي كما تصرخ الزوجة ومن المطبخ ، هذه المرة كان المصدر واضحاً ولاشك في أمره ، انطلق مواء كمواء القطط ، يحاول صاحبه كبته وخنقه فيخرج مضغوطاً ثاقباً إرادته فيبدو كما لو كان رجل قد قرر بجماع ما يمتلكه من قوة ، وبسبق إصرار ، أن يتأوه كما يريد ، ولتقم القيامة بعدها ، إنطلق صفير معذب متأ لم متظلم باك غاضب كافر مستغيث بائس مؤلم زاهد .. آي ، آي ، آي ، آي طويلة وقصيرة ، ممدودة ومبتورة ، عالية بكل قواه يرفعها ، منخفضة بجماع إرادته يخسفها ، مجروحة دامية ، لاسعة كالنار

في العين ، كاوية كصبغة اليود في الحلق .. حارقة كآثار الحامض المركز .

فتحت الزوجة فمها تصرخ في هوس من تأكد قولها ، وانتظرت أن تنتهي الصرخة لتطلق صرختها هي ، ولكن انتظارها طال ، وبدأت رغماً عنها تسمع ، ومن الذهول استمر فمها مفتوحاً وأذناها بأمر قوة قاهرة تصغيان ، ثم بدأت ترتجف وتقترب من زوجها وتمسك بيده لتوقف الرجفة ، ونفس اللحظة التي كانت قد قررت فيها أن تطلق لفزعها العنان وتستغيث صارخة ، انتهت الصرخة فجأة ، وكأنما انكسر الجهاز الذي يصدرها .

وكان الصمت الذي حل تاماً ساحراً كالدواء الشافي المعجز لو لم يحل ، وفي اللحظة التي حل فيها ، وعلى تلك الصورة الكاملة ، لفقد أحد أو الجميع عقولهم .

قالت الزوجة بعد جرعة صمت سخية : كده يا حديدي .. كده ..

وأجاب بهمس ، مناه ألا يصدر : أرجوك يا عفت .. أرجوك ..

ولكنها لم تستجب . بفحيح أكثر إنخفاضاً وإلحاحاً سألته : بس أنا عايزه أعرف . أرجوك أنت .. أنا ح أجنن عايزه أعرف .. ماوديتوش لوكاندة ليه .. ما سبتوش يتحرق مع أهله ليه .. عملت كده ليه . أرجوك قولي بس .. عشان ما اجننش ..

كيف يخبرها وهو نفسه لا يدري لماذا أقدم على ما أقدم عليه . كان قد إتخذ قراره من زمن وكف تماماً عن مساعدة أهل « زينين »

وتوظيفهم والتدخل لقضاء المصالح . إن أهل بلده هؤلاء لا يكاد يبرز من بينهم واحد حتى يتسابقوا إلى جذبه إلى أسفل وإغراقه في حل مشاكلهم . مشاكل لو تفرغ لها لاحتاج لأضعاف أضعاف عمره ، فلا يوجد إنسان إلا وله مشكلة حادة ملحة تطلب الحل وتستحثه ، ومائة ألف نسمة في زينين وما حولها بمائة ألف مشكلة ، بقرار حاسم باتر منه أن تبقى له حياته الخاصة ومشاريعه وطموحه وأن ينفض عن نفسه هذه الأيدي الكثيرة التي تريد إنزاله وجره إلى حيث هم وكأنما لا يطيقون رؤية البارز العالي ولا يسترحون حتى يبرك مثلهم ويعجز .

ولكن السكرتير جاءه قرب الظهر قائلاً : إن أبا فهمي وعمه بالخارج وأنهما يريدان رؤيته . وحياته ليس فيها إلا فهمي واحد ، أول ، وربما آخر طفل أو إنسان يعترف الحديدي لنفسه إنه أذكى منه . كان فهمي إذا وقف ليجيب وقد عجز الفصل عن الإجابة التفت الحديدي بكليته ناحية ، يتأمل ملامحه الشاحبة ، ووجهه المليء بالعظام الناتئة والذي تكسوه مع هذا غلالة من مهابة خفيفة ، مهابة التفوق أو العبقرية ، وكل كلمة ينطقها كان يتأملها وتبهره حتى الطريقة التي ينطقها بها ، فكل كلمة كانت الصواب بعينه ، كل كلمة بالضبط ما يجب أن يقال وما يعجز الجميع عن قوله ، فهمي كان يقولها ببساطة ودون أي جهد ، في ذلك الفصل من المدرسة الإلزامية ذي الجدران المتساقطة الطلاء الكاشفة عن الطين الذي بنيت به الحيطان ، الفصل ذي السبورة الكالحة البالغة الصغر وكأنما هي سبورة خاصة لتلميذ واحد ، المزدحم بعشرات الطواقي الصوف والبيضاء القطن وأحذية الإخوة الكبار أو ربما الآباء

والقباقيب والحقائب القماشية التي صنعتها كل أم لابنها ، أو خيطت على المكنة فوق البيعة مع الجلابية ، الأيام الأولى التي كان الحديد يتعرف فيها على مدخل العالم المقروء المكتوب ويحاول أن يحذق مبادىء أسراره ، وفهمي رفيق تلك الأيام ومثلها الأعلى .. أيكون أهله هم من ينتظرونه بالخارج .

وأمر بدخولهم ..

ومن باب الحجرة دخل ثلاثة أو أربعة أناس من حجم قصير تخين واحد . ورابعهم مثنى على نفسه لسبب مجهول . أجال بصره فيهم . إن ملامح فهمي محفورة في ذاكرته لا تمحى أو تموت . وأجال بصره محاولاً أن يعثر على من يصلح ليكون أباً لفهمي أو عمه .. ولكن ملامحهم بدت غريبة حتى على أهل زينين بشكل عام ..

ــ أمال فين فهمي ؟

وتسابقوا في إرتباك عظيم يجيبون ، وينتهون إلى الإجماع على الإشارة للشخص الرابع المثني على نفسه .

ــ ده ..

ــ أيوه يا بيه ..

ــ أنت ؟ ..

ــ أيوه يا بيه .. هو ..

ــ أيوه .. يا ..

ورفع رأسه يواجهه رغم بقائه متنيا ، وحدق الحديدي طويلاً فيه كمن يفتش في كومة من قش قديم عن إبرة ملامحه لطفل صديق كان أعز عليه من نفسه ..

ــ أنت فهمي ؟!

ــ أيوه .. يا .. فاندي ..

جاءه الجواب من وجه المومياء الخارجة لتوها من القبر أو المستعدة تواً للدخول فيه ، وجه منقبض بالألم وكأنما ثبتت ملامحه عنده وحنطت عليه ..

ــ أنت فهمي أبو ..

ــ أيوه .. أبو عنزه يا بيه .. ده كان معاك في المدرسة .. بس حضرتك مش فاكر .

أمعقول هذا ؟ من الطفل المرتب النظيف الذي تحيط بوجهه مهابة النبوغ ، ومن العينين اللتين يطل منهما الذكاء النفاذ والقدرة المعجزة على الإدراك ، أين هذا من ذلك الرجل الذي يبدو عجوزاً محطماً تجاوز الخمسين ، المظلم القسمات كالأرض البور ، المطفأ العينين لضيقهما كشريط اللمبة حين يحمر من تلقاء نفسه ويقصر ويحترق لدى فراغ الكيروسين .

وأحس بفجيعة ذات طعم خاص ، كان دائماً متأكداً أنه سيلقى فهمي يوماً ما ، وكان يعد العدة لهذا اللقاء الحافل . إن قدراً كبيراً من الرهبة التي يحسها لفهمي مبعثه أنه كان يتخيل دائماً أن فهمي سيظل

متفوقاً عليه وعلى الآخرين . وأن الذي باستطاعته أن يتفوق كطفل لابد باستطاعته أن يتفوق كشاب ثم كرجل . ولم يكن أبداً يتصور أن اللقاء سيتم على هذه الصورة وأن الطفل الذي في ذاكرته سيمخض عن هذا الرجل . كان يدخر اللحظة التي يقابله فيها كلاماً كثيراً يريد قوله ، وكيف أنه إذا كان قد أصبح الأستاذ الدكتور الحديدي أكبر مرجع في الكيمياء العضوية في الشرق ، وإذا كان قد أصبح رئيس مجلس إدارة مؤسسة كبرى ومرشحاً أكثر من مرة للوزارة وعضوا في عشرات اللجان والهيئات العلمية في الشرق والغرب فجزء كبير من هذا الفضل يرجع لفهمي ، فقد كان الصوت الذي ظل لأكثر من ثلاثين عاماً من الزمان يلهب طموحه ويدفعه للتفوق حتى ينتصر ، ولو مرة واحدة ، على الطفل العبقري الذي ظل يحافظ عليه في ذاكرته كصور القديسين التي لا تمس . وها هو اللقاء ، وها هو القديس .

ـ أنت فهمي أبو عنزة ؟

ـ أيوه يا بيه .

ـ فاكر العنزة ..

ـ عنزة إيه يا بيه ؟

العنزة التي سرقها ليشتري لحسين أبو محمود والد منصور الألدغ حقن الدواء ٦٠٦ التي قيل إنها بخمسين قرشاً وأنها دواؤه الوحيد . فقد كان فهمي شهماً أيضاً ، لا يتردد في الذهاب سائراً على قدميه إلى البندر أو بقاء الليل بطوله ساهراً أو اليوم كله عاملاً كادحاً إذا أحس أن غيره في حاجة إلى هذا العمل أو الجهد ، خصال جعلت الجميع يدهشون

ويفجعون لإقدامه على سرقة العنزة . وإن كان السبب قد عرف والعمل قد اغتفر . إلا أنه خرج منها بالاسم لاصقاً به ملغياً اسمه الحقيقي وحالاً محله .

ــ أهلاً وسهلاً .. أية خدمة .

بالطبع فلابد قد جاءوا ، مثلما كان يجيئه المئات في إنتظار أن يحقق لهم بمفرده ومركزه المعجزة . كان سهلاً تخمين المطلوب هذه المرة ، فلابد أن فهمي مريض ولابد أنهم يريدون إدخاله المستشفى .

وحاول أن يتحدث إليه ويسأله عن مرضه متنياً على نفسه في جلسته لا يرفع رأسه ولا يبدو عليه أن يسمع ما يقال . وتهته أبوه وعمه وهم يعتذرون عن صمته وكيف أنه دائم الحدوث ، بل أحياناً تمضي عليه أيام كثيرة دون أن ينطق فيها بحرف ، ولم يكن المرض في عقله أو نفسه وإنما كان في مثانته ، فهم منهم أنها لابد بلهارسيا أدت إلى سرطان في المثانة ، وأنهم لفوا وتعبوا على جميع (حكما) المركز ومستوصفاته ومستشفياته وحلاقي صحته والعرب الذين يكوون بالنـار ، و (يخرمون) بالمسلة حتى قالوا لهم في مستشفى المحافظة في النهاية أن لا فائدة من العملية وأنه بحاجة إلى علاج بالأشعة في مصر . وأدحنا جينالك يا بيه ربنا يخلي لك أولادك ويمتعك بالصحة .

ومن غير دعاء ، كان قد قرر أن يتكفل بالأمر . إن الدين الذي في عنقه للكتلة البشرية المنكفئة على نفسها أمامه ملفوفة بالملابس المهرأة ، كبير ، ولقد حان أوان رده وإيفائه .

كانت المشكلة أن يتخلص أولاً من « الجماعة » التي ترافقه ويستصحبه إلى بيته ليقضي فيه الليلة وفي الصباح واعتماداً على صديقه أستاذ الأشعة يدخله المستشفى . فقد كان عليه أن يدبر أمر ذهابه إلى البيت بطريقة لا تجرح ذكراه في نفسه من ناحية ولا يظن معها من ناحية أخرى بواب أو ساع أنه أخ له أو قريب ، وكان عليه أن يتغلب على معارضة (عفت) زوجته التي لابد سترفض إيواء شخص مثله ولو ليلة واحدة ولو لكي ينام في المطبخ أو في فراش السفرجي .

ولقد تم كل شيء كما قدر له الحديدي ، إلا معارضة الزوجة التي بقيت حتى بعد رضائها بوجوده في البيت وأمرها للسفرجي أن يتكفل به وبحراسته وإطعامه . وهكذا لكي يقلل من وقت وجودها بالشقة اقترح أن يذهبا إلى المسرح ، وحين عادا في منتصف الليل كان الهدوء المعتاد يخيم على البيت . وكل شيء فيه هادىء ، ونور المطبخ مطفأً ، وبعد نصف ساعة كانت عفت تستمتع بمراحل نومها الأولى وكان الحديدي مغمض العينين لا تزال بينه وبين النوم مشكلة مجلس الإدارة الذي أجلت حكاية فهمي من اجتماعه ومن المشهد العاصف الذي كان قد أعده لكي يسحب فيه البساط من تحت أقدام المدير العام ويجبره .. إما الظهور بمظهر الغبي الأحمق الجاهل وإما ، حفظاً لماء الوجه، الإستقالة .

حين جاءت الصرخة الأولى .

وأعقبتها الثانية والثالثة .

وتكهرب جو البيت تماماً ، أيكون قد تورط في خطأٍ أكبر دون أن يدري ، وظن أنه يأوي قطعة حديد خردة عزيزة لتأخذ طريقها في الصباح إلى الورشة فإذا بها قنبلة بدأت تنفجر وتوشك أن تهدم البيت !

وعلى عجل أسرع إلى المطبخ حافي القدمين ، كان مظلماً لا يزال ولكن رائحة خانقة حامضة قابضة نفاذة واجهته لدى فتح الباب . مد يده يضيء النور ولكن الشلل أصابها قبل أن تصل إلى المفتاح . فقد انطلقت من المطبخ الضيق آهة صارخة ثاقبة كعشرات من الأبر الحادة المسمومة أنطلقت في كل إتجاه . لا يمكن أن يكون هذا صراخ ألم أو للتعبير عن ألم ، ولا مجرد أصوات ، أنه شيء مادي ينخر في الجسد ويصيب السامع بالحمى ، فوق احتمال البشر .

أضاء النور وهو فعلاً خائف ، ولم يلمح فهمي في الحال فقد وجد الفراش الذي منحوه إياه ممزقاً مكوماً ، والمطبخ بكل ما فيه مبعثراً ومدلوقاً والمقشات منتزعاً قشها وريشها ومنثوراً ، وعدداً لا يحصى من بقع الدماء الصفراء تصبغ الأرض وباب الثلاجة والمناضد البيضاء والرائحة النتنة الخانقة لا تزال هناك لكأنه كان ميداناً لمعركة حامية الوطيس دارت بين إنسان أعزل وخصم جبار غير منظور ، لكأن الصرخات كانت صرخات رعب الإنسان من عدو خفي يسحقه بالضربات وهو عاجز محاصر متألم مهزوم لا حول له .

ونظر ثانية ألقاها على المطبخ بعيني الزوجة هذه المرة أدرك بعدها فاجعة لم يكن يتوقعها أبداً قد حلت . وبحث عن فهمي فوجده قد حشر نفسه بين منضدتين من مناضد المطبخ عارياً تماماً ليس عليه إلا

فانلة مهراة ، رأسه يتحرك في كل إتجاه ، عيونه الميتة المطفأة تقدح بشرر أبيض دائبة الحركة في محجرها تبحث عن منقذ ومخلص ، وبكيانه كله كان يتجه إلى أعلى في يأس كامل كمن يدرك تماماً أن لا نجاة . أنه ألم سرطان المثانية المروع حين يزحف مع الليل حين تبدأ قطرات البول تتجمع بحمضها عبر الورم الخبيث الذي نفذ إلى كل المسالك ، ومرور القطرة على الورم المتهتك المجروح ، يسحق بالألم الذي يصدره كائناً حياً في فخامة الفيل وبلادة إحساسه ويجعله يجثو ويحفر الأرض بأظلافه ويملأ الدنيا بهتاف مروع صارخ .. إنه الألم الذي يسمونه فوق احتمال البشر ، فهو لم يخلق لبشر ، ولم يخلق البشر وتزود أعصابهم بتلك القدرة الهائلة الدقيقة على الإحساس كي يسحقها ويكويها ألم كهذا الألم .

أخرج فهمي من مكانه ولا يزال رأسه وعيناه وكل كيانه في حالة تلفت مسعور وبحث عن مفر ، مشغول عنه وعن المكان والزمان والدنيا كلها بما هو حادث فيه وبداخله ، فيقف ويجثو ويتمدد على بطنه ويركع ويقوم هالعاً واقفاً ويفتح فمه إستعداداً للصرخة ، وحتى يكتمها ويحتملها يحشو فمه بذراعه أو بالمخدة أو المقشة ويغرز أسنانه فيها ويسيل الدم من الذراع ومن الفم ، ومع نقاط البول الكاوي .

وشعر بضغط خانق يكتم أنفاسه وبرغبة مجنونة أن ينطلق هادراً لاعناً نفسه وبلده وأناسها واليوم الأسود الذي كتب عليه فيه أن يولد منها ويصبح عليه أن يحيا عمره كله يحمل عن أناسها همهم وفقرهم وعجزهم ومرضهم وأخيراً آلامهم وبولهم ، ولكن ما الفائدة ومن يتلقى لعناته واحتجاجاته إنه لا يستطيع حتى أن يطلب من فهمي أن يكف عن

الصراخ أو يرغمه على البقاء في ركن بعينه من المطبخ إلا إذا كان باستطاعته أن يأمر الألم الذي في داخله أن يكف والشيطان الذي يمزق أحشاءه أن يهجع .

وسمع خطوات مترددة في الصالة ، ومخافة أن ترى الفاجعة الحادثة . أطفأ النور وأسرع عائداً إلى حجرة النوم ليجد عفت في منتصف المسافة .

ــ هيه .. عملت إيه ؟

ــ قلت له يسكت ..

ــ وإن ما سكتش ؟!

ــ حا يسكت ..

آي ياي ياي ياي ياي ياي

وأسرع خلفها إلى حجرة النوم التي فرت إليها مذعورة . وما كادت الصرخة تنتهي حتى وقفت تواجهه وتهيىء نفسها للعاصفة المقبلة الهوجاء . ولكنه أسرع ، واستطاع رغم دفعاتها وتملصها أن يحتويها بين ذراعيه ، ويقاوم إحساسه بالرغبة الملحة في الإنهيار ويعترف لها بصدق واضح وملموس أنه أخطأ وأنه ما كان يجب ، وأنه يطلب الصفح ، وأن يكون صفحها على هيئة مساعدته في تدبير الحل للموقف فهما في قلب الأزمة معاً ولا سبيل أمامها إلا الاحتمال . وما تنزلوش ينام تحت عند البواب ليه ؟ فضيحة والساعة إتنين . أروح أنا عند ماما . دلوقتي ؟! أنا ما أقدرش استحمل . عشان خاطري . ما أقدرش .. أرجوكي ..

غلطة وباعتذر عنها وبأرجوكي انك تساعديني وتستحملي . استحمل إزاي يارب . استحمل إزاي .

* * *

آي آي آي يي يي يا يا ياي

ــ آه يا مامي ما أقدرش على كده ما أقدرش

و و و و و و ه ييييييه

ــ إيه ده . ده مش بني آدم ، دول عفاريت ، دول جن . ألحقيني يا ماما أنا ح أجنن .

وشيئاً فشيئاً بدأ الحديدي يحس أن إرتباطه بحجرة النوم وبالزوجة التي يحتضنها ويسكنها ، بالبيت والحاضر كله تضعف وبتوتراته تتراخى وبوجدانه يستحيل إلى بحيرة هائلة ملساء على استعداد لاستقبال أدق الرذاذ الصادر عن فهمي .

فرتك مرتك شرتك دي دي دي دان

الألم لابد قد إزداد بدرجة مخيفة ، خفف عنه يارب .

واج الواج الواج الواج الواج

وإلى جوار هذه القادمة من المطبخ ، جاءت أخرى رفيعة طفلية من الحجرة المجاورة ما كادت تسمعها عفت حتى ، بقوة عاتية خارقة خلصت نفسه من تكتيفته وجرت خارجة إلى الغرفة الأخرى . ولكن

الطفل ، طفلها الوحيد قابلها قادماً باكياً منادياً : يامامي . واحتضنته وحملته وبتنمر وتوهج قالت للزوج :

ــ اسمع .. أنت لازم تطرده حالاً دلوقتي يروح يشوف له مصيبة يبات فيها .. دا الولد قايم يرجف .. يا مصيبتي .

ــ يا عفت أرجوكي .. أنا شرحت لك الظروف ــ الراجل ده عندي مهم قوي وما أقدرش أطرده .

ــ مهم أكتر مني ومن فهمي ده .

ــ مش أكتر ، إنما مهم ، كفاية تعرفي أني مسمي فهمي ابننا ده على اسمه .. ده الوحيد اللي خرجت به من طفولتي .

ــ يا ح تطرده يا ح أسيب لك البيت وأنزل .

ــ إنتي عايزة مني إيه .. أركع لك .. قلت لك أرجوكي .. أنا ح أجيب له دكتور يديله مخدر دلوقتي ويسكته .

وأنشغل بكليته في عملية استدعاء طبيب الإسعاف وانتظاره ، ولم يدهش حين أخبره الطبيب أن المخدر في حالة كتلك ضعيف المفعول لا ينجح عادة في تسكين الآلم فآلام هذا النوع من السرطان أقوى من المخدرات وكل المسكنات التي اخترعها الإنسان .

وكانت الفائدة الأهم للطبيب أنه أعطى الزوجة حقنة من عقار منوم ، وبعد مدة قليلة نام فهمي الطفل في حضن أمه .

وأخيراً أصبح وحده مع الصرخات القادمة من الأعماق وكما قال الطبيب لم يكن المخدر قد أحدث تأثيرا يذكر . المشكلة الآن أن يعاد

الإتصال .. أن يعود إلى نفس الحالة الوجدانية التي كان عليها قبل أن يصحو الولد وتثور الزوجة . أنه لا يعرفها ويذكرها وهي قريبة دانية منها ولكنها ترف وتذهب ، يتذبذب بينها وبين حالته العادية ، يه يه يه يه يه فمندا مندا مندا هوندا بندا سارادات .

وأحس براحة باهتة وبالأصوات تصل إلى مكان سحيق داخلي فيه وتنعشه في رقة وعذوبة ، بالضبط هذا هو المكان . هنا يحس بها تتجمع .. آهاته التي لم يطلقها أي باي يانا يا بوي .

يا بوي موجوعة تاتي للحديدي بالضبط على الوجع . يابوي إنها ليست من لغة الحياة ولكنها من لغة الأعماق والآي . إنه يحس بها تعبر عن وجعه هو . منذ سنوات وسنوات وهو يريد أن يقف في ميدان التحرير ويستجمع شجاعته . وبكل قوة وبالحر ما يستطيع يطلقها ، عالية موجوعة صادرة رأساً من الوجع مثلما يفعل فهمي الآن ، ولكنه في اللحظة الأخيرة يعدل ويضعف ويخاف أن يفر منه الناس ويتهموه بالجنون فيخمدها ويكبتها ويردها إلى حيث ترقد الكثيرات من زميلاتها المكبوتات المحبوسات .

آي آي آي فركش أن منكش أي بعقش أي ..

الآن فقط يحس بها كلها ، بآلامه ، ويحس بها أبشع حتى من آلام فهمي وأوجاعه .. كل الفرق أنه ليس له الحق في التوجع مثله ، لن يصدقه أحد إذا صرخ وترك أعماقه تعبر عن نفسها المكتومة الوارمة المضغوطة ، ألم بلا آهات . أضعاف أضعاف الآلم .

الآن وهو وحيد مع نفسه وموجوع مثله وأعماقه مفتحة الأبواب أمامه يستطيع أن يسأل نفسه : ماذا يؤلمه ؟ إنه فوق القمة ، كل الخط العريض الذي رسمه لحياته تحقق ، زوج ورب أسرة وسعيد محوط بالرعاية والحب والإحترام انى يكون فمن أين تجيئه الآلام التي لا تطاق حتى أنه ليحسد فهمي على حالته .

ترى ماذا كان يفعل ويشعر لو حدث له ما حدث لفهمي وبدلاً من التعليم المتواصل الذي هيأه له أبوه الصراف الذي كانوا يتندرون عليه ويسألونك وأنت ذاهب لتدفع المال : مال الحكومة واللامال الصراف ، بدلاً من هذا أخرجه أبوه من المدرسة واشتغل فلاحاً كان هذا مصيره . أي إنسان في مكانه لابد أن كان يقبل يده ظاهراً وباطناً ، أين هو وأين فهمي ؟ هو الذي لابد تختاره إذا طلب إليك أن تختار مائة يمثلون الصفوة في هذا البلد . المتمتع بكامل صحته وحياته ، لا حق من حقوقه مهضوم ولا شعرة ظلم تمسه أو تمس مركزه ، أين هو من إنسان كفهمي تكفل الفقر بالقضاء على عقله وأحاله إلى واحد آخر من ملايين الفلاحين السذج ، وتكفلت البلهارسيا بالقضاء على جسده .. فالمفروض أنه الآن ميت وعمره مسألة أيام وحياته كانت أبأس حياة وشقاؤه كان من نوع يضرب به المثل .. لو كان قد حدث له هذا .. تراه ماذا كان يقول عن « ألمه » المزعوم وأوجاعه ؟

قال الحديدي لنفسه بلا تردد : كنت أكون أسعد .

كيف ؟ المسألة ليست فقراً وغنى أو تعليماً وجهلاً ، السؤال هو : هل أنت حي أم ميت ؟ فهمي رغم كل شيء حي وعاش . أما أنا فلم

أحى ، والحياة أي حياة ، أروع ملايين المرات من الموت ، أي موت حتى لو كان الميت مكفناً في ملابس أنيقة محتلاً أرق المناصب سعيداً في حياته الزوجية .
ولكنك حي ، أنا ميت ، إنه ليس تلاعباً بالألفاظ . إنها حقيقة . المقياس الوحيد للحياة أن تشعر بها ، وأنا لم أشعر ولا أشعر بها ، إنني أقضي حياتي كعملية حسابية دقيقة هدفها الوصول .. وحين أصل لا أسعد لأن أمامي يكون ثمة وصول آخر .

إن فهمي قد عانى من الفقر ، والبؤس ، ولكنه كان يعمل مع الرجال ويضحكون سوياً ، ويتشاورون في مشاكل العمل ويستمتعون بمشوارهم إلى السوق يفرحون لعود الفجل إذا أضيف إلى الآكلة ولا أحد منهم يأكل بمفرده إذ الطعام ليس أن تجوع وتملأ بطنك . الآكل عندهم أن يحل موعد الطعام ويلتفون حوله في ترحيب . ويتعازمون ويهزرون ويحسون أنهم يقومون باحتفال إنساني صغير ، أنهم يفعلون هذا دون إدراك لكنهه ولكنهم به ، بهذه الأشياء الصغيرة المتناثرة في طريق حياتهم يمتلىء كل منهم بإحساس يومي متجدد ، إنه حي وأن الحياة مهما صعبت حلوة .

أنا قضيت حياتي أجري وألهث ، لكي أصل إلى القمة كما تسمى .. كان على أن أظل أصعد ولهذا كنت أصادق أو تضمني المجموعة ، لا لكي أستمتع بصداقتي ورفاقيتي لها وإنما على أساس سرعتها وعلى اعتبار أنها أسرع من المجموعة التي هجرتها وأظل سائراً معهم ما داموا يسيرون بنفس السرعة التي أريدها ، حتى إذا أحسست انني بحاجة إلى سرعة

أكبر هجرتهم إلى مجموعة أخرى ، أو سرت بمفردي كي لا يعوقني معوق . وما توقفت مرة كي أواسي مختلفاً أو أخذ بيد أعرج معتبراً أن ليس الذنب ذنبي أنه تخلف أو أنه خلق أعرج . ولقد ظللت أسرع وأسرع لكي أبدأ الحياة حين أصل ولكن لم يكن للوصول نهاية ، بعد التخرج قلت العمل ، بعد العمل . الدكتوراه ، بعدها الأستاذية ، وحين أحسست أنها تستلزم الإنتظار هجرتها إلى الشركات ، قلت .. بعد الزواج وحين تزوجت قلت .. نبدأ الحياة مع الأولاد وحين خلفت قلت الأوفق حين يكبرون ، وهاثذا لا أزال أجري مسرعاً وقد أصبح هدفي ليس الوصول إلى أي شيء وإنما الإسراع في حد ذاته ، تماماً مثل الذي يبدأ حياته بتوفير النقود كي يحسن مركزه المالي ويبدأ يحيا بعد الألف الأولى ، وحين يصل إلى الأولى يصبح هدفه الثانية فالثالثة ، إلى أن ينسى الهدف تماماً ويتحول إلى بخيل مقتر هدفه جمع المال ليس إلا .

ياني ياني ياني يا بوي .

أحس بتوجع فهمي بريحه راحة بدأت تصبح عظمي ، وكأن فهمي يتوجع لكيهما أو أكثر من هذا ، كأنه هو الذي أتيح له أخيراً أن يتوجع كما يريد وبكل قدرة استطاعته ، إنه الألم المتراكم عبر السنين .. ألم الحزن الدفين والإكتئاب . إن الإنسان جهز بتركيبه وأحساسيسه لحياة خاصة تسمى الحياة الجديرة بالإنسان ، وهو لا يستطيع أن يخرج عليها ويحياه حياة من صنعه هو ومن ابتكاره إلا وهو يتألم وآلامه تتضاعف ، ولقد قسا العمر كله على طبيعته وكتم نداءات الأعماق المطالبة بمتع الحياة

الصغيرة الكثيرة العادية التي تعطيها طعم الحياة . قسا عليها ليجبرها أن تحيا بمفردها .

أبو .. أموا .. أبوا .. أموا .. أبو .. واه ..

بالضبط يا فهمي ، الوحدة للوصول ، الوحدة للسرعة ، الألم البشع لفراق الناس والبعد عنهم .. الوحدة القاتلة التي تربي الخوف من الآخرين وتدمر الثقة بالنفس ، الوحدة لكي تكون حراً أكثر ومنطلقاً أكثر وحياً أكثر التقوقع فإذا بها تؤدي إلى التوقع والرعب من الآخرين وتحديد الحركة وإحاطتها بعشرات القيود ، همه يحمله وحده ، ومرضه ينفرد به ، وضيقه هو المسئول الوحيد عنه ، الألم ، أضعاف أضعاف الألم الذي يسحق فهيم ويدمره وهو مرغم على كتمانه يخاف خوف الموت أن يطلع عليه أحد فإن تألم الرجل أو حاجته للفضفضة إلى الآخرين ضعف وعورة .

دي دي دي دي دي ..

ياللمضحك .. إنه يحس أنه ربما لأول مرة يذكرها في حياته .. سعيد ، سعيد إلى درجة لا يصدقها العقل ولا يصدقها هو نفسه ، إنه حقيقة متأثر لأوجاع فهمي ولكن فرحته هو لهذه اللحظة التي يحياها ، أجل ربما أول لحظة يحياها ، لا توصف . ومن الصعب أن يدرك الأسباب ولكن لابد أن أهمها أنه أخيراً إستطاع بوسيلة معقدة مركبة تعتمد على أعماق تخاطب أعماقاً خلال لغة غير مفهومة ، أخيراً استطاع أن يتصل ، وأن يشارك ، وأن يزاول عملاً من أعمال الاحياء ، يزاوله

بمتعة وسعادة ، سعادة تدخله في حالة وجدانية لها صفاء لحظة الكشف لدى المتصوفين وعمق لحظة الخلق لدى العباقرة ، لحظة ها هو يحس فيها أنه قادر على الإتصال بكل إنسان وبكل شيء ، بل قادراً على الإتصال بنفسه وبالتحديق ملياً في أعماقه دون أن يرده الرعب المقيم مما قد يراه .

وكلما إندمج في حالته الوجدانية تلك ، أحس بنفسه تتفتح أكثر وتعمق ، وتتقوى صلته بفهمي حتى لكأنه يقرأ ما يجأر به في كتاب مفتوح ، وأحس أيضاً انه ينجذب إلى مكانه ليصبح أقرب ، إنجذاباً مريحاً ممتعاً إلى درجة لم يدرك معها أنه كان قد غادر الفراش ومضى يعبر الصالة في عدد كبير من محطات الممشى الضيقة . كل خطوة بمحطة ، سمع ، كالصوت البعيد يأتي للنائم نافذة جار تفتح ويعقبها صوت زعيق ولابد

انه كلمات سباب ، سمعها وكأنها لا تمت إليه ولا تهمه ، إنه يرى حياته الآن بكل كبيرة وصغيرة حدثت فيها ولها مجسدة مجموعة أمامه ، بحيث بنظرة واحدة يستطيع أن يرى نفسه تقريباً من يوم ميلاده إلى يومه هذا ..

الغريب أنه ينظر إليها وكأنها حياة غريبة عنه ، لا تربطه بها أو بصاحبها أدني علاقة ، لا تربطه ذكرى بأي جزء فيها أو موقعة وأغلب الظن أنه لا يذكرها ، أنه لا يكره شيئاً في الدنيا قدر كراهيته لحياته تلك أنه يمقتها ، ولولا النداء القوي الصادر له من فهمي لحملها في التو وقضى عليها وعلى نفسه ، ولكن النداء أقوى ، أنه يتسرب إلى كيانه

كله ويهز هيكل الحياة فيه ليوقظ حبه الغريزي لها ، ومن الظلام الكثير الرابض يملأ الصورة ، تبدأ تتسرب موجات كاشفة مضيئة ، يجسر معها على التحديق والرؤية ليتابع نفسه وهو يجري ويجري ، وحده ، الناس تحيا وهو يجري ، والشاشة مليئة بالصلات المقطوعة بالصداقات المبتورة ، بأجزاء العلاقات ، بقيم على الطريق مهدرة بإنسان لا يريد أن يرتبط بأحد حتى لا يعطله الإرتباط ولا أن ينتمي لجماعة أو حتى لصديق لأن في الإنتماء فقداناً لذاته الحرة وكيانه ، والنتيجة جري سريع إلى قمة الوصول هو في الحقيقة هرب سريع من الحياة ، فالحياة هي الأحياء وأن تنفصل عن الأحياء معناه إنفصال عن منبع الحياة الأصيل . وفقدان طعمها ونوعيتها والتحول إلى الموت .

الخطأ الفادح الذي يدركه الآن ، وعلى الضوء الباهر الصادر من أعماق فهمي إلى أعماقه يراه ، أن الوصول لا قيمة له بالمرة إذا وصلت وحدك ، أية قيمة أن تصبح ملكاً متوجاً أو عالماً حاصلاً على جائزة نوبل ، وأنت محاط بصحراء جرداء ، أية قيمة لأي شيء في الدنيا ، للمتعة نفسها أن تحس بها وحدك ؟

وصحيح أنه ليس وحده فهناك زوجته وابنه وأقرباؤه ، وأخوته ، وبعض الأصدقاء ، ولكنها ديكورات علاقات ليس إلا .. إن حب الناس للناس وإرتباط الناس بالناس لا ينشأ للزينة وإنما ينشأ لحاجة الناس للناس ، الحاجة الماسة الملحة كحاجتك إلى الماء والهواء والتي بدونها لا تستطيع أن تعيش ، وهو له أخوة وزوجة وأناس ولكنهم لا يمثلون مطلباً حيوياً بالنسبة إليه ، إن في إستطاعته ، إذا أراد أن يحيا كما تعود بدونهم ،

قد يكونون هم في حاجة إليه .. ولكنه هو ليس في حاجة لأحد ، أو بالأصح هو في حاجة حيوية ماسة ، ولكنه يحس ويوهم نفسه مثلما أوهمها طول عمره أنه ليس بحاجة إليهم .. ومن هنا ينشأ ألمه البشع .. من هنا بدأ ، ويستشري السرطان الذي يقتل الضحكة على فمه لأنه يحس أنه ليس بحاجة إلى الضحك ، ويجمد العواطف في صدره لأنه يحس ليس بحاجة إلى أن يعطي الحب أو يستقبله ، من هنا تبدأ المأساة التي أحالته إلى ميت حي .

• • •

وجاءته صرخات فهمي ، قريبه هذه المرة ، إذ كان قد وصل إلى المطبخ ، وجلس بجواره ، جاءته بعد سكوت خيل إليه أنه طويل ، وكان مجرد إحساس فهمي بوجوده بجواره خفف عنه الألم .. جاءته الصرخات ، أقرب ما تكون إلى البكاء ، وأحس بنفسه وكأن بركاناً باكياً يوشك أن ينفجر ، انه لم يبك في حياته منذ أن كان طفلاً وها هو يحس أنه يود لو ظل يبكي إلى أن توافيه المنية ، إشفاقاً على نفسه وهو أول من أدرك أنها أكثر أهل الأرض جميعاً حاجة إلى الشفقة ...

هات يدك يا فهمي ، ضعها هنا على صدري ، إنه خاو كما ترى . أنا أعرف أنك مريض ، وأحس بك وأريد أن أقاسمك الألم ، ولكن لا أستطيع فقلبي من خشب ، تركتكم جميعاً ، أنت في زينين ، وسعد في بنها وعبد المحسن في أسيوط ، وشلة الجامعة ، وجمعية الكتاب ، وكل الناس ، وظنن أنكم تسيرون في الطريق العادي ، طريق الندامة .. وأن

الطريق الأسرع ، طريق السلامة ، هو الطريق .. والنتيجة أني مت من زمن ، وظللتم أنتم أحياء ، أنا جثة أقنع نفسي أنني أنا الذي أزور عن الناس ، في حين أنهم هم الذين ينزورون عني ، وما حاجتهم إلى جثة ، حتى زوجتي وابني أحس أنهما لا يطيقان رائحتي .. أنا أريد العودة يا فهمي ، أريد البداية من جديد ، أطلب فرصة أخرى فمن يقبلني يا فهمي ؟ من يقبل جثة ، من يرضى بي ، إني لا أجد في هذه اللحظة سواك يا فهمي ، هل تقبلني .. هل تقبلني يا فهمي !!

ــ ما تعيطش يا محمود ..

ولم يصبه الذهول مع أن القائل كان فهمي ، وكان أول كلمات ينطقها ، ولم يعجب أيضاً لأنه ناداه بمحمود ، وكأنما ذكره الاسم بالتختة المشتركة وبأيام زمان ، كل ما أحس به أن رجاءه قد تحقق ، وأنه يقول :

ــ أشكرك يا فهمي .. أشكرك ..

وانبطح الحديدي ببجامته على بلاط المطبخ ، وتناول يد فهمي يقبلها ، ويمسح بها دموعه السائلة التي لا تتوقف وهو يردد سامحني يا فهمي .. سامحوني يا ناس .. أنا غلطت وتعبت والألم فاض بي ... سامحني يا فهمي .

ولكن فهمي كان قد عاد ، بآخر وأقوى ما عنده ، يصرخ وآلامه قد اشتدت بغتة .. وكانت نوافذ البيت جميعها قد فتحت من زمن وسكانها يصيحون رغم أنوفه للآهات المستغيثة .. ويستجيرون من

الصوت الذي لا يرحم أبوابهم ونوافذهم مهما أغلقوا وأحكموا الإغلاق ، الصوت الذي أيقظ العمارة ببوابيها وبهواتها وسادتها وداداتها ، وبدأ يصل إلى العمارات المجاورة ويوقظ سكانها ، ولو استمرت الصرخات لربما كانت قد أيقظت الحي الراقي بأكمله ، ومن يدري ربما المدينة كلها كانت قد صحت ... ولكنهم كانوا قد طلبوا بوليس النجدة .. وحضر وفتحت له الزوجة نصف نائمة ، غير أنها أستيقظت تماماً حين قادتهم إلى المطبخ ، ووجدت الحديدي راكعاً على الأرض يقبل يد فهمي ويستغفره ..

ورفعوا فهمي ، وألبسوه ، وحاول جنديان حمله فيما بينهما ولكن الحديدي نهرهما ، وتقدم هو من فهمي وحمله على كتفه والمرض قد إلتهم لحمه ولم تبق له سوى العظام ، وتشبثت عفت بزوجها سائلة إياه عما يفعله بنفسه ، إلى أين ذاهب ؟ وابتسم لها ، وأضاء وجهه كما تتعود بالإبتسامة وقال : رايح في طريق تاني صعب شديد ... تيجي معايا ؟!

ــ أنا مارحش وياك بالشكل ده .. أنت اجننت ؟

وأحاطت فهمي الصغير بيديها بينما استدار الحديدي بحمله الصارخ المولول ، ومضى يتقدم الموكب ، ونظرات السكان وأهل الحي تتبعه وتحيط به تهمس وتسري بينها الهمسات الضاحكة .. لقد عاش في الحي سنتين مرعوباً أن يكتشف أحد أصله وفصله ، وتبدو للأعين النائمة شعرة واحدة تكشف عن الجذور والسيقان التي يمت إليها .. ولا ريب أن كثيرين من سكان الحي كانوا يفعلون مثله ، فها هو يرى النوافذ والمدخل حافلة بكثير من الجثث .. وهو الآن يستعجل اللحظات التي يغادر فيها الحي .. وقد أصبحت الرائحة لا تطاق .

اللعبة

دخل القادم الجديد مذهولاً ، كان المكان وكأنما تحس أنك سقطت إليه من عل أو وصلته عن طريق سرداب طويل مزعج ، ولكنه كان فاخراً بالغ الفخامة ، اللون الغالب فيه هو الأسود ، سواد .. كسواد الكاديلاك .. يوحي بالإناقة والعراقة ، وكان النور غير ثابت المصدر ، ومضطرب الإتجاه .. وتحس وكأنما توجهه يد خفية إلى الناحية أو الناس الذين ينظر إليهم فقط ، كان غموض مرح يسيطر على جو الحفل ، والحضور تدرك بطريقة ما أنهم كثيرون ولكن عدد من يقع بصرك عليهم قليلون تستطيع التفرس فيهم بسهولة .. ودخان السجائر والسيجارة يلون الجوع ببقع سماوية متحركة ويتشابك مع إشعاعات النور غير المرئي صانعاً سحباً كسحب الصيف ، بيضاء والحفل صاخب إلى حد ما ، ولكنه صخب وقور .. كأنه إحتفال بخطبة شاب من أعرق عائلات الصعيد .. أو بتكريم خاص لوزير مهم ، وعلى الوجوه نوع من الإستمتاع القلق الذي ينتاب هذا النوع من صفوة الناس كلما إتيحت لهم متعة ، مخافة أن يضيعوا فيها وقتاً من أوقات الكسب ، وخدم ، وكأنهم استحضروا خصيصاً للمناسبة بأكثر من زي ، لكونهم درجات ، والسيدات في فساتين السهرة .. ولكنها ليست جديدة تماماً

كأنما لم تستعمل من أعوام ، واستخرجت للمناسبة من الدواليب ، غالية ، تبدو عليها آثار العز ، بعضها مطرز بلآلىء وإن كانت صغيرة .. لكنها حقيقية .. والوجوه ، وجوه الرجال ، مكتنزة قليلاً ولكنها شاحبة ، كالمجهدة . والسيدات عيونهن .. رغم تعدد ألوانها تبدو كلها سوداء كلها سوداء عميقة الغور وكأن صاحباتها يعانين من جوع جنسي لا يدركنه ، والمقاعد قليلة متناثرة ، أقل بكثير من عدد الحاضرين ، ولكنها راسخة في أماكنها وكأنما مضت عليها أحقاب .. وقماشها من القطيفة الحمراء الغامقة التي تبدو حمرتها مع سواد البدل ورماديتها مع الفساتين الفاتحة ... والسقف الأخضر بإنعكاسات الضوء ، وسحابات الدخان المتعددة الدرجات ، والعبير الصادر عن (برفانات) حديثة وإن كانت تعطي رائحة كرائحة عطر الجدات العربي القديم ، والضجة المكتومة الصادرة عن لا مصدر والتي تتيح لكل إنسان أن يتحدث مع أي إنسان دون أن يثير الإنتباه أو يتسرب من حديثهما الكلام ، كل هذا جعل القادم الجديد يحملق ويتردد ويضطرب كثيراً قبل أن يستطيع أن يتبين أن يكون موقفه . كان واضحاً أنه لا يمت إلى المكان أو الحاضرين ، وكأنما دخله بطريق الخطأ ، ولكن من ملامحه وتصميمه كان يبدو أن له الحق في الحضور ، وأنه يملك ، ربما في جيبه هذا الحق .. وأنه على استعداد لأن يظهره ويتحدى به كل من يجرؤ على سؤاله أو التصدي له . ولم يكن أحد قد لاحظ دخوله ، أو اكترث مما أتحاح له أن يتدبر موقفه وأن يتأمل الجميع أو بدقة أكثر من استطاعت عيناه أن تقع عليها من الجميع ، تأملا كان يدفعه إلى مزيد من القلق .. وشيئاً فشيئاً يخلخل ثقته بنفسه . أين يقف ؟ تلك كانت مشكلة ، وهل يؤثر

الوحدة أم لابد له أن يشتبك مع الآخرين في حديث ؟ مشكلة ثانية .. ومع من يتحدث إذا أراد ؟ وفي أي موضوع ؟ وبأي حق ؟ مشكلة ثالثة ورابعة وخامسة ..

أم تراه قد أخطأ المكان وتكون الكارثة ؟ ..

ودهش فعلاً حين وجد ، دونا عن الحاضرين ، شخصاً يقترب منه .. كان جلياً أنه ليس من الخدم فلم يكن يرتدي مثلهم ، ولا من الحضور .. فهم منصرفون إلى أنفسهم متكبرون .. لا يمكن أن يفكر أي منهم في مبادأته بالحديث ، ولامر ما كان في مشية الرجل وطريقة اقترابه وابتسامته المتشح بها ما يذكر بالأدلاء الذي يتهافتون حول الفنادق لإرشاد السياح .. حتى سترته التي يرتديها بدت أكامها ومقدمتها كأنما أكام ومقدمة جلاليب الأدلاء البلدية .. وما أن اقترب من القادم بدرجة كافية حتى اكتشف أنه يحمل أمامه وكأنما بحزام صندوقاً كالصناديق التي يحملها باعة السجائر ولكنه أصغر كثيراً ولم يكن بحزام ، وأنيق جداً ، جدرانه وأركانه مطعمة ومشغولة بأسلاك معدينة ثمينة .. وحين وصله وسع ابتسامته بطريقة بدت وقحة الأدب وقال بصوت فيه بعض التحدي وبعض الإغراء :

ـــ تضرب يا بيه ؟

واضطرب القادم بإنفعال مفاجيء . كان قد بدأ يدرك أن الرجل يحمل لعبة من نوع ما ، وأنه ليس الوحيد فهناك أكثر من واحد غيره يطوف بأرجاء المكان ، بل هناك أكثر من لعبة يزاولها بعض الحاضرين في أطراف المكان الذي بدأ يصبح أكثر إتساعاً ، وكأنه ناد ، وكأن

الإحتفال مهرجان ما ، أو (تمبولا) والرجل لا يزال واقفاً أمامه يبتسم .. نفس الإبتسامة المؤدبة الوقاحة ، ويعرض عليه مرة أخرى بإغراء أكثر : تضرب يا بيه ؟

وحتى دون أن يسأل أظهر له يده اليمنى فإذا فيها مسدس من نوع غريب أسود لامع السواد بطريقة ملفتة للنظر ومحيرة ، جديد وكأنه لم يستعمل قط ، وحتى دون أن يشير أدرك القادم أن الصندوق الأنيق مليء بطلقات مرصوصة بنظام رائع ومقلوبة بحيث أن قواعدها إلى أعلى .. أما الشيء غير العادي فهو أنه في الصف الأخير الأيسر توجد رصاصة ليست مثل غيرها من الطلقات .. فقاعدتها ليست برونزية اللون وربما المادة كالأخريات .. ولكنها وكأنها مصنوعة من فضة مشعة أو برد من معدن ثمين بريقه يخطف البصر ، بحيث إذا نظرت إلى الرصاصات المقلوبة في الصندوق لا تستوقف هذه الطلقة بالذات إنتباهك فقط ، ولكنها تستولي عليك تماماً وتكاد تعجز أن تحول البصر عنها ، تضرب يا بيه ؟ مرة ثالثة قالها الرجل ، وبالضبط لم يستطع القادم أن يحدد إن كان حقيقة قد قالها في المرتين الآخيرتين أم أنه نفس النداء المغري يتردد صداه في عقله لثاني ولثالث مرة . بالكاد استطاع أن يسترد بصره المثبت على قاعدة الطلقة النادرة ليعود يعي بالرجل واللعبة . وحتى دون شرح فهم أن عليه أن يتناول من الصندوق طلقة ويضعها في المسدس ، ثم يذهب إلى مكان في الركن مخصص للإطلاق حيث يوجد هناك حاجز تماماً كما يوجد في لعبة التنشين بمدينة الملاهي ، كل الفرق أنه لا توجد عدة أهداف ، إنما هدف واحد ، لم يستطع من موقفه أن يتبينه فإذا أسقطه يفوز بالجائزة ، وأيضاً لم يكن يدري ما هي الجائزة ولكنه كان

متأكدا أنها أعظم جائزة نالها أو ممكن أن ينالها في حياته ، وبدأ كل شيء يسيراً ، والجائزة ، أعظم جائزة قاب قوسين أو أدنى .. وما عليه فقط إلا أن يستعمل هذه الطلقة المشعة المتلألئة ، حركة من يد الرجل أوقفته ، يده اليسرى الخالية من المسدس . أشار له بها مطالباً بثمن الاشتراك في اللعبة موضحاً بأصابعه القيمة ، وأخرج القادم من جيب بنطلونه جنيهين حسبما حدد ، وضعهما في يده .

وكان مفروضاً حينئذ أن يعطيه المسدس ويتناول الطلقة الفريدة ويعمر ، ويذهب إلى الركن ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فجأة بدأ كل شيء بعيد الوقوع ، المسدس في يد الرجل وفي متناول يده . والطلقة في مكانها من الصندوق تزغلل عينيه ، ولكن هناك مماطلة ومراوغة ، وربما من أجل ألا يستعمل هذه الطلقة بذاتها ، وربما للتسويف في التنفيذ .. ربما لأن هناك أشياء كثيرة لابد أن تستوفي والوقت يمتد دون أي داع للإمتداد ، والموقف لا يتحرك أو يتحرك منزلقاً متراجعاً .. وابتسامة الرجل تصبح أكثر وقاحة وأقل أدباً ، وقلة اكتراث الحاضرين وانصرافهم إلى أنفسهم تزداد بشكل يجعل من موقفهم ذاك عاملاً إيجابياً يتدخل ويساعد الرجل في مماطلته ، ويحول بينه وبين أن ينال حقه وقد دفع قيمة الاشتراك ، وغيظا فغيظاً بدأ يحس إحساساً يتعمق ويدك كالمسمار المدبب الطويل في نفسه ، أنه ضحية خداع لا يستطيع وضع يده عليه أو ضبطه ، وأنه مسلوب الحق ، وأن أحداً ، وبالذات هذا الرجل الواقف أمامه بدأ يتراجع منصرفاً ويحاول الإندساس بين الحضور ، يريد سلبه حقه والضحك عليه .. وكل من في المكان

وما في المكان يساعده . فالحضور بدأوا يتكاثرون ، والخدم اشتدت حركتهم ، والضجة علت قليلاً .. وثمة مؤامرة خفية تدور بين الجميع .. مؤامرة صامتة غامضة تلتف خيوطها خفية تحت ستار الضجة المكتومة وبين ثنايا السحب المدخنة المضيئة ، وحتى من بين أنسجة البدل الغامقة والفساتين الفاتحة والقطيفة الحمراء . وصرخ في الرجل مهدداً . وتوقع أن ينتاب الجميع نوبة ذهول لصراخه ، ولكن وكأنه لم يصدر صوتاً ما انتبه أحد .. وزعق مرة أخرى ولم يسمع سوى ما كان يسمعه من ضجة الحفل الصاخب المكتوم .. وأصبح الغيظ يخنقه وصغرت الدنيا في عينه وهانت ولم تعد قوة في الكون تستطيع أن تحول بينه وبين أن يأخذ ويضرب الطلقة ، تلك الطلقة بالذات ، وبيده اليمنى ودون وعي انقض على الرجل وأمسكه من مقدمة سترته ولم يأبه الرجل ولا الحاضرون لهذا العمل . وكان يخيل إليه أنه عمل يعد جريمة لا تغتفر في نظر المجتمع المحيط به ، وبيده ممسكة الرجل من تلابيبه حدق في وجهه ، كانت نفس الإبتسامة وقد أصبحت الوقاحة فيها هي الغالبة ، تطل من وجهه الأسمر المستطيل ، ويستطيل لها شاربه الأسود ، وتجعل أسنانة البيضاء الحادة تطل من فمه المنفرج .. وفي الحال ، وبيده الأخرى صفعه على وجهه صفعة قوية أعجب شيء أنه لم يصدر عنها صوت وكأنما هي صفعة معنوية وليست مادية حقيقية ضربها بنفسه وهوى بها بجماع يده على الصدغ المستطيل الأسمر . وانقلب الغيظ إلى غضب ، ولكنه غضب لم يصبه بالعمى ، كان يرى ، لم يفقد أبداً قدرته على الرؤية وأدرك أن الصفع لم يعد يجدي وأن الوقاحة المطلة من ابتسامة الرجل في حاجة إلى نوع من الضرب أكثر إهانة ، وبكل ما يملك من

قوة وبساقه اليمنى ركله في بطنه ، وكان متأكداً أنه هذه المرة سينفطر ألما ، فقد كان الضرب من القوة بحيث لو أصابت الحائط الجماد لتألم ، إذ هو نفسه ، الضارب ، قد شعر وكأن قدمه قد سحقت ودشدشت . وكان أمله أن ينظر إلى الرجل بعدها فيجده يتألم ، يكفيه .. حتى استرداداً لكل حقه أن يراه ولو لومضة خاطفة يتألم .. ولكن وجه .. وجه الرجل .. حين رآه كان لا يزال يبتسم . كل ما في الأمر أن الأدب ذهب تماماً من ابتسامته ولم تعد هناك سوى الوقاحة ، وقاحة مستهزئة مستصغرة وكأنه ينظر إلى طفل .. وكاد يجن ، فهو مدرك أن الرجل حي من دم ولحم وأعصاب وأنه حتماً قد تألم ، فكيف استطاع أن يكبت هذا الألم كله وألا يبدو على وجهه خلجة واحدة أو لمحة إهتزاز تدل على معاناة ، أو تدل على تغيير ولو طفيف في تعبيره المبتسم الوقح ، وإنهال عليه ضرباً .. وقد انقلب الغضب إلى حنق مجنون لم يعد يرى معه كيف ولا أين يضرب . ولكنه كان على يقين تام أنه بجماع قوته وإرادته يضرب وباستماتة يفعل ، وأنه يضرب هذا الرجل بالذات ولا يريد ولا يمكن أن يتوقف عن ضربه حتى لو أراد ، فمن هناك من أغوار سحيقة جداً في كيانه كانت تتدفق حمم من الحق المغلي الملتهب وتنفجر معبرة عن نفسها المخيفة من خلال أيديه وأرجله وأسنانه .. فبأسنانه كان يعض وكأنه انقلب إلى وحش ، وبكعب حذائه يدك وبقبضتيه يضمهما معا ويرفعهما عالياً ويهوي بهما دفعة واحدة كالمعول الهائل محطماً ومدمراً ، وكلما أحس بالوهن يزحف إلى إرادة الضرب فيه كان يكفي أن يتذكر أنه خدع وضحك عليه ومنع

منعاً من مزاولة حقه لتعود إليه كل قواه وبكل قواه يعود يحقد ويضرب ويضرب .

وحين تعب تماماً و لم يعد يقوى على مجرد رفع اليد أو تحريك القدم ، حين أحس أنه كله قد تداعى وتهدم ، وكأنه المضروب ، وأنه بالكاد يلتقط النفس ، أنه يلهث ، بل لم يعد يقوي على أن يلهث .. بحيث بإرادته لم يعد يتنفس وإنما صدره بآخر قوي الحياة فيه ، ومن تلقاء نفسه وبغريزة المحافظة على الذات كصدر فقط يشهق كف ، وسكت ، سكن سكوناً تماماً وكأنه في طريقه لاستقبال الموت . وأول بوادر قدرة على الحركة إرتدت إليه فتح بها عينه . والمذهل أن الرجل كان لا يزال هناك واقفاً في تراخ وهدوء أمامه والصندوق يحمله والمسدس نصف مختف في يده ، والطلقة ذات القاعدة النادرة المعدن الخاطفة للبصر لا تزال في مكانها من صفوف الطلقات ، وابتسامته هذه المرة وقد عاد الأدب يختلط بالوقاحة فيها تحتل مكانها من وجهه ، وأيضاً لا يزال موقف الدليل العارض لخدماته ، وصاحب اللعبة الذي يروج لها ويغري الآخرين باللعب ، و لم يعد أمام القادم وقد استنفد كل وسائل القوة إلا أن يلجأ إلى التأنيب واللوم وأودع نظره كل ما يريد وإذا بالرجل يجيب وكأنه يقول : « أنا مش قلت لك عايز يا بيه تضرب ؟ » ..

وأجال القادم رأسه بضعف في الحاضرين ، وكأنما أدرك متأخراً جداً أنهم جزء من اللعبة بينما الرجل يقول : وآدي أنت ضربتني ، أجل حقيقة كان يريد أن يضرب ، ولكنه كان يريد أن يضرب الطلقة لا أن يضرب الرجل .

ـــ ما هي دي اللعبة ..

قالها الرجل وقد إزداد الوقح في ابتسامته ..

أيضحك ؟

لأن القيامة لا تقوم

إنه يريد مرة أخرى أن يسمع ، ويرهف السمع ، فما يدور مهم ، أهم شيء في حياته يدور ، وراديو الجيران .. الحائط في الحائط ، صوته عال كأنه يؤذن ، ومن بعيد يأتي صراخ الأطفال الذين لا يزالون يقظى . الدبة وقعت في البير وصاحبها راجل خنزير . هل وقعت حقيقة ؟ وهل هي مستكنة الآن في البئر ؟ وهل صاحبها خنزير سمين ملظلظ كأبي السباع إسماعيل ؟ أنه يريد أن يسمع ويرهف السمع ، فهي ، أمامه ترقد الآن فوقه تماماً ، أو لابد كذلك ، فالمرتبة تنبعج من بين الواح (المُلة) الخشبية ، ولكن إبعاجها شديد ، وأمه خفيفة .. فلماذا الإنبعاج الشديد .. كان هذا زمان ، حين لم يكن يسمع سوى الهمس ، العشاء .. وابتسامتها السعيدة تغرقهم والطبطبة الحنون ، ثم صوتها المتثائب قوموا يا أولاد ناموا .. الدنيا اتأخرت ، وكالدجاج المطيع ، تدخلهم . ترفع داير السرير الأبيض وتدخلهم تحته ، فالبيت حجرة واحدة ، ومكانه المفضل بجوار الحائط في الصيف ، فالحائط بارد يلصق نفسه ويلمس عليه بساقه العارية فيستمتع وكأنه يجرش قطعة ثلج ، ويمضي الصيف ويأتي الشتاء ، ويغير مكانه إلى الحافة ، وطوال العام هناك البقرة التي لم يسمعها بوضوح أبداً . لأنه حين يصحو على وقعها

الخافت ، تكون قد لفت ، وتكون القهوة قد شطبت ونورها الكهربائي الوهاج قد أنطفأ وأظلم الشارع تماماً ، والباب يزيق قليلاً كلما فتح ، وحين يفتح يسمع الهمس ، الهمس والظلام ، لا شيء سوى الظلام التام ، ونقر كنقط الماء المتساقط من السقف بعد إنتهاء المطر ، همس . همسة أو همستان كحفيف قميص نومها أو لعله حفيف القميص يبدو كالهمس ثم يسود السكون ... وتصعد أمه فوق الفراش ، فهي وحدها تنام فوق السرير ، والسرير واسع يكفيهم جميعاً ، ولكنها تصر ، من زمن من أيام أبيه حتى ، أن يناموا جميعاً أسفل السرير ، حتى حين كبروا وبدءوا التململ والشكوى وقال أن رءوسهم تخبط في (المُلة) رفعت أرجل السرير فوق قواعد وأحضرت نجاراً خصيصاً ليطيل من قوائم المُلة حتى ليصبح ما تحت السرير وكأنه حجرة ضيقة حقيقية يلذ له فيها وهو الطفل ، والأطفال مغرمون بالعشش والمخابىء وأمكنة الإستخفاء ، اللعب والرقاد وكثيراً ما شكلها بخياله وتصورها خيمة أعرابي في الصحراء ، أو خندقاً في باطن الأرض أو مقام شيخ من أصحاب الكرامات .. وبرغم هذا كله كان دائماً ينقصه شيء ، فكم من مرة اشتاقت نفسه أن ينام في حضنها ، وأن تضمه مثلما كانت تفعل وأن تسمح له مرة أن ينام معها هناك حيث المرتبة اللينة والملاءة النظيفة .. وفي الليل في عز الليل كان أحياناً يدعى المرض . وبصوت مسموع يتأوه ، ولا من أحد يسمع فإذا سمعت أو ضاقت بآهاته سألته بصوت غير عال ولكنه مملوء بالوعيد والتأنيب .. مالك يا براهيم ، فلا يجرؤ حتى على أن يواصل الإدعاء ، ويخرس تماماً وكأنما تأوهه كان مجرد التماس على استعداد لسحبه فوراً واستنكاره لحظة أن يلمح أن التماسه لم يلق

الترحيب . الظلام والحفيف والهمس ، ثم الأرق الذي ينتاب أمه على أثرها ، وكأنما سببه هذا النفس الغريب الذي يحس به قد ملأ الحجرة من لحظة أن فتح الباب ، أرق لا تستقر معه قرار فتظل تتقلب وتتحول ، حتى أن لوحاً من (المُلة) سقط على ساق أخته ياسمين ذات ليلة وجرحها وصرخت ، وصرخ هو الآخر ، وحين لم تستجب أمه في الحال أصيب بالذعر فظل يصرخ إلى أن نام مضروباً . لابد أنه لم يكن أرقاً ، لابد أنه كان شيئاً آخر ، منذ متى بدأ يعي هذا الشيء الآخر ، بالتأكيد ليست الليلة هي المرة الأولى ، أول مرة وعى كانت ليلة العيد ، كانت قد أخرجتهم من الحجرة لتستحم وحين دخلوا عليها بعد هذا ، وشعرها مبتل وهي تنفضه لتجففه ، وقميصها النظيف مفتوح .. وصدرها ــ لأول مرة في حياته يدرك أن لأمه صدراً . فلقد رآه ورأى نظرتها وأحس في التو وكان شيئاً في نظرتها يحف به نفس الحفيف المريب ، وكأنما الدنيا تظلم والهمس يعود صادراً من عينيها ملحاً ومشيراً إلى صدرها . ووجد نفسه لا يجرؤ على الإستمرار وانطلق يجري إلى الخارج والأولاد حيث الدبة التي وقعت في البير ، ولعب ولعب ولعب حتى امتلأت عيونه بالتراب وامتلأ رأسه بالتعب وداخ وعاد .. ودق الباب ودق ولم يفتح له أحد .. وجاء الصوت . صوت أمه ، المليء بالوعيد ، مادام أتأخرت ، نام على العتبة .. نام على العتبة فعلاً وكأنه ينتظر الأمر بفارغ الصبر ، ولكنه حين استيقظ في الصباح وجه نفسه مكانه تحت السرير ، وكانت هي .. أمه إلى جواره .. وحين رأته يستيقظ احتضنته وقبلته وقالت له كل سنة وأنت طيب يا براهيم . واستكان لحظتها وهو أسعد أهل الدنيا ، كل ما كان يضايقه هو رائحة

صابون الاستحمام التي كان يشمها ، صادرة عنها مقترنة لا يدري لم بإحساس مخجل محرم ، وكاد أن يبدأ يتقلب في حضنها ويتدلل عليها ، ويمسك يدها ويلفها حول رقبته ثم يلعب في أصابعها السمراء من الخارج القمحية من الداخل ، ويقبل كفها ثم يقبل كل أصبع من أصابعها على حدة ، من عمر طويل لم يفعل هذا ، فمن عمر طويل لم ينم بجوارها ، ولكنه ما أن بدأ يتمرغ في حضنها حتى أحس بصدرها يضغط بشدة على ظهره ، ليس ضغطاً شديداً وإنما ضغط الكتلة من اللحم الحي . وصدرها الحي مع رائحة الصابون وعرقها الخاص والهمس في الظلام ، وجد نفسه يغتاظ إلى درجة البكاء وتسقط دموعه في صمت على يدها الملتفة حوله فتسحبها كالملسوعة وحين تدرك أنه حقيقة يبكي تضمه إلى صدرها بشدة أكثر . وكلما اشتدت في ضمها وضغطها أحس أنه يريد أن يتخلص منها ويجري هارباً إلى الأولاد والدبة وصاحبها الخنزير .. ولكنه حين يدرك أن الليل ذهب ، وأن هناك صباحاً واليوم يوم العيد ، حيث يعيد كل الأولاد ، ويأخذون العيدية ويفرحون ، بكى ولم يسكت إلا أثر هزة شديدة وصرخة منها : مالك يا وله ؟ ماله ، حقيقة ماله ، ماذا حدث ؟ لا شيء حديث ، لا شيء يبكيه ، فلماذا هو حزين ؟ لماذا هو حزين ؟ أمن جلسة أبي السباع إسماعيل التي أصبحت تطول ، والقرش الذي يعطيه إياه كل مرة ويرسله ليشتري لنفسه كراملة حتى لو لم يكن يريد يصر على إرساله ، وهو خائف أن يخرج ويترك أمه بمفردها معه ، فإذا تلكأ ، جاءه الصوت الآمر منها : اسمع كلام عمك إسماعيل يا برهيم .. وينظر برهم في عينيه وكأنما ليطمئن قبل مغادرة الحجرة ، ولا يستطيع أن ينظر فيهما أكثر من ومضة ، لا لخوفه

منه ومن جسده الهائل الضخم ويده السميكة في سمك مخدة أخيه الصغير ، فقد كان يكرهه ، ولكن لأن في عينيه نفسها شيئاً متحركاً غير ثابت ، نظرة خائنة لا تستقر .. تختلط الخيانة فيها بالسخرية ، سخرية جافة خشنة كظهر الليفة ، يقشعر لها جسده ، وتدميه .. سخرية بلا خفة دم ، سخرية السمين التخين الذي يتجشأ عقب كل مرة يناوله فيها كوب الماء ليشرب ، ثم يكمل الحديث بصوته الخشن الرنان ، وآه لو مال على أذن أمه وهمس . همس متحشرج .. كهمس الزوران يحس برهم أنه يخرج من فمه وينتشر كالدخان القابض الخفي من حجرتهم وفي حياتهم يملؤها بأثر جارح غير مريح باعث على الخجل ، ولماذا عمه أبو السباع إسماعيل بالذات ، ألأنه يزورهم .. هناك عشرات الرجال يأتون وعشرات يسلمون على أمه ويحيونها ويهمسون لها وأحياناً يعطيه أحدهم قرشاً ، إنما لماذا هذا الرجل بالذات ؟ وأمه تضحك مع الكل وتجالس الكل .. فقط مع أبي السباع إسماعيل يحس كأن التيار الخفي الذي يربطه بها باستمرار حتى لو غابت أو سافرت أو نامت فإتصاله بها دائماً قائم وموجود ، حين تجلس أو تحدث أبا السباع . يحس فجأة وكأن التيار قد انقطع ولم تعد تشعر به ، ولكن شعوره هو بها يزداد إلى حد الجنون .. إلى حد أنه يمنع نفسه منعاً من أن يمسك بعصا أبيه ويدفعها لتستقر في عينيها أو فجأة يخلع كل ملابسه ويقف أمامها عارياً تماماً لتدرك أنه موجود ، والحياة كانت سهلة وعذبة ولذيذة يحب كل ما فيها ، يحب إجتماعهم حول الطعام بعد الجوع الشديد حيث يجلس فرحاً بالطعام وباجتماعهم هو وأمه وأخته وأخيه الصغير ذي الأربعة أعوام الذي لا يزال يتهته ليخرج الكلام ،

وتعلق أمه بهم جميعاً وبه على وجه خاص .. والشاي بالحليب في الصباح ، وفسحة الخص والعصاري مع الترمس على البحر ، والجلسة على الحشيش في قلب المنتزه .. ما أجملها حتى لو جاءت سيرة أبيه .. حين يتولى أمه وجوم يخاف معه أن تبكي .. ويتبارى الحاضرون في تعداد صفاته .. حتى لكأنهم يتحدثون عن شيخ من أولياء الله .. وفي الحديث عن قوته ، وكأنه كان عنتر بن شداد ..

أجل .. شيئاً فشيئاً بدأت الكلمة التي كان يأخذها على غير محمل محدد يتكون لها في ذهنه معنى ، مات ، أغلق عينيه إلى الأبد ، وأصفر وجهه وبرد .. ولفوه في كفن .. ودفنوه .. لقد رأى هذا كله ولكن لم يبدأ يفهم معناه .. مثله مثل الهمس في الظلام والحفيف ، وقولهم البركة في برهم ، إلا هناك حيث وقعت الدبة في البير ، أشياء كانت مغطاة بطريقة لا يفهم لها معنى ، ثم بدأ يسقط عنها الغطاء ويصبح لها إن لم يكن معنى واضح فلا أقل من شيء خفي عميق مظلم كفوهة البئر الذي سقطت فيه دبة ذلك الخنزير .. حتى غناء الأولاد والبنات كان في تلك الليلة بلا معنى ، هكذا أحس ، رغم ما كانوا هم فيه من متعة كبيرة ، كان هو وحده يحس أن الأغنية بل حتى اللعب كله أصبح بلا معنى ، شده صاحب ورشة الدوكو الذي يعمل عنده من أذنه ولعن أباه :

ـــ ياد أنت كبرت وبلغت ومابقيتش عيل .. مانتاش عاجبني كده طول النهار موطي لي في الأرض كدة ، إيه اللي كاسر عينك ياد .. أوع يكون تشومبة بيعلم عليك ..

وفهم جيداً ما يريد أن يقوله الأسطى .. وأحس بلسعة نار تكويه وتجنه .

ــ ما تقولشي كدة تاني يا اسطى ..

لم يدر كيف جرؤ وقالها ..

وصحيح أن وجهه قد تورم من الضرب بعدها باعتبار أنه رد على الأسطى الكبير وتلك جريمة لا تغتفر .. إلا أنه فوجىء بنفس الأسطى بعدما شبع من صفعه وركله يقول لأصحابه الذي يشربون الشيشة :

ــ إنما إيه رأيكم عجبني .. رد على صحيح إنما عجبني .. والنبي الواد ده حـ يطلع أجدع من تشومبة ..

وتشومبة المأخوذ من تشومبي هو الصبي الأول للأسطى ومساعده ، أكبر من إبراهيم في السن وأغمق في السمرة .. أكرت الشعر فرطح الأنف غليظ الصوت على عكس أخيه (لممبا) .. فتشومبة لا هم له طوال اليوم إلا تعذيبه وصفعه وقوله .

ــ إبقى سلم على أملك ياد ..

أول مرة قالها ، صفعه ، فضربه تشومبة علقة لا ينساها ، إن أول عمل بالتأكيد سيفعله حين يكبر أن يقتل تشومبة .. ويقتل أول دبة يلقاها . والدبة بدت سخيفة جداً وهو يرددها مع الأولاد .. ولم يعد في ترديدها ما يثير ، وأصبح إنحناؤه ليدخل تحت السرير أشد .. وكالكبار لم يعد ينام لحظة أن يضع رأسه على المخدة الطويلة التي بططت

وجفت حتى أصبحت كالوح الخشب .. والهمس أصبح يفرقه عن الحفيف .. والدق لم يعد يستيقظ عليه . إنما قبله ، من الأقدام الثقيلة وهي تزحف في الطرق المظلمة كان يتنبه ويعرف أن القوة أغلقت وإنها أقدام إسماعيل أبو السباع .. ولم يكن وحده الذي يتنبه ، فالسرير يزيق ، وتنسل ساقا أمه وتشخشخ غوايشها ، ثم الحفيف ، وفتحة الباب والهمسة الناعمة الصادرة عنها : مساء الخير . حتى هي التي تبدأ بالتحية ، والحشرجة التي مهما بولغ في جعلها همسة تظل دائماً حشرجة بغير معنى ، ثم ، ثم تلتهب عيناه ، وكأنما تضيئان بعد هذا كل شيء مظلم في الحجرة ، حتى وجهه الأسمر الذي تفردت ملامحه وتضخمت ، يضيء ، كل شيء يبدو واضحاً من نور النهار ، حتى قدماها العاريتان يراهما ويرى أصابع أحداهما وهي تنكمش وتتفرطح تحت ثقلها وهي تصعد ثم تنسحب إلى فوق ، تاركة إياه يحيطه من كل جانب (داير) السرير ، كأنما ليطل عليه في عالمه الصغير ويسخر منه .. وياسمين نائمة متقوقعة على نفسها ، في بله (تريل) ، وأخوه الصغير ممدد بالعرض عند أقدامها يتنفس بصوت مسموع وكأنه رجل يغط .. هم في البير والملائكة في السماء .. والسماء سقفها من خشب ، تطل منه مرتبة تنبعج ، ما تحت السرير يغوص .. كل دقيقة يغوص ، والسماء الشخبية مهددة بالسقوط وقيام القيامة والجنة والنار ، ورأسه يوم القيامة منكس .. وحين يأتي تشومبة لصفعه على قفاه سيرعد الصوت العالي المدوي صوت الله : ارفع إيدك ، وتنشل اليد ، أليس باستطاعة القيامة أن تقوم الآن ؟ ويرعد ذلك الصوت المدوي : إرفع إيدك .. فيصاب الخنزير بالشلل ، وينحشر صوت أمه في صدرها إلى الأبد ، ويكف تماماً

عن أن يتحول همس ، إلى ذلك الهمس الذي كان يحس أنها به تصبح غريبة عليه تماماً ، إمرأة أخرى ، ملامحها مختلفة ، لا يعرفها ولم يرها في حياته .. إمرأة يخجل منها ، وكلما رأى همسها يخرج مريباً منخفضاً شعر وكأنها تخرج من جسدها سراً دفيناً كان خافياً عليه . سراً كالعورة لابد له من غطاء ، وكلما خفضته كان يتعرى أكثر حتى لا يكفي كل ما لديهم من أغطيه وبطاطين لستر همسها .. اسمع .. أهذا صوت المرأة التي ولدته ، أمه بالضبط إنه يتذكر ، أجل .. كيف فاته أن يتذكر هذا أيام كان في سن ياسمين وربما أصغر ، وصحا وفتح فمه يريد أن يصرخ ولكنه سمع كلاماً أسكته .. فقد ميز صوت أبيه في الحال .. وكان أبوه يهمس . كان مع أمه فوق السماء الخشبية ، وانتهى همسهما إلى ضحك ، ضحك طويل لا ينتهي ، دفعه لأن يبتسم وقد بدأ يحس أنه سعيد لمجرد إحساسه أن أبويه يضحكان . نسى تماماً أن البول يؤلمه وأنه من لحظات كان يريد أن يصرخ .. ودوت خبطة أعقبها عراك ضاحك فوق السرير . إهتز بعنف له .. صرخة مكتومة ، ثم عود إلى عراك انتظر له نهاية بلا جدوى .. واستغرب أن يكون أبوه المهاب المقدس الذي يحبه إلى حد لا يستطيع معه مفارقته ، طرفاً في اللعبة ، ولأمر ما استشاط غضباً حين أحس أن الطرف الآخر أمه ، وفتح فمه يريد البكاء غير أن البكاء بدا له سخيفاً .. ليس فيه ذرة رغبة واحدة ، فرغم استنكاره كان إحساسه الأكبر الطاغي أنه في أمان حنون حبيب .. وأنه معهما ، وكأنه الطرف الثالث في اللعبة ، كل الناقص أن يشعرهما بوجوده ، وبكى ليشعرهما ، ولدهشته تصاعدت الضحكات من فوق لبكائه ، من أمه وأبيه معاً ، ضحكات لا رهبة فيها ولا قداسة ، جعلته يستمر في البكاء

بدافع العناد وحده ، ولكنه حين وجد الضحك مستمراً وجد نفسه هو الاضخر يبدأ فجأة يضحك ، فإذا بالضحك الأعلى يتحول إلى قهقهات .. إهتز لها السرير بشدة .. نفس السرير الذي ترقد عليه أمه الاضن ضعيفة .. مختلفة تماماً عن قوتها الصارمة في النهار وملامحها الجادة ، وحديثها المملوء بالوعيد .. ضعيفة تتألم .. وتتألم في ضعف مقيت وكأنها بتألمها تطلب مزيداً من الضعف وتغري الخنزير بمزيد من الوحشية إذ كان قد تحول إلى وحش ، وحشرجة همساته أصبحت خوراً عميقاً كخوار ثور مذبوح ، أنه لم يعد صغيراً . فهو يعرف . لا يعرف بالضبط فهو ليس كبيراً تماماً ، ولكن هناك أشياء غريبة لا يستطيع حتى لو أراد أن يتصورها تدور فوق رأسه في السماء عند فوهة البئر . إن باستطاعته أن يصنعهما معاً ويخرج بصورة كاملة ، ولكنه يبقيها لإرادته ، منفردة مجرد أصوات لا رابط بينها . مجرد ضعف ووحشية ... وهمس من ناحية وتهديد بسقوط (المُلة) من ناحية أخرى ومع هذا تفور دماؤه ، مثلما كل مرة تفور .. والعرق الغزير يكسوه وكأنما حتى لو أردنا لا نستطيع أن نوقف أجزاء في عقولنا عن أن تعمل وتربط وتعي ، ورعب شديد وكأنما من فوقه شيطانان يجهران بالعصيان ويفعلان هذا في المساء أمام كل الناس ودون إكتراث لأحد ، دون خوف ، خواره كخوار واحد من أكلة لحوم البشر ، ولو نطق لنهش لحمه قبل عظامه ، أمه نمرة على فمها دم انتهت لتوها من التهام أخيه الصغير وتتنمر في طلب المزيد .. والتوحش مجنون مكشوف حاد الأنياب كعراك الكلاب المسعورة ، وثقلهما شديد ، و (المُلة) تغوص تحت الثقل وتجثم فوق صدره ، وهما عليها وكذلك الأرض والسماء .. وكل أثقال الدنيا ،

وجميعها تدكه ، في ضغطات بطيئة ، تدفع ببطء وتهوي ببطء تدركه وتمنعه أن يتنفس .. أنه لا يستطيع الاحتمال ، أنه سيموت لا من الضغط وإنما من الجنون .. إن مخه يتكهرب ويسخن ويبرد ويطلق شرارات .. والرعب من الفجر يشل صوته عن أن يصرخ ، ويمسك بزمام عقله عن أن يفقد السيطرة ، ونفض هذا كله عن نفسه وينفجر غاضباً صارخاً .. وينقض عليهما بالحذاء البني القديم يمزقهما .. أو بيد (الهون) يدشدش رأسيهما .. ولكنه يدرك ، ومهما بلغت درجات إنفعاله .. أنه غير قادر على الإتيان بشيء من هذا ، كبرت وبلغت يا برهم حتى أصبحت كالدبة ، وأذنك تسمع ، وعيناك كالأسياخ المحمية تخترق (الملة) وتكاد ترى ما فوقها . وأنت صغير لم تكن تعرف ، كنت فقط ترى ، الآن ترى وتعرف .. لو فقط أمكن إلغاء كل ما فات والبداية من جديد ، من الليلة مثلاً ، أو من الغد وكأنه ما سمع قبلاً أو رأى ، وكأنه أول مرة يعرف ويفاجأ بالمعرفة ليستطيع أن يتصرف بمثل ما تمليه عليه المفاجأة .. ولكن العجز الذي يصيبه يعرف سببه .. العجز سببه أنها ليست المرة الأولى .. وقبل أن تكون الأولى كان هناك إحساس . كان غموض وكان تدريج ، الهمس يتحول بعد حين في وعيه إلى كلام مفهوم ، والكلام إلى أصوات ، والأصوات يميزها ويعرف صوتها من صوته ، ومع كل (حيل) طلوع يطلع له في فخذه ، كان يكتشف شيئاً فشيئاً ، ذاك الغموض .. وببطء شديد لا مجال معه للثورة ، ولا فرصة للمواجهة ، بحيث حين (عرف) و (وعى) لم يعرف أو يع بشيء جديد .. وإنما جاء كالخبر القديم بلا حرارة ، كالشبح البعيد الذي خمنت من زمن قبل أن تقف وجهك في وجهه .. من يكون .

حتى اشعارهما بوجوده ما كان يجرؤ عليه ، فقد كان يشعر أباه وأمه لأنه كان مطمئناً آمناً ، أما هذان فمن يكونان غير غريبين عليه تماماً ، الرجل خنزير والمرأة دبة .. وهما على سطح الدنيا في السماء ، وهو وأخوته مثلهم مثل أبيه يضمهم هذا القبر ذو الداير الأبيض .. أيبكي ؟ ويصيح حتى في نظر نفسه وكأنه (ملعبة) تشومبة كما يقول الأسطى ؟ أيصرخ ويلم الناس .. بإستطاعته أن يفعل باستطاعته أن يقتلها حتى بعد ما يذهب الرجل الغريب .. ولكن المشكلة أنه بهذه الفعلة سيفقد ذلك الخيط الواهي . الذي أصبح يربطه بأمه .. فرغم كل شيء لا تزال أمه .. ولا يزال حياً لأن له أماً .. ولا يستطيع أن يتصور الحياة بغيرها .. بله أن يتصور أنه هو الذي قتلها وأفقدها الحياة .. هو حي لأن له أماً ، ولأنها هذه الأم بالذات ذلك الشيء الموجود رغم وهنه لو فقده لفقد الحياة .. فهي الآن وهي مع الرجل الغريب مقطوعة الصلة به ، يحس إحساساً عميقاً شاملاً أنه ضائع إلى حد الموت ، لا أحد في الدنيا يخصه ولا يخص هو أحداً ، ما يبقيه حياً هو أمله ، مجرد أمله ، أن تنتهي تلك اللحظة العارضة ليعود يربطه بها ذلك الخيط الواهي ، ولو صرخ ، لو عرفت أنه عرف لنبذته إلى الأبد ، وكف التيار النابع منها ليحييه عن السريان ، وانتهت أمه تماماً ، ولم يعد فيها غير المرأة الأخرى التي ترتدي الفستان الأسود فوق القميص الحريري الشفاف والتي تشقى طول اليوم كي تجلب من عملها كدلالة وسمسارة ، وأشياء أخرى كثيرة . الطعام .. بل إنه ما كان يفرح بالطعام لأنه طعام ولكن لأنها هي جالبته .. هي التي تعبت وأحضرته ، وتعبها هذا في إحضاره لابد سببه أنها لا تزال تحبهم وتحبه .. الطعام رمز الحب هو ما كان يفرحه . وأن

تموت .. أن تنفضح . أن يواجهها لمات قبل أن يحدث هذا فحاجته إليها أقوى ألف مرة من حاجتها إليهم ، بل هو لا يعتقد منذ أن دخل هذا الرجل الغريب حياتهم أنها أصبحت بالمرة في حاجة إليهم .. حياته وحياتهم لا تزال معلقة بأمومتها لا تنفصل ، لهذا لابد أن تظل تعيش وتظل حية ، ويظل ساكناً ، وتظل ، لتظل حية في السماء .. أو فوق الفراش . لتظل تقابل عشرات الرجال وتشتغل معهم بأكل العيش وتعولهم وتحدثه بصوت ملىء حتى بالوعيد .. لتظل تختار من بين الرجال ذلك الرجل الغريب لتقول له . وهي التي تبدؤه بصوت هامس مبحوح : مساء الخير ، وليسمع هو ، وليكن عليه أن يقضي جزءاً كبيراً من الليل يسمع ، والأصوات تأتيه من فوق سمائه الخشبية ، ليس فيها ضحك أو سعادة ، وإنما فيها ضعف ، حتى لو أدى إلى رغبة في الضعف أكثر فهو حزين ، وليس فيها صوت أبيه القريب الحنون وإنما لهاث خنزير ، وفحيح دبة سقطت في البئر الذي كان يخصه وحده وخلق له وضحك ذات يوم حين احتله أبوه ، حضن عن عمد تفتحه وبإرادة منها تضم به ذلك الرجل المكتنز وبلقائهما الشيطاني المتوحش يغوص كونه الصغير تحت السرير ويغوص ، وهو قد كبر ، ومن صغره وهو يسمع ... الآن أصبح يسمع ويجن ، وبحكمة كبيرة يصنع في النهاية كما تعود أن يصنع ، ويسكت .. ومع هذا لا تريد القيامة أن تقوم .. ليعلو ذلك الصوت الراعد : ارفع إيدك . فيصاب الخنزير الغريب بالشلل ، وتموت المرأة المبحوحة الهمس .. وتعود له الأم . صرخة تتصاعد من تحت سماء خشبية محدودة إلى المدينة النائمة والأرض الكبيرة والكون والسماء

التي لا نهاية لها .. ولأن القيامة لا تقوم فهو يستيقظ كل صباح وقد أصيب بخيبة الأمل .. وكل يوم يرمقها في خروجه ويحس أن الخيط يدق . والأم تنكمش وسنوات قد مضت على موت أبيه .. والمرأة ذات الهمس تطغى فيذهب إلى الورشة منكس الرأس ليرتفع كف تشومبة ويهوي بها على قفاه . قفا صبي صغير أسمر ، قائلاً :

ــ والله كبرت وبغلت وبقيت زي الدبة .. والدبة وقعت في البير ..

مارس ١٩٦٥

الأورطـي

المهم ليس أنه جـرياً ، المهـم أنه كان في أكثر من اتجاه . يكاد يكون في كل اتجاه . لكأنه يوم الجري الأكبر . نوع غريب خاص من الجري فهو ليس جـري الخائف أو المستعجل أو من يسرع لإنقاذ جـري تائه وكان صـحابه يجري ويسرع ليبحث عن بقعة يبدأ منها الجري والاسراع ولهذا فلا أحد يعرف هدف الآخر أو غايته ، إنما الكل في حـالة ترقب خائف أن يعثر أيهم على بدايته التي ربما حـددت لهم البداية ، ولهذا أيضاً كنت ترى الشخص يجري كالمجنون ، وكالمجنون أيضاً يحاول عبثاً أن يراقب خطو الآخرين وجريهم . بحيث ما أن يبدو أنه قارب العثور على غايته حـتى يندفع العشرات إلى حـيث يكون على أمل أن يصل الواحد منهم أولاً .. ليكون أول من ينطلق حـتى يتحدد الهدف ، وحين يصابون بخيبة الأمل ويجدون أن الذي أسرعوا إليه أكثر منهم حيرة يندفعون إلى متلكيء أو مسرع آخر ، علمية كانت البقعة فيها تبدو إذا نظرت إليها من عل أو من بعيد وكأنما تنبض ، نبضات تجمع مفاجيء يعقبه التفرق ، نبض يحدث في أكثر من مكان في نفس الوقت حتى ليبدو الميدان وكأنما فرش بقشرة لولا تلك النبضات العشوائية الحادثة هنا وهناك والدالة وحدها على الحياة لظنتها قشرة صـخر أو لظننت الآدميين المتجمعين كتل ركام مختلف الألوان .

ولا أحد يعرف ان كان هناك ضرب أم لا ، أنا شخصياً أصبت بأكثر من ضربة ، ضربة قاصمة موجعة ، وكان من المستحيل تحديد الضارب ، فأنت بلا جار دائم .. والحركة الدائبة الجارية لا تتيح لك حتى مجرد التطلع إلى العشرات والمئات الذين تمر بهم أو يمرون بك إنما بالتأكيد كان هناك ضرب ، وكانت هناك اصطدامات ، لا وقت حتى للاعتذار عنها ، وكان أناس يسقطون ، فجأة تتصاعد صرخة يعقبها أنين ، يظل يخفت كرنين الجرس المعلق حتى تمحوه صرخة أخرى ، ولا أحد يتوقف ليرى النهاية مادمت لست أنا الصارخ ولاأزال قوياً سليماً لم أسقط بعد ، فما معنى الوقوف ، وشيئاً فشيئاً بدأت أدرك أن الحركة كلها ليست تلقائية وأن هناك حركة أخرى خفية من الصعب شبه المستحيل إدراكها ، حركة طاردة إلى الخارج ، وكان الميدان يتمدد وينفجر إنفجاراً بطيئاً خفياً منتظماً طارداً الوسطانيين ليصبحوا أقرب إلى المحيط وإلى الخارج وإلى الشوارع الكثيرة الصابة في الميدان والآخذة منه ، حركة لولاها ما كان باستطاعة قوة في الوجود أن تنتشلني من حيث كنت إلى حيث وجدت مجموعة من الناس كنت أجدها تجري بلا سبب آخر سوى الاستمرار اللاإرادي لما كنا نفعله في الميدان الكبير ، استمرار لا نستطيع حتى لو أردنا إيقافه . وما خفي كان أعظم ومن أين لي أن أدرك اني في اللحظة التالية سألتفت إلى جاري ، أول جار أستطيع أن ألمحه وأحدق في ملامحه فأجده لدهشتي الشديدة ولهولي ، عبده . وكان إحساسي الطاغي التالي أن النقود معه وأنه لابد يخفيها في مكان ما معه ، وكدت أموت فرحاً وأنا ، بشغف عمره وكأنما ألف عام ، وبغيظ كالغاز الخانق القاتل الذي يتشبع به

الجسد ولا نحس به إلا هناك قبل الموت بلحظة ، حين تعي لأول ولآخر مرة أنه خنقك وقتلك . أجل الغيظ أبشع أنواع الغيظ حين تستأمن أو تثق ثم ترى الخديعة عيني عينك ودون أي اكتراث ، حين ينسل الشخص الذي تعرف ومتأكد تماماً أنه في يدك متى أردته واني أردته في يدك ، فجأة تجده أمامك يذوب ويختفي وتلتهب غيظاً وغضباً ومجهوداً ولا تستطيع منعه . عبده ، بيدي الاثنتين أطبقت على رقبته . كل خوفي أن يذوب مرة أخرى ، ويختفي .. وكل ضيقي اني لا أستطيع التهامه .. الوحش فينا لا يزال هناك ، وحين نتشاجر لا نعض كي نؤلم الخصم إنما نعضه لأننا فعلاً نريد ، كالأجداد الوحوش ، التهامه ، الأجداد الذين كانوا يهاجمون الخصم ويلتهمونه غيظاً كي يستطيعوا إخفاءه وإخفاء وجوده داخل العدو وتستمد بناءها ، نحنُ الآدميين الذين فقط نعض عن عجز ونحقد ولا نستطيع التنفيس عن حقدنا بالطريقة الطبيعية فيزيد حقدنا فتنهشه كالأنياب المسمومة إلى داخلنا ينهشنا نحن ويقوضنا وبالضبط هنا ما كنت أحسه وأنا أطبق على عبده وأتمنى لو كان باستطاعة عواطفي أن تنطلق فتنشه وتدشدشه وتمضغه وأحس بأنيابي تلوك لحمه وأجزاءه وتشفي غليلها وتطحنه بكل ما تملك من قسوة وشراهة ، وربما الأصل في الطعام أن يأكل الإنسان بناء على غيظ وبنية إخفائه عن الوجود واحتوائه تماماً والقضاء عليه ولهذا يستفيد الوحش من طعامه الفائدة القصوى بينما يمرض الإنسان الآن بطعامه ويشقى .

ولكن ، حتى كطعام ، كان عبده لا يدفع إلا للاشمئزاز وقتل الرغبة

فقد كان نحيفاً غلباناً ، ما حفلت عيناه بنظرة تحد ولا واجه أحد مرة بنية إثبات الوجود أو الدفاع عنه ، كان طيباً ذلك النوع الباهت السلبي من الطيبة ، مصاباً بفتق مزدوج ، ويغني في خلوته ، مواويل عذبة ، وكأنه اني يحل غريب لم يعثر له أبداً على وطن ، وإذا فاض الحال بكى ، امتلأت عيناه فجأة بدموع لا يصاحبها أي احمرار إنما يتجمع الإحمرار في أنفه فيبدو وكأنما تورم وحفل بالافراز ، ويصعب عليك فقط لأنه عبده وإنما لأنه وهو الرجل ، كالأطفال والنساء يبكي ، بكاء لا ليونة أو طفولة فيه ولا يستدر العطف ، إنما الكارثة إنه بكاء رجال يستدر الاشمئزاز . حرامي قروش لا يأخذها إلا مضطراً ، وبأقل مقدار ، وإذا ضبطته ارتبك وتلعثم وأقسم ايمانات كاذبة وحذار أن تشدد عليه وإلا بكى وأصابك باشمئزاز يستمر معك اليوم كله وربما لبضعة أيام . ثلاثة أيام بأكملها بلياليها وبساعاتها الطويلة ومغاربها وعصاريها وأنا أبحث عنك يا عبده أرفع أرصفة مصر وأقلبها . وأقتحم البيوت . وأوصى ، وأواعد واستجير ولا أترك شارعاً أو زقاقاً أو حارة ، وحين يهدني التعب أنام وأستيقظ على روحي تكاد تطلع بالغيظ والحنق يأساً من العثور عليك وحلمي وكابوسي وألم يقظتي ومنامني أن ألتفت مرة لأجدك يا عبده ، أين كنت يا عبده وأين أخفيت النقود . والغريب المذهل ما قاله . قال أنه ما إن غادر المنزل يومها حتى أمسكته فرقة من التي تبحث عن المرضى لتأخذهم عنوة إلى المستشفيات (تماماً كفرق الشفخانات التي تأخذ الحيوانات المريضة بالقوة !) وأنهم أخذوه معهم إلى المستشفى مشتبهين في أمره ، وهناك كشف عليه الباشحكيم بنفسه وقرر أنه مريض بمرض خطر يهدد أن يعدي المصريين جميعاً به وأن لا علاج له إلا بعملية

جراحية يجرونها له في الحال ويقطعون بها الأورطي له ، وفعلا عملوا له العملية ، وقطعوا له الأورطي ورقد لثلاثة أيام ثم أخرجوه اليوم فقط بعدما منحوه عكازاً ليستعين به في السير ، أما النقود فمن لحظة أن دخل المستشفى وهو لا يدري ما حل بها .

وكان مفروضاً أن يحكي عبده قصة ما يبرر بها إختفاءه وإختفاء النقود ، اما أن يحكي قصة كهذه لا يصدقها طفل أو معتوه ، أما أن تكون هناك فرق تبحث عن الآدميين المشتبه في مرضهم وتأخذهم بالقوة كي يعالجوا وتعاملهم هذه المعاملة الحيوانية البشعة ، أما أن يكون هناك مرض من الأمراض علاجه قطع الأورطي ، أما أن يقطع الأورطي وهو الشريان الرئيس للجسم البشري الذي يأخذ الدم من القلب ويوزعه على جميع أنحاء الجسد والذي في سمك العصا التخينة بحيث أنه لو خدش يحدث من جرائه نزيف يقضي على صاحبه في الحال ، فما بالك أن يقطع وأن يعيش عبده بعد قطعه ، ليس هذا فقط بل أن يكون باستطاعته أن يسير ، لو على عكاز ، وأكثر من هذا يجري مثلما كنا منذ دقائق نجري أما أن يكذب عبده هكذا على كذباً واضحاً صفيقاً لا يحاول حتى أن يداريه أو يبحث من قصة أخرى أكثر حبكة وقابلية للتصديق فهو ما أضاع مني كل سعادتي بالعثور عليه وما جعلني أحس بتعب ساحق أهوج يعتريني لإحساسي أنه يسخر مني بقصته تلك سخرية تفوق الوصف . عصب لا حدود لقسوته ولا حدود لما يدفعك إليه ، ولم أكن وحدي ، كانت الجماعة التي تجري معي تشهد هذا كله وتسمعه وقد آب جريها إلى سير بطيء ، بل بدأ أفراد آخرون ينضمون إلينا ويشعرون تجاه عبده وقصته بنفس ما أشعر ، وكلنا بلا استثناء قد أصبح

أهم شيء لدينا أن النقود معه وأنه لابد يخفيها في مكان ما في جسده ، فعبده لا يمكن مكاناً آخر في الدنيا يستطيع أن يخفي فيه شيئاً وليس مهماً القصة ، أي قصة يحكيها ، إنما المهم هو العثور على النقود ، والعثور عليها أمام « عيني عينك » وفضحه فضيحة علنية أمام الناس كلهم وعلى مرأى ومسمع من الجميع ، وهكذا تصاعدت الأصوات نصرخ .. فتشه .. فتشه .. ولم أكن في حاجة للصرخات لأمد يدي أنزع عنه جلبابه البلدي الباهت الذي لا يملك سواه غير إني فوجئت أن الجلباب ملتصق بجسده لا يمكن خلعه عنه ، وهذا غريب فعبده كان دائماً (يلق) في جلبابه الواسع فكيف به الآن لا يمكن انتزاعه وكأنه انتفخ فجأة أو سمن في ثلاثة أيام سمنة غير معقولة ، وفي البحث عن حل لخلق الجلباب عنه اشترك الجميع في الاقتراحات وقد أصبح حماسهم للنيل من عبده يطغى على حماسي أنا الضحية ، حماس كان يعمنا في صمت وبلا اتفاق سافر وبكل جهد وإصرار وبأعصاب منفعلة وبكثير من الاستمتاع وكأنما نحن متأكدون تماماً أننا أخيراً قد عثرنا على بغيتنا ، على نقطة كالتي كنا نجري في الميدان نبحث عنها لنبدأ منها الجري .. على مذنب ، يحمل الذنب الذي ارتكبه معه ، ولابد أن ينال جزاءه ونمتع كل ما فينا من خير بإيقاع القصاص به وتطبيق العدالة ونمتع كل ما فينا من شر يجعلنا نطبق العدالة بأيدينا وبأنفسنا وبالشر حراً طليقاً لديه جواز المرور نوالي أحداث الضرر تحت شعار العقاب .

ولم تكن هناك طريقة لخلع الجلباب عنه إلا بسلخه كما يسلخ جلد الأرنب عنه ولكي نسلخ الجلباب لابد أن يكون معلقاً . وأصبحت

المشكلة أين وكيف نعلقه ، وتصاعد اقتراح ، والتفتنا فوجدنا الجزار قريباً ، وتحركت المجموعة وعبده في وسطها ، لا تزال يدي مستميتة عليه إلى حيث دكان الجزار وتولى أربعة رفع عبده بينما أخذ الجزار الشاب البدين على عاتقه مهمة تعليقه في الخطاف الذي تعلق عليه الذبائح من (قبة) صديريه وملابسه الداخلية . وهكذا علق عبده في الخطاف وأصبح مرتفعاً هناك ، لا حول له ولا قوة مثله مثل الذبائح والخرفان المسلوخة المعلقة على بقية الخطاطيف . وامتدت أكثر من يد ترفع ذيل الجلباب إلى أعلى وتسلخه عنه وهو معلق صامت لا ينطق بحرف . وما كاد الجلباب يخلع عنه حتى أدركنا السبب جعله يلتصق بجسده هذا الالتصاق الشديد ، فحول بطنه وصدره كانت تلتف أشرطة بيضاء كثيرة . وكأنه فعلاقد أجري عملية وتلك أربطتها ، ولكنني أدركت على الفور هدفه الخبيث من هذه الأربطة الكثيرة فلابد أنه أكثر منها ليستطيع إخفاء النقود في أية طية من طياتها دون أن يستطيع أحد الشك أو التنبؤ بمكانها . وكان لابد أولاً ، ولمجرد الروتين ، فحص محفظته ، ومد الجزار يده السمينة المدربة ، وأزاح طيات الشريط قليلاً ، وأخرج المحفظة من جيب صديريه ، وكانت أول مرة أرى فيها محفظة ، عبده ، ولم أكن أتصور أنها بها الضخامة فقد كانت أضخم محفظة ممكن أن تراها في حياتك وقد توليت بنفسي تفتيشها وافراغ محتوياتها ، وكما توقعنا لم يكن بها غير خمسة قروش فكة أحدهما معضوض صدىء لا يصلح للتداول . ومرة أخرى دفع الجزار البدين يده في جيب الصديري نفسه ، وكالمتوقع لم تخرج بشيء ، كلها إجراءات شكلية فقد كنا جميعاً ندرك أن النقود هناك ، مخبأة لابد في طية من طيات

الشريط وبذلك التحفز النهم للفضيحة ، ولإدراكنا اننا حالاً وعيني عينك سنضع يدنا على ذنب المذنب وأمامه سنخرج من جسده نفسه جسم الجريمة ونتتشي النشوة الكبرى ونحن نستعد لنرى وجهه لحظتئذ ونسمع ما يقوله ، بذلك التحفز امتدت يدي ويد الجزار نفك عنه الشريط ، غير أبهين لصرخاته واستغاثاته وقوله إن فك الشريط عنه معناه موته إذ الشريط هو الذي يمسك الأورطي المقطوع في مكانه ، صرخات لم تفعل أكثر من أنها أثارت الضحكات والتعليقات الساخرة وحفزتنا نحن القائمين بفك الشريط إلى اللحظة القصوى لحظة اكتشاف النقود ، وفككنا بعض الأشرطة وصراخ عبده قد آب إلى سكوت يائس بينما امتلأت عيناه بالماء الدامع الذي لا يصاحبه أي احمرار ، وحتى لو صدقناه واعتبرنا أنهم عملوا له عملية ما فمن الواضح أنه يكذب فالأشرطة كانت بيضاء نظيفة ليست فيها بقعة دم واحدة ولا آثار جرح ، ولهذا مضينا نفك وإنما بحرص مخافة أن تسقط منا النقود لدى اللفة التالية . فقد كنا جميعاً واقفين ومشاركين ، وكأنما عبده هو الآخر ينتظر ظهور النقود لدى اللفة التالية ، وكنت ألف من ناحية وأسلم الشريط إلى الجزار البدين ليفكه من ناحيته ويعود ليسلمني إياه ، ويبدو أننا كنا استغرقنا في العملية إلى درجة إني مددت يدي أتسلم منه الشريط مرة فلم أجده إذ كان قد انتهى ، وقبل أن أنظر إلى عبده أحسست بشعور غريب ما يعتري الواقفين وحين اتجهت ببصري إليهم وجدتهم جميعاً وقد خيم عليهم صمت كامل مريب بينما عيونهم كلها مصوبة إلى جسد عبده جامدة لا تطرف وكأنها عيون موتى . ونظرت إلى حيث ينظرون .. كان

عبده عارياً تماماً وكان هناك جرح طويل جداً يمتد من صدره إلى آخر بطنه ، وكان صدره وبطنه فارغين وكأنما انتزعت منها كل ما تحويه من أجهزة ، وكان الأورطي يتدلى من صدره من مكان القلب كمزمار غاب سميك طويلاً وشاحباً ومقطوعاً يتأرجح داخل بطنه كالبندول ..

مايو ١٩٦٥

صاحب مصر

فكرت أن أجعل للرجل زوجة جميلة صغيرة لتلائم سنه الكبير ، فكرت أن أجعل الجميلة بنته ، ولكن الزوجة مغرية أكثر ، والقارىء الملول لابد أن يسيل لعابه تتبعاً للزوجة الصغيرة الحلوة أملاً في حدوث المتعة الكبرى بشم رائحة الخيانة أو التلظي نشوة وقلقاً على نار الشك في وجودها .

فكرت في أشياء كثيرة ، وتصورت وكأنني الكاتب المحترف ، كل الآفاق المثيرة المجهولة التي يمكنني أن أقود إليها القارىء الهاوي النهم ، كي أكد تفسيراً لحماس صميدة للرجل العجوز ، وصميدة ليس اسمه ، وأنا لا أعرف اسمه ، ولكني لابد إذا سميته أن أختار له لقباً كصميدة ، فيه حرف صاد مذكر الموسيقى ، جهيرها ، ليعبر عن شخصه .. ولابد أن ارتباكاً قليلاً قد حدث وأن الحيرة تملكتكم عن أي الرجلين أتحدث .. الواقع كان هناك رجلان كل منها يستحق الحديث ، ولكن الأنسب أن نتجاوز عن كليهما معاً لنتحدث عن المشهد ، فقد كان هناك رجلان ومشهد ، والمشهد ليس بسيطاً أبداً رغم خلوه التام من الفواجع والكوارث وكل مسببات التوتر ، ولكي نبدأ علينا أن نتصور مكاناً

معزولاً ولا تماماً عن العالم كأن الدنيا بكل غموضها ومجهولها تنتهي عنده ولكننا لابد أن نعتقد أنها أبداً لا تنتهي عنده ، فالطريق الذي يقطعه يظل ممتداً بعد بقعتنا مثلما يظل ممتداً قبلها ، إلى ما لا نهاية البصر ، بالاختصار لنتصور طريقاً من طرقنا المسفلتة الطويلة يمر بمساحة شاسعة من الأرض غير الزراعية أو المطروقة أو تعرضت في عمرها الملاييني الكثير للمسة من يد الإنسان ، صحراء ، أو براري أو جبل وعر على امتداد الأصبع الخنصر لبحرنا الأحمر . أن طريقاً كهذا يظل الخط المستقيم بلا فائدة ، كالرجل المستقيم بلا مبدأ وبمجرد المحاكاة والتقليد ، لا معنى له ولا قيمة لاستقامته ، حتى يحدث له حادث ينتهي مثلاً أو يلتوي ، أو بالذات يلتقي بطريق غيره أو يتقاطع ، هنا فقط ، عند التقاطع واللقاء يصبح للطريق المستقيم الممتد معنى إذ يصبح التقاطع وكأنه الاثبات لنظرية كانت قبله فرضاً ، ووصولاً كان طوال الطريق مجرد حلم كحلم الجوعان بالخبز .

لنتصور حادثاً كهذا وقع لطريقنا الذي اخترناه ممتداً بلا معنى في أرض متسعة بلا مفهوم ، ولنكن أيضاً على ثقة إننا لن نكون أول المتصورين ، فقبلنا بكثير سنجد أن الحكومة باعتبارها المسئولة عن الأرض والطريق وكل الأشياء ذات المعاني والمعدومة المعنى قد تصورته ، وأدركت أهمية هذه الحقيقة الفلسفية أو الصوفية المحضة ، مع أنه ليس من عادة حكومة في العالم أن تعير أمثال هذه الحقائق التي ينقسم عندها البشر ، وأحدثت ولا تزال تحدث أعظم الهزات والمعارك والانتصارات الإنسانية أي التفات ولكنها بالسليقة من زمن لابد أدركتها . وبادرت

فأقامت عند هذا التقاطع (كشكاً) ، وقالت لعسكري كن داخل الكشك فكان ، وهكذا انحسرت كل المعاني الكلية المهولة عن التقاء الطريق بالطريق وتقاطع الطريق مع الطريق ، وكما يضيق (القمع ويتدبب ، ضاع المعنى وانكمش واتخذ بالكشك والعسكري في الحال مفهوماً واضحاً خاصاً ، بل حتى الأرض نفسها ، تلك التي كانت من أمتار قليلة مستمتعة بلا جدواها ولا أهميتها وبحريتها أن تمتد إذا أرادت وتتجبر وتتجبل إذا أرادت وشاءت أن تمتد ، وتجن وتطلق شعورها وبراريها ولحاها كلما عن لها أن تصنع ذلك ، أصبح عليها منذ الآن أن تدير رأسها وأن تعقل وتخفي عورتها ومن الكرة الأرضية الهائلة والكون والطبيعة تنسلخ وتتخذ أسماء وتنتهي إلى شعب محدد وإلى جزء من أرض ذلك الشعب ، محافظة أو مركزاً تثول وكما يعطي العسكري والكشك والطريق هذا المعنى المحدد الخاص . يرتد العطاء ، ويصبحان أو على الأقل يصبح العسكري ، ليس مجرد أي عسكري في أي كشك ، ولكنه ، في ذلك الجزء المقطوع عن العالم المعزول يصبح المثل الحي للنظام العام الذي أخضع الأرض وحدها وسماها وامتلكها ولكافة القوانين التي ابتكرتها عقول من أصبحت تمت لهم هذه الفرس الوحشية .. الأرض .. وراكبها الذي أستأنسها .. ذلك الطريق ..

في ذلك الوقت ، ولنجعله بعد الظهر بقليل وقد انتهى العسكري من تناول غدائه بحيث يمكننا أن نقدم عليه بلا حرج ونجلس إليه على أمل أن نتحدث ، وحتى قبل أن يدور أي حديث بمجرد الجلوس ، سندرك أن البقعة قد تكون معزولة ومهجورة بالنسبة للآدميين وللراحلين .

ولكنها أبداً ليست كذلك بالنسبة للعربات . فما تكاد تمضي دقيقة حتى تكون عربة قد أقبلت ، بل أحياناً يتراكم لدى الكشك أكثر من عربة ، كل ما في الأمر أنها في الخلاء الواسع لا تبدو للعيان .. قلما تصادفك عربة إذ هي نقطة لا تظهر إلا عند الكشك من الخلاق الواسع الشفاف تظهر فجأة كأن دخاناً كان يخفيها باتساعه وشفافيته ، وإلى الخلاء الواسع تعود إلى الإختفاء بعد اجتياز التقاطع ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وحتماً لابد نفاجأ ، قبل أن نبدأ نعير العسكري نفسه أي التفات وإنما نحن مشغولون بتأمل المكان الفريد الغريب ومتابعة غير قليل من الأفكار التي يولدها بالضرورة وجودنا لأول مرة في مكان كذاك ، حتماً لابد نفاجأ حين يقبل رجل عجوز قصير القامة ، أول ما يلفت النظر إليه جبهته السمراء البارزة المحدودية ، ومقدم رأسه الخفيف الشعر الأشيب ، ينحني على المنضدة الموضوعة أمام العسكري ليستطيع أن يصل إلى حافتها الملاصقة له ، ثم يضيع وياللمفاجأة كوب شاي متوسط الحجم رخيص الزجاج وإن بدا الشاي نفسه جيد الصنع عنبري اللون محمراً ، تماماً كما يحبه أنصاف الكيفية ، ونفاجأ أكثر حين نجد أن العسكري نفسه لم يفاجأ بما حدث وكأنه كان يتوقعه ، وكأنما هي عادة ، وحتى إذا كنت متوسط الذكاء فلن تأخذ وقتاً طويلاً لكي تدرك أن الرجل العجوز صاحب ما اصطلحنا على تسميته بالغرزة أو القهوة الصغيرة المتنقلة وأنه يحط رحاله تحت شجرة على الناحية الأخرى من الطريق وأنه لابد قد لاحظ أن العسكري قد انتهى من تناول غذائه فأحضر له كوب الشاي . كما قلت : لا حوادث هناك ولا شيء غير عادي ، من الطبيعي جداً أن توجد قريباً من هذا التقاطع غرزة صاحبها

رجل عجوز أو مريض وأن يتعامل العسكري معه ، وأن يحضر له الشاي ، وأن يقدمه في أدب . ولكن أشياء غير عادية بدأت تحدث ، منها مثلاً أن يدفع العسكري يده في جيب بنطلونه الأمامي (فجيوب بنطلونات العساكر مركبة إلى الأمام ولا أحد يعرف لم) ويخرج قرشاً من جيبه ويعطيه للرجل العجوز قائلاً : خذ قبل ما أنسى . حادثة لاشك ، فالمفروض والعسكري يمثل كل ما ذكرته آنفاً ، والرجل يمثل التجار الصغار ، أن يتقاضي ضريبة يضعها تحت أي اسم يشاء .. ضريبة ليست أقل من كوب الشاي مثلاً ، وأن يعفي العسكري هذا الرجل من الضريبة ، ليس فقط .. بل أن يخسر من جيبه قرشاً ، أمر له دلالة خطيرة لابد . أن هناك سبباً لهذا الاستثناء ، فإذا اتضح أن لا سبب هناك فمعنى هذا إننا في مواجهة ظاهرة خارقة .. عسكري مرور .. ملك متوج على بقعة نائية مهجورة ويستطيع من هذا المكان أن يسيطر على غرائزه وبالذات على غريزة فرض الضرائب غير القابلة للسيطرة والتحكم ، ويكون ذا ضمير مستيقظ لماح .

هنا لابد أن تلتفت كلية للعسكري ، وتعيد النظر فيما دار بينك وبينه من حديث فستقطع أخطر محاورة مفروض أن تدور حالاً بين العجوز والعسكري ، لأننا لن نستطيع إدراك مضمون الحوار إدراكاً حقيقياً إلا إذا وضحت لنا صورة العسكري فلابد لنا أن نؤجل الحوار إلى حين . العسكري شباب في حدود الثلاثين ، في حديثه وآرائه تحديدات من لم يتزوج بعد أو إن كان قد تزوج فلم يستطع الزواج أن يصيب ضحيته ، كما يصيب الجسد ، بالترهل وعدم الميل إلى

التحديد . الزواج باعتباره عملية تنازل مستمرة ومساومة في أحسن الأحوال يصيب الرجل بعادة الرغبة في المسألة والبحث عن الحل الوسط ، فالجمل لابد أن تكون لها نهايات مفتوحة تجعلها قابلة للتراجع التام في أحيان ، أو الاتصال بجملة أخرى تغير تماماً من المعنى المقصود ، الزواج ضد نقط النهاية وضد الحسم ربما خوف من سوء وضع النهاية . ما علينا . شخصيته محددة ، آراؤه في الناس أيضاً محددة ، وكذلك في عملية وطبيعته ، وهذا شيء نادر هنا ، فالوظيفة ، أية وظيفة ، كالزواج تماماً صاحبها فتح الجمل وكثرة استعمال حروف الوصل واللضم والجر والألفاظ التي تحتمل أكثر من معنى وتفسير لاستخدام معناها الآخر كسلم الحريق حالة وقوع الكوارث وتحمل المسئولية . له شارب .. تحس أنه عن عمد قد وضع شارباً ، لا للعياقة أو إظهار الرجولة ، إنه ليس في حاجة إلى إظهار وإنما لأنه ـــ مادام الناس صنفين ـــ فقد اختار أن يكون من الصنف ذي الشارب ، صعيدي أو عربي فلا تزال به بقايا قبلية ، في لغته وفي ميله إلى الحديث عن كل ما هو عام ، فالانتماء يبعد عن الذات وكل ما يمت إلى الشخص بمفرده . ولا أستطيع أن أقول إنه شهم ذو نخوة وأريحية ، فلم يكن قد بدأ منه ما ينبيء بأي من هذا ، ولكنك تتمنى . بل ترجح أن يكون شهماً ذا أريحية ، ولكنه أبداً ليس كاملاً ، فصحيح أنه يعامل السائقين بمساواة تامة ، لا يبالغ في رد تحياتهم المفرطة وكذلك لا يرد عليها بتعاظم وتكبر ، ولكنه يكاد ينتفض واقفاً إذا جاءت التحية من عربة ملاكي ، فعلى رأيه من يمتلك عربة لابد أنه صاحب نفوذ ، موظف

كبير ، أو صاحب مهنة غنى ، أو ابن لهذا أو لذاك ، ولي من العقل أو الحكمة أن يصطدم من كان مثله بأمثالهم ..

قال العجوز بعد أن وضع كوب الشاي بأدب تحس منه أن الأدب أو بالأصح ــ حتى لا يختلط الأمر ــ التأدب كان ذات يوم حرفته ، ويذهب بك الخيال إلى أنه من الجائز أن يكون قد عمل سفرجياً في قصر باشا أو على الأقل مساعد مرمطون ، قال : أنا لي رجاء عندك .
ولم يكن العسكري قد أدرك بعد أن يرجوه وربما كان لا يزال منصرفاً إلى تأمل الشاي وتهيئة نفسه لإرتشافه .. فاستطرد العجوز يقول : لو تتكرم وتسمح لنا بعربية نقل تأخذنا .. وقال العسكري وهو منصرف أيضاً وبمزاج ، إلى أخذ الرشفة الأولى من الشاي . ما أعذب الرشفة الأولى من أي شيء تأخدك فين ؟ ..

ربما حسن يريد أن يقضي مشواراً في أقرب مدينة تلك التي لابد تبعد عن المكان بعشرات الكيلو مترات ، ولكن العجوز قال : أصل أنا ما احبش المواضيع لما تحصل كدة . يبقى أحسن نأخذها من قاصرها وتتكرم علينا بأي سواق توصيه ..

قال العسكري وملامحه القمحية ذات الندوب تنكمش إنكماشات التأثر إن لم يكن بعض الغضب .

هو جالك تاني ..

قال العجوز وهو لا يزال سادراً في رجائه : وقال لي :

ورغم هذا قاطعه العسكري : وقال لك برضه ..

قال العجوز : وقال لي برضه فأنا رأيي أحسن طريقه زي ما قلت لسيادتك كدة آخدها من قاصرها حاكم المسائل لما بتوصل على إيه ده كله كلمتين منك وأي سواق وكتر ألف خيرك ..

قال العسكري وقع بلغ الانكماش بملامحه درجة الانفراج إذا الغضب كان قد بدأ يتحول إلى كلام : اسمع يا عم حسن أنا قلت لك طول ما نا هنا ماحدش يقدر يقرب لك ..

ــ بس أنا المسائل لما بتوصل أقول لنفسي على إيه الأرض أرض الله ومافيش أوسع من أرض الله وربك بيقطع من هنا ويوصل هنا وكلمتين لسواق ..

بحزم هذه المرة قال العسكري : والله لما يكون هو الجن الأحمر مش يكفاك كلمتي أنا قلت طول مانا هنا لاهوه ولا مليون واحد زيه يقدر يهوب ناحيتك ، بس ركلك أشوفه مرة وأنا أعرف شغلي معاه . هو كالك امتى ؟

ــ من شوية ..

ــ جه منين ؟ ..

ــ م الناحيا دي ..

ــ وراح فين ؟ ..

ــ م الناحيا دي ..

ــ وازاي ما شفتوش . ركلك بس أشوفه . أنا مش قايل لك لما يجيلك اندهلي ..

ـــ يا سيدي ربنا يخليك ويكتر خيرك ، بس أنا كان قصدي يعني أن المسائل لما بتوصل مفيش داعي وكلمتين منك ..

ـــ خلاص يا عم حسن ، بس لما يجيلك اندهلي ..

وكان العسكري قد إنتهى إلى آخر نقطة من شرب الشاي . فتناول العجوز الكوب ، ومسح قاعدته السميكة مرة أخرى . وانحنى ومد يده ، ومسح الدائرة المبتلة التي صنتها على المنضدة ومضى وهو يتمتم لابد بدعوات وكلمات شكر ..

ولو رأيت هذا المشهد لدفعك حب الاستطلاع حتى إلى سؤال العسكري عن معنى هذا كله ، ولخمنت حتى قبل أن يبدأ في أن سبباً ما لابد يدعو العسكري للتمسك بوجود عم حسن العجوز كل هذا التمسك ..

ولو كنت تكتب قصة بطريقة التأليف كما يفعل بعض الناس لالتفت للموقف إمرأة ، مثلما كدنا نفعل في البداية . ولجعلناها زوجة صغيرة لعم حسن العجوز أو ابنة فائرة لعوباً ..

لابد سيدور بخلدك شيء كهذا .. فالعسكري لا يذكر لك شيئاً كثيراً .. إنه يؤكد لك ، بلا حاجة للتأكيد أن الرجل عجوز وطيب ، وأن له في هذه البقعة بضعة أيام ، وقد كان جالساً في مكانه .. وجاءت عربة نقل ووقفت كالعادة وبينما السائق يذكر له الرقم ، وإذا من الصندوق ترفع الهامة لاقصيرة لعم حسن ، وإذا به يتطلع إلى المكان ، ثم تقع عيناه على الشجرة فينحني ناحية السائق في الكابينة

ويشكره ويطلب منه ، بأدبة المعهود ، أن ينزل هنا قائلاً إنه قد اختار هذه البقعة لينصب فيها نصبته . وبمساعدة الشيال ينزل عم حسن أشياءه الفقيرة القليلة ، ويستأذن من العسكري ويقضي بقية اليوم في إقامة (الغرزة) ..

وتلك هي حياة عم حسن التي اختارها .. وكل إنسان منا يختار حياته بالطريقة التي تحلو له ، بعضنا يختار المهنة الناجحة ويقضي عمره يحارب زملاءه من أبنائها الناجحين ويكيد لهم ويكيدون له ، وبعضنا يختار مهنة البحث عن مهنة ويظل العمر ينتقل من عمل فاشل إلى عمل فاشل ، ولكل منا كما قلت مهنته التي يفضلها أو التي يلعنها أو التي تتلاءم مع ذاته وطبيعته وصفاته .. وعم حسن قد ترك هذا كله واختار لنفسه مهنة أن يخدم الناس حيث لا يتوقع الناس خدمه ، فهو لا بلد له ولا بيت ، موطنه الدائم يوجد حيث يوجد بيته وبيته يوجد حيث يوجد عمله وعمله يوجد حيث يرى أن حاجة الناس إليه أكثر وأشد ..

وهو يصنع القهوة والشاي والمعسل .. ورأسماله بلا رأس وبلا مال ، وهو يوجد اليوم هنا في بقعة مهجورة من طريق السويس ــ الإسماعيلية لابد عندها تقاطع أو محطة أو شيء ما .. هنا حيث يصبح لكوب الشاي قيمة لا تقدر ، خاصة إذا قدم لسائق منهك استيقظ منذ الفجر وعليه قبل أن ينام أن يقضي الليلة القادمة بطولها سائقاً .

ويظل عمل حسن في المكان حتى يزهد هو فيه أو يزهد فيه المكان ، أو تصل المسائل على حد رأيه إلى حيث يبح لا داعي للبقاء ، يشير عم حسن لأية عربة قادمة ، في هذا الاتجاه أو ذاك ، فسكك الله كلها له

وكل مكان فيها مثله مثل أي مكان ممكن أن يصبح بلده وموطنه ومسقط عمله ، ويركب عم حسن هو ورأسماله ، وفي أي اتجاه يتصادف أن تكون العربة ذاهبة إليه يذهب ، وعند أية بقعة في المسافة يراها عم حسن تصلح مكاناً يحتاج فيه الناس والسائقون بشكل خاص للخدمة ولا يجدونها ولا يتوقعون وجودها ينحني على السائق يطلب منه بأدبه المعهود إنزاله ، وعادة .. بل لم يحدث أن تقاضى منه أي سائق أجراً ، وينزل ، ويظل يعمل ، وقد يقضي في البقعة أياماً وقد يقضي فيها ــ كما حدث ــ سنتين ، إلى أن تصل المسائل إلى الحد المعهود فيشير عم حسن إلى أول عربة نقل قادمة ، وهكذا ..

ولابد ــ خاصة إذا كنت مثقفاً .. مقيداً بألف قيد وهمي أو ممن صنعك إلى عملك ــ تمنعك أشياء ليس أقلها الخوف الشديد أو بالأصح الجبن من أن تفكر ، مجرد تفكير ، في تغيير محل عملك أو عملك نفسه أو حتى محل إقامتك ، لابد أن تحسد عم حسن على حياته تلك ، فهي في رأيك لابد أرحب وأوسع حياة ، حياة ألغت المكان والزمان والبعد الرابع وكل الأبعاد ، البلد كلها .. بملايين الكيلومترات التي تكون سككها وطرقها ومساحتها ، ملكك .. ملكك حقاً لا مجازاً ، إذا ماذا تفعل بالملكية قدر حقك أن توجد في المكان الذي تمتلك وقتما تريد وأيد زمن تشاء وهل يحتل صاحب العمارة مهما كبرت أكثر من المقعد الذي يجلس عليه أو الفراش ، وما متعة من يمتلك مئات من الأفدنة أو بضع عمارات .. ولكنه صاحب مصر كلها ، من حقه أن يحل بأي مكان فيها في أي وقت يشاء ويستمتع ما شاءت له المتعة بإحساسه أنه صاحب المكان وأي مكان ..

وجزء من دوافعنا للالتصاق بمنطقة بعينها من المدينة أو القرية ، بل بشارع ، بل ببيت بعينه من بيوتها هو أننا نعرف الساكنين معنا وحولنا ونأتنس بهم ، وجزء من خوفنا أن نغادر ذلك البيت أو الحي ونقطن في غيره ، إننا نخاف من تجربة الغربة مع أناس لم نعرفهم بعد وحتماً لهذا نتوجس منهم .

أن ما يدفعنا للإلتصاق بمكان محدد وناس محددين إننا نخاف الأمكنة الأخرى والناس الآخرين ، فنتوقع على ما نعرفه ومن نعرفهم حتى لو قضينا الأعمال نمله ونملهم ، عم حسن العجوز لابد أنه لا يخاف الآخرين ، ومادام قد اعتبر مصر كلها بيته ومكان عمله فلابد أنه اعتبر المصريين كلهم صعايدة وبحاروة وشراقوة ، وغرابوة ، أهله وأبناء حيه وحتته ، وهكذا وبمنتهى الجرأة والألفة والبساطة ألقى نفسه في وسطهم في البحر الضخم الهائل الذي يكون ملايينهم .. ومن الواضح تماماً أنه لم يغرق ، وأن الأيدي رفعته ، ولازالت ترفعه وتتداوله ، ومن المكان إلى المكان يلقي بنفسه إلى يد ترفعه بحنان ورفق لتضعه حيث يحدد أو لتسلمه إلى يد جديدة إذا أراد .. وكأنما أبرم الرجل اتفاقاً مع المصريين جميعاً أصحاب البلد ، أن يقدم لهم القهوة والشاي في المكان الذي يفتقدون فيه القهوة والشاي أكثر .. وفي مقابل هذا عليهم هم المصريين أن يتكفلوا بأمر عيشه وسكنه وإقامته وتنقلاته كلما حلا له أن ينتقل ..

وكما تؤثر الوظيفة في الموظف ، وكما يصبح من خصائص سائق الأتوبيس صوته المرتفع إذ لابد له أن يرفعه ليغطي على صوت الآلة الحديدية والآلة البشرية ليسمعه الركاب أو حتى ليبلغ شتائمه إلى الراكب

الذي أثر أن يدخر رأيه الصريح فيه إلى اللحظة التي يضع فيها قدمه على الأرض ويتحرك الأتوبيس .. كما تنمى الوظيفة ذلك الجزء من الإنسان الذي يتعامل به مع الآخرين .. وبالتالي تنمي لدى الآخرين ذلك الجزء الذي يتعاملون به معه ، فعم حسن يتعامل مع جزء نادر ، أو بالدقة نادر العمل .. في الناس .. ذلك الجزء المخصص للعمل من أجل الآخرين .. الجزء الإنساني الضامر في أناس كثيرين .. الذي ربما حولته الأجزاء الأنانية لدى البعض كما تحول الأماكن غير المستعملة ــ إلى مخازن تختزن فيها أحصنة النهم الإضافية ومغذيات الطموح الفردي الصغير ..

عم حسن يعامله الناس ، والسائقون الذين يبدون وكأن قلوبهم قد قدت من جرانيت أصم ، بأجزائهم الإنسانية ، وما أكبر هذه الأجزاء أحياناً بالذات في قلوب هذا النوع المخيف من السائقين .. ولأنه يحيا ويتنفس ويأكل وينام بهذه الأجزاء وبما تهيئه له ، فقد اكتسب هو الآخر طابعاً غريباً يميزه عن جميع الناس ، فأدبه الزائد ليس ذلك النوع الممتثل الذليل الذي ندرك في الحال مدى ما فيه من ضعة واسترزاق .. إنه نوع عميق من الأدب ، لا ينبع من الانحناءات والكلمات الهامسة ... وإن كانت بعض أعراضه كلمات هامسة .. ولكنه يهمس لا ليريك ويظهر لك أنه يهمس ولكن لأنه بإدراكه إنك ستستريح أكثر لو همس ، نوع من مراعاة الشعور ، ولكن لأن مراعاة الشعور لدى معظمنا لا تحدث إلا لسبب وإلا لحاجة لك عند من تراعي شعوره فأعتقد أنه من الصعب أن نتصور مراعاة الشعور لمجرد مراعاة الشعور .. لمجرد أن إنساناً يحترم شعورك فعلاً ويقدره ـــ مهما كنت ـــ ويهمه مراعاته ، بل حتى في

طريقه سؤال للناس ، إنه يفعل هذا بأدب صحيح ولكنه أدب فيه ثقة بنفسه وكأن المسألة أمر مفروغ منه ، فرق كبير بين أن تطلب من إنسان لا تعرفه شيئاً وتحاول حينئذ ولأنك تفترض أنه ليس من حقك أن تطلب منه وهو الغريب عنك شيئاً أو تسأله معروفاً ، تحاول أن ترقق ما أمكن من طلبك ولهجتك وتودع فيها كل ما يمكنك إيداعه من رقة السائلين والمقترضين ومن يطلبون بذله ، فرق بين هذا وبين أن يطلب من إنسان نعتقد أنه فعلاً أخوك ومن أقربائك ، ولك عليه مثلما له عليك ، أن تسأله ، ومن واجبه وليس تفضلاً أو تنازلاً ، أن يعطيك .

ولكن تلك تفاصيل لا معنى لها .. ومحاولة يائسة لشرح « كل » من الصعب شرحه . فعم حسن ليس مجموعة تصرفات كهذه ، ولكنه أولاً روح كاملة ربما بعض مكوناتها تلك التفاصيل .. إنه روح غريبة تعيد إلى ذهنك آثار الظواهر الطبيعية وهي تعمل عملها عبر ملايين وملايين من السنين لتفتت الصخر الكبير إلى رمل دقيق أملس رائع التكوين . لتقدمن الصخر نهراً عذب الماء كنهر النيل ، لتصنع من الزلال وزلال الزلال حياة ومن الحياة كائنات ما أروعها حين تتأملها كالسمك دافقة بالحياة عامرة بالتفاصيل ، كالأسود جليلة مروعة يديخلك مجرد تفكيرك أن الأسد العظيم منها كان ذات يوم قريب كائناً لا يرى إلا بميكروسكوب . كائناً كان هو الآخر ومنذ أيام قريبة أسداً عظيماً كذلك الأسد .. ونتأمل كيف استطاع آلاف الناس بمراكزهم وتصرفاتهم الإنسانية أن يخلقوا أو يدربوا ذلك المركز في عقل عم حسن وشخصيته ليكبر وينمو ويزدحم ، ويحيل هو هذه المرة مراكز الأنانية

وما يخص الذات الصغيرة إلى مخازن يودعها مشاريعه القادمة للناس .. لحب الناس ، لكي لا ينسى وهو في قمة إنشغاله ، وحوله السائقون مزدحمين كل يريد أن يحظى منه بأكبر جرعة من الحديث والشاي ، أن عسكري المرور يتغذى ، وأنه انتهى من طعامه وأنه في حاجة إلى كوب شاي ..

لنتصوره بوجهه الأسمر ، وصلعته النامية الخفيفة ، بأذانه الكبيرة التي تؤكد ملامحه ، بأنفه الكبير قليلاً يؤكد رجولته ويؤكد في نفس الوقت طيبته إذ لا شموخ فيه . ولا إتساع فتحتيه يريحك ، وعيونه ليست أبداً كعيون الملائكة ناعسة سارحة ، أهم شيء يجذبك إليها هو يقظتها ، وليس يقظتها إلى ما يدور في عقل صاحبها وإنما يقظتها إليك أنت ، إلى ما تفكر فيه ، إلى أحوالك وكيف تبدو وهل معنى ابتسامتك الواسعة إن كل شيء بخير أم يا ترى تنبيء عن ضيقك بما تحسه من ضيق .

وإنها لسعادة أن تنظر إلى عمر حسن وبالذات إلى جبهته العريضة البارزة التي إذ قستها بالمقاييس المواضح عليها للجمال لبدت قبيحة ، إنها لسعادة أن تنظر إليها فتحس أن لم يدر خلفها شيء ، فكرة أو خاطر يضر بإنسان .. أن تدرك بوعي وعمق أن هذا الرجل الذي ينظر إليك بجماع نفسه لا يفكر أبداً في إيذاء أحد ولا يمكن أبداً أن يفكر في خداعك أو السخرية منك والضحك عليك ، أن ما من فكرة شريرة عرفت أو يمكن أن تعرف طريقها إلى رأسه .. لا أحلام غنى باهظ راودته وأستعد معها لأن يدوس الغير في طريقه إليها ، ولا أمنية ألحت عليه أن يكون لك مالك أو بعض مالك ، وأنه لا يحسدك أبداً على

منصبك أو وسامتك أو زوجتك المخلصة .. ولم يفكر أبداً في الحط من شأنك حتى بينه وبين نفسه لكي يثبت لها مثلما يحلو للبعض أن يفعل أنه أحسن منك ، أنه لشيء رائع ومحير ومثير للخوف أن تدرك أن كل هذه الصغائر التي يقضي بعضنا تسعة أعشار أعمارهم يلوكونها في عقولهم ويقيدون بها قدراتهم .. ويلوثون بها ضمائرهم ، وطبيعتهم الإنسانية التي تخلق نظيفة حساسة ، هذه الصغائر كلها لا محل لها في عقل عم حسن العجوز ، ترى أي مكان رحب يصحبه عقله ، أية حرية تتمتع بها خواطره .. أي أمان شامل كان يظللها ويظلله .. أجل الأمان الذي يقلب الناس دنياهم ويحفرونها مخابيء ودهاليز ليحتمو بها من الأعداء المعروفة والمجهولة ومن الزمن والمرضى والخيانة ، وكلما بحثوا عن الأمان خافوا إذ يدروكون أنهم مهما فعلوا فليس هناك دواء شاف أو ملجأ أكيد ، وكلما خافوا على أنفسهم من الآخرين أخافوا الآخرين منهم حتى تنقلب العقول إلى مواقد مجنونة للقلق والرعب ، أنه يتصرف دون أن يحسبها ويفكر ، ويفكر دون أن يحسبها ليعرف بماذا يتصرف ، فالحاجز الذي يضعه الكثيرون بين التفكير والتصرف حاجز سببه أنهم حين يتصزفون يخجلون مما يفكرون ، وحين يفكرون يخافون التصرف بمثل ما يفكرون ، يالروعة عم حسن وتصرفه يمضي في تسلسل وصفاء مع أفكاره ، وأفكاره من تلقائها وبلا جهد يضيعه أو يفقده تصنع تصرفاته ، وليس في وسط الدائرة إلا غيره ، إلا الإنسان الذي تسوقه إليه الصدف ، إلا الكلمة الحلوة التي لابد يحتاجها ليقهر هذا العبوس ، إلا الشربة من ماء القلة الباردة ترد الروح التي تتسرب من جسده .. مع حبات العرق المنهمرة ، إلا كلمة طيبة يقولها لصديق الطريق وهو

قائم بنفض التراب عن جلسته ويستعد لسفرته القادمة المجهولة : خلي بالك .. الدنيا ليل ونورك واطي لما تقابل عربية هدي ، وحياة بنتك الغالية لانت فاكر كلامي ومهدي ..

وقد يعتقد البعض ، ولهم الحق ، أني أنبذ الواقع وأتحدث عن إنسان خرافي غير موجود . ولكن الكارثة الكبرى أن عم حسن موجود ولا يزال إلى الآن حياً يسير ويتنقل أن وجد في مصر طريقاً ، ولكن المشكلة ، أجل المشكلة ، أن الدنيا كلها ليست عم حسن ، وأن المسائل لابد أن تصل يوماً إلى الدرجة التي يصبح معها من العبث البقاء ..

● ● ●

ولنعد إلى الرجلين والمشهد ، ولنؤمن الآن وقد عرفنا الكثير أن ليس في الأمر زوجة أو ابنه ولا سيدة بالمرة ، ليس لأن عم حسن لم يتزوج ، فالحقيقة أنه مرات تزوج ، ولكن زوجاته كن ، بعد فترة ، وبعد إنقشاع الرغبة في التغيير ، يضقن بحياته ويردن البيت والعمل الثابت الذي لا يبحث فيه عن الناس وإنما على الناس فيه أن يبحثوا عنه ، من هنا كان يدب الخلاف ، وينطلق عم حسن إلى طرقاته ومحطاته ودنيا الله الواسعة وينطلقن هن باحثات عن الأمن والثبات الذي يصنع الأولاد لنعتقد إذن أن ما بين الرجلين أن هو إلا صلة أخرى من صلات عم حسن بالناس ، تلك التي تنشأ في لحظات ، وتظل تنمو ولا تكف عن النمو كلما مر عليها الوقت ، عكس ما يحدث في العادة ، فما أربح وأوسع ما تنشأ وما أسرع ما تبدأ تضيق ، والمشغوليات بالنفس كثيرة ، والعلاقة التي لا تنفع تضر ، والأعم الغالب أن تنتهي العلاقات إلى ذلك الخيط الرفيع

الذي يفصل بين الجهل والمعرفة ، فتعرف الشخص وكأنك لا تعرفه ، وصلتك به لا تتعدى أكثر من يد عالية ترفعها بالسلام من بعيد ، أو إيماءة من رأس أو أضعف الإيمان إبتسامة وكأنما لتثبت بها لنفسك أنك تنتمي ، مجرد انتماء ، إلى الجنس ..

والعسكري يروي كيف بدأت الحادثة ، فمنذ بضعة أيام ، ذهب إلى عشه عم حسن ، لأول مرة ، عابساً شديد العبوس . ولابد لنا لكي نكمل القصة أن تعرف أشياء كثيرة عن العسكري بشكل عاجل ، فهو قروي حياته الحقة بدأت بالعسكرية ودخول الجيش ، وكان الجيش مدرسته ، هناك صاحب شبان المدينة وعرف المدينة من خلالهم ، وخرج وقد آلى أن يعرفها بنفسه ، والمدينة صعبة على من يريد معرفتها بقيم فلاح ودردحة ذكي . ولكنه رغم هذا استطاع أن يجد لنفسه مكاناً غير رسمي فيها ، وهو وإن كان يقضي معظم أيامه مقطوعاً في كشك ، إلا أنه في اجازته يعوض كل ما فاته ، وحتى بنات الليلة يستطيع مصاحبتهن .. وله في كل مدينة يحل قريباً منها جلسات ، وقعدات وأركان ودائماً يعثر على عشيقات ..

غير أنه من يوم أن حل عم حسن فقد الحماس تماماً للمدينة ولكل ما ينتظره فيها ، فساعة واحدة كان يقضيها مع الرجل حسن عاش وشاف ، وعاش وشاف بطريقة لم يعش أو ير بها أحد ، فغيره يجلس مع الرجل ، بل أحياناً يجاوره لشهور وسنين دون أن يعرف عنه إلا أقل القليل ، عم حسن كان يغوص من فورة في النفس محبة أو بناء على طلب صاحبها ، وفي دقائق يعرف مالا يعرفه غيره في ساعات ، فوجهه

كان يملك اللمسة السحرية المتناهية البساطة ، التي تفتح النفس ، والنفوس دائماً تواقه لأن تفتح وأغنى ما في الأرض ليس كنوزها وما تحتويه قشرتها ، أغلاها ما في نفوس الرجال من ثروات ، أن في داخل كل منا كنزاً تجمع وتراكم فيه عشرات السنين وآلاف الخبرات ، كل نفس كالمحارة ، مهما إنغلقت فهي لا تكف عن إحالة التجربة بالإضافة والإعادة والتعديل إلى لؤلؤة ، إلى ماسة ثمنية من ماسات الخبرة الإنسانية المركزة والمكثفة والمصنوعة بصبر داخل تلافيف الحياة ، وقد استطاعت نفس عم حسن لخالية من المهبطات والمعطلات ومخصصات الأنا اللزجة أن تمتليء وتستوعب عدداً لا يعد ولا يحصى من كنوز النفوس الأخرى فوق ما يمكنها تقديمه وعرضه من نماذج استطاعت نفس عم حسن أن تقوم بدورها كصانعة لآليء ، وماسات ، وأن تحيل ما احتوته نفسه من تجاربه ومن الآلاف المؤلفة من تجارب الآخرين إلى ما يشبه برج مجوهرات الإمبراطورية البشرية .. لي متحف يدير مجرد التجوال فيه الرءوس ، ولا شك أن المتع كثيرة وكلها حلوة ، والمرأة جميلة ممتعة ، وقعدة العسكري في البندر مع إخوانه يدور عليهم الشيء أو يدور بهم متعة .. لكن العسكري إلى عم حسن ، ويسمعه بمفرده أو مع الآخرون وهو يحدثهم ومن ذات نفسه يفرجهم على عوالم غريبة رائعة ، ليالي وكأنها مسحورة ترى من فنجان ، وأيام وأحداث وكأنها اغترفت من أكداس الروايات ، مع أنه في كل ما كان يتحدث به لم يكن هناك أثر للخيال ، إذ لم يكن هناك داع للخيال ، فما رآه رأى العين أغرب مما يراه الآخرون رأى الخيال .. لاشك أن المتع كثيرة ولكن يبدو أن أمتعها جميعاً وأحلاها هي متعة أن تعرف .. متعة أن تعلم ما تجهله أو تزداد

علماً بما تعرفه ، وكل ما يحدث عنه عم حسن دائماً جديد غير مطروق ، أناس وكأنهم ليسوا من جنس الناس ، وإنما من نوع آخر لا يتبدى إلا لعم حسن .. أو كأنهم الناس ولكن أشياء منهم مغلقة تفتح بكلمة سر لا يعرفها إلا الرجل العجوز ..

وجده العسكري في ذلك اليوم عابساً ، شديد العبوس .. حتى لقد استغرب أن يمتلك من كان مثله القدرة أن يعبس بهذه الشدة .. وحين سأله عما به لم يشأ أن يتحدث وكأنه لا يرى فائدة في الحديث ..

ولكنه تحت الالحاح قال إنه حدث ما كان وسيظل دائماً أبداً يخشاه ، فقد جاء الرجل وطلب منه مغادرة المكان ..

أي رجل وبأي حق يطلب ما يطلبه ؟ ..

قال إنه جاء هذه المرة بحجة أن الأرض التي أقام فوقها عشته أرضه وأنه يعطيه مهلة إلى الغد لينتقل منها ..

وطمأن خاطره قائلاً : أنه لابد نصاب ، أو سلطه أحد أصحاب العشش الأخرى ..

وهنا لابد تدرك أن ثمة عششاً أخرى وغرزاً قد أقيمت بعد مجيء عم حسن ، فهكذا دائماً شأنه ، ما أن يحل بالمكان المهجور ويبدأ في تقديم مشروباته إلى الغادين والرائحين على الطريق .. أصحاب الطريق كما كان يسميهم عم حسن الذي قد تتصور أنهم قلة في حين أنك لا يمكن تتبين كثرتهم إلا إذا أقمت لهم مكاناً للشرب والراحة .. مكاناً

يصبح ككشك المرور الذي تلمح قبله أثراً لعربات ولا تلمح بعده ، وإنما عنده فقط وعند العشة تظهر العربات ، ويظهر الناس ويتكشف عنهم الفراغ الذي كان يخفيهم ، وعنده يلتقطون أنفاسهم برهة إستعداداً لاختفائهم القادم من الفراغ .. أصحاب الطريق كثير ، لابد لهم أسبابهم الخاصة لسلوك الطريق ولكنك تعجب حين يخرج لك عم حسن يعرض كنوزه متحدثاً عنهم قائلاً إن فيهم صاحب الحاجة والهدف لاشك ، ولكن الغالبية سيتعبك حتماً أن تحاول معرفة أهدافهم ولماذا يسيرون ، إن معظم الناس أجناس قانعة ميالة إلى البيوت وحياة البيوت وعالم البيوت ولكن الدنيا فيها آخرون .. فيها القائلون لأنفسهم وللعالم : بلاد الله لخلق الله ومن بلد إلى بلد يرحلون ، وعلى الطريق يشربون ويأكلون وأحياناً على نفس الطريق يموتون .. أصحاب الطريق وسكانه دائماً فرادي ودائماً على الطوى ونادراً ما يتكلمون وليسوا أبداً مجذبون أو مجانين وإن كان سلوكهم هذا قطعاً سلوك مجانين .. الشيء الدائم أن وراء السير الطويل . مسيرة العمر قصة انتهت حين وضع كل منهم قدمه على أول الطريق ، وقد يكون للطريق أول ولكن أبداً ليس له آخر ، وكأنما بحثهم الدائب عن آخر الطريق ، والعمر يمضي وأعمار كثيرة تمضي قبل أن يصل أي منهم السالكين سلوك المجانين ، أو أي منا نحن السالكين مسالك العقلاء ، آخر الطريق ، دائماً نلتقي ، عقلاء ومجانين ، وراجلين وراكبين وأفندية وسواقين وهاربين وباحثين ومخبرين ومجرمين ومطاردين ومطرودين عند عم حسن عند تقاطع الطريق . ونأنس باللقاء ، ونتعارف ونتجابب ونتذاكر ويسمى بعضنا البعض : رفاق الطريق .

وهكذا يحدث دائماً تبقى عشة عم حسن الذي يكتشف بها التقاطع المهجور ، وحيدة لفترة أطول ، إذ لا تلبث عشة أخرى أن تقام ، وأن كان صحابها ليس في وحدانية عم حسن وإنسانيته وطيبته بل حتى نظافته إلا أنه لا يعدم زبائن آخرين ، وجلعنا لكل شيء سبباً ، ولكل طالب رزقاً ، ولكل عشة مهما كثر عدد العشش زبائن من رفاق الطريق ..

ودائماً ما تبدأ الغيرة من عم حسن ورواده الأكثر ، تأكل القلوب ، وعلى أقل سبب تحدث المشاحنات ، وفي البقعة المهجورة والمقطوعة الصلة بكل أسباب الحياة والإحياء ، سرعان ما تبدأ فيها أو البوادر ، وكما تستدل على الأسد من رائحة بوله المنكر ، تبدأ رائحة نظام الإنسان الفاسد تفوح ، ومن بعيد وسط سكون العصاري المطبق تسمع صوتاً غير غريب عليك تتلاحق عواءاته من بعيد .. تسمع الصوت وتشم الرائحة ، الخناقة ، تحسبها كلاباً على جثة ، ولكن الرائحة والخناقة أكثر بشاعة .. لابد أنهم بشر على لقمة ..

فإذا سمعت طرفاً واحداً هو الماضي في زعيقة وعوائه ، بينما الطرف الآخر صامت صمتاً تاماً وكأنه ليس المقصود ، فاعلم أن الخناقة مع عم حسن ، وأن الآخر رغم أنه جاء إلى التقاطع بعده ، ولولا عم حسن ما جرؤ على التفكير أو البقاء ، إلا أنه محموم ينفجر بغضبه .

ولكن هؤلاء لم يكونوا يسببون للرجل العجوز الطيب أي إزعاج ، بالعكس كان دائماً يقابل عويلهم بالإبتسام .. إبتسام الفرحة ، إذ

معناه أنه عمرت الحتة ، وليس ما يبهج عم حسن أكثر من أن يدرك ، هو الجواب الأرض القفر والساحات المهجورة ، إن قطعة مهما بلغ صغيرها من الدنيا ، ومن مصر أم الدنيا ، قد عمرت ..

* * *

ولكن ، أن يعبس عم حسن ، وأن يبدو وجهه شديد العبوس ، وأن يظل هكذا حتى بعد محاولات العسكري المستمرة لتطيب خاطره معناه أن في المسألة شيئاً آخر غير عادي ..

وأعتقد العسكري أن عم حسن رجل طيب ومسالم ، ومن عادة هؤلاء أن يزعجهم التهديد ، وهكذا أخذ العسكري على عاتقه ألا يتكرر المشهد ، وأن يظل وراء من هدده حتى يجبره على المضي إليه وطلب غفرانه . وبدأ يعيد السؤال على الرجل ، ويطلب من عم حسن وصفه وتذكر من أين جاء وإلى أين ذهب . ولم تعجبه الإجابات ، فقد جاءت كلها غامضة محيرة وكأنما عن عمد ، أو من شدة الخوف — يحاول عم حسن تضليله ، وبهذا واجه عم حسن وكان أن ابتسم الرجل وكأني بقلبه ابتسم فهو لم يكن يحاول أن يخفي عنه شيئاً ، وأنه لا يفعل أكثر من أن ينقل إليه كل ما يعرف ، فهو لم يع بالضبط من أين جاء الرجل فقد أفاق فوجده أمامه ، ولا إلى أين ذهب فما كاد دمه يتغير لكلامه ، حتى كان في ثورة الغضب قد اختفى ، وهو لا يذكر ماذا كان يرتدي ، فقد أضاع الغضب للحظة الرؤيا ذاكرته ، غير أن ما أدهش العسكري ومنعه عن متابعة

بقية الحديث وعن إلقاء أي سؤال ، أن عم حسن في كلامه عن الرجل وكأنما يتكلم من الذاكرة ، وكأن ما في الذاكرة أقرب إليه مم ، منذ دقائق ، حدث ..

كان وكأنما يتحدث عن شخص يعرف تمام المعرفة ، عن شخص لا يمكن أن تكون تلك هذه المرة الأولى لرؤيته .. وحتى حين واجهه بهذا سكت ولم يجب ، آخر كلمة قالها العسكري قبيل أن يغادره إن طلب منه ، إذا جاء الرجل ، أن يشير له ويناديه ، وليدعه حينئذ يتكفل به ..

وهز عم حسن رأسه . وكان وجهه لا يزال محتقن الملامح في اكتئاب ..

* * *

وكاد العسكري يغضب حين علم — من عم حسن نفسه — أن الرجل جاء ، وأنه هذه المرة أنذره ، ومضى قبل أن يستطيع أن يشير له أو يناديه . كيف يمضي قبل أن يستطيع ؟ أهو كائن مسحور ..

إنه هكذا — مضى عم حسن يخبره — عمري ما رأيته قادماً ولا عرفت كيف يغادرني ..

عمرك — أفي المسألة أعمار ؟

بالطبع — قالها عم حسن ببساطة .. فليست هذه أول مرة إنما

دائماً وراءه اني يذهب ليسكن حتى يبدأ الآخرون يفدون ويقيمون العشش . ومن لحظتها يبدأ يأتي ولا يتركه حتى يذهب ..

وللعسكري ألف حق حين أحس أن عم حسن يبالغ ليس إلا وأنه من امتداد حياته الطويلة بعيداً عن المشاكل يجعل من الرجل جنيهاً أحمر . ووصاه وألح عليه إن جاء فقط أن يناديه ، ما عليه إلا أن يشير له ويناديه ..

ولم يأت الرجل في اليوم التالي . هكذا أكد عم حسن ، لا ولا اليوم الذي يليه ، إلى العاشرة حين كاد جاز اللمبة « الشيخ علي » يفرغ وسهرته التي نادراً ما تمتد أكثر ما تنتهي ، ويخمر من زبائنه قرر قضاء الليلة عنده ومن سيرحل ، هكذا في ظلمة الليلة ، ودون خوف من مجهوله وظلامه ، وكأنه في بيته صاحب الطريق إلى العشرة لم يكن قد جاء ..

وفي اليوم الثالث . كانت كوب الشاي التي قدها للعسكري عقب الغذاء ، وكان رجاؤه أول مرة يسمع فيها هذا الرجاء ، أن يساعده على الرحيل ..

وحين كان عم حسن يأخذ الكوب الفارغ ويمضي ويتمتم . لم يكن ما يتمتم به كلمات شكر كما أعتقد العسكري ، كانت كلمات ضيق وتبرم بالموقف الذي أصبح فيه ، فها هو العسكري يقف بجواره مصمماً على بقائه وعلى أن باستطاعته الدفاع عنه في حين أنه أعرف الناس أن أحداً لم يستطع ــ مع هذا الرجل ــ أن يساعده وأنه جانبه ويجابهه دائماً وحيداً ، ولا فائدة من إطالة النضال .

وبعد دقائق كان ينادي بأعلى صوته يا شاويش ..

وفي بضع قفزات كان العسكري قد ترك المكتب والدفتر ، والقيد والعربة النقل الدائرة موترها في إزعاج ، وأصبح أمام عم حسن ، يسأل : هو فين ؟!

وبيأس تام أجابه عم حسن أنه ذهب ..

كيف ومتى وهل من المعقول أن يكون قد اختفى تماماً و لم يمر بين ندائه وبين مجيئه سوى زمن كلمح البصر ؟ ..

ــ مش قلتلك .. أهي دي عوايده .

ولأول مرة ، وبنظرة مختلفة تماماً حدق العسكري في عم حسن ، فلم يكن هناك إلا تفسير واحد ، إن هذا الرجل العظيم مجنون لابد يتصور أشياء لا يتحدث ..

وبنفس النظرة مثبتة على وجهه بالذات على عينيه الواسعتين العسليتين .

ــ أنت متأكد أن فيه راجل بالشكل ده ..

وعلى الفور فهم عم حسن أو ابتسم في رثاء ..

وإنقضت الليلة ، وفي الصباح ، وإلى الساعة الثامنة لم يكن قد جاء عم حسن له بشاي الصبح أو بدا له أثر . ودب القلق في قلب العسكري مخافة أن يكون قد ذهب ، لولا أنه من مكانه كان يلمح العشة وجلبابه المنشور فوقها منذ الأمس ، و لم يكن باستطاعته التحرك ، فبجواره كان

ضابط ينتظر ، وعليه أولاً أن يجد له عربة ذاهبة في إتجاه العاصمة ، وهناك ، قرب العاشرة جاءت العربة ، وحتى قبل أن تتحرك بعيداً كان هو قد وصل إلى جوار العشة وقبل أن يستدير إلى الباب كان ينادي عم حسن ، وخيل إليه أنه يسمع أنيناً . وفي الداخل كان عم حسن راقداً وحول عينيه كدمة زرقاء كبيرة وصدغه وارم وواضح في هيئته أن إعتداء قاسياً قد وقع عليه . ورداً على أسئلته الكثيرة ، واستفساراته ، حدق فيه عم حسن بعينيه غير الوارمة وحدث فيه ملياً قبل أن يقول : صدقت بقى أنه بيبجي ..

وفتح العسكري فمه ولكنه عدل عن النطق ، ودون أن يغير لهجته استطرد عم حسن : مش تعمل في معروف بقى وتكلم لي سواق ..

قضى العسكري إلى الظهر ودمه يغلي تارة وجسده يرتعش تارة أخرى . إنه بطبيعته لا يتحمل أن يرى أحد ضحية ظلم مهما صغر ، فما بالك والضحية عم حسن ، أحب وأقرب من أنست إليه نفسه في الحياة ، لقد قضاها كالقط الضال برياً يكاد يصل حد التوحش من الصعب عليه أن يألف ومن الصعب أن يأتلف ، حتى مع أخيه الأكبر الوحيد ، وحتى والمرأة بين ذراعيه وقد ذابت كل الفواصل عمره ما أحس أن ألفه حقيقية قامت بينه وبينها ، حتى لو كانت (نظلة) زوجته ، والأخرى التي جرى عليها طويلاً واشتاق لها كثيراً وأحبها وكانت وبالصدفة اسمها (نظلة) أيضاً ، الإنسان الوحيد الذي اخترق حجبه وهد جدرانه واقترب أكثر ما يمكن من قلبه وروحه ، وقرب قلبه ، وروحه إلى الدنيا والناس .. كان عم حسن ..

عم حسن الذي في أيام إرتبطت فيه نفسه إلى الدرجة التي لو أصر فيها على الرحيل لوجد نفسه ، دون أن يستطيع لها منعاً أن يرحل معه .. الراقد الآن يتأ لم متورماً ومضروباً من ذلك الرجل ، مهما كان وليكن أنسياً أو جنياً ، وليكن إبليس بنفسه وبكل جبروته ؟

كان العسكري ، ولنسمه صميدة يعمل ثماني ساعات ويستريح مثلها ، ويبادله العمل والراحة زميله ، زميل لا علاقة له بكل ما ذكرنا ، ما لاحظه ولا كان على إستعداد للإهتمام به ، فهو في السن أصغر ، وتلك أول مرة يتغرب فيها عن زوجته وابنه الحديث الولادة ، وهو دائماً ، بالخواطر معهما ، لم يحس للحظة واحدة بما على قيد خطوات منه يحدث ..

وقضى صميدة ، الأربع والعشرين ساعة بجوار صاحبه العجوز الذي رقد منها نصفها وعاد إلى طبيعته من نصفها الآخر وجلس وأكل وتحدث . وصميدة صامت يجتر الغيظ ويستعيد بغضب ما يفعله بالرجل حين يجيء . ولكن أن أناساً كثيرين جاءوا وذهبوا دون أن يبدو للرجل أثر ، حتى أغمض مرة عينيه ، ورغم أن اغفاءته لم تطل أكثر من لحظات إلا أنه كان قد حلم فيها أن الرجل جاء ، والعجيب أنه لم يكن كما تصور أبداً شيطاني الملامح يقدح الشر من عينيه ، كان يبدو كالنوع (السهتان) من الرجال ، النحيف ، القصير ، وكان وجهه (سادة) تكاد لولا وجوده أن تعتقد أنه بلا ملامح ، وربما وجهه الخالي من الإنفعال ذلك هو ما جعل صميدة يحس بالضيق الشديد منه وبالرغبة الملحة في قتله ، وهو صعيدي وعربي يعرف معنى القتل ويفهمه ، رغبة بلغ من شدتها

وإلحاحها إنه أيقظته ، وحين صحا وحد عم حسن يحدق فيه بعين مفتوحة ونصف الأخرى الذي أصبح قادراً على فتحه ، وظل يحدق فيه لبرهة ثم قال : شفته ..

وكاد يقول : شفته ، لولا أن عقله إرتبك وتساءل : كيف عرف عم حسن أنه كان يحلم ، وأن الرجل جاءه في الحلم ..

وسأله : إيش عرفك إني شفته ..

فقال عم حسن : ما هو كان هنا ولسه ماشي ..

فقال صميدة : أنت راخر حلمت به .

فاستنكر عم حسن : حلمت إيه . أنا صاحي . وجه وافتكرتك شفته واستغربت أنك ما قلتلوش حاجة ..

واحسن صميدة بالخوف ، من المرات النادرة القليلة التي أحس فيها بالخوف إلى درجة كاد يخبر عم حسن أنه يوافق أخيراً على رغبته وأنه سيكلم له أول سائق يمر ..

ولكن العناد ، ذلك الشيء المركب فينا يفسد علينا لحظات الاستسلام للواقع ، ثار وأبى . وفي ومضة كان صميدة قد قرر أما هو أو ذلك الرجل ..

وانتقل صميدة إلى عشة عم حسن يقضي فيها ساعات راحته ، والعشة نفسها نقلها بحيث أصبحت تواجه الكشك تماماً ، ولو استطاع لجعلها ملاصقة له ..

وأصبح على عم حسن ألا ينتقل من مكانه إلا إذا عرف صميدة وتابعه إن لم يكن بنفسه فبعينيه ، وأصبح على صميدة أن يظل مفتح الأعين لا يغمض له جفن ، إذا نام كان على حسن أن يظل مستقظاً قابعاً بجوار زميله ، ولا ينام عم حسن وإلا وحماية صميدة تحوطه ، ومع هذا ما يكاد الإنتباه يغفل حتى يرفع عم حسن يده مستجيراً ، ويعرف صميده أن الرجل جاء ومضى كما تأتي ريح وتمضي وأنه لابد همس لعم حسن مثلما يهمس كل مرة بتهديده ، وبأن صبره قد نفد وأنه لا محالة قاتله .. والعناد ذلك الشيء المستبد الخارق يزداد نمواً كالمارد العملاق في جوف صميدة حتى ليصبح هو الذي يسيره ويخضعه ، وكلما إزداد استبداداً وإزداد التهديد حدة كلما أصبح على حركات عم حسن وسكناته أن تخضع أكثر وأكثر حتى ليكاد يشير لصميدة لينبهه أنه يريد فتح الفم أو التنفس ..

وكان طبيعياً أن تخلو عشة عم حسن من رفاق الطريق ، ليس فقط لكل ما تقدم ، وإنما لأن صميدة قد أصبح يتوجس لدى قدوم أيهم ، وبعينيه النفاذتين يتفحص ملامح وجهه ليعرف قربها أو بعدها عن الملامح كما رآها وكما أصبح يعتقد أنها قريبة الشبه جداً من ملامح أي قادم يراه ، أو على الأقل بإستطاعه أيهم أن يحيل ملامحه إذا أراد لتصبح (سادة) كريهة كملامح ذلك الرجل الكريه .

وفي صباح جميل ، كل ما فيه جميل ، إلا ما هما فيه . مال عمر حسن على صميدة وقال :

ــ ح نقعد كتير على كده ؟

ــ لغاية ما يبان ونخلص عليه .

ــ بعد يوم .. إتنين .. سنة .. سنتين ؟

ــ حتى لو بعد عشر سنين .

ــ طيب معاك ، ساعتها صحيح ح نخلص عليه إنما إحنا ح نكون رخرين خلصنا ، تعرف مين ساعتها ح يبقى إنتصر .. العند .. إحنا ح نكون متنا من زمان واللي عايش فينا العند وزي ما خلص عليه .. خلص علينا .. سيبني أمشي ..

ــ وتروح فين ؟

ــ دنيا الله واسعة يا أخي .. وإذا كان في الحتة دي عدو فالطريق مليان أصحاب ورفاق .. الدنيا حلوة يا بني وحرام تعادي فيها حتى اللي يعاديك .. عايز تغلبه سيبه ينفلق ويعاديك ، وأوعى تعاديه أنت لتخسر نفسك .

* * *

وذات يوم ، وصميدة نائم ، كان عم حسن يلقي بنفسه مرة أخرى إلى أيد الناس ، والسائق يساعده على جمع حوائج ..

وحين استيقظ صميدة ولم يجد عم حسن أو عشته أصابه ذهول أوقف تفكيره ، كأنما أحس أنه فجأة فقد كل ما له على ظهر الدنيا ، وحين أفاق ، أحس لومضة ، بالإرتياح ، فقد شعر أن العناد ينسحب من جسده ، ومعه تنسحب ملامح الرجل الكريه التي لم تغادر خياله

لحظة ، تنسحب معه فتهزمه ، لومضة أحس أن الحياة قد بدأ يعود لها طعمها الحلو ، كان عم حسن قد ذهب حقيقة وذهب معه سحره ، ولكن المكان عند التقاطع قد عمر ، ودبت فيه الأرجل وحفل بالعشش التي كانت أحداها قد بدأت تتحول إلى بناء ذي سقف وأبواب . لومضة عابرة أحس بكل هذا غير أنه أفاق تماماً من ذهوله حاول أن يجري وأن يسأل ومن السائقين والعابرين يستقصي ، لا ليعرف مكانه البعيد ، وإنما على أمل ، أن يعرف مكانه ليترك كشكه ويذهب خلفه ، وإلى الآن لم يزل صميدة مؤمناً وواثقاً أن عم حسن لابد حي يرزق ناصباً عشته عند تقاطع ما في الطريق ، ولا تزال كلما مرت به عربة نقل ، بل أن يأخذ أرقامها ويرد تحية سائقها يسأله كان قد رأى أو إلتقى بعم حسن ، وبعضهم يقول أنه من سنة رآه وآخر من شهور ، وإجابات كثيرة يظفر بها ، مرة يجده في دمنهور وأخرى في طريق البدرشين .. آه .. لو فقط يعثر له على مكان أكيد ..

يناير ١٩٦٥

﴿ انتهى ﴾



العتب على النظر

من كام يوم جاءني حسن
قل لي يا دكتور
أقول لك يا حسن
هو فيه للحمير نضارات
ضحكت
فلا بد حسن يريدني أضحك
لأ . جد
لا بد يريدني لا أضحك
سكت وإليه نظرت
ما تقول لي يا دكتور
أقول لك يا حسن
مش للحمير نضارات زي البني آدمين
كل كذا عام
لك يا حسن سؤال
لا يا حسن الحمير مالهاش نضارات

طب والعمل
وحماري لازم له نضارة
ايش عرفك
بقى يضبش
ويدخل على مراتي
يفتكرها الزكيبة
هي تخينة زي الزكيبة
إن جيت للحق
صحيح تخينة
إنما مش زكيبة
يمكن بيغلط وكل حمار له غلطة
بس ده غلطه كتر
وبدأ يحرن
ويتوه عن الدار
ومرات يخبط راسه في الحيط
عشان حمار يا حسن
لا عشان بقت عينيه شيش بيش يا دكتور
وديته لحد يشوفه
شافه البيطار
وقال لك عايز نضارة
قال بيعه . دا شرك . بيعه
بيعه

٦

ما يجبش تمنه
والحمير الجديدة سوقها نار
والحل
عايز له نضارة يا بيه
انت اتهبلت
نضارة ايه لحمار يا حمار
قول اللي تقوله
إنما أنا في عرضك
غيتني
إزاي
اتوسط لي في نضارة
والنضارة بوسايط
كله بوسايط النهارده
إلا النضارة
مش عايزة واسطة
أمال عايزة إيه
عايزة كشف
والكشف فين
عند بتاع النضارات
يبقى خلاص. فرجت
أنا وقعت م السما يا بيه
وانت استلقيتني

ست كيلات فول
واعمل له نضارة
أني حالي واقف
ومن يوم ما وغوش
أني سنقرت

● ● ●

وقعدت أضحك
افتكر حمار حسن
لبس نضارة
أموت على نفسي م الضحك
لدرجة قلت لا بد
وبكل طريقة يا حسن
أعمل لحمارك نضارة

● ● ●

لعم نـاجي خدت بعضي ورحت
وعملنا اجتماع
ومن حيث المبدأ وافق
وفضل التنفيذ
والتنفيذ عايز كشف
والكشف عايز علامات
وأنهى خمار ده

اللي
ح يعرف فتحة العلامة منين
منين حا تعرف الفتحة يا حمار؟

● ● ●

وانضم حسن أبو علي لينا
وعلى أعلى مستوى قعدنا نضبش
وجانا الحل من حسن
حل مالوش مثيل
يا ابن الايه يا حسن
أما حتة حل

● ● ●

سهّم حسن وقال:
يا بيه ويا عم ناجي
الحل عند الحمار
إزاي يا حسن إزاي
فتح حسن بقه وبص لكمه الشمال
وانكسف
هو بينكسف كده
وقال:
الحل حمارة الصاوي جاري
كان ساعة ما بيشوفها

ينهق عليها
ولما نظره ضعف
ما بقاش ينهق
إلا لما يقرب عليها قوي
وكل يوم والتاني
ما كانش يزر ودانه
إلا لما يدوبك
بوزه ينشه ديلها

● ● ●

وبعد مفاوضات
والصاوي خايف على حمارته
ولولا إن عم ناجي
كبرت في دماغه
ما كانش حصل
وتم وجرى الترتيب
نوقف حمارة الصاوي على بعد قصبة
وحمار حسن على باب الدكان
وأنا أمسك شنبر الكشف
وناجي يغير العدسات
بحيث لما يحط العدسة المظبوطة
نعرف أنها هي من نهيق الحمار

١٠

ما دام كل ما كان يشوفها ينهق
فضروري لما يشوفها ح ينهق
ونعرف العدسة المظبوطة
وعدسات عينينا تنفع لعينين الحمار
تنفع ونص
قالها عم ناجي وفتح الصندوق
وصبيه طرد العيال ووقف زنهار
وحددنا مكان الحمارة
ومكان الحمار
ودورنا الحمارة
وخلينا راس الحمار
على خط مستقيم
يصل بين نقطتين
ديل الحمارة
ومناخير الحمار
وثبتنا الشنبر بدوبارة وحوالين الودان
ربطناه واشتغل يا عم ناجي
وثبت الهدف يا عم صاوي
وانهج يا حسن وكأنك حاضر
أول عملة في التاريخ
يعملها إنسي في حمار

● ● ●

زيادة في الاحتياط ثبت أنا الشنبر
وزيادة في الاحتياط مات حسن على صندوق العدسات
وبسمل عم ناجي وكلنا وياه
وحط أول عدسة
واستعدل بوز الحمار
نفخ الحمار وعطس وهز كده وكده راسه
وكأن شيء ما كان
ثاني عدسة
خاف الحمار واتاخد وغمض عينيه
وبدأ يرفص
سهل علينا ناجي وقال: أصلها عدسة بتكبر
ولازم شاف الحمارة بغل قدامه
الثالثة مسكنا لها جامد
ورمش الحمارعشر رمشات وابتدا يبحلق
وزر ودانه
وبان عليه علامات جد وخطورة
ولحقه عم ناجي بعدسة على العين الثانية
حمحم الحمار ونفخ صدره
وزفر بصدر محروق
وراح مطلقها
تنهيقة مفاجئة خدتنا على خوانة
وكأن قنبلة انفجرت

تنهيقة وأتبعها بالثانية
ورفع للسما راسه
وتشعبطنا نمسك العدسة والشنبر
وغارة نهيق هاجت
ومعاها ضحكنا هاص
ينهق ونضحك
وحسن م الفرحة طاير .
وحمارة الصاوي للنهيق
نخت ووسعت فتحة البرجل
وابتدا يفلفص
وحسن يصرخ : أهو شاف
ايش عرفك
شاور
شيء خرافي غريب يجعلك
تؤمن أن الجسد حيوان ساعة اللزوم يظهر
لا عقل له ولا فيه ولا أدب يعرف
حيوان حماري أسود غليظ بشفاتير
زي مارد كان في الجسم متخبي
ثانية ادلدل من القمقم
مارد طويل تخين يجعلك تتمنى تبقى حمار مثله
خرجته من جحره زي الكمين الحي يستنفر
شيء لا بد معه تتأمل

وتنكسف له
كأنك الغلطان
وارتبكنا إحنا الكل خايفين نبص
ليكون عيب
ومش قادرين نشيل عينينا
لأن البصر من مكمنه بينشد
ومن غير أمر ولا خطة ، الظاهرة
عمالة وشغالة والحمار ينهق
والوحيد الباصص بعيون الفرح والفخر
حسن أبو علي صاحب الحمار
يعمر بيتك يا دكتور
تسلم إيدك يا عم ناجي
أنا طالب القرب يا صاوي
وحمارتك أهه ، موافقة
والجمهور على الجوانب انتابته حالة
وكأنه بريمةاندكت في برقع الحيا للآخر
وحمحمة ورا حمحمة سخن الحمار والزمان
دا جنن الجدعان
وهب ، قطعت رجليه القيود
واندفع خطوة
خطوة واحدة بس لأن العدسات نطت
والشنبر طار

وهديت تماماً وفي الحال وحين كف البصر حركة
الحيوان
وعاد أليف مستأنس
ارتخت ودناه
ودلدل بوزه
وصرخ حسن
في عرضك يا عم ناجي
الحقني يا دكتور
الفرحة ما تمت
والدنيا بقت هس
لكن حماسنا كان لسه
ومرة ثانية ثبتنا الشنبر
وجاب ناجي عدسات أضبط
والنهيق عاد
وفي السما لعلع
وما عرفناش اللي حصل ايه
في نطة جامدة كان عند الحمارة
ودماغه زقت عمك الصاوي
وقدام عينينا ظاهرة كونية
وعفاريت الجسد في عز الضهر اتجننت
ولا عاد حمارة من حمار ولا ذكر من أنثى
الحياة الحمارة بغشوميتها وغبائها أصبحت أرقى

والقانون اللي عمل أنثى وذكر أصبح مرعباً
وهو يطلق عقال طاقة الالتحام
ولا الرعب النووي له الجميع أنشل
الطبيعة بصراحة وبلا خجل وعيني عينك
تتكلم بأعلى صوت، تصرخ، تجأر
تضع في أجسادنا الزلازل، وداخلنا تفجر البراكين
لحظة اختلال كون
والاّ انتظامه
منتهى عقله
والاّ منتهى جنانه
لحظة لا قيمة فيها إلا قيمتك كذكرالطبيعة أو
كأنثاها
ولتذهب العقول والضوابط للأطفال والعاجزين
يلعبون ويعزون بها الأنفس
لحظة الفيض
الأجساد ثائرة وفائرة تدفق رحيقها
بكل بدائية تفجرات الشمس
ومد القمر
ووحشية الإعصار

● ● ●

واختفى الكل ولم يعد سوى ثلاثة
حمار حسن وحمارة الصاوي وقامة قصيرة تشب
وتريد
مطاولة الموقف واللحظة، قامة أبو علي وقد فقد،
للحظة، وعيه الكامل وملامحه وقد أصبحت تنطق
بالسرياني وتزمجر بأزيز يرعب حسن ويرعبنا

● ● ●

ولا تتصور ظاهرة مهولة كهذه
تنتهي كما انتهت، فجأة، ويحل السكون عاتياً،
شاملاً وكأنه العودة الى القبر. .

● ● ●

ودعونا من خناقة حسن والصاوي. .

فالصاوي أنشب أظافره في حسن بدعوى أن الاتفاق كان على الكشف من بعيد لبعيد فقط، ولم يكن الوثب أبداً داخلاً في اعتباره. وحسن يرد بغرور أن على الصاوي أن يحمد الله فحمارته من فرط قبحها بائرة السوق، وفي جوفها الآن نطفة حمار حصاوي منياوي لا يقل أجرها عن جنيه.

وكأنهما بالاشتباك الذي دار والعمامات التي تهدلت والصراخ والجئير يعيدون للكون نشازه بعد انسجامه، وضجته التي لا معنى لها بعد فحيح الضجيج الخالق.

أما حسن فقد أصبح قتيل النضارة، تلك النضارة بالذات، فلم يعد مهماً لديه أن يرى بها حماره الطريق، الأهم، الكسب. كان يأتي بنضارة الوثب تلك، الوثبة بجنيه، سعر محدد، منها خمسة وعشرون قرشاً بدل نظر أو بالأصح بدل نضارة.

أما عم ناجي فقد تطوع بتصنيع شنبر خاص لحمار حسن، بل وأحضر له عدسات أكبر، وأصبح حمار حسن ونظارته من معالم القرية، وبالذات نقطة جذب السياحة الداخلية لأهالي القرى المجاورة.

وعاث الحمار في أرض القرية بنظارته فساداً، فلم يترك أنثى على حالها، بل أحياناً كان يناوش حتى ذكور الحمير..

وأشاعوا أن حسن أرسل حماره لكتاب الشيخ حسنين، وأنه تعلم القراءة بسهولة تامة إذ على رأي عم ناجي: أنا مركب له نضارة تقرا لوحدها.

بل وفعلاً، وقد رأيت هذا بنفسي، كان الحمار كثيراً ما يرى وهو يحدق في مانشتات الصحف الحمراء، وإن بعضها كان يعجبه فيلعقه بلسانه والآخر كان لا يعجبه فيمضغ الصحيفة وعنوانها ثم لا يلبث أن يبصقها وينهق بشدة علامة الضيق الشديد.

وربما لهذا صمم حسن على منعه من الاطلاع على أي جريدة أو مجلة فقد لاحظ أن القراءة بنضارة الوثب تقلل كثيراً من قدرة دابته، ويخسر بعدها بضعة جنيهات من جراء «سدة النفس» التي

تحدث لحماره، عقب كل جريدة يقرأها ويمضغها ويبصقها، وجاهلاً سيصير الحمار، وماذا يهم: الأدب أو قلته فضلوه على العلم.

● ● ●

ومن يومين جاءني حسن
وسألته عن الحال، قال: لبن
وعن النضارة، قال: حديد
وعن الحمار، قال: عقّبال أملتك
ثم ابتسم، مخفضاً فتحة فمه إلى أسفل، راشقاً
عينه في كمه الأيسر، طريقته في الخجل، ثم
بتنهيدة من أعماقه قال:
ألا قول لي يا دكتور
أقول لك يا حسن
ما دام نضارات البني آدمين بتنفع الحمير، يا ترى
نضارات الحمير تنفع البني آدمين
ليه يا حسن
سألت
قال: أصلي عايز أتـوكـل على الله وأعمل نضارة
اليه نـظرت
ورفضت أن أضحك
فماذا بالله عليكم يضحك في السؤال
بالله عليكم، ماذا في هذا رغم ذاك، يضحك؟

أمَه

في ليلة شتاء وجدها.

ثالث شجرة قبل النفق وجدها.

واحـدة من أشجار «أم الشعـور» القائمـة على جسر النيـل عند نهاية شارع قصر العيني.

كان قد طفش.

مرة أخرى طفش.

جرب عربات القطار القديمة المركونـة صدئـة على القضبان لا تستعمل.

وتحمل «العُلَق» التي كثيراً مـا كان الخفـراء يوقـظونه بهـا حتى هجر السكك الحديدية، وجرب أسفـل عربـات النقل في «الـدرّاسة» والفجوات الكائنة في سور «فم الخليج» والمقابـر والخرائب وحـظائر المواشي في «المدبح»، وأشياء، وأمـاكن كثيرة جـربها، وكـان البشر دائماً يطاردونه، كما يطارد الكلب المسعور أو الأجرب.

كان طفش.

منذ أن طرده زوج أمه وهو يطفش.

كان يحب أمه، وكانت أمه تحبه، وأبداً لم ير أباه، إلى أن جاء ذلك الرجل وبدأت أمه تبدو ضعيفة لا حول لها ولا قوة أمامه. سكران يأتي هائجاً، ومسطولا مرة، يأتي ويفرغ هياجه وسطله في أعماق أمه المسجاة تتلوى، يأتيه صوت أنينها ولهاثها وقد أحاله وأحالها الزوج الجديد إلى سائل أنثوي ذائب من لحم طيّع وقلب بدأ بالتدريج يلين، وعنه يتحول ويبتعد.

هكذا أحس وظل يحس. كل يوم قلب أمه عنه يتباعد وناحية الرجل ونزواته العارمة يقترب، ويتشكل، ويستجيب، ويتميع، حتى صحا يوماً فوجد الرجل قد أخذ أمه تماماً مثلما أخذ الموت أباه. وحين أثمر الزواج الجديد طفلاً انتفخ له بطن أمه، أدرك أن الشعرة التي كانت تربطه بذلك البيت «الحجرة» قد انقطعت وأجبره الرجل على ترك المدرسة والعمل كصبي نجار. واستغاث بالأم مستنجداً، ولم يفاجأ أبداً وهي تصيح فيه صارخة طالبة منه أن يخرس حتى لا يوقظ الرضيع. ومالها والنجارة؟! على الأقل تعلّمك، يابن الكلب، حرفة. ابن الكلب يا أمي. أصبح أبي هو الكلب. دامع العينين قبل . . . ولكن النجار كان قاسياً وكان هو كثير السرحان والتوهان، وبالشاكوش أحياناً وأحياناً بفردة القبقاب ومعه أقبح الشتائم كان يضربه.

وطفش.

صاحب أولاداً من جامعي الأعقاب والمتسولين، وعمل صبياً في

محلات وأرغموه على أن يدفع ثمن مبيته لدى أيهم من لحمه وكرامة الرجل الطفل الذي كبرته الأيام بسرعة، يدفع الشي الكثير.

ومرة أخرى طفش.

من كل طفشان كان يطفش، من الأعور الذي حاول أن يعلّمه النشل طفش، من الأعمى الذي حاول أن يجعله يسحبه، ويشحذا معاً، طفش، فكثيراً ما كان يدفعه من ظهره بعضوه البارز أبداً. من المرأة التي أخذته ليلة وفي حضنها أدخلته، روع وطفش. والمشكلة لم تكن طفشان النهار، فمن أكوام القمامة تعود أن يجد دائماً في الأكوام، ما يأكله، لا، لم يكن يفعل كالكلاب الضالة والقطط. كان يعرف كيف يفتش وينتقي، ودائماً ما كان يعثر على شي طازج أو بالقليل غير حامض، في بحر النيل يغسله وينظفه، حتى قطع الخبز كان يغسلها وينظفها ويدعها للشمس تجففها وتسخنها استعداداً لمأدبة قادمة حافلة.

المشكلة في الليل والمأوى.

وفي ليلة شتاء وجدها..

الشجرة جذعها من جذور ولهذا يسمونها «أم الشعور» فجذورها في الهواء، تلتحم معاً، وتجف ملتحمة، وتصنع جذعاً وساقاً، تتولى عشرات السنين تضخيمه وتكبيره ليتحمل عبء الشجرة المهول. ولأن ساقها جذور متلاصقة فهي لا تكون جذعاً مستديراً مصمتاً، ولكن يظل في الجذع فجوات هي تلك المسافات التي كانت تفصل

الجذور. فجوات كبيرة وصغيرة. مفتوحة من الناحيتين مرة ومغلقة أحياناً صانعة عشاً مسقوفاً ذا فتحة واحدة.

ذات ليلة. وهو سائر بائس ولكن غير باك، فحين يصبح البؤس هو القاعدة اليومية الليلية التي لا تتغير لا يعود الانسان يبكي بؤساً، فالبكاء، يجيء أملاً في حل أو استدراراً لأمل، أو رجاء إلى الذي خلقنا أن يهدينا للحل أو بالحل ويريحنا ولو ساعة من ألم مستمر أضاع منا حتى الإحساس بالألم.

كان الليل قد بدأ يمطر. ثم بغزارة راحت السماء تصب سيولاً تفرغ الشوارع من الناس والدنيا من الونس وتخلق في النفس شعوراً قوياً بالخوف ورغبة عارمة في البكاء.

ولجأ إلى الشجرة يحتمي من السيول التي بللته حتى وصلت لنخاع عظمه. وعلى الضوء القليل القادم من عامود نور ساطع الضوء، رأى الفتحة واقترب. وبعينيه راح يتفحصها واستغرب حين وجد لها عمقاً وكأنها كهف. وللكهف من الداخل بروزات وتجعيدات، وكأنه فم عجوز يحفل ببقايا أسنان معوجة.

دخل.

وكأنه الى سرداب سعادة دخل. فمجرد إحساسه أن قذائف الأمطار وسياخها المائية قد كفت عن الدق فوق رأسه واختراق أسماله، وأنه قد أصبح في مأمن، مجرد إحساسه بهذا، سعد، فرحة كبرى غمرته، وكأنه الصعلوك قد أهدته السماء قصراً من عجب.

واستمرأ الشعور حتى أنساه كل مالاقاه في حياته من طرد وطفشان وصفعات وإهانات وعمر مديد مليء بالألم، لم يوقظه من شعوره ذاك إلا خاطر عنّ له، أن يكون في مخبئه هذا زملاء من ثعابين أو حيات أو فئران أو أي مما يعض أو يلدغ.

وإمعاناً في إرعابه كان البرق قد بدأ. وعلى ضوء البرق إذا برق والنور القادم من العامود الصامد، شبراً شبراً راح يتفحص أرض الكهف النباتي وجدرانه ولم يعثر إلا على جزء من هيكل عظمي لكلب لا بد وأنه مات من زمن، حين رماه بعيداً وبخرقة عثر عليها أيضاً في الكهف نظف أرضه، وأخيراً قرفص وجلس، أحس أنه أسعد إنسان على ظهر الأرض، أسعد من أي ملك أو غني أو الفرماوي نفسه صاحب كل عربات الكارو والخضر.

ومن فرط سعادته راح يقاوم الخدر الذي بدأ يدب في جسده ويقوده إذا استسلم إلى نوم ما ذاقه في عمره أبداً. إنه هنا ليس في ملك أحد كي يطارده أحد، وليس قريباً من مخزن أو دكان ليأخذوه بالشبهه، ولا عسكري يستطيع أن يراه، ولا أنس ولا جن أو بشر. راح يقاوم حتى يستمتع بشي حرم منه على الدوام منذ كان لهم بيت وكان له أب وكانت له أم حنون يجد في حضنها الأمان والدفء والحماية من كل شرور البشر.

يقاوم الخدر المؤدي حتماً إلى النوم. بإرادته يقاوم ومعه البرد الشديد يساعده، وكلما أحس بالدنيا خارج الكهف ترعد وتبرق والمطر بإلحاح ينهمر، وأحس بنفسه محمياً بالشجرة العجوز وحضنها عن

هـذا كله، كلما أحس بشعـور الناجي من غـرق. المحمي في قلعـة حصينة، حولهـا وحوش الـدنيا كلهـا تعوي وتتلمظ، وهـو يخرج لهـا لسانه اطمئناناً وتـأكداً أن أنيـابها تمـاماً بعيـدة عنه وأن زئيـرها، زئيـر العاجز أن يناله، وأن الدنيا أمـان مبطنـة بالقـطيفة، وقـطيفتها الـزغبية النباتية أصبحت تحنو عليه، ويسري إليه منها دفء لا يعرف مصدره.

وصحا.

في الضحى صحا.

المطر كان قـد كف ولكن ضجة الشـارع والترام بـدت كما لـو كانت قد مضى على بدئها عشر ساعات. ظل يحدق طويلاً من خلال فتحة الشجرة إلى المارة والعربات ويجتر نصف نائم، عمره كله حتى يتذكر اللحظة التي دلف فيها إلى مثواه الجديد ذاك. وعمره كله كـوم وليلة الأمس وحدها كومة أخرى وثمة فاصل حاد باتر بينهما.

وبـأيـدٍ واهنـة وأذرعٍ متـراخيـة كسـولـة راح يتحسس الجـدار الداخلي للفجوة، كـأنما يقلب بين أصـابعه محتـويات كنـز عثر عليـه أخيراً وأصبح ملكه وفي حوزته.

وأحس أنه جوعان جوعاً لم يحدث له في حياته أبداً.

ولكن كان عليه أن يغسل وجهه أولاً. والنيل بجواره. يـا له من قصرٍ فاخر. حتى الماء يجاوره. والأمكنة وافرة لقضاء حاجته.

وكأن أيضاً، حين انحلت مشكلة مـأواه ومنامـه، تفتحت أبواب الـرزق في وجهه. فمـا كاد يخـطو بضـع خـطوات في الشـارع حتى

طلبت منه سيدة هبطت لتوها من الأوتوبيس أن يحمل عنها حقيبتها. ورغم ثقل الحقيبة، فقد أحس بها في خفة الريشة. ولأول مرة في حياته يفطر فولاً وطعمية، وبصلاً، ويشرب شاياً ويدخن سيجارة من أولها لآخرها.

وسرح في شوارع المدينة. وكان رزقه واسعاً في ذلك اليوم. فحين جاء الليل كان في جيبه ما يكفيه لدخول سينما الروضة ويعشيه ويبقى معه أيضاً «ريالاً» يبدأ به يوم غده.

وأحس وهو عائد من السينما بعد أن شاهد فيلمين أنه في طريقه إلى مكان أصبح عزيزاً عليه تماماً. أعز عليه من بيت أو مكان سكنه. شيء واحد كان يخنقه إذا فكر فيه، أن يعود ليجد المكان مشغولاً بقاطن آخر اكتشفه. ولكنه كان دائماً فاتحاً فاه، فارغاً، ينتظره، ولولا أنه خاف على نفسه أن يجن لاندفع يحتضن جدرانه من الداخل ويغني لعبد الحليم حافظ ويصرخ في المارة جميعاً: لقد أصبح لي مأوى. بل إن سعادته القصوى كانت أنه قد أصبح له شيء يخصه. مكان ينتمي إليه. وكأنما عثر على عائلة لا أب فيها يموت ولا زوج أم يقطع جسده وينهش كرامته. أصبح له هو، التائه في بحر الحياة، مأوى.

ولكن الليلة كانت باردة، وظل مغلق الجفنين والنوم مستعصٍ عليه، وماذا يهمه حتى لو قضى الليل بطوله ساهراً، في الصباح أيضاً سيكون المكان ملكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد، ولا يوقظه، إذا نام، من نومه أحد، مكانه، بيته.

ولكن البرد ازداد حتى بدأ يرتعش. سيقضي نصف يومه التالي يبحث له عن خرق أو أجولة قديمة تغطيه فالبرد أصبح لا يطاق. مهما قرفص، وحشر نفسه وألصقها بالجدار الداخلي للشجرة. بل حين راح يحك جسده في الجدار النباتي الناعم بالمقارنة إلى الجدار الخارجي الخشن، لم يواته الدفء أبداً.

أحس، قرب الفجر، شيئاً فشيئاً، أن ثمة دفئاً ما قد بدأ يشمله، أيكون دفء الحمى؟ أيكون قد أمرضه البرد، وأصبح في طريقه إلى عطس وكحة ومرض إذا داهمه فحتماً سيقضي عليه؟ وتحسس جبهته، وقارن حرارة يديه بحرارة جسده، لا، لم تكن هناك حمى، ولكنه يحس بالدفء ملموساً لا يعرف مصدره، فقط حين ـ بحكم العادة ـ ملس على جدار الشجرة الداخلي، أحس أن الحرارة تنبعث منه. وخاف، حتى كادت الرعشة، رعشة الرعب من هذا الدفء الغريب المجهول، تعاوده.

ولا بد أنه خرف أو بدأ يخرف، فقد لمعت في ذهنه الطفولي فكرة، أن الشجرة العجوز قد بدأت تدفئه، وتفعل مثلما تفعل أي أم حين ينكمش ابنها في حضنها، وتحس أنه بردان، فتدفئه!.. وتخريف أو لا تخريف، أعجبه الخاطر تماماً واستراح حتى كفت أسنانه عن اصطكاكها، وأطرافه عن الرعشة، ووضع رقبته تحت ذقنه ثم دفن رقبته بين ساقيه وكأنه يتخذ وضع الوليد في بطن أمه.

ونام.

وكما انتمى إلى الشجرة تماماً وأصبحت ملجأه وملاذه من العالم الخارجي الشرير، حتى أصبح يأوي إليها في عز النهار هرباً

من القيظ حين جاء الربيع وجاء معه الحر، فوجىء ذات يوم وكأن الشجرة كانت ضائعة هي الأخرى، وبلا قريب مثله، وبدا كما لو كانت فجوتها تتحور لتأخذ شكل جسده، بل فوجىء ذات يوم بعرق داخلي منها يبرز ويمتد إلى الخارج من فتحتها ويواليه بالطبطبة وبالسقيا حتى لفي أسابيع قليلة يكبر ويكاد يملأ فتحة الفجوة ويصنع لها باباً يكاد يخفي الفتحة، بحيث لم يعد يعرف مكانها سواه.

ودون أن يدرك هو ما يحدث، وبالطبع دون أن تدرك الشجرة، بدأت علاقة أكبر من مجرد الانتماء، والحنان المتبادل، والبرودة تغمره بها صيفاً، والدفء تغطيه به شتاءً.

أحبها أكثر مما أحب أمه، لقد كانت الحضن والبيت والظليلة والعائلة وكل ما يمت إليه في الدنيا.

ولا يدري كم من الزمن مضى، عام أو عشرة أعوام، فالزمن كان قد توقف به عند اللحظة التي اكتشف فيها أم الشعور، تلك التي دبت الحياة في كل أنحائها تماماً، واخضر كل مكان متخشب فيها، ورغم أنه كان قد وفق إلى «صنعة» وأصبح صبياً في محل «دوكو»، ويكسب، إلا أنه لم يستطع أن ينتزع نفسه منها، ومن جوفها «الحضن».

ولكن شيئاً فشيئاً بدأ يحس أن الفجوة تضيق عليه، إذ كان ـ دون أن يلحظ ـ قد كبر، وكبرت معه سيقانه وأذرعه حتى جاء اليوم الذي لم يعد يقدر أن يحشر نفسه داخلها.

وهكذا الدنيا، فقد كان عليه ذات يوم أن يجمع حوائجه التي خبأها في ثنايات فجوتها، ويودع الخُن الذي أصبح من الداخل أخضر كله، ويذهب ليقاسم زميله في المحل، وصديقه، الحجرة فوق السطح التي كان يقطنها الصديق وحده.

وليال طويلة قضاها لا يعرف كيف ينام على فراش وهو الذي تعود على حضنها الحي، وعلى وضعه الجنبي المريح داخلها.

ولكن الأيام تمضي، ويتعود الرقاد فوق فراش، ويقارب سن البلوغ، ويبلغ، ويلهيه العمل الشاق طوال النهار والسهر الطويل مع الصحاب والشلة حتى نسيها، بل نسي الشارع كله وقد انتقل بعمله وسكناه الى شبرا.

وذات يوم أرسله الأسطى في مشوار لفم الخليج.

وفجأةً وجد نفسه يقفز من الأوتوبيس عند نهاية قصر العيني، ويسرع إليها ووقف مشدوهاً يرقبها.

كانت أوراقها الخضراء كلها قد جفت وأعضائها الجديدة والقديمة تخشبت وبابها النباتي اندثر.

كما لو كانت قد ماتت.

وأحس بغصة ما قبل البكاء.

وبكى.

أمه.

الخروج

تشنجت الـرغبة في السـاق أن تـرفس. أمـر أقـوى من الـرغبـة صـدر. الحركـة والخوف من الحـركة. التجمـد الذي يسـري سـاعـة الضيـاع. لا. ليس أعمى. هو يـرى، ولكن ما يـراه ظـلام. متى كـان أعمى تماماً؟ ومتى بدأ «يرى» ظلاماً؟ هناك فرق. يرى ظلامـاً، ولكنه يرى. يراه. المؤكد أن رأسه تصله رؤيا الظلام.

مذهل مـا حدث. لحـظة أن يتكامـل الوعي بـالموقف، يضيـع الموقف.

يضيع المفتاح والحل. ويضيع هو.

من أين جاء الموقف؟ بل هو نفسه من أين جاء؟ ومن هـو؟ لـم يكن يسأل. ولكن السؤال هناك. بل كل ما هناك أسئلة.

ولا جواب. لا جواب.

تكاثر الأسود في الظلام.

من فرط التراكم بدأ يحس بالظلام ثقيلاً وأثقل أثقل.

إنه يختنق.

الصدر يرتفع وينخفض. الهواء يمر بحلقه .ولكنه يختنق.
تشنجت رغبة أخرى في ساقه، أن يرفس.
حتى والأمر الناهي موجود، رفس.
ومرة ثانية رفس.
فالأولى لم تذهب بعيداً.
ارتطمت بالمستحيل.

● ● ●

عقب العشاء، والعائلة كلها هناك، وكل فرد فيها قد انتحى ركناً من حجرة القعاد يلتهم البطيخ، تكرع هو، وبينما كان شيء يرقرق في صدره ويقول: أنا أسعد مخلوق على سطح الأرض، كان فمه يتمتم: الحمد لله. ألف حمد لك. ألف حمد.

بعد ثمان وأربعين ساعة كان كل شيء قد انتهى.

وحيداً كان جالساً في نفس الحجرة، يحرك كتفيه لما فوق جذعه ويجأر بلا صوت: لماذا يا رب.. لماذا؟ باكياً ولا يذكر بالضبط ما حدث وكأنه قد مضى عليه عام..

ولكن البداية يذكرها تماماً. لحظة دق الباب. فتح ابنه الأكبر. بلا وعي، أصاخت الأسرة للحوار الذي دار وطال، وبدأت ابنته تتسلل ثم زوجته، ثم أخيراً هو. وحين وصل لم يكن ابنه هناك.

وارتفعت الأصوات، وارتفعت الأوامر. اذهب. اذهبي. هاتي الملابس حالاً . .

في القسم كان النور معتماً. والنظر. ما هذا؟ بالتأكيد ليس حلماً ولا كابوساً. ولكن الولد في الحديد، من القسم الى النيابة.

السيارة باسمه. ولكنها سيارته. بضائع مسروقة في حقيبة العربة.

بضائع من؟ أودعها عندي صديقي ليبيعها. الصديق يأتي نافر العود، مؤكداً أن شيئاً من هذا لم يحدث. المبيت في قسم البوليس. الولد يكاد يبكي من الغيظ، ولكن شيئاً ما في طريقته لا يعجبه. المحامي، أكبر محام. خمسمائة جنيه فوراً. دفعها صهره.

مفتخر الملابس ذهب المحامي في الصباح. مفتخر الملابس خرج.

استمرار أربعة أيام. في نفس حجرة القعاد تصرخ زوجته:

لو كنت ربيته. طالع لك، طالع لأخواله. طالع لعيلتكم، أخوك حرامي. اخرسي. اخرس انت. لم يكن قلماً ولكن يده هوت بنصف غضب. قلمها كان غاضباً وحاداً ومليئاً بالكره. مليئاً بالكره لم يؤلمه القلم وإنما كشف له الكره عن وجه غريب لم يره من قبل. وجه امراة عاشت معه خمسة وعشرين عاماً تكرهه. غلالة رقيقة، كجلدها الدهني، كانت تستر الكره، تحيله أحياناً إلى ضحكة سعادة وربنا يخليك. تكرمش الجلد كارهاً، نافثاً حقداً معقداً أسود.

رفع يده. يصفع. تعلق الابن الثاني، والبنت في الذراع.

دفعهمـا. اندفعت البنت، ودفعـه الولـد، دفعة غليـظة أسقـطتـه فـوق الأرض.

قام هاجماً كنمر مفترس. ماذا حـدث؟ هل ضـربه الـولد لكمـة أداخته، هل هي لكمة منه، وصفعة منها، وعرقلة من الابنة؟

أنت طالق.. اخرجي من بيتي أنت وأولادك الحرام.

اخرس.

قالها الولد.

اخرج أنت يا كلب.

قالتها الزوجة.

بلاش قلة أدب..

قالتها البنت.

في عملية جمع الملابس. سيحرقهم جميعاً. خائف على نفسه أن يتوقف قلبه عن الدق ويموت قبل أن يحرقهم. مرارات الدنيـا كلها تتجمع في حلقه فأحد لا يأتي ويرجو أن يبقى، لا أحد.

في حجرة الفندق الرخيص فرت من عينه دمعة، لحقتها دموع.

من يهن يسهل الهوان عليـه، ما لجـرح بميت إيلام. لن يهـون أبداً. لن يهون. والـواجب سيؤديه كـاملاً. سيخـرج الولـد من السجن أولاً ثم يتفرغ للأفعى وأولادها. على باب القسم كـان ينتظره صهـره. قبل أن يقول أهلاً كان وجهه يطالب بالمبلغ. حسابه في البنك يسمح تماماً بالمبلغ ولكن النقود باسمها. الصهر لا يفهم. بوجه صارم يطلب

موعداً. بعد غد. بعـد غد وإلا. لا داعي لـ. . إلا. بعـد غد يعني بعـد غد.

قال له رئيسه: تأخرت. هذه ليست وكالة. لم لسانك. هـذه قلة أدب. خـد. آه يـا كلب. خـد. ومـا لم يستـطع أن يفعله في حجـرة القعاد، فعله هنا في المكتب الفاخر. وعلى صـوت الاستغاثـات جاء السعاة والموظفون. وتحقيق طويل طويل. وإيقاف فوري عن العمل.

في حجرة الفندق المكتومة، قال: على الأقل ما أزال حياً، لم أمت بعد.

● ● ●

لم يعـد ذاك البياض النـاصع أبيض، أغبـر البياض، واحتقنت جزئياته وتعقدت وانبثقت شبكة عروقه كالعنكبـوت الأحمر جـرى فيها دم. في كـل ثانيـة يتوالى التغييـر. ويتعقـد أكثر. انتفـاخ بـدأ ينبض. انبعـاجات. نتـوءات. أشياء كـالغضاريف، مكـونات مجمعـة مبعثرة لا معنى لـوجودهـا معاً بـالمرة، تكبـر وتتقارب وتكبـر وتتباعـد حـوافهـا وتتـداخل. ثم فجـأة وكأنمـا قد أضيف إليهـا عنصر هـام فعال نـاقص يصبح لكل شيء معنى. معنى واحد ينتظم الكائن الجديد كله. معنى واحد يعطي معنى لكل ذرة وجزيء وجزء. وتنتظم الأجزاء والجزئيات والكل حركة واحدة، ذات معنى محدد واحد. الحياة أنا. أنا أحيا.

الذرات تأمر الذرات. العضو يأمـر العضو. الأمـر الأكبر صـادر من أعلى.

● ● ●

في الصباح رد تحيته شاويش الحجز بقرف. ابنك فقأ عين مسجون مرحل. برز لـه من باب الحجز وجه رفيع أصفر. ابنك مظلوم. المجرم حاول الاعتداء عليه بالقوة ولو كنت مكانه لفقأت العينين. أين الولد؟ أمام الضابط يا حضرة الضابط، كلمة. ولا كلمة. س سؤال. هل هتك عرضك فعلاً؟ أرني نفسك. يغلي الولد بالغضب يثور. يضربه الضابط.

يثور الأب. يضربه العساكر. وخارج القسم يلقونه.

يعود مغلوباً يسأل. المسجون أخذته الإسعاف الى المستشفى.

أمام قسم العيون ينتظر ممنوعاً من الدخول. بالرشوة يدخل

يا دكتور: العين انفجرت، خيطناها، وهو وحظه.

لو ضربت سنستأصل عينه الأخرى. أعمى هو قد أصبح. إلى أين يذهب؟ جرياً الى المحامي المفتخر. المحامي مستريح تماماً يقول، المحضر. المسألة في يد الضابط. وفي يد الضابط يدس خمس ورقات بمائة جنيه. فيدفعه الضابط كمعن أصيب بلدغة. يفتح محضراً بمحاولة رشوة والشهود اثنان من أمناء الشرطة. الظلام الكامل حل. شعاع ضوء. المحامي جاء وتوسط. الظروف حرام. راعيها يا سعادة الضابط. كله منها. حين كان يغضب منها أو تغضب منه كانت الدنيا تظلم. ليصلحها الآن وفوراً. التاكسي حين يركبه يجده ذاهباً إلى شبرا. يهبط في منتصف الطريق يتطلع. لا يعرف أين هو. الحي غريب. وبيته يبدو في آخر الدنيا. في آخر الدنيا.

وحين يصل يجده مغلقاً، ولا أحد في الشقة. على البسطة يجلس. أراد أن يبكي، كان قد وصل إلى ما وراء البكاء. انتظر. عاماً كاملاً بدا انتظاره. جاءت ومعها الابنة. ما إن رأته حتى خلعت فردة الحذاء، شرر عينيها يصب اللا تفاهم المطلق، فتح فمه. هبت عاصفة من فمها. أطل الجيران. اندفع إلى الشارع يجري. قابله صهره. الخمسمائة جنيه. وصل أمانة يستحق الدفع اليوم. الدفع أو الحبس.

في حجرة الفندق أصبح التنفس صعباً.

لا، ليس الآن أرجوك أيها الموت ليس وأنا مهزوم ومسحوق.

انتظر حتى أعود إلى السباق واسترد الجميع. الزوجة والأسرة والأبناء. وبالذات هذا المحبوس في جريمتين. ليس الآن.

دق الباب. دخل أخوه. استراح تنفسه. لم تعد المسألة إذن سراً. استراح تنفسه أكثر حين بدأ الأخ يؤكد له أنه لم يخطىء، وأنه كان بالضبط سيفعل مثلما فعل. ولكن. آه من لكن حين تخرج بعد نهاية المواساة. ولكنك كان من الممكن أن تفعل وتفعل. وكأن كان له خيار فيما يفعل وفيما لا يفعل. ساعة القضاء يعمى البصر. ويعمى الفعل. فهو أبداً لم يفعل. إنه مسير فيما لا يفعل. دفعة إثر دفعة وكأنه كتلة لا وزن لإرادتها. النهاية، معاك فلوس؟ وتنحنح، وآه من الأخ حين يتنحنح، وينخنخ وفي النهاية يستأذن.

وجاءت أمه وخالته، أمه تنحو عليه باللائمة، وخالته تطبطب.

أهذه آخر تربيتي فيك. بكرة كله يتعدل. متفائلة يا خالة كعادتك تفاؤلاً دائماً لا معنى له بالمرة. مع السلامة يا ناس.. اتركوني واطفئوا النور.

وفي الظلام أحس أن الظلام يتكاثر، وأنه يجثم على صدره، ولأول مرة كان يرى الظلام رأي العين وتشنجت الرغبة في ساقه أن يرفس.

● ● ●

وكان مفروضاً أن يؤكد له انبثاق الرغبة أنه لا يزال حياً، وكان مفروضاً أن يدفعه الإحساس بالحياة أن يفرح. ولكنه لم يفرح.

فمن زمن طويل والإحساس عنده بالحياة لم يعد مرادفاً للإحساس بالسعادة أو الفرحة. منذ زمن بعيد جداً حدث هذا، بعد أن ذاق كل أوليات الأشياء، أول بدلة، أول نجاح، أول جنيه، أول نظرة حب، أول ليلة مع امرأة، أول ليلة مع امرأته، أول ترقية، أول أمل. منذ زمن سحيق لم يعد هناك أمل، كله تكرار للأول، حتى الإحساس بالحياة لم يكن يحمل إلا مزيداً من الإحساس بالمسؤولية، الحياة أصبحت مهام، كلما أحس بها عليه أن يربط نفسه بالتزام وبسرعة أكثر، لتحقيق هدف، ولا نهاية لتحقيق الأهداف، فوراء كل هدف هدف، ووراء كل هدف هدف.

ذات مرة كان أقصى أحلام حياته أن يكون إيراده الشهري الثابت مائة وخمسين جنيهاً، حين أصبح يصرف مثلها في اليوم الواحد

أصبح الهدف خمسة آلاف وعشرة وكلها ثابت أيضاً. أن يخلف ولداً أصبحوا ثلاثة وبنتاً. أن يتعلموا ويتخرجوا. تخرجوا وأصبح الهدف جديداً. أن يعملوا، وهدف أبعد. أن يتزوجوا. وأبعد وأبعد. أن يكون له أحفاد. أعز الولد ولد الولد. وهي. أقصى أمله كان أن تنظر ناحيته عن عمد. حين نظرت أصبح أن يكلمها. حين كلمها. يقبلها. والزواج كان مستحيلاً. تحقق. أن يلعب بذيله، ويستمر، لعب، أن يلعب أكثر، لعب أكثر. يحافظ على«السعادة الزوجية»، حافظ وجرب السعادة والتعاسة، والخناق والصلح، وتهديد بالطلاق، والطلاق، والندم، والعودة، والصلح، وشهر العسل الثاني والثالث والرابع حدث ويحدث، كل ما في الأمر أنه أصبح مكلفاً أكثر.

كان مفروضاً أن يدفعه الإحساس بالحياة أن يسعد. مثلما سعد أول مرة. أن يشفى.. يشفى من ذلك المرض العضال. التهاب المفاصل الذي أرقده، وجعل حلم حياته أن يتمكن من السير مجرد السير، مرة أخرى دون مساعدة أو شماتة من أحد. عاد يسير، ويمشي. ويجري أحياناً، ويلهث، ولم يحس أبداً أنه سعيد، حتى وهو يتذكر كيف كان كسيحاً وأعرج ومكبلاً، يقبل يده ظاهراً وباطناً أن الحمد لله، ولكن هذا الإحساس العميق الشامل الصامت بالنشوة، إنه سنعيد حقاً وصدقاً، لم يحدث، وإن حدث فلثوان معدودة بالضبط كالإحساس أنه الآن، حين نقولها، قد مضت ومضة، ومرت ثانية، صحيح ليس مثلها مثل أي ثانية أخرى، ولكن الغريب أنها لها نفس طولها، ثانية أخرى مضت.

عـريضـاً، واسعـاً، شـامـلاً، كـان إحسـاسـه بـالحب والألفـة والتـواصل مـع كل بـاقي الكون. في النهـار يحب الشروق حين تبـدأ الشمس بغمـزة جفن في الأفق، تشـرق. والنهـار رائـع بوضـوحـه، وإشعاعاتـه، وتحقق كل شيء فيـه، كل أحـلام الليل تتحقق، إذا لم يكن صباحاً، فعلى الغداء، فإذا صعبت لا يـأتي عليها بعـد الظهـر، وما أروع العصر حين يجيء كالذهب الرقيق السائـل يسدل فـوق كل شيء وقـد تحقق، كل أمنيـة وقـد حققت النهـار وتحقق النهـار بهـا، والآن جاء وقت أن تغلف بالعصر الملون الشفاف وتصبح هدية ذلك اليوم. الليل جميل. نجومه هناك تبرق بفرحـة الوجـود مع غيـرها معـاً وتتلألأ، تزف القمر وتتلألأ وتبـرق. كل شيء حلو ويستحق المحبـة. الإحساس برجولته المبكرة، يحب شكله في المرآة، يطيل التأمل فيه ويحبه، الكلية التي اختارها وحقق اختياره، والمهنة، ومكان التعيين، ولحـظة تسلم العمـل، كـل شيء، حتى بصعـوبـاتـه، يسعـد. حب واسـع، شامـل لا نهائي الامتـداد، يشمل كـل شيء، وكـل انسـان، يحب القرية بيت بيت وانســان انسان، والمـركز، واسم محـافظتهم، ومصر، والدنيا، يحب الدنيا. والعالم. حين تذكر أمامه أو يذكر كلمـة البشـرية، يحس بـالجنس البشري، جسـد دافيء بالحيـاة. هـادىء، صاخب، متدفق. يسبح فيه ويشربه ويغوص في أعماقه، ويطفو فرحـاً عابثاً، مندفعاً فوق سطحه..

وإذا بـذاك الإحسـاس، كـالبحـر حين يتحـول إلى بحيـرة، والبحيرة إلى فوهة. تنكمش غلالـة الحب وترق، وتتحـول إلى بقعة،

بالكاد عائلته، بالكاد وبالكاد عائلته الأصغر. فابنه الأوسط قد اخشوشن تماماً ونمت له ذقن وأغرزت، وبدأ حتى يصيبه، كخاله بعض الصلع. ابنه الأكبر اتخلع بعواطفه تماماً وأصبح على وشك أن يقيم له بيتاً آخر ويتزوج. تكاد العلاقة تصبح رسمية. لم يعد يستطيع أن يلعنه إذا غاظه أو حتى يعلي عليه صوتاً. حب، هذا حقيقي، له ولأخويه، ولكنه حب المتأكد أنهم مستقلون وقادرون، بل وأصبحوا أنداداً يكاد لولا الحياء يقول لأيهم: ياسيد.

البنت الحلوة الطفلة ذهبت أيام اللعب معها والضحك والقبلات والأحضان التي وكأنما كان يحضن بها الدنيا، أو بالأصح السعادة كلها الكائنة في الدنيا، حضنه، شيئاً فشيئاً قد أصبح يملؤه جسد يتضخم حتى صار جسد أنثى لا تتفتح كل مسامها حين يضمها وإنما يتكور وينكمش ويستقل ويتحدد جسداً ثم في النهاية تصبح امرأة أخرى.

وزوجته الغرام، الغرام حين يطول يصبح عادة غرام، وقصة الحب حين لا تنتهي كما بدأت، فجأة يصبح لها خرير مستمر واثق موثوق به لا يحمل مفاجأة أو نكسة. ومن التكرار تتشكل زمالة اثنين أصبحا فرقة لا يتباريان وإنما، معاً، يلعبان مع الحياة اللعبة. واللعبة طويلة مهما طالت لا بد أن تنتهي كالدائرة المفرغة، مشكلة لا حل لها إلا بحلها..

بالكاد لم يعد قادراً إلا على حب الأسرة.

بل في الواقع ذكرياته عن الأسرة. فالطفل الذي يحبه، طفلاً، كان، إذ هو الآن رجل كان ذات يوم ابنه، والزوجة كانت غراماً، والحب كان حباً، حباً لذاته، اليوم أصبح تعلقاً شديداً، أصبح أنانية، وكأنما هو الحب للنفس يتخذ أبعاداً أخرى.

كل شيء استحال وتغير. كان يستطيع أن يواجه الدنيا بجيب ليس به سوى قروش. الآن يرعبه لو نقص الحساب رقماً أو خانة. كان حين يهدد أن يترك البيت كان يفعل هذا بإحساس من هو على يقين مطلق أنه يستطيع، من جديد، وفي التو، أن يبدأ حياة أخرى. الآن يرعبه مجرد أن يبتعد عن الدار أو أن يبعد أنملة عن الخط الذي فرضته عليه حركته مع الدنيا. الدنيا التي تلخصت في خيمة صغيرة مركزها حجرة القعاد في بيتهم وأقصى أطرافها رحلة لأكل العيش ولجلب ما عند محيط الدائرة والخيمة إلى مركزها. مركز الدائرة المفرغة والخيمة المفرغة إلا منه ومنها.

ينكمش. يضيق. يتغير. الطعم يتغير. ما يمتع لا يمتع. ما يشبع لا يعود يشبع. والحياة يتغير لها الهدف. من وحده مسئول عن الإبحار إلى فنار يتحقق. إلى فنار بعد فنار. إذ به يصبح مسئولاً عن صياغة حياة «سوية» للأولاد الثلاثة والابنة. من أجل أن يصوغ هذه الحيوات لا بد أن يعيد صياغة حياته هو، لكي تصبح مثلاً يحتذى. بجماع قواه يمسك بزمام كل منهم. وبالزمام العام لا يريد أن يفلت، وشيئاً فشيئاً لا يعود يعرف أهو السجان للخندق الذي يريد أن يمر كل شيء فيه حتى يستقيم ويعتدل، أهو السجان أم في الحقيقة السجين؟ حريته تضيق إلا عن الأفق المحدد بصرامة، إذا أرخى العنان فلت الجميع.

إذا شدد تماماً ينفلت الزمام. بأي قوة قاهرة يمنع القبضة أن تكون أضعف. حتى يستغرقه الأمر كله ويتلخص العمر في خطو دءوب نحو ماذا، نحو أن تنتهي المهمة، أن «يتحرر» وأبداً لا تنتهي المهام، فانتهاء المهمة لا يفعل إلا أن يكشف مهمة أبعد. والعائلة التي كان أفرادها طوع بنانه تشتد فيها السيقان وتقوى وتخشن. بصعوبة يستطيع أن يغير إرادة أو رغبة. الشجيرات أصبحت كل منها شجرة، رفعت الخيمة المحكمة التي كانت تضمها، رفعتها فوق قممها فبدت في النهاية كالعلم الممزق، كبروا عليه، وصغر عليهم، ولم يعد في النهاية إلا صرافاً عليه باستمرار أن يملأ الخزانة، وويله إذا يوماً فرغت، فسبب وجوده والمبرر الوحيد للخضوع له يكون قد تبدد..كم أشرفت هيمنته الباقية أن تتهاوى، وكم تغابى وأحنى رأسه للعواصف كي تمر ليبقى كل شيء وكأنه على حاله لم يتغير، وكأن العائلة متماسكة، هو الأب القوي وهي الأم المثلى، وهم الأولاد الطيبون الناجحون باسم الله ما شاء الله.

ولكن، ، كان محتماً، ولا مهرب منه، يوم تتطور فيه مشادة، أو يحدث حادث، أو يشتبك مع ولد، أو يحدث لأيهم مشكلة، أو يدق الباب ويدور حوار يطول وينتهي إلى تهمة، وتتمزق الأقنعة.

وفي الصباح كانت الغرفة أضيق وأثاثها أكبر، وكان النور هناك، ولكنه يوضح كم الدنيا ظلام، وكم الهواء قليل، وكم هو يقل وسادر في إقلاله، وكم هو يختنق، ويحس أن كل ما كان يجري لم يعد يجري، كل ما كان يتفتق عن العقل من حيل ومن حلول، لم

يعـد يحل أو يـربط. أطبق الواقـع الـرهيب ولم يعـد يقـدر أن ينبس، وتشنجت الـرغبة في سـاقـه أن يـرفس. رفس. ارتـطمت السـاق بـالمستحيل. مستحيـل أن يخرج. العمـر فات. والـواقع أكبـر من كل الطموحات والإرادات.وما يهمس له بالتمرد ما هـو إلا شيطان شـاطر. عليه أن يطرده ويستكين إلى حيـاته فلم يعـد في العمر قـدر ما مضى منـه، وبيته وأولاده ومشـاكله هي عمره الـذي فات ولا بـد أن تكـون عمره القادم أيضاً.

أنا غلطان..

سيل من الصراخ والعويل مختلط باللغط.

غلطان..

عيون تحدجه بالاتهام والتعذيب وتسوق له، شتـائم، جارحـة، يراها وينزف لها، ويبتلعها.

غلطان. غلطان يـا ناس. غلطان. أنـا المسئول عن عبث الـولد وسجنـه، مسئول عن إخـراجه وتـزويجه، مسئـول عن الدورق الـذي كسـر والتليفزيـون الذي لا يعمـل، مسئول عن عـدم تطبيق الشـريعة الإسلامية والتعذيب في السجون والحربين العالميتين: الأولى والثانية وإذا اشتعلت الثالثة أكون أنا المسئول. غلطان.

وحين سكت آخر صوت في البيت وآخـر احتجاج، وكـأن شيئاً ما كان، تشنجت الرغبة في ساقه، بحدة، أن يرفس..

ولم يستطع.

كانت آلام المفاصل الحادة قد عادت تشل ركبته.

أخرج الولد من السجن، وقيدت القضية جنحة، واستعاد عقد الشقة وأصلح التليفزيون، واصطلحوا مع الجيران، وبدأت الزوجة تتحدث عمن ترشحه لخطبة الابنة، وتقطع الحديث بضرورة شراء جهاز تكييف فهي لا تنام من فرط حرارة الجو وصوت جهاز الجيران..

وحين ناموا جميعاً، وبقي هو ساهراً، لم ينم إلا بعد أن خبط رأسه في الحائط عدة مرات..

● ● ●

في منطقة معزولة من شط النيل عند القناطر الخيرية، جلس وقد مدد ساقيه الحافيتين في الماء. الجو حار ولكن النباتات الشيطانية تلتهم حرارته، ويصدر عنها وعن ماء النيل رائحة كرائحة ما قبل نشأة الحياة. الصنارة تغمز، غمزاً ثقيلاً.. دفقة فرحة غامرة تنداح في صدره. قلبه أخيراً ينبض ذلك النبض المدوي العالي، كنبض أول قبلة. أخرج السمكة. بلطية فتية وزنها لا أقل من كيلو ستتكفل بمصاريف اليوم وما تبقى من النهار ويفيض ما يكفي علبة الدخان، ويبيت الليل عند الخفير في عشته وهدية لابنته السمراء المليئة بحيوية البلطى ودفء ماء النيل في الصيف.

وكشبح يطفو من الماضي داعب ذاكرته ما قرأه في جريدة تركها صاحبها في الحدائق، ورأى فيها صورته، صورة بطاقته الشخصية العجوز الجامدة الملامح: خرج ولم يعد، رجل في الخمسين أسمر

الملامح حليق اللحية والشارب أبيض الشعر، يرتدي جلباباً مقلماًوشبشب زنوبة، من يجده يتصل بهذا التليفون أو بالعنوان.. خرج ولم يعد.. خرج ولن يعود أبداً والحياة لا بد قد سارت من بعده أفضل بكثير مما كانت تسير به.

أبداً لن يعود.

• • •

لم تعد الساق حين ترفس تجدي. تشنجت الرغبة هذه المرة في الرقبة، بجماع رقبته دق بمنقاره على الجدار الأصم، رن المنقار مرتطماً بالجدار. بآخر ما تبقى في قمة البيضة من هواء امتلأت حوصلته فسدد منقاره ودق. انتهى الهواء وانهال برأسه المدبب على الجدار مختنقاً، دقاً مستميتاً يدق، آخر دق.

لا يعرف لماذا يدق، وإلى أين هو صائر، ولكنه مختنق يدق ويدق. لا يعرف إلا أن حياته كلها تلخصت في أن يدق ويدق!

وفجأة..

انهارت قطعة دقيقة، وأخرج المنقار منها، ورغماً عنه تنفس، هواءً كثيراً يدخل الحوصلة ويزيده نشاطاً ينهال به على الفتحة يوسعها، فيخرج رأسه، ويحطم ما تبقى من الجدار فيخرج جسده الكتكوتي المرتعش.

النور باهر يغلق عينيه.

الهواء كثير وفسيح ودنيا واسعة واسعة أوسع من كل قدرته على الرؤية..

وانتفض يسقط ما علق بجسده، وانطلق في مرح لا نهائي يجري.

لماذا أصر على الدق والدق حتى كسر الجدار؟ وهو لم يكن يعرف أنه جدار؟ وأن خارجه كل ذلك النور والاتساع؟ أهي قوة مجهولة داخله كانت تعرف؟. أم هو الضيق بالاختناق دفعه أن ينقر وينقر ليموت نقراً وضيقاً؟

لا الكتكوت يعرف.

ولا هو قد عرف.

فالإحساس الطاغي الوحيد لكليهما أنه الآن في عالم آخر.. فسيح جداً.

الختان

بعد سلسلة من الميراث والتوريث، والقطع والبيع والموت والميلاد، آبت الجميزة العجوز إلى ساق ضخمة سميكة قصيرة، تنتهي إلى فرعين اثنين ورثهما الشقيقان محمد الهادي الكبير والهادي محمد الصغير. ونحن كنا أبناء محمد الهادي الكبير. وبمثل ما قسمت الجميزة العجوز بين الأخوين، قسم البيت الكبير أيضاً. ولكن الجميزة كانت أروع ما في طفولتنا كلها. أروع من ليالي القمر، وصيد السمك، ونزهات الحقل، ومشاهد الصراع الحافل بين زوجة عمنا وأمنا. كانت شيئاً خرافياً، نسأل عنه الآباء والجدات وعواجيز القرية فلا يدرون أهي نبتت «شيطاني» أم أن جد جد جدنا الأكبر الهادي الأول هو الذي زرعها؟. كانت مثار دهشتنا، مختلفة تماماً عن أي كافورة أو نخلة، خشنة وقد حفر الزمن بأظافره وأنيابه في ساقها الغليظة السميكة فصنع معه بروزات وشقوقاً، وحفائر، وجروحاً غائرات، وندوباً، ومسامير حدادى مدفونة صدئة. مشهد رائع وكأنما الزمن الذي عاشته، والتطورات التي حدثت لعائلتنا قد تجسدت مكتوبة ومحفورة على ساق الجميزة.

المهم أننا ونحن في تلك السن بدأنا نلاحظ أن فرعنا نحن، الذي ورثه أبي، دائماً شاحب الأوراق، ذابل الأفرع، قليل الثمار حين وقت الثمر، فقير الأغصان لا يصلح أبداً لإخفاء صغير منا حين نلعب الاستغماية مع أقاربنا وبالذات أولاد عمنا الهادي، ونتخذ من الجميزة بفرعيها الهائلين الضخمين مكاناً للاستخفاء. كنا نتبارى في الوصول إلى فرع عمنا لتسترنا أوراقه العريضة شديدة الاخضرار، وأغصانه شديدة الكثافة، وثماره التي كنا ننتهز فرصة الاختفاء وننهال عليها التهاماً. ثمار كبيرة، منفوخة بالطزاجة كالكرة الحمراء الحلوة.

الشجرة هي الشجرة والساق هي الساق الأزلية، والفرعان لهما نفس الحجم الهائل، ولكن شتان بين فرعنا الهزيل رغم ضخامته، وفرع عمنا الهائج بالأوراق والأغصان والثمر. نساء العائلة يقلن: إن المسائل أقدار، وإن عمنا الهادي هكذا «مبخت».. محاصيل أرضه دائماً أوفر، ولبن جاموسه أكثر، وعنزته دائماً تلد اثنين، بينما أبونا محمد الهادي يعزو الأمر إلى أن أباه «جدنا» كان يؤثر عليه عمنا، ولهذا وصى له بالفرع الأحسن. ورغم حبنا لأبينا فبيننا وبين أنفسنا كنا لا نصدقه. فالفرعان متماثلان تماماً في الطول والحجم والارتفاع، بل إننا لنسمع أنه هو كان المفضل لدى جدنا وليس أخاه. ويقول لنا القائلون إنهم لم يسمعوا في حياتهم عن فرع في جميزة واحدة، أو أي شجرة، أخصب من فرع، فالشجرة الأم أبداً لا تظلم أحداً من فروعها فشريعة الكون كله العدل، والظلم شيء لا يعرفه إلا الانسان وحده وبفعل الانسان.

وكنت أنا أكثر الأولاد حيرة للأمر. حيرة كانت تدفعني لتأمل الجميزة طويلاً وكثيراً، بل كانت تدفعني لمراقبة أبي وعمي كلما صعد أحدهما إلى فرعه يشذبه، أو «يختن» ثماره، أو يقتلع غصناً كسرته الريح أو يد طفل شقي. أبي كان رجلاً طيباً حقاً. كان كما يقولون لا يؤذي نملة. يصلي ويصوم ويعاملنا بسماحة، وعمري ما رأيته غاضباً أو يقدح الشرر من عينيه، ولكنه كان يميل إلى الوحدة، ولا يعرف جلسة الأصحاب، وما رأيته أبداً يهزل، أو سمعته يقهقه، أو يسهر، أو حتى يدخن. لا أقول على عكسه وإنما عمي الهادي كان غير هاد بالمرة، كان صاخب الوجود دائماً، معظم الأحيان مكشراً، ولكنه إذا ضحك زلزل الأرض بضحكه، غير أنه نادراً ما كان يفعل، فلم يكن يضحكه غير الشديد القوي الشدة.

كل ما في الأمر أن الموقف كان يختلف حين يصعد أي منهما الى الجميزة. فأبي لم يكن يحب الشجر. كان يظن أنه بظله الذي يلقيه على أرضنا المزروعة قمحاً أو قطناً، يضعف الزرع ويمرضه. وكان لا يصعد إلى فرعنا إلا مضطراً، بل نادراً ما كان يلحظ وجود الجميزة أو يدرك أن موعد التختين قد حل إلا بعد أن يرى أخاه قد بدأ «يختن». وتختين الجميز هو تحضيره لعملية اللقاح ونضج الثمرة. حين يقارب حجم الثمرة حجم الليمونة الخضراء الكبيرة، لا بد أن تشق بسكين حاد شقاً يفتح داخلها ويعرضها للهواء. وحين كبرت عرفت أن هذا الشق يسمح للهواء بالدخول والهواء يحمل حبوب اللقاح، وبهذا تتم عملية التلقيح وتبدأ الثمرة، كالأنثى التي حملت، تنتفخ، ويبدأ لونها الأخضر كلون وجنات العذارى، يحمر ويندمل

الجرح.. ويستحيل الى شق أسود تجمد الدم الأخضر على شفتيه، والذي نتج عن عملية التختين، في الوقت الذي تستحيل فيه الثمرة الى فاكهة ناضجة، يقطفها القاطف، أو تسقط من تلقاء ذاتها، وحين يأكلها ويأكل معها البذور إنسان أو حيوان أو جمل، ينشر البذور في الآفاق ويتكاثر النوع، ومن جديد تعاد قصة الجميزة الشجرة.

كان أبي يقوم بعملية الختان كلها في يوم واحد، ، وبصبر نافذ، فإذا ضايقته ورقة عريضة اقتلعها، وكان لا يهمه أن يكون السكين حامياً، أو حتى الجرح نافذاً، حتى كان يخيل إليّ أن الثمرات العذراوات تتألم. ولأنه يقوم بالعملية في يوم واحد، فلم يكن يهمه عمر الثمرة، أو إن كان قد آن أوان تختينها، طفلة أو كبيرة هو يشق استدارتها وفي أي مكان يتراءى له،وينتهي من العملية ويهبط من فوق فرعنا وقد حفل وجهه بالعرق، ويلهث وكأنما كان يؤدي فريضة واجبة حمداً لله أن انتهى منها. عمي بالعكس، يجيء من البيت غاضباً لأمر أو لآخر، يشرب سيجارته حتى ينفث غضبه، ثم يخلع جلبابه، ويقف تحت فرعه وشيئاً فشيئاً تبدأ ابتسامة ما، باهتة، لا تلبث أن تتعانق وتتسع، وعلى مهل يصعد الجذع المشترك، ثم يدلف الى فرعه كالعريس يدلف الى غرفة عروسه. يمتحن الفرع بأوراقه وأغصانه وكأنما يطمئن على كل جزء منه. يلوي شفتيه ضيقاً إذا لمح اصفراراً أو ذبولاً ، ويتهلل وجهه فرحاً حين يلمح جنين غصن قد «بزبز» ومن جيب «الصديرى» يخرج مطواة قرن غزال سنّها في اليوم السابق على حجر الطاحونة، ومهما ضربت الشمس يافوخي وأنا أتفرج فلا أتزحزح وأنا أرى عمي الكشر صاحب المزاج المتغير دوماً

وقد حفل وجهه بسعادة نادراً ما أراها يحفل بها وجهه. باصبعين يمسك الثمرة الخضراء. برقة يمتحنها حتى إذا أدرك أنها للختان حانت، في سرعة الساحر يمر بسيف مطواته على مكان ختانها المضبوط، ثم يرنو الى الجرح الباهر العميق الذي أحدثه في ومضة، ويتأمل أعماق الثمرة الشاحبة الاحمرار والاصفرار، وربما يتفكر لهنيهة في لونها حين يتأنث ويحمر ويتغير، وفي شكلها وحلاوتها حين تنضج ، ويتركها لغيرها وكأنه يترك مائدة سعادة حافلة الى مائدة حافلة ثانية قادمة.

ويظل أياماً وأياماً، «يختن»، وكلما اعتلى الشجرة ثم هبط عنها وارتكن بجذعه الى جذعها، كنت من بعيد أرقب شفتيه، وهي بشيء كالأغنية تترنم، ومزهواً يمشي الى الترعة، حيث يغسل يديه ومطواته، ويصعد مرة أخرى الى المصلى المفروش بقش الأرز، لا ليصلي وإنما لينام وملء وجهه تلك الابتسامة الغامضة التي لا أدري لها سبباً. وأتسأل وأنا من بعيد أرقبه: أهذا هو عمنا «الهادي» الذي يرعبنا دائماً حضوره وبتكشيرته يجعلنا، دون أن يأمر أو يكشر، عن لعبنا أو صراخنا نتوقف.

ولكن الغريب أن فرع عمنا مات من تلقاء نفسه، بينما فرعنا إلى الآن لا يزال حياً. صحيح لم يعد يثمر ما يؤكل، فلم يعد أبي يقوى على طلوع الجميزة، وأولاده أصبحوا موظفين في البندر، ولكني ما زلت أذكر كيف مات فرع العم. شيئاً فشيئاً بدأنا وقد كبرنا، نلحظ أن كثيراً من أغصانه تذبل والأوراق العريضة في الأفرع الحية

تضمر، ثم يموت الغصن وقد ماتت أوراقه، ثم إذا بالفرع كله يؤوب الى جفاف رغم أن ابنه طالب الزراعة فعل المستحيل ورجع الى مراجع، وناقش الأساتذة، ولكن الفرع يظل سادراً في ضموره وجفافه رغم استماتة ابن عمي في علاجه، ذلك أنه كان يعتبره شيئاً من رائحة أبيه، عمنا الهادي، ذلك الذي كان قد مات. مات في ذلك العام الذي بلغ فيه فرعه منتهى ازدهاره، وثمره، حتى لقد شبعنا جميعاً من ثمره وباع عمنا منه عشرة أقفاص، حلاوة الثمرة منها تسكر.

في نهاية ذلك العام بالضبط مات عمي. وحين جاء العام التالي وجاء الربيع لم يحدث ما كان دائماً يحدث، فلا الأغصان ازدهرت كما تعودت أن تفعل، ولا ثقل فرع عمي المرحوم بالثمر، وإنما الذبول والجفاف وتوقف الحياة، وفي العام الثالث مات الفرع مع أن الجميز عمره طويل جداً وبالكاد لا يموت شجره. والحق أن منظره وهو جاف هكذا ميتاً قد تحنطت أوراقه التي كانت ذات يوم ملعلعة الخضرة، كان يصيبنا باللوعة، ويصيب أبانا بالتعصب وهو ـ الذي لم يبك عمي كثيراً حين مات ـ كان حين يرى الفرع يتمتم لا حول ولا قوة إلا بالله وتحمر عيناه، وتهدد دموعه بالانبثاق.

وكانت مناحة من أولاده ومنا، يوم قرروا بيع الفرع خشباً، ووقفنا، جميعاً نرى المنشار الضخم الغليظ وهو يقطع الفرع بكل حمله من أغصان ميتة.

وبقي فرعنا لم يمت، ضـامر الأوراق، ضـامر الثمـر حتى بعناه لأولاد عمنا الذين احترفوا مهنة الزراعة.

وفوجئنا ذات صيف أن فرعنا الـواهن شبه الميت ذاك قـد دبت الحياة في أوراقه وفروعه وثماره، وزالت دهشتنا حين وجدنا ابن عمنا محمـد الذي سمي على اسم ابي، ولكنـه ورث خصـال أبيـه، وقـد كـادت أوراق الجميـزة تحجبـه عنـا، ولكن عيني أبـداً لم يفتهمـا أن تلاحظا أنه تماماً مثل ابيه قد خلع جلبابه «وشمـر» سرواله الطويـل، وحفل وجهه بسعادة، وهو برقة يمسك الثمرة الخضراء ويعرف من أين بالضبط يختنها. وفي لمحة البرق وسرعة السـاحر يمـر بسيف مطواتـه قرن الغزال على مكان ختانها المضبوط، ثم يرنو الى الجـرح الباهر العميق الذي أحدثه، ويتأمل أعضاء تأنيثها الداخلية الحـافلة بعذريـة وبشحوب كشحوب البنات.

أبـداً لم يفتني منـظره، وفـرعنـا يستجيب لـه ويخضـر ويمتـد ويمتلىء بعد هذا بالثمر الأحمر الناضج.

شجرة الجميز.

الرجل والنملة

بعيون فاغرة، رحنا نراقب الباب وهـو بالعصبيـة الشديـدة يفتح والكتلة البشرية تدفع من خلاله لا نتبينها إلا حين فقط تستقر في ركن الزنزانة الفارغ. حتى السباب المعتاد الذي كان لا بد يصاحب الفتح والإغلاق والتكويم، من فرط الدهشة لم نتبينه، إذ قد حل الصمت لا تجرؤ على قطعه مخافة أن يجد جـديد وأن يكـون وراء البدايـة مـا وراءها.

يتعانق الظلام في العـادة بعد التمـام. الخامسـة تمامـاً موعـده. النـزلاء صامتـون لمقـدمـه، إذ المفـروض أن يحـل الصمت ليتمكن حراس الليل من التغيير مع حـراس النهار ويتمكن شـاويش النهار من تسليم شـاويش الليـل، صمت يهيىء للصـراخ أن يتعـالى إذا حـدث خـطأ وأفلت نـزيـل من الإحصـاء وارتبـك العـدد. البـاشـاويش هـو المخطىء ولكن الشتائم تنهمر فوق رأس النزلاء وثمة جرى، وصوت الكـوالين الحديـد يزأر وأبـواب أخرى تنهـد حتى لتكاد تهـد الحـائط الحجـري، وأخيراً، يجـري الزئيـر النهـائي لمفصـلات بـاب العنبـر الكبيـر، وتخفت الأصـوات مـع الأقـدام مبتعـدة، ويحـل الصمت.

ويستمـر. للتأكـد أنهم جميعاً ذهبـوا، وأن النهار المتعب انتهى. ثم، وكأنما فجأة، تنفجر من الصدور الزعقات والقهقهات والشتائم مكونـة مولد المغربية المعتاد.

السكوت في العنبر طوال النهار أحد الأوامر الصـارمة، الألسنـة تتيبس في الأفـواه لقلة مـا تتحـرك، الحنـاجـر مخشـوشنـة من فـرط السكوت، فقط حين تذهب قوة النهار ويترك العنبر في حـراسة ثـلاثة حراس ليل عـواجيز في الغـالب وقريبي الإحـالة إلى المعـاش، فقط حين يـطمئن الجميع إلي ذهـاب الجميع يفـرج كل نـزيل عن لسـانه ويبعث الحياة في شفتيه وفمه وصدره ويزعق ويشتم بكل ما يملك من قدرة وقوة، يصـرخ ويشتم وينتقم من السكوت وأوامـر الشلل ويزاول الغريزة التي طال حبسها، غريزة أن يشتم، فمن فرط ما يتلقى النزيل من شتائم طوال النهار، وهو عنها ساكت وبالأمر متسامح، تتكـون له فعـلاً غريـزة الشتم تنهال بهـا كل زنـزانة على زنـزانـة، ويتبـارى في مزاولتها الجميع.

في أحيـان قليلة جداً يحـدث، أن، فجأة، يـدور المفتـاح في قفـل الباب الكبيـر ويفتح العنبـر، وهنا، وفي لمحـة خـاطفـة واحـدة يتسمـر كـل شيء في مكـانـه ويحـل أعمق وأغـرب صمت.. صمت التـرقب الرهيب لمـا عسـاه يكـون السبب في فتـح البـاب.. وتتعـدد الأسبـاب وتكثر، وذات مـرة تجد السبب بـاب زنزانتـك وهو لـروعك يفتح، وكتلة بشرية ما تـدلق ليعود البـاب فيغلق، قبل أن تسـأل أنت القـادم أو يفتح من تلقـاء نفسه فمـه للكلام تنهمـر مئـات الأسئلة من

قريب ومن بعيد ومن أقصى الدور الثالث نفسه تتساءل عن حكاية هذا الذي دخل، فلا تدخل بعد التمام إلا حكاية مهولة، لا بد في الحال أن تعرف، وهكذا إن لم تبادر وتجيب، حتى قبل أن تعرف أنت ما هي الاجابة، تنهمر عليك أنت الشتائم هذه المرة وتؤرق عظام أمك وأبيك أحياء كانوا أم أمواتاً. حياة رهيبة يتولى فيها إناس حبس وخنق أناس وضرب أناس وحشدهم وتكديسهم هكذا في علب محبوكة من الزنازين والحجرات.

ـ ما بك يا عم... خير..

سمعت أنا وحمزة زميلي في الزنزانة الذي تصادف أن اسمه يشبه اسم قائد السجن الحربي، حيث تتم كل ألوان التعذيب، تشابه كان يجعله وبالتالي يجعلني هدفاً لتعليقات ووخزات تعذيب لا حد لها.

ـ مالك يا عم مالك؟

قالها حمزة هذه المرة بأمل أن يجيب القادم. ومكوماً في الركن لا يتحرك كان لا يزال. الأسئلة تترى تخترق باب الزنزانة المصنوع من قضبان متوازية من حديد، لا إجابة، والنتيجة سيول من الشتائم تلعنني وتلعن حمزة.. ما أغرب قدرة الانسان على تعذيب نفسه وتعذيب الآخرين إذا وقع عليه عذاب لا يملك منعه. معذبون يعذبون معذبين. ما أبأسه من محبس داخل محبس وعذاب في قلب عذاب.

لا رد ولا تحرك ولا يبدو عليه أنه سيرد، أيكون ما نسمعه منه ليس تنفساً عميقاً إنما هو نشيج وبكاء، بكاء الصامتين بلا حول ولا

قوة. وجدنا أنفسنا نقترب من الرجل نحيط به مشفقين. أيديا تطبطب عليه وتستخرج كنزنا الثمين، الشمعة الوحيدة التي نملكها وندخرها للحظات الحاجة القصوى، أشعلناها بضوئها الذي بدا باهراً، مددت يدي ورفعتها من الكتف الى الرأس أعدله وأرى الوجه.

كدنا نموت أنا وحمزة رعباً. فكلانا طبيب ونعرف ماذا تعنيه تلك الصفرة المتكاثرة المتشاحبة التي لونت الوجه، الحدقات الواسعة المفتوحة وهي تمعن النظر في الفراغ وفي اللاشيء ما لم ننبهه، مات. انهلنا عليه بالأسئلة نستفسر إن كان قد ضرب وأي مكان من جسده يؤلمه أكثر. قسنا النبض وعددنا مرات التنفس. الصدمة فعلاً واضحة ولكن لا أثر لأي إصابة في الجسد، لا جرح، لا خدش، لا بطن منفوخ، لا شيء. تنفيذاً للمعاهدة المعقودة مع الحارس الليلي ساومناه على كوب القهوة أصر على عشر سجائر ونحن لا نملك إلا علبة. وافقناه على مضض كثير. أخيراً أصبح في يد الرجل كوب قهوة معجز المذاق في تلك اللحظة، وسيجارة «وينجز» بأكملها، وعلى ضوء الشمعة دماء قليلة بدأت تسري في الوجه الخراب، وهمهمة تمتمة، تنهدات، الكل يختلط بالكل والكلمات بالأصوات والإشارات.

ورفض أن يفصح.

نلح عليه بكل ما نملك من طاقة إلحاح، والرفض البادي على هيئة صمت هو وحده الجواب. تشاورنا أنا وحمزة، نتركه؟ نخفف الوطء عنه؟ نترك كل شيء للصباح؟ ولكن حب الاستطلاع فينا لا

يمكننـا نحن أنفسنـا مقـاومتـه، والإلحـاح، إلحـاحنـا وإلحـاح بقيــة الحجرات والزنازين كلما زاد احتمى الرجل بصمته، وتداخلت رغبته في الإفضاء كما يتداخل حيوان القواقـع إلى عمق القوقـع كلما شعـر بلمسة الإصبع.

تركناه. حت كاد يغلبنا النوم وكانت الألسنة المطالبة في الخارج قد سكنت.

ـ هل سأموت؟

رفع الرأس فجأة بالسؤال، وكأنها إجابة متأخرة جـداً عن قولنـا له: نحن أطباء، لا تخف. فضفض حتى تستريح، ولا تخفـ، فنحن نريد مصلحتك، نحن أطباء.

ـ هل سأموت؟

ودون أن نتفق، لـم نجب. رحنا فقط ننظر إليه ولا نجيب.

لـم نكن نريد إزعاجه حتى لا يتمسك بموقفه.

فجـأة وجدت حمـزة ينفجـر فيـه غـاضبـاً مؤنبـاً إيـاه على هـذا المـوقف الطفـولي الذي لا معنى لـه بالمـرة. معتقل سيـاسي، ألست كذلك؟ كان واضحاً من ثيابه المدنية أنه ليس مسجوناً. إذن لماذا هذا التشبث بالصمت؟ أخائفـ هو على نفسه، وماذا يمكن أن يحدث لـه أسوأ من هذا الذي حدث والذي جاءوا بـه الى هنا بسببـه وعلى تلك الحال القريبة من صدمة المـوت؟!

فعلاً.. يعني ح يكون جرى لك إيه؟

للحق تنفس وتنهد وقال ببطء ونظراته تعود تنغمس في الفراغ:

ـ أوحش شيء على ظهر الأرض. وكدنا نبتسم في رثاء. ماذا يمكن أن يكون؟

وعاد يقول:

أوحش شيء على ظهر الأرض. حدث لي ما لم يحدث لبشر.

ومرة أخرى استخففنا بكلامه وكدنا نقهقه. سبعة عشر شهراً ونحن في هذه الزنزانة معاً. كان سجن مصر محطة يتوقف فيها القادمون من السجن الحربي في طريقهم لطرة وأبو زعبل والواحات، والقادمون من تلك الليمانات في طريقهم للمستشفى أو للإفراج أو لعذاب آخر في السجن الحربي. وارد وصادر وحركة دائبة جعلتنا نصادف كل ما يمكن أن يخطر على البال من تهم ومتهمين ومعتقلين وأسباب اعتقال، وتعذيب، ومعذبين. النفخ والضرب وكي نصف البطن الأسفل وكل شيء، ولم تبق وسيلة لم نعرفها أو بات لها ذكر. وكل متهم ـ مثل هذا القادم ـ يعتقد أنه الوحيد الذي حدث له هذا أو مارسوا معه ذاك.

ماذا يمكن أن يكون قد وقع له؟

أوحش شيء على ظهر الأرض.

ـ ماذا فعلوا؟

ـ نمت مع نملة.

ـ وانفجرنا ضاحكين.

طبعاً لا يبدو مختل العقل وإن كان واضحاً أنه في طريقه لاختلال عقله، وبوجه جاد صارم يحمل كل ما في العالم من ندم يقولها: نام مع نملة.

وانفجرنا ضاحكين.

وإلى الصباح التالي ظللنا نضحك ونتذكر ملامحه وهو ينطقها فتصاب معداتنا بالمغص من فرط ما ننثني ونضحك. وعلى رأي كليلة ودمنة قلنا له في الصباح التالي ـ وكان تقريباً لا يزال على نفس جلسته وقرفصته وانكماشه على نفسه ـ وكيف كان ذلك يا أستاذ؟

ولم تكن تبدو عليه سيماء المعتقلين السياسيين. معظمهم كانوا مثقفين. حليقي اللحية والشارب، خريجي أو طلبة جامعات. هذا كان له شارب، أصفر وغزير ومتهدل على شفتيه العليا يكاد يلامس السفلى. وجهه خشن لا بد من كثرة مزاولته عمله خارج المكاتب والمنازل حيث الريح والتراب ولفح الشمس. في الحقيقة لم نفاجأ حين قال لنا إنه عمدة. حين تستخرجه من الحالة التي كان عليها، والسكينة التي آلت إليها ملامحه وقوامه، وتفرده، وتوقفه وتعيده سيرته الأولى ويتبدى لك على حقيقته تجد أنه حقاً مصدقاً لا بد أنه كان واحداً من أولئك العمد من طراز: اخرس يا ولد. شهم، كريم، يذبح لضيف خروفاً، ويسافر إلى آخر الدنيا تلبية لنداء مستغيث. عمدة ومعتقل سياسي. جديدة جداً هذه المرة. والنكتة أن يكون عمدة متهماً بالعمل السياسي.

في الليلة التالية ساءت حاله وارتفعت درجة حرارته وأصبح نبضه ١٤٠ وبدا وارم الوجه مختنق السخنة وكأنما سينفجر بعد قليل، لم يكن هناك بد من أن يفضفض ذلك العمدة المعتقل عن نفسه وإلا حدث له فعلاً ذلك الذي وصفه بأنه أوحش ما في الدنيا ومات.

وتكلم.

متقطع الأنفاس.

أخرج من صديريه البلدي الداخلي علبة سجائر«كرافن» عشرين سيجارة كاملة، وعزم علينا ولم نصدق أنفسنا ونحن ننفث دخان الكرافن، وبكل ما نملك وما أصبح لنا من طول بال نصبر على كلماته التي تخرج بعد عناء، ولهاثه بين الكلمات.

تكلم.

بدأها من منتصفها، أو من حيث بدأ يهتم هو بها، لا نعرف. قال: هذا الوغد، يونس بحري. قتلني بالأمس فعلاً قتلني، سأموت، ولكن لن أموت قبل أن أغرس أسناني في زوره وأقضم حنجرته.

جالسين وفي أمان الله وبعد يوم شاق من تكسير البازلت وحمله في المقاطف والسير به نصف كيلو، والصخر فوق أكتافنا والرمل في عيوننا وأفواهنا وأقدامنا العارية ينغرس فيها الشوك والزلط والمسامير، وجلسنا آخر النهار، قبل طابور العودة نستريح، وكانوا ثلاثة ضباط أحدهم هذا الخسيس يونس بحري. ناداني. منذ أن رآني ورأيته وأنا أشفق عليه وعلى نفسي أن يناديني. ناداني. تلكأت ولكني قلت أقصر

الشر وألبي نداءه. ذهبت. وقفت. تركني واقفاً واشتبك في حديث فاتر مع زميله. قلت: أفندم. رمقني بنظرة ثم عاد إلى حديثه الفاتر. اللهم طـولك يـا روح قلت، وعزمت أن أؤجـل أي اشتباك فجسمي مهـدود ولن أحتمل أي ضرب. والبـداية واضـح أنها ستنتهي بضـرب. أقصر الشر يا ولد. وأصبر.

هناك، بعد ربع ساعة أو أكثر. التفت ناحيتي وقال: روح هات نملة من هناك. وأشار إلى كومة تراب قريبة.

صحـا مخي من غفوة الـوقوف وخيـل إليّ أني لـم أسمع جيـداً، سألته: أجيب ماذا؟ هب في صائحـاً: نملة.. ألا تعرف النمـل يا بن الـ. . . ؟

سكت.

هب مرة أخرى: تعرف النملة والاّ لأ؟

قلت بتسليم: أعرفها.

قال وهو يلتفت إلى زميله: روح هات نملة.

طـول الله روحي وذهبت إلى حيث أشار، وتفـرست في كـومـة التـراب مليـاً حتى وقعت عيني على نملة كبيـرة نسميهـا في بـلادنـا حـرامي الحلة. انقضضت عليهـا بقبضتي وعـدت بهـا ووقفت أمـامـه وقلت: أهه النملة يا أفندم.

- وريني

فتحت يدي.. رآها.. قال:

ـ ولازم تجيبها بالشكل ده يا ابن الـ. . .عضضت على شفتي السفلى وسكت.

بنظرة من أسفل إلى أعلى رمقني وقال:

ـ دي ايه؟

وقلت ببراءة ما بعدها براءة: نملة يا بيه

قال: ...

خيل إليّ أني حقيقة لم أسمع فقد كان الطلب الذي طلبه غريباً جداً وغير معقول بالمرة، سألته: أفندم؟

قال: اخلع هدومك.

أشار لحامل الكرباج وزميله حامل الشومة، رفعت يدي مسلماً قائلاً: حاضر يا بيه. . . أخلع هدومي.

ولكني ترددت.. نظرت حولي بركن عين.. طابورنا المنكود الحظ قابع كصفين من طابور ذباب أنهكه الكدح والزق والزجر. في دائرة واسعة رهيبة يلتف حوله سور من عساكر يحملون الأسلحة الاوتوماتيكية بكافة ألوانها وأنواعها، قريباً منه تناثرت فرقة الضرب تحمل الهراوات والكرابيج والنبابيت والأحزمة والقبضات الحديدية. أنا واقف وحدي ويونس بحري قابع على كرسيه أمامي. ولا مفر.

استنهضني بشخطة ولما كنت كما قلت قد قررت أن أؤجل الاشتباك فقد مددت يدي الأخرى وبدأت أخلع جلبابي، وخلعت الصديري، ولا أطيل، فقد وجدت نفسي بعد برهة خالعاً كل ملابسي واقفاً عارياً كما ولدتني أمي أمامه.

ـ خلعت هدومك.. ؟

ـ زي مانت شايف يا بيه..

ـ طيب (..) النملة اللي في أيـدك. خيـل إليّ أني حقيقـة لم أسمـع، وكيف أسمع، ومـا طلبه لا يمكن أن يمـر إلا من عقل مجنون، حتى المجنون نفسه خجل أن يطلبه.

ـ نعم!

الكرباج مرفوع فوق رأسي والنبوت يتهيأ للانقضـاض، ويونس بحري تجمدت نظراته النارية على هيئة الأمر الـذي أمره، والـدنيا، وسـور العساكـر، والطابـور والبازلت والجبـل والصخر والـطريق وكل شيء سكت وصمت وكأنه يستحثني أن ألبي.

انتفض الفلاح الخبيث الذي فيّ يقلب الموقف الجاد الـرهيب وقلت فجأة:

ـ بس دي ذكر يا بيه..

لم يضحك، ولا أحد من القريبين أو البعيدين ضحـك، بكل صراحة قال: روح هات واحدة نتاية.

وكـالذي نـومه المنـوم المغناطيسي استـدرت وقصـدت كـومـة التـراب، وعسست بيدي. طبعـاً كان أول مـا خـطر لي أن أبحث عن نملة أنثى، ولكن كدت أضحك من نفسي لأني انسقت وراء المشهد فعلاً وأخذته جداً، وسألت نفسي: كيف أعثر على الأنثى؟ مـا الفرق بين النملة الذكر والنملة الأنثى؟ بل هل توجد نملة أنثى ونملة ذكـر؟

المقصـود عدت إليـه ووقفت أمامـه وفتحت قبضتي على نفس النملة وقلت: ها هي نملة أنثى.

قال: يالله!

ـ يالله ماذا؟

ـ تاني. اسمع.

وفوجئنا بجعجعة أوامر تفرقع، واقترب سور العساكر حتى أطبق على طـابور المعتقلين، واستقـر أفراد فـرقة الضـرب فانتصبت واقفـة مشرعة أسلحتها الفاتكة الرهيبـة، وهوى الكـرباج من خلفي وسمعت صفيره، وهو يشرخ الهواء ليستقر كالسكين القاطع غـائراً في جلدي، ولكن يونس بحري تلافاه في آخر لحظة وأمسـك باليـد المهويـة وقال بصـوت مخيف صـوبـه إلى كـل أذن تسمـع: اسمـع.. أنــا لا أريـد ضربك.. فأنا أعرف أنك من النـوع الحميري الـذي لن يؤثر فيـه أي ضرب أو تعذيب ولكني سأضرب تلامذة ابتدائي هؤلاء.. وأشار.

والحراس يعرفون إلى من يشير. فقـد كان بيننـا خمسة صبيـان صغار لا يتجاوز أيهم السادسة عشـرة، معنا في الـطابور، إذا ضـربوا يصرخون بل يصـوصون كالكتـاكيت المذعـورة وتغور صـرخاتهم في لحمنا الحي، بحيث يصبح أهون لأينا أن يقطع بالسـواطير ضـرباً ولا نسمع صرخة الواحد منهم..

جـزعت والحق يقال، وسقط قلبي في قـدمي مخـافـة أن ينفـذ الوعد. يا عم يونس ما كنا قـاعدين في أمـان الله، ماذا دار في عقلك

النجس ليقلب سلامنا هـذا الى لحظة الـرعب هذه، حتى ليبـدأ الجو يحفل برائحة الدم واللحم المفروم..

تطويل الروح لم يعد يجدي، ماذا تريد يا أيها القومندان.

ـ يا لله!

ولأنني ضامن أني سأكـون على حق في تساؤلي رفعت صـوتي مستغيثاً مستعيذاً بـالله من هذا الهـول الذي لا أعـرفه: إزاي بس يـا بيه.. أنا في عرضك.. إزاي؟

ـ زي الناس.. هكذا قالها.

ـ زي الناس إزاي.. ؟

ـ زي النـاس يا بن الـ. . ويا بن الـ. .ويا بن الـ. . مـاذا تفعل الناس؟

ـ ولكنها تفعلها مع الناس والإناث وهذه نملة..

ـ ولو.. اعتبرها ناس.. اعتبرها إناث.

ـ حاضر..

قافزاً الفلاح الخبيث إلى نجدتي مرة أخرى قلت:

ـ حاضر يا بيه..

وعملت أني فعـلاً أزاول مـا أمـرني بـه، وأنـا، زيـادة في الانـدماج، قـد رسمت على وجهي ابتسامـة سعادة.. استيقـظت منها على صوت نبوت يشرخ الهواء، ويشـرخ ظهراً من ظهـور «التلامـذة»

إلى جـواري. التفت على الصرخـة، آهة صـاعدة من عـظام الأقـدام لكائن حي إنسان صغير يتألم. انفجر قلبي وتدفق منه الـدم الغائـر غصة ولوعة.

ـ لا تمثل يا ابن الكلب.. اندمج.. أتضحك عليّ .. اندمـج.. أنت خـالع الآن مـلابسك وهـذه أنثى، نملة مش نملة لا يهم.. هـذه أنثى.. اندمج.. وسأراقب وجهك وملامحك.. وأقسم بـرحمة أمي إن لم أرك تفعـل ما قلتـه سأشرّح تـلاميـذك وأنت وكلكم معهم.. وأنت تعرف وكلكم تعرفونني..

وكان واضحاً من وجهه المسمر المحفر بالجديري القديم أنه لا يهـزل، حاولت أن أجـد فرجـة احتمال أو عشـر احتمال للتهـاون فلم أجد. هذا إنسان مجنون وقد تقمصته حساسية المجـانين للحقيقة ولن يصدق غيرهـا ولن أستطيـع أبداً خـداعه، وعليّ أن أفعلهـا. حاولت. ولكني في منتصـف المسـافة استـدركت وطلبت منـه العـذر. وجمعت نفسي وبأقصى ما أستطيع من قدرة على أمر النفس أمـرتها. أحسست أن شهبـاً كشهب الجنـون تتراءى لعيني، ومن فـرط الانضغـاط بـدأ العقـل في مخي يـطقـطق. مجنـون أمـر وأمـر مجنــون، ولا بـد أن أستجيب، ومجنوناً لا بد، لكي أستجيب، أن أصبح. أنـا فعلاً رجـل ضخم، وهذه نملة، وبكل كياني عليّ أن أصغر نفسي وأستحيـل من إنسان إلى حشرة، إلى نملة، إلى ذكر نملة، تستشيرني أنثاي النملة.

وكلمـا فشلت، كلمـا تـوقفت، كلمـا غـام وعيي بـالمشهـد

وبـاستحالـة التحول، وأحسست التهـديد يحـوم كغربـان البين حـول التلامذة الصغار وحول الـطابور، أتصـاغر وأتصـاغر ويكسـوني العرق وتطقطق عظامي وتتدشدش ولا بد من أن تصبـح كفي في حجم ساق النملة، وسـاق النملة لا يكاد يـرى ولا بد أن أهوي بوعيي وبـإرادتي على كفي وكتفي ولحمي وعظمي ورأسي وبطني وساقي وعنقي وأدق وأصغر كي أستحيل ذكر نملة، أفرز هرموناته، وأجعلها بالقوة القاهرة تستجيب لهـرمونـات أنثاي القـابعة، مستسلمـة، في يـدي، هكـذا، رأيتهـا بـألف عين دقيقـة لي تكـونت، قـد استجـابت، وكفت عن الحركة، ووقفت واضطجعت.

لو كانوا عذبوني وقطعت الجبل كله، لو ربـطوني لذيـل حصان جـرى بي القطر كله من أقصـاه إلى أقصاه، لـو ربطوني في عـروسة جلد وجلدوني ألف جلدة، لـو فعلوا ما هـو أكثر وأكثـر لمـا أحسست بـربع معشـار ما مـر عليَّ. ولم أعد أستـطيـع الكف وجسـدي يمضي يتصـاغر ليصبـح نملة ويستمر نملة ويعيش ويحب ويـزاول الحب مع نملة.. وعند لحظة النهاية فقدت الوعي..

قـالوا لي أنهم حملوني حمـلاً إلى الليمـان. وأنهم خـافـوا من صـراخي أثناء الليـل واستجار الـزملاء من عضي وتمـزيقي لملابسهم ومـلابسي، وحملوني إلى مستشفى سجن مصر ومن هنـاك إلى هنا.. وهمس لي التـومـرجي الأسمـر العجـوز وأنـا في طـريقي اليكم أنهم يفكرون في الإفراج الصحي عني، ولو، مـا الفائـدة، وقد نمت مـع النملة واعترفت، وكان الذي كان..

ولأنـه لا أبشع من السجن والمنتـظرين المحـاكمـة من كلمـة اعتراف، فقد وقفنا على أطراف تحفزنا أنا وحمزة ونحن نسـأله بمـاذا اعترف ولماذا اعترف؟

قال وهو يشيح بيده: وأنـا وسط العذاب، في منتصف السـاعة بين كوني نملة وكوني ذكـر نملة انكسرت إرادتي ولم احتمـل، وقلت كل ما عندي بأمـل أن يتوقف أمـر يونس بحـري وأن يكف العذاب،. ورغم الاعتـراف لم يوقف المجـرم الأمر، وحتى لـو كان أوقفـه فـأنـا نفسي كنت غير قادر لحظتها أن أوقف عذاب التحول، إرادة أن أكون بشراً أفلتت وصارت لي إرادة نملة لا تقوى أبداً على الكتمان.

● ● ●

ورغم إعـادته إلى المستشفى فقـد سمعنا أن حـرارته ظلت ٤١ طوال الليل ورغم جسده المتين الضخم، في الصباح التالي مات.

أبو الرجال

نصف نائم، نصف مستيقظ، تأمل جلده. أدرك، كأنما فجأة، أنه لم ير عن عمد جلده مذ كان في أوائل مراهقته، ومذ كان الشعر، شعره نصف أصفر، نصف أسود، متناثراً، خفيفاً، يكسو نعومة جلده. يذكر أنه فرح، وكان باستمرار يفرح كلما أمعن النظر الى الجلد ووجد الشعر النابت يزدحم ويتكاثر ويغمق، حتى أصبح كله أسود.

فتح عينيه تماماً، فقد أدرك وكأنما كان ينظر إلى جلد إنسان آخر.

أدرك أنه بالقطع ليس جلده، أو إن كان، فإن شيئاً حدث له.

كان الشعر خفيفاً وكأن شعر ذراعيه وصدره قد بدأ يصاب بالصلع.

وكشف عن ساقيه وبطنه. خفيف جداً كان الشعر. لكأنه عاد الى سن الرابعة عشرة.

سكت تماماً عن التفكير والتأمل، وإن كانت ذاكرته لم تسكت. بوابل من نخزات صغيرة بدأت تنهال عليه، وينحيها، وتنهال. قام

إلى المرآة. حدق ملياً في وجهه. اللحية كما هي. أو تبدو كما هي. فتلك النخزات تبدو يقينية.

أغمض عينيه كما يرغم نصف النائم نفسه إذا أحس أنه في كابوس ليختفي الكابوس أو يرحل. رغماً عنه فتح العينين، وفي مزيج من الحيرة والضباب، ضباب أملس ينزلق ويتوالى والأشياء تمتزج وتتباعد وتقترب لتصبح واضحة تماماً. صورة الرجل يراها واضحة تماماً إذ تلك هي صورته التي يعرف نفسه عليها. تنزلق. يمر فوقها الضباب كأنه السحاب يخفي وجه القمر ولا يبقى سوى ضوء لمجرى لا يستطيع به أن يميز شيئاً. نعومة. أجل. نعومة أنثوية مرعبة كأنها نعومة حية رقطاء تبتسم قبل أن تطبق فاها في عضة سم كعضة الموت. شيء داخله يرتخي وينفتح، يأمره أن ينقبض، وباستخفاف يعصي وينفتح. ومعها يحس أنه يهوي في بئر أو من فوق جبل. يشهق طارداً كل شيء كالغريق يدفع الماء برأسه ليلتقط النفس ورغماً عنه يعود يهوي، ولكنه لا يختنق، ولا يحس أنه سيموت، ولا أن شيئاً محدداً واضحاً سيحدث. كل ما يحدث أملس. كل ما يتشبث به ينزلق. الضباب ونور الفجر الشاحب والإحساس بالانزلاق واللا يقين.

ماذا يحدث لي؟ بالضبط ماذا حدث لي؟ وكيف حدث؟ ومتى حدث؟ ولماذا يحدث ما يحدث؟ في الخمسين أنا. أنا رجل في الخمسين. بالضبط واحد وخمسون وثلاثة شهور. عندي أولاد. عنده أولاد أجل. وزوجة. يسائل نفسه، ويتحدث عنها وكأنها إنسان آخر. فمن فرط ما أصبح فيه من شك قرر أن ينظر إلى نفسه وكأنه إنسان

آخر. رجل آخر. نعم هو رجل، أو.. أو.. أو ماذا؟ إنه ليس رجلاً فقط، إنه أبو رجال أيضاً. إنك يا سلطان زعيم. زعيم عصابة ولكنها عصابة من العصاة المتمردين قتالي القتلة وسفاكي دماء وأولاد ليل، تنظر الى الواحد فيهم فتحس أنه، أمام عينيك، يتلاشى الرجل فيه والانسان ويتحول إلى أرنب يبول على نفسه. بنفسك رأيت البلل مرة يغرق ثياب أبو شنب.

اكتشف، وكأنما فجأة أيضاً، أنه لا يزال بملابسه الداخلية. تجول بعينيه في أنحاء جسده، اشمأز لنتوءات تكونت لا يعرف متى. استنكر جسده شبه العاري. أحس به غريباً عنه. لا يمت إليه. تحسس شاربه. أدرك أنه حلقه، وأنه يتحسسه بحكم العادة. لا وجود للشنب. ازدادت غربة جسده عنه وغربته عن جسده.

قام، بثورة قام أو كأنما ليصنع ثورة. لا. لن يرتدي البدلة. سيرتدي جلبابه البلدي الصوفي الخشن ذلك الذي يحلو له ارتداؤه حين يركب الكارتة المفتوحة، ويسوقها بنفسه، ويعبر بها شوارع البندر حيث يتأكد أن العيون الناعسة من خلف النوافذ، وأحياناً من الشرفات، تراقبه، وتشهق لرجولته، وجلبابه، وكارتته، وتاريخه المرعب المجيد، وغناه، وسمعته.

أرجل رجل في المحافظة، بل في مصر، في الدنيا كلها يا ولد. رجل وأب لرجال. ولد ولا كل الأولاد. وسعيدة محسودة تلك التي يضمها بذراعيه زوجة كانت أو عشيقة.

جلبابه ارتداه. امتدت يـده وهو لا يـزال ينظر الى مـرآة الحمام يتناول زجاجة الكولونيا. عـدل. ابتسم في شبه ثقـة. ركن شفته العليـا فعلاً ارتجف وكأنما الابتسامة تخونه.

ـ يا ولد..

زعق.

تلك الزعقة التي كانت دائماً تـرج البيت، وترج القلوب، حتى قلوب أولاده الكبـار. زعقة لا يـوجهها لأحـد بالـذات وإنمـا يـوجههـا للولد، أي ولد، للرجل، أي رجل، للمطلق من الرجال، ما عداه.

لم يظهر للتو أحد. لا ولد ولا رجل. زعق بصـوت أعلى انتهى فجـأةوكأنماتوقفتالآلـةالتيتصدرهأو انكسرت.الأصـحأنهـاأسكتت.هـو أسكتها فقد جـاءه الصوت مشـروخاً، بـالضبط مسلوخاً، رفيعـاً. ليس صوته. وقد يكون صادراً عن حنجرته التي بدا في المرآة وكأن بروزها انكمش، ولكنها ليست حنجرته فالصوت ليس صوتـه. صوت يـسمعـه لأول مرة، غريباً عليه غرابة جسده.

ودق قلبه دقة زائدة.

تلك الـدقة التي كـانت لا تحدث لـه إلا لحظة القتـل، لحـظة إطلاق النار.

ظهر الولد. سبه دون أن يعرف من يكون، وبكـل ما يملك من نفس صرخ:

ـ نادي الثور يا حمار.

٢

جلس على المقعد في الفرانـدة. المقعـد المخصص دائمـاً لجلوسه، حتى لو غـاب عامـاً. جلس ينتظر«الثـور» ينتظر وهـو يتلمظ غيـظاً. لمـاذا؟ لم يكن يـدري. لمـاذا اختـار«الثـور» ليـراه في تلك اللحـظة؟ أيضاً لـم يكن يـدري. الثـور. الثـور. لمـاذا«الثـور»؟ ألتلك الأقـاويل التي كـانت تتناثـر عنه وعن مغـامراتـه؟ ألأنه يعـرف عنه أن النساء يسقطن من تلقاء أنفسهن لدى انفـراده بإحـداهن؟ ألأنه أصغـر سناً وأكثر حمقاً وفعـلاً أنضر شباباً بكثير؟ ولكنه كما يسميـه. . ثور.. مثله مثـل «الـديب» و«أبـو فصـادة» و «غــراب البين» و «الجحش» و «التنبـل»... واحد منهم.. أقصى مـا يمن بـه عليـه أن يعـطيـه لقبـاً، وأقصى ما يعاقب به أحدهم أن يناديه باسمه الحقيقي، فهو يظل يرجو ويلح ويكـاد يبكي، أحيانـاً يبكي مر البكـاء طالبـاً منـه أن يمن عليـه بلقب. وحين يضيق به وبإلحاحه يقول له: طيب.. امش يـا خروف.. أو.. شي يا حمار.. وينقض «الخـروف» أو «الحمار« على يـده يقبلها وفي عينيه دموع الامتنـان، ويغادر المجلس سعيـداً ضاحكـاً لا تسعه الدنيا.

جاء «الثور»، سمع صوته يسأل خـافتاً عنـه، وجه بصـره بكليته إلى باب الفراندة ليرصد دخوله. في فتحة البـاب ظهر «الثـور» مهمل الثياب كعادته. كان دائمـاً يحسده على قـدرته أن يهمـل ثيابـه وشعره ومع هذا يظل عل جاذبيته القصوى ووسامته، هم أن يبتسم له ولكنـه عـدل وأظلمت ملامحـه. كان يـرتدي القميص والبنـطلون، بنـطلونـه

الضيق الأثير لديه. لا بد جاء على عجل فهم دائماً يرتدون بدلهم الكاملة ليلقونه. حيا، ووقف حائراً، رمقه من أعلاه إلى أسفله، بدا وجه «الثور» يصفر، وملامحه تنبىء عن مراجعة مكهربة لكل ما فعله مذ آخر مرة رآه فيها وعن احتمالات خطئه أو جريمته التي ربما يكون قد اقترفها. وفر عليه المراجعة وأشار له أن يجلس. وعلى كرسي بعيد جلس وقد بدأ يسترد أنفاسه، ولكنه كان لا يزال ينتظر وكأنه ينتظر البراءة أو حكم الاعدام. رآه يتململ من طول انتظاره. أسعده هذا التململ ونظراته تنصب عليه متفحصة ثاقبة. ضبط نفسه يتوقف أكثر من اللازم عند ملامحه الفتية الشابة. تلوت نفسه وكأنما أصابته غصة أو اندك خنجر في فم معدته. كلما استرق البصر اليه وأحس بمغناطيس قوي يشد عينيه اليه وأشياء في داخله تنهار وتتكسر والضباب يغطي على وعيه، ومن بين طيات الضباب ترتسم رؤى مفزعة، عريان جسده تماماً، وأملس، كتلة لحم بلا إرادة تنتظر أمراً خشناً، يصنع إرادتها.

٣

فجأة، أحس بتمرد داخلي يتجمع بسرعة كما تتخلق بوادر الإعصار المهول في لحظات، فثمة لين جوفي هائل كان يعوي داخله كلما وقع نظره على «الثور»، وحتى وهو يشيح بنظره عنه، رؤى غريبة يحس معها أنه لا ينظر إليه نظرة رجل لرجل، وأن في داخله تتلظى أحلام يقظة تدور حول موقف ما، مكان مظلم مهجور، تلامس يحدث، تحسس محموم ترتجف به يداه ويرتعش له جسده كله وهو

ينقض على الشـاب، ويعتصـر عضـلات ذراعيـه النـافرة وانتفـاخـة عضلات ساقه والرغبة فيه تتعاظم وتقوى داخله رغبات تتكشف بجرأة وبجنون عن نداء مولول قد تحولت إليه ذكورته، ولا يعود يقـاوم، بل تتحول بقايا المقاومة إلى إعصار نداء أن افعلها، ومجنونة تصـرخ كل خليـة فيه رافضـة متمردة في إعصـار استنكـار يكـاد معـه يتحـول إلى قاتل، يقتل ما راوده من أحـاسيس، ويقتل «الثـور»، يقبض بأصـابعه الغليـظة على عنقه ولا يتـركه إلا جثـة أو خرقـة جثة، مـاتت، أخمـد أنفاسها وحبذا لو استطاع أن يفعل الشيء نفسه بعنقه هو ويقتل الحلم والرغبة والنداء المجنون الذي يفرض نفسه عليه بقوى، وكأنمـا بفعل قوى كونية، لا سبيل إلى عصيانها أو مقاومتها.

ويهم بأن يهدر صوته، عالياً مهيباً هصوراً طـالباً من «الثـور» أن يذهب عنه، بـل حبذا لـو جعل الـطرد يأخـذ شكل الضـرب والركـل والشلاليت..

ولكن لا شيء يصـدر عنه، حتى ولا صـوت، وكـأنمـا تتعـادل القوة الطاردة مع القوة الجاذبة، ويؤجل قرار طـرده، وفي نفس الوقت يكبح جماح عودة دمدمة الرغبات الملعونة تستيقظ في جسده وخيـاله وتجعله يعـود يحلم، بـالـظلمـة، والفحيـح، والمفـاجـأة، والضمـة المحمومة الراغبة..

ويدرك الجالسون حوله أنه غاص في فكر خاص لم يعد يشعـر معـه بأي شيء حـوله، ويبـدأون يتسللون من «الفرانـدة» واحداً وراء الآخر حريصين تماماً ألا يخدشوا قداسة استغراقه.. كلهم يذهبون مـا

عـدا «الثور»، إذ رغم أنـه أحس بمثل مـا أحسـوا بـه، إلا أن هـاتفـاً غامضاً موسوساً كأنـه صوت الشيطان أهـاب ويهيب به أن يـظل هناك، وأن موجات من «عمه» «سلطان» واشعاعات وترددات، تأتيه، وتـرجو منه أن يبقى، أجل، تـرجو منـه، هو الـذي لا يرجـو من أحد شيئـاً، وإنما دائماً يأمر حتى لو أراد الرجاء.

٤

ماذا يفعل بالله...

أهو قد جن...

أم في طريقه الأكيد للجنون..

أيـذهب إلى طبيب من هؤلاء الذين أصبحـوا المـودة في هـذه الأيام، الذين يـزعمون القـدرة على تحليل النفس، وسبـر الرغبـات، وحتى تفسير الأحلام؟

ولكن ماذا يدريه أن ما يحدث له مرض، أو أنه حقيقـة يحدث لـه، وأي عار يجلبـه على نفسـه إذا هـو ذهب حتى إلى طـبـيب فـي العاصمة الكبيرة لا يعرف أصله ولا فصله، لا يعرف من يكون ومدى عزوته، فحتى الطبيب مهما كان غريباً وجاهلاً بصولجانه وهيلمانه فإنه من رابـع المستحيلات أن ينـطق أو يشكو، وبلسـانه يعتـرف أن بوادر رغبات غريبة، تأخذ شكل النوبات، التي كـانت متباعـدة أول الأمر،

ثم تقاربت وكثرت، حتى أصبحت حياته وأفكـاره لا تكاد تـدور حول شيء آخر سواها..

أبـداً لا يستطيـع، ولو شنقـوه، أن، بـإرادتـه يقـدم على عمـل كهذا.. فليفعلها إذن، ويكون هو طبيب نفسـه، فهو، وحـده، الأعلم بحاله، ولن يجد مخلوقاً في هذا العالم كله يستطيع أن يكشف أمـامه كل مكنونات نفسه، ويعاصر معه ويرى بعينيه كل مـا انطبـع في عقله مذ بدأ يعي بأنه ابن فلان وأمه فلانة واسمه سلطان، وفقرهم مـدقع، وعائلته وإن كانت شديدة الكبرياء، بالـذات، أبوه ذلـك الذي كـانت القرية تمتلىء مجالسها إذا جـاءت سيرتـه بالسخـرية منـه، ومن فقره «الذكر» وأنفه التي ترنو دائماً إلى السمـاء. كان يـرى أباه ينتحي ركنـاً من فسحة بيتهم ويخرج من جيبـه عشرات من أعقـاب السجائـر التي التقطها خلسة بخيزرانته التي ركب لها في نهايتها مسماراً رفيعاً بحيث يستطيع، وهو في قمة تفاخره بعم أو جد أو قريب، أن يغافل محـدثه إذا التقطت عينه عقب سيجارة، وفي انفعالة محسوبة، يرفع خيزرانته وكأنما يدق بها على الأرض مؤكـداً أو مقسماً ثم ينـزلها بـالضبط فوق «العقب» لتندك فيه، وتـظل لاصقة بـه حتى يخلو المكان أو تنصـرف عنه العيون وحينذاك، وبخفة يد ماهرة ينتزعهـا ويضيفها إلى مثيـلاتها في جيبه. ومن محصول اليوم يملأ صندوقاً معدنياً قديماً ورثه عن أبيه الـذي كان يملؤه «بـالمضغة»، وكـانت «مضغته» وما يضفيه إليها من محوجات مشهـورة في بلدتهم شهرة «غليون» البك ابن العمـدة المتعلم في بلاد بره الجالس إذا جاء زائراً للقرية بين كل حين وحين في دوار أبيه، يحشو غليونه بالتبغ ويشعله من ولاعة خاصـة كانت مثار عجب

أهل القرية إذ كانت شعلة نارها تنـطلق أفقية من جـانبها وليست مثـل غيـرها من الـولاعات. أبـوه ذلك السـامق في قوامـه، النحيل الكثيف الشارب والذي كان لا يمتلك للخروج إلا جلباباً واحداً، هكذا يعرف الجميع، ولكنه دائماً وأبداً أبيض نظيفاً ناصعاً تجيد أمه غسله بالزهرة يوماً بعد يوم، وتنشـره ليجف في المساء، ويـرتديـه في الصباح حتى ليبدو وكأنه يمتلك عشرات الجلاليب الجديدة الناصعة البياض.

فقر وكبرياء، من جيش المدقعين الـذين لا يمت أحدهم بصلة إلى عين من الأعيان أو عائلة من كبار العوائـل، أمثالـه قابلون لحيـاة الجدب تلك، لا يهمهم تهرؤ ثوب أو دفاع عن كبـرياء، يقبلون حتى أن توزع عليهم الزكاة في الأعياد، ويلهجون بالدعاء والثناء إذا وزعت عليهم لحوم في مناسبة أو «موسم» أو احتفـال... «أبو سلطان» منهم هذا صحيح، بل ربما أشد فقراً من بعضهم، ولكنـه نسيج وحـده في اعتـزازه بنفسـه، يمشي إذا مشى وكـأنـه العمـدة، وإذا تحـدث فعـل وكأن كلامـه فقط هو الحكمـة. يومـاً واحداً كـل أسبوع، يـوم السوق، حيث يودعه أصحاب الحمير القادمون من القـرى المجاورة حميـرهم ليضمها الفضاء الصغيـر المجاور لسـور السوق، فضـاء يستأجـره «أبو سلطان» من صاحب الأرض المجاورة وكأنه «جـاراج» الركـوبات، لا ينتهي اليوم إلا وقد امتـلأ جيبه بقـروش وأحيانـاً بملاليم، تبـدو كثيرة العـدد والحجم، ولكنها في الحقيقـة لا تكفي لقـوتـه وقـوت امـرأتـه وعيـاله طـوال أسبوع، سلطان أكبـرهم، وثـلاثـة أولاد أخـر، وأربـع بنات، وأم شارفت الستين، وتدهش، ويـدهش الناس، كيف بمثـل ذلك الدخل، يعيش كل هؤلاء البشر، وتمتلىء كل تلك الأفواه . .

وسلطان ذكي باهر الذكاء، في المدرسة الإلـزامية نـابغة، ومـع الأولاد أكثرهم شقاوة وأقـواهـم شخصية ودائمـاً هو القـائد والمستشـار الأعلى لعصابة كبيـرة تتبعه، وتـأتمر بـأمره، مـع أن بعضهم أكبر منـه سناً، وبالطبع أكثر من عائلته غنى ونفوذاً، بـل الحقيقة المجـردة كان أفقرهم، وأبأسهم ثياباً، فقد كان يظل يرتدي الجلباب حتى لا يتغيـر لـونه أو يـذهب تمامـاً بل حتى يقصـر عليه وخـلال عامين همـا عمـر الجلباب يكون قـد ضاق وقصـر حتى لا يكاد يصـل إلى ركبتيه. وكم عُيّر بفقر أبيه «الدكـر»، وكم اشتبـك وتخانق وجـرح وضرب ممن هم أكبر اذا تطاول أحـد على حـالهم أو على أبيـه بـالـذات وعلى وجـه التحديد حين يقولون عنه: عريان المؤخرة ويحب الفشخرة.

وفي مـداعبات الصبيـة، أو على وجه التحـديد تلك الفتـرة من العمـر التي لا بد يبـدأ الصبيـة يـلامسـون بعضهم بعضـاً، ويستجيب بعضهم بلذة أن يكون السالب، والآخرون بلذة الموجب، أو بالاثنين معاً، كان سلطان شديد الحساسية أنـه لا يرضـخ، بل حتى من فـرط حساسيته ورغبته في رجولة سريعة مبكرة كان لا يسمح أبـداً لأحد أن يلامسه وبالتالي يرفض تماماً أن يلامس هو أحداً. رجل صغير، ورث كبرياء أبيـه أو قل مـاض قدمـاً في تقليد أبيـه وتشبهه بـه، ذلك الأب الذي كان يعتبره أكثر الرجال رجـولة وأعظمهم مقـاماً، بـل لم يحس أبداً ولم يراوده مـطلقاً خـاطر أن أبـاه رجل فقيـر، ففي مثل عمـره لا يوجد فقراء وأغنياء إنما فقط يوجد رجال رجال، ورجال أنصاف رجال أو لا رجال بالمرة، والفارق الـوحيد بين النـاس هو ذلـك الفارق بين الرجال الرجال والرجال أشباه الرجال.

من أين يجيئه إذن هـذا الـذي بـدأ يـزحف على نفسـه زحف السحاب الأسود الذي يهدد بإحالـة النهار ليلاً وينذر بغيـاب الشمس واقتراب يوم القيامة؟.

طـول عمـره هكـذا، زعيم وشهم وشجـاع وجـدع، وبجـوار الإلـزامية والابتـدائية كـان يعمل شهـور الصيف كلها، ومعـظم شهور الشتاء كي لا يوفر نفقات تعليمه فقط وإنما أيضـاً ليساهم مـع أبيه في مـلء الأفواه الكثيـرة المفتوحـة جوعـاً طول الـوقت والتي عمرهـا مـا امتـلأت شبعاً. وهـو في تعليمه وفي عمله كـانت تؤجج روحـه فكـرة وحيـدة لم تتزعـزع أبداً، أن يـرد الاعتبار لفقـر أبيه وعـائلته وتـواضع نشـأته وأصله. كـان جلباب أبيـه الناصـع النظيف مجـرد ستـار يخفي حقيقة شديدة المرارة، إذ لـم يكن بداخل هـذا الجلباب الستـار شيء ذو قيمـة، وكان على «سلطان» أن يمـلأ هـذا الفـراغ المخيف الـذي يخفيه الجلباب، أن يجعل لكرامة أبيه وأنفـه التي في السماء رصيـداً يستحق معـه فعلاً أن تكـون أنفـه في السمـاء، وأن تتغـطى مؤخـرتـه العريانة، ليكون حـراً أن يتفشـخر اذا أراد فشخـرة المغطاة مؤخـراتهم بالحسب والنسب، والأفدنة والأموال والقيمة والامتلاء.

٥

حتى أصبح «سلطان» زعيماً فعلاً.

قصة طويلة مليئة بإرادة الفلاح الرهيبة التي يحفر بها ترعاً للنيل بإبرة ويحمل بها صخور الجبل حتى يصنـع بها هـرماً يكـون أعجوبـة الدنيا. الفـلاح الذي يـزحف إلى القاهـرة حافي القـدمين ماشيـاً على

ساقيه الرفيعتين، صاعداً مع النهر حتى يفرغ صبر النهر من فرط طوله ويتشعب الى فرعين أو حتى عدة فروع صانعاً من نقطة التفرع عاصمة العالم القديم، ومولد النور تشعله البشرية لأول مرة لترى به العالم ويراها العالم، زاحفاً حتى يصل إلى أم الدنيا أو يصنع من نقطة التفرع أماً للدنيا.

بالإرادة الدؤوبة النحيلة البالغة الصلابة زحف «سلطان» يجر وراءه عائلة مات عائلها، يجرها كما يشد المراكبي «اللبان»، جاذباً المركب بحبل طويل ليجرها عكس اتجاه الريح القادمة من الشمال. أجل شاداً «اللبان»، لبانه، ولبان عائلته، بل لبان كل هؤلاء الفقراء ذوي الأنفة كانوا أو ذوي المسكنة، مستجيباً للمحرك الداخلي الذي لم يهدأ داخله أبداً، ولا لان، محرك أن يملأ جلباب أبيه، بحيث حتى لو خلع الجلباب لكشف عن مستور غني عظيم مشرف.

قضى سنة الجامعة الأولى ومسكنه، ومأواه وملاذه بيت، بالأصح عشة، تقع عند الطرف القصي لسور الجامعة، فيها اصطنع المسكن والمقام، فيها نام على حصير هو كل ما استطاعت عائلته أن تزوده به، عامل بناء في حي «بين السرايات» وما حوله في الجزء الأكبر من النهار، حامل قصعة أسمنت تقطم وحدها الظهر، ولكنه معها كان يحمل مسؤولية أن يتعلم وأن ينبغ وأن ينجح بحيث يحظى بالاثني عشر جنيهاً شهرياً مكافأة النابغين، كان يحيا منها بستة ويرسل لأهله ستة، عليهم وبعائد إخوته الأصغر من أعمال أصغر، أن يدبروا وجودهم بها.

ومع ذلك ينجح بتفوق ويكون من أوائل الدفعة.

وليس هذا هو المهم.

فمن أول لحظة وضع قدمه في الجامعة، وبدأ يتفتح وعيه إلى أنه ليس وحده الذي يشد «اللبان»، وليس وحده الذي لا يمتلك أبوه غير جلبابه يرتديه على اللحم الحي، جلباب في العادة على عكس جلباب أبيه فلا هو أبيض ناصع ولا هو خال من «رقعة». مذ أدرك هذا وبنهم راح يقرأ ويسمع ويطيل القراءة والسمع ويتفتح له الوعي، ولا يفعل تفتح وعيه إلا إدراكه بأن الأمر في حاجة إلى التغيير، وأن من ينادون بالتغيير أبناء مدن، وحتى لو كانوا أبناء فلاحين أو عمال، فإن فرن الإرادة المتوهج داخلهم وقدرتهم وطاقتهم على العمل لإحداث ذلك التغيير أقل بكثير مما يجب وأنه يستطيع أن يفعل الأكثر، ويقدم الأكثر ويحقق الأكثر.

وعضواً في الاتحاد صار، وأوتاداً للثقة به أخذت تندق، وخيمة هيمنته تتسع، واسمه وجرائد حيطانه، وخطبه واعتقالاته تصبح حديث الكلية، ثم حديث الجامعة، بل وأيضاً حديث المدينة، المدينة الجامعية التي حاولت إدارة الجامعة رشوته بإلحاقه بها، قبل الرشوة لعلمه أنها لن تلين قناته وإنما بها ومن خلالها سيجد له قاعدة انطلاق أشمل وأعم..

٦

أحس الثور أن «عمه» سلطان لا بد قد راح في سبات عميق، فأنفاسه منتظمة وعيناه مغلقتان، وسكوته طال وطال حتى أنه لم يعد

يتلقى موجات ترد اليه عبـر المسافـة الكائنـة بين مجلس السلطان في كرسيه العظيم وبين مجلسه هو، على حافـة المقعد العـريان متحفـزاً لأي اشارة أو بادرة احتياج من الرجل الكبير.

وهنا بدأ يتملمـل في مجلسه على طـرف الكرسي، تملمـلاً لا حركة تصدر عنه، ثم تململاً حرك فيه قدميـه، ثم بدا وكـأن الأمر لم يعد خافياً، وأن عمه السلطان نام نومة السلطان، وبهدوء شـديد وقف وقفـة من يستعد لـلانسحاب، وحين تـأكد أن حـركته تلك مـرت هي الأخـرى دون أن يشعـر بهـا السلطان، بـدأ يـزحف بقـدمين خفيفتين وكأنما مبطنتان بفروة فهد، خطوة، ثم الثانية ثم تسمر في مكانه فقـد صدرت عن سلطانه زجرة سؤال آمر:

ـ رايح فين؟

زجرة سؤال أعادته فوراً إلى جلسة حافة المقعد، يكـاد يتمسح كقط يود أن يؤكد ألفته وانضباطه وطاعته.

ـ أنا ما نمتش.

تردد «الثور» يقول:

ـ أنا ظنيت

ـ اقعد

ـ أنا تحت أمرك إن شاء الله للصبح .

يقعد؟ يقعد لماذا؟

سؤال دار في عقل كل منهما.

وإذا كـان السؤال قـد دار بقليـل من الـدهشـة عنـد «الثـور»، فـالدهشـة الأكبر كـانت لدى «سلطان»، لمـاذا حقيقة يـأمره أن يعـود للجلوس، ويؤكد أنه مستيقظ وأنه يريد استمرار وجوده مع أن الـوقت قد تأخر، والجميع، حتى داخل البيت الذي يجلسـون في بلكونتـه، نيام؟

كانت الرعشة قد عادت له من جديد، آمرة، مدلهمة، لا يملك لها دفعاً، وأيضاً لا يملك لها تحقيقاً.

حائراً ومرتبكاً ارتباك مبتدئين، خجلاً من نفسه خجلاً أبشع من خجله من أي غريب، يكاد يبكي غيظاً ممـا هو فيـه، ومن وضع كـان من المحال أن يتصور حدوثه، ولا يملك حيـاله أي تصـرف. حتى لو كان سيثور ثورة المجنون حينذاك، ثورة الرجل، أبو الرجـال، الزعيم الـذي يحـاول فـأر وإن كـان اسمـه «الثـور» أن يعتـدي عليـه، على رجولته. وعاد الصمت، الذي كان يبدو وكأنه الحل الوحيد للإشكال، يفـرض نفسه. وعـاد «سلطان» لا ليستعرض حيـاته ليعثـر على بـدايـة الكـارثة أو مبعثهـا وإنما عـاد يقلب ماضيـه، قريبـاً وبعيداً ليعثـر على سبب لهذا الذي حدث، بل ليتأكد أن شيئاً فعلاً قد حدث لـه، أو أن واقعة ما كانت هناك، موجودة، ووجدت لكنه نسيهـا وطمرتهـا الحياة الحافلة التي عاشهـا، بينما هي طـول الوقت كـالسوسـة، كالسـرطان الخبيث البطيء تعمل عملها حتى أوصلته إلى الآن، حيث لا يستطيع مطلقاً أن يتصور أنه، بكل جلالة قدره خاضع أو يكـاد يكون خـاضعاً لفكرة الرغبة العارمة الطاغية التي يستميت ـ دون فائدة ـ في مقاومتها،

فكرة أن يستسلم أمام ذلك الشاب المرعوب خوفاً منه ومن فحولته ومن هيلمانه، حتى لقد وفدت اليه فيما وفد أفكار أن «الثور» يتصور العكس، ويرتعش خوفاً من أن يطلب منه عمه السلطان ما يطلبه الأقوى من الأضعف، فطلبات السلطان أوامر مقدسة، تنفيذها لا مهرب منه ولا إمكان للهرب. أمر مقدس لو طلبه السلطان لكان عليه ـ ويا للكارثة ـ أن يخضع لنزوته حتى لو كلفه ذلك الخضوع رجولته وكبرياءه وكل ما بناه لنفسه من شخصية وسمعة وصلت به حد الشهرة أنه وحده، الثور الطلوق الذي يغار منه كل الرجال، وتحلم به كل محرومة أو غير محرومة من جنس النساء.

احتمالات، كل احتمال منها كارثة أبشع من الأخرى، حتى بدأ جسد «الثور» يرتعش فعلاً، ارتعاشات حقيقية، يكاد معها يرتمي بجسده تحت أقدام السلطان ويستجير به أن يرحمه أو أن يفض الصمت المخيف المليء كالأحراش بالأفاعي والوحوش ويقولها له صريحة، ويفعلها أو لا يفعلها وينتهي الأمر، وينتهي الصمت، وينتهي ذلك الموقف الذي أصبح امتداده أشد عذاباً من أي شيء آخر، أشد عذاباً من أي إحساس بالمهانة حتى لو تحققت المهانة.

٧

من العشة عند طرف سور الجامعة، الى المدينة الجامعية، الى العمار، من المعير بأبيه عاري المؤخرة غاوي الفشخرة إلى المشاد بأصله الفلاحي المتين، وعصاميته، وأبوته التي رفعت لمرتبة الأصالة والعراقة الشعبية والنموذج الأعلى لما يجب أن يكون عليه الزعيم،

قادماً من قلب الشعب لا بد يجيء، سليلٌ أب كـادح إذ أصبح النبـل والعراقة صفات من يكون سليل شجرة بؤس أباً عن جد.

من «قصعة» الأسمنت تقطم الظهر في النهـار والمراجـع ينقلها نقـلاً وهي بآلاف الصفحـات من كتب زمـلائـه التي كـان يستعيـرهـا منهم، من القصعة قاطمة الظهر، والنقل عن المـراجع مضيـع البصر مخـدر الأصابـع مقوس الجسـد بالآلام المبـرحة التي تئن لهـا عـظام الظهر..

من الصبي النكرة المصفر الوجه بـالأنيميا ونقص الغـذاء، إلى الحاصل على درجتين، واحـدة في الاقتصاد والأخـرى في التاريـخ، مفخـرة الجامعـة ثم بقية الجـامعات، مفخـرة جيله وكل مـا تـلاه من أجيال، بل مفخرة من مفاخر مصر ووثبتها التي نقلتها من مجـرد دولة محتلة في عـالم قبيح قـديم الى دولة قـائـدة تحـرر وزعيمـة شعـوب ومفجرة انتفاضات وثورات، حتى أصبح سلطان سلطاناً فعلاً.

وكان أول زعيم شباب يقـابله الرئيس الـزعيم، ويصافحـه، بل ويـمنحه وساماً وتصبح له حظوة، وجاه،وصاحب‌مدرسة واتجاه، حـوله ومعه جيش صغير تابع من النوابغ والمعجبين وتابعي التابعين.

وهذا كله يحدث دون أن يشعر سلطان أن جلباب أبيـه الخالي قد امتلأ برصيد حي من المضمون والجاه والنفوذ.

ولهذا كان مـاضياً لا يـزال كالمهـر الأصيل لا يتعب ولا يكـل، يجـري بلهاث ثـابت، لا من أجل هـدف محدد وضعـه لنفسه ويـريد

الوصول إليه فلم يكن من ذلك النوع من أصحاب الأهداف الخاصة التي يضعونها نصب أعينهم للوصول إليها وتحقيقها، ولكن مضيه كان لا يخضع لأي تفسير عقلي أو نفسي، إنما هو مضى وكأنما من أجل المضي ذاته، فلا هو وضع نصب عينيه أن يكون زعيماً أو محبوباً أو صاحب سلطة ونفوذ، لا المال كان هدفه، ولا الطموح السياسي كان محركه، بل ولا التاريخ أو مكانة في التاريخ يطمع فيها ويسعى لها. كان حقاً وصدقاً لا يعرف لماذا هو ماضٍ هكذا، يحقق، وتنهال عليه الألقاب والصفات والثناء دون أن يسعى لها أو يقيم وزناً، إنما هي نتائج ثانوية لا تشغل باله مطلقاً، وتأتي كنتيجة حتمية لدأبه وإصراره ومبادئه التي انغمس تماماً في التبشير بها والعمل من أجل تحقيقها وسيادتها. مجتمعة لا بد أن يكون عادلاً لا يمتلىء بمظلومين لا ذنب لهم، مظلومون لا يمتلك الواحد منهم إلا جلباباً، بينما آخرون تمتلىء دواليبهم وحجراتهم بطوابير الملابس المعلقة فوق مشاجبها وكأن غرف نومهم وملابسهم أجنحة بأكملها من أجنحة بنزايون أو صيدناوي أو الصالون الأخضر. أبوه عمره ما انتقل من مكان إلى مكان بواسطة قطار أو وسيلة من وسائل المواصلات، إنما هو السير الكعابي المستمر مهما بعدت المسافة. الصدق. الحقيقة. النظافة. التضحية. الجهد من أجل الآخرين وليس أبداً من أجل احتكار الثروة والتكويش على النفوذ. الزعيم سيد القوم لا بد يكون سيداً لأنه خادمهم، وذو مكانة بينهم لأنه أكثرهم عملاً وجهداً من أجلهم... مبادئ.. بيضاء ناصعة كجلباب أبيه... كانت قبله مجرد ستار، مجرد رداء ليس في داخله أي مضمون، كان مضيه في الكفاح الدائب أن

يمـلأ تلك الثياب النـاصعات مضـامين حقيقية، وأن يحـول الستـائـر الخارجية النـاصعة البيـاض لتخفي القذارة والقبـح الى ستائـر تحوي وتحمي كل ثمين وغال من الحقائق والمضامين.

الرجل ليس بكثافة شاربه وشدة طغيانه ولكن الرجل رجل لأنـه شهم وكريم وشجاع ومضح ومغيث للملهوف وواقف بجوار المظلوم، مع الضعيف حتى يقوى، وضد القوي حتى يعـدل ويعتدل، وتصبـح قوته في خدمة العدل والحق. والمرأة امرأة لا بحسبها ودلالها وأنوثتها وإنما بعملها الأعظم في أن تكون الأم الأعظم لبشرية أرقى، فالأمومة كالرجولة ليست صفة، ولكنها قيم، درجات عليا من السلوك البشـري العاطفي والعقلي وحتى الجسدي بها تفرد الانسان وعلى هديها وصل إلى قمة في التطور جعلته أسمى حي في الوجود...

الأم..

وغيـر سلطان اليد التي كـان يـرتكـز عليهـا، لا لأن التعب من الارتكازة الأولى قد جعله يغيرها، وإنما لأنه، وكأنما فجـأة قد وصـل عنـد النقطة التي خيـل اليه فيهـا أنه قـد عثـر على أول الخيط، على السبيب والمتسبب، على أمه.

٨

الفلاحة السمراء ذات «طابع الحسن» الغائـر في منتصف ذقنها الموشوم وشمة الصعيديـة البدويـة وكأنـه ختم تختم به الفتـاة علامـة أنهـا العذراء الكـاملة المنتمية إلى قبيلة ليس لـه اسم محدد، ولكنهـا

قبيلة النسـاء الساميـات جمالاً وشكـلاً في نفس الوقت، قبيلة المـرأة جسـداً مخلوقاً ذلـك الخلق الأنثـوي الخـاص المثيـر، ولكنهـا أيضـاً علامة أنها انسانة فيها كل نبل المـرأة الفلاحـة أو الصعيديـة وأنفتها، كل صلابتها عندما يجد الجد ونعومتها تتحد مع خشونة الرجل لتكون ذلـك المـزاج المصـري القـح الـذي ينتـج أطفـالاً لهـم قيم الـرجـال ومسؤوليات الرجال بما فيها حتى الأخذ بالثأر، كل الفقراء بلا استثناء يكنون حباً للأم ليس كمثله حب آخر، وكـل الأمهات الفقيرات يحببن أولادهن، صبياناً وبنات، حباً ليس التدليل والإفساد بكثرة التدليل هـو منتهـاه، ولكنه الحب المسـوى على نار الحيـاة القاسيـة كـالبتـاو، لا يضنعه وينضجه الوقود الصناعي ولا أفران المازوت، وإنما هو مسوى على حرارة شمس طبيعية، لافحة ولكنها غير صناعية، نفس القانـون الذي ينضج الخبز هو القـانون الـذي ينضـج العـواطف، هي العلاقـة الحارة الحميمة بين الأم والولد، حب صاف منقى لأن هدفـه الأعلى إنتاج رجل وليس إظهار الحب تدليلاً لطفـل، حب الأم فيه واثقـة من حب الابن لها ولهذا فهي لا تستجدي حبه، أو لا تخاف من كرهـه، تريده لنفسه رجلاً ولا تريده لنفسها لعبة أو «عروسة» تهزها وتلهو بها.

هكذا يراها، بعين نضجة، الآن.

ولكن الطفل فيه رغم حبه الشديد لها كان يكـره ما تصـوره أنه قسوتها وخشونتها، بل وأحياناً عقابه ضرباً مبرحاً أو شكوى مرة لأبيه، أبوه أبداً لم يضربه أو يعاقبه مطلقاً عقاباً بدنياً، كانت كلمة : يا ولد، يقولها غير عالية أو شاخـطة ولكنها خـارجة من عمق رجالي مرعب،

كالسكين المسنونة تندب في قلب الجسد، في صمت. كلمة كان يخشاها ويرعبه مجيؤها أكثر من كل زعيق أمه وصراخها وضربها له «بالقنو» الذي تكنس به الدار والذي ليس سوى سباطة البلح بعدما اقتطعت من النخلة وذهب عنها بلحها وجفت وتغير لونها وأصبحت أداة النظافة في البيت وأيضاً أداة التأديب غير المؤذي.

تدليل، لم تدلله..

خشونة مرضية كارهة أبداً لم يتعرض لها..

شك في رجولته المبكرة أو لفظة سباب تجرح تلك الرجولة على عكس ما كانت تفعله أم عيد جارتهم التي كثيراً ما كان يسمع صوتها في عز الليالي ملعلعاً يتهم ابنها بأنه عاد متأخراً لأنه لا بد كان مع الأولاد في حقول الأذرة، وصراخ وكلمات كانت تجعل سلطان يغلي دمه هو بالغضب حنقاً على تلك المرأة وإشفاقاً على صديقه ابنها. بل حتى ذلك الابن، رغم كثرة ما وجهته له أمه من طعن في رجولته، رغم لونه الأبيض الفاتح وشعره المائل للصفرة إذ كانت أمه من الدقهلية، لم ينشأ ولم يحدث أبداً أن تحققت نبوءة أمه من أنه سيصير كذا حين يكبر، مثله مثل «شاهين» الطحان. وشاهين الطحان هذا كان ظاهرة من الظواهر الكثيرة التي تختص بها بعض قرى الأرياف سواء في بحري أو في الصعيد. رجل بالمظهر والشكل له لحية وشارب وإنما محلوقتان، ولكنه فيما عدا هذا أنثوي في كل شيء آخر، في طريقة كلامه، في مشيته، في التصاقه الدائم بالمجتمع النسائي في القرية وحتى في عمله، فقد كان يتاجر في

الزبدة والسمن والقشدة ويغوي شباب القرية المراهق بما هو على استعداد لدفعه من نقود، وله سمسار من صعاليك الشباب كان هو الذي يجلبهم له مقابل عطاياه، معروف ومشهور ومحل استنكار كثير من المتزمتين وأهل الورع والتقوى ولكنه عند الناس العاديين، بحكم طول المدة واشتهار خصاله، أصبح يؤخذ مأخذ الظواهر العادية التي لم تعد محل استنكار، وإنما أصبحت فقط محل سخرية البعض ومثلاً تضربه الأمهات لأولادهن إذا أحببن أن يخيفوهم من الميوعة أو إطالة الشعر أو «عوج الطاقية».

أبداً ما جرحت أمه رجولته بالعكس كانت دائماً محل افتخار به، كل ما يذكره هو ذلك اليوم المشهود الذي دخلت أمه «زريبة» البهائم ذات ظهر صيفي كان الكل فيه نعسان أو هاجعاً هجوع القيلولة، هو فقط كان منفرداً في الزريبة بحمارة عمه الذي جاء يزورهم من النجع المجاور. ولا يزال يذكر تصرف أمه الذي يعترف الآن أنه كان قمة في الحنكة، أو كأنها طبيبة أمراض نفسية، إذ حين فتحت باب الزريبة ووجدته على تلك الصورة، ورأت الذعر الخجول وقد جحظ من كل ملامحه وأسال، فجأة، غزير عرقه، قالت وهي تستدير راجعة بأسرع مما دخلت قائلة له من خلف ظهرها: كيف تركب حمارة عمك من غير «بردعة» يا جحش...

وهكذا أبرأته هي حتى أمام نفسه حتى لا يحس مطلقاً بأي حرج. أما حين ضبطته خلف كومة الحطب فوق السطوح مع الأرملة سعدية العمشة التي كانت تجلب لهم الماء. يومها انهالت عليه ضرباً

بالقنو، ولكنه أحس، وهذا هو ما استغرب له، أنه ليس ضرب غضب، بل يكاد يكون ضرب أداء واجب بل إنه أحس أن في ثنايا شتائمها وتأنيبها نبرة تكاد تكون نبرة فخر بما رأت واكتشفت، كل ما في الأمر أن غضبها كان يبدو منصباً على اختياره للأرملة الكبيرة القبيحة وليس لأي سبب آخر.

٩

من بعيد بدأت تترى نوبات سعال أبو المعاطي، يذيعها ميكروفون المسجد إيذاناً بتسليك زوره استعداداً لتسابيح الفجر وأذانه. كانت الدنيا لا تزال حالكة الظلمة، وكان النوم قد بدأ يتسرب إلى «الثور» فقد بدأت رأسه تسقط فجأة فيفيق مذعوراً ويعيد رفعها بسرعة وكأنه ينفي عن نفسه تهمة أنه قصر في يقظته، وأن النوم غلبه، في حضرة السلطان اليقظان. وكأنما كان أذان الفجر، بعد الليل الطويل المستعيد لشريط الحياة إيذاناً باختلاط الماضي بالحاضر في ذهن سلطان وذاكرته، أحداث صغيرة تقفز فجأة إلى وعيه قفز براغيث ليالي الشتاء لا يملك الإمساك بها، وإذا أمسكها أفلتت، ثم نوبات مناطق شاسعة بأسرها ضاعت من الذاكرة أو أضاعها هو بإرادته، فلم تتبع حياته آراءه ومبادئه بدقة كاملة أو انضباط، كثيراً ما كانت تحدث الهوة بين الفعل والمبدأ، بين ما يأمله وما يستطيعه، بين الدأب الجليل المستمر ثم نفض اليد فجأة، وكأن لا فائدة، وكأن ما يحاول تحقيقه أضغاث أحلام أو أحلام أطفال. مثل ذلك اليوم...

أجل، أجل، ذلك اليوم..

ظهراً كان الوقت؟ منتصف الليل؟ أبداً لا يذكر! المؤكد أن كان هناك وقت، وكان هناك رجل وكانت هناك استغاثة، طلب ملح، رجاء مليء بالعشم والاستغاثة. استغاثة يدرك صاحبها أنه لم يتوجه بها إلى الإنسان الخطأ، إذ إن شهامته مضرب الأمثال. أنا وقعت من السماء. وأنت تلقيتني. قرار. نعم نعم يذكر جيداً أن كان لا بد له من قرار يتخذه. لا شيء عنده أسهل أيامها من اتخاذ قراره. في ومضة وفي لا وقت يكون حسبها وحسمها. الكل ينتظر ومتأكد أن الكلمة ستخرج من فمه، كما تعودت أن تخرج، جريئة مليئة بعين الحكمة، والحكمة عنده لم تكن التصرف الوقور المتزن، وإنما أحياناً أكثر القرارات جنوناً وخروجاً عن المألوف إذا كان الأمر والواجب يتطلب ذلك.

مؤيدوه جاءوا، عشرات، مئات، كثيرون وكأنهم آلاف، كأن قدراتهم جميعاً على الوصول إلى قرار قد أوقفت، أوقفوها أو توقفت، إذ يعرفون أن هذا ليس عملهم أو دورهم، ولكنه دوره الذي لا يستطيع سواه أن يقوم به بمثل ذلك الحزم والحسم وأصح الصحيح.

كان العدوان قد حدث، أمام الملأ ثم، وكأن من قاموا به مجانين فقد كان الكل يعلم أن رده سيكون الصفعة في جبروت عنفوانها، والركلة والإهانة ترد عشرات أضعاف ما حدثت به.

كيف حدث، ما حدث؟

كيف وجد الرجل فيه ينكمش، والخوف وإجراء الحسابات داخله يتكاثر، وطال سكوته أو طال تردده إلى أن بدأت الهمسات تترى، وسحابة شك كثيفة تحجب وجه الشمس ووجه القوم ووجهه، وبدلاً من زعقته المشهورة: اضرب يا ولد.. اضربي يا بنت، نحيلاً خرج صوته وكأنه صوته حين كان صبياً لم يراهق أو يخشوشن صوته، كأنه صوت عيل، أو رجل آثر أن يكون قراره عيالياً، وصوته ينطق به وكأنه صوت خنثى: أنا رأيي أننا نفوتها عليهم المرة دي ونرضخ، ونختار نحن بعد هذا وقت المواجهة ومكانها، مع أن الجميع وهو على رأسهم يعلم أن هذه، هذه الساعة من الظهيرة بالذات، وقد تذكرها الآن تماماً، هي أنسب وقت، والاحتشاد للمواجهة لحظتها هو أقوى احتشاد، وأن معنى التأجيل ليس تفويت الفرصة، أو تأجيل المعركة، ولكنه، على بلاطة، الخوف والتراجع والهرب.

وساعة طويلة ظل يحدثهم عن أهمية الوقت المناسب والمكان المناسب واحتمال الهزيمة المؤكدة إذا لم يتم هذا بدقة.

وانصرف بعضهم وهو لا يزال يتكلم، مع أن شيئاً كهذا أبداً ما حدث، ولا أحد كان يتصور حدوثه، فالحديث تام الوضوح أنه تبرير في تبرير، وأنه في داخله خائف يرتعش، وأنه هذه المرة ليس بسلطان وإنما هو الى بهلوان السلطان ومضحكه أقرب..

حتى الأنداد وقفوا مذهولين يسمعون ما لم يخطر على قلب أيهم أو أحد، فقد كانت هجمتهم هجمة يائسين ظهورهم إلى الحائط، وموتاً بموت فعلوها وهم مدركون تماماً أن الهزيمة المنكرة

هي ما ينتظرهم، هزيمة، وهم يتصورونها، ويرونها واقعاً وحقيقة، لم تكن بمرارة أي هزيمة أخرى تجاه أي خصم آخر، فالهزيمة أمام سلطان ليست ذلك العيب المخزي الذي يتحدث به الناس ليالي وأياماً إنما تكاد تكون نوعاً من الشرف، يكفي المهزوم فخراً أن الذي هزمه هو سلطان، وأن جرأته وصلت حد أن يقف أمامه نداً، فلو هزم ـ ومن المعروف أنه بالتأكيد مهزوم ـ فيكفيه فخراً أن هازمه هو من لا يجرؤ أحد على منازلته.

زعيم صار، صاحب الرأي والكلمة المسموعة والقرار. حين جاء وقت الجد والقرار يتحداه في عقر داره وعقر مذهبه تحول الى صعلوك من البشر، فولى الأدبار، وإن حاول أن يبدو قراره قرار حكمة وروية، وهرولته الداخلية يفعلها بتؤدة ووقار الملك يستعرض في خطو الأباطرة العظام حرس الشرف، ولو كان قد أطلق العنان لما كان يحسه حقيقة ويود حقيقة فعله، لوضع ثوبه في أسنانه، وانطلق يجري جري الأرنب المذعور. كيف يتمطى الجبل ويلد في النهاية فأراً، أم أن الفأر فيه كان هناك طوال الوقت. إنما كان ينفش نفسه ويضخم صوته وغلظة جسده وحديثه ليخفي نفسه وحقيقته.

أيام و ليال وبضع سنين ظل يحلل ويفتش خبايا نفسه، وبخبث يستدرج محدثيه وندمائه ليعرف لماذا في رأيهم فعل، ما فعل، لماذا خاف وارتعش وولى الأدبار؟ وفي معظم الأحيان كان يسكت بكل ما يملك من قوة الرغبة في السؤال والإجابة عن التساؤل إذ يكاد يواجه بما يشبه مر الحقيقة العلقم.. أنه أبداً لم يكن ذلك الجبار الذي

صنعوا حوله الهالة، ولا ذلك الشجاع الذي ترتعش لمرآه النفوس، أن الخارج فقط هو ما يظهره هكذا أما الداخل فكأنه كان طوال الوقت أجوف، فارغاً، مجرد طفل أعجبته صورة أبيه ورجولة أبيه وشجاعة أبيه فمضى يقلدها أو يحاول، وأنه رغم الجهد الجبار العظيم لم يتعد أبداً طور المحاكاة والتقليد، وأنه مجرد كذبة، الكارثة العظمى أنه صدقها، ومن شدة إيمانه بها صدقه الآخرون. ساعة اللظى من ذلك اليوم الصيفي الحار ماذا حدث؟ وكأن لظاها أذاب هيكل الأسد، وكأنه كان مصنوعاً من شمع أو صلصال، وكأن جلبابه قد فرغ من المضمون، ومنه وتبدى الفأر، حين خاف حقاً، لأنه لأول مرة ووجه في حياته بناس اعتقد أنهم لا يخافون منه، وفعلاً، ممكن أن يفعلوها ويضربوه، ذاب مظهره الرهيب وتبدى الأسد على حقيقته فأراً مذعوراً، ولا شيء غير فأر مذعور.

١٠

ولكن المسألة لم تتم هكذا ببساطة كالمعادلات، تردد في قرار أو حتى قرار خاطىء أو فلنصل بالأمر الى نهايته ونقول لحظة خوف حين جاءت ومرت، فإذا بها تتركه نتفاً ومزقاً.

إذا كان الليل قد مر عليه مرور وابورات الزلط فإنه في الصباح كان ذلك الرجل الآخر، بالأدق ذلك الأصيل، الأسد، إعصار الترنح الهزيل مضى، واستعاد القوام واعتدل. أنا أنا، ما كنته وما سوف أبقى عليه، مجرد خطأ في الحسابات جرى ولكن الله سلم..

هكذا قال، وظل من ساعتها يقولها لنفسه.

ولكن الناس بدأت تقول أشياء أخرى تماماً:

لا تقولها نطقاً أو كتابة أو حتى همسات إشاعة، وإنما تقولها بعينيها، بتبادل نظراتها، بالعيون التي لا تطرف أو ترتعش مطرقة كلما واجهت عينيه، إلى عيون الند للند أصبحت أقرب، بل ربما عيون القاضي الى من يحويه القفص وقد أدانه ولم يبقى سوى النطق بالحكم. وكان كلما أدرك بذكائه هذ أحس أنه يتعرى تماماً، والفأر الذي في أعماقه يرفع رأسه، ويجعله يتردد ويتلجلج وينتهي الى لا قرار، أو يؤجلها بأي حجة الى وقت مناسب ولا يجيء الوقت المناسب أبداً، وهكذا حين وجد أن منصبه يحتم عليه في كل وقت أن يأخد قراراً، قرر أن يخرج عن المنصب بل وعن القانون نفسه وأن يذهب الى عزوته وبلده ويكون عصابة رجال، ويصبح أبا رجال، ومن خلال درع العصابة يخيف الناس فيبدو كما لو أن قراره اللا قرار، قرار.

الحادثة التي جرت كانت وكأنما خبأها له القدر في اللوح المحفوظ، ماراً هو في عصرية عيد يمشي ساقيه وينفرد بنفسه بعد كثرة ما استقبل من زوار ومهنئين بالعيد، عادته السنوية التي لا تتغير حين يقضي أيام العيد الثلاثة في قريته يذكر ويتذكر، ويرى الزمن يغور بآثاره في الوجوه، ويستمتع بالأنوف الشامخة التي لم تكن تحفل به أو بأبيه وقد أصبحت تدين بالولاء المطلق، وتتدلى كالأغصان المرتخية فيما يشبه الذلة والمسكنة طالبة منه رضا أو نظرة

إدراك وتعرف، سائراً في العصرية يطوف بالحقول المحيطة بالقرية حيث كانت مرتع طفولته ومكمن ذكرياته، لمحه يقود «النورج» وهو جالس على أريكته الخشبية التي لم تتغير من أيام الفراعنة يقرأ في كتيب نصف مطوي أصفر الأوراق باهتها. كان الطريق يؤدي بالضرورة الى الجرن الذي فيه الولد والنورج والقمح المصنوع دائرة واسعة يدرس. ويمهل كلما اقترب من الشاب الفلاح الجالس بالسروال والصديري المتآكل الوجه المهلهل في يوم العيد هذا يدرس القمح والكل في إجازة، ويقرأ من الكتاب الدفتر مع أن الفلاحين معظمهم أمي، بمهل يتقدم حتى أصبح ما بينه وبين الولد أقل من مرمى طوبة دون أن يحس الولد بوجوده، أو إن كان قد أحس لم يعط لهذا الوجود أهمية تستحق أن ينتفض هابطاً من النورج قادماً مهرولاً مقبلاً الأيادي منحنياً إلى الأرض أمام عمه «السلطان» ـ كما تعود أن يفعل الناس جميعاً من أكبر كبير الى أصغر صغير. ولكن البهائم ظلتّ تسير وعجلات النورج المسنونة تعوي وتئن والشاب جالس كأنما لا يدري بما حوله، وسلطان واقف مذهول مما يحدث، إذ هو لأول مرة يحدث.

ـ وله!..

شخطته التي يعرف الجميع بصماتها انطلقت وجعلت الكتاب يكاد يهوي من يد الشاب وهو يحدق ناحيته، يحدق فقط، دون أن يفعل شيئاً آخر. أخيراً بعد لأي يقول:

ـ يلزم خدمة؟

ـ خدمة في عينك قليل الأدب مـا اتربتش. أنت اسمـك إيه يـا ولد.. ابن مين يا بن الكلب؟

ـ يا فندي مـا تغلطش فيه لحسن أغلط فيـك.. أنا مش خـدام عندك.

وعلى الزعقة والشخطة والوقفة، كان نفر من المارين قد هرولوا الى حيث الجـرن، وكان أكثر من رجل منهم قـد اندفـع الى الشاب يجره من فوق النورج ويتطوع بزغده ولكمه وهو يقول له:

ـ مش عارف عمك السلطان يا حمار يا بن الحمار..

فعلاً كان واضحـاً أنه لا يعـرفه ولـم يسبق أن رآه، ولكنـه ما إن ذكر اسمه حتى اصفر وجه الولد وأحس أنـه وقع في محـظور سبحان المنجي منه.

وارتد الرجال إلى السلطان يعتذرون وكأنهم هم الذين أخـطأوا ويشبعـون الولـد سباباً ولكماً طـالبين منه أن يـذهب ويقبل يـد عمـه السلطان ويستصفحــه. ولكن السلطان أشــار لهم أن لا داعي، فقط أعاد سؤاله:

ـ انت ابن مين يا ولد؟

ـ أنا أحمد بن محمد الظحان يا سعادة الباشا.

ـ الطحان؟! بتقول الطحان؟!

وكـأنما انفـرجت أساريـر الدنيـا كلهـا إذ بـدأ البـاشـا السلطان

يقهقه، والجميع يقهقهون، والولد حائر يحملق فيهم ولا يفهم شيئاً بالمرة، فمن الواضح أنه كان لا يعرف عن حكاية عمه شاهين المخنث شيئاً.

ـ وريني بتقرا في ايه يابن الطحان..

وحالاً كان الكتيب ينتزع من يد الولد أحمد ويقدم الى السلطان في اعتذار واضحّ عن قدمه وتهرؤ صفحاته. باشمئزاز قلب السلطان الصفحات الى أن وصل الى الغلاف المتهالك المصنوع من ورق اللحمة ووجد مكتوباً عليه:

موال أدهم الشرقاوي.

وعاد السلطان يقهقه حتى ليكاد يستلقي على قفاه من الضحك والكلمات تختلط بالقهقهة: بقي يبقى عمك شاهين الطحان وانت بتقرا أدهم الشرقاوي.. وانفض الجمع والحادث، ولكن غيظاً ما كان لم ينفرج بعد من نفس السلطان، فأرسل يستدعيه في جلسة المغربية، تلك التي يتبهرج لها دوار الضيافة بالأنوار وقد أصبحت مصابيح كهربائية باهرة الضوء، وقد ارتدى جلباباً أسود من لون جلده وهات يا تريقة من سلطان والجالسين عليه وعلى عمه، حتى لقد وصل الحد أن قال له السلطان: عمك كان معاك زي الباقيين يا ولد؟ كان بياخدك في الدرة برضه؟. وهنا انطلق الولد مغادراً المجلس في عنفوان كلب قطع سلسلته، والضحكات تشيعه لا تزال.

وربما لهذا السبب عاد الى السلطان بعض الغيظ الذي كاد ينتهي من نفسه.

كان اليوم التالي يوم جمعة، وبينما السلطان في حاشيته خارجين من المسجد لمحوا أحمد الطحان قادماً من الحقل موحل السيقان بالطين يحمل تحت إبطه ربطة برسيم.

ـ وضلالي وما بتصليش كمان، يبقى لازم عمك خدك لفة.

وانفرطت دموع حقيقية من عيون الولد وهو يقول:

ـ يا فندي ما يصحش الكلام ده..

ـ ايه.. ما يصحش.. إنت لسه شفت حاجة.. والله لنخليك تعملها في عمك عيني عينك الليلة دي..

وهنا حدث شيء لم يكن أحد يتوقعه أبداً..

فجأة، ألقى الولد بحزمة البرسيم جانباً، وقفز على السلطان، واضعاً ساقه خلف ساقيه، فتهاوى السلطان على الأرض كالشجرة الفارهة، وانقض الولد عليه وفي يمناه «الشرشرة» التي «يحشون» بها البرسيم وفي عينيه نار من قرر أن يذبح الرجل ليقتله فوراً.

اندفع أكثر من رجل ناحية الراقد والراقد فوقه فإذا بالولد يزأر:

ـ والله اللي حيخطي ناحيتي لجازر رقبة الـ. . دهه..

وتجمد الكل في مكانه.. فالتفت الى السلطان وطرف الشرشرة مغروز في أيمن عنقه، ما هي إلا جرة واحدة حتى يذبحه ذبح الشاة، والنار لا تزال تتلظى من عينيه وقال: مش حاسيبك إلا لما تقول اني مره.. قول..

تعالت أصوات الاحتجاجات من خلف الولد وأمامه وقد أصبح هو والسلطان وسط حلقة لا نهاية لها، ولكن الولد صرخ كالوحش الجريح :

ـ اللي عنده كلمة يوفرها ووالله إن ما قالها حالاً لدابحه.. انطق.. قول اني مره.

ولم ير السلطان مخلوقاً في عينيه عزم الجريمة كما رأى وجه الولد، ولم يحس هو برعب فوق طاقة البشر مثلما أحس وسن الشرشرة قد بدأ يقطع والدم يتفجر.

كان صعباً تماماً أن يقولها أو يتلفظ بها ولكن الموت أمامه ويا روح ما بعدك روح، حاول أن يستجمع رجولته ويشخط أو يزأر أو حتى يسكت ولو جزت الشرشرة رقبته، ولكن إرادته التي كانت قد تفتت منذ موقفه المتردد الأول، وتتابع تردداته، أبت أن تتجمع أو تقاوم أو حتى تأخذ قراراً بالمقاومة. وأشد ما أذهله أنه لم يقلها بتسليم أو خضوع للأمر الواقع، ولكنه قالها وكأنه يتنفس الصعداء راحة: أنا مره.

وتهدجت صدور الجماعة الملتفة وكأن السماء انطبقت على الأرض أو كأن الأسد قد تحول أمام أعينهم الى لبؤة، تهدج وأصوات همهمت قطعها أحمد الطحان بجبروت المنتصر قائلاً :

ـ تفوه عليك..

وبصق الطحان في وجه السلطان، ثم بقفزة كان قد أصبح

خارج الدائرة شاهراً شرشرته، مثيـراً الرعب، وكـان قد ولى الأدبـار، بحيث حين أفـاق الجميع لم يجـدوا له أثـراً، لا في بيته ولا في بيت عمه ولا في الحقول ولا في الأرض ولا في السماء.

١١

وصحيـح أن الشرشـرة لم تَجُزّ رقبـة السلطان ولكنها كـانت قد فصلت كبرياءه تمـاماً عن جسـده. وغادر القـرية ولـم يعـد لها أبـداً.. حتى والموكب وقد صغر كثيراً يودعه، كـانت جماعتـه تقول أشيـاء لا تقولها نطقاً أو حتى همسة إشاعة، وإنما تقولها بيديها، بتبادل نظراتها بـالعيون التي لا تـطرف أو ترتعش مـطرقة كلمـا واجهت عينيه، إنهـا عيون الند للند، وكلمات الـوداع الهشة التي مـا كانت تقـال إلا جبراً للخاطر.

الموت كان أرحم لهؤلاء الذين يفعلون مثله ويتصدون للزعـامة والسطوة، يصبح الخيار بين الموت وهتك العرض، إذا كان لا بد من خيار، فالموت ولا شيء سواه يكون الخيار.

يـأتيها من تلك الـزاوية أو هـذه، لم يجـز شعـر رأسـه ويصيـر أسـداً أقرع لـه رأس اللبؤة، وإنما لم يعـد ثمـة ضرورة للكبريـاء أو حتى الكرامة.. سيـد الرجال قالها وأعلن أنه امـرأة، حتى لـو كان إعـلانه إنقاذاً للحياة، فهو إعلان قد تم وحدث، غيره يموتون فعلًا من أجـل مـواقف أقل، غيـره ممن لا يزعمـون أنهم أسيـاد رجـال أو أصحـاب

سطوة أو زعماء، أناس عاديون يقتل الواحد فيهم أو يقتل بسبب أقل، يَقْتُل أو يُقْتَل ولا ينطقها.

تحييه ـ ذلك الانسان ـ كلمة، وتميته كلمة، وإرادته هي الأخرى تصلبها كلمة وترخيها كلمة، ولا تتراخى الإرادة مرة، إنما، إذا بدأت الطريق الى التراخي لا تتوقف، فكل تراخ يقود الى تراخ أكبر حتى، لتضيق نفسه مرة ويجد أنه يقول:

ـ لا بد أني لست بذلك الرجل الذي كنته.. لا بد كان في داخلي طحان كشف عنه ذلك الولد بفعلته، ثم فعلاً، ما العيب أن يكون الانسان طحاناً؟

وفعلاً يحس، حتى بجسده قد بدأ يتغير، حريص ألا يكشفه أمام أولاده الشباب الكبار حتى لاحظ أن شعر ساقيه وصدره قد بدأ يقل، وينمحي تماماً من أجزاء، ويحس كلما نظر إليه شاب وأطال النظر، أنه يرى فيه ما يخجل، فيخجل، خجلاً ليس مثلما كان يخجل حين كان السلطان، ولكنه خجل الخجلان من نفسه فعلاً، الخائف على نفسه من الآخرين فعلاً، الموشك أن يخفي كل قطعة من لحمه أو عضلاته كأنما ستفضح خجله، أو تفضح أنه لم يعد أبداً ذلك الرجل الذي كانه.

١٢

كان الشيخ أبو المعاطي قد انتهى من أذانه، وبدت الدنيا أكثر ظلاماً مما كانت قبل أن يحين أذان الفجر، ظلام يغري بانطلاق الهواجس والمكنونات، ولم تكن تلك المرة الأولى التي يجلس مع «الثور» أو يستبقيه الى قرب الفجر وما بعد الفجر، حتى لقد بدأ الولد يتساءل عما يريده منه عمه السلطان، ووصل به الأمر أن افترض أنه لو طلب منه مطلب الرجال من النساء، فماذا يفعل؟ لم يكن يدري بالانهيارات الداخلية التي حدثت لسلطان الى درجة أن مطلباً كهذا كان مستحيلاً أن يرد على خاطره، ولكن أنى له أن يعرف أن الأمر قد بلغ بالسلطان الى منتهاه، وأن تلك اللقاءات الليلية بكثرتها قد فعلت فعلها وجعلت شيئاً غريباً يرتبط في ذهن سلطان بها. كلام رجاله. كلام رجاله. راجل لراجل. راجل لراجل. الرجل يربط لرجولته من لسانه، هكذا كان الكل يعلم، ولكن هو وحده الذي بدأ يعرف أن الرجل أيضاً ممكن أن يفك من رجولته بكلمة، ينحل العقد الذي شب وهو يربط نفسه به وبرجولته. ولماذا لا يقترب من الولد «الثور»، والدنيا ظلام، ولا أحد يرى أحداً، حتى هو نفسه لا يرى ولا يريد أن يرى نفسه وهو يقترب ويقترب، والولد قد وطن نفسه على الاستجابة، فما باليد حيلة، وإذا بالطلب عكس ما وطن نفسه. مذهولاً لما حدث ويحدث. فرحان أنه نجا وإن كان بطريقة أخرى قد وقع، غير مهم فالمهم أنه قد وصل إلى حالة يستوي معها هذا أو ذاك.

وتم كل شيء والعرق اللزج الفائح برائحة كبرياء يتحطم، وعزة نفس تتمزق، وهوان يستسيغه ويستمتع به، روائح لا تفعل باختلاطها إلا أن تثير الغثيان، ولكنها لم تثر أبداً غثيانه.

● ● ●

كل الأسرار يخفيها ظلام ليلة، حتى إذا تعددت الليالي قل ظلامها وكثرت شفافيتها وبدأ ينكشف ما كان يخفيه ظلامها، وبدأت الإشاعات، باهتة تتوالى على أسماع الناس، مستهجنة أول الأمر وكأنما هي تجديف في حق ولي من أولياء الله، ثم بالإلحاح، تتعودها الأسماع، ثم تصبح شهرته كمثل شهرة شاهين الطحان، الذي كان قد مات، وقيل إن أحمد ابن أخيه هو الذي استدرجه الى القناطر وأغرقه، غير أن صوته العالي الشاخط المرعب، وإن كانت قد انتابته ليونة، نفس الليونة التي انتابت جلده وعضلاته، إلا أنه كان لا يزال على عادته: يشخط يا ولد.. ويستجيب الناس لشخطة الزعيم، ولكن في أكمامهم يخرجون له لسانهم أو يكتمون ضحكة صاخبة عالية تريد أن تنفجر من صدورهم ذات مرة وتنهي المهزلة.

ولكن.. أبداً.. ذلك الأدب المنافق الذي يتحلى به الناس، كان دائماً يحول بينهم وبين أن يجأروا أو يضحكو أو ينفجروا بالحقيقة..

نفس ذلك الأدب المنافق الذي جعله يستمرىء خضوعهم ولا يعود يبالي أن يقولوا عنه ما يقولون، يخفون أو يكتمون أو يظهرون،

فكمـا أسقط عنه ذات مـرة برقـع الرجـولة، أسقط عنـه بنفسـه بـرقـع الحياء.

ونصف نائم، نصف مستيقظ، نصف مخدور أو سكران، يتأمل جلده وكـأنما بفخـر، حين يـوغـل الليـل، وهـو في الفـرانـدة أو في اللوكـانـدة، وأمـامـه فتحي «الثـور» أو ابـراهيم «الجحش» أو سعيـد «البغـل» أو صبـري «الكلب». فـلا يـزال هـو السلطان، لا يـزال هـو الأسد.



أنا سلطان من قانون الوجود

أنا «سلطان» قانون الوجود

لا أعتقد أن أحداً ـ خارج أسرة مدرب الأسود محمد الحلو ـ قد حزن لمصرعه مثلما حزنت.

ذلك أن القدر ليلتها ساقني لأدخل السيرك، وكانت ليلة الافتتاح، ولا أعرف لماذا ولكني بعد رؤيتي لعبة الأسود تنبأت أن حادثاً جللاً لا بد سيقع وأن قاهر الأسود محمد الحلو سيصرع على يد أو (ناب) أحد أسوده. بل بحت بالخاطر الحزين لمن كانوا معي، ووافقني بعضهم، بينما لم يكترث الآخر وكأن الأمر لا يعنيه.

وحين تنبأت بما تنبأت به لم أكن ساعتها أستعمل حاستي السادسة ولا كنت صوفياً قد أصيب فجأة بحالة وصل مع الذات العليا واتصال، ولا أعتقد كذلك أني ولي من أولياء الله.

بل حتى لم أكن أعاني من نوبة غربة تدفعنا أحياناً لتجريد الأشياء من دفئها المكنون وإفراغها من التفاؤل.

بصراحة، لم أكن ساعتها متأثراً بأي شيء خارج القمع

الضوئي المتهرىء المكفى علينا، يقتطعنا من العالم، ويقطع العالم عنا.

وحينما لا يحدث الشيء صدفة، بل تكون أنت ـ أنت الإنسان العادي مثلي ـ على يقين أنه سيحدث.

وحين لا يحدث نتيجة خطأ أو اهمال.

حين يحدث وكأنه لا بد أن يحدث.

حينذاك من الممكن أن نقف عنده، لأن الأمر لا بد هام وخطير، ويصبح واجباً علينا أن نعود، كلنا هذه المرة، إلى ذلك القمع الضوئي المقلوب نعيش الظاهرة التي دارت أحداثها المروعة هناك، فمن يدري، ربما بعد أن نحياها نجلس، لأول مرة منذ زمن طويل على ما أعتقد نفكر، ليس في محمد الحلو وإنما في أنفسنا، من يدري، ربما تحدث المعجزة وحسناً أني كنت هناك، وأني شاهد عليان.

* * *

نصف الألعاب مضت، كاللب، نقزقزه قطعا لليلة أولى من ليالي رمضان.

أثناء الاستراحة كان العمال قد أقاموا حلبة ترويض الأسود.

في هالة من فرقعة الأسواط والجئير الذي تضخمه المكيروفونات (ليرعب أكثر!) والصراخ والهدير وأصوات الغابة،

دخلت الأسود. عبرت ذلـك النفق الحديـدي القائم بين محبسهـا في الكواليس وبين الحلبة، ذلك القفص الحديدي صدىء وقـديم. هذا صحيح، ولكنه حديدي أصلي وزيادة في الاحتياط مربوط بحبل قديم إلى العامود الرئيسي لخيمة السيرك.

الأسود دخلت، أسود ستة، زيتية الصفار أو رمادية البنية أو بـلا أي لـون لـه اسم، متشـابهـة، كثـرتهـا تمنـع عنهـا جـلال التفـرد، وانكماشها يخلع عنهـا احساس الملك أو حتى احسـاس التوظف في قطاع عام.

مـا لبثت الأسود جميعـاً بعد دخـولها أن أخـذت أمـاكنهـا على شكـل نصف دائرة مقعيـة كتماثيـل أسود قصـر النيل، مـادة أقـدامهـا الأمامية فوق الحامـل الخشبي الموضـوع أمام كـل منها. كـل الأسود فعلت ذلك ما عدا الأسد قبل الأخير، ذلك الذي عـرفنا فيمـا بعد أن اسمه (جبار) فقد أقعى فوق منصته رافضاً أن يمـد أقدامـه أمامـه فوق الحامل.

وتولى مذيع أنيق، غريب الأناقة على المكان والناس والأجهزة وبائعي اللب والكازوزة، تقديم المدرب. وبصوت مؤدب، لا مبالغـة في طبقاته (وهـذا أيضاً غـريب) قال: الآن نقـدم.. بطل الأسـود.. وقاهر الملوك.. ملوك الغابة.. البطل محمد الحلو.

انصبت أضـواء الكاشف الـوحيد على الـرجل الضخم الـواقف بجـوار القفص، والذي يلتحف بعبـاءة لامعة بـراقة، هـذا صحيـح،

ولكن يبـدو وكأنمـا استعيرت من متحف مـلابس الممثلين بـالمسـرح القومي .

وكـانت مفاجـأة، فهـذا الـرجـل قـد رأينـاه قبـلاً رئيسـاً لفـريق (الجمباز) في لعبة سابقة ، يقود فـريقاً من أكثـر من عشرة أشخـاص يتـولون، ويتـولى معهم القفز العـالي والـدحـرجـة والقيـام بمـا يشبـه المستحيـلات، وهو عمـل يكفي وحده لأن يقـوم بـه إنسـان واحـد، المهم، فتـح الباب الـوحيد في القفص الحـديـد الـدائـري، ودخـل الحلو، بعظمة ملك يلج قبواً للنبيذ، وتولى العامل إغلاق الباب وراءه بترباس متين .

لاحظ محمـد الحلو على الفور أن (جبـار) لا يمد قـدميه كمـا ينبغي، ومن فوره اتجه إليـه وحاول أن يصحـح الخطأ لتصبـح نصف الدائرة كاملة، نصف دستة من ملوك الغابة الرابضة المقعية الخانعـة، وهو بينها، ملك الحلبة، وملك الملوك، وملك السيرك وملك الليلة .

تناول الحلو سيخاً حديدياً طويلاً مدبباً من طرفـه، ولكن طرفـه ذاك معلقة به قطعة لحم صغيرة جداً (عرفنا فيما بعد أنهـا ليست لحم عجـول وإنمـا، لغلو الأسعـار، فهي لحم حميـر). وانقض الحلو بالحربة الملغمة بقطعة اللحم (وكأنها سيف المعز وذهبه) تجاه الأسد آمـراً إياه، أن يمـد قدميـه. ولـم يحدث سـوى أن الأسد نـام بمنتهى الحزم ورفض أن يستجيب. حاول الحلو مرة أخرى، نفس النتيجـة. الحلو، فـوق بطولتـه، رجل استعـراض مدرب. ان مسـألة التمـرد أو الطاعة أشياء لا تهمه بالمرة، المهم أن ينجح العرض، وألا يبدو هذا

التمرد الواحد واضحاً للعيان. .

وهكذا نفض يدأ من مسألة جبار بسرعة وبصرخة هائلة ركزت الأنظار عليه وعلى الأسود الخمسة دافعة أقدامها فوق الحامل الخشبي، وراكعة. وحينذاك فقط تولى محمد الحلو تقديمها. فكان أولها من ناحية اليمين (سلطان) الذي عرفنا الآن جميعاً أنه هو المجرم الذي نهش جانب الحلو وأدى لمصرعه، وكان المتمرد اسمه جبار، والباقون أسماء من هذا الطراز الحائز على صيغ كثيرة للمبالغة.

كان على الحلو بعد هذا أن يرفع الحوامل الخشبية من أمام الأسود ليستعد لعرضها القادم.

وهنا فقط بدأت أنتبه.

كان يتقدم من الأسد، ناظراً في عينيه، آمراً إياه بهما على ما يبدو أن يمتثل، ثم بيديه، ودون أن يغير من نظرته، يتولى قذف الحامل بعيداً عن منطقة الخطر، وهكذا. . .

وتمت المحاولات الأربع الأولى بنجاح، وعند جبار الذي كان حامله خالياً من أقدامه، ما كاد الحلو يقترب حتى زأر الأسد فجأة واقترب برأسه من المدرب هاماً بالتقدم الأكثر.

وهنا لمحت ارتدادة خوف سريعة من المدرب.

وبدأت أنتبه أكثر.

ليس توقعاً لما هو قادم من ألعاب.

وإنما لما هو أهم. لتلك النظرة الصادرة من عيني الأسد،

والنظرة المنصبة تجاهها من عين الحلو. أحسست أن اللعبة الحقيقية الخطرة هنا، وأن في الوضع ما يزعج، على الأقل يزعجني أنا. .

الليلة الافتتاح هذا صحيح. ومآزق الافتتاح معروفة، كم جربها أولئك الذين قدر لهم أن يكون عملهم، مهما كان جهدهم أو ابتكارهم أو كدهم الخاص، مسألة تقديرها ليس في يد رئيس أو مجلس، إنما في يد جمهور، يقزقز اللب، ويجرع الكولا، وبمنتهى البساطة يصعد إلى السماء أو يخسف، أحياناً بأعظم الأعمال قيمة، إلى أسفل سافلين.

الليلة الافتتاح، والجمهور كثير، والأضواء هي الأضواء، والسيرك هو السيرك، ولكنه زمان، في أول إنشائه كان سيركاً متلألئاً، صاخب الجمهور، غني الأضواء. كان فعلاً ذلك المكان الذي قصد بالسيرك أن يكونه. المكان الذي تدخله ليخلب لبك، لتعيشه تماماً، تنسى نهائياً أن في الخارج حياة وأحياء ومشاكل.

وأيضاً كان السيرك للاعبين حلبة صراع. أمام جمهوره الحافل تتفجر بطولاتهم. يغامرون حتى بالحياة وهم يتأكدون أن الموت في غمرة المجد والأضواء واحساس النفس المصرية الممتد بالبقاء والخلد، شيء بالمرة، لا يخيف.

ونحن الآن في سيرك رمضان عام ٧٢.

أنا شخصياً لم أكن أريد الدخول، ولكن لأنه على الأقل أمتع بكثير من مسرحيات الصيف التي تنفرد كل منها برائحة نتنة خاصة، فليكن السيرك.

ولكن أي سيرك.

إنك أحيانـاً لا تحس بالشيخـوخة والكبـر إلا حين تقابـل زميل دراسة سابق أو صديقاً له نفس سنك. وحين دخلت الخيمة لم يكن في كل ما رأيته شيئاً سخيفاً أو عجوزاً أو غير عادي. المشكلة أن كل شيء كان طبيعياً وعادياً وكأنك داخل إلى ديوان حكومة أو تعبر حديقة عامة..

لم يدهمني ذلك الاحساس أنك انتقلت فجأة من عالم مطفي أو قليـل البـطولـة والنـور إلى عـالم مليء بـالـوهـج، بـالخـوارق، بالمعجزات، عالم يبهرك ويحفزك إلى الخوارق والبطولات.

فكأني فعلاً انتقلت من شارع مزدحم إلى ميدان صغير مـزدحم بالكراسي هذا صحيح، كثيـر الجمهور هـذا صحيح، ولكن شيئاً ما حدث للكشافات فجعلها مسلطة أساساً على الجمهور، تنير الحلبـة، ولكنهـا بـإضـاءتهـا للمشـاهـدين تجعـل من تلك الـوجـوه جـزءاً من العرض.

وأي وجوه..

نفس الوجوه..

المتزاحمون الغارقون في العرق أمام الجمعيات الاستهلاكيـة، في ممـرات الأتوبيس وعلى سـلالمه، المتـوقفـون فـراغـاً لمشـاهـدة خنـاقة، الجـاعلون من (السلطة) على مائـدة الافطار مسـألة حيـاة أو موت، تفنناً في صنعها، انتقاء لمكوناتها وبهاراتها ومخللاتها.

وجوه . .

وجوه كثيرة تلمح بينها وجوه الأشقة العرب، وتستمتع بمرأى الكروش المصرية المتكومة باسم الله ما شاء الله تصنع لكل كرش رجلاً ورأساً وملحقات. النساء وقد بدأت مودة الطويل تنتشر، أقصد الطويل التخين، فقد بدا واضحاً جداً آثار مربة خرز البقر، وإلا فهي آثار (العلف) أو شيء لا بد شبيه بالعلف.

وجوه، ظللت طويلاً والكشافات تنصب على معظمها أتأملها، أتأمل ما يرتسم على ملامحها من تعابير، وعبثاً ما كنت أحاول، فالأبخرة الدسمة المتصاعدة من معدات تجأر بمحتويات الإفطار، والعرق المتصبب من تلقاء نفسه من صدور وبطون بالكاد تلهث لتؤدي وظائفها، بالكاد إذا تجشأت تتجشأ.

أنوار كاشفة مكشوفة مسلطة على وجوه لا تعكس الضوء، بعضها بالدسم يمتصه، وبعضها لقلة التغذية يمتصه أيضاً، وحلبة متربة، والحضور المسرحي لا وجود له، فلا جماعة، وإنما عائلات وأفراد لا يجمعهم ذلك الرابط العام الذي يخلق جو العرض ويحيطه حتى المهرج من فرط ما نحت دوره من خطوط تؤكد دوره كمهرج، لا يهرج. العمال الذين يقومون بالإعداد للألعاب يرتدون (بدلاً) لا بد أن أصلها كان شيئاً آخر، ربما لباس صعيدي، ربما قلع مركب ربما ممسحة بلاط. زرقاء كل بدل العمال زرقاء. ولكن كل أزرق منها له لون، وفيها زرار، على الأقل لمحت زرارين، ومع هذا فجميع بنطلوناتها بلا زراير وبلا أحزمة أو بأحزمة تصلب الوسط فقط

وتترك البنطلون يأخذ الوضع الذي يحلو له وينفتح من أمام بأي مطلق من الحرية يراه. المنضدة التي تقدم عليها لعبة الوقوف فوق الزجاجات والتي لو كان بها أي خلل ممكن أن تؤدي بحياة اللاعب، لا تصلح أصلاً للارتكاز على أربع، وإنما لا بد لها من سنادات، ولا بد أن تتأمل حكمة الكون أو تفكر في اعتزال الدنيا وأنت ترى منضدة المطبخ تلك، التي لم تطل من عشر سنوات، وأربعة عمال بأربعة أقراص مدورة بأربعة بنطلونات مفتوحة بأربع جاكتات (زعر)، يدخلون، ليزنوا الأرجل الأربعة. ما فائدة أن أتحدث عن اللعبة نفسها إذا كان هذا هو حال المنضدة، وإذا كان حال اللاعبة التي تزامل اللاعب ومفروض أن تساعده أدهى، ذلك أنها سمينة إلى درجة مزعجة ترتدي جورباً من جوارب (الباليه)، جورب من سمك الجسد والأرجل والأرداف التي يحتويها ومن طول ما احتواها، تفتق في أكثر من مكان (ربما لهذا سموها، أي ذلك الغذاء المسمن، المفتقة). فأنا لن أتحدث عن اللعبة أو حتى لو كان صاروخ قد أطلقته فتاة كتلك من فوق منضدة كهذه المنضدة ليصل إلى القمر، حتى لو تمت بهذه الأزياء والمناضد والجوارب جراحة تحيل الدودة إلى إنسان، فالمعجزة، أي معجزة، تكون قد انتهت من نفسك قبل أن تبدأ، انتهت، وانتهت معها ليلة من ليالي العمر، فالسيرك قام، ليخلب اللب، ليبهر، لينقلك إلى عالم غريب حافل بالألوان والبطولات والجمال والمعجزات.

ولكن اللعبة الخطرة كانت قد بدأت.

لعبة ترويض الأسود.

* * *

هي لحظة . .

ولكن ليلة كهـذه يكفيها لحـظة تحس فيها أنـك حقيقة تنفعـل وأنك حقيقة في سيرك.

ولكن، حتى هـذه اللحظة أفسـدها عليّ ذلـك السؤال الملح: من أين جاءني ذلك الشعور أن شيئاً ما سيحدث؟

ملت على جارتي أهمس بألفاظ، فإذا بها تنظر لي بـاستغراب حقيقي، فهي الأخرى كان لديها نفس الشعور.

المسألة إذن ليست وهماً. هناك في الجو شيء يخيم.

ليس وافداً من كون آخر.

ولا متسـرب إلى القمع المقلوب من الخـارج. شيء نابـع من الحلبـة ذاتهـا، وحتى ليس من شيء بعينــه في الحبلة، في الحقيقـة نـابع من كـل شيء تضمـه الخيمـة، من الحيـوانـات والكـاشفـات، والأشياء والبشر، من جارتي، ومني، ومنك أنت لو كنت هناك . .

مضى الحلو يتحرك، يحيي، ينقل الأشياء داخل القفص، نفس الحركات التي تعود أن يفعلها من زمن طويل. لا جـديد فيمـا يفعل، لا جـديد في الليلة إلا عصبيـة ليلة الافتتاح المؤقتـة المعهـودة، حتى

الوجوه، الوجوه كلها داخل القفص وخـارجه ظـل يراهـا حتى لم يعد يراها.

النظرة المتبادلة بينه وبين الأسد، سلطان كان أو جبار، هي فقط ذلك الشيء الجديد، في الليلة وفي حياته.

الرجل محبوس مع ستة أسود في قفص، وحياته كلهـا وهو مـع الأسود في قفص.

والأسد، بالتأكيد هو الأسد..

ولكن الرجل، هل الرجل هو الرجل؟

والرجل ليس الحلو وحـده. الرجـل هو كـل من تضمه الخيمـة لاعباً أو عاملاً وعازفاً ومتفرجاً هل الرجل نفس الرجل؟

بينـه وبين نفسه. بينـه وبين أهله وجيرانـه وأصحابـه، أبداً، لا تغيير، هنا فقط. هنا حيث يصبح وجهاً لوجه مع الخطر المروع الذي عمله أن يروضه، هنـا يحس الرجـل أن شيئاً مـا حدث. كـأنه دائمـاً يقول أنا البطل، حتى من غير أن يقـولها كـان يقولهـا بنظراتـه يقولهـا بمشيتـه، بقهقهاتـه، بالعـاملين من حولـه، حتى الأسود نفسهـا كانت تقولها. أنا البطل، القادر، الواثق المتأكد.

أيكون ما ينتـابه هـو لحظة شـك. ولكن، من يكون إذن إذا لم يكن البطل.

من الآن.. أنا؟..

كنت أرى الناس أكيلة عيش، وأفندية، وبورمجية، وجدعـان،

ولكن من بينهم أنـا البـطل. هم أيضـاً يـرون أنى البـطل. يصفقـون للبطولة حتى لو تجسدت في غيرهم، في شخصي أنا.

الآن حدث شيء. ألم يعودوا يـرونني بطلاً؟ أم هم لم يعـودوا يريدون البطل، أي بطل. أيكون الأمر أني أنا شخصياً لم أعـد أحفل أن أكون عليهم البطل؟ أيكون الكفر المزدوج قد حـدث. كفرت أنـا بهم وكفروا هم بي وجميعاً كفرنا حتى بوجود بعضنا البعض. والبطل مثل اللا بطل، والميت كالحي، والحي كالميت، والمومس كالفاضلة والحرامي كالشريف، الأمس كالغد، الأمل كاليأس.

إن البطل لا يولد وحده.

البطل يخلق..

ولا بـد كي يوجـد ويعيش أن يتـرعـرع في ظـل إحسـاس عـام بضرورة البطولة، بروعة البطولة، بتفرد البطل.

ولا يمكن لفكرة البطولة أن تترعرع في جو عام كهذا وحدها.

البطولة قيمة، ولا بد أن توجد وسط محصول وافر من القيم.

لا مجد للبطولة، بلا مجد للكرامة، بلا مجد للنبوغ، بلا مجد للشرف.. بلا مجد للعمل الصالح.

وأيضاً لا توجد البطولة، بلا جو عام تلعن فيه اللابطولة. تجتث كالحشائش الضارة منه، وتجتث معهـا حشائش سـامة أخـرى كالجبن كالتفاهة كالنفاق كالكذب.

أما حين (ينجح) الجميع، المجتهد، والغشاش والمزور والأبله

والنابغ. حين يصبح لا فرق، لا أعلى ولا أسفل، لا أرفع ولا أحط.

حين تمضي الحياة بامتحان لا يرسب فيه أحد، ولا يتفوق أحد، ولا يفصل أحد. حين يحدث هذا. ماذا يبقى من الإنسان؟

وإذا كان هذا السؤال لم يعد يهتم أحد بأن يجيب عليه، بله، أن يطرحه، فإن هناك أناساً في حياتنا لا يستطيعون أبداً اهمال السؤال، فهو فارض نفسه عليهم فرضاً ولا فكاك منه. هؤلاء هم تلك النسبة فينا التي تحيا وجهاً لوجه مع الخطر.

وبالذات مع خطر من هذا النوع.

فمحمد الحلو يواجه هذه الوحوش الضارية ويمنع خطرها بما يملكه من إرادة البشر وقدرتهم وما فيهم من بطولة أو قدرة على البطولة.

أليس من المهم إذن لمحمد الحلو أن يعرف، في تلك اللحظات التي ينغلق عليه فيها القفص ويصبح وحده أمام الخطر ولا مغيث، أن يعرف ماذا بقي فيه أو له.

ماذا بقي من البطل؟

* * *

تصفيق الناس للألعاب في السيرك، له معنى مختلف عن أي تصفيق آخر، يحمل معنى إنسانياً عميقاً جداً. هناك أبداً أنت لا تصفق مجاملة أو مجاراة. بصدق تصفق. والعمل الذي ينتزع منك التصفيق ليس أي عمل. كلما اقترب من قدرتك على القيام به كلما

بهت وفق أهميته. كلما استحال عليك القيام به كلمـا بهرك وازدادت حدة تصفيقك.

ليلتها كان للتصفيق في أذني وقـع غريب. فمهمـا بلغت اللعبة أمامنا من مهارة، ومهما احتـوت من إعجاز وبـطولة، فـالتصنفيق حتى في أعتى موجاته كان دائماً يبدو فاتراً وكأنه صادر عن جمهور قـد قرر بـادىء ذي بـدء، أن لا يقيس أي شيء بمقيـاس قـدرتـه عليـه أو استحـالته، وكـان أي شيء وكل شيء يبـدو مستحيلاً تمـامـاً أو حتى ممكناً تماماً. لا فرق.

كـان في الحقيقـة نـوعـا من تصفيق الخجـل إذا لم تصفق. تصفيق أداء الواجب تدفعه كثمن التذكرة، كالضريبة، وأمرك لله.

وكانت مضخات اللاعبين تجأر قواها في محاولات مستميتة من أجل الوصول إلى مياه الجمهور العميقة وسحبها لتصعد إلى مستوى ما يقـومـون بـه من بـطولات كي تنسكب بعـد هـذا شـلالات حمـاس وإحساس وانبهار. ولكن المياه ظلت دائماً أبعد من مدى المضخات، وأبعد.

ماذا كان قد بقي من البطل محمد الحلو؟

* * *

ذلك الذي بدأ حياته في ساحـة السيرك، صبيـاً يلعب، ويفرح أنه يلعب، وفوق هذا يكسب، ثم حالمـاً بالبـطولات يحلم، ثم بطلاً يحقق الأحلام وبالسعادة القصوى يتمتع. الجمهور يجأر ويزأر طرباً،

وهو يقتل نفسه كي يجعله يجأر أكثر وأكثر. الدفء حوله وفي داخله. الحياة حلوة. الأمل عريض. حتى النقود بجلالة قدرها، وفي لحظات كتلك، لا تهمه بالمرة.

حين تختار أن تكون مروض وحوش، أو لاعب ترابيز، أو طيار اختبار وتجارب فصحيح أنك تأكل عيشاً بهذه الوسيلة، ولكن لو كان أكل العيش وحده هو الهدف لما اخترت أياً منها أصلاً، ولجأت، مثلما يلجأ أكيلة العيش إلى أي عمل آخر خال من أية خطورة كما يفعل الملايين من الناس أكلة العيش والأرزقية.

ذلك أنك تختار هذا العمل لتسعد ذاتك أولاً ولتثبت لنفسك وللناس قدراتك.

فإذا لم يعد مهماً أبداً لدى اناس أن تثبت بطولتك، ولا حتى لديك أنت نفسك.

فماذا يبقى منك؟

أكل العيش؟

أجل أكل العيش كان هو الإنسان الذي يواجه الأسود وحده في القفص المغلق.

الخيمة كلها أكلة عيش متفرجين وعمالاً وبائعي كازوزة ولكن الذي وزع الأرزاق جعل الآخرين متفرجين.

كلهم يتفرجون.

ويصفقون. .

ذلك التصفيق الفاتر. .

الناجحون جميعاً في امتحان الحياة.

النافضون يدهم من كل شيء، الضيقون بأي شيء، الراضون حتى عن السخط. والساخطون حتى على الرضا، الذي انسحبت منهم مياه الاندماج الحي العميق حتى أصبح مستحيلاً أن يصلها خلجة انفعال أو نبضة حماس أو لحظة غضب.

أكل العيش وحده مع أكلة لحوم البشر.

والقفص الحديدي مغلق.

ومن بين أنيابهم عليه أن ينتزع لقمة عيشه.

* * *

تلفت حولي.

لا تغير يذكر في انفعالات الوجوه.

لا أحد يعرف.

حتى هو نفسه، محمد الحلو، لا يعرف.

الوحيد، في الخيمة كلها الذي كان يعرف، هو الأسد نفسه.

الأسد ملك الغابة لأنه ملك الإحساس.

خطره الأعظم أن لديه القدرة دائماً أن يعرف، وعلى وجه اليقين، إحساس من أمامه.

وإذا اشتم أنه خائف منه انقض عليه.

فالغابة ليس فيها إلا المخوف والخائف، تلك هي العلاقة الوحيدة، ذلك هو القانون الأعظم.

كل خائف من حيوان يخيف بدوره حيواناً آخر.
إلا الأسد. .
الجميع يخافونه وهو لا يخاف أحداً.
الحيوان الوحيد الذي يخاف منه الأسد.
هو الإنسان.

أو بالضبط هو ذلك الإنسان الذي بما منح من ذكاء وإرادة وسلاح يستطيع أن يواجه الأسد وهو لا يمثل أنه خائف منه ولكن حقيقة وصدقاً غير خائف منه، بل ربما شاعر أنه الأقوى.

ولا بد لكي تروض الأسد أن تروض نفسك أولاً بحيث تصل إلى الدرجة التي تواجه فيها أسداً أو عدة أسود وأنت غير خائف منها.

الأسد وحده أدرك أن ذلك الرجل، الرجل الذي يعرفه جيداً وتعود منه دائماً أن يمد أصابع نظراته الغريزية إلى أعمق أعماقه فلا تنبئه الغرائز إلا بأن الرجل ليس فقط غير خائف منه ولكن يأمره وينهره ويملك إرادة وثقة بنفسه أقوى بكثير مما لديه هو الملك وأن عليه إن أراد البقاء أن يخاف ويطيع.

ولا بد للإنصاف هنا أن أذكر أن إنساناً آخر في الخيمة كان يعرف. ذلك الشاب الذي ما توقف لحظة واحدة عن الطواف حول القفص وملاحقة نظرات الأسود التي تلاحق الحلو. ذلك الشاب الذي عرفت فيما بعد أنه ابنه والذي خلفه. كان هو الآخر بغريزته العظمى يعرف ويدرك، فهو يعرف الأسود جيداً، رباها مع أبيه

وصاحبها، ويعرف أباه جيداً، ويعرف لا بد كنه هذه النظرات الخارجة من عيون الأسود ومعنى تلك النظرة التي تواجهها والخارجة من عيون أبيه.

وحتى ما تلا هذا من حركات لم تغير الموقف.

إن محمد الحلو مدرب قديم، باعه طويل، وجراب خبراته مليء، إن المسألة ليست شجاعة وبطولة فقط. إنها أيضاً مليئة بالصنعة والحنكة والدهاء.

ها هو يخرج من الجراب كل ما تملك أصابعه التي لا بد أصابتها رعشة خفيفة لا تلحظ، كل ما تملك أصابعه إخراجه. بقية الأسود تلعب، والجمهور يصفق، وكل شيء يمضي وكأن لا خطر البتة هناك. ولكن الرجل ليس نفس الرجل. إنه هذه المرة خائف. هكذا راحت تدق أحاسيس الأسد الغريزية وتؤكد. في يده الرمح المدبب المرعب ولكنه يرتعش. النظرة خارجة من عينيه ليست واضحة وقاطعة وحاسمة، إنها تتردد، إنها تحسب، إنها تراجع، إنها تحوم، أبداً ليست نفس النظرة.

تلك كانت الليلة الأولى.

الليلة التي أدرك فيها (جبار) هذا الإدراك.

ولكن الذي قتل محمد الحلو هو (سلطان).

وعضه في الليلة التالية.

فجبار حديث المعرفة بمحمد الحلو.

لا تزال العلاقة بينهما علاقة من يخاف من.

ولهذا كان هو أول من أدرك أن الآخر خائف.

أما (سلطان) فأمره مختلف. سلطان قضى عمره كله يعرف الحلو ويخاف منه، ويطيعه، والليلة الأولى، مثلها مثل كل الليالي الأخريات، مرت، وسلطان يقوم بما تعود القيام به من ألعاب، يأمره الحلو، فيطيع، يكافئه، بلحم الحمير، فيسعد. الحيوان الذي فيه كان غافلاً مستسلماً كالعادة للطبيعة الجديدة المتمدينة المروضة التي تكونت له. في الليلة التالية فقط، عرف سلطان.

فجأة وللمرة الأولى، يدب في غرائزه العميقة ذلك الشعور الذي لم يخالجه أبداً. الرجل. ذلك الرجل الذي يخاف منه، الليلة خائف.

يقترب منه الحلو لأداء اللعبة.

يزأر..

يصبح لنظرة الرجل تشتت غريب لم يعهد.

ولو كان الأسد يعرف الاستنكار لاستنكر أن يحدث هذا.

فما حدث بالنسبة إليه شيء لا يصدق، إذا كان الأسد يعرف ما يصدق وما لا يصدق.

للأسف هو لا يعرف إلا لغة واحدة يتفاهم بها مع الكون والأشياء والحيوانات والناس من حوله، ومع الرجل حتى ذلك الرجل. لغة لا تحتوي إلا كلمة واحدة. كلمة لا وجود لها إلا في لغتنا نحن، ولكن الكلمة التي إذا جاءته من الرجل، أحس أنه أصغر

وأضـال وأضعف وأجبن وأن عليه أن يـرضـخ. نفس الكلمـة التي إذا رآها في عين الرجل أحس أنه هـو الأقوى والأعـظم والملك وأن عليه أن يفتك.

لا. لم يكن يريد عض الحلو أو قتله.

ربما أراد أن يتأكد..

ربمـا أراد أن يستفـز الـرجـل ليقـرأ في عينيـه نفس النـظرة.. الكلمة التي تعود إذا رآها أن يركع ويخضع.

أراد تماماً كمـا يفعل المـدرب حين يستفز الأسـد برمحـه ليزأر ليخيف المتفـرجين كي يزدادوا تقـديراً لبـطولته. أراد أن يستفز محمـد الحلو بانقضاضه أو بمخالبه أو بأنيابه، لينتفض له، مرة أخـرى، ذلك الرجل الذي تعود أن يجبن أمامه.

ولكنه ماكاد يستثير وينقض ويدفعه حتى سقط. حتى انهار تماماً وهو في أقصى درجات الـرعب، حتى أطبق على الخيمة كلهـا رعب أكثر من رعب الحلو نفسه.

وهكذا فجـأة أدرك الحيـوان العميق المستسلم لقيوده ومصيـره وخوفه أنه كان مخدوعاً، وأنه الأقوى والأعظم والمسيطر والملك.

وانـدفع ينهش لحم صـاحبه المـدرب، ويعضه، ويكسـر قيوده ويستعيد نفسه.

ونستغـرب بعد هـذا لماذا صـام (سلطان) عن الـطعـام وقضى الأيام التالية حزيناً.

الحزن في رأيي كان سببه أنه أبداً لم يرد أن يحدث ما حدث.
أن الأسد حيوان ليس الغدر في طبعه.
وكالكلب، الوفاء عنده، غريزة.
وهو لم يقصد أن يغدر أو يفترس أبداً صاحبه.

أراد فقط، كل ما أراد، أن يستمر على وضعه خائفاً من ملكه وصاحبه ومدربه وسيده. أراد، كل ما أراد، أن يجعله يشعره مرة أخرى أنه الأقوى والأقدر.

كان متأكداً أنه سيقابل هجمته بهجمة أشد منها.

كان يعبث، كما تعود أن يعبث، حتى يناله العقاب، كما تعود أن يناله، ويسعد بعودته للخضوع والطاعة والذلة.

وحين سقط الرجل، حين سقطت الهيبة الضخمة وضاع الصولجان. حين لم يعد باقياً أمام سلطان إلا أن يحس بالشفقة على صاحبه فيطبطب عليه ويأخذه بيده وخاطره، لم يستطع للأسف أن يفعل. فالأسد، كالحيوانات، كالغابة في أساسها، لا يحس بالشفقة على أحد. ولو كانت الشفقة قانوناً من قوانين الوجود لماجت الحياة وازدحمت بأشكال وأنواع وأنماط ركيكة عاجزة لا تصلح للحياة وإن كانت تصلح للشفقة. الأسد إذا لم يخف، خوف. إذا لم يخف أن يؤكل خوف بأن يأكل. وإذا لم يجد التخويف، أكل فعلاً، وربما هذه هي طريقته في اظهار الشفقة. أن يأكل من لا يعتمد في بقائه حياً إلا على إحساس الآخرين بالرثاء والشفقة.

* * *

إلى المستشفى حملوا محمد الحلو. . ليموت طباً وعلاجاً.
وإلى حديقة الحيوان أخذوا (سلطان) ليموت كمداً واكتئاباً.
وكم آلمني ما حدث للحلو.
وكم آلم الناس الطيبين، من رأوا الفاجعة ومن لم يروها. .

ولكن لأننا جميعاً مشغولون بالإجابة على السؤال: لماذا يحدث للحلو ما حدث للحلو؟

ولماذا ينهش الحيوان المتوحش صاحبه الذي دربه وأطعمه ورباه؟

ولأننا جميهاً لو استحلنا إلى أكلة عيش فسيكون مصيرنا أن تنهشنا أكلة اللحوم. والإنسان أثبت أنه على رأس أكلة لحوم البشر.
لأن الأمر كذلك.
فإني أترك المشكلة لكم لتفكروا فيها.

ففي هذه اللحظة أنا قابع مع سلطان في حبسه الانفرادي، قاتلاً، ومجرماً، ومنبوذاً، ومحل سخط الجميع وازدرائهم، قابع معه أتساءل، كما لا بد لذي العقل منا لو كان حيواناً، أو للحيوان منا لو كان ذا عقل أن يتساءل: ما هي جريمتي أيها السادة؟
أني عقرت الرجل وأرديته. .

ما ذنبي وأنا لم أفعل إلا أني قمت بدوري كوحش عليه أن ينهش إذا خاف مدربه، وأن يلعب إذا أخافه المدرب.

أم كنتم تريدونني أن آخذها أنا الآخر هزلاً، ويصبح الوحش

الذي في نكتة، كما أصبح أي شيء نكتة.

إني آسف أيها السادة، شديد الأسف لما حدث لسيدي السابق، شديد الإعجاب بابنه الذي يعتلي الآن ظهور الأسود ويخيفها، آسف أيها السادة فقانون الغابة ليس قانونها فقط، إنه قانون الحياة والأحياء، ذلك الذي لم تستطع حتى أديان السماء كلها أن تلغيه.

إما أن تخاف وتركع أو تخيف وتقتل. في القفص وخارج القفص، فأنت مقتول إن ضعفت أو خفت، أو قاتل، وأنت المسئول عما تختار.

آسف أيها السادة فأنتم وحدكم الذين تسخرون من هذا القانون وتضحكون فإذا كان العالم يحياه حقيقة وقانوناً وتحيونه أنتم سخرية ونكتاً فالذنب ليس ذنب (سلطان).

ليس ذنبي.
وليس ذنب صاحبي محمد الحلو.
صاحبي الذي خضعت له بطلاً.
وحين أصبح آكل عيش مثلكم أرديته.
فأنا لست سلطان الأسد.
أنا سلطان قانون الغابة، وقانون الحضارة وقانون الإنسان وقانون كل الوجود.

جيوكوندا مصرية

إنها ليست أول مرة أحاول، ربما هي ثالث أو رابع مرة، فأنا أحس كلما أردت كتابتها أن اللغة التي أستعملها أخشن وأصلب وأجوف بكثير من أن تستيطع التعبير عنها، أحس أن لغتنا، تلك التي نتحدث بها ونكتب خلقت لتصوير أحداث ضخمة وأحاسيس كبيرة الحجم كالصخر أو حتى إذا صغرت فهي كالرمل أو الحصى في حين أن ما أريد تصويره ناعم موسيقي رقيق دقيق كأنه الذرات العالقة بشعاع الضوء إذا سقط في غرفة مظلمة. لا. ليس حتى كعزف الكمان أو أنين الناي، إنما هو كاللحن الذي لا تستطيع سماعه إلا إذا خفت الضجة في الدنيا كلها أو سكن الكون تماماً، ثم طهرت نفسك من كل ما يشغلها من هموم الأرض وأحاسيسها الترابية العابرة، واستحضرت في ذاتك المعاني الحقيقية للرحمة والحب والحنان والإنسان، المعاني الخالدة السرمدية التي يحيا البشر على أمل أن ذات يوم تتحقق، حينئذ فقط، وبعد طول معاناة في تهيئة النفس، وطول تأمل وسكون، ستجد نغماً رقيقاً واهن الضعف قد بدأ يتسرب إلى نفسك، ليس من أذنك فقط، وإنما من كل ذاتك ولكل

ذاتك، يتسرب النغم تسرباً لا يفعل أكثر من أن يحيل ذاتك نفسها إلى ذات النغم، حتى لتندمج معه في وحدة بالغة الشفافية.

أنى لي بكلمات تستطيع وصف هذا وكلماتنا صنعت لمعان محدودة واضحة لا شك فيها ولا اختلال، أنى لي بكلمات تستطيع وصف عشر الانفعال، والواحد على المائة من الارتجافة أو الخفقة الواهنة المرهفة التي يكاد السمع يتجاوزها؟

أنى لي بألوان أستطيع بها وصف لون «حنونة» المسيحية، ذلك اللون الذي لا هو أبيض ولا قمحي، ولا هوأوروبي ولا شرقي، لا هو صعيدي ولا من أقصى الشمال في بحري، لون حتى في مكوناته زرقة ليست زرقة الموات ولكنها كزرقة الفجر إذا شقشق، أو زرقة البحر إذا هجع وتحولت موجاته إلى نداءات وديعة تؤوب إلى مستقرها عند الشاطىء خاشعة ساجدة تهيب بك أن ترتمي بحراً وتعب زرقته حتى النهاية.

وكيف لي أن أبدأ القصة وليس في ذهني بداية واضحة، إن هي الا علاقات متصلة بين الناس ومنشأ مشترك، وطفولة، ثم صبا، و(شال) كموني باهت، وحجرة ليس بها أحد سوانا، وخبز مقدس، ثم انجيل صغير الحجم كثير الصفحات، مكتوب بلغة عربية لها طعمها الخاص.

وكنت في سن البلوغ، تلك التي تحس فيها أن هناك دنيا هذا صحيح، وهناك صبح وشمس وقمر، وهناك بلاد بعيدة قبل البحر

المالح وعبر المالح وبعد المالح، (الطلمبات) بضخامتها السوداء الزيتية المهولة وصوتها المتئد الوقور المستمر، والماء المجذوب بسحر خفي وبكم هائل إلى فتحاتها والماء الهادر الغاضب المندفع الأرعن الخارج عنها، هناك الغربان والعصافير، وأولياء الله الصالحون، وهناك المصحف والآيات التي يجب عليك حفظها وكلها عن جنة شديدة الجمال غريبة، وعن نار جحيمية يقشعر لها بدنك وثواب وعذاب ودنيا وآخرة، وهناك أيضاً، وهذا هو المهم المباشر، خيزرانة الشيخ مصطفى المنكفىء العمامة إلى أمام أكثر مما يجب، ذي الأرجل الرفيعة المنتهية بركب كرؤوس عيدان الكبريت، حين يضع ساقا رفيعة فوق ساق، ويتدلى حذاؤه حائل اللون فاغر الفاه، ويهز لك رأساً فوقها تهتز العمامة ويقول: سمع يا ولد. هناك شيء ما هذا صحيح. شيء لا نراه ولا نحسه، شيء آخر غير ليلة القدر، والموت، والحب الشديد الذي أكنه لأبي، شيء بإرادته مختلف لا يريد أن يظهر، ربما خوفاً علينا، إذ ربما لو ظهر لمتنا من شدة الخوف والرعب والمواجهة. . شيء آخر غير العفاريت، فالعفاريت رغم كل شيء فيها ما يضحك، ولكن هذا الشيء لا يبعث على الضحك أبداً. إنه قاس وقور مهيمن رحيم.

قلت لحنونة، وأنا بالضبط لا أعني ما أقوله:

ـ أريد أن أكون مثلك. .

كانت لا بد أكبر مني ربما بعام أو بعامين، فقد كانت أطول وإن كانت أضعف، ولكنها دائماً الأعقل والأحكم. وهنا بالضبط أعجز عن

التعبير. روحها ذلك الإحساس المشع منها وكأنه النور يأتي من لا مكان أو بطريقة غير مباشرة، روحها تلك كانت تضفي على كلماتها ومشيتها وعلى الطريقة التي ترفع أو تخفض بها يدها أو تقضم قضمة صغيرة وبأسنانها الأمامية من الخبز المقدس.. مسحة غريبة البراءة والنقاء والرشاقة تجعلك تعتقد وكأنها ليست من أهل الأرض، وكأنها النوع الثاني من البشر، ذلك الذي يصنع الحلقة الكائنة بينهم وبين الملائكة.

ولا أذكر بماذا أجابتني. ولا حتى على وجه الدقة إذا كانت قد أجابت، وماذا أيضاً قالت عن الانجيل، والخبز المقدس، و(كيرياليسون) ومعناها كما علمتني (يا رب.. ارحم)، وكنت قد سمعت القسيس الآتي من المدينة يرددها في زفاف (عفيفة) حين تزوجت منذ شهور. كل ما أذكر أني من إجاباتها بدأت أحس أن هناك أناساً آخرين، غيرنا نحن أظن أن الدنيا كلها مسلمة، وإن هذا الدين الآخر الجديد مملوء بأشياء تثير الخيال، وتبعث على حب الاستطلاع الشديد، وخاصة أن لهم في البندر - كما عرفت من حنونة - كنيسة، فيها صورة كبيرة للمسيح، وفيها شموع وثريات بالكهرباء، وفيها غناء، بل إن كل صلاتهم غناء في غناء.

ولم أعد أدري، أسر تتبعي لحنونة - حتى وهي في طريقها إلى النوم - إن هو إلا محاولات أكثر لإدراك أشياء أخرى عن هذا الدين، أم هو استسلام لذلك الاشعاع الذي لا يقاوم الدائم الصدور عنها

يجـذب إليها النـاس والأشياء ويحيـل كل مـا تصنعه إلى حـدث براق ممتع رقيق مثير.

ولكن ما أعرفـه أنه لا أقـول بدأت أحس بـرباط قـوي يربـطني بها، وإنما بدأت في أحيان أعي أني لا أتركها وكأني ظلها، احساس كان لا يراودني إلا في اللحظات التي أغادرها فيها.

فوأنا معها كنت لا أحس بنفسي ولا بما أفعله أبـداً، فأنـا ذائب تماماً في ذلك اللقاء المستمـر معها، لا هم لي إلا تـأملها، وتتبـع ما تقوله أو تفعله كالمشـدوه بمعجزة خارقة، دائمة الحدوث، لا ينفصل عن شعوره بها ولا يبغي إلا أن يظل في حالـة النشوة المشـدوهة تلك لا يغادرها أو تغادره لحظة.

ويخيـل لي أن مشـاكـل العـالم تنشأ من هنـا. فنحن أبـداً لا نستـطيع الصبـر على ظواهـر الكون أو التفـاعل التلقـائي لـلأحـداث وعلاقات القوى والنماء وهي تنشأ وتنمو وتتفرع وتزدهر، إنما، دائمـاً بـإرادتنا الحمقـاء وقوانيننـا التي ابتدعهـا أقـدمـون متـزمتـون، دائمـاً نتـدخل، فنفتـرض سوء النيـة أو حتى حسنها ونتـدخل، وفي تـدخلنا نحاول الفرض والكبت والقطع والتأكد المستعجل ولوي سنن الحياة.

ترى ما إذا كان يضير أن تستمر علاقة كهذه، زهـرة وديعة وسط غابات الطبائـع والنفوس والعـلاقات الاجتمـاعية المتشـابكة المعقـدة التي لا تدري عنها شيئاً.

وماذا يهم أنني ابن مهندس الطلمبات، وإن والد حنونة هو كبير

الأسطوات، وأنني ولد وانها بنت، وأن كلام الناس كثير، مع أن الناس في (المستعمرة) التي نسكنها جميعاً قليلون، كلهم لهم مساكن أقامتها لهم وزارة الري قريباً من مبنى الطلمبات هائل الضخامة، مستعمرة ومجتمعها وطلمباتها كائنة في مكان ما، بعيد وسحيق من شمال الدلتا. مجتمع صغير مكون من مجموعة صغيرة ـ وإن كانت في ذلك الوقت تبدو لعيني وكأنها ربع العالم ـ مسلمون ومسيحيون، ومع هذا فألف مشكلة قائمة، وألف شوكة تؤلم بلسعها ووخزها هذه العشرات القليلة من الحلوق في ذلك المكان الكائن عند آخر الدنيا.

بدأ الأمر بشكاية من أمي لأبي، وأبي خاضع لأمي منذ قطعت ساقه أو التهمتها مروحة الطلمبات لا أعرف، فالقصة غالباً لا تروى، إذ هي دائماً وكأنما تجلب معها الذكرى والألم. ومنذ أن أصبح أبي بساق واحدة أصبحت أمي بثلاث سيقان وعشر أيد ومائة لسان.

وهكذا أوقفني الرجل الطيب أبي ذات صباح وأنا ذاهب إلى (كتاب) الشيخ مصطفى وأفهمني بطريقة لا تقبل الجدل أن عليّ العودة بعد (الكتاب) إلى البيت مباشرة.

لم يشأ الرجل الطيب أن يؤلمني بذكر حنونة وحكايتي معها. آثر أن يدع الباقي لفهمي. وأنا أيضاً لم أشأ المناقشة، فقد اعتزمت ومنذ اللحظة الأولى أن أخالف هذا القرار، وأكذب، وأقابل حنونة. وكيف لي أن أستطيع الكف عن شيء لا أفعله بإرادتي، إنما أجد نفسي، هكذا، كما أجوع وأعطش وأشرب، أفعله، دونما فكر أو

أرجحه للاحتمالات وأخذ قرار. اننا ونحن أطفال وصبية نكون أكثر صدقاً مع أنفسنا ومع ما نريد، وما نريده يكون أكثر صدقاً مع الحياة نفسها، كل ما في الأمر أننا صغار في عالم لا يخضع للحياة وقوانينها وإنما ينظمه ويقننه ويحكمه الكبار. ولا بد دائماً أن يتدخلوا، فإذا فعلوا فإنما ليجبرونا، لا لنمتنع، وإنما لنراوغ ونكذب ونكرههم كما نكره العقاب.

ولا أعرف ماذا بالضبط، وبالمقابل، حدث لحنونة.

ولكني في مكاننا المعتاد عند (الهدار) وهو البئر العميقة التي تصب فيها كل المياة القادمة من المصارف الكبرى، وتأخذ عنه أفواه الطلمبات الماء لترفعه بعد هذا إلى أعلى، إلى مستوى منسوب البحر الأبيض ليتم صرفه والتخلص منه، إذ الماء الجوفي في الدلتا وشمالها أقل من منسوب البحر ولا بد من ضخه إلى أعلى، ومن أجل هذا أقيمت الطلمبات. في مكاننا عند الهدار لم أجدها. وانتظرت، وتأملت كثيراً منظر الماء وهو يهدر في الهدار ويدور ويصنع دوائر كبيرة تنتهي إلى دوائر أقل وأكثر انخفاضاً وتدور بسرعة أشد إلى أن تصنع الدوائر حفرة على هيئة القمع يقولون إن قاعها يبلغ الرجل ولا يبين له بعد هذا أثر. ولم تحضر. وغير قريب من بيتهم وقفت وقد بدأت أحس أن يد الكبار غليظة حقاً وأنها قد عملت عملها وأن اليوم الواحد العذب الممتد الطويل قد انقطع.

وفي الشباك لمحتها، كنا العصر، والشمس قد استحالت من جهنم الظهر المروعة إلى مجرد مصباح أصفر رقيق يضيء الشباك

وداخل الغرفة، وفي وسط تلك الأرضية الصفراء الحية يصفرتها يستدير وجه حنونة وقد أكسبته الأشعة لوناً غريباً يلمع من خلال القضبان الحديدية الداكنة، لوناً يحيل الوجه إلى شمس أخرى، شمس مخنوقة منكفئة الجبهة، مختبئة.

وقفت أنتظر منها إشارة، أو بريق عين حتى، يدل على أنها رأتني أو أرادتني، ولكنها كانت صامتة واجمة، كانت بالضبط صورة (العدرة) العدرة مريم، نفس الصورة المعلقة في غرفتها معلقة الآن في النافذة، ولا بد أن ألقاها، وأنا أعرف الست (أم حنونة) وأعرف أنها وإن كان يقال إنها أشد الناس سلاطة، إلا أنها معي طيبة، تعطف وكأنما بالسليقة على مزاملتي لابنتها، كثيراً ما دست في جيبي برتقالة، أو حبات (بون بون) ودائماً تقول سلم على الست (أم محمد)، سلاماً لا أوصله، فقد كنت أعرف رأي أمي فيها، ورأيها في أمي.

الباب مفتوح، أأدقه؟ دخلت.

أم حنونة خارجة لتوها من المطبخ وهباب الوابور على وجهها وأطراف شعرها الأبيض وملابسها، أشرق وجهها بابتسامة وكأنما أدركت سبب المجيء، أعقبها في الحال تجمد ملامح وكأنما ظهرت إلى وعيها المشكلة والتحذير، وتلعثمت، وفأفت، ولكنها لم تصرح بشيء، وإنما استدارت وكأنما لم تر ولم تسمع، وعادت إلى المطبخ.

وما يدريني، فقد قرأت في حركتها تلك علامة الرضا،

واندفعت إلى الغرفة كالسهم. ووجدت حنونة واقفة تبتسم وتنتظر انتظاراً منخفض الرأس لا يزال وفي عينيها دون أن أراهما مكر بريء جميل كمكر المحبين.

ولدهشتي أقدمت على حركة لم أكن قد تعودتها منها أبداً، مدت يدها تصافحني، وبكل ما لديّ من لهوجة مددت يدي وشددت على يدها بقوة حتى بدا أنها تألمت. كما دائماً نلتقي أو نسير أو نتحرك أو نقدم على عمل الشيء معاً، أما أن نتصافح فذلك ما لم نفعله إلا هذه المرة. يدها صغيرة كانت، ويدي رغم العامين فارق السن، أكبر، يد نحيلة بأصابع أيضاً رفيعة ونحيلة وكأنك تقبض على مجموعة من أقلام الرصاص، ولكن، لم تكن أقلام رصاص، كانت اليد بأصابعها حية دافئة كأنما تركزت فيها كل اشعاعاتها الخاصة لم تكن يداً. كانت قلباً نابضاً دق، نفس القلب الذي سمعت دقته حين كنت أتعمد الاقتراب بوجهي من صدرها. مصافحة روعتني وأحدثت بي مساً.

قلت لها: أنت كالعدرة مريم.

رفعت حاجبها في استنكار مذعور، ولكنها عادت تبتسم كأنما عيب ما أقول، ورغم هذا سألتني: كيف؟

قلت لها: وأنا أراك من النافذة كنت كالعدرة، بدون المسيح يا حنونة، أنت حنونة ـ وكم كان يمتعني دائماً أن أناديها باسمها وكأنما أستمتع بنطق الاسم وطعمه في فمي ـ أنا المسيح وأنت العدرة. خليني مسيحك وأنت عدرتي.

كادت، بل ضربتني على يدي فعلاً، إنما بـرفق تنهاني. ولكن الفكرة كانت قد استبدت بعقلي، ولم تكن بنت لحظتها. لا بـد أنها نبتت في ذلك اليوم الذي كنا فيه منفردين كالعادة في منـزلهم، وكنت أحـدق في صورة العـذراء مـريم وهي تحتضن ابنهـا المسيـح بحنـان زائـد. كانت ألـوان الصورة قـديمة وبـاهتـة، ومن رأس مـريم كـانت تخرج اشعاعات تذهب في كل اتجاه، وكان عيسى طفلاً جميلاً جداً يبتسم بسعادة الابن المدرك أنـه في أحضان أمـه، وفي كنف رعايتهـا وحنانها وكانت مريم أيضاً تبتسم، شبح ابتسامة يعبر وجهها وشفتيها، وكـأنها تـدرك أن صورة مـا ستؤخـذ لهـا، وتـريـد أن تضمن الصـورة ابتسامة أم سعيدة بابنها حقاً.

وحين التفت أحـادث حنونـة أحسست على الفور أني أريـد أن أرتـد طفلاً، أرتكن إلى حضن حنـونة وتسعـد بي مثل سعـادة العذرة مريم بمسيحها، ولكني، في ذلـك اليوم، وأنـا أطلب منها أن تكـون عذرائي وأن أكون مسيحها، لم أكن أفعل ذلـك وفي ذهني أن أتحول إلى طفل صغير تحتضنه أمه. هنـاك، وراء سؤالي وطلبي كانت تـرقد رغبة قوية قديمة عارمة، أن أحتضن أنا حنـونة. آخـذها بين ذراعي، وأطبق عليهـا، ليس بعنف وقوة، فـأنا أعـرف أنها رقيقـة هشة، إنمـا بحنـــان ورفق ورقـة أريــد أن أطبق عليهـا، أريــد بيـدي إذا أطبقت وبحضني إذا احتواها أن أحتويها تماماً، وأصغرها وأدخلها بطريقـة ما في صـــدري فتلك هي الـوسيلة الـوحيـدة في رأيي لإسكــات هـذا الإحساس المستمر برغبتي في الاقتراب منها والالتصاق الدائم بها.

كنت أريد أن أقترب منها الاقتراب الأكبر، اقتراباً أكبر بكثير مما كنا نفعله مع البنات ونحن نلعب لعبة الزواج في المخازن القديمة.

حدقت فيّ حنونة طويلاً. كانت تلك أول مرة أراها تحدق فيّ على هذا النحو الغريب. كثيراً ما كنت أسأل نفسي عن رأيها فيّ أو احساسها نحوي، ففي معاملتها لي لم أكن أحس بذلك الشيء الخاص الذي تنفرد به العلاقات الخاصة، كنت أحس بنفسي وكأني في نظرها لست سوى صبي في الرابعة عشرة، مجرد صبي آخر في عينها ذات الستة عشر ربيعاً، حقيقة تربطها به علاقة ورفاقة وتآلف واتفاق، ولكن لا شيء أكثر من هذا في تحديقها هذه المرة أحسست، فجأة، باللمعة في عينيها تأخذ ذلك الطابع الذي طالما هفوت إليه،طابع الإحساس بالخصوصية،أحسست أنها نظرة موجهة لي أنا، وأنها تقول بها كلاماً كثيراً تخجل أن تقوله العين نفسها، ولا تفصح عنه سوى النظرة، بل هو كلام لا يمكن ـ أو كان لا يمكن في نظري ـ أن تقوله عين، وبالذات عينها، كلام لم أملك معه إلا أن أقترب منها. كثيراً ما كان أحدنا يلتصق بالآخر ونحن سائران ويتأبط ذراعه، ولكن تلك أول مرة نقترب فيها إلى هذه الدرجة. ولم أكن، كائنة ما دارت أحلامي وأمنياتي، أتصور أن يحدث ما حدث، وأن، فجأة، تضمني حنونة إلى صدرها، بقوة مرتعشة مستعجلة مفاجئة، وتطبع على جبيني قبلة سريعة، لا بد أحمر لها وجهي كثيراً. ورفعت رأسي وأصبح وجهي يقابل وجهها. كنا اثنيننا، نلهث، وجاءت المفاجأة الرائعة الثانية فقد وجدتها تنحني، وأنا الأقصر قليلاً،

وتقبلني في شفتي، قبلة سريعة أيضاً، عظيمة الاضطراب والارتجاف حتى لقد أحسست بموجات الارتعاش التي تجعد شفتيها تنطبع على شفتي، قبلة سريعة كأنها البرق، ولكنها البرق، ولكنها شملتني بكهرباء نعناعية المذاق تفتحت لها كل مسام روحي وانتعش قلبي وكأنه طائر ربيع بكر في اليقظة، قبلة خلفتني إلى أعظم اضطراب شعرت به في حياتي إلى تلك اللحظة، فوكأنني فجأة قد أدركت، بالقبلة أن حنونة بنت. فيها من ذلك الشيء الذي يميز جنس النساء. والذي يجعلهن يرتدين تلك الألوان والأثواب ويتضمخن بالعطور، ويصلصلن بالغوايش والخواتم والعقود، فيها من ذلك الذي يبرز الصدور ويجعل الجلد في نعومة الحرير وللصوت ذلك النغم الرقيق في مقابل صوت الرجل الخشن كجسده الشوكي كذقنه، الداكن كوجهه وشعر صدره. حنونة إذن أنثى. اضطرابي كان سببه أني أبداً لم أتصور هذا قبلاً أو أحلم به. حنونة في نظري كانت كالعذرة كالآلهة، كالمتسببة العظمى في كل خلجة سعادة يحفل بها الكون. الله جل جلاله. الله سبحانه وليغفر لي الذنب أنثى. لجزء من جزء الثانية عاودني الشعور وأنا لا أزال أستجيب لاحتضانها بيدي تلتف حولها وتضمها، أحس أني أضم عذرية الكون الأزلية، عاودني الشعور ولم يزايلني. سقط في قاع عقلي ولم يبرجه وظل كالأماني العميقة حبيسة تقديس العرف والمعقول والتقاليد أمنية أن تذوب الذات الصغرى في الذات الأعظم، أن تحب الله إلى الفناء، أن يتم الاتصال الخالد بينك وبين السر الكوني الأعظم.

وحتى لو كنت قد نجحت في تصور حنونة أنثى وفي إنزالها من

الملكـوت إلى الأرض جسماً من لحم وعـظم فقد كـان من المحال أن أقرن هذا التصور بنفسي، من المحال أن أتصور علاقـة لي تقوم مـع حنونة الأنثى حتى لأفعل معها مثلما أفعل مـع سائـر البنات، حـاولت كالمجنون أعيد القداسة إلى مكانها، أستعيد إحساسي أنها الأعـظم، وأن ما تشعه في الكون من جمال ورشاقة وتفوق يجعلها فـوق مستوى البشر، يرفعهـا للسماء، حـاولت جاهـداً أن أعيد الشعـور ليحول بين الشاب الصغير الذي انتفض داخلي فجأة متسجيباً لنداء الأنثى الـذي تولدت عنه حنونة فجأة أيضاً، ولكني كنت أحـاول المستحيل، فكـل قداسات الـدنيا من المحـال أن تباعـد بين القوتين الأعـظم للحياة إذا وجـدتا، الـرجل والمـرأة، إذ ثالثهمـا هو القـانون الشيـطاني الذي لا يمكن عصيـانه. وقبلتهـا أنـا، مـرتجفـاً، مضـطربـاً مثلهـا، إنمـا قـد استجمعت مـا فيّ من رجولـة بكـر، ولتكن حتى مـا تكـون، أرضيـة تكـون أو سماويـة، قديسـة أو فتاة عـادية فـأنـا محبـوب وأنـا محب والبادي كانت هي وعليّ أنـا أن أنعم مستحماً عـريان في ذلـك البحر المفاجىء الغريب الذي تفتح لي فجأة من بين شفتيها. يا لقلبها يدق وقـد رقدت على الكنبـة وأذني فوق قلبهـا، دقاً كـونيـاً يكـاد يـزلـزل الأرض والسماء فقد كـان يزلـزلني، يا لـوجهها أجـد فيه الأرض مـرة وكل ما فيها من جمال، والسماء مرة وكل ما فيهـا من قداسـة، علوية ترابية، تحمر وتصفر تكتئب وتكسوها ابتسامة العذراء، تموج كسـطح البحر الرهيب الذي تفجر، دون أن تنطق، دون كلمة يتلوى جسـدها ويتكلم، عـذراء كانت وعـذري كنت، وكلانـا لا يعرف، ويـريـد أن يعرف وهو يحاول أن يعرف، والغمامات التي كانت تحجب عيوننا عن

أن تـرى، وأن ترى أول مـا ترى أنفسنـا، تنزاح والحمى ليست حمى الغيبـوبـة ولكنهـا حمى التعـرف المجنـون والاستحـواز والمتعـة والاكتشاف، حمى السر الكـوني إذا، أخيراً انكشف، حـمـاك وأنت واقف تـرقب ليلة القدر إذا انفتـح باب السمـاء أمامـك حقاً واكتشفت من خلاله سر السماء، أو إذا انشقت أمامك المرأة فجأة عن مكنونها الأعظم لك، ولك وحدك.

كلما تذكرت أني كنت لو حـاولت تخيلها بنتـاً وأنثى أحس أني على وشك القيام بمعصيـة تزلـزل الأرض والسماء كمـا لو كنت على وشـك ارتكاب الإثم الأعـظم، أعظم إثم يـرتكبـه بشـر، كنت كلمـا تصورت هذا وأحسست بحـرماني السـابق يطغى أضمهـا وأعتصرهـا وألوكها، حيـة دافئة،أنثى، أمـرغ نفسي فيها وفي حـرماني منهـا وفي قداستها وفي الإثم الأعظم وبشريتهـا، والزمن الـطويل الـذي انقضى أعبدها، كنت أعبدها، وهأنذا أنا العابـد أنالها وعلى نحـو محال أن تتطرق إليه أشد الأحلام تخريفاً وبعداً عن التصديق.

ومـاذا أقول: أأقـول إن القداسـة التي كانت تحيط بهـا وتصبغ صوتها وحتى إشارات يدها كانت إشعـاعات الأنثى فيهـا، إشعاعـات المرأة مقدسة ومشرقة، إشعاعـات النوع والأنـوثة كلهـا مركـزة كضوء العدسة في حنونة، حنـانها، مسيحيتهـا، جمالهـا، نظراتهـا، عبادتي لها، كلها أنوثة وأنثى، ولقد مرت سنين وسنين، وعرفت نساء ونساء، ولكني، لأنها كانت هي الأنثى في ذلك اليوم لم أشعـر، منذ يـومها، أني الرجل، ذلك الرجل، إلى الآن.

وكأنما المـاء في الهدار بهدوء شديـد بطؤت حركته، وضحلت حفرته، وآب إلى سكون.

وكأنما البحر الذي انبثق من بين شفتيها بطول الدنيا وعـرضها، آب سطحه إلى زجاج.

وبـالكاد حـاولنا الاعتـدال، وهي خجلى ولكنها ليست نـادمة، وأنـا خجلان، حين لمـع شعاع عنـد البـاب على حين بغتـة، شعـاع أدركت في الحال كنهه وأنه صادر عن زجـاج نظارة معـوض أفندي أو الباش أسطى أبيها، الطويل الرفيع ذي العينين المتعبتين دائماً، والتي لا بد تجد عند كل زاوية منهما، وفي أي سـاعة من سـاعات اليـوم، نقطة بيضاء من العماص أو الالتهاب لا أعرف.

كنت خجلان ولكني كنت كـالمؤمن الـذي للمـرة الأولى في حياة إيمانه يتصل الاتصـال اليقيني المادي بخـالقه، وتتم المعجـزة، ويتحول عنده الإيمان إلى رسالة ويقين مستعد أن يفقـد حياتـه نفسها وبكـل بساطـة في سبيلها، وهكـذا حين انسحبت حنونـة من الحجرة هاربة كالقطة، ودق قلبي الصبي دقة قلب الصبي يضبط، أوقفت دقه بعناد المؤمن المهووس الممتلىء إيماناً، ليس بمـا فعله منذ لحـظات بالذات، وإنما بحنونة، وكل ما يتصل بحنونة، وعلى رأسه أن تستمر علاقته بها، قامت الدنيا أو قعدت، ضربـه معوض أفنـدي أو تشاجـر مـع أبيـه، ردحت أمهـا لأمي أو خنقتني الأم، سحب أبي بنـدقيتـه القـديمة من دولابهـا وأطلق النار على عـائلة معوض كلهـا أو عليّ أنا منفرداً، فليحدث، وإنما كما يصلي العابد لإلٰهه، كما يتصـل الشعاع

بأمه الشمس، كما لا يمكن أن تخلو النجوم من الليل فصلتي بحنونة أكبر من كل هذه الحتميات، باقية وستبقى، إلى أن أموت أو نموت معاً، وربما حتى بعد الموت تبقى.

ولكن يبدو أني رغم هذا الاحساس الداخلي المروع، كان وجهي من الخارج، وأمام مشهد معوض أفندي المنتصب طويلاً ورفيعاً، ينخطف، وينسحب كل ما في جسدي من دم ويسيل مغرقاً أرض الحجرة. بقيت واقفاً جامد العينين مخفضهما أنتظر العقاب. كنت رغم هذا أدرك أنه جاء بعد النهاية، وأنه لا يمكن أن يخمن حقيقة ما حدث، ولكني بإصرار كنت أنتظر العقاب. وليته عاقبني، ليته ضربني أو سبني، ليته حتى اشتكى لأبي وليت أبي قتلني، فكل ما فعله أنه بعد سكوت طويل قال:

ـ أنا كنت فاكرك جدع مؤدب يا محمد.

كلمة من الكلمات التي تلصق بالذهن مدى العمر لا تمحى. كثيراً ما ترد إلى أذنيك، وتجدها فجأة قد انبثقت من غياب الماضي واستحضرت نفسها، حتى على شفتيك تنطق نفسها فترددها، وتشملك رعدة خجل من نفسك وكأنها الرعدة الأولى التي أصابتك حين سمعتها أول مرة، وكلما تذكرتها، تذكرتها كاملة. نفس النغمة والطريقة التي قيلت بها، ولا أدري بالضبط إن كانت قد مرت شهور أو أعوام على ما حدث إذ كل ما تلا ذلك كانت أياماً مملة كئيبة ممتدة الطول لا نهاية لها وبلا هدف. آلاف المرات ألف حول البيت عَلِّي ألمحها. كنت أعرف أن القضاء قد حل وأن الأمر البات

الصريح قد صدر لها من أمها وأبيها معاً، أن لا تراني، أن أموت تماماً من وجودي. وكنت في مرات، مرات قليلة جداً، مرة كل ألف مرة، أراها، أراها من بعيد وأتطلع إليها مكتفياً بنظرة البعدوكأنني الإنسي يتطلع إلى نجوم السماء، ويحز الهوى القدسي في نفسي أحياناً حتى ليدفعني دفعاً أن أقترب، وأظل أقترب حتى لأصبح على مرمى البصر منها، وأناديها، بهمس خفي مرة، بصوت عال مرة، وأشير لها، بيد ترتعش، بيد أحياناً مهووسة متوترة، بذراع تقفز مع الجسد في الهواء وكأنما تريد أن تمسك بخط البصر الكامن بين عينيها المستقيمتين وبين الأفق. ولكنها لم يحدث أبداً أن رمش لها جفن الإدراك، إدراك وجودي، واقفة أبداً في قلب مربع النافذة الأصفر الذي تقطع صفرته عمدان الحديد، عارفة بوجودي، هكذا أحس وأكاد أقسم ولكني أعرف أنها لا تدركه أو تأبى إدراكه، لا بد أنها قطعت على نفسها عهداً أمام أبويها، وعهود حنونة، كحنونة، مقدسة، ومحال أن تحنث بالعهد المقدس. أذوب وجداً وأنا أتذكر، أتذكرها من لحظة عرفتها إلى لحظة المعرفة الأعظم، أتذكر كل حركة صدرت عنها، كل كلمة عرفتها، إلى لحظة المعرفة الأعظم، أتذكر كل حركة صدرت عنها، كل كلمة، كل نظرة ذات معنى ارتسمت ذات مرة على ملامحها، أتذكرها وأذوب وجداً وشوقاً وأقتل نفسي ندماً. أكان لا بد أن أصل إلى المستوى الأعظم ألم يكن القرب مجرد القرب، أهون ألف مرة من التلاشي التام إلى حد القطيعة. كنت كالبطل في قصة ألف ليلة وليلة ذلك الذي تركوه في القصر ذي الأبواب السبعة وأمروه ألا يفتح الباب السابع للحجرة السابعة، وعاش في القصر ينعم ويستمتع،

ولكنه لم يستطع أن يقاوم المتعة الأكبر، أن يفتح الباب السابع، وفتحه، ورأى ما لم تره عين ولم يخطر على قلب بشر ولكنه في النهاية وجد نفسه هناك خارج القصر في النقطة السحرية التي فتح له باب القصر منها، كأننا عادياً قد عاد إلى الدنيا العادية، ووجد هناك ستة يرتدون السواد ويجلسون في بكاء متصل، إنهم أولئك الذين سبقوه إلى الندم، وانضم مالك الحزين بملابسه السود ليصبح سابعهم، أكان لا بد من الباب السابع والمتعة الأعظم؟ كمالك الحزين أبكي، وبالندم أحيا، والعالم كئيب، والأيام من فرط طولها عجوز رمادية شائخة، والليالي بلا منتصف أو فجر أو صباح، والعمر بلا زمن، إلى أن جاء الخريف، وسرت الإشاعة ولا أصدق أنا، وتحدد اليوم، والشخص، وحلت الليلة، وانتشرت الكلوبات في المستعمرة، وتركزت في المربع الأوسط الواسع، الأضواء تكسر الظلام باهرة، والشموع كثيرة لا حصر لها، حتى رائحة الشموع نفسها كانت على البعد تشم، وابن عمها جاء من الصعيد ليتزوجها، وهم يزفونها إليه، ونفس القسيس الذي يزورهم بين الحين والحين قد حضر من كنيسة البندر، والكل يغني ويردد وراء القسيس: كير. . يا . . ليسون. . ارحم يا رب. . يا رب ارحم. . وحنونة في ثيابها البيضاء الناصعة، وعقد الفل، والطرحة، وقد حملوا وجهها بأكثر مما يحتمل من ألوان وأصباغ ولكن بقيت لها نظرة العينين غير مصبوغة، وإنما هي زائغة مروعة تائهة، تتحرك مدفوعة بالأيدي الكثيرة التي تتجاذبها، تتحرك كالمنومة مغناطيسياً كمن تؤدي دوراً، وثمة ابتسامة شاحبة خائفة لا تغادر وجهها، وإلى جوارها أفندي ربما لم تره في

حياتها إلا الليلة، ضخم الجثة، أسود الشارب كثيفة، يرتدي (بالطو) أسود وشعره لامع شديد اللمعة بما فيه من بـريانتين، العـريس منتفخ الأوداج وكـأنه لتـوه قـد ربـح صفقـة، يمضـغ ويتملظ ويضحـك من أعمـاق صدره وأحيـاناً دون أن يـريد، وحنـونة إلى جـواره كالحمـامة المسـوقة الـوديعة، تتجـاذبها الأيـدي وتدفعهـا، وتبتسم في شحـوب وعيناها هائمتان تبحثان عن شيء بين نجوم السماء وكأنها العدرة فقد منهـا مسيحها، والعـذراء راضخة، صـابـرة، وحيـدة، تفتش السمـاء بعينيها بحثاً عن الخلاص، من يدري ربما كانت تفتش عني وأنا قابع فوق السطح أتألم وأندم وأرقب، والكل يردد: كير يا ليسون. . كير يا ليسون.

البراءة(١)

ابتسامة الجنرال والزورق والـدعوة. الابتسـامة غيـر بعيدة على مرمى البصر، والدعوة قائمة ومستمرة ومتجددة، كـرياح خـافتة دائمـة الهبـوب. الزورق تتـلاعب به الميـاه، تعلو بـه مـوجـة، تنخفض بـه موجة، بإغراء كبير يتلاعب، الابتسـامة غيـر واسعة، وكـأنما بـالإرادة محددة الحجم، مضبوط ارتفـاع شفتها العليـا. مقاس تـأثيرهـا بدقـة زائـدة. الجنرال سمين أكثـر مما يبـدو في صـوره بـالصحف، واقف يتمشى، راض عن الدنيا تماماً. صلعته الأماميـة تلمع بحبيبـات عرق تحت ضـوء الشمس. الشمس حارة لكنهـا غير لاسعـة، في الحقيقـة مبتسمة. تلف الجو كله بروح الاغراء والـدعوة. عصـا الجنرال تحت ابطه ولكن ثيابـه مدنيـة، وقميصه صيفي بنصف كم. البقعـة السوداء التي تحجب عينه من فرط الرضا المبتسم والوجه المكتنـز قد اختفت أو كـادت. في الحقيقة لا ألحظها. لا أرى أظافر، أو رؤوس حـراب

(١) كتبت ونشرت لأول مرة في مجلة الآداب (عددها الخـاص عن القصة القصيـرة) في يونيو ١٩٧٢.

أو خناجر غدر. الجمهور على المرسى الخشبي القديم، متدلي الرؤوس من فوق الحاجز، يتطلع ساكتاً سكوت الدهشة، سكوت حب الاستطلاع، سكوت يوم الدين، ولكنه سكوت عظيم. الجنرال لأمر ما، لخاطر ما، ضحكة فقط فتحت فمه، أسنانه تبدو قديمة منفرجة، متسخة قليلاً، ولكنها بلا أنياب، بلا أنياب.

ابتسامة الجنرال والزورق والدعوة، وعبرت. كيف؟ لا أعرف. على ماء كالحرير، أو حرير من الماء، عبرت، بالنزوة، بالتلقائية بالرغبة، عبرت. هببت. كما تهب النسمة في الاتجاه المضاد، هببت. أصبحت هناك. اهتزت أهداب العين الواحدة في ترحاب وقور. الابتسامة أضيف إليها طعم الاكتفاء. عصا الضباط العظام تراخت تحت ابط لم يعد مشدود العضلات. لم تمتد يده تصافحني. في وجهه تعبير من لا يريد احراجي، من يعرف إني لن أصافحه. أنا فقط أريد أن أرى، مجرد أن أرى وأتفرج عن كثب أشاهد، والرؤية ليس لها دنس. نظيف أنا مثل (بفتة المحلة) البيضاء. كيف أصافح وأيديهم ملأى بالحيات والثعابين والعقارب؟ أنا متأكد أنني لو مددت يدي، وصافحت، لالتصقت باليد التصاق الأبد، ولا أعود أستطيع الانفصال. للفرجة جئت، وعلى الضفة الأخرى كنت أتفرج. والآن، عن قرب أفعل. فماذا يضير؟ ماذا يضير؟

أتجول، وفوق الشاطىء الرملي أقدامي تتحرك، خفيف الوزن كأني هبطت فوق القمر، هبطت فوق الوجه الآخر للقمر. الشمس تماماً غير مباشرة، نورها يأتي، ضعيفاً واهناً، كنور الغسق، من كل

اتجاه يأتي، وإلى كل اتجاه يمضي، فلا يبقى إلا أثر الغسق.

كل شيء على الشاطىء هنا. المدن صغيرها وكبيرها هنا. البلاجات، المواخير، وحتى مصانع الأسلحة السرية هنا. لا أحتاج إلا لخطوة واحدة، فيتغير الزمن، ويتغير المكان. الجنرال أشعر به من بعيد يراقبني. كان من واجبه مصاحبتي. ولكنه تأدباً أراد لي أن أكون بمطلق حريتي. وأن أفعل ما يحلو لي. لا تتأثر إرادتي حتى بمجرد قربه أو وجوده. ولكن عيني الخلفية تحس به يحرك رأسه أني أتحرك. ابتسامته لا تتغير. أم غير مكترث بالمرة.. عصاه تحت ابطه، رأسها كالبوصلة يتحرك، يتعقبني، يحرك الأشياء أمامي، الزمان والمكان والمشهد. رأس العصا ليس مندمجاً في غلظة أو وضوح إنما هو، كوجه الجنرال، ينسكب انسكاباً متسقاً مع بقية الجسم.

من الغمام الغسقي برز وجه سيدة. أمامي منحنية قليلاً وقفت. جيداً لم أتبين الملامح. هل كان لها رأس حقاً؟! إنها بالتأكيد سيدة. تكلمت عاماً، ربما عامين، ولكني لا أريد أن أسمع، أخرجت من حقيبة يدها، التي تشبه حقائب الدبلوماسيين، أصبع روج. لفت قاعدته، فانبثق من فتحته بدلاً من الروج ماركات المانية حقيقية. آلاف الأوراق. كل ورقة بألف مارك. لفته مرة أخرى انبثقت دولارات، ليرات، دينارات، ورقات بعشرات الجنيهات. أشحت. أغلقت الاصبع. قدمته بلطف زائد. أشحت. الجهد عجيب. ولكني أشحت. تفرجت وأشحت. بعيني الخلفية أحسست بأثر شعاعي

كـومضة البـرق. ومن عصـا الجنـرال صـدر. اختفت ومجـرد خـطوة أخرى، وجدتها تنتظرني. ليست فقط بملامح أنثوية واضحة، ولكنها بالملامح الأنثوية التي أريدهـا. الوجـه طويـل ينتهي بذقن يتـوسطهـا طابع الحسن، عميقاً كالسرة. الشعر طـويل ومتهـدل ومفروق وكـأنما منـذ أن نما. من الـوسط يتهـدل، ويغـطي الأذنين، ويغمـر الأكتـاف والصدر. الشفتان قطعا لشابة في السابعة عشـرة. شفاه جـربت لا بد القبل، ولكنها لـم تمتهن بعد، بأغلى القبـل. العيون واسعـة، ومليئة بـالغـريـزة المشعة، والـرموش طـويلة تكاد تبين كـل رمش منها نـافر وحده كسلك الشمسية. رموش برية، بركانية، كـأنما فجـرتها بغـزارة طبيعية أم بدائية. قبل أن تكلمني سمعتها، كالسـائح المغـامر قـررت أن أسمعها، وأيضاً أصافحها. أعرف تماماً أن يدي إذا لامست يدها، فمحال أن أستردها.

كالسائح رحت أسمع. وكالرجـل الذي بـدأ يدمـدم فيه البـرق رحت أرى. آذاني بـدأت تنجذب بقـوة. والبـركـان في نفسي بـدأت دمـدمته تقل، وتهدد بأن تهدأ. ثاقب كلامها. عقلها يبهـرني، يبلغني يغرقني في فيض من رؤى الحيـاة. أتأملهـا فأشعـر كأني مـا عشت الدنيـا أو مارستها. مدمر منـطقها. مخي أراه رأي العين نسيـج عنكبوت تعبـره آلاف من ذرات الكلمـات الذكيـات، وعيي يزداد إلى درجـة جاوزت حد الخطر. كنت واثقاً أني في اللحظة الفاطلة أستطيع أن أكون السيد والغالب. والمهدم بضربة كل ما شيدته في عقلي من أوهام. ولكن رعبي أنهـا أصبحت أصلب من الحقـائق، وأدرك أني حـالاً، وبعـد

ثانية، ومهما هويت، فلن أهدم شيئاً.

وفجأة، من الأعماق البعيدة، انتفض صوت النذير، وخطوت غضباً خطوت، مقرراً بلا رجعة أن أعود. لقد جئت أتفرج. فجأة أيضاً ظهر الجنرال. أمامي وقف. الابتسامة هذه المرة ابتسامة اعتذار واضح. مد يده. بالأدق، حرك يده حركة تصلح أن تكون مشروع مصافحة. لا يا جنرال حتى أنت لا أصافحك، بذكاء شديد أدرك، بذكاء أشد تحولت همة اليد إلى حركة لبقة داعية أن أتقدم. رحت أجمع نفسي، وألتقط أنفاسي، وأرفع القدم وأبدأ أتحرك.

طابور طويل، قادم من بعيد، من أبعد، وكأنما يبدأ أوله عند الأمس، وقبل الأمس، ومئات السنين. طابور عليه مسحة الحزن الذليل. بنات وسيدات، مسنات وصبايا في الثالثة عشرة، بيض وحمر، وسمر وصفر، شاحبات. أمامي تتردد الواحدة، بانكسار تنتظر. بانكسار ترفع الرأس. بأهداب منكسرة تنتظر الريا. بعيون فيها الحزن الرقيق تتمنى. الأسى أنثوى ويضفي على المرأة أنوثة. وليس أكثر أنوثة من الحزن إلا الصبايا الحزانى. الأسى لا يستثير الشفقة. إنه يستثير الفحولة. اختر ما تشاء. أمامك المائدة حافلة. أمامك. خبرة المدربات أمامك. خجل ربات البيوت أمامك. الأرامل الفتيات أمامك. الفقيرات الجميلات أمامك. يكفي أن تلمس الواحدة فتذوب أمامك. تغوص في مياهها الأنثوية. وتسبح فيها، وتعبث كيف تشاء، وأنى تشاء، يا للغلالات السوداء الرقيقة، حتى الرخيصة منها، وهي تنزاح وتتمزق عن اللحم الأبيض! اللحم الشهي الشاحب

الأبيض. يا للوجه المتكسر أسى وهو يموء نشوة وإحساساً بالرجل. يا للدوائر الثديية البنية ذات السيقان الوسيطة المبتورة، وهي تثور وتتمرد على تهدلها الحزين. يا لعواء يأتي من شعر تحت الإبط، ذي العرق اللؤلؤي المنسال الخاص، كل نقطة منثالة منه تحمل كل رائحة الأنثى وغريزتها. يا للحزن حين يستحيل بتأثيرك تهتكاً وفجراً، وأمامك الطابور. اختر ما تشاء، بأصبعك أشر، مجرد أن تشير. بإرادتك جرب، مجرد أن تختار. برغبتك، حتى بمجرد انبثاق الرغبة في أعماقك الباطنة، جرب. والجنرال هناك، لا أعرف له مكاناً على وجه التحديد، وكأنما هو يختار دائماً أن يكون حيث لا أراه. هناك هو بالتأكيد، بنظراته يطبطب على كتفي مشجعاً داعياً مباركاً، حتى لو اخترت ابنة العاشرة سيبارك الاختيار. اللمس، مجرد اللمس أصبح مغرياً إلى حد مستحيل المقاومة. ولكني خائف خوف الموت أو المس. أعرف ومتأكد أنه بمجرد اللمسة سيصبح الطابور كله لي، والطابور طويل طويل، والنساء كثيرات، متباينات، حتى بكل أساهن الجنسي الخاص. أصابعي تأكلني. الرجل فيّ يعوى وأنا كالصخر الثابت أتفرج. والفرجة ليست دنساً، وقلبي نظيف كبفتة (المحلة) البيضَاء. الرغبة في صدري مكممة الأفواه، مكتفة الأرجل والسيقان. مخنوقة تماماً لا تملك أن تعبر عن نفسها أبداً. أخاف حتى مجرد أن أعبر عن نفسي. فمبجرد التعبير سأبدأ أنهار. الطابور يختلط. الألوان تفرز الألوان. النسوة الكثيرات يستحلن إلى غابة. الألوان زاهية زاعقة، كبالونات الأعياد تنهمر. الثوب يختصر إلى الميني جيب والميكرو جيب واللاجيب، السيقان أصبحت مصنوعة ومضبوطة على

أدق مقاييس الجمال. الساق منها أنثى كاملة. مصنوعات فليكن. وليكن الانتاج (ماس برودكشن). الباروكات أجمل من الشعر الأصيل ألف مرة ومرة. العيون الصناعية أحلى وأروع من الطبيعية مليون مرة. وحسبما وكيفما تريد. يابانية ضيقة، وصينية معوجة، وأميركية واسعة، وعربية سوداء، وانكليزية زرقاء، وخضراء وبنفسجية. المصنوعات يرقصن. بنطلوناتهن محزقة. البلوجنز يفتك بالنظر، تقشعر له العين، وتنتصب له الرموش قبل أن يقشعر الجسد. الرقصة أمامي تحدث، الوسط يتلوى، بكل التواءة وسط تقول خذني. السيقان تتشنج ممدودة تجأر، مكنونة تستجير. الأكتاف تهتز، تضيق، تتسع، تنادي، تقبل، تدبر كي تقبل أكثر. الشفة السفلى تتدلى، تسترخي تنقبض. الفم يضيق ضيقاً داعراً مجنوناً. أنا يا عم أتفرج. أموت رغبة، تقتلني الرغبة، ولكني لن أفعل إلا أن أتفرج. لقد جئت فقط كي أرى وأتفرج. يا جنرال أعرف أنك خلفي وأنك تراقبني وأن برأس عصاك اشعاعاً، يخضع الأشياء لكل ما أتمنى وأرغب، ولكني سأظل أتفرج.

بل لم يعد في طاقتي البشرية، أن أبقى، وأن أتفرج.

الزورق وقهري للابتسامة والدعوة على وجه الجنرال تودعني، مشفقة لغبائي، ساخرة. هزة الرأس اسفاً، بعيوني الخلفية أراها مودعة. الزورق يتحرك. أحس الآن بحركته، وبالزمن بدأت أشعر. أنا ألهث، مستريح الضمير ألهث. كمن نجح في امتحان شديد القسوة. ومستريح الضمير. لم ألمس. لم أتدنس. طول الوقت

أتفرج. بقيت نظيفاً كبفتة (المحلة) البيضاء، كضمائر الناس الكثيرين المتزاحمين، على شاطىء، فوق المرسى، أتفرج. أعناق مدلاة فوق الحاجز وسكون. سكون حب الاستطلاع، سكون الفرحة، سكون يوم الدين، ولكن إلى نفس السكون العظيم أعود.

ولكن شيئاً جديداً، لم أتوقعه أبداً، لمحته، هناك، وغير بعيد عن مكان المتزاحمين فوق المرسى القديم، لمحته. ابني، حافي القدمين في جلباب النوم، واقفاً. شعره مشعث. ملامحه فيها جمود المستيقظ لتوه من غفوة، وكان ناحيتي ينظر. إليّ ينظر مرة وإلى المتفرجين المدلاة أعناقهم مرة، شاحب الوجه، رفيعاً، نحيف الساعد، ولكن في ثبات ينظر. دهشت. جعلتني الدهشة الأولى أحبه أكثر. إنه ابني. دمي أنا ولحمي. قطعة مني قد انفصلت، وأصبحت كائناً مستقلاً فاتصلت بي أكثر. كائناً له وجهه الخاص، ورأسه الخاص، وساعده النحيل الخاص.

وصل الزورق، يهدر. لامس الخشب القديم ولكني لم أغادره. النظرة الكامنة في عيني ولدي ثبتتني في مكاني. لا ذرة بنوة واحدة ألحظها في النظرة. ماذا حدث؟ تحرك ساعده. امتدت يده إلى فتحة الجلباب. خرجت اليد قابضة على شيء معدني أسود. كان مسدساً. حسبته لعبة أطفال. ولكنه كان مسدساً رجالياً كبيراً. ماسورته بطول الساعد الناحل. مسدس حقيقي له فوهة. والفوهة تتحرك، لتصبح دائرتها السوداء موجهة إلى صدري مباشرة. بالضبط إلى مكان القلب من الصدر. تعلقت نظرتي مستغيثة بكل ما لي فيه.

لم تجب استغاثتي بادرة. الوجه قـاض، والنظرة جـلاد، والفم يتمتم بالحكم. لا. أنا لم ألمس يا بني شيئاً. يا مجنون. كنت مثـل هؤلاء جميعاً أتفرج. ارجع. لا تكن مجنوناً. ما الجريمة أن أقف وأتفـرج؟ قلبي نظيف كبفتة المحلة البيضـاء. كقلوب هؤلاء الناس، ولم أفعـل إلا التفرج. ارجع. أرجوك. أستحلفك. أعقل. فكر: ما الجريمة يا أحمق أن أتفرج؟

التمتمـة تكف. الشفاه تنـطبق في اصرار. الـدوي. ارتعـاشـة اليـد. الـرصـاصـة في كتفي. الـدمعـة ألمحهـا تترقـرق في عينـه. الرصاصة الثانية كالكتلة تدك صدري. دويـهـا لا أزل أسمعه. الثـالثة لا أعود أسمعها.

لحظة قمر

فجأة، رأيت القمر . .

وليست هناك خدعة ما في التعبير، فصحيح أن الإنسان أبداً لا يرى القمر فجأة، فالقمر لا يظهر فجأة، والشمس لا تشـرق فجأة، إذ المفاجأة دائماً في العمل غير المنتظر، وشروق القمر وغياب الشمس أعمال لا مفاجأة فيها ولا جـديد. ولكنـك بالتـأكيد ستحس بصـدمتي وأنا أرى القمر فجأة في شريحة من شرائـح القاهـرة، شريحـة تسمح لك برؤية السماء، رأيت القمر عجيباً جداً.

الشريحة السماوية التي تبـدى منها كـانت مسافـة بين عمارتين عاليتين من عمائر القاهرة، عاليتان إلى درجة تكاد تحجب عنك رؤية السماء كلها. ولولا المسافـة الكائنـة بينهما مـا سمحت لهذه الفـرجة السماوية أن تظهر. وقـد كان حـرياً بـظهورهـا ألا يثير أدنى دهشـة أو ابتئـاس لولا أن تلك الشـريحة السمـاويـة كـانت تحـوي، في هـذا الوقت بالذات القمر، القمر في محاقه الأخير، القمر حين يبدو الجزء المضيء منـه مخنوقـاً بعض الشيء. من لون البـدر يتناول تـدريجيـاً فاقداً لمعة فضيته، ثم بياضه مكتسباً بعض الصفرة، بعض العتمـة،

حين يكاد نوره يصبح وكأنه نور قادم من عمود نور البلدية، أو هو بالضبط كما بدأ لي من خلال فرجة السماء هذه القائمة بين عمارتين، شققهما العليا مفجرة الأضواء والضجيج، بدا لي وكأنه النور القادم من شقة ثالثة مفروشة ومؤجرة للسياح ومن الباطن، حتى لو كان هذا الباطن على تلك الدرجة الشاهقة من العلو، فالمهم أن نور القمر المخنوق اختلط بأنوار الكهرباء الباذلة جهدها كي تلعلع وتبرق ومع ذلك فهي بالكاد تصل إلى مستوى نور القمر المخنوق هذا.

فجأة، رأيت القمر..

ويبدو أيضاً أن المفاجأة كانت كاملة وكان من المستغرب تماماً في ظروف القاهرة تلك، ظروف الخروج من المعركة والاستعداد الكامل المطلق لأي معركة مقبلة، أن يكون هناك قمر..

ربما نحن نسيناه تماماً. نسينا الكون الأكبر المحيط بنا، ضعنا تماماً في اختناقاتنا اليومية الصغيرة المستمرة المتكثرة التي نغرق فيها وتغرقنا، ومع هذا فمفروض ونحن غرقى هكذا أن نفكر في انقاذ أنفسنا بل ونقوم بهذا الانقاذ فعلاً، ويخيل لنا أن كل شيء قد انتهى إلى لا شيء مرة، ومرة أخرى أدهى يحيل إلينا كما لو كان أي شيء قد استحال إلى كل شيء. وما بين اللا شيء وكل شيء رحنا نرقص. رقصاً لا ضابط له ولا نغم، نحن فيه على وجه الدقة كرة (بنج بونج) مضروبة مضروبة، لكي تقتحم أرض الخصم، لكي تدافع مضروبة، من اليمين التي نزاولها بمنتهى عدم الدهشة وبمنتهى الجدية والخطورة، رقصة التفتت والتحلل إلى اللاشيئية لتصبح الكل

شيئية. . أنستنا هـذه الرقصـة المحمومة، ليس فقط أننـا نرقص أو أننـا أحياء، ولكن يبدو وكأنها أنستنا أيضاً أننا جزء من كون هائل الضخامة كبير، عوالم أخرى، شموس وأفلاك ومجرات، حركة تـاريخ ضـاربة إلى أسحق بعـد من المـاضي وواضـح أيضـاً إلى أسحق بعـد في المستقبل. .

أجل. . نسينا هذا كله. كل مراكز عقـولنا محملة فـوق طاقتهـا بـأكوام من الأرقـام والحسـابـات والـديـون والمـطالب والاحتمـالات وخراب البيوتات، المركز الواحد أمامه طابـور أفكار بـرمته ولا طـابور الجمعية.

نسينا القمر. .

وفجأة، رأيت القمر. .

مخنـوقاً لا يهم، محمـر الضوء كـالحه لا يهم، شقـة مفروشـة بتليفـون وحمامين وأنـوار والعة مـولعة ومجهـزة إلى حـد الصـاجـات لإحياء ليالي ألف ليلة بعشـرات من الشهـرزادات المنتـظرات، فقط، تليفـون، وإذا الكـل على واحــدة ونص انضبط، مـع كــل واحـد، يتخلخل تماماً ويتفكك مع كل نص في ومضـه يعود إلى الانضبـاط. شقـة مفروشـة باهـرة الأضواء بين عمـارتين لزوم السـادة السياح، مـا عليـك فقط إلا أن تشير، مجـرد تشير، أو تفكـر، مجرد تفكـر، وإذا بجميـع ما تحلم بـه يتحقق حتى لو الشقـة في القمر، ولـو القمر بين عمارتين تتلألأ شققهما بأنوار.

فجأة، رأيت القمر. .

إذن فأنت القمر. تراك أين كنت أيها العربيد. ماذا ضيعك منا أو بالأصح ماذا ضيعنا منك؟ أخيراً هللت، وظهرت، ورأيناك؟!

صحيح لم تكن مفاجأة، ولكنها كانت في حد ذاتها حدثاً.

لا أعرف ماذا حدث لي بالضبط حين رأيت ذلك المخنوق بالوهج القمري، ولكن الشيء المؤكد هو أنني أحسست بارتياح طاغ.

القيامة إذن لم تكن قد قامت.

والطريق الذي قطعناه طويل هذا صحيح.

متعبين، مثخنين بالجراح والأنواء، نحن.

ولكن..

ها هو القمر.

ها هو وجهه يذكرك بإنسانيتك، بأنك أنت مما كنت، ومهما كانت أوضاعك فأنت هو الإنسان، أنت العظيم وسط هذا الكون الهائل الفراغ والظلام.

ذلك أن هذا النظام نفسه يؤكد أنك سيد هذا الكون، أنك الوحيد بين مكوناته القادر أن تتحرك بإرادتك المستقلة وبحريتك في أي اتجاه تختاره، إنك السيد، وكل ما تفعله عظمة الكون كلما عن لها أن تؤكد نفسها فإنها في نفس الوقت تؤكد عظمتك، أنت عظمة السيد.

فجأة، رأيت القمر..

لا أعرف لماذا كانت بعض الديانات القبلية في أمريكا الجنوبية

وأفريقيا تخصص أياماً محددة من العام تجتمع فيها القبيلة كلها ،ومن كافة الأنحاء، في مكان محدد عند هضبة جبلية، هناك حيث يعسكر أهل القبيلة، ويقضون الوقت في تأمل صامت للشمس وهي تشرق وتميل ثم تغيب، والقمر وهو يعتلي قبة السماء ويتغير شكله وطبيعة نوره لا أعرف، ولكن الدارسين لهذه العبادات والقبائل يؤكدون على أن الغرض من هذا كان عمل نوع من الاتصال بين الإنسان والكون، بحيث يبقى للإنسان ذلك الاتصال الكوني الروحي الذي يزوده بزاد يكفيه حتى حلول العام القادم.

لا أحد يعرف إذن ماذا يعنيه هذا الاتصال بين الإنسان والكون أو بالضبط ماذا يحدث للنفس البشرية إذا أجبرت على الابتعاد عن الظواهر الكونية أو إذا عاشت واختلطت بتلك الظواهر. لا أحد بالضبط يعرف ماذا يحدث للإنسان ولكن الذي لا شك فيه أن الإنسان (الكوني) أقوى بكثير من الإنسان من بلا بعد كوني، فالإنسان ذو البعد الكوني إنسان أقرب إلى حقيقته الإنسانية وطبعه البشري، أقرب إلى فطرته وأصالته، أقرب إلى تفرده وتسيده من ذلك الذي غشي عليه فلم يعد يرى أمسه من غده، أو ليله من نهاره.

فجأة، رأيت القمر..

رفرفت في صدري أجنحة عصفور زقزق في قلبي كالزغرودة وهفهف بجناحيه مرحباً، وكأن الأمر عيد يهش له.

وبدا كما لو كنت أستعيد حياتي كلها في شريط سريع أمام القمر أو بالضبط أمام لحظة القمر.

لا أعرف، ولكن، لأمر ما، كل شيء يأخذ حجمه الطبيعي، بل بدأت أنا نفسي آخذ عند نفسي حجمها الطبيعي، أو ذلك الذي أبدو فيه أكبر من كل مشاكلي. تلك الصورة التقليدية التي يبدو فيها الإنسان، ومهما كان التحدي القابع أمامه، منتصراً، أو على وجهه علامات الانتصار الأكيد.

فجأة، رأيت القمر..

في فجوة سماوية بين عمارتين.. شقة مفروشة.. كون هائل فارغ ومظلم ومنظم... عصفور يزقزق في قلبي طرباً.

لحظة..

وفجأة أيضاً، ضاع القمر..

سدت السماء أدوار العمارات العالية.

أصبح لا معنى أن تنظر للسماء إذ لا سماء هناك.

عليك، لكي تخطو، فقط لكي تخطو، أن تنظر إلى الأرض.

وإلى الأرض تظل تنظر، حتى لا تسقط، تنظر حتى لا تسقط فما أكثر الحفر في شوارعنا هذه الأيام.

فجأة، رأيت القمر..

ولحظة واحدة عشتها معه.

وفجأة، ضاع القمر بين عمارتين، وضاع بصري بحثاً عن موطن قدم.

ولكن قلبي لا يزال يرفرف بالسعادة، إذ يكفي أني، بعيني، رأيت القمر الذي لا أراه.

حوار خاص

لا بد أنه الاحساس الكامل بالسيادة. السيارة موتور قوي يئن أزيز الاتصال واللا خلل. عجلة القيادة في يدي كالريشة. بحركة أصبع أقود. بحركة قدم أندفع. أنا السيد. على الأقل سيد الكون كله إلا موتور حركة. الكهرباء موتور. الذرة موتور. البنزين موتور. .

أنا الإرادة. أنا العاقل الكامل وسط أكوام وأحراش من اللاعقل واللاواعي واللاإرادة. .

الطريق وسط الصحراء قاحل وأسود ولامع. الوحشة تزيدني احساساً. . بالتفرد. كأني الكامل وحدي في هذه الدنيا. والدنيا طريق أسود طويل ليس فيه سوى الأفق. بعد كل أفق أفق. الدنيا أنا وأنا الدنيا. سعيد. منذ بضعة أشهر نجوت من موت محقق. قال لي الطبيب: حظك نار. لا بد أنك تملك في جسدك قدرات غير عادية. ما أحلى الثقة بالجسد. إنها كالثقة في عربة خارجة لتوها من (الأجنس). القوة. نعبدها حتى في أجسامنا. بالذات في أجسامنا. زهو أني انتصرت. كان الموت فوق القلب تماماً، لكن القلب طرد الموت. بل لمحت الحسد في وجه الطبيب وهو يقول: أتعرف أن

قلبك بعد المرض أقوى وأكثر صحة مما كان قبل الأزمة. هـذا النوع من الأزمات أعرفه. أخرج من الأزمة لأدخل في أخرى. لأعود أخرج منهـا أقوى. أرادني شحـذها الأزمـات، تعـالى إذن يـا إلهي العـظيم نتحادث. ما أروع الحديث معك في هذا المكان القحـل، في طريق صحـراوي لا نـاقـة فيه ولا نبتـة. إنهـا قصـة طـويلة طـويلة لي معك. واسمح لي ألا أخاطبك بألقاب التعـظيم فقد استعملهـا الناس كثيراً في مخاطبة الطغاة والحكام حتى أصبحت غير جديرة بك. تلك الأزمة الخاطفة التي مرت بي لم أرك فـأنت لا ترى لست بـالخارج. أنت هنا فينا أقرب إلينا من حبل الوريد.

أنـا الذات الصغـرى بنت الذات الكبـرى. أنـا المخلوق وأنت الخالق والبرزخ والكائن بيننا ما لا نهايـة في الصغر ومـا لا نهايـة في الكبر لأنه برزخ بابك وبرزخ قـدرتي. أنا يـا إلهي لا أحب أن أعبدك عبـادة هؤلاء الذين يتـدللون لك، فلقـد خلقتنا في أعـظم تكوين وأن ننذل حتى لك معناه أننا نحد من قدرتك، فمخلوقك لا بد أن يتيه ولا يحني الهـامة، وإذا كنـا نسجد لـك في الصلاة فـإنما لنـرتفع بقيمنـا وابتهالاتنا إلى مكانك. وقد لا يكون هذا رأي الجميع ولكني أعبـدك عبادتي الخاصة بطريقتي أنا. ولست المسئول عن هذا يا إلهي فـأنت الذي خلقتني هكذا، متمرداً لا يقبل الضيـم، رافضاً لا يقبل المساوية طامحاً للكمال في كل شيء حتى يصبح كل شيء قريباً من كمـالك. أنـا هكذا لم أخلق نفسي ولكنـك من مـلايين المـلايين من الـذرات والجـزئيات والـوراثات والتـأثيرات والخـواص اخترتني لأكـون هكـذا

وتكون لي شخصيتي تلك.

* * *

كانت العربة تنطلق بسرعة مائة وعشرين كيلو متراً، وكان الصمت ـ إلا من أزيز الهواء والموتور ـ كاملاً. صمت الصحراء الأصفر. صمت الكون حين تتوقف حركة الخارج وكأنه مات. وخفت. أحسست أن المضي في أفكار كهذه سيخرجني بعد حين عن إطار الجاذبية وانطلق في الفضاء حتى أهلك تماماً في قلب الشمس. ولكنك هكذا خلقتني. حتى لو عرفت أني هالك في قلب الشمس لن أتوقف. لا أكتمك ـ إلهي ـ أني ظللت وأنا في المستشفى أتفكر في مسألة الله والإنسان والعمر. أنا أعرف علمياً أن الذي يحدد العمر هو الطاقة الحيوية المنبثة في القلب وفي كل أنحاء الجسد. فأنا مررت بالأزمة إذن لأن الطاقة الحيوية عندي كانت الأقوى. ولكن المشكلة أن هذه الطاقة يعوقها عامل صغير، مثل قشرة الموز يتزحلق فوقها قدم العملاق فينطرح أرضاً فلماذا خفت رحلة الأزمة من قشرة الموز. . الصدفة. . جائز. ولكن الصدف لا تتكرر إلا كل عشرات الملايين من المرات. وثلاث مرات تكررت الأزمة، واحدة في الرقبة. وواحدة في الوريد وواحدة في القلب. أنا إذن حالة في كل ألف مليون مرة. هكذا العلم يقول. علمنا القاصر الآن عن إيجاد علاج لأزمة البرد. ولكنه حد علمي وحد تفكيري. أما ما هو خارج

هذا فلا بد أن الله يحبني وقد اختارني لأعيش حتى ولو كان الاختيار مرة من ألف مليون مرة. أنت إذن تحبني أيها الإله. تحبني لأني هكذا. ربما أيضاً لأني أقف وقفة المحب أتساءل دون أن يرتجف قلبي من الهلع القاصر ودون أن تصطك أسناني وإنما بثقة المحب للمحبوب وبحريته أسأل. وبنفس هذه الثقة أقود السيارة، منطلقاً بهذه السرعة، سيداً، سعيداً، حراً، أزاول الإنسان الحر الذي في كلمة، أزاوله حتى في مواجهة الخالق ياذا الخالق. أيها الضارب بعيداً في أغوار الكون حتى ينتهي النور، وأبداً لا ينتهي النور لأنك لا تنتهي. الضارب بعيداً في أغوار الماضي وآفاق المستقبل حتى ينتهي الزمن، وأبداً لا ينتهي الزمن لأنك أبداً لا تنتهي لأنك أبداً لا تبدأ لأنك أبداً لا تغيب أبداً لا تحضر، أبداً لا تعرف لأنك العارف ولا تنسى لأنك الذاكرة ولا تخلق لأن كل شيء من خلقك لأنك أنت كل شيء، أنت شعلة في كل شيء، وميض التغيير المستمر إلى الأفضل والأفضل والأفضل، تجسد الطاقة مادة، والمادة حياة، والحياة عقلاً والعقل إنساناً أسمى وأسمى وأسمى، إله أصغر.

ومع هذا فإني أسأل: أهذا هو مجرد شعور الفالت من خطر، مجرد تجسيد لهواجس تربينا في ظلالها وحواديت سردت علينا ونحن صغار وعلماء عجزوا عن التفسير فقالوا: الله.

أأنت حقاً هناك يا إلهي؟.

* * *

وصمتت أفكاري عن أن تمضي. دق قلبي كأني دخلت بالقدم في حرم مقدس. تخطيت عتبة الممكن والمباح. حملتني السيارة فوق الطريق، وفوق الصحراء، وقائدها أنا اخترقت عنان السماء أتلفت حولي أتساءل عن (الحق). ثانية واحدة مضت لا أكثر. أقل من ثانية ربما. وحدة الزمن الممكن أن يحسها ويدركها الإنسان وبدأت أحس التغيير. أصبحت عجلة القيادة في يدي أسهل وأخف كثيراً عما كانت. لكأنها تتحرك من تلقاء نفسها، وكأن سيطرتي الروحانية أصبحت هي التي تخضع لها العجلة دون حاجة إلى توجيه من يدي.

ثم مروعاً اكتشفت أن المسألة ليست شدة سيطرة من إرادتي على عجلة القيادة، إنما الحقيقة الباردة المجردة أن عجلة القيادة نفسها انفلتت من سيطرتي عليها. وبخبرتي مع العربات وحوادثها أدركت السبب. أن إطار العجلة الخلفية قد انفجر ببطء لم أسمعه وأن العربة نتيجة لهذا ارتفعت عجلاتها الأمامية وأصبحت غير خاضعة مطلقاً لتوجيه (الدركسيون). هي التي تتوجه كيفما يحلو لها، وفي أي اتجاه تشاء. وأنت هنا لا تستطيع أن (تفرمل) لأن مجرد لمس الفرامل يخل بتوازن العربة مع هذه السرعة العالية ويقلبها فوراً.

صفر الخاطر في رأسي:

ماذا لو كان بعنف ورعب واختلال مضى قلبي يدق. نظرة إلى أسرتي التي تحتل العربة معي زادتني رعباً. ولداي من الخلف

وزوجتي بجواري وابنتي الصغيرة وبراءة الدنيا في عينيها ستموت بعد ثوان. فكل شيء وكل خطر قد تكون بسرعة. الطريق الذي كان خاوياً وامتلأ فجأة بعربات جيش لتعليم السواقة قادمة في الاتجاه المضاد، وأي خلل في اتجاه العجل الأمامي للعربة سيجعلنا نراطم الارتطامة القاتلة المهلكة في واحدة من العربات الكثيرة. أكثر من ثلاثين عربة ـ واحدة وراء الأخرى.

تحول السيد فيّ إلى أكثر كائنات الدنيا تواضعاً وذعراً. تحت رحمة من أنا الآن. عجلات الكاوتش تسير كيفما تشاء. أي بروز في الأسفلت أو حجر، بل حتى لو لم يكن هناك شيء بالمرة فاتجاه الريح، ميل جانب أكثر من جانب، عوامل ميكانيكية لا تعد ولا تحصى، ألف مليون عامل وعامل قد يؤدي أي منها لأن تدفع عربتي تجاه أي عربة قادمة أو تجاه الصحراء وتتم الكارثة.

بينما الأولاد يضحكون وزوجتي مع الصغيرة تمرح والقيامة ستقوم بعد ومضة. وجدت نفسي أهتف ـ يا ستار يا رب. يا ستار يا رب.

أي قوة أخرى في هذا الكون الواسع كان ممكناً أن تنقذني، والكارثة ليست فيّ، الكارثة في هؤلاء الأبرياء، ضحية اللعبة، الضاحكون، السعداء سعادة من يعبرون عن السعادة. حتى رداً على هتافي: يا ستار يا رب. ضحكوا وأغرقوا في الضحك فلم يكن أمامهم ما يستحق أن أناديه. كل شيء في نظرهم كان على ما يرام والدنيا جميلة والحياة ممتدة إلى أقصى مدى.

اليأس المطلق حل.. لا فائدة. لا أملك أن أصنع شيئاً. المصير بيده. هو وحده القادر. العربة. الصدفة. الواحد في الألف مليون، تحت رحمته. لا أملك إلا أن أيأس وأجلس وأصرخ على زوجتي وهي تضحك أن تتشبث بالابنة وتحسبني أهزل فلا خطر أمامها هناك وتبالغ في تركها حرة تعبث. والعربات قادمة، واحدة وراء الأخرى كل منها الموت متحركاً ومقبلاً، والصحراء على يميني مجرد انحرافة بسيطة تدخل العجلات في بحر الرمال.

الأمل كله، أن يحدث الأمر القاهر المعجز أن تظل العربة تسير غير منحرفة يميناً أو يساراً وتظل وتبطىء حتى توقف من تلقاء نفسها، وإلى أن يحدث هذا، فالموت في كل ومضة وقت. فقدت الجاذبية الأرضية وفي طريقي أنا إلى قلب الشمس.

* * *

وقفت بجوار العربة. أخيراً ثبت كل شيء. قلبي هاجع وكأنه هو الآخر توقف. حلقي جاف. السكون هائل الضخامة كأنه الكون. الأزيز متصل دائم. نملة رأيتها تناضل تحمل شيئاً بين ذرات الرمل القليلة فوق حافة الطريق. مروع ومذهول ورأسي ذائب في السكون نظرت إلى السماء إلى الأرض إلى مثبت الدقة في قلبي وبالحلق الجاف سألت هامساً: أهكذا يجيب الإله!.

سيف يد

حين استقر على الآن: بدأت الرعشة. ارتعاش الجسد غير مهم، الشفاه لن يستعملها، الأسنان لو حتى اصطكت سيكتم الصوت. المهم يده. أصابعه، قبضته، إنها ترتعش كما لم يحدث لها أو له في حياته ليس ارتعاشاً فقط، لكأنه الشلل الرعاش، فهو بالضبط وساعة قرر ليس في بدنه ذرة قوة. لو دفعه طفل حتى لسقط. فليكن القرار تم. فليكن تم. ما فائدته والتنفيذ هو القرار. لحظة التنفيذ هي الفيصل بين من كان ومن يريد أن يكون. قط لم يفعلها. قط لم يفكر في فعلها. وإنما عاش يرفضها، ينبذها، يشمئز منها. الآن قد أصبح تماماً بجواره. الرعشة تفضي إلى ما لا نهاية. اصفر وجهه لا بد. القرار يملأ ملامحه. واضح. محدد. صارم، لم يبق له إلا التنفيذ، والرعشة تلغي كل شيء. الدهشة تأتيه من العين الأخرى. دهشة تكبرها وتجسمها عدسات النظارة. لو تراجع ضاع. فلتكن المرة الأولى، ما أكثر ما نفعل أشياء نبدؤها لأول مرة دون أن يصيبنا كل هذا الرعب. فليضع العمر كله في الذراع. ولكن الذراع ثقيل ككتلة مسلح. العمر أثقله. وعليه، رغم الرعاشة، أن يدفعه إلى

أعلى، مرتفعاً به إلى أقصى ما يستطيع، ليفعلها لمرة واحدة في عمره، وليضع العمر كله في الذراع . .

ارتفاعه حاجب، لمحة نكوص ضاع التردد فجأة، فجأة أظلمت الأشياء، تلاشت، تمازجت وتداخلت وأصبح مع الأشياء كائناً كتلة لا يعرف أين هو منها أو أين هي منه. رعد أرعد. برق توهج. المؤكد أن اليد، قوية، مدوية، هبطت. الرعشة تحولت، حالما هوت، إلى ثقل صاعق. لأول مرة في حياته تصطدم كفه بصدغ رجل. ذلك الرجل. حتى وهو طفل لا يذكر أنه صفع أحداً أو صفعه أحد. الدوي استمر ومستمر. الارتعاش امتلأت به الآذان إلى درجة الصمم. فتح عينيه. الرجل بدا أبعد، وجهه أصفر بكثير عما يجب، أثر أصابعه على الصدغ السمين كالمرسومة بمداد أبيض، عيناه غاصتا فجأة للداخل، غاصتا أكثر بكثير مما تسمح به الملامح، قامته الطويلة بدأت تقصر، وماضية في القصر ـ هوسة فرح اندلعت. عفريت جني في داخل مخه عربد، قبل أي شيء آخر كان نفس ذراعه تلقائياً وإلى أعلى بكثير قد ارتفع. قامته هي الأخرى بدت أطول، أضخم، ولا لمحة لأي ارتعاش.

بكتلة ثقة مباغتة فاجأته هو أولاً أهوى. راعى أن تجيء أكثر إحكاماً، أن تصل هدفها وعيونه مفتوحة تستمتع وهي ترى أين وكيف تصيب. مؤلمة تماماً جاءت. مؤلمة له. فكأن أصابعه ارتطمت بكتلة من حديد. غورت أصابعه في العظم. أظافره مزقت الجلد. تلوى الألم. مكتوماً صدر عنه الصوت. مكتوماً أيضاً صدر عن الرجل

شيء، ليس كلاماً، ليس استغاثة، مجرد صوت، ذعر على هيئة صوت، ذعر شخص صادر عن حنجرة أصابها نفس الذعر. امتلأ بدنه بالثقة، بلغت روحه عنان السماء. كور قبضته، ثنى ذراعه، سيكيلها له في فكه. مذعوراً سبقه الرجل، من كتفه دفعه، تطوع ذراعه، جاءت اللكمة في العين تماماً. أحس بظهر أصابعه طراوة كرة العين. ماذا لو كانت انفجرت. السجن معناها. فليكن، ليكن حتى الشنق. حتى الشنق هو مستعد له. سيقتله. لن تحول بينه وبين قتله قوة. مهما جاع الأولاد فسيظل حمادة على الأقل فخوراً به. جرى الجبان والتف حول المكتب. يريد أن يهرب. فليهرب، وليحاول شنكلته. ولكن الرجل زاغ وفتح باب الدولاب وجعل منه ساتراً اختبأ خلفه. من الدولاب سحب أيضاً المسطرة الكبيرة. كالسيف شرعها. الشتائم من فمه بدأت تنهال، وكل مرة تزداد شتائمه سفالة وإيلاماً. رفع القدم، تراجع للخلف، استعان بالسيد البدوي وبالقوة كلها ركل الضلفة، توالت الأهات. آهات. شتائم آهات. آهات شتائم. عويل من السباب. خذ. ركلة أخرى. أعنف أقوى أشد إيلاماً. عشر سنين يا مجرم. عشر سنين أشكو لطوب الأرض واتحمل. تكرهني وأكرهك. تمقتني ولا أطيق حتى طريقة تفصيلك لبدلك. وكلانا في حجرة واحدة. الوجه في الوجه، والكره يملأ الأعماق، وعلى الملامح العليا تطفح البسمات والمجاملات. ولا مرة تبادلنا غيرها. عشر سنين وأنا اشتمك للناس جميعاً وأشكوك. وتشتمني أنت لبعض الناس للمسكين بمقابر الناس وتشكو مني. وعمري ما واجهتك بشيء أقصى من تحديقة وعيد أخرس، إذا أجبتني بمثلها، أسحب

تحديقتي فوراً وأعود أغلي وأبسم وأصمت. أحياناً، للكارثة، من فمي بدل الشتائم تنطلق كلمات الملق. بخبثك تعرفها وتدركها وتعلقها أمامي تريني فيها نفسي وأنا متلبس بالخضوع لك ومسح الجوخ والرياء. وترضى، وتبسم، بل وتتقمص الدور إلى حد أن تتصدق عليّ أنت الآخر في النهاية بكلمة نصف نفاق، إذ تمتدح بنصفها شيئاً تعرف وأعرف ويعرف الناس جميعاً أني لا أتمتع به. ناعم أنت وذكي، ودائماً على حق، ودائماً بالقانون تخرج على القانون، وتستطيع دائماً أن تحيل ظلمك عدلاً وقاعدة، وتحيل حقي وعدلي إلى خروج على العرف والقانون. حتى لو لم أخطىء، تستدرجني حتى أخطىء. فإذا بادرت بالتصحيح، أطلت لي الحبل لاستدراجي لأخطىء أكبر وأكثر. تكرهني مثلما أكرهك ولكنك أقدر على كتم الحب والكره والحقيقة، واليوم قررتها، قررت، من حمادة وليس من أبي أو خالي أتعلم، ويا جبان لن تنفعك المسطرة. أبداً لن تنفعك.

ناحيته اندفع. كالقط الآدمي قفز. هوت المسطرة بحدها الرفيع على أم رأسه. تخدر الجلد مكانها وانفلق العظم لأن السائل الذي يخترق جذور شعره لا بد هو الدم. بيسراه قبض على المسطرة. أمسكها. استمات الآخر. لواها. انكسرت. أمسك بالجزء المكسور كالخنجر وصرخ هامداً وهو يغرسها في كتفه. تمزق القميص وانبثق الدم الأحمر. حمرته فاقعة وكان دم الغضب. دم قليل ولكنه لون صدر القميص كله. مرآه الأحمر متغلغل في الأبيض

أثاره. كانا قد اقتربا حتى التصقا. فليأخذها إذن. بجانب الرأس كما سمع من حمادة، صوبها. (روسية) اصطدمت بفكه. سمع بأذنه اصطكاك العظم بالعظم. أسنانه هو أطبقت على لسانه وعورته، وتملح ريقه بطعم الدم. عشر سنوات ولا عشاء يمر دون واقعة يحكيها للزوجة عنه وأمام الأولاد الصغار، حتى كبروا، وهو لا يزال يحكي، كبروا. بالعقل توصيه. لأكل العيش تنبهه، تهدئه، تدلك غضبه، تتركه يمارس عليها الشخط والزجر ويتنفس. هنا فقط يتنفس. تنفس ذليل يعرف ولكنه بدلاً من انفجار المخ يفعل. حمادة السبب. أنت السبب يا حمادة. الواقعة بسيطة وكل يوم تجري. خناقة عيال. هكذا يسمونها. خناقة لا يطيق فيها ابنه ضارباً أو مضروباً. ولقد جاء هذه المرة ضارباً، وجاءت بالمضروب أمه. وكان لا بد من عقاب عاجل. وفر حمادة واختفى حتى جاء الليل وعاد ليجده ساهراً ينتظره. قبل أن يرفع عليه (الحذاء) طالبه بأن يمنحه الفرصة. هكذا العدل. ألم يعلمه أن هكذا العدل. أحرج. اترك الجزمة. استمع لمجرد الشك فقرار ضربه كان لن يتغير حتى لو الحق معه. وإيمانه الراسخ أن الضارب والمضروب حيوانان بهيمان لا يستحقان قلب الإنسان. هكذا سمع أباه يقولها مرة وسمع خاله كثيراً ما يضمنها حكمه وأمثاله: أنا أكرهه فضربته. ولماذا الكره؟ لأنه لئيم خبيث يشيع عني لدى الأولاد أنني لص: لماذا لم تشكه؟ لمن؟ لأهله؟ وهل يعاقب الأهل ابنهم من أجل أولاد الغير؟ من يعاقب الابن المخطىء إذن؟ أنا. أنت؟! أجل أنا. وكيف إن شاء الله؟ ناولته (سيف ىد ، فلكزني فضربته بالبونية وفي نافوخه فعضني وحاولت

إمساكه فطلع يجري فشنكلته بمقص، وقع، بركت فوقه ولم أتركه إلا بعد أن قال: أنا كذاب.

مد يده إلى الحذاء وقد جاء وقت العقاب، ليست هذه طريقة لمعاملة اللئيم، ولا مواجهة من نكره.

أمال كنت عايزي أعمل أيه يا أبي؟

اشتمه مثلما شتمك.

ولكنه لا يشتمني أمامي. جبان ماذا أفعل؟!

وهل يكون الرد بسيف اليد واللكمة.

وقذفة بالحذاء. أصابه في ساقه وجعله يعرج حتى بلغ الفراش. ولكنه هو لم ينم. أبداً لم ينم. سيف اليد والمقص والبواني كانت تتماوج في سقف عيونه المغمضة وتتداخل وفجأة وبين الحين والحين يندلق في سماء العين المعصمة ماء وذلك الوجه السمين المربرب الناضج أبداً بالعرق.

أصبح بينهما المكتب مرة أخرى، نفس المكتب الذي كان دائماً بينهما في الصباح هما على طرفيه ممتلئان بابتسامات الزيف وفي العمل يفصل بين المقالب التي يدبرها لمرؤوسه، والعرائض والشكاوى المجهولة التي يدبرها لرئيسه. والآن هو موجود ولكنه لا يحول بينهما، بعده انطلقت صفعة يده كلها بوجهه، باصبع واحدة فقط صفعه، فالآخر كان قد استدار وامتلكه وإلى صدغه وجه صفعة قوية مليئة متمكنة. أبرقت الدنيا في عينه وصفرت أذنه. أيكون هو الآخر كان ينتهز الفرص لينفجر. هذه (بونية) تصيب أذنه، من المؤكد

خرقت الطبلة. يا ندل تأخذني على خوانة ـ هكـذا سمعه. خـذ وخذ وخـذ وخذ. لم تعـد علقـة نـوى أن يعـطيهـا ويفض يـده منـه ومنهـا أصبحت معركة تكـاد تتعادل، الآن فقط يتـأكد أن الآخـر ليس جبانـاً بـالدرجـةالتي كان يتصورها .ذعـره الأول أصبح واضحـاً أنـه ذعـر المفـاجأة ليس إلا، الآن هو يطلب العراك. وعليه عقد العزم. ما تصوره هكذا أبداً،طول عمره يراه فأراً رعديداً لا يحتمل الصمود لمجرد سباب وإن كان يبدو في قوة الأسد. ولو.حتماً سيـأكلها. فأر أو أسد سيخرج منهـا بعاهة مستديمة على الأقل. بجماع قـوته لكمـه. انثنى الآخر وتـأوه. وتلذذ. بركبته رفعها كالطلقة شلفطت وجهه وأسـالت الدم من أنفـه. اعتدل. طار صوابه واعتدل. عيونه يشع منها بـريق الشر والجـريمة. كالثور الهائج أقبل، إلى اليمين زاغ منه. ولكن لان ذراعـه أول نالـه وبضربة من قدمه هوى على الأرض كالكتلة. المقص أصـابني أنا يـا حمـادة. فلم أكن الأسـرع. الـركـلات تنهـال كـالمـطر، الجبـان، بـالحذاء. يسـددها لـوجهه، فقـد العقل، فقـد الاحساس بـالضـرب والألم. همـه أصبـح أن يغلب، لـو مـات حتى قـد غلب أو غـالب لما همه. المهم أن يخرج من الصراع غالباً، ولو ممزقاً أرباً يخـرج، أمسك بالقدم، الضربة إلى صدره، بشدة أمسكها بيديه وبقوة عظمى ثناهـا. سقط الآخر يتلوى، يتـأوه، اندفـع يرقـد وبيـديـه يحيط رقبتـه السميكـة عازمـاً أن يكتم للأبـد أنفـاسـه. اختنق الـوجـه بـالاحمـرار وبحلاوة الروح دفع أصبعه السبابة في عينه. المجرم. لنكن مجرمين أصبحنا. إما قاتل أنت أو مقتول. الرعب أمـده بقوة أعـظم. تخلص من الأصبع. رعب آخر جعله بانتفاض يديه بعيـداً حتى ليرتـطم رأسه

بحامل الخزنة بل وتسقط على قدمه. تماسكا ظلا يتضاربان، حتى لاحت فرصة وأمسك لحم كتفه بأسنانه. بأنيابه، بكل ما يملك من حقد وغيظ، وجنون وفتوة أنشب فكيه في لحمه. أحس بطعم اللحم نفسه من خلال حرف البدلة، صراخ آخر مكتوم لم يعد يعادله إلا ضرباته. ضربات وحش لا يرحم، عينه يحس بها أغلقت تماماً ولم يعد يرى بها، أنفه تورم وبالتأكيد تدشدش، دم الآخر سال، وبدأ يصرخ وبدأ هو الآخر يصرخ، الضرب اشتد وعنف وتشعب أهو يضرب أم يضرب، أهو المهزوم أم المنتصر، كل ما أصبح يحسه أنه متعب وأن التعب يتكاثر عليه حتى لم يعد يقوى على أخذ النفس. أصبح همه كله أن يتنفس لم يعد يتنفس. الهواء لا يدخل صدره. غير قادر أن يحرك الضلوع ليدخل الهواء. على الأرض تمدد بغير حراك، سكون، وهناك حين استطاع بطلوع الروح أن يعود يلتقط النفس، بدأ يدرك أن الآخر أيضاً لا يضرب، وبنظرة لمحه مكوماً أسفل ركبته، مغمض العينين، بدأ بالكاد يلهث بالنفس. كتلتان من الأنسجة المبعثرة والملابس الممزقة وبقع الدم ممددتان على الأرض في مكتب ليس به سواهما بعد ظهر ذلك اليوم.

من مكانه راح يرمق الآخر. عشر سنوات وهو بغير الحقد لا يرمقه. من مكانه راح ينظر إليه ويتأمل. إنه لأول مرة يرى قاع رأسه ويدرك أن الشعر في منطقة قمة الرأس خفيف تماماً، بل يكاد يكون بلا شعر.

ووجد نفسه يتمتم: من كان يتصور هذا. بعد عامين على الأكثر سيكون الصلع قد شمل رأسه كله. مسكين.

حكاية مصرية جداً

تلك اللحظات القليلة، غريب يلتقي بغريب، وكل منهما يلعن الحظ بطريقته، ويتلاءم أو يتصارح، بطريقته أيضاً.

ذلـك السـائق الـطيب. سمين وملظظ وأب لثلاثـة طلبـة في الجامعة، ويجيد رواية الحديث والنكتة.

قـال: كنت سـائـراً قـريبـاً من شيـراتـون، وفجـأة في تقـاطـع شارعين، وجدت شحاذاً مقطوع الساقين يعترض بجسده (أو بالأصح بالباقي من جسده) طريق العربة. وقفت. وفـوجئت بذلـك الإنسان، وبقدرة هائلة كقدرة القرود والزواحف، يقفز من حيث كان أمام العربة إلى حيث الباب المجاور لي ويفتح الأكرة وينزلق بجسده إلى جواري وهو يلهث ويقول: اطلع يا اسطى.

أطلع ازاي. قلت لـه. معقـول أن أعـطيـك حسنـة. أمـا أن أوصلك حسنة فهو ما لم يسمع به أحد قال: يا اسطى أنا عـايز أروح شبرا الخيمة أو شبرا المظلات، من فضلك وصلني. أنا زبون ولست شحاذاً اطلع بسرعة. . أرجوك.

ترددت قليلاً ولكن إلحاحه الشديد. . ثم قبضة النقود التي أخرجها نصف إخراجة من جيبه أقنعاني أن أطلع. وطلعت. سرت على كورنيش النيل أتأمل الزبون. . ملابسه مقطعة، جسده قذر، شاب لا يزال ولكن شعره منكوش بطريقة تضيف إلى عمره عشر سنين. ولعب الفأر في عبي مرة أخرى فأوقفت السيارة وقلت له: أنت إيه حكايتك بالضبط. مش ماشي إلا لما تقول لي.

قال: تشرب كوكاكولا. .

ونادى على بائع الكاكولا، ودفع له في الزجاجتين عشرة قروش بسخاء وشربناها. قال: اسمع يا سيدي. . أنا شحات. .

قلت في سري: هذا يبدو واضحاً. .

قال: وأنا أريد أن آخذ تاكسي مخصوص لأهرب من العسكري.

سألته: قصدك شرطة مكافحة التشرد.

قال: لأ. . عسكري المرور.

قلت: وما علاقتك بعسكري المرور وأنت شحات؟

قال: علاقة عمل.

قلت في سري: أي عمل هذا الذي يربط بينك وبين عسكري المرور؟

قال: أيوه. . علاقة عمل.

وأخبرني بالقصة. . قال:

ـ من يوم أن قطعت ساقاي في حادث مترو بدأ ربنا يفتحها

عليّ، وبدأ الناس كلما رأوني زاحفاً على الأرض من تلقاء أنفسهم يعطونني، وبدأت أطلع في اليوم بخمسين ستين قرشاً، وأقول نعمة. ولكني بدأت أفهم وأوعى وأعرف أنني أمتلك رأس مال. ساقاي المقطوعتان رأس مال لا بأس به أبداً لا بد أن أشغله. وهكذا بدأت أتقن انتقاء الأماكن، وأعرف طباع السكان والمارة في كل حي من أحياء القاهرة. الغريب أن الذين كانوا «يعطفون» دائماً عليّ هم: إما الفقراء جداً أو الأغنياء جداً. أما متوسطو الحال من أمثالك فالظاهر أن الرحمة صعبة الوصول إلى قلوبهم تماماً. ولكني أيضاً بطول المزاولة اكتشفت أن الذين يعيشون في مصر تتيبس الرحمة في قلوبهم بعد قليل من كثرة ما يرون، أما القادمون الجدد فهم الذين لا تزال قلوبهم، وجيوبهم أيضاً، عامرة بالمال والرحمة.

وهكذا كان لا بد أن أعثر أخيراً على ذلك الركن القريب من الفندق الكبير الذي ركبت معك من جواره. مكان وشغلانة لوكس. الركن إشارة. تقف العربات عند النور الأحمر، في سرعة أكون قد مسحت ركاب العربات الواقفة وسائقيها قبل أن يضيء النور الأخضر وينطلق المرور. . ولكني اكتشفت أن الإشارة لا تستمر طويلاً بحيث لم أكن أتمكن من تكملة مسح العربات كلها. وهكذا في يوم ذهبت إلى العسكري الواقف عند الإشارة ولم يأخذ الأمر سوى كلمتين اتفقت معه بعدهما أن يطيل من فتح النور الأحمر حتى (أمسح) العربات كلها وحين أعطيه أنا (إشارة) من رأسي أن كله تمام يفتح هو (الإشارة).

يا ابن الإيه. هكذا قلت له. وقلت لنفسي أهذا هو السبب إذن في غياب تلك الإشارة وربما غيرها من الإشارات؟.

ووجدتني أسأله: وكنت تعطي العسكري.

قال: طبعاً.. خمسين ستين قرشاً كل يوم.

ـ أمال أنت بتطلع بكام.

ـ مش كله.. اتنين تلاتة.. ممكن أكثر شوية خمسة ستة في يوم المرور زحمة.

ـ طب والنهارده.. مالك هربان ليه؟ إيه اللي حصل؟

ـ النهارده يوم موسم كل سنة وأنت طيب. والشغل كان على ودنه، وقلت أهرب قبل ما بيجي العسكري يشاركني فيه.

ولكن (هكذا قال الأسطى) تفكرت في الموضوع وقلت له:

ـ طب ما هو العسكري بكره ح يقفشك يا حدق.

ونظر لي بابتسامته الشابة الحدقة المصرية الساخرة وقال:

ـ لا.. بكره فيه عسكري تاني باتفاق تاني.. ده كان آخر يوم للعسكري ده في الحتة دي.

قال الأسطى: كنا قد وصلنا المكان.. عندك يا اسطى وقفت. كان الحساب ٤٣ قرشاً. أعطاني خمسين قرشاً.. سبعة قروش بأكملها بقشيش وقال لي: لو تبقى كل يوم تعدي على الإشارة دي الساعة عشرة كده وتوصلني ح أديك خمسين قرش.

عن الرجل والنملة

بعيون فاغرة فاها رحنا نـراقب الباب وهـو بالعصبيـة. الشديـدة يفتح والكتلة البشرية تدفع من خلاله لا نتبينها إلا حين فقط تستقر في ركن الزنزانة الفارغ. حتى السباب المعتاد الـذي كان لا بـد يصاحب الفتـح والإغلاق والتكـويم، من فرط الـدهشة، لم نتبينـه إذ قد حـل الصمت لا نجـرؤ على قطعـه مخافـة أن يجد جـديد وأن يكـون وراء البداية ما وراءها.

يتغامق الظلام في العادة بعد التمام. الخامسة بالضبط موعده. النزلاء صامتون لمقدمه إذ المفروض أن يحل الصمت ليتمكن حراس الليل من التغيير مع حراس النهـار ويتمكن شاويش النهـار من تسليم شـاويش الليل، صمت يهيىء للصـراخ أن يتعـالى إذا حـدث الخطأ وأفلت نزيل من الإحصاء وارتبك العـدد. الباشـاويش هو المخـطىء ولكن الشتائم تنهمر فوق رأس النزلاء، وثمة جرى، وصوت الكوالين الحديد يزأر وأبواب أخرى تنهمد حتى لتكاد تدك الحـائط الحجري، وأخيراً، يجري الأزيز النهائي لمفصلات باب العنبـر الكبير، وتخفت الأصوات مع الأقدام مبتعدة، ويحل الصمت. ويستمر، للتـأكد أنهم

جميعاً ذهبوا، وأن النهار المتعب انتهى. ثم، وكأنما فجأة، تنفجر من الصدور الزعقات والقهقهات والشتائم مكونة مولد المغربية المعتاد.

السكوت في النهار طوال النهار أحد الأوامر المتعارف عليها الصارمة، الألسن تتيبس في الأفواه لقلة ما تتحرك، الحناجر مخشوشنة من فرط السكوت، فقط حين تذهب قوة النهار ويترك العنبر في حراسة ثلاثة حراس ليل عواجيز في الغالب، قريبي الإحالة إلى المعاش، فقط حين يطمئن الجميع إلى ذهاب الجميع يفرج كل نزيل عن لسانه ويبعث الحياة في شفتيه وفمه وصدره، ويزعق، ويشتم، بكل ما يملك من قدرة وقوة يصرخ ويشتم وكأنما ينتقم من السكوت وأوامر الشلل ويزاول الغريزة التي طال حبسها، غريزة أن يشتم ويشتم، فمن فرط ما يتلقى النزيل من شتائم طول النهار وهو عنها ساكت وبالأمر متسامح تتكون له فعلاً غريزة الشتم تنهال بها كل زنزانة على الأخرى ويتبارى في مزاولتها الجميع، بفن وخلق وابتكار، لأسماء الأم وجسدها يختلق ألف تعبير وتعبير.

في أحيان قليلة جداً يحدث، أن فجأة، يدور المفتاح في قفل الباب الكبير ويفتح العنبر، وهنا، وفي لمحة خاطفة واحدة يتسمر كل شيء في مكانه ويحل أعمق وأغرب صمت. . صمت الترقب الرهيب لما عساه يكون السبب في فتح الباب.

وتتعدد الأسباب وتكثر، وذات مرة تجد السبب باب زنزانتك نفسه وهو لروعك يفتح وكتلة بشرية ما، تنزلق، ليعود الباب ينغلق.

قبل أن تسأل أنت القادم أو يفتح هو من تلقاء نفسه فماً للكلام تنهمر مئات الأسئلة من قريب ومن بعيد ومن أقصى الدور الثالث نفسه تتساءل عن حكاية هذا الذي دخل، فلا تدخل بعد التمام إلا حكاية مهولة، لا بد في الحال أن تعرف، وهكذا إن لم تبادر وتجيب، حتى قبل أن تعرف أنت ما هي الإجابة، تنهمر عليك أنت الشتائم هذه المرة وتؤرق عظام أمك وأبيك وأعضائهما أحياء كانوا أم أمواتاً. قفص حياة رهيبة يتولى فيها أناس حبس أناس وخنق أناس وضرب أناس وحشدهم وتكديسهم هكذا في علب محبوكة من الزنازين والحجرات.

ـ ما بك يا عم . . خير . .

سمعت أنا وحمزة البسيوني . . زميلي في الزنزانة الذي تصادف أن اسمه يشبه اسم قائد السجن الحربي حيث تتم كل ألوان التعذيب، تشابه كان يجعله وبالتالي يجعلني هدفاً لتعليقات ونخزات وتعذيب لا حد لها.

ـ مالك يا عم مالك . .

قالها حمزة هذه المرة، بأمل أن يجيب القادم. ومكوماً في الركن لا يتحرك كان لا يزال. الأسئلة تترى تخترق باب الزنزانة المصنوع من قضبان متوازية من حديد، لا إجابة، والنتيجة سيول من الشتائم تلعنني وتلعن حمزة. ما أغرب قدرة الإنسان على تعذيب نفسه وتعذيب الآخرين إذا وقع عليه عذاب لا يملك منعه. معذبون

يعذبون معذبين. ما أبأسه من محبس داخل محبس وعذاب في لب عذاب.

لا رد ولا تحرك ولا كان بادياً عليه أن سيرد. أيكون ما نسمعه منه ليس تنفساً عميقاً إن هو إلا نشيج وبكاء، بكاء الصامتين لا حول ولا قوة، وجدت أنفسنا نقترب من الرجل نحيط به مشفقين. أيدينا نطبْطب عليه ونستخرج كنزنا الثمين، الشمعة الوحيدة التي نملكها وندخرها للحظات الحاجة القصوى، أشعلناها. بضوئها الذي بدا باهراً، مددت يدي ورفعتها من الكتف إلى الرأس أعدله وأرى الوجه.

كدنا نموت أنا وحمزة رعباً فكلانا طبيب ونعرف ماذا تعنيه تلك الصفرة المتكاثرة المتشاحبة التي لونت الوجه. الحدقات الواسعة المفتّوحة وهي تمعن النظر في الفراغ وفي اللاشيء. ما لم ننبهه مات. انهلنا عليه بالأسئلة نستفسر إن كان قد ضرب وأين ضرب وفي أي مكان من جسده يؤلمه أكثر. قسنا النبض وعددنا مرات التنفس. الصدمة فعلاً واضحة ولكن لا أدرى أي إصابة في الجسد، لا جرح، لا خدش، لا بطن، منفوخ، لا شيء.

وتنفيذاً للمعاهدة المعقودة مع الحارس الليلي ساومناه على كوب القهوة. أصر على عشر سجائر ونحن لا نملك إلا علبة. وافقناه على مضض كثير. أخيراً أصبح في يد الرجل كوب قهوة معجز المذاق في تلك اللحظة، وسيجارة (وينجز) بأكملها، وعلى ضوء الشمعة دماء قليلة بدأت تسري في الوجه الخراب، همهمة، تمتمة،

تنهدات الكل يختلط بالكل والكلمات بالأصوات والإشارات ورفض أن يفصح .

نلج بكل ما نملك من طاقة الحاج، والرفض البادي على هيئة صمت هو وحده الجواب. تشاورنا أنا وحمزة، نتركه؟ نخفف الوطأة عنه؟ نترك كل شيء للصباح؟ ولكن حب الاستطلاع فينا لا يمكننا نحن أنفسنا مقاومته، والإلحاح، إلحاحنا وإلحاح بقية الحجرات والزنازين كلما احتمى الرجل بصمته، وتداخلت رغبته في الإفضاء كما يتداخل حيوان القواقع إلى عمق القوقع كلما شعر بلمسة الأصبع. وبكل نعومة رحنا نداعبه، ثم، فجأة، تركناه. .

تركناه. .

حتى كاد يغلبنا النوم. وكل الألسنة المطالبة في الخارج قد سكنت.

ـ هل سأموت؟

رفع الرأس فجأة بالسؤال وكأنما إجابة متأخرة جداً عن قولنا له: نحن أطباء، لا تخف. فضفض حتى تستريح، ولا تخف، فنحن نريد مصلحتك، نحن أطباء.

ـ هل سأموت؟

ودون أن نتفق، لم نجب. رحنا فقط ننظر إليه ولا نجيب فما كنا نريد تطمينه حتى لا يؤوب إلى سكوته وفي نفس الوقت لم نكن نريد إزعاجه حتى لا يتمسك بموقفه.

فجأة وجدت حمزة ينفجر فيه غاضباً مؤنباً إياه على هذا الموقف الطفولي الذي لا معنى له بالمرة. معتقل سياسي. ألست كذلك. كان واضحاً من ثيابه المدنية أنه ليس مسجوناً. إذن لماذا هذا التثبث بالصمت. أخائف هو على نفسه، وماذا يمكن أن يحدث له أسوأ من هذا الذي حدث والذي جاءوا به إلى هنا بسببه وعلى تلك الحال القريبة من صدمة الموت.

فعلاً.. يعني ح يكون جرى لك إيه؟

بعمق تنفس وتنهد وقال ببطء ونظراته تعود تنغمس في الفراغ:

ـ أوحش شيء على ظهر الأرض.

وكدنا نبتسم في رثاء.. ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟

عاد يقول: أوحش شيء على الأرض. حدث لي ما لم يحدث لبشر. ومرة أخرى استخففنا بكلامه.. وكدنا نقهقه. سبعة عشر شهراً ونحن في هذه الزنزانة معاً. سجن مصر محطة يتوقف القادمون من السجن الحربي في طريقهم لطره وأبو زعبل والواحات، والقادمون من تلك الليمانات في طريقهم للمستشفى أو للإفراج أو لعذاب آخر في السجن الحربي. وارد وصادر وحركة دائبة جعلتنا نصادف كل ما يمكن أن يخطر على البال من تهم ومتهمين ومعتقلين وأسباب اعتقال، وتعذيب، ومعذبين. النفخ والضرب وكي نصف البطن الأسفل وهتك الأعراض وكل شيء، ولم تبق وسيلة لم نعرفها أو يأتي لها ذكر. وكل منهم.. مثل هذا القادم.. يعتقد أنه الوحيد الذي حدث له هذا أو مارسوا معه ذاك.

ماذا يمكن أن يكون قد وقع له؟

ـ أوحش شيء على ظهر الأرض.

ـ ماذا مثلاً؟

ـ أوحش شيء على ظهر الأرض.

ـ نمت مع نملة. .

وانفجرنا ضاحكين.

قطعاً هو لا يبدو مختل العقل وإن كان واضحاً أنه في طريقه لاختلال عقله. وبوجه جاد صارم يحمل كل ما في هذا العالم من ندم يقولها. نام مع نملة. وانفجرنا ضاحكين.

وإلى الصباح التالي ظللنا نضحك. ونتذكر ملامحه وهو ينطقها فتصاب معداتنا بالمغص من فرط ما ننحني ونضحك.

وعلى رأي كليلة ودمنة قلنا له في الصباح التالي ـ وكان تقريباً لا يزال على نفس جلسته وقرفصته وانكماشه على نفسه. . وكيف كان ذلك يا أستاذ.

لم يكن تبدو عليه سيما المعتقلين السياسيين. معظمهم كانوا مثقفين. حليقي اللحية والشارب، خريجي أو طلبة جامعات. هذا كان له شارب، أصفر وغزير ومتهدل على شفته العليا يكاد يلامس السفلى. وجهه خشن لا بد من كثرة مزاولته عمله خارج المكاتب والمنازل في الخارج حيث الريح والتراب ولفح الشمس. في الحقيقة لم نفاجأ حين قال لنا إنه عمدة. حين تستخرجها من الحالة التي كان

عليها، والسكينة التي آلـت إليها ملامحـه وقوامـه، وتفرده، وتـوقفه، وقصيرة سيرته الأولى ويتبدى لك على حقيقته تجد أنه حقاً وصدقاً لا بـد كان واحـداً من أولئك العمـد من طـراز: اخـرس يـا ولـد. شهم كريم،يذبح للضيف خروفاً إذا رأى،ويسافر إلى آخر الدنيا تلبية لنـداء مستغيث. عمدة ومعتقل سياسي. جديدة جداً هذه المرة. والنكتة أن يكون شيوعي مثلاً ومن منظمة (ح.م) المغالية في شيوعيتهـا واتهامهـا لكـل الشيوعيين الآخـرين أنهم عمـلاء للبـوليس السيـاسي. الأقـرب للمعقول أن يكون واحداً من أعضاء الهيئة الوفـدية فليس هنـاك عمد في تنـظيم الاخوان المسلمين، ولكن، لا تعجب أبـداً إذا اتضـح في النهاية، أنه ماركسي يؤمن بالمادية التاريخية وربما قد قرأ رأس المـال واللينينية.

في الليلة التالية سـاءت حالتـه وارتفعت درجة حـرارته وأصبـح نبضـه ١٤٠، وبدا وارم الـوجه مختنق السحنـة وكـأنـه سينفجـر بعـد قليل، انهلنا عليه بالأسئلة لنعرف منه ذلك الذي وصفه بأنه أوحش ما في الدنيا.

وتكلم..
متقطع الأنفاس.

أخـرج من صديـريه البلدي الـداخلي علبة سجـائـر (كرافن أ) عشرين سيجارة كـاملة، وعزم علينا. ولـم نصـدق أنفسنا ونحن ننفث دخان الكرافن وبكل ما نملك وما أصبح لنـا من طول بـال نصبر على

كلماته التي تخرج بعد عناء، ولهاثه بين الكلمات.

تكلم..

بدأها من منتصفها، أو من حيث بدأ يهتم هو بها، لا نعرف. قال: هذا الوغد، يونس بحري. قتلني. بالأمس فعلاً قتلني، وسأموت، ولكني لن أموت قبل أن أغرس أسناني في زوره وأقضم حنجرته ابن الانيتة هذا.

جالسين وفي أمان الله وبعد يوم شاق من تكسير البازلت وحمله في المقاطف والسيربه نصف كيلو، من السابعة والصخر فوق أكتافنا والرمل في عيوننا وأفواهنا وأقدامنا العارية ينغرس فيها الشوك والزلط والمسامير، وجلست آخر النهار، قبل طابور العودة نستريح. وكانوا ثلاثة ضباط أحدهم هذا الخسيس يونس بحري. ناداني. منذ أن رآني ورأيته وأنا أشفق عليه وعلى نفسي أن يناديني. ناداني. تلكأت ولكني قلت أقصر الشر وألبي نداءه. ذهب. وقفت. تركني واقفاً واشتبك في حديث فاتر مع زميله. قلت: أفندم. رمقني بنظرة، ثم عاد إلى حديثه الفاتر. اللهم طولك يا روح. قلت، وعزمت أن أؤجل أي اشتباك فجسمي مهدود ولن يحتمل أي ضرب. والبداية واضح أنها ستنتهي بضرب. أقصر الشر يا ولد. واصبر.

هناك، بعد ربع ساعة أو أكثر. التفت ناحيتي وقال: روح هات نملة من هناك. وأشار إلى كومة تراب قريبة.

صحا مخي من غفوة الوقوف وخيل إليّ أني لم أسمع جيداً وسألته: أجيب ماذا؟

هب فيّ صائحاً: نملة، . . ألا تعرف النملة يا بن الـ . . ؟
سكت .
مرة أخرى: تعرف النملة واللالأ .
قلت بتسليم : أعرفها .
قال وهو يلتفت إلى زميله : روح هات نملة .

طول الله روحي وذهبت إلى حيث أشار، وتفرست في كومة التراب ملياً حتى وقعت عيني على نملة حمراء كبيرة نسميها في بلادنا حرامي النمل. انقضضت عليها بقبضتي ودون أن أفعصها أمسكتها في قبضتي وعدت بها.

ووقفت أمامه وقلت: أهه النملة يا أفندم .

ـ وريني .

فتحت يدي كان . . رآها . . قال:

ـ ولازم تجيبها حمراء هي رخره يا بن الـ . .(. . .) الشيوعية .

عضضت على شفتي السفلى ، لا بد أنها جرحت. وسكت بنظرة من أسفل إلى أعلى رمقني وقال:

ـ دي ايه؟

قلت ببراءة ما بعدها براءة: نملة يا بيه . .

قال . .

خيل إليّ أني حقيقة لم أسمع فقد كان الطلب الذي طلبه غريباً جداً وغير معقول بالمرة، سألته : أفندم .

قال: اخلع هدومك . .

ـ نعم . .

أشار لحامل الكرباج وزميله حامل الشومة .

رفعت يدي مسلماً قائلاً: حاضر يا بيه . . اخلع هدومي ولكني ترددت . . نظرت حولي بركن عين . . طابورنا المنكود الحظ قابعاً كصفين من طابور ذباب الكدح والزق والزجر. في دائرة واسعة رهيبة يلتف حوله سور من عساكر يحملون الأسلحة الأتوماتيكية بكافة ألوانها، قريباً منه تناثرت فرقة الضرب تحمل الهراوات والكرابيج والنبابيت والأحزمة والقضبان الحديدية. أنا واقف وحدي ويونس بحري مقع على كرسيه أمامي. ولا مفر.

استنهضني بشخطه ولما كنت كما قلت قد قررت أن أؤجل الاشتباك فقد مددت يدي الأخرى وبدأت خلع جلبابي، وخلعت الصديري، عارياً كما ولدتني أمي أمامه.

ـ قلعت هدومك . .

ـ زي ما أنت شايف يا بيه . .

ـ طيب (. . .) النملة اللي في إيدك دي .

خيل إليّ أني حقيقة لم أسمع، وكيف أسمع، وما طلبه لا يمكن أن يمر إلا من عقل مجنون، حتى المجنون نفسه يخجل أن يطلبه .

ـ نعم . .

الكرباج مرفوع فوق رأسي والنبوت يهيأ للانقضاض ويونس

بحري تجمدت نظراته النارية على هيئة الأمر الذي أمره، والدنيا، وسور العساكر حاملي المدافع، والطابور، والبازلت والجبل والصخر والطريق، وكل شيء سكت وصمت وتآمر يستحثني أن ألبي.

انتفض الفلاح الخبيث الذي فيّ يقلب الموقف الجاد الرهيب وقلت فجأة:

ـ بس دي دكر يا بيه..

لم يضحك، ولا أحد من القريبين أو البعيدين ضحك، بكل صرامة قال: روح هات واحدة نتاية.

وكالذي نومه المنوم المغناطيسي استدرت وقصدت كومة (التراب) وعسعست بيدي. طبعاً كان أول ما خطر لي أن أبحث عن نملة اثنى، ولكني كدت أضحك من نفسي لأني انسقت وراء المشهد فعلاً وأخذته جداً، وسألت نفسي: كيف أعثر على الأنثى، وما الفرق بين النملة الذكر والنملة الأنثى، بل هل توجد نملة أنثى ونملة ذكر. المقصود عدت إليه ووقفت أمامه وفتحت قبضتي على نفس النملة وقلت: ها هي نملة أنثى.

قال: يالله..

ـ يالله ماذا:

سألته. قال:

ـ تاني.. اسمع..

وفوجئنا بجعجعة أوامر تقرقع، واقترب سور العساكر حتى أطبق

على طابور المعتقلين، واستقر أفراد فرقة الضرب فانتصبت واقفة مشرعة أسلحتها الفاتكة الرهيبة، وهوى الكرباج من خلفي وسمعت صفيره وهو يشرخ الهواء كالسكين القاطع مغوراً في جلدي ولكن يونس بحري تلافاه، في آخر لحظة وأمسك باليد المهوية وقال بصوت مخيف صوبه إلى كل إذن تسمع: اسمع.. أنا لا أريد ضربك.. فأنا أعرف أنك من النوع الحميري الذي لن يؤثر فيه أي ضرب أو تعذيب ولكني سأضرب تلامذة ابتدائي هؤلاء..

أشار..

والحراس يعرفون إلى من يشير. فقد كان ثمة خمسة صبيان صغار لا يتجاوز أيهم السادسة عشرة، معنا في الطابور، إذا ضربوا يصرخون بل يصوصون كالكتاكيت المذعورة وتغور صرخاتهم في لحمنا الحي بحيث يصبح أهون لأي منا أن يقطع بالسواطير ضرباً ولا يسمع صرخة الواحد منهم..

جزعت والحق يقال، وسقط قلبي في قدمي مخافة أن ينفذ الوعد. يا عم يا يونس ما كنا قاعدين في أمان الله، ماذا دار في عقلك النجس ليقلب سلامنا هذا إلى لحظة الرعب هذه حتى ليبدأ الجو يحفل برائحة الدم واللحم المفروم..

تطويل الروح لم يعد يجدي. ماذا تريد يا أيها القومندان.

ـ يا لله.

ولأنني ضامن أني سأكون على حق في تساؤلي رفعت صوتي مستغيثاً مستعيناً بالله من هذا الهول الذي لا أعرفه: إزاي بس يا

بيه . . أنا في عرضك . . إزاي .
ـ زي الناس . . هكذا قالها .
ـ زي الناس إزاي . .
ـ زي الناس يا ابن ال . . ويا بن ال . . ماذا تفعل الناس؟
ـ ولكنها تفعلها مع الناس والإناث الكبار، وهذه نملة . .
ـ ولو . . اعتبرها ناس . . اعتبرها إناث . .
ـ حاضر . .
قافزاً الفلاح الخبيث إلى نجدتي مرة أخرى قلت:
ـ حاضر يا بيه . .

وعملت أني فعلاً أزاول ما أمرني به . . وأنا، زيادة في الاندماج، قد رسمت على وجهي ابتسامة سادة. استيقظت منها على صوت نبوت يشرخ، يشرخ الهواء. ويشرخ ظهراً من ظهور (التلامذة) إلى جواري. التفت على الصرخة، أهذه صاعدة من عظام الأقدام لكائن حي إنسان صغير يتألم؟!. انفجر قلبي وتدفق منه الدم الفائر غصةً ولوعةً.

ـ لا تمثل يا بن الكلب . . اندمج . أتضحك عليّ . . اندمج . . أنت خالع الآن ملابسك وهذه أنثى ، نملة مش نملة لا يهم . . هذه أنثى . . اندمج . . وسأراقب وجهك وملامحك . . وأقسم برحمة أمي إن لم أرك تفعل ما قلته سأشرخ تلاميذك وأنت وكلكم معه . . وأنت تعرف وكلكم تعرفونني . .

وكان واضحاً من وجهه المسمر بالجديري القديم أنه لا يهزل،

حاولت أن أجد فرجة احتمال أو عشر احتمال للتهاون فلم أجـده هذا إنسان مجنون وقـد تقمصته حسـاسية المجـانين للحقيقة ولن يصـدق غيرها ولن أستطيع أبداً خداعه وعليّ أن أفعلها. حاولت. ولكني في منتصف المسافة استدركت وطلبت منه العذر.

وجمعت نفسي وبـأقصى ما أستـطيع من قـدرة على أمر النفس أمـرتها. أحسست أن شهبـاً كشهب الجنون تتـراءى لعيني، ومن فرط الانضغاط بدأ العقل في مخي يطقـطق. مجنون أمـر، وأمر مجنـون، ولا بد أن أستجيب، ومجنونـاً لا بد، لكي أستجيب، أن أصبـح. أنا فعـلاً رجل ضخم، وهـذه نملة، وبكل كيـاني عليّ أن أصغـر نفسي وأستحيــل من إنســان إلى حشــرة، وعليّ التخيـل أني ذكــر نملة، تستثيرني أنثاي أنثى النملة، وأنام معها. وكلما فشلت، كلما توقفت، كلمـا غام وعيي بالمشهد وبـاستحالـة التحول. . وأحسست التهـديـد يحـوم كغربـان البين حول التـلامذة الصغـار وحول الـطابور أتصــاغـر وأتصاغر ويكسوني العرق وتطقطق عظامي وتتدشـدش دون أن تصبح كفي في حجم سـاق النملة، وسـاق النملة لا يكـاد يـرى ولا بــد أن أهــوى بوعيي وبــإرادتي على كفي وكتفي ولحمي وعـظمي ورأسي وبـطني وسـاقي وعنقي وأدق وأصغـر كي أستحيـل ذكـر نملة، أفـرز هرموناته،وأجعلها بالقوة القاهـرة تستجيب لهرمـونات أنثاي القادمـة، مستسلمة، في يدي. هكذا، رأيتها، بألف عين دقيقة لي تكونت، قد استجابت، وكفت عن الحركة، ووقفت واضطجعـت. لـو كانـوا قد عذبوني وقـطعت الجبل كله، لـو ربطوني إلى ذيـل حصان جـرى بي

القطر كله من أقصاه إلى أقصاه، ألف جلدة، لو فعلوا ما هو أكثر وأكثر لما أحسست بربع معشار مما مر عليّ من عذاب حتى أفلت الزمام ولم أعد أستطيع الكف وجسدي يمضي يتصاغر ليصبح نملة ويستمر نملة ويعيش ويحب ويزاول الحب نملة.. وعند لحظة النهاية فقدت الوعي..

قالوا لي إنهم حملوني حملاً إلى الليمان.

وإنهم خافوا من صراخي أثناء الليل واستجار الزملاء من عضي وتمزيقي لملابسهم وملابسي، وحملوني إلى مستشفى سجن مصر، ومن هناك إلى هنا.. وهمس لي التومرجي الأسمر العجوز وأنا في الطريق إليكم أنهم يفكرون في الإفراج الصحى عني.. ولو ما الفائدة، وقد نمت مع النملة واعترفت، وكان الذي كان..

ولأن لا أبشع في السجن المنتظرين المحاكمة من كلمة اعتراف، فقد وقفنا على أطراف تحفزنا أنا وحمزة ونحن نسأله بماذا اعترف ولماذا اعترف.

قال وهو يشيح بيده: وأنا وسط العذاب، في منتصف المسافة بين كوني بشر وكوني ذكر نمل انكسرت إرادتي ولم أحتمل، وقلت كل ما عندي بأمل أن يتوقف أمر يونس بحري وأن يكف العذاب، ورغم الاعتراف لم يوقف المجرم الأمر، وحتى ولو كان أوقفه فأنا نفسي كنت غير قادر لحظتها أن أوقف عذاب التحول، إرادة أن أكون بشراً أفلتت وصارت لي إرادة نملة لا تقوى أبداً على كتمان.

* * *

٥٥١

ورغم إعـادته إلى المستشفى فقـد سمعنا أن حـرارته ظلت ٤١ طول الليل ورغم جسده المتين الضخم، في الصباح التالي مات .

٥٥٥



أقتلهـــا

السّيجَار

ربما للمرة النادرة الثالثة أو الرابعة في حياتي حدث ذلك الشيء الذي كثيراً ما يحلم به أي راكب اعتاد ركوب الطائرة وحيداً، حتى أصبحت مسألة من يكون جاره وكيف يكون أهم ما يخطر بباله قبل وأثناء وربما بعد الركوب. بضربة حظ مفاجئة والمقاعد حولي وعبر الطائرة كثيرة وفارغة، وجاءت الحلوة الطويلة ذلك الطول السامق الذي نفتقده في شرقياتنا العظيمات القصيرات، مبتسمة ابتسامة المرحب بك، وبكل ما يمكن أن يدور بخلدك، حمراء الشعر، حمراء النمش، حمراء البياض، والحمرة درجات ودرجات، وبالدقة مرسومة وموزعة، حمراء لحمرتها هالة، وكأن آلهة الجمال تسلط عليها من يوم ولادتها كشافاً مسرحياً متلون الحمرة يتبعها أنى تتوجه، ولها يصبح الظل والواجهة، والمسقط والبروفيل. جاءت وتلفتت واختارت دون المقاعد جميعها، ذلك المجاور لي واعتلته، فعلى الفور أصبح الكرسي عرشاً. ورداً على ابتسامتها المرحبة أطلقت تحية لها ألف ابتسامة ترحيب. ملكة من بافاريا بكل إرادتها اختارتني لأكون شعبها الوحيد المحظوظ. بل الظاهر أن صمام الحظ

كان قد أفلت من قبضة النحس تماماً، وقبل أن تقلع الطائرة كانت قد طلبت مني مطلباً صعباً جداً، ومن فرط جسامته يكاد يكون مستحيلاً. . أن أتفضل وأتنازل وأسمح وأكون دليلها حين تصل إلى القاهرة، دليلها إلى أوتيل لائق فهذه أول مرة لها في الشرق. . تحلم به منذ عاشت، والقاهرة بالذات كانت دائماً مركز الحلم، ولهذا فلم تمض في بيروت إلا يوماً واحداً، ومن فرط لهفتها ذهبت إلى المطار دون حجز. . ومن حظها الحسن أنهم ارتضوا الوضع وها هي الآن في الطائرة وبعد أقل من ساعتين ستكون في قلب المدينة الحلم. .

صدقوني أو احسدوني أو تزمتوا وتظاهروا بالنفاق والورع، ولكنها راحت مرة أخرى ترجوني أن ترافقني ـ وليس أن أرافقها أنا ـ إلى حيث (أضيع وقتي!) بعض الوقت كي أساعدها في إيجاد المكان المناسب في الفندق المناسب وبالسعر المناسب، فهي تمقت الهيلتون والشيراتون والأماكن الخاصة بالأغنياء لأنهم عواجيز، أو العواجيز لأنهم أغنياء، وتعبد الفنادق ذات الطابع! حبذا لو كان لدينا فنادق في الهواء الطلق، أو فيللات غرفها خيام وفناؤها الصحراء وطعامها يشوى في العراء على النار، والنار يقلبها بدوي بلحيته السوداء وشبابه الأسمر وعقاله المدلى ـ اهمالاً أو أناقة ـ إلى جانب. حبذا لو يشوي لها اللحم ومعها يلتهمه. في ليلة تحت خيمة، ليلة لا يشهدها سوى القمر.

حين رأيتها قادمة في الممر، ودون أن أدري، كنت من فرط طولها وهيبة الأنوثة المكتملة في القوام الكامل قد أعطيتها خمسة

وثلاثين عاماً أو شيئاً من هـذا القبيل، وحين اقتـربت بدا لي عمـرها الحقيقي في حـدود الثـلاثين، وحين ابتسمت وجلست تحـادثنـا. . بـالذات حين بـدأت تغمغم حلمها اليقظ وكشـافـات حمـرتهـا تـزداد تـوهجـاً، وكـل نمشـة في وجههـا تكتظ انفعـالاً وتصنـع من مكـانهـا وبسمتها إلى جارتها وعلاقتهـا بالجـارة الأخرى كلمـة. . سر جمـالي خـاص تبوح عن نفسهـا وتنكشف، وعمـرهـا يتنـاقص، بحيث قـرب النهـاية، ولـولا أنها لا تصـح إلا لمن جاوزت الـطفولـة. . إلا لصبية تـدرك وعن يقين تلمس لماذا المـرأة مـطلوبـة؟ لمـاذا يتقـاتـل عليهـا الـرجال؟ لمـاذا تضن بالحب لأنهـا هي الحب. . كل الحب. . حين تحب؟ لـولا هذا لارتـدت إلى العاشـرة، وكلماتهـا تتحشرج بـالحلم وبالنهاية حلماً. ما أجملكن أيتها الغـربيات في شيء واحـد، حين لا تجعلن ألسنتكن تنفـرد وحدهـا بكل الحـديث. حين نالت أجسـادكن معكن الحرية وأصبح لها ومع العقل والقلب حق التعبيـر تحلمن، أو حتى تتكلمن أحلاماً فتستحلن جميعاً حلماً بالصدق وليس بالتمثيل.

وما أبشعك أيتها البافـارية الألمـانية كـأنك من قبيلة جن أحمـر انحـدرت. كنت تحلمين، وتقتربين مني تـزيدينني مشـاركـة لـك في حلمك. تحلمين ويزداد كشافك الأبـدي احمراراً، وبنفس حلمـك، «النفس حلمــك» ينصب من حيـث لا أدري على مـلامـحي ذلــك الاصفرار المتغامق الفضـاح، فحلمك تبنينه كنت تقوضين حلمـاً لي مذ رأيتك، وبقاهرة تضعينها في خيالك وصحراء، وباللحم البدوي، كنت تقتلين قاهرة أجمل أعرفهـا وأحفظ أركانهـا، وصحراء أروع مـا

فيهـا أنها ليست من رمـال، وببدويـك الأسمر ولحيتـه وشـاربـه كنت تنـزعين عني ـ كمـا يفعـل بعض مخـرجينـا بقسـاوة ـ دوري . . دور البـطل، فـلا بـدوي أنـا ولا لحيـة لي، وبلون جلدي لا أمت إلى الصحـراء أو حتى إلى محافـظات بحري. عينـاي مصيبتهما السـوداء أنهمـا ليستا سـوداوين كما بـطلك، ذلك الـذي لم أشعر نحـوه بـذرة تفسير لحماسك هذا الفائر المتوحش.

وأيضاً كما يفعل ممثلونا والرواية تقـرأ حيث لا أحد إلا الملقن يصغي إلى الموضوع، وإنما الكل وبـلا وعي يبحث عن أكثر الأدوار صلاحية له، أغناها «بالافيهات والنكات» أطولها، أبطلها كمـا يحدث هناك، وحلمي يتحطم، ولونك يحمر، وحلمي ينحطم، ولـون البطل يسود، ولوني أنا يصفر، كنت وقد فقدت الـدور الرئيسي أبحث بغيـر ما لهفة عن الدور الذي أعددته لي في حلمك ذاك.

فجأة ضحكت.

وبـانزعـاج مؤدب سريـع توقفت عن الحـديث وسـألتني: مـاذا حدث؟ هل أخطأت في شيء.

كان انزعـاجها حقيقيـاً، فالضحـك في ألمانيـا ليس كالضحـك هنـا . . فمن حقك المـطلق هنا أن تضحـك في أي وقت تشـاء ولأي كلام يقال حتى ولو كان الكلام جاداً ليس فيه ما يضحك ـ بل بالذات لـو كان الكـلام جاداً حقيقـة وليس فيه مـا يضحك. الضحـك هنـاك ـ كأي شيء ـ لا بد أن يتوفر لحدوثه أسبـاب وجيهة قـوية مقنعـة جداً وواضحة جداً ولا يختلف عليها اثنان. حتى في بعض الروايات مثـلاً

ممكن أن تحدث مواقف تدفعك دفعاً للضحك، ولكن لأن النص لم ينص على الضحك هنا، فإن أحداً لا يضحك، الضحك هناك نظام، وكأي شيء لا بد أن يتم بنظام، فإذا فعل إنسان فعلتي، وفي نهاية كنهاية حلمها في لحظة تحشرج فيها صوتها، ضحك، فلا بد أن شيئاً قد اختل في النظام العام.. جننت أنا أو جنت هي أو تسرب مع فتحات الهواء في الطائرة شيء من الغاز الضاحك.

انزعجت، وبلهفة تساءلت مروعة لماذا أضحك؟

وكنت أضحك لأني اكتشفت أن دوري في حلمها هو الدور الذي نحتفظ به في الرواية للرجل الطيب الذي يقود الناس لتحقيق أحلامهم.. للقادة.

كنت أضحك للكم الهائل من خيبة الأمل التي أحسست بها. فليس لشخصي اختارتني ملكتي البافارية وفضلت المقعد الخالي بجواري على كل ما عداه من مقاعد خالية، وإنما لمؤهلاتي تلك التي يتطلبها دوري، واضح أني عربي مثقف أعرف لغات، وأعرف النساء أيضاً، وأحب ـ كما رأت كل أمثالي في بيروت وغير بيروت ـ أن أساعد السيدة، أي سيدة.. فما بالك بجنية ملتهبة الأنوثة صاخبة الاحمرار.

يا بنت الايه! اسمعي اذن و..

وكما يتحدث الطلبة في برنامج ألف سلام، وكخطابات المغتربين ومحاضرات ذوي الحماس.. رحت والأصفر في وجهي

ينتقل إلى البرتقالية والطماطمية والبطيخية وما شئت من ألوان الاحمرار، رحت، وبقسوة وبلاغة، أو فلنفعل كاللغويين الكبار ونقول بقسوة بليغة أو ببلاغة قاسية، رحت أخلع تلك الصورة البدائية الكريهة التي يبدو أنها علقتها في عقلها منذ الطفولة. كما غاظتني بحلمها عن البدوي وسمرته، تهورت في حماسي دفاعاً عن برج الجزيرة وآثار الفراعنة ساعة العصرية على شرفة مينا هاوس.

وحين انتهيت ضحكت، ربما تقليداً لما فعلت بكلامها أنا ووجدت أن عليها اتباعه ورد التحية فعلت. ولكني أنا انزعجت. . فقد خفت أن تكون قد وقفت على سر البلاغة القاسية والقسوة البلاغية وحماسي المفاجىء للبرج. . لا جمال ألبتة فيه، وربما أي برج حمام أبيض في أي نجع يبدو لي أكثر منه وداعة وحضارة ورمزاً.

أكثرت من تفاصيل البداية أعرف، فأنتم لا بد أنكم مثلما كنت أنا تماماً شغوفين أن تنتهي البدايات بسرعة. وفي القاهرة أصبح وحدي مع البافارية الغربية الحالمة بليلة تنطبع فيها آثار الأحلام على الرمال.

ولقد حدث.

بل، ولقد حدث أكثر من هذا.

حين هبطنا القاهرة كان اللقاء قد تم. في بيروت بدأنا والبدوي حلمها، وهي أو مثلها حلمي، وكعادة الحياة والأحياء تبدأ معها

ومعهم مستنكرين، مطلقاً مختلفين غير راضين. ببساطة نرفض الواقع تماماً ونرفض الخضوع، وببساطة وكما رفضت أنا حلمها تماماً حتى مزقت القاهرة كلها من أجله، وكما لا بد كانت سترفض حلمي لو عرفته، وكعادة الأحياء أيضاً حين يرفضون الواقع المفروض ثم شيئاً فشيئاً يلتقون بادئين من الأماني المشتركة والأحلام. نحن أيضاً تعادينا تماماً في الحلم، ولكن الواقع المحض بدأ يقربنا، واقتراب الواقع من الواقع فن اسألوا عنه أهل الذكر. فالسيدة حين تخرج السيجارة وتضعها في فمها دون أن تبحث أو تحاول حتى البحث عن ثقاب، منتظرة أن تفعل أنت ذلك الحريق الصغير الذي تلتقط بعضه بطرف سيجارتها، وبحنكة تتذوق طعم الدخان الناتج عنها.. السيدة حين تفعل هذا تضعك في الواقع أمام امتحان يرسب البعض فيه رسوباً لا نقض فيه.

ذلك أنها أيها السادة حين تضع السيجارة في فمها الذي ضيقته خصيصاً. حين يحدث هذا إنما يكون في الواقع بداية بداية لمحاورة محاذية تسير جنباً إلى جنب مع الحوار العادي.. المحاروة الحقيقية ذات اللغة الخاصة والمستويات المختلفة في الادراك والفهم، المحاروة الأهم التي من خلالها تدرك المرأة من أنت.. في الحقيقة من أنت.. وأي الرجال أنت.. وبأي الخصال تتمتع.. وأين نقط الضعف. انك إذا اندفعت مثلاً كالتلميذ الخائف أن ينسى قطعة المحفوظات ملهوفاً فتبحث في جيبك عن الولاعة، وما أن تعثر عليها حتى تحس بالاضطراب، ومن بعيد تدقها، تشعلها، وغالباً ما

تفشل، وبعصبية من يريد إثبات البراعة ثانية وربما ثالثة تحاول، ثم تقرب النار بخوف من يخشى أن يحرقها، وليس بأناقة من يتيح لها أوسع الفرص لاستعراض أناقتها الخاصة في تحاشي اللهب، والاقتراب من الشعلة، وأخذ النفس، وإخراج النفس، والتحرك إقداماً وتراجعاً، والتفاتاً وابتلاعاً، وإهمالاً في الإسراع والتراخي الذي تنشد له الأعصاب، اسألوا أهل الذكر، ستجدون أن لكل حركة كتاباً أو باباً، وللأبواب مفاتيح والمفاتيح أحجام، والمشكلة ليست مشكلة اصطدام رجل بامرأة وخلاص، المشكلة أن تدبر بحيث يبدو الالتقاء طبيعياً أكثر من الالتقاء نفسه، المشكلة أنك عارف وأنها عارفة وأنك عارف أنها عارفة وهي عارفة أنك عارف أنها عارفة، وهلم جرا ولكن كيف؟ وأين الرجل الذي يصبح فخره هذه المرة أنه الجاهل (مدعياً طبعاً) وقوته أنه الغبي المفاجأ، وكأن الأمر يحدث ولا بد له فيه. إن شرب الشاي هو شرب الشاي، ولكن أن تجعل من مجرد احتساء قدح من الشاي فناً وطقوساً تزاولها مستمتعاً، وكأنها ليست وسيلة لشرب شاي أي شاي، ولكنها هي الوسيلة غاية في حد ذاتها. كيف تجعل من كلمة «شكراً» تبدو وكأنها أهم كلمة نطقتها في حياتك، وكأنك لأول مرة تقولها، ومن أجلها استخرجتها من صندوق كنوزك التي لم يرها أحد، وتقدمها بإعزاز الملك يقلد الملكة التاج؟ كيف بصدق تجعلها تحس بكلمة شكراً، بنطقك لها، بإخلاصك وإعزازك واختصاصك بها، تاجاً باهراً كالتاج الحقيقي، على رأسها ساعة ترى الرجال تضعه، وعلى كل الناس، وبالكلمة متوهجة فوق شعرها تفخر وتتيه.

اسألوا أهل الذكر.
فأنا لم أسألهم فقط، أنا بعض من أهل الذكر هؤلاء.
وكان من المحتم اذن أن أجعل الحلم الذي في خيالها يتبخر.
وأحل مكانه ما أريده أنا.
وما أردته بالضبط تحقق.
فقد تحولت الخيمة إلى حجرة في فندق فاخر.
وتحول البدوي الأسمر ذو اللحية إلى شخصي أنا، محدثاً وأنيقاً وبارعاً.
ومضت خطتي في طريقها بأسرع وأروع ما توقعت. وانتهى العشاء.

وكنت أعرف وأحفظ درس السيجارة، والحريق الصغير الذي عليّ أن أحدثه.
وأول نفس من السيجارة كيف تخرجه.

ومددت يدي بعلبتي أنا أعزم.
ولكنها هزت رأسها بأناقة بالغة معتذرة:
وبيد رخوة مدت يدها إلى حقيبة يدها، وفتحتها وأخرجت.
أخرجت..
أخرجت سيجاراً من حجم (تشرشل).
وفضت عنه ورق السلوفان.

وبين شفتيها وضعته.
ومالت برأسها وبفمها، وبالسيجار ناحيتي، تطلب الشعلة.

وكالمذهول المنوم تماماً، وبأكثر من فشل واحد اشتعل طرف السيجار في النهاية.

وبتلذذ عظيم تمتص رحيق دخان وتنفثه ليشيع في الحجرة تلك الرائحة الخاصة للسيجار الهافانا.

ولا بد أنها لاحظت ذهولي.

فبنعومة بالغة سألتني:

ـ أيضايقك أن أشرب سيجاراً؟

قلت بسرعة: أبداً أبداً.

ثم رحت أقول ببطء شديد: أبداً.. أبداً..

ولكني كنت أقولها وأنا سرحان تماماً..

لقد كان في عقلها حلم بدوي لحمي حمراوي طردته.

ولكن..

هذا السيجار..

كلما رأيتها من «الفاس» أو «البروفيل» نفس الملامح الدقيقة، النمش البني فوق الأرضية المحمرة، الشعر المتوهج بالاحمرار، كل شيء كما كان، ولكن السيجار ذلك السيجار اللعين قد غير بوجوده، بمجرد وجوده، معنى كل شيء، طعم كل شيء.. تطبق بفمهاعلى فم السيجار فينبت لها شارب.

والرائحة التي تعبق المكان تحيل ملكة بافاريا إلى كائن آخر، إي كائن غير المرأة.

قالت: أعرف أن كثيراً من الرجال لا يعجبهم أن تدخن المرأة السيجار مثلهم، أرجو أن تكون من المؤمنين بالمساواة، أليس كذلك؟!

هززت رأسي موافقاً، وعن يقين موافق، فالسيجار في الحقيقة قد ساوى بيننا، بين ملكتي البافارية، وبين الرجل، أي رجل، أنا مثلاً..

يموت الزمّار

تقـريباً كـل ما كتبتـه من قصص ونسبته إلى نفسي أو قمت فيـه بدور الراوي، كانت كلها أبداً لم تقع لي، إلا هذه القصة فـأنا فعـلاً فيها الراوي وما حدث فيها حدث لي. ولقد حاولت المستحيـل لكي لا أكون أنا أنـا أو لكي يكون الحـادث وقع لغيـري، وكان ممكنـاً أن تكـون أروع وأكثـر إمتـاعـاً، ولكني بيني وبين نفسي كنت أحس أني سـأكـذب بـالضبط مثلمـا كنت حين أتقمص أنـا شخص الـراوي في قصص أخـرى، معظمهـا أبـداً لم يحـدث لي! كنت أحس أني أكثـر صدقاً مع الآخرين ومع ذاتي.

انها اذن قصة خاصة جداً، أعرف أن كثيرين سيهزون أكتـافهم حيالها ويقـولون: ومـا لنا ولهـذا القول الـذاتي الخاص، ولكن، من يدري؟ ربما لن أعدم واحداً يحس ذاته تماماً وهو يـراني أتحدث عن ذاتي، فنحن في النهاية أبناء ذات واحدة عليـا عميقة أو سفلى، إنمـا الاتصال قائم وموجود والمهم هو الوصول إليه، وقد يضطرب الكاتب في أحيـان أن يستعمـل دلـوه الـداخلي الخـاص للوصـول إلى ميـاه الآخرين العميقة.

وكنت حين أقرأ أن فلاناً الممثل أو أن جريتا جاربو الممثلة تتبع طرقاً بوليسية منذ أكثر من أربعين عاماً لتختفي عن الأنظار العامة، وتعتزل الفن أو تقاطع هي دائرة الضوء لأنها تستمتع كثيراً بأي كوخ ظل تأوي إليه. كنت حين أقرأ هذا كله أحس أنه نوع من الابهار الصحفي يلجأ إليه النجوم زيادة في اجتذاب البريق.

وهذه المرة، ولا شيء من «هيافة» بعض النجوم في ذهني، وبعد طول تدبر وتفكير، وبعد انفراد بالنفس ذلك الانفراد الخاص التام الذي تحس أن همسة الخاطر حتى لا تشاركك إياه، قررت في لحظة حسم باردة كالثلج، لا انفعال فيها ولا تراجع أو ندم أن أكف تماماً عن الكتابة، أي كتابة، ليس يأساً أو تدللاً أو نوعاً من استدرار الاشفاق على النفس، تجاه النفس، ولو من ذات النفس، ولكنه ادراك عميق كامل بعدم جدوى الكتابة أصلاً، ليست كتابتي فقط ولكن كل الكتابة مذ عرف الإنسان الكتابة، أو ـ في رأيي ـ ماذا فعل الإنسان بالكتابة؟ أو بمعنى أصح، ماذا فعلت بالإنسان الكتابة؟ أصلحت أخلاقه؟ كذب في كذب فالإنسان أيام الحضارة المصرية القديمة، وأيام أثينا وطيبة وبابل، وأيام أفلاطون وأرسطو والفلاح الفصيح ربما كان أكثر تسامحاً وهدوءاً مع نفسه ومع الآخرين، وربما لم تفعل نصائح كتابه بتحريضه على الصدق وعلى الشرف وعلى النبل إلا العكس تماماً، فلا أعتقد أن وحشية المحاربين أيام أول حروب عالمية عرفها التاريخ بين المصريين والحيثيين أو بين الفرس والاغريق كانت تصل إلى معشار ما وصلت إليه وحشية المتحاربين

في آخر حرب عالمية خاضها الإنسان، ولا وحشية ما حدث ويحدث للبشر في فيتنام أو أفغانستان أو لبنان. فصحيح أن بالكتابة تعلم الإنسان.. ولكنه بالتطور العقلي الذي أحدثته الكتابة والكتاب فيه تعلم أيضاً أن يصبح شريراً أكثر علماً وبشاعة علم، كالحية الرقطاء التي فوق الناب الطبيعية التي زودتها بها الطبيعة لتلدغ بها عدوها مرة، تعلمت وتعلم كيف يزود نفسه بأنياب أكثر وخزانات سم أكثر. أنياب لا تكتفي بنفث السم ولكنها ترسله ميراج وميج وفانتوم ونابالم ونيترون وكوبالت، وبدلاً من ترس التعذيب الذي كان يشد إليه جسده أصبحت وسائل العذاب تصل إلى نخاع النخاع من أدق أعصابه حساً، ولم يعد في الحرب فروسية أو علم أبيض أو قوانين أسرى وإنما هو الشر يندفع من عقول قد زودتها المعرفة بالتصميم القاتل على الإبادة، باختصار، مذ عرف الإنسان الكتابة.. عرف أيضاً كيف يصبح الشرير في أعنف وأبشع صوره.

قد يقول القائل ولكنه التطور وليس الكاتب أو الكتابة.. والرد جاهز، فالتطور ناتج العقل، والعقل ناتج الكتابة، ودعونا لا نتفلسف أكثر فلقد كان حلمي بالكتابة كحلمي بالثورة كحلمي بالمعجزة القادرة على شفاء كل وأي داء.. وفي عمري أنا سأرى اختفاء الحفاء، وعمومية الكساء، وزوال الحاجة، واكتفاء كل محتاج. كانت واحة العمر ألجأ إليها كلما نضب معين الخيال، وأتزود منها وبها بالقدرة على مواصلة اللهاث. وكان الوصول على مرمى حجر، وكأنني سأصحو في الغد لأجد الصباح فجراً ليس فجر يوم ولكن فجر

عصر. عصر كامل تام يعود فيه الإنسان يحب بكل نهم وعمق وظمأ الحب، ويعيش وروعة الحياة يشربها مترعة قطرة وراءها قطرة، ولكل قطرة طعم، ولكل لحظة زمن تمر أشواق وصهللة ومعان. .

حياة أستمتع فيها إلى التعالي أني ابن. . مثلما أستمتع به إلى مهجة كبدي أني أب، تأخذني الأم إلى أعمق أحضانها ترضعني خلاصة الأنوثة وأرتشف وأنا أضمها نعناع أني ولد وخمرة أني رجل. حياة أنا فيها محب محبوب، عاشق معشوق، مؤثر ومغير، ومتأثر ومتغير، ودائماً إلى الأعلى والأروع. حياة. حياة، أتعرفون ما هي الحياة؟!.

في الواقع وأنا أتأمل القرار من نواحيه أدركت جانباً من عظمة وعبقرية شكسبير الشاعر الكاتب. فليست روعته أنه فقط كتب، ولكن الأروع من كتابته أنه عرف متى وكيف يتوقف ويقف. في الواحدة والخمسين كان قد انتهى من كتابة آخر أربع وأعظم مسرحياته على الاطلاق: الملك لير وعطيل وماكبث وهاملت. . وبانتهاء عرض آخر واحدة منها، لست أعرف ما هي على وجه الدقة، اتخذ القرار وصفى نصيبه في مسرح الجلوب وسوى أموره ورحل إلى بلدته وهناك اشترى منزلاً (أصبح الآن كعبة الرواد) ومكث عامين بعيداً تماماً عن الكتابة والمسرح وكل ما يتصل بهما ثم مات في الثالثة والخمسين.

هذا هو الرجل. عاش وقال وصمت ومات، وهكذا وهكذا لم يمت ولا زال يعيش ويقول ولا ينتهي أبداً.

وليس مطلقاً تقليداً لشكسبير ولا لأي أحد ـ فالموضة عندنا أننا لا نكتب إلا تقليداً ولا نحيا إلا تقليداً، ربما لأن معظم من يقيمون انتاجنا وحياتنا هم دائماً وأبداً مقلدون، ومقلدون أيضاً غير متقنين، فأنا لم أعرف هذا إلا في قراءة عابرة لمجلة قديمة كان فيها مقال عن شكسبير قرأته بعد القرار (واسمحوا لي باستعمال الكلمة) فأكد لي حتمية ما انتهيت إليه.

وحين راحت السكرة وجاءت الفكرة وجدت أني لست فقط مختلفاً تماماً كماً ونوعاً وحياة عن شكسبير وغيره، ولكن مختلف أيضاً أني موظف كتابة عام بينما كان هو صاحب قطاع خاص في استطاعته تصفية كتابته والعيش بما يتبقى لديه من رأسمال. أنا موظف في جريدة كبرى تدفع لي راتباً شهرياً من أجل أن أكتب، وعليّ شئت أم أبيت ومن أجل أن أعيش أن أظل أكتب، فإذا قررت أن أكف تماماً عن الكتابة فأبسط المواقف الشريفة أن أبحث لي عن عمل آخر أو وسيلة حياة ثانية، وهكذا مثلما يفعلون قبل المعاش حيث من حقهم أخذ إجازة ثلاثة أو أربعة أشهر، أعطيت لنفسي الحق في إجازة أبحث فيها عن مصدر رزق ـ أزرع قطعة الأرض التي تخصني في قريتنا... أفتتح مستوصفاً للعلاج الرخيص.. أتقن حرفة النجارة التي أهواها والتي أصبحت ماهية الأسطى فيها لا تقل عن عشرة جنيهات في اليوم.. أحيل عربتي إلى تاكسي أعمل عليه.. أي شيء.. إلا أن أمسك القلم مرة أخرى وأتحمل مسئولية تغيير عالم لا يتغير، وإنسان يزداد بالتغيير سوءاً، وثورات ليت بعضها ما قام فما

حدث بعد بعضها أبشع مما كان عليه الحال قبلها.

يأس؟!.

ولماذا نسمي النظرة الحقيقية الواقعية يأساً، والتمسك بخرافة الأحلام التي لا تتحقق هو التفاؤل الإنساني الذي لا نجده سوى في الكتب وعلى ألسنة وأفواه وأقلام (اخواننا) الكتاب.

وكنت في قراري صامتاً كتوماً، لا كلمة واحدة لزوجتي نفسها، ولا علم لصديق، فأنا أعرف كم ما سيصدر من اعتراض وسخرية، أقلها أني أتصيد التقريظ والمديح والرغبة في الحث على مواصلة ما يسمونه بالنجاح.. إن الحياة ـ هكذا أراها ـ ليست لعبة أضيعها مصغياً لهذا أو مولياً أذني لذاك.. الحياة حياتي والقرار قراري وكم من أمور تكاد تكون قتالة فعلتها دون ذرة تردد وحتى لو كادت، أو بعضها فعلاً ضيعني، دون ذرة ندم.

بل والقرار التالي الأخطر بعد اللاكتابة: هو اللاقراءة.. فالحليف الداهية الخبيث للكتابة هو القراءة، هي المنزلق الذي إذا وضعت عليه قدمك وجدت نفسك في سرعة الضوء تهوي حتماً إلى حيث تبدأ أنت لا ترى ولكن تصنع الحروف والمعاني والكلمات، ويلفك التيه الخالد ما بين أحرف تصنعها وأحرف تصنعك، وحياة تصنعها ولا تحياها وحياة تصنعك أجيراً لها فقط تحقق لها ما هي تريد. مذ كان عمري خمس سنوات وإلى الخمسين وأنا أقرأ وأكتب وأكتب وأقرأ. الحياة تصطخب في الدنيا وأنا صريع الحياة الموهومة بين دفتي كتاب وكلها من ورق وكلها من حبر، ضيعت عمري أتعلم

كيف أتعلم الكتابة، والبقية الباقية ضيعتها كيف أعلم ما في الكتابة، والنتيجة أني أنا نفسي استحلت إلى كلام وأصبحت روحي من ورق وأحلامي ومتعتي كائنة كلها من حبر بين كلمتين أو جملتين أو صفحتين. . أي حياة؟!

كثيراً ما قضيت الليالي إلى صباحها في غابة الأحرف تائهاً أزرعها مرة وأقطعها مرات ولا نسمة إلا رائحة اللون الأسود وسحابات من دخان وأنصاف أكواب مليئة «بتنوة» من بن جاف. . ولا أتبين إلا هناك أشعة الشمس تشحب ضوء الكهرباء، وأحس أن ظهري انكسر مقوساً إلى الأبد أو يكاد، فأقوم لأعدله وأخرج إلى الشرفة. . ما أجملها ساعة السابعة في الصباح طازجة ودائماً جديدة، تصوروا كل صبح دائماً جديداً أبداً لم تمسسه أرض من قبل ولا احتوته سماء، وإنما هو هدية الكون الجديدة تماماً لنا. . الناشئة لتوها وفي الحال، هذا هو الصباح الطازج الصابح الذي عليّ أن أتركه لأمضغ ساعات ليل ونوم بائتة وحامضة فقد مضى أوانها من زمان.

في ساعات صبح كتلك كنت كثيراً جداً ما ألمح «كناس» شارعنا جالساً على الرصيف المقابل مسنداً مقشته إلى كتفه، محتضناً إياها وكأنما يلتمس منها ألفة يوم كامل سيقضيانه معاً، وفي يده اليمنى غالباً كنت ألمح كوب شاي وفي اليسرى سيجارة. ومهما كانت الدنيا صيفاً أو شتاء فأبداً لا برودة هناك ولا نية احترار وإنما هي - في رأيي - لحظة السعادة القصوى. . هذا رجل يقوم بعمل جاد محدد ينظف شارعنا، من كل ما نقذفه نحن الأفندية والستات من

فضـلات. نام قـطعاً الليـل ونامـه مبكـراً فهـا هـو مبكـراً قـد استيقظ واستمتعت كـل خلية من خـلاياه بسبـع ساعـات على الأقـل من خلو البال. واحداً من ملايين ملايين الرجال الذين لا أشير ولن يشار لهم بـأي بنان، عـاش وقام ورفس زوجتـه ونام، بـالضبط اتسق تمامـاً مع قـانون كـون أعظم، جـالساً استعـداداً لقانـون عمل أعـظم، وها أنـا المشار إليه بالبنان. .عـاكس القانـون،ومقاوم الـظلام ليغير الناموس، وأتى عليه النهار ليجده حطام دون كيشوت خيل إليـه أنه قضى الليـل يعكس ويحارب طواحين الهواء والاتجاه، وأحس حتى دون أن يواجه أحداً أن طاحونة لم تتوقـف وجناحاً منها لـم يتعطل أو يتغير أو يتبدل لا تنعم براحة البال ولا حتى براحة البدن، أعـطني مقشتك أيهـا الرجـل وخـذ ذلـك القلم فمنتهى أملي أن أرى أو أستعمـل شيئـاً لـه مفعـول مقشتك، والمفعول أراه أمامي بعيني وأشهده وأحس بفائدته.

قـدرك الذي عـذبك وأمـرضك وحملت من أجله همـوم الكـرة الأرضية فوق قرنك، ولست ثوراً افريقياً خالداً باستـطاعته أن يتحمـل الـدنيا بهمـومها بله همـومك أنت وحـدك إلى الأبد، كـل جسدك من المرض مرض المرض وحيرت نـطس الأطباء من الكـرملين إلى مايـو كلينيك وكليفلاند وهارلي ستريت، وأصبحت مريضاً عالمياً وأصبحت حياتك كونية الحيرة، فيقرر الأطباء أنك ستموت في ظرف ٤٨ سـاعة وإذا بـك بعد ٢٤ سـاعة في قـوة الحصان، ويقـرر الأطباء أن عنـدك سرطان وأنك أمامـك شهر بـالكثير لتـودع الحياة، فتبـدأ حياة جـديدة وسيمة الملامح جداً بعد أسبوع. . حتى يئسوا منك مثلمـا قالت لـك

الدكتورة ايلينا: أنت يا زميل حالتك لا تخضع للطب الذي درسنا. وقال لك البروفسور الكبير في نيويورك فريدمان: حالتك نادرة ولكنها التفسير الأوحد.. تنفعل إلى درجة المرض وتمرض إلى درجة الموت، وتموت إلى درجة الحب: والمسألة خرجت عن كل ما لدينا من علم تعلمناه ونعلمه.. ربما تعرف أنت.

وفي ركن خفي من أركان نفسي السرية كنت أعرف: انها ذلك الجزء الذي يملي عليّ أن أكتب يمرضني ويحيرني، وجزء كقوانين الكون كيف لي أن أسيطر عليه، ولا كيف أريحه، فإذا أخذت إجازة وذهبت إلى الشاطىء ثارت الزوبعة في يافوخي حتى تتكتل على الأمراض، وربما تهدأ تماماً إذا وجدت نفسي في وسط وحركة جيش التحرير في الجزائر، أو أستعد ليوم عصيب من أيام الحركة الوطنية والقومية.

وأيضاً ما علينا.

فلتكن قد فعلت الكتابة ما فعلت، وليكن قد حدث ما حدث بل فلأكن سأموت حتى، أقسم غير حانث أني قدرت الموت واستحضرته تماماً ووجدته ألف مرة أرحم، لم أعد أستطيع، أبداً لم أعد أستطيع. إني لأكاد أحسد إلى درجة البكاء هؤلاء الزملاء الكتاب الذي يكتبون كل يوم وعن كل وأي قضية من السياسة إلى القصة إلى العلم إلى المذكرات إلى الحب إلى الأمومة إلى.. إلى.. إلى.. إلى أي شيء. كيف بالله يكتبون؟ ولماذا أجد القلم في يدهم سهلاً ودرجة الانفعال ٣٧ لا تنخفض ولا تزيد، وضغط الدم لا يعلو ولا

ينخفض ١٢٠ على ٨٠ بكل الصحة. واللهم مزيداً من الصحة ـ وبكل التعقل والمنطق يكتبون ويكتبون ويكتبون يوماً بعد يوم بعد يوم، ألديهم آلة «زيروكس» يضغطون على الزرار من هنا فتخرج الصفحة زيروكسية مكتوبة جداً من هناك. أم (أنا) الحالة؟ فلا بد أن أحدنا هو الحالة قطعاً.

وأيضاً ولثالث مرة ـ ما علينا.

● ●

طيب. أخذت المهنة وقلت أتدرب على اصلاح أجهزة الفيديو كاسيت. فلقد أخطأت ذات مرة وأحضرت جهازاً غير تقليدي وحاولت تشغيله فأبى أن يعمل، وجربت جميع المشاهير وغير المشاهير من مصلحي الفيديو حتى استوعبت العملية تماماً مثلهم، وأصبحت أعرف البال من سيكام من الأوتوماتيك بال سيكام والأنظمة الثلاثة الأوتوماتيكية والألوان التسعة والسبعة، ومثلهم أيضاً أدركت أننا كلنا قد أخذناها فهلوة، وأن أقصى ما قضاه أي مهندس منهم لدراسة هذا الجهاز الجديد الذي سيقلب العالم رأساً على عقب في القريب العاجل جداً لم يقض في الخارج أكثر من ستة أشهر. وهي في رأيي فترة غير كافية لدراسة نظرية. مجرد نظرية التليفزيون فما بالك بالتسجيل التليفزيوني العملي وأجزائه المعقدة الوظائف.

سأكون صناعياً علمياً جداً، وحتى لو كان الأمر تغيير مهنة، فأنا كثيراً ما بشرت في أحاديثي «أيام الجد!» أن الإنسان في عالم

المستقبل لن يقصر عمره على مهنة واحدة يقضي في روتينها محترفاً كلية، وأن المستقبل يحمل للإنسان القدرة على أن ينتقل من جراح قلب إلى قافز باراشوت هاو إلى نجار موبيليا ـ أعرف جراح قلب في أمريكا يعمل يومي السبت والأحد نجاراً محترفاً فعلاً ـ إلى عازف أكورديون، إلى ما شاء من المهن والهوايات خلال حياته الواحدة، بحيث لا يعتريه شهر أو أسبوع أو حتى يوم ملل واحد.

وجئت ببعض المراجع وأحضرت تليفزيوننا القديم وبدأت أدرس الدوائر ومصائد الأشعة والصمامات وأنصاف الموصلات «الترانسستور»، ولم يستغرق الأمر أكثر من أربعة أيام لألقي بكل شيء جانباً إذ كنت قد تركت أجمل أنواع المعادلات الكتابية الشاحذة للخيال المدرة للجمال، فهل أغرس نفسي في معادلات أبعد ما تكون عن التصور وأقرب ما تكون إلى واقع صلب ينطح فيه الإنسان رأسه؟ لا كتابة. لا قراءة. لا دراسة. فلقد أخطأت، كان الواجب التكنيكي يقتضي مني وقد قررت أن أتنحى.. أن أتنحى عن عالم الأحرف كلية والخيال إلى قلب الحياة نفسها، قلبها الصاخب المتدفق متعة وليس إلى دوائر الترانسستور والتليفزيون المغلقة حتى على نسمة الهواء.

شارع المتعة والحياة.. فلان؟ أهلاً وسهلاً أو أهلين وسهلين. هاي جو.. بالأحضان يطبق ضلوعي، وأنا قرأت لك وأنا فاتني أن أقرأ. يا سلام يا عبقري يا لسوء حظي، وبدلاً من أن أستمتع أنا أصبحت أنا وسيلة المتعة، وغير مسموح لي حتى بمشاركة «جمهور»

الحاضرين مباذلهم الصغيرة أو الكبيرة أو رواية نكتة فاضحة فأنا «فلان» المفكر «المهول»، والاستنكار ينبثق كالدش البارد المفاجىء إذا حدث وحاولت ـ مجرد محاولة ـ أن أهرج. وهل يسمح حتى في أيام الوثنية للآلهة بالتهريج؟ وأعود آخر الليل شديد التأنيب لنفسي، فالعاصفة الهوجاء التي قوبلت بها تنتهي في آخر السهرة بسلام كسلام صداقة انتهت وكأن الواحد يقول لنفسه: ها هو آخر يطلع زينا والظاهر كلهم كده، صيت ولا غنى وأهه كله بكش. لم يقبلني صخب الحياة ولم أقبله، فالناس يفضلون إذا صخبوا أن ينسوا العقل، فإذا حضر العقل أو كلام العقل فهم يصنعون شيئاً من شيئين.. إما يلغونه تماماً بإحالته إلى محط سخرية، وإما يحيلونه تماماً إلى عنصر عاقل كابت كالوعي يثبتون له ولأنفسهم أنهم لا يقلون عنه «احتراماً»، والنتيجة أن ينقلب الأمر إلى حالة تمثيل تتوقف فيه الانطلاقة التلقائية التي رغم كل ما يبدو فيها من هبرط ـ انطلاقة براءة الطفل الذي يريد أن يلهو داخل الإنسان، وهكذا وببساطة تامة تنتهي المتعة، أي متعة.

● ●

وقلت لقد مضت أحقاب منذ أن لعبت دور الأب، وإذا كنت قد أنتجت أعمالاً فلماذا لا تلتفت الآن لإنتاج بشر.. بشر تعطيهم ما أعطتك الحياة من خبرة؟ تجمعهم كل عشية وتعيدها أواصر عائلة فككها التليفزيون الذي أخرس الحوار بين أفرادها، شلل النادي والكورة التي تولت مهمة التربية والأب، وأصدقاء السوء ليس وراء

معظمهم سوى الشوائب تنزعها كالشوك السام الذي يغرس كل يوم في الأقدام، وعليك بإبرة رفيعة متهالكة وبمقاومة رهيبة من الولد صاحب القدم أن تنتزعها.

واكتشفت أني أبحث عن دور أصبح مكانه حفريات التاريخ هناك حيث ترقد مراكب الشمس، لو أمعنت في الصحراء قليلاً ستجد ملايين قبور عليها شواهد مكتوب فوقها: كائنات كانت آباء.. فليرحمهم الله.

أب ماذا في هذا الزمن الذي أراد النظام الذي يدير الكون الآن، أن يفكك العائلة فيه ليسهل على نفسه شراءها؟ أيد عاملة شابة ترضى بالقليل وتعطي الكثير ولا تسمع تعاليم الآباء عن عمق مطالب الشعوب والفئات منذ أقدم العصور. آلات منتجة جديدة غير مثقلة بتاريخ مطالبات ونقابات، وإنما هي ابنة «رجل بستة مليون دولار» و«جي آر» و«سوالين» جديدة تشكلها وتعطيها ما شاءت من بنج بونج وتنس وكورة ومنطق ساحق رهيب، دراسة ماذا وأنت تستطيع كجرسون في فندق أو حتى شيال أو مصادق للسائحات العجوزات أن تطلع لك في اليوم بعشرين أو ثلاثين جنيهاً بالتمام والكمال، تصرف وتشتري عربة، والجامعة والتعليم واللقب الذي تريده ستجدها كلها ملفوفة في خرق قديمة ألقيناها من نوافذ المناور في العمارات؟ ماذا يجدي الحديث عن سعد زغلول ومصطفى مشرفة وحتى فاروق الباز أمام ثلاثين جنيهاً وعربة ولو «سيات» يلمسها المراهق لمسة اليقين كل يوم ويحيلها لصناديق بيرة وشحنة بنات وطريق صحاري سيتي

وهات ايدك. إلى حديث عن المجد القديم والمجد ها هو أمامك جديداً «نوفي» تحت أمرك، ودقيقة واحدة ويكون رهن طلبك، وإذا أرقك ضميرك هاك بلبوعة قادمة من بيروت تزيل كل الآلام وتحقق جميع الأحلام وتصبح إذا أردت في ومضة كسرى أنو شروان.

كان الله واحداً والأب واحداً، وفي البدء كان الكلمة بالطبع الكلمة الطيبة.

في عصر الوثنية الحديثة هذا أصبح الإله الواحد حتى في الدين الواحد عشرات الملل والنحل، والأب الواحد أصبح عشرات الآباء تختار أيهم كما شئت حسب لون الفانلة أو نوع الفتاة أو فرقة الغناء أو مكانتك في الشلة، وما أبعد المسافة بيننا وبين البدء بحيث أصبحت الكلمة الأوقع والأكثر جذباً للانتباه شارع المتعة والحياة: فلان؟ أهلاً وسهلاً أو أهلين. من جديد أمر يحتاج إما أن تهدمه تماماً وتعيده خلقاً آخر وهذا ليس بمستطاعك، وإما أن تكتفي أن تقوم بدور المتفرج في طابور طويل من الآباء يغمر العالم كله يتفرجون على كائنات كانت في البدء أبناء.

● ●

ولم يعد إلا أن أحيل نفسي رغم الطاقات التي تتفجر مني ورغم أني في أكمل وأنضج «فورمة» انتاج في أي مجال ومكان إلى التقاعد.. وتقاعدت. أتمشى مبكراً في الصباح، أحتسي كوب شاي في مقهى أو ناد، أعود إلى البيت، أحاول أن أصلح حنفية أو أفسد «كوبس» نور. أنا في إجازة ما قبل الإحالة إلى الاستيداع.

وشيئاً فشيئاً بدأت الحظ مسألة بالغة التفاهة.

إن قدرتي على المشي أصبحت أقل، وكل يوم تقل وأصبحت أعود إلى البيت وكأني قد بنيت السد العالي بمفردي متعباً مهدوداً لا أكاد أصل إلى البيت حتى أظل أستريح ولو من الراحة استراحة تصل إلى الظهر.

وأتغدى وأجد نفسي في حاجة ماسة إلى النوم وكأنني ظللت اليوم بطوله ساهراً.

ثم ساءلت نفسي السؤال الأكبر: لماذا اليقظة المبكرة أصلاً وليس ورائي من عمل أؤديه؟

ثم سؤال أكبر وأكبر: ولماذا المشي كل يوم كل يوم وأنا ليس لديّ عمل ثابت لكل يوم؟ وأسئلةليست مجرد أسئلة، ولكنها مقدمة حتمية معقولة لشمولها بالنفاذ الفوري.

ما أروع التمطي في فراش دافىء ونحن في طوبة حيث كل شيء وكل إنسان من البرد يتجمد.ما أروع فكرة أن ليس وراءك بالمرة أي عمل! ليس الكسل هو الرائع في الموضوع ولكن الأروع هو الإحساس الكامل، أن ليست لديك أية مواعيد أو واجبات وإنما أنت لك حرية اليوم والغد والزمن القادم كله.

كل حياتي كان محورها أني أكتب كل اتصالاتي، دعواتي، ارتباطاتي، سببها خيط واحد يصدر مني ليوزع آلاف خيوط بعضها يجذب، بعضها بعزف، بعضها يقلق، بعضها يفرح، بعضها يذكر أو

يتذكر أو يصرخ ألماً، والخيوط تلتقي عندي تصنع لي يقظتي ومنامي وترغمني أن أرتدي الثياب كل يوم، وأعاني مشاق كل يوم، وأودع الأمس وداع المغتاظ مرة، وداع الصبوة مرة، لا أنتظر الغد بصبر نافد بل لا أريده أن يأتي أبداً.

ذلك المحور لم يعد له وجود. الكرة الأرضية الآن انطلقت في الفضاء على حريتها بكل اتساعه وشموله، تدور حول الشمس أو لا تدور، تترك وليدها القمر ينعي حظه وخسوفه إذا أحست بعلل الصحبة.

ولأول مرة أحس أني لست أنا ملتقى خيوط ولا دائرة بالأمر القدري حول محوره، ولا يهمه أن يتلقى النور من هذه الشمس بالذات أو يكتب عن هذا الموضوع الذي يشغل الناس جميعاً الآن بالذات، أقرأ أو لا أقرأ، وجميع ما أقرأه غير مضطر لاختزانه أو امعان التفكير فيه، فل يعد عقلي في حاجة إلى مذاكرة ما يقع، أي مما يقع وشبح الامتحان الكتابي قد اختفى من أمامه.

صادقاً مع نفسي لم أحس بطعم سعادة حقيقية مثلما أحسست وأنا لثلاثة أيام بنهارها ولياليها لا أتحرك من فراشي. زوجتي تعتبرني لا بد مريضاً، فحتى حين أطلب الطعام وأنا نصف جالس ألمح الاستنكار البين في عينيها، ولكنها في قرارة نفسها تقنع نفسها أني لا بد أستعد لعمل عظيم ومن حقي أن أستعد له بالطريقة التي تحلو لي. وما دامت الطريقة هذه المرة هي التمدد في الفراش المنكوش وملاءاته التي يحل كل يوم موعد تغييرها، فكم كان لي معها من

تصرفات تستغربها تنتج في النهاية شيئاً تكون هي أول السعداء به.

ماذا لو عرفت أن لا شيء وراء الأكمة وأن لا كتابة بعد الآن؟ ماذا لو أدركت أنها لو احتجت أو عارضت فسأترك كل شيء وأمشي لو اضطررت بلاد الله لخلق الله.

طال الرقاد حتى أصبح الذهاب إلى الحمام مشقة وأي مشقة ألهث لها وأحس أني وكأني أسافر على أقدامي عدة أميال، وغسيل الوجه لم يعد يومياً بالضرورة.. ماذا لو حدث كلما أحسست باتساخه؟ وغسيل الأسنان باعتباره عادة راسخة أحس بالقلق طوال اليوم إذا لم أفعلها بكوب من الماء الدافيء والمعجون بجوار الفراش.

في الأيام الأولى كنت أقضي اليوم في أحلام يقظة تعيد لي خصوبة أحلام اليقظة في طفولتي، وعبر رحلة الثماني كيلو مترات من المشي ذهاباً وعودة إلى المدرسة، أكتفي من الجرائد بالمنشتات ثم أكتفي فقط من أجل العادة وحدها بتسلمها دفعة واحدة ثم إرقادها بجواري على أمل أن أعود إليها في المساء. والمساء يجدني مشدوداً إلى التليفزيون. حفظت البرامج عن ظهر قلب ولا حلقة أجنبية أو محلية تفوتني. ثم ضج جسدي بهذا النشاط التليفزيوني والاذاعي، وشيئاً فشيئاً زهقت من الصورة ثم زهدت في الموسيقى ثم أخرست اللاسلكيين تماماً، وحتى أحلام اليقظة استهلكتها جميعاً ولم يعد عقلي قادراً على اختراع أدوية مثيرة أمضي فيها الأحلام، حتى حدث الأمر الذي لا أعرف بالضبط أني كنت طوال الوقت أتوقع حدوثه، أو

أني دون أن أدري وباللاوعي كما يقولون كنت أخاف حدوثه. بدأت ساقي اليمنى تتورم ثم أعقبتها اليسرى بلا ألم ولا أعراض جلطة، من ناحية وكدارس طب قلقت كثيراً أن تكون جلطة في الأوردة العميقة للساقين، ورحت أتصور كيف ستكون الجلطات في بحيرات الدم الوريدية في عضلات الساقين، يعقبها لابد زحف إلى أعلى حتى يشل التجلط وريدي الفخذين العظيمين، ويا حبذا لو زحفا إلى البطن حيث يتحد الاثنان ويكونان الأورطي الوريدي وأكون قد انتهيت.

ومن ناحية أخر وجدت فيما حدث المنفذ والمهرب.

فالآن وبعد أن بدأت ألمح في عيون زوجتي أشياء كالتي كانت تحفل بها نظرات بطلة المرآة المقعرة، الآن عندي سبب وجيه تماماً للرقاد. فالجلطة أو الاشتباه فيها أول تعليمات علاجها الرقاد تماماً ورفع الساق وعدم الحركة مطلقاً.

وحتى ولو لم تكن هذه هي تعليمات كبار الأطباء والجراحين الذين عادوني، فأنا نفسي كنت قد فقدت الرغبة تماماً في الحركة أي حركة ولو حتى لرفع رأسي وصدري ربع ارتفاعه لتناول الطعام أو الشراب، وبمثل ما فقدت الرغبة في الحركة فقدت الرغبة في أشياء كثيرة جداً، أسأل نفسي: نفسك في ايه؟ الاجابة دائماً واحدة: لا شيء أريد، لا الشوق أريد، ولا القلق على ابن أو زوجة أو صديق أو قضية.. لا رغبة أبداً أبداً في أي شيء. وبدأت أورام السيقان تزداد

وتزحف إلى أسفل البطن، والأطباء يوصونني بعمل تمرينات رياضية لتحريك أضابع الأقدام وقبض وبسط عضلات الساق والأفخاذ لدفع الدم للعودة، ولا أجد في نفسي ذرة رغبة في القيام بأي تمرين أو تحريك أية عضلة.

الموت قادم.

لا أراه فهو ليس شبحاً أو ملاكاً أو قابلاً للرؤية ولكني أحسه، تماماً كمقدم المساء حين ينتهي العصر ويحتقن وجه الدنيا بالغروب وتحس أن الظلام لا محالة سيتبع هذا. الليل.. الصمت الأبدي.. عدم الحركة في تمامها واكتمالها وشمولها واستمراريتها.. المذهل لا استنكار، لا احتجاج، لا تفكير مطلقاً في أي مقاومة.. وهل يقاوم الإنسان مطلباً هو شديد الرغبة فيه؟ بل هو حتى لم يعد شديد الرغبة فيه إنما هو الانتظار الصبور غير المتعجل؟ فليجىء حين يجيء. فالجسد مسجى لا يتحرك، والوعي بأنه هناك ممدد ومسجى وساكن أو انتفاء الوعي سيان. وماذا يصنع الوعي من فارق إلا أن يجعل الانتظار معدوداً بالأيام والساعات، ومشوباً بالقلق، سيتكفل هذا الزاحف القادم بالقلق يستأصله وبالانتظار ينهيه ـ كما يتكفل الظلام بإخفاء الأشياء.. جميعها.. الجميل والقبيح، البعيد والقريب، الدافع للحركة والمانع لها.

ربما الشيء الوحيد الذي تبقى يخصني ويجعلني في لحظات أحس بصهللة الاحساس بالحياة، هو نوع من حب الاستطلاع.. كيف، إذا جاء سيجيء؟ كيف الناس يموتون، وأي احساس

بالضبط، وما هو ذلك الشيء الذي تواضعت عليه البشرية من قديم الزمان وأسمته طلوع الروح؟ أتأتي على هيئة «كرشة» نفس تنتاب الشخص لهنيهة ثم ينقطع النفس؟ أتأتي على هيئة استمرار طويل لنوبة من نوبات التوهان والدوخة التي كانت تعتريني بين الحين والحين حتى لأحس أني انفصلت عن وعيي وأنه بقي معلقاً مدركاً للموجودات من حولي بينما أنا هويت وأهوي بسرعة مخيفة إلى بئر لا قرار لها؟ لا أحس أني أهوي ولكن حين ينتفض شيء في رأسي يعيد وصل الوعي بالأنا الهاوية أحس أني فعلاً أصعد، ومعنى هذا أني كنت بالتأكيد أهوي.

كيف اذن ذلك الشيء المحير؟ تلك النهاية السؤال.. الموت؟ ان الجهد الذي بذله مخترع المحرك ليوجد الوسيلة التي يستطيع بها ايقافه عن الدوران لم يقل في رأيي عن الجهد الذي بذله لكي يحول المعدن الساكن إلى عجلة متحركة، فخلق الحركة لا يعادله سوى اختلاق السكون.. كيف سأسكن أنا؟ أيحدث إغماء محتم قبلها، أم إن بعضهم يكون احساسه بالموت هو آخر مدركاته بحيث تكون النهاية هي نهاية الادراك؟

ولك أكن أتوقع أن يأتي هكذا أبداً.

فجأة ذلك الصباح وأنا أداعب ابنتي الصغيرة قبل ذهابها المبكر إلى «أوتوبيس» المدرسة، حاملة جبل الكتب المقررة على الثانية الابتدائية ـ كتلة ضخمة تنوء بها البنت فعلاً لا مجازاً ـ فجأة وهي تجري لتلحق بالأوتوبيس الزاعق أحسست أني ـ بلا ألم أتنفس

بصعوبة. أشفط بطني كله لكي أخلق الفراغ في صدري، وما يكاد جزء منه يمتلىء حتى أحس بحاجتي إلى هواء أكثر، وهكذا في منتصف الشهيق أشهق، وفي منصف المنتصف أعود أشهق..

ولم يبرق خاطر وإنما مسمار رهيب. بخبطة شاكوش واحدة مفاجئة أدركت السلاح الذي اختاره الموت.. جلطة الرئة.. في ثوان ينتهي كل شيء. ولم أعرف، أنا المسجى ثلاثة أرباع ميت على فراش غائص بي، مقعر فعلاً، أني أمتلك هذه القدرة الهائلة على الهلع.

وكأنما كنت، وأنا أفكر بالموت بتلك السهولة واللامبالاة، أتحداه من حيث لا أدري، فحين استقر إلى درجة النزال وأمسك بسلاحه، أرعش الرعب كل خلية من خلاياي.

وعادة تليفون الجيزة لا يتصل بالدقي، فإذا اتصل ورد منزل جراح الشرايين الكبير لتقول لنا الفاضلة زوجته أنه في مستشفى قصر العيني الآن، فمعنى هذا أنك ميت لا محالة ميت. ان الجلطة لا يبدو أنها من النوع القاتل في الحال، وأن هناك احتمالاً لاستئصالها بالجراحة، والحياة، كل الحياة أصبحت معلقة بتليفون قصر العيني الذي أعرف منذ عملت فيه من قديم الزمان أنه أبداً عمره ما كان إلا مشغولاً مشغولاً مشغولاً، فالاتصال بالعزيز رئيس المكتب «تعبير تليفوني» وكأن المكالمة من الخارج أو إلى الخارج، وليدخل على الخط وفي ثوان يكون سامع على الطرف الآخر.. وفي ثلاث دقائق تكون زوجتي تقود العربة بأقصى سرعة وهي تؤكد ألا جلطة ولا

خوف، وإلى قسم التشخيص بالاشعاع الذري ومجموعة هائلة من عميد الكلية إلى الجراح إلى كتيبة من شباب الأطباء تتلقفني وتدخلني غرفة، الوحيدة في مصر التي ترسم الرئة بالألوان بواسطة عقل اليكتروني، وتظهر نتيجة غريبة محيرة. الرئة اليسرى ليس بها قطرة دم، ولكن أيضاً ليس بها أي جلطة.

ويشكون في صدق الآلة، فهذه نتيجة عبثية تماماً فمعنى خلو الرئة من لون الدم أنها لا تتنفس، بينما بالسماعة وحتى باليد صوت تنفسها واضح وجلي ومسموع.

ويتطوع الطبيب الشاب يشرح كيف أنهم في أمريكا يبتكرون بحثاً أو علماً جديداً اسمه: أخطاء الآلات وأنها تشكل كذا في المائة.

وكان لا بد من اعادة الفحص.

وأوضع من جديد تحت شقي الرحى، ولكن أي رحى.. أية غرفة تلك التي أنا فيها؟ حين تخرجت في كلية الطب كانت الآلة الهندسية الوحيدة التي نعرفها هي جهاز أشعة اكس وجهاز اصدار الأشعة فوق البنفسجية. ما أراه طب مختلف تماماً وفرع جديد اسمه الهندسة الطبية يتطور بسرعة الصاروخ ليبتكر كل يوم اختراعاً لم يتصوره أحد من قبل. آخرها.. ها هو موجود بالغرفة تقف أمامه أو تمد له يدك فيعطيك في الحال اسم ونوع ووزن كل عنصر داخل في تركيبك. ويصدر اشارات كسيرينة الاسعاف أو بوليس النجدة لدي

كل عنصر فيـه نقص أو دون المستوى المعتـاد. وكل هـذا حدث في أقل من ربع قرن.

شقا الرحى اللذين كمنت بينهما. أحدهما ثابت هـو الراقـد أنا فوقه، والآخر متحرك حركة رائحة غادية كحركـة نقاش يـطلى الجسم بشيء غير منظور، يسمونها طريقة المسح. مسح الرئة، مسح الكبد، في الـواقع مسـح أي شيء أو عضو تـريده، وأيضـاً ثبت من الفحص الثـاني أن الرئـة تتنفس ولكن بغير نقـطة دم. واستمرت المنـاقشـات طويلة ومليئة بتغييرات، كالأجهزة لم تكن في الخمسينات نستخـدمها بل لم نكن نعرفها.

ولكن آلات ما آلات. تشخيصات مـا تشخيصات. احتمـالات أسوأ احتمالات. لقـد عرفت أنـا مرضي أو بـالأصح حـالتي. . نعم أعرفه الآن تماماً.

وأنا متأكد منه. . الموت! زاحفاً خفيـاً، حتى بغير قفـاز حياء، أو تشخيص، فما الحل؟.

على مر عشرات ومئات ملايين السنين أصبح الشغل جـزءاً من التكوين العضوي للإنسان. صحيح أنه ليس عضواً كسائـر أعضائـه، ولا يـرى لا بالميكـروسكوب ولا بـالعين المجـردة، ولكنـه مـوجـود. اشعاعات من المـوجات تنطلق من أجزاء جسمه وتشكل هـالة مـوجبة من الموجات الحية باعتبار أن الحياة في أعلى صورها هي أرقى وأدق وأعقد أشكال الوجود المادي الموجي، رغـم أنها مثل كـل الموجـات

والتموجات تلك التي تشكل صلب الوجود وقدرته على التبدل والتغير والتفاعل، مثلها مثلهن لا ترى بالعين المجردة ولا بالميكروسكوبات الالكترونية ولا بأي صورة ممكن أن يتفتق عنها العقل البشري في المستقبل. . إننا فقط نفترض أنها موجودات ونفترض أنها من مادة ما ولكن المؤكد أنها موجودة. . مؤكد موجودة وإلا لما كان الوجود. .

هذه الموجات المحيطة موجات التنبؤ والاتصال والربط العضوي الكامل بين الإنسان والإنسان، والإنسان والحيوان والنبات وذرات الرمال في الصحراء وماء المحيطات. وأقصى مجرة من المجرات هي التي تحرك الإنسان، أي تحرك زميلاتها موجات الداخل وتعطي إنساناً مثلك اتجاه وحكمة ورؤية وضرورة أن تتخذ الحركة ايقاعاً يؤدى، وفي أنماطه العليا يبتكر ما نسميه بالعمل. ويستوي في هذا أينشتين وأجهل فلاح في بلدنا. وكما يخصص ويركز ويضيف أينشتين والذي هو في وجوده أول الأمر نقطة التقاء وتفاعل للموجات أعطته القدرة القصوى على تصور الكون على هيئة معادلات وحل تلك المعادلات، وبالفعل أثبت أن المعادلات التي ابتكرها تنسجم تماماً مع قوانين الموجات وتجعله يتحكم لأول مرة في الموجات، وكانت القنبلة الذرية والانشطارات كذلك هي في فلاح بلدنا قدرة خارقة على الانحناء، وربما لأكثر من عشر ساعات، وهو ما لا يستطيعه أينشتين. . ولكل منا محيطه الخارجي من موجات. الجزء. . الأكبر الذي ينظمه هو العمل الملائم لموجاتنا الداخلية، بحيث متى تم التوافق العزفي بين نحن في الداخل ونحن

في الخارج. . نحن انتاجاً وابداعاً وجمادات، دخل الكائن دورة الكون رائعاً عظيماً ومنسجماً، وأرضى عنه الله والوالدين والاخوة والأصدقاء. . والناس.

وما انسحاب الحياة وتضاؤل اتصالاتها، ثم أخيراً موتها، سوى الخلل بين دائرة الداخل ودائرة الخارج. ولهذا يموت فوراً بعض الذين يحالون إلى المعاش. ومن بقي منهم حياً لا بد أن لديه بديلاً لموجة العمل واتصالاً آخر بالوجود والموجودات.

باختصار لا سفسطة فيه ولا نظريات، حين قررت ألا أكتب بينما موجاتي كانت قد رتبت نفسها لأكثر من ثلاثين عاماً على العمل الكاتب وتحويل الفكرة المختلطة بالوجدان وبالذاكرة الجماعية النشطة الاتصال بالعدد الهائل من نقاط الالتقاء والبشر. . اتصال كامل ذي اتجاهين، حين قررت التوقف خبت تلك الموجات وبدأت تخمد في جذوة الحياة، وأفضل المشي على الجري، ثم الجلوس على المشي، ثم الرقاد على الجلوس، ثم السكون التام عن الحياة. كان في حقيقة الأمر نوعاً غريباً مبتكراً من الانتحار. . توقفاً عن العمل، مثلي مثل أي خلية في المخ أو الكبد أو حتى الجلد تقرر عدم القيام بوظيفتها فلا ترسل الأنزيمات ولا تستقبل، وتنقطع الصلة بينها وبين العضو التي تنتمي إليه، ثم بينها وبين جسد الوجود الأعلى «الإنسان» والنتيجة حتماً أن تموت.

ولقد حاولت الخلية ـ والشهادة لله أنها كانت محاولات بطلة ـ

أن تستبـدل عملاً بعمـل، وتتسرب من حيث الكبـد مثلاً إلى الجـارة المعدة وتصبح خلية جوع وشبع، التهام طعام ومضغ فقط. والنتيجة كانت الكف عن وظيفة الحياة نفسها. فخلية الكبد لا تهضم ولا تستطيع أن تواجه حامض المعدة، بـل وتهلك حتماً إذا وقفتِ وظيفيـاً حائـلاً بين جارتها الكبدية تلك والخلية الأخرى. القـانون سـادر ولا بد أن يـظل سادراً، وأنا لا خلقت تخصصي أو اختياري ولا أستطيع أن أغير نوعياً أو عضـويـاً نفسي، كـل مـا أستـطيعـه أن أعمـل في اتجـاهي بكـل موجاتي، وأن أوسع دائرة الوجود من حولي. . دائرة وجـودي، وليس ضرورياً أن أجيب الديب من ديله أو أبني هرماً رابعاً. لعل السر الذي خلقني كـائن في أني ذات يوم سـأقول كلمـة تصل إلى إنسـان ما في مكان ما، وتلتحم موجتي على شكل الكلمـة بموجـاته التحـاماً ينشط آلاف وملايين ومليارات الموجات، ويتفجر الشيء الذي لم يكن قـد خطر على قلب البشر، فأنا قطعاً موجود بوظيفة ولأداء وظيفـة، وكوني قلت لا مجرد تمرد كخبط الرأس في الحائط، يكفي أنه أوصلني وأنا على حافة أن أموت سكوتـاً أن أكتشف أن سر الـوجود هـو الحركـة، وسـر وجودي الشخصي أن أتحـرك، وبمطلـق وبمنتهى وبـأعـظم مـا أستـطيـع أطلق المـوجـات تلو المـوجـات وأستقبـل المـوجـات تلو الموجات، وأنا أخبط رأسي ليس في الحائط هـذه المرة ولكن بكفى نافضاً عن نفسي كل ما اخترعته تلك النفس لتحتـج على سوء تـوزيع دورها سكوتاً. . فهذا هو بالضبط طريق الموت.

والموت ليس ضروريـاً أن يكون صـاعقاً مفـاجئاً كالذبحـة، انه

كـأضرار التـدخين أضعفها وأوهنهـا، وبريء تمـاماً بـراءتها أو هكـذا يبـدو. انه المـوت الأخطر والأبشـع، المـوت حيـاة كحيـاة المـوتى، الموت سكوناً وسكوتاً وصامتـاً، الموت تمـرداً وقتياً عـالي الضجيج، فشديد الضحة يصم كشديـد السكون. الحيـاة.. ليس مجردهـا وإنما خلقها خلقاً، ويومياً خلقها خلقاً، تعدي الآخرين بها، تنشرها كالوبـاء صحـة، تبثها مـوجات إثـر موجـات.. مـوجـات صحيحـة كـالجنين الجميل القابل للتشكيل حسبما تريـد. الحياة سـامية شـامخة بشـرف وبلا مساومة أو ازعاج ضمير. الحياة الحلوة ليس دفعاً بالأكتـاف ولا عدواناً على الآخرين ولا استغلال لحاجتهم. ما أروع أن تصحـو من نـومك اليـوم وتختار أي عمـل طيب بسيط تفعله حتى لـو كـان زيـارة لسرير مريض مجهول لا أمل له ولا أهـل. إذا كنت فقيراً أعـطه كلمة طيبة وبرتقالة، وإذا كنت غنياً وقادراً ابن له مستشفى.

● ●

يموت الزمار وأصابعـه تلعب. فالعـزف شكل مـوجات وجـوده وحتماً يظل يعزف ويعزف إلى آخـر الرمق، فـالمسألـة ليست هزلاً.. ان لها قانوناً. وهكذا بدلاً من الموت كفاً وكفراً بأداء الـدور.. أليس الأروع أن تظل تعزف، مهما بدا عزفك نشازاً وشاحبـاً فحتما سيـأتي اليوم الذي يعلو ويجبر الناس من صدقه على السمع، أو حتى إذا لم يأت اليوم.

فماذا تفعل؟

انه وجودك، لا فكاك منه.

فشمس الشموسة قد طلعت.
وما أجمله من صباح!.
سأجعله أسعد صباح عشته في حياتي.
وسأقول لنفسي كل يوم سأجعل من هذا اليوم أروع أيام حياتي.
ولن أدع شيئاً أبداً أو شخصاً، يحيله إلى يوم قبيح.
الأمر صدر من اشعاعات الشمس الطازجة التي لا يزيد عمرها عن ثماني دقائق: قم وافعل شيئاً تفخر به أمام نفسك وأولادك ويفخر به أحفادك، فأنت أعظم مخلوق في هذا الكون الفسيح الذي لا تصدق أبعاده.
أنت أروع ما فيه.
أنت الكائن الوحيد القادر أن يكون انساناً.
أتعرف ما هو الإنسان؟..

● ●

ملحوظة: رغم كل وأي أدوية أو عقاقير شفيت الجلطة من تلقاء نفسها.
الآن فقط متأكد أنها شفيت تماماً.
ولكن المشكلة، بعد، قائمة.
فما أزال حبيس قدري وموجاتي، مهما صرخت أو تحاييت أو تماوت أو مت، أيمكن أن يكون الحبيس سعيداً؟
حتى لو كانت حياته في سجنه!..
أممكن أن يكون الحبيس سعيداً؟

١٩٥٠٢

ظن في بـادىء الأمـر أنـه مغمض العينين. بـاستمـاتـة حـاول فتحهما. لم يستطع. كانتا فعلاً مفتوحتين. المـرآة أمامـه. بكل قـواه حدق. الفضة العاكسة تعكس كل ما أمامها. الحائط من ورائـه بلونه القاتم واضح ظاهر. الستـارة المضاهيـة ظاهـرة. خلفه البـاب هناك. كـل شيء. كل شيء، ولكن الشيء الـوحيـد، وجهـه، ليس هنـاك. جن. انقض بيـده على وجهه يتحسسـه. أمسـك بخصلة من شعـره. اليـد بقوة ووحشيـة تتحسس الجلد واللحم وتكاد تغـور من تحتـه في العـظم، ولكن وجهه غيـر موجـود في المرآة العـاكسة.. مستحيـل. لست في كابوس.. أنـا صاح تمـاماً ومـدرك.. بالأصـح كنت نائمـاً وصحـوت. صحوت عـاقلاً. أسمـع صوتي هـا هو: أنـا أتكلم فـأنـا موجود. أنا أسمع كلامي فأنا صاح. أنا لم أجن. أنا عاقل أعرف من أنـا؟ ما عملي؟ متى ولـدت؟ أين أبواي؟ أنـا في المؤسسة. بـالضبط في دورة مياهها. كنت في لحظة خاطفة أشرب من نـافورة الكـولديـر في الخارج وأنا في الداخل أحـدق في المرآة.. القيشـاني من ورائه ظـاهر. النـافذة مفتـوحة. المنـظر الخلفي البعيد أراه. بـرج القاهـرة

منتصب في مكانه لا يزال. الدنيا نهار. الشمس نصفها فوق الأرض، نحن في عـز الـظهـر. الضـوء. . صـوت الحنفيـة التي دائمـاً تخـر. يسمعه. إلا هو.

ضحك. . قهقه. . انطلق يجري إلى دورة مياه المديـر. . نظر أيضاً وأمعن في التحديق. . لا أثر لوجهه. الصابونة الغـالية معكـوسة في المرآة. الفوطة. فوطة المدير العام التي ينشف بهمـا يده وأجـزاء من وجهه وجسده في بعض الأحيان، هناك. لـونها بمبي. بهـا البقعة الحمراء ذاتها التي كانت موجودة بالأمس. . السيراميك الزاهي. أعاد النظر. مطلقاً لا أثر لوجهه. كـل شيء إلا وجهه أو رقبتـه أو أي جزء منـه، يده فـردها إلى آخـرها أمـام المرآة، ولكنـه يرى اليـد ولا يـرى صـورتهـا. جـرى إلى حجـرة «شمس» التي تمتلك جهـاز التسجيـل الوحيد لتسمع عليه طـوال ساعـات العمل أغـانيها المفضلة. استـأذن منها فلم ترفض. لم تقبـل. انكبت على «التريكـو» وكأنهـا مستغرقـة تماماً فيه، أخرج الميكروفون من جراب الجهاز. تنحنح. ضغط على الأبيض والأحمر ليسجل. أنا ـ وتردد ـ فلان الفلاني، العاقل الكـامل العقل. سيداتي سـادتي والآن إليكم الفقرة التـالية من بـرنامـج أقوال الصحف حيث ينتقـل الميكـروفـون إلى إذاعـة خـارجيـة للوصف التفصيلي لمبـاراة كرة القـدم بين الزمـالك والكـروم. وشـك حلو يـا كـابتن لطيف. أظن كفى. أوقف التسجيـل. ضغط زرار الترجيـع. . أدار الجهاز نفس أغنية وردة: وحشتوني. استمع واستمع ووصل إلى حيث الرقم الذي بـدأ التسجيل عنـده ووردة شغالـة ولا أثر لصـوته.

استمر يسمع، ليس هناك إلا وحشتوني وحشتوني. استمع إلى أن انتهى الشريط ولا أثر. الحقوني.. جرى هابطاً الأدوار كلها. نفس سعاة وعلامات ومصليات كل دور.. في لهوجته داس بكل ثقله على قدم عواطف وكيلة العلاقات العامة الحامل في شهرها الثامن، لم تصرخ ولم تحتج.. وصل إلى الشارع.. على الباب الرئيسي وقف يصرخ بأعلى صوته، الناس تروح وتجيء، لا أحد يلتفت. لا رأس يرتفع. ملأه الغيظ تماماً. والله لاعملها. خلع كل ملابسه، قطعة قطعة وتعمد أن يقذف كل عابر بقطعة، ويزيحها (اللوح البارد)، وينظر إلى أعلى وكأنه غسيل سقط من حبل يلقيه أصحابه.. إنها ملابسي أنا يا حمقى.. أنا هنا واقف عريان كما ولدتني أمي.. ها هو ذا جسدي كله. أنا هنا. يا أولاد الحلال. والله العظيم أنا أهه. أنا هنا. يا محسنين أنا هنا. التفتوا حتى. اضربوني. أنبوني.. موتوني. يا أولاد الكلب. أنا هنا. الحق لا بد أبصق عليكم.. استمروا غير مدركين أو مبالين وكأن لا شيء يخجل وكأن لا شيء أبداً يحدث. النجدة. الحقوني يا هوه. لا بد جننت. أو أنكم جميعاً جننتم. زوجتي. المنقذة. النجدة. بيتي. أولادي. عقلي كله لا بد هناك. جرى. انحشر في الأوتوبيس. دفع الناس بغلظة.. خيل إليه أنهما تمايلوا. فقط تمايلوا وكأن لا آدمي هو السبب. أصدر أصواتاً منكرة. لم يسمع إلا الكمساري يقول: تذاكر.. قرص سيدة. لم تتحرك. عضها في ردفها. لم يرتعش لها ردف.. لم يأبه أحد. قفز من الأوتوبيس فاستمراره فيه جحيم سيفقده عقله. أمام عمارتهم وقف. تطلع. زوجته تطل من الشرفة. لمحها من أسفل ونصفها

مـدلى تنشر الغسيـل. نط قلبه من الفـرح. لم ينتظر المصعـد. أخـذ السـلالم قفزاً واثنتين اثنتين. دق الجـرس. . دق ودق ودق. وكأن لا أحد هناك. لا جواب. جلس على البسطة وكاد يبكي. لقد رآها تنشر الغسيل. وهي بالتأكيد في الـداخل. جـاء بائـع العيش. دق الجرس فتح له الباب رجل يرتدي فانلة بحمالات وبنطلون بيجامـا أحمر. من أنت؟أنت مين؟الرجل يسأل بصوت عال:عايـز كام رغيف مقمـراً؟اندفع نـاحية البـاب. . دفع الـرجل الضخم الـذي لم يتحرك ودخـل. رأى زوجتـه مقبلة. . نط قلبه نـطتين. الآن سيعود إلى الكـون ويعـود إلى الكون اتزانه وعقله. قابلهـا فاتحـاً ذراعيه. . . أطبقهمـا على الهواء. فالرجل الضخم كان قد أخذ العيش وأغلق الباب واندفعت هي تتعلق برقبته دون داع مطلقاً وكأنما لتغطيه. جاء طفل يبكي. هل هو ابنـه. هو فعلاً عمرو ابنه. حملت الطفل بيـد ولفت يدهـا الأخرى بصعـوبة حول رقبة الرجل. زوجها. هكذا فهم. يا مجرمين. هـذا بيتي. هذه زوجتي. هـذا ابني. فمن يكون هـذا الطويـل الضخم الهايف؟ هـل مات هو وتحول إلى أثير لا يراه أحد؟ ولكن الأثير لا يرى، هو يرى. الأثير لا يسمع، هو يسمع. الأثير لا يدرك، هو يدرك. المجرم يزيح زوجته في تبرم وكأنما هو زوجها وقد بدأ يملهـا. انه حي. أنـا حي. هـذه يدي. أعضهـا فتؤلمني. أليست هـذه أصـابـع تتحـرك أمـامي؟ أليست هذه ساقاً؟ انها مؤامرة. إنهم قد طلوه بـطلاء كالـرجل الخفي بحيث لم يعد يراه أحد؟ ولكن منظاره هناك. وهو قطعاً غير حر وغيـر مكبل. أيقفز في الهواء ويوقف شعورهم رعباً؟ أنا موجود يا كلب أنت وهي. أنت يا ابني أنت ابني أنا. هذا يا عالم بيتي.

فرت الدموع من عينيه. بكى صامتاً. ثم رفع صوته إلى آخر المدى. جعير. كان كفيلاً بأن يفرج عليه الجيران وجيران الجيران والشارع كله. ولكن. وكأنه مات. يبكي ووحده الذي يسمع. يا ربي. عبدك أنا موجود. فأمر عبيدك أن يروا. دخل حجرة الرجل. انتقى قميصاً وبدلة وحذاء ورباط عنق. ارتداها.. أكبر وأوسع منه. تصور أنه حين يخرج إلى الصالة على الأقل سيوقفونه بتهمة السرقة. بنت يا «رقية» أنا عبده حبيبك. أنا «دودة» كما كنت تدللينه. هذا الركن احتوانا. عيناك كم احتضنتاني. حضنك اندسست فيه. عمرو أنا أبوك. أنا بابا.. أنا دادي. أنا الذي طالما تعلقت برقبته وطلبت منه الكرة والبسكليتة والشيكولاتة. لم يعد يستطيع. انطلق كالقذيفة فتح الباب. أخذ السلالم قفزاً قفزاً. حتى البواب المؤدب لم يأبه له. تعمد أن يقفز فوق سطح عربة تاكسي. ويزحف فوق المقدمة حتى يغطي الزجاج الأمامي ويعمي السائق. والسائق سائق. لا يتوقف.. من تاكسي إلى تاكسي إلى عربة، عاد للمؤسسة، تعمد أن يصفع رجل الأمن صفعة لا بد دوى لها المكان فلم يسمعها ولا جرى الرجل وراءه. في ومضة صعد إلى الدور الأول. ليس هو الأول. لقد كان مقر رئيس مجلس الادارة. ولكنه لم يجد رئيس المجلس ولا مقراً له لافتة كانت في مكانها، معلقة لافتة شركة «الكودمو» بالعربية والانجليزية. أيكون قد أخطأ؟ هبط. قطع الشارع طولاً وعرضاً. من المؤكد أنها المؤسسة. هذا هو المستشفى المجاور. هذه هي محطة المترو. هذا هو الكوبري العلوي. عاد يجري، الدور الثاني تعمد ألا يقرأه. الدور الثالث كان فعلاً دوره

الثالث، حيث يوجد مكتبه. الحجرة التي يجلس فيها صغيرة وطالما اشتكى من صغرها ووعدوه بحجرة أكبر، ولكنه على أي حال يجلس في حجرة بمفرده. فتح الباب. انفتح.. الأثاث هو الأثاث. المكتب مكتبه. ولكن الجالس عليه ليس هو. سيدة. شديدة الأناقة مندمجة في حديث خطير مع زبون.. هذه مؤسسة. وليست «بوتيك».. هذا مكتبه. انه موظف هام. والحديث عن صفقة شامبو. لا أقل من عشرين في المائة.. يقف مصعوقاً يسمع. قاوم الزبون. لانت السيدة. وافق الزبون.. تمت الصفقة دون أدنى انتباه له. قبلة على اليد الناعمة انتقلت بسرعة إلى الخد الأيمن، ثم عبرت إلى الأيسر، مارة بالشفتين.. لا اعتراض ولا مانع.

تكوم في ركن منهاراً ولكن قشعريرة حمى جعلته ينتفض.. لا بد هناك خطأ جسيم ما. انطلق صاعداً هابطاً باحثاً عن رئيسه مدير المستخدمين. لا توجد لافتة واحدة لأي مدير. حجرات مرقمة مختلفة. أبوابها في درجات الأهمية وكأنها حجرات سرية. انتقى أكثرها أهمية. بقدمه وساقه ركل الباب ودخل.

كان اجتماعاً يضم وجوهاً شقراء وحمراء وبعضها أسمر.. المناقشات هادئة جداً. والطرقة مكيفة بجهاز صامت لا صوت له والكلام يكاد يكون همساً: زعق وزعق وزعق وظل يزعق حتى انحشر الصوت في حنجرته وانحاش صوته وأصبح لا يستطيع سوى مواء كمواء القطط الشريدة الجائعة. أدرك أن لا فائدة..

صعد إلى سطح العمارة. فتح نافذة الدور الأخير العاشر..

دون لحظة تردد مخافة أن يتراجع أو يعدل عن فتح النافذة .

قفز. حين وصل جسده إلى الشارع تكـومت حينذاك فقط جثـة مهشمـة الـوجـه مـدشـدشـة الـرأس التف حـولهـا مئـات من محبي الاستطلاع واللاحول واللاقوة إلا بالله. كثـرت التعليقات. فـرق أمناء الشـرطة وعسـاكر الأمن. النـاس. جـاءت عـربـة الاسعـاف. . فتـح محضر. . مجهول الهـوية ذكـروا. إلى النيابـة أحيل الـدوسيه. أشار الوكيل. دفنت الجثة.

قيـد الحـادث ضـد مجهـول. أخـذ الـدوسيـه رقم ١٩٥٠٢ محفوظات.

أنصَاف الثائِرين

في الليـل لمـا خلى إلا منـه، ولـم يكن الشـاكي! وليس حتى ذلك الرضا المؤقت عن النفس بعد عمل باهـر. تائـه. الهدف مهم، حتى المشاكل حين تقع تصبح هدفاً. المهم ماذا بعد. بكلمـةٍ انتهى الإشكال. دقائق مِعدودة حدث فيها كل شيء حين يجيء الليل وأنت لا تعرف لمن وإلى أين تذهب؟ حين يجيء الليل ويسحب الكائنـات كل إلى عشه ومستقره ومقامه، ووحدك تبقى وحدك وحولك لا يوجـد سوى الظلام واللاهدف. حينذاك يعود الليل شيئاً آخـر. عمى أصاب الشمس أو غولاً ابتلع الدنيا والناس، ولا تتحول أرض النهار كـالعادة إلى ليل وقد تغير منها اللون فقط تصبح الأرض المستوية بحراً، ليس مجـرد تشبيه، تتحـول حقاً إلى بحـر، الريـح أمواجـه والظلام آفـاقـه والإضاءات البعيدة أو القريبة مراسيه ومناراته.

وفي الليـل لما خلى إلا من الشـاكي، صوت عبـاس يدنـدن، يطرد الوحشـة، لكن الدنـدنة تؤكـدها، يعلو الصوت، يغني، يطلب الـونس فيتحدث إلى الليـل المسكون بـالظلام الـراسـخ العميق. في الليل لما خلى، الجمال الوحيد في صوت عبـاس أنه يجعلك تتـذكر

عبد الوهاب وهو يغنيها، وبحنجرته الحلوة يستأنس كون الظلام، ويضيء على مدى الصوت الرخي أنيق الشموع.

في الليل والعربة تجأر، تصعد، تميل، تتلوى، صندوقها المغلق الكبير يتأرجح فهي تسلك الطريق الوعر الخالي من أكشاك المرور وعساكر المرور. فقد سحبوا الرخصة منه من زمن لضعف بصره، وفي الليل يزداد ضعفاً ويزداد تأرجح اللوري فوق جسور المصافي غير المهدة وغير المعدة لمرور العربات، أي عربات.

في الليل والعائلة الغريبة منكمشة بجواره، الزوجة وضعها الرجل لصق الباب غيرة عليها أن تكون محشورة في الوسط بينه وبين السائق، والأولاد في الدواسة وفوق ركب الأب والأم وفي كل مكان. في الليل وقد مضى النهار المزدحم، ذلك النهار. قصته الكاملة لو كتبت لاستغرقت كتباً.. بل لا أحد بإمكانه أن يحيط بها كلها.

عباس السائق جذبته الأغنية وغرق في دوامتها. الليل صاحبه القديم، والليل عمره، بل أصبح قدره، ولم يعد سواه ملجأ يحميه من النهار، نهار الناس العاديين والقانون العادي، نهار البوليس والتفتيش والرخص، النهار الذي يضبط فيه كل شيء ولا يفر منه أحد ولم يعد له سوى الليل ذلك الليل الذي خلا إلا منه ومن محتويات (لوريه) من بشر وأشياء وخيالات، يستجير به معيداً حتى لا يتخلى عنه، إذ حتى لم يعد يرى أمامه أي مرفأ.

قطع عباس اندماجه وسأل: مريوط؟ مريوط؟

حجاج الراكب وصاحب الكومة الأسرة فرح، فالسائق في العادة ذلك الذي اعتاد الصمت وقصر حواره دوماً مع الموتور، إذا أجاب مضطراً خرجت الإجابة من أنفه، تكبراً يقولون، تكبر السائقين الذين يعرفون أنهم فوق الناس لأنهم يعرفون ما لا يعرفه الناس، تحت امرتهم سر الصنعة، والآلة اللغز، سلسلة في يدهم، الآلة لغز في عالم يحيا بآلات من الحمير والكارو والجاموس والنهيق. الآلة. أصبع الحضارة البعيدة تخترق الفيافي وتظهر هنا، معجزة ومرعبة، وسيدها عباس أو أي عباس، وحتى لو كان نظره شيش بيش ليجعل تكبره على الآخرين أقل شموخاً، ولكنه حتماً يملك ذلك الشموخ.

مريوط، لماذا مريوط؟ وهل يعقل، وفي هذه الساعة أن يطرق حجاج «أفندي» باب أنيس أفندي ولغرض كهذا الغرض؟ مريوط مريوط مريوط، وهذا البغل ذو الكرش المحشو جشعاً ونتانة. مريوط يا ابن بائعة الفجل الذي أصبحت صاحب أرض وبفضلي أنا تحولت من «بقجة» القماش تحملها لتبيعها بالمتر والنصف متر في الأسواق إلى صاحب دفتر شيكات ضخم بقلمك المذهب تستطيع أن تضع أي رقم وتوقع، ولتوقيعك قيمة وسمعة، أعظم من سمعة محافظ البنك الأهلي، وورقة دفتر شيكاتك أضمن من الورقة أم مادنة، والمميزة بالصورة المسحورة لأبي الهول مريوط مريوط، يا حسن بن وهيبة بائعة الفجل، يا من سموك يوم ولادتك حسن الكبش، لفرط شبهك به، ثم لما تاجرت وأصبحت صاحب عربة خضار سموك المعلم، وتلاشى الكبش من اسمك، وذاكرة الناس للأسماء

وللألقاب ضعيفة، خاصة إذا كان أصحابها يكبرون والناس تصغر وحسن بك أصبحت، مائة فدان تملكها رغم أنف قانون الإصلاح الزراعي وقوانينه الصارمة لمنع التحايل، ومائة أخرى تستأجرها رغم أنف قوانين الايجار الحاسمة، مائتي فدان. . الجناين مائة، والخضار مائة. والسراية اسمها الشاليه، والسور الذي يحيط بالمائتي فدان أسلاكه شائكة وفي الليل مكهربة، وماكينة النور تكفي لإضاءة مدينة، وحظك نار، بمائة جنيه لهفتها والأرض فدانها بألف، وصاحبها الخواجة يبكي، فالعمر أضاعه، يصنع من الجنينة جنة، قنواتها بالأسفلت ونقل الفاكهة والخضار يتم بقطار صغير ذي عربات قلابة وأوناش، وخيم للرش وموتورات، وببلاش أصبحت «بك» ولو كان ممكناً لتخطيت بأرض الخضار ومزرعة الدواجن والبهائم وخلايا النحل وحتى بتقطير زهر الياسمين وحده، رتبة الباشا.

فلتكن مريوط.

الخواجة كان أحسن. ألف مرة أحسن! خواجة على غير الدين والملة لا يكذب ولا يغش ولم يذهب ليحج ومعه حقيبة ضخمة فارغة وعاد بملء عربة لوري بضائع للتجارة والاستهلاك.

الخواجة كان أحسن، وكان في أيامه وطنياً صميماً ووفدياً قحاً، وعباس السائق هذا نفسه كان حين يريد أن يسترضيه يضغط على «سيرينة» العربة النقل لتعزف ذلك الهتاف المموسق يحيا. . النحاس. . باشا. .

خواجة وأحسن وذمته أنظف، ولكنه ذهب لأنه كان يمت إلى جنس كبير حرفته السرقة المنظمة المقننة، والارهاب بالقتل العسكري المباح، والاحتلال طريقته في السطو المسلح. خواجة واحد نظيف في عصابة قوامها عشرات الملايين من السفلة. وراح.

والجنينة في الحقيقة لا كانت جنينية الخواجة، ولا جنينة حسن بك «الكبش» سابقاً حين لهفها لهفاً. الجنينة جنينة حجاج.. جاءها وبها أربع شجرات «كازورينة» عجاف. جاءها وهي بور. حتى الحشائش لا تقوى على النمو فيها. وبيده. بيده وحده أحياها، بحذائه ينغرز في الوحل، بالليالي يسهرها حتى الفجر، لا يزيد الري جرعة ماء أو ينقص، ولا يزيد السماء ملليجرام أو يتغير. بالبهائم رباها .عام وراء عام تحيل بقاياها وعلفها إلى طبقة أرض نيتروجينية جديدة، تختلط بالقديمة، وبالطمي، آلاف الأطنان من الطمي والرمل، من شيء كان كالرأس الأصلع الخالي تماماً حتى من الزغب، شعرة شعرة راح يزرع، وحوضاً حوضاً راح يزحف بالخضرة والخصب، حتى، بعد سنوات عشر، أصبحت تلك المعجزة التي تتحدث بأخبارها ألسنة المارين ركوباً في أوتوبيس أو سيراً على أقدام بجوار الحمير المثقلة.

أصبحت جنة يستضيف الخواجة «شيميز» أصدقاءه ومعارفه، وكل من يكاد يعرفه أو يلقاه، ليريه «ايزابيللا فارم». كمن اكتشف المعجزة، كمن حقق أكثر المستحيلات استحالة، في شرحه وحماسه، ووجناته المحمرة يندمج، وتنطلق دفعات الكلام من فمه

صادقة أو كالصدق، كأنه هو الذي قام بالعمل وحده، هو الذي غرس، هو الذي قام على «المشاية» وسهر، هو حتى ذلك الذي أقام هذه «الفراندة» الأصيلة التي لا مثيل لها ولا لروعتها. في وسط «ايزابيللا فارم» تماماً تقوم شجرة كازورينا هائلة الضخامة، هي مع الكازورينات الثلاث كل ما وجده في الأرض حين اشتراها. يندمج تماماً حتى ينسى اسماً أو تاريخاً أو حادثة فيتلفت لحجاج أفندي السائر متواضعاً خلف الجميع، الصامت تماماً دوناً عن الجميع، الذي اعتاد على اغتصاب الخواجة لمجهوده ودوره، حتى لم يعد يزعجه الأمر، فليتكلم ما يحلو له الكلام وليصمت حجاج تماماً، فثمة ألف شيء تتحدث نيابة عنه، كل شجرة، كل عرق من شجرة، كل ثمرة مانجو، كل عنقود عنب، كل زهرة ياسمين، كل نخلة، كل «قرص» عسل نحل، كلها دوماً يراها ويسمعها بعين غير عين الجميع، وأذن غير أذن الجميع، إذ بأذنه وعينيه وحدهما يسمعها، تبثه الشكر والحمد، تغرقه في اعترافها بالجميل ألى درجة أن لو أشار لها بالكف عن النمو لكفت. أن تكف عن انتاج الثمار لكفت. الخواجة له الأرض وله النقود، وله الشاليه المذهل، وله ذهول الضيوف، وآهات انبهارهم ودهشتهم، ولكنه هو الذي يملك ما هو أعظم من ذلك كله، يملك أجمل وأروع حديقة حياة أرغمه هذا الفحل الأصلع على أن ينشئها فأنشأها.

وكمن يشير إلى برج ايفل، يشير الخواجة إلى شجرة الكازورينة، لتكون المفاجأة، اندفع يسرع راكضاً ناحيتها، والركب

والـركض يتبعـه، وهنـاك، وكـأنمـا يكتشف في التـو معهم، يتـطلع ويتـطلعون، وفي أعلـى مكان في شجـرة الكازورينـة العـاليـة، حيث أقيمت، من نفس الأفرع غير المهذبة «فراندة» مستـديرة مـريحة ذات سـور تحيط بالشجـرة كلها، ومن نفس الأفـرع، وعلى نفس حـالتهـا صنـع للفرانـدة مقاعـد ومناضـد، وكالـطفل الـذي فقد اتـزانه، يبـدأ الخواجة شيميز يتسلق السلم المصنوع أيضـاً من الكازورينـة، وليبدو كأنه مجرد فرع شـذبت نهايـاته قليـلاً. للسلم والدرابـزين، وخرطـوم الميـاه الـرقيق، وأسـلاك النـور التي طليت بنفس لـون الشجـرة، والمصعد ذو البكرات الذي يتحرك حاملاً الطعام أو العجـزة الذين لا يستـطيعـون الصعـود أو أجهـزة المـوسيقى أو مـا شـاءوا من صنـاديق الشراب. ولأن الأسئلة حينذاك تنهـال بكثرة وبـالفرنسيـة في الغالب، ولأن حجاج أفندي له إلمام بها و«شيميز» يعلم هذا! ويعلم أيضاً أنـه قـد ظل أنـانياً إلى درجـة لم تعد تحتمـل، يتحرك الضمير، معتـرفـاً أولاً بأن برج «الكـازورينة» هـو فكرة أراد حجـاج أن يفاجئه بها حين استضـاف وزير الزراعة يوماً، ثم تتوالى اعترافاته، وحتى ما لم يعترف بـه بينه وبين نفسـه يبدأ من تلقـاء نفسـه يشيـر إلى صـاحب فكـرتـه وخـالقهـا. وتبـدأ السيـدات تضـع النـظارات تفحص هـذا الصـامت العبقري وتتأمل أنه هو الرجل المقصود، يصبح ارتباكـه أعظم من أن يحتمل، ولا بد أن يعذر، ان لم يبد وجيهاً أو مقبولاً، فالأمر لا يهم، يختفي حجاج، وتختفي الخواجات والطبقـة، وفي أسبوع واحـد يبدأ «شيميـز» الفـرنسي يفكـر في البيـع، ثم البيـع، ثم تهـريب الثمن، والأسبـوع التالي يجيء عليـه وهو في مـرسيليا وقـد عاد إلى «الـوطن

الأم» بينما كان في الحقيقة، وفي نفس هذا الوقت يبكي وقد أحس لأول مرة أنه فقد الوطن الأم حقاً، وقد ينجح «شيميز» وتكون له حديقة وضيعة ومزرعة، ولكنه أبداً لن يجد في ذلك الوطن الجديد.. برج الكازورين، ولا حجاجاً.

● ●

كما كان يعامل «شيميز» ظل يعامل حسن بك. لم يكن هناك ما يدعو لاستمساك حسن الكبش بالسيد حجاج هذا. انه من عائلة قوامها ألف رجل، كلهم فقراء، وأولى من حجاج بالعمل والماهية، ولكن أن يقلد الخواجة شيميز الذي اشترى منه المزرعة بإبقاء حجاج «مديراً» للحديقة والمزرعة، بنفس راتبه، ومسكنه في الركن الجنوبي للحديقة، أبداً ليس هو السبب الذي دفعه للاستمساك به، فالبند الذي ورد في العقد خاصاً بهذا الموضوع كان في ذاته نكتة، بند لا يعني شيئاً ولا يشترط للفكاك منه جزاء كل ما في الأمر أنه يدفع للعجب. أن يتمسك المالك السابق بموظف عنده بهذه الطريقة مسألة لا بد فيها سر. سر حاول شيميز أن يشرحه له أكثر من مرة بقوله ان حدائق كهذه ليست مجرد عقار أو سلعة، انها حيوان ومجتمعات كالبشر، ورعايتها تستلزم كرعاية أي أسرة.. الحب والرعاية والتفاني والحنان. وحجاج هو ذلك الراعي والأب، وأيضاً، ورغم التكرار والتكرار فحسن بك ظل يؤكد لنفسه أن في الأمر سراً، وأن الأيام كفيلة بإظهاره. الشيء الآخر أنه بدأ يشرح لحجاج طريقته، وأنه ليس خواجة، وليس «كروديا»، وأنه بدأها من عربة

اليد، ويفهمها وهي طايرة، ويعرف في الجناين وأمورها أكثر من صاحب دكتوراه، وهكذا عليه، إذا أراد أن يستمر «يأكل عيشه» أن يطيع: كذا يعني كذا. . مفهوم؟!.

يرمقه حجاج بعيون لا ترمش، ولا تريد أن يخفى عليها خافية، نظرة تطول، وتؤوب، إلى رأس ينخفض يفكر. من الآن عليه أن يدرك أن كل شيء قد تغير، ليس صاحب العمل فقط، ولكن عليه هو أيضاً أن يتغير، بل ربما على الأرض نفسها والشجر والزرع أن يتغير.

لقد كان شيميز يشعره أن الأرض وان كانت له، إلا أن كل ما هو أخضر فيها هو من صنعه ومسئوليته، وهكذا وعمره الآن تسعة وثلاثون عاماً، اعتصر نفسه وشبابه، وأحالها فاكهة خضراء وثمراً، وبينما أعاد للحديقة صباها وشبابها فقد هو كل صباه، وأصبح من يراه يظنه في الخمسين.

من الآن، عليه، كما فعل شيميز أن يبيع هو الخضرة كما باع الآخر الأرض، وأن يشتري صحته وحياته كما اشترى الآخر عنقه، وما دام حسن بك الكبش يريد أن يكون الصاحب والآمر والناهي والرأي رأيه والتصرف تصرفه، فليكن الأمر كما يريد، وليبدأ ومنذ الآن دوره الجديد، وما دام «المدير» قد ذهب مع الخواجة الذي ذهب، فليكن دوره مع الصاحب الجديد الآمر، دور المأمور المنفذ كذا يعني كذا. حاضر.

حاضر وهي حاضر. الري يعرف أن موعده خطأ، وطريقته خطأ، ولكن تأتيه الكلمة: ارو. حاضر. يروي.

وبدأت المسائل ترتبك. ويستشير حسن بك الدنيا كلها، ويعيد ما كان يفعله بأراضيه الأخرى، ناسياً أن لكل أرض معدنها. وشخصية العنب الذي ينمو هنا، غير شخصية بني جنسه ونوعه الذي ينمو هناك، ناسياً أن القواعد العامة شيء، والقواعد الخاصة التي تسنها الخبرة الطويلة شيء آخر. وكثيراً جداً من الأشياء تبدأ ترتبك.

وكان حرياً بحسن بك «الكبش سابقاً» أن يعزو الارتباك، ليس لما يصدره من أوامر، إنما يعزوه كالعادة لتنفيذ الحجاج السيىء ويجعل من هذا سبباً وجيهاً لفصله والتخلص منه.

وهو بالضبط ما كان يتوقعه حجاج وظل يتوقعه.

ولكنه الشيء الذي لم يحدث.

والذي ظل حجاج يضرب أخماساً في أسداس، متسائلاً عن سبب عدم حدوثه. وأنى لحجاج أن يعرف أن العلة في القلة.

وأنها شربة ماء كانت،ولكنها هي نفسها الشربة التي لولاها ما كان قد أصبح هكذا تائه الليل، في طريقه إلى «أنيس أفندي» عبر قنوات وطرق غير ممهدة إلى مريوط، والليل قد خلا، وسجى، ولا ندم، وكذلك لا فخر، ما حدث حدث ولا بد أن يحدث، بل حتى هناك في هذه الوقفة ما يستحق الفخر رغم أن فيها وسبقها ما يستحق كل خجل.

الثورة محدودة، وحين ثار، كعادته حين كان يثور أيام الخواجة، ويتلقى الخواجة الجانب الموضوعي من ثورته ولا تهمه الطريقة، بل أحياناً كان يستحسنها، كانت الثورة تأتي بنتيجة وفي الحال.

هذه المرة ثار فقد أمره حسن بك بتقليم العنب، والتقليم الآن معناه أن يقتله قتلاً، ولكنه الأمر، وقد تعود أن يرضخ، هذه المرة صمم تماماً أن يقول لا ولكنه لسان حسن بك خرج ولم يعد، خرج طويلاً سافلاً يلعن آباءه وأجداده. احتج. نصف احتجاج، فبنصف عقله الآخر كان يحسبها. فإذا استمر في الأمر فالفصل مصيره، والفصل يعني أن يبحث ليس فقط عن عمل آخر وإنما، وهذا هو الأدهى والأمر عن سكن آخر، فالسكن لمن صناعتهم الزراعة تبع العمل، ويعني أن يلف البلاد كلها طولاً وعرضاً يبحث عن زملائه من نظار الجناين ومأميرها ومديريها عن وظيفة ولو وظيفة خولي. بشرط أن يجد المأوى في بيت، ولو في حجرة. وهنا سكت نصف الموافق، وأوقف نصفه الثائر وقلم العنب، ومات العنب.

ومن بركان سفلي بشع خرج غضب حسن بك، يا حمار.. هكذا عيني عينك قالها:

ـ لماذا قلمت العنب؟

ـ ولكن هذه أوامرك.

ـ ومن قال لك أن تطيع أوامري؟

ـ سعادتك، الذي قلت: كذا يعني كذا.

ـ ولماذا لم تعارض إلى النهاية. لقد كنت أنا أفكر في التراجع إذا واصلت أنت المعارضة، ولكنك وافقت.

لماذا يعرف الخطأ ولا يقول لا ويظل يقولها حتى لو قامت القيامة؟!!.

والنتيجة: أنت مرفوت.. بحث لك عن عمل.

ـ ولكن أولادي. أنا لا بيت لي. لا بد أن أذهب أبحث عن بيت وعمل وأنتقل إليهما.

ـ من الغد عفشك بره، وأنت مرفوت، وإذا بقيت لحظة سأسلخ جلدك. وخذ..

ورمى إليه بعشرين جنيهاً قيمة «المكافأة».

ولم يكن هناك مناص فأرخص وسيلة هي عربة النقل التي يملكها عباس الأعمش والتي لا يقودها إلا في الليل خوفاً من ضبطه بلا رخصة وقد سقط في امتحان النظر ثلاث مرات، وإلى الطرق الفرعية المنحنية والمنحدرة والصاعدة والهابطة، ينشال اللوري وينحط، ويميل ويكاد ينهال في الترعة والمصرف، والعائلة مكومة في الكابينه، وعباس، يراه بعينه، كلما نقل عصا الفيتيس، يلمس ركبة امرأته، وحتى ابنته ذات الأربعة عشر عاماً، متعللاً بعصيان العصا، والليل قد خلا إلا من جثير الموتور المنهك، وجعجعة الدبرياج ولمسات الأعمش.

وأنيس أفندي يخرج من منزله في مريوط مذعوراً في منتصف الليل يعتذر فهو لا يعرف عملاً. لا يعرف مكاناً للإقامة. زوجته

مريضة وابنه يعاني الحمى، وهو مدثر ببطانية، وأنا آسف يا حجاج.. آسف. الظروف قوية، والعمل صعب والمزارع والجناين قلت، ولماذا لم تبلعها يا أخي؟

وحجاج يقول لنفسه: ولماذا؟ ما دام هذا هو المصير كنت لا أخلع الحذاء وأنهال به على الرأس الأصلع للكبش حتى أدميه، وعلى الأقل أخرج بكرامتي، ولكنه المصير الذي ينتظر أنصاف الغاضبين.

والليل قد خلا مرة أخرى إلا من لوري ذي سائق أعمش وعائلته تبحث عن عمل مأوى أو عن مأوى عمل والمتور يزأر، وعباس يغني في الليل لما خلي إلا من الشاكي، والنوح على الدوح.. وينسى بقية الأغنية ليمد يده إلى عصا الفيتيس، وإلى ما أصبح يصل إليه فوق الركبة، ثم يتذكر عباس الأغنية ويجأر بصوته: للصابر الشاكي.. والليل يمتد ويستشري ومن بحر إلى محيط يصبح، والعربة بركابها تغرق فيه وتغرق، ولا حتى من نجمة قطب عند الفجر تشهد.

لماذا لم يقتله؟

لماذا لم يكب راكعاً وأمره إلى الله ويقبل حذاءه؟.

اقتُلهَا

الحياة التي يحياها الآن كأنما هي بالضبط ما أراده طول الوقت دون أن يعي، والكرسي الذي يجلس عليه، والمنضدة الكائنة في الركن ـ ركنه المفضل، والكم الذي يجرعه من كوب الماء المثلج المضبب البارد، هو بالضبط ما أراده بلا زيادة أو أقل نقصان. كل نزوة تعن له حتى ولو تجاه امرأة يحيلها إلى نظرة فخطة حتماً تنتهي حسبما أراد لها. كانت مشكلته دائماً أن يحقق ومن أجل أن يحقق أصبح عليه الآن أن يقتنع. لا إيمان مطلق.. لا تسليم. التحقيق هو الحياة، والعمر يمتد مسطحاً أمامه أملس كالزجاج، يدحرج البلية ويأمرها أن تقف، بالضبط حيث كان واقفاً عند الخشبة الثالثة بعد المكسورة من السور، بالضبط هنا قفي أيتها البلية وحذار أن تتحركي، فمن الممكن وباستطاعتي أن أهدم الكون فوق رأسك.

في العادة حين نتذكر الشيء أو الحدث نلتزم بالخط الواحد، مذ لم يكن الحدث قد كان إلى أن كان وبعد أن كان. هكذا تصنع بنا ذاكرتنا، فوهي تجذب الماضي وتضمه لحظات معاً غير قادرة على التشتت إلا إذا كنا قد جننا، إما أن تتشتت وهي أعقل ما تكون وأثبت

ما تكون. . إما أن ترتد عيناك لتصبحا ليستا نقطتين ترى بهما ما أمامك، وإنما هما شريط بصري دائري يحيط بكل رأسك وترى به أقصى زوايا الكون، وبأذنيك وقد امتدتا وتفرعتا ملايين «الايريالات» حتى ليسمعانك نبض الكون الأعمق. . إذا عنَّ لقلب الكون أن ينبض، إذا استعدت الزمان والصوت والمكان ـ وبلا حدود ـ واستحضرت الحدث بلا ذرة تتساقط منه وأنت تستعيده، وكل شيء وكأنه لا يتجمع الآن ولكنه بقوة عظمى خافية يتحد ويشكل من الماضي حاضراً في قلب الحاضر الدائر، بل ولأصبح باستطاعتك أن توقف أو تبطيء من دوران أيهما، الماضي أو الحاضر، والاسراع بالآخر لتصنع من الزمن عجينة لها ما شئت من سمك، ومن المكان مساحة لها ما شئت من حيز، الذرة فيها في حجم المجموعة الشمسية، والمجرة فيها تستطيع أن تصغرها بأصبعيك إلى أقل جزيء ممكن.

حين تصنع هذا كله، أو يمكنك صناعته، فإما أن عقلك انتهى تماماً وإما أن عقلاً آخر فيك بدأ يبرز. . عقلك الأكبر، وويلك إذا انتهى عقلك وبقيت حياً! وويل ويلك إذا بدأ العقل الأكبر وأنت لا تزال سجين وجودك الأصغر. وفي الحالين أنت في لحظة جحيم. . واسمع سيدي.

وقبل أن تسمع سيدي. . اكبر أيها الحجم، وتضخم أيها المكان! واقترب أيها الزمان، لا ليس عاماً، بل شهراً، بل عدة أيام أريدك. اقتربي أيتها اللحظة. ليس كما خططت يومها لك ولكن

فاجئيني وكوني طويلة طول العمر. فأنت حقاً تساوين عمراً بطوله. اصبح أيها الحدث في قرب وجهها ذي النمش الخفيف. . ذلك الوجه. اقترب ولو عذبتني أكثر.

عذبك يا مصطفى ذلك الوجه. . الرموش البنية الغامقة انغرست طويلاً وكثيراً في حبابي عينيك وأنت مستعذب ذلك العمى البني المدبب. أفعلاً أحببت ذلك الوجه؟ أفعلاً كانت صاحبته تحبك؟. أم هو السجن والجسد الفائر والشبق الموضوع قسراً في زنازين من أقفاص صلبة لا تلين ولا تنكسر؟ اقتربي كثيراً يا لحظات عشتها وعاشتني، فأنتم أنا، ولكنه لأنا المستحيل ـ أعرف هذا جيداً ـ التجمع والتكون والعودة للوجود. فلا أنا انتهى عقلي الأصغر، ولا نبت لي ذلك الأكبر المهول بعد.

المسافة قائمة وباقية بينهم في «الدور» الثالث، وبينه على «البسطة» الأولى للسلم الحلزوني الصاعد في قلب العنبر. . والوقت طال وطال، والصبر نفد. فحين تكون فيَ السجن لا تستعذب أبداً أي صبر، فأنت دائماً في انتظار اللحظة التالية ولو لم تحمل لك أي خير أو حدث. فمن يدري؟ لعلها تحمل! لعل شيئاً خارقاً يحدث! أنت تتصورها وتحشوها بالاحتمالات وتبتهل عساها تأتي مثقلة. كان معهم. . مع الكبار حيث كانوا ولا يزالون في الزنزانة الواسعة بالدور الثالث. دخل عليهم ثم بدا من نظراتهم المتبادلة أنهم يطلبون منه الانصراف. أكان اجتماعاً مدبراً وجاء هو ليفسده؟ أم كان التدبير هو تلك الأسئلة الغريبة التي انهالت عليه ثم كفت فجأة؟ وبدأ تبادل

النـظرات، حتى أحس من التيار المـرسل والمستقبـل بين العيـون أن ثمة كلمة ضوئية تصاغ، أو بالأصح أمراً: قم. . وانتظر.

وقام.

ولم يطلب منه أحد أن ينتظر. فجعـل بينه وبينهم ثـلاثة أدوار، وجلس. . فقد كانت الكلمة لا تزال ترن في أذنه: لا تبتعـد كثيراً يـا بني.

لقـد سبقهم إلى السجن، هذا صحيـح رغم أنه الأصغـر، فقد جاء متهماً في جريمة قنبلة ألقاها في ملهى شارع الهرم. لم يمت بها أحد هذا صحيح، ولكنها جعلت منه كبيراً وبطلاً ودخل السجن. وكم عض أصابع يديه العشر ندماً. فقد كـانت رعونتـه هي السبب. . كان واجباً أن ينتظر إلى أن يعـد خمسة ثم يقـذفها بقـوة، ولكنه استعجـل وقـذفها وهـو يعد الثـالثة خـوفاً أن تنفجـر في يده، وبـظهورهـا بلونها الأحمر الغريب المثير المرعب انكفـأ الكل على وجـوههم، وكل مـا ناله ليلتها قطعـة من فخذ الـراقصة الـدهني الذي جـرح ظلت لاصقة بين ياقة قميصه وجلد رقبته. وكلما حاول استخراجها ضـربوه مخـافة أن تكون ثمة حركة مباغتة أو بداية عدوان، وهو يحس بهـا قطعـة من نار الجحيم اللاصقة قد غرزت كاوية جلده، حارقة لحمه حتى نخـاع النخـاغ. وفقط عند مـطلع الفجر ينجـح في انتزاعهـا. ينتـزعهـا هي ولكن أثرها لا يمحى. . يكاد يكون إلى الآن باقياً.

مصيره معروف. . انه يدرك هـذا، معروف لـه وللقاضي وحتى

للشحاذ الذي يدعو له كلما لمحه هابطاً من عربة السجن إلى المحكمة. . الاعدام.

فليكن! أبداً لم يفكر أن هناك موتاً بمعناه الذي تعارف عليه الناس، ولا خاف مثلهم منه. لكم أحبه قبل الحادث وابتغاه في أثنائه وبعده. كلما غور ببصره في أعماق رحلة الخلد التي سوف يقطعها به إذا استشهد، أحس أن الناس لا بد مجانين لتمسكهم بحياة هي خرقة بالية. . وستبلى أكثر مليئة بالأوحال والأقذار، لا تصلح حتى لتلميع حذاء. وأعظم شيء يصنعه الإنسان بها هو أن يقذفها بأطراف أصابعه، بعيداً بعيداً كي يزيحها عنه وعن الطريق إلى الخلود.

بل هو حتى أصبح يضيق بتلك المعاملة الخاصة التي تعامله بها جماعته. . المئات منهم الذين جاءوا بعده، ولأسباب مختلفة حين جاء أحدهم مرة وهمس في أذنه يسأله من أين هو وإلى أي أمير ينتمي؟ لم يخبره. وحين تكشف في السجن وبالسجن كل شيء وعرف السلسال من أوله لآخره لم يفرح، بل ولا غير من نظرته إلى غيرها. فالدين دين الكل. وهو فقط ضد الخارجين ومع كل الداخلين. قابله مرة وكيل وزارة الداخلية يحمل له عفواً وقائمة بأسماء كثيرة الغريب أنها كانت صحيحة تماماً ودقيقة جداً وكأنه هو شخصياً الذي كتبها، وحمل الورقة في يده، ورأسه ـ رأسك يا مصطفى ـ في اليد الأخرى، ومجرد توقيع ينقذ هذا الرأس. . توقيع صغير منك يا مصطفى يصنع هذا العمل الكبير. ابتسم للرجل في

طيبة واحتقار ودعا له أن يغفر له المولى ذنبه وأن لا يأخذ ذريته بخطاياه . . ومضى .

وأحس بيد توضع أو بالأصح تبارك كتفه، رأسه ارتفع . . الشيخ الجليل هناك مهيب في وقفته على السلمة الأعلى ، ابتسامته نقية وكأنما عليها آثار لا تزال طازجة من مياه زمزم . وقد خفض الشيخ يده من كتفه إلى كوعه واصطحبه . وسارا وخيل إليه أن السير في الفناء قد طال والشيخ صامت لا يقول شيئاً . وحين تكلم سأله إن كان يريد دخول الجنة، سؤال من هو متأكد مما سوف يكون عليه الجواب . ولهذا لم يأته الجواب، وإنما فرت من عين مصطفى دمعة وانحنى على كف الرجل وقبلها .

ـ لا . . لا . . لا تفعل . . لا كلام بيننا الآن . . لقد أعددنا لكل شيء عدته وسآتي لأبيت عندكم في زنزانتكم، وستعرف كل شيء بإذن الله .

كان مصطفى معجباً بهذا النظام الصارم الدقيق، فكل شيء يتم بالضبط كما يجب أن يتم، ولهذا فالكلمة هنا ليست كلمة ولكن في سبيلها يحارب المرء الجيوش، أما حارس الليل فقد تولاه زكريا، أما رقيب النهار فقد احتاج إلى مائة جنيه تسلمتها زوجته بالضبط في الميعاد .

والليل والزنزانة، والهمس، وانبلج السر الأكبر .

إن معهم في المعتقل، نفس السجن، شيوعيين وشيوعيات،

وللنساء موعد فسحتهن وللرجال موعد، بل هي مواعيد أربعة موعد لحرماتهم من المسجونات، وموعد للشيوعيات، ثم للرجال منهم، ثم للشيوعيين الرجال. يدخل هؤلاء ليخرج إلى الفناء هؤلاء. وكانت الجماعة، حتى قبل أن يلاحظ مصطفى، قد لاحظت أن شيوعية معينة تتلكأ دائماً لتكون آخر من تدخل قسمهن. وبتتبعهم الحذر الذكي إلى حيث تتجه عيون المتلكئة حددوا الهدف.

مصطفى، ذلك الذي يرتدي جلباباً بلدياً أبيض حليق الشارب والذقن رغم ايغاله في الإيمان بكل ما تؤمن به الجماعة، الصعيدي الأفندي الوسيم الذي ترتعش له قلوب العذارى.. أي عذارى، من هاواي أو من الحبشة، من لوس أنجيلوس أو الأنفوشي.. شاب ذكر يكاد يكون مصنوعاً كله من مادة رجالية خالصة، وهو وحده الذي لا يعرف بينما كل البنات والسيدات وحتى الشبان والرجال يعرفون.. ويوقنون. ودائماً كلمة: يا خسارة على شبابه تلمحها أذنه وأحياناً عيناه، صاعداً عربة السجن أو هابطاً منها، في يده الحديد أو خالياً من الحديد، قريباً من قفص المتهمين أو همسة تأتيه عالية من بعيد. حتى القاضي أحس مرة أنه ينظر إليه نظرة حسرة وكأنما حسداً لأب له كل هذا الابن.. وقلب سوزان يدق. وما أغرب هذا القلب وهو يدق فكأنما لا مبادىء ولا عقائد ولا نيران تحول بينه وبين الدق إذا أراد أن يدق، حتى وهو يتعمد ألا يراها ولم يرفع عينه عن الأرض.. طوال الأسبوع الأول كان يدرك أن قلبها كل مرة كان يزداد دقاً.

ولكن خافضاً بصره أو رافعه كان لا بد أن تلتقي العين بالعين

مرة، وهذه المـرة دق قلبان. قلب من فـولاذ عمره مـا دق، وقلب من الوجد كان قد ذات حتى تحول إلى عهن منفوش. . شيوعية رقـطاء، ولكن سبحانك ربي توزع الملامح على من تشاء بغير حساب لكـأنها من بنات حور العين، حكمتك، تؤتي الملك من تشاء وتمنح عيوناً ما وقع عليها وجه إلا وخر صريعاً لمن تشاء. . أنت الخالق ولكـل خلق لك حكمة، ولا بد لخلقها هـذا من حكمة، ولكنهـا أبداً لا يمكن أن تكون حكمة أن يدق لها قلبك يا مصطفى. . مستحيل.

عيناه اللتان سمرهما في الأرض يشـدهما إلى أعلى مغنـاطيس أعتى من كـل جاذبيـة، يشدهمـا في الـوقت المنـاسب تمـاماً، وفي اللحـظة المناسبـة لتستمر الـومضة، وأمـام عينيها تسترخيـان، تثقـل أجفانهما يتنومان. . يسلبان الإرادة. . يظلان مسمرين.

وإذا كـان الشيء بالشيء يـذكر، فـالشيء بالشيء حتى الشيء يحس بالشيء، فما بـالك والشبـاب شباب مصـطفى والطرف الآخـر صاحبة هـذا القوام والـوجه والعيـون. . سوزان! كـل هفة ثـوب منها تخاريف مجانين، صواعق مستأنسة، ومستأنسة وترعش الجبـال. . ما بالك وقوة أعظم من السجن والمتريولوزات المصوبـة والسور العـظيم الـذي يفصل بين فنـاء الرجـال وفناء النسـاء، واستعجال الشـاويشيـة والشاويشات، والصفافير، واختلاف المذاهب وعداء المذاهب، وكل ما يستطيع الكون أن يتآمر به ليبعد كائنين أو شيئين أو قوتين. . كلهـا قد جربت وفشلت. تسـاقطت واحـدة اثر الأخـرى وفي الحال، فعبـر السور العظيم كانت قوة الجذب أعتى من كل القوى، كأن حدثاً كونياً

قد أوقف كل شيء ولخص الزمن والأيام في لحظة تتجمع فيها كل لحظاته، وتلتقي متسائلة محمومة محيرة لا خيرة لها في أمرها أربع عيون كأنها قد تحولت إلى أطراف أربعة لكائن أرقى واحد، كائن سيظل باقياً ما بقيت الحياة على سطح الأرض.

أربع عيون وكل ما سواها عدم، كل شيء.. حتى نفسيهما أصبحا عدماً، وإرادتهما عدماً. فالموجود الوحيد صانع الحدث الصاعق هو رعد اللقاء وبرقه، والجذب.. الجذب الذي أبداً لا يقاوم، لتبدأ المرة الأولى الخجلى بصباح الخير تهمسها سوزان، والوقفة الأولى المرتعشة وقفة مصطفى عند ثالث خشبة من بعد الخشبة المكسورة في السور الفاصل بين العالمين.. الأرض ترتعش الأيدي المتشبثة بالخشب ترتعش، وحين جنت مرة وتماسكت الأيدي ارتعشت هي والأرض والخشب والحديد ووصلت الرعشة عنان السماء، بل وكادت أرجل الشاويش المنتظرة والشاويشة المسئولة تضحك ارتعاشاً هي الأخرى فقد تاه الولد في البنت وتاهت البنت في الولد.

وأصبح الحدث هو الحديث الوحيد الدائر بين جانبي السور.

وفي اليوم الرابع بعد الحدث، استدعوه، أو هكذا خيل إليه أنه هو الذي ذهب وحده إلى الطابق الثالث.

ولم ينزل.

لأيام ثلاثة طويلة طويلة، مضت، حتى اختنق.

وفي اليوم الرابع هبط الفناء لأول مرة.

وكانت هناك. . لكأنها مذ تركها آخر مرة لم تغادر المكان مرة، لكأنها ماتت وعادت تحيا هناك.

والتقيا.

ويده عبر السور امتدت.

وقلبها عبر يدها امتد.

واستماتت اليد على القلب.

واستمات القلب على اليد.

ولولا خوفهما أن يجازى الشاويش والشاويشة وقد طال تغاضيهما عن الموقف، ما افترقا.

● ●

ـ توكل يا ولدي على المولى فلقد قتلت فيك كل ما كان فيك يا مصطفى، وهي بسبيلها الآن لتأخذ منك كل ما تبقى لنا فيك، لتقتلنا هذه المرة كلنا. انها عدوة. . عدوتك وعدوتنا، ولا حياة لك أو لنا لدعوتنا إلا مقتلها. لقد جاءوا بها خصيصاً ليطعنونا من خلالك، وليصرعونا بعد هذا. . الشاب تلو الشاب، ولقد كانت البداية بك فلا بد أن تكون البداية بها. اقتلها يا بني. . اقتلها وتوكل.

كانت الكلمات ثابتة، هامسة، كل كلمة منها كفيلة بخرق القائم بين الدنيا والآخرة، وبين أي موت وأي حياة. وليس في المسائل نقاش، ولكن أمراً كهذا لا بد أن يناقش. وبدأ مصطفى بعد ما انصعق سبع مرات في كل مرة يفتح فمه، فإذا بصفعة صوتية تأتيه

من خلفه، من عملاق صنديد لا ترحم نظراته كان واقفاً خلفه:

ـ ألم أقل لك يا مولانا؟. لقد سحرته.. الشيطانة ركبته.

قال الشيخ بنفس همسه الباتر الذي لا ذرة هوادة فيه:

ـ أتعرف معنى هذا يا مصطفى؟

ـ ما معناه يا سيدي وأميري؟

ـ ما دامت الشيطان قد ركبتك فقد حل دمك أنت قبل أن يحل دمها هي، فإرادتنا من ارادته، وأمرنا من أمره، ومن يعصانا يعصاه ويصبح أشد عداوة لنا من كل أعدائنا.

ـ ولكني لم أعص.

ـ فلتطع اذن فالتردد عصيان قادم.

ـ لست متردداً.

ـ اقتلها اذن. تقتلها.. أليس كذلك يا مصطفى؟

من سابع بئر في قراره جاء صوته:

ـ أقتلها.

ـ غداً إن شاء الله يا مصطفى.

ـ غداً إن شاء الله.

ـ في نفس موعد لقائكما.

ـ في نفس موعده.

ـ على بركة الله يا بني اذهب.

وكانت الخطة أن يطيل قدر ما أمكن في عملية القتل لينشغل الجميع في الحادث، فقد تم ترتيب أن يهرب سبعة هامون من الكبار

في أثناء انشغال الكل بالقتل، وضرب عصفورين بحجر..

عصفورين!

أم سوزان وأنت يا مصطفى!

● ●

حتى السؤال الذي ظل يلح على شيخه به وكان سراً بينه وبينه:

ـ ولماذا هي.. هي بالذات؟

ـ لأنها الأجمل..

ولكن الجمال..

ـ جمال العدو قوة له وضعف لنا.

ـ ولماذا أنا بالذات؟

ـ لأنك المطمع. نقطة قوتنا وأيضاً نقطة ضعفنا.

ـ ألا يمكن لأحد؟..

ـ لا يمكن..

● ●

النصف الثاني للفسحة يبدأ بعد الذهاب إلى الدورات، السير فيه بطيء دائري في فناء ضيق، أناس يبدون كالمجانين.. دابت ملابسهم.. وبليت أحذيتهم.. ونمت منهم اللحى شباب وشيوخ، وجماعات وملحدون، أنت يا مصطفى لن تفعل في اللحظة المناسبة أكثر من أنك ستكسر عظام حنجرة، عظام مجرد عظام، سوزان الجميلة هي السحر الذي دوخك.

إذ الحقيقة فليس هناك سوى عظمة. . مجرد عظمة هشة هي التي أصبحت تحول بينك وبين بداية الخلد.

أدخلت كل يد من يديها في ثغرة بين عمودين. أطبقت بيديها على رأسه من الخلف في تساؤل ملهوف. جذبت الرأس إلى أمام فجأة فاقشعر بدنه رعباً وبرزت جبهته من ناحيتها. مدت ومطت شفتيها ولمست بهما جبهته لتعرف ان كان محموماً، فقد كان أصفر شاحب الوجه تماماً ويرتجف. ضغطت بشفتيها بكل ما تملك من قوة فوق الجبين حتى شحبت من الضغط أيضاً شفتاها. ولم تعرف ان كانت ما أحست به حمى كانت عنده أم حمى ولَّدها ضغط الشفتين. عيناه مفتوحتان إلى آخرهما وموجهتان تماماً إلى وجهه ولكن لا يراها. أوقف السمع والبصر.

بارتجافة أمسكها من كتفيها، ووسط البحر العميق قذف مرة واحدة بنفسه. . التفت كل يد حول رقبتها النحيلة وأطبقت عليها. ذهلت يداه. انتظر انتفاضة انزعاج، إشاحة احتجاج، ولكن الرقبة بقيت ساكنة وديعة بين يديه، بل مالت الرقبة إلى ناحية كي تلمس الساحرة بخدها يده كما تفعل القطة حين تطمئن إلى اليد التي تربت عليها.

غضب. . كما لم يغضب في حياته غضب. احمرت الدنيا. . أنزفها من فرط غيظه كل دم الظهيرة الحمراء، فالشراسة حين لا ترتطم بما يغذيها تفرغ، وفي فزعها تغضب، وكأنما تلاقي أعتى الأعداء. . فعدوها. . عدو الشراسة ليس الشراسة. عدوها الأكبر

والأوحد هو الوداعة.. كأنها كل الشجاعة، الأقوى من الشجاعة، أعتى أعداء الشجاعة.

ولكن فوراً تموتين الآن يا ساحرة، فهذا غدر، أنت تأخذينني على حين غرة، أنا مجهز نفسي لمذبحة فإذا بي أواجه بالوداعة.. كل الوداعة. اقتلها يا مصطفى قبل أن تغدر بك غدراً آخر وتعود تسحرك، بكل ما تملك من قوة في يديك اضغط واضغط ولا تتركها إلا جثة. حنان.. أنهار من الحنان الدافق تنسال من الخد الجميل المائل وتسري في قبضته.

أيقظ كل الوحش الكامن وخنق.. فعلاً خنق. تحت أصابعه الغليظة رقبتها تختلج اختلاجة العارفة التي أدركت.

وهذه المرة فتح عينيه ورآها. اتسعت عيناها اتساع غير المصدقة أول الأمر، ثم المرعوبة لهنيهة بالكاد لا تصدق، ثم.. ثم الساكتة الراغبة التي أسلمت لحبيبها المصير.. كل المصير، مرة واحدة وإلى الأبد. كل شيء تحفل به ملامحها إلا الخوف، لمحة خوف أو رعب أخرى لم يلمحها، حتى حين ازرق الوجه وبدأت العينان جحوظهما وانقطع التنفس، لا عضلة رقبة تختلج بالرعب، ولا عين تدمع ولا لمحة من ملامحها تستعطف أو تستغيث.. بل شبه ابتسامة بالغة الوهن. ابتسامة يرعب انها ابتسامة سعادة.. سعادة من يزاول حبيبه الحب معه ويعطيه أخيراً كل ذاته ونفسه. وجسده هو الذي أصبح يختلج بالرعب وكأن الخانق أصبح المخنوق. نظرات يا إلهي تطلب الموت، ترجوه تتمناه بيديه وعلى يديه هو بالذات،

والدنيا نهايتها تحل، والسعادة كلها تغمر ملامحها، سعادة الحب موتاً والموت حباً تعمر كل الملامح.

وكان الحوشان قد امتلآ على الجانبين وبحر من البشر من هنا يدفع وبحر من الناحية الأخرى يجذب ليبعد.

والسعادة كلها من بشرتها التي توردت زرقة تشرق. سعادة من أخيراً نالت كل ما تتمنى لا تزال تتوهج وتنهمر. سعادة ليس سببها أنه أبقى على حياتها وإنما سعادة أن إحساسها بملمسه وهو يخنقها صنع ما لم تصنعه مئات الكتب والتعاليم، وحوّل القاتل الحبيب من إنسان إلى مبدأ، أصبح هو ولو للحظة خاطفة كل مبدئها. . ومرحباً بالموت يأتي - ولو في الحال - حينما على يديه ومبدئه يأتي، حتى ولو لم يكن يحبها يجيء، فما عاد الحب نفسه يهمها.

ومن بين أحراشه وغاباته بدأ - شيئاً فشيئاً رغماً عنه ثم يرضاه - ينبت، ويصعد، ويكبر، ويعلو، بدا شيئاً آخر غير عقله، حكيماً جداً يحبو، عجوزاً جداً يولد، ولكن له قلب أكبر من كل قلوب الكون وأقوى وأعظم، ومن مرتفعه مضى يرقب الحشدين الصاخبين اللذين يتبادلان القتل عيوناً ووعيداً والغضب الفتاك تأجج والصفافير تستغيث، ومدافع السجن قد صوبت إلى الداخل والقيامة أوشكت، بل قامت ترعب من لا في حياته ذاق الرعب مرة.

ولكن الآخر قد تربع وانتهى الأمر، وانتهت القبضة وتراخت الخنقة، ورغم الحشد الهائل فالحقيقة الحقيقة لم يعد هناك

سـواهما، حتى السـور العـظيم وبـالـذات عنـد خشبتـه بعـد الثـالثـة المكسورة كان قد أصبح الملاذ، والأيدي الأربـع مضمومـة في تعانق متشبث مجنون لا ينتهي.

كان، وكان كتاب آخر يكتب كتـابهما، وشـاهد عليـه يا إلهي! نفس ذلك السور.

صَح

كان واضحاً أن الصبي لا يمت إلى جاردن سيتي أبداً . .

فصبي حاف مثله، جلبابه قديم متآكل، ورأسه محلوق بالماكينة ومضلع وفيه نتوءات كحبة البطاطس، ووجهه رمادي أصفر، وفيه «قوب» . . صبي مثل هذا لا يمكن أن يمت أبداً إلى جاردن سيتي حي القصور والفيللات والسفارات .

أما كيف وصل إلى شوارع جاردن سيتي فيبدو أنه أفاق فوجد نفسه هنا، أو أنه ضل الطريق، والغريب أنه لم يكن حزيناً .ولا مبتئساً أو خائفاً . . كان في الحقيقة يبدو منتعشاً طروباً .

كانت الدنيا في ساعاتها الأولى، والشمس تلون الأرض وحسب ولا تلهبها، والبنايات غارقة في صمت أرستقراطي مهيب، وكل ما يسمع من أصوات إنما كان يأتي من العصافير والبوابين الضخام السود الطيبين الجالسين على الأرائك يحرسون القصور، ويرتدون الجلابيب البيضاء الواسعة والعمامات المضحكة الكبيرة .

كل ما في الجو كان يوحي بالبشر ويبعث على النشاط والولد

يمضي على غير هدى في الشوارع المشمسة الواسعة، وينظر في شغف إلى البنايات والأشجار والنحاس الكثير اللامع، ويصفر، ويدندن أحياناً ويتوقف، ثم يستأنف المشي بطريقة المقص فيمد كل من قدميه مكان الأخرى، ويسير أحياناً بعرض الشارع، وأحياناً يرفع قدمه ويمسكها بيده من الخلف ويحجل على قدم واحدة، ولسانه يلوك فمه من الداخل فيصنع ضوضاء مكتومة كنقيق الضفادع، ويجري إلى الأمام وإلى الخلف، ويحتل وجهه كله تعبير خالي البال المستمتع بكل ما يراه ويفعله، بلا شيء وراءه يفسد المتعة.. لا عمل ولا أب ولا أسطى..

وتعثر فجأة في شيء ووجعته قدمه، وانحنى فوجد أن ما تعثر فيه كان قطعة حجر بيضاء فرماها بغيظ على الأرض، ولم يكتف بهذا بل دفعها بقدمه، وطار الحجر إلى الأمام مسافة ثم توقف.. وحين وصل إليه ضربه بقدمه ضربة قوية أخرى فطار الحجر واعتلى الرصيف. وحين وصل إلى مكان الحجر انحنى والتقطه وحدق فيه ملياً ليتأكد أنه ليس شيئاً ذا قيمة، واستأنف المشي وهو يقذفه إلى أعلى ويلتقطه. وبعد قليل غير الحركة فأمسك الحجر في قبضته ومد سبابته لتلامس الحائط الذي كان يمشي بجواره وظل هكذا فترة. ويبدو أن أصبعه آلمته فقد استبدلها بالحجر. وتلفت مرة فوجد أن الحجر يصنع باحتكاكه مع الحائط خطاً أبيض.. وأعجبته اللعبة فاستأنف المشي وهو يمر بالحجر على الحائط فيرسم خطاً أبيض يبدو واضحاً فوق الجدران الأنيقة الملونة. ورسم خطاً على طول

سراية آل سليمان، ثم مده إلى أن وصل عمارة الفكهاني، ثم فيللا سمعان، وعبر الشارع واستأنف حك الحجر بسور حديقة السفارة الأمريكية.

وكأنما أعجبه سور السفارة حين وجده طويلاً لا ينتهي فمضى يجري فيجري الخط بجواره، ويتوقف فيتوقف، ويحرك يده إلى أعلى وأسفل فيتموج الخط ويتعرج، ويسرع ويبطىء، فتتسع التعرجات وتضيق.

وقبل أن ينتهي السور كان قد انتهى شغفه بالخط فتوقف، وحرك يده بسرعة وعصبية فوق الحائط فرسم الحجر خطاً عصبياً متداخلاً فيه نزق وغضب، ورفع يده عن السور ولعق فمه من الداخل فصدر عنه نقيق الضفادع، وهز رأسه هزات كمن يراود نفسه، وهز جسده أيضاً، ثم التصق بالحائط واختار بقعة ليس فيها خدوش، وتخير حافة بعينها من الحجر وأمسكه بحرص في يده، ثم انكب على الحائط وراح يعمل. وحين انتهى كان قد كتب كلمة: «محمد». وحدق فيها، وتراجع إلى الوراء ولعق فمه وتأملها. كانت حروفها عجفاء ركيكة. وعقد يديه خلف رقبته وثنى جسده وركز انتباهه على «ميم» محمد. وكأنما أعجبته رأسها المستلقية إلى الوراء في عظمة، فقد عاد إلى الحائط بسرعة واندفاع وكتب «ميماً» أخرى، وضم شفتيه ونفخ أشداقه ونظر إليها، ويبدو أنها لم تعجبه فانكب على الحائط من جديد وكتب «ميماً» ثانية جاءت أسفل الأولى بقليل وقريبة منها حتى انها اشتبكت مع ذيلها. وتراجع إلى الوراء ونظر إليها. وكأنما هي

أيضاً لم تعجبه فقد رمى الحجر من يده واستأنف المشي وهو يمط شفتيه ويلوي بوزه.

وفجأة استدار إلى الخلف بسرعة ونظر إلى الميمين من بعيد، ثم أقبل عليهما بلهفة وبحث عن الحجر بعينيه حتى وجده، ومن جديد انكب على السور ورسم خطاً رأسياً بجوار الميمين، والتصق بالسور أكثر، وظل مدة طويلة يعمل وعرقه يسيل ويده الصغيرة العصبية قد تشنجت أصابعها كالكماشة على الحجر، ولما انتهى كان قد كتب: «أممنا الشعب القنال».

وتراجع إلى الوراء وراح ينظر إلى ما صنعه وهو يلهث منفعلاً. وكأنما لم تعجبه الجملة فقد هز رأسه بشدة، والتصق بالحائط من جديد وراح يعمل وهو يغمض عيناً ويفتح الأخرى. ولما انتهى كان قد كتب نفس الجملة مرة أخرى. ودون أن يتراجع إلى الوراء كثيراً حدق في الخط برهة قصيرة، ويبدو أنه لم يعجبه أيضاً، ووجد اللام طويلة وشرطة النون غير واضحة والقاف مغلقة والحروف كلها مائلة كالنخل حين تعبث به الرياح، يبدو هذا لأنه راح ينفخ في يده الممسكة بالحجر لينفض عنها ذرات الغبار، ثم تخير حافة من حواف الحجر لم يستعملها، والتصق بالحائط من جديد وراح يعمل ويعرق ويغمض عيناً ويفتح الأخرى.

وحين انتهى فرك يده بشدة كمن أتعبته الكتابة. وتراجع إلى الوراء ونظر إلى الجملة الأخيرة ملياً، ثم علت وجهه ابتسامة رضاء فعض شفته السفلى وأخرج من فمه نقيقاً ثم عاد إلى الحائط ورسم

علامة «صح» أسفل الجملة الثالثة، وجعل للعلامة ذيلاً مرحاً طويلاً علامة الرضاء الكامل.

وظل برهة يحدق في الجملة كأنما ليتأكد أنها محفورة على حائط السور بطريقة ليس من السهل محوها، وأنها ستظل هكذا فترة طويلة، وسيعرف كل من يقرؤها ـ بطريقة ما ـ أنه كاتبها. ظل برهة يحدق في الجملة ثم ارتعش نصفه الأعلى كله، وأخرج من حلقه صوتاً كصوت «العرسة»، ورفع قدمه اليسرى وأمسكها بيده من الخلف وانطلق يحجل بقدم واحدة ويمضي في الشارع المشمس الواسع.

البَطـل

في ذلك اليوم. . مضت ساعات الصباح الأولى دون أن يجد جديد، فالمكتب هو المكتب، والحجرة هي الحجرة، والأوراق تملأ الأركان والأدراج وتطل من الدواليب، وفناجين القهوة رائحة غادية، والسجائر تستخرج خلسة حتى لا يعزم أحد على أحد. وخمسة موظفين في حجرة، والوجوه كالعادة مقطبة. . مقطبة وهي تتصفح الجرائد وتغلقها، ومقطبة وهي تحدق في السقف، وعابسة وهي تطلب الشاي وتلعن طعمه، ومغمومة وهي تنحني على الأوراق وتعبث بها، وتقضي العمرتدقق وتؤجل وتكتب.

لم يجد جديد في ذلك الصباح مع أن الحرب قامت والطائرات بدأت تغير، وكل شيء. . كل إنسان يخوض تجربة الحياة والموت، والعالم لا ينام، صاحياً يرقب الشرق وهو يدمدم ويتحرر، والمكتب هو المكتب، والحجرة هي الحجرة، وصبحي جاد هو الذي على يميني، والغازي أبو بكر على يساري.

غير أنه قبل الظهر بقليل، جاءني الساعي وقال:

ـ تليفون.

وتليفـون من أجلي كان يعني شيئـاً من اثنين: إما عبـد الخالق فـاضي في مكتبه في وزارة الشئـون ويريـد أن يصبح عليّ، أو كـارثة حدثت في بيتنا ورأت العائلة أن تتصل بي على عجل، وفي كل مـرة يـطلبني التليفـون أقـول كـارثـة وفي كـل مـرة أجـد المتحـدث هـو عبد الخالق.

وهذه المرة أيضاً قلت:

ـ عبد الخالق؟ صباح الخير.

وإذا بصوت غريب يقول:

ـ لأ.. أنا أحمد.

ـ أحمد مين؟

قلتها وأنا أخمن من عساه يكون، فالأحمدات الـذي أعرفهم لا يتجاوزون ثلاثة، وإذا به يقول:

ـ أنا أحمد عمر.

ولم يكن هذا الأحمد من بين الثلاثة، فرن اسمه في أذني رنين الاسم الغـريب الذي لم تتعـود على سماعـه، وخجلت أن أستقصي أكثر، فلا بد أنه يعرفني ويتوقع مني أني لا بد أعـرفه. ورحت أسـأله كمـا يحدث في أمثـال هذه الأحـوال عن الصحة والمـزاج والعـائلة، حتى أظفـر من ردوده بخيط يقـودني إلى معـرفتـه دون أن أحـرجـه أو أحرج نفسي.

ورغم أن مضى يجاوبني بنفس الكلمات التي تعود الناس قولها رداً على أسئلة كأسئلتي، إلا أني دهشت فصوته كان مملوءاً بالانفعال

يكاد يلهث، وكان يستعجل السؤال والاجابة كأنما هناك شيء يؤرقه ويود الإفضاء به إليّ، وسمعت منه كلمات عن «مصر الجديدة» و «كتيبتنا» و «المعسكر» ولكني لم أفهم. وسألني مرة إن كنت حقاً أذكره، ومع ذلك لم أعرفه إلا حين سألني عن أخي محمد وصحته، إذ أيقنت أنه لا بد أحمد عمر، ابن جارنا عم عمر. . أحمد صديق أخي الأصغر الحميم.

واندفعت أرحب به وأحييه وقد بدت صورته أمامي واضحة كل الوضوح، فرغم أن عم عمر كهل نحيف إلا أن ابنه أحمد هذا شاب ضخم، وإذا عرف الإنسان أن سنه عشرون عاماً فقط بدا له ضخماً جداً، فجسده عريض شاهق وذقنه خصب غزير شعره أسود متين كذقون الرجال الكبار. ومع هذا فقد كان من ذلك النصف من الشبان الذين يخجلون من مواجهة محدثهم، فلا ينظرون في وجهه أبداً، وتجده إذا تكلم يتعثر في كلماته فلا تخرج من فمه جملة كاملة، وأحياناً يقول الكلمة ويظنها نكتة وينفجر ضاحكاً، وحين يدرك أن أحداً لا يشاركه الضحك يصطبغ وجهه بلون الدم، ورغم كل شيء فالناس لا بد أن تقول بعدما يذهب:

ـ والله باين عليه ابن حلال. . طيب.

وكان صلتي به محدودة، وكل ما أعرفه عنه أنه كان في مدرسة التجارة المتوسطة، أو الصنايع لست أدري، وأخذ الدبلوم أو لم يأخذه، ثم دخل الجيش حسب قانون التجنيد الإجباري.

وأغرب شيء أنك تحس دائماً أنه. ملآن ولديه آلاف الأشياء

التي يود قولها، غير أنه نادراً ما يفصح عن نفسه. وإذا تكلم فلا يقول شيئاً من عنده إنما يعبث بكلمات غيره، فتقول له مثلاً: ازيـك أنت؟ فيرد عليك ويقول: الزاكته. ويضحك ويخجل ويحمر وجهه. كان لا يخاطبني إلا «بحضرتك» على اعتبار أني الأخ الأكبر لصديقه، وأحياناً كانت تفلت من لسانه كلمة تستحق التأمل، وإذا تأملها الإنسـان أدرك أنه ليس بسيطاً كما يبدو، وأن له أعماقاً.

وكان إذا جاء لزيارتنـا وفتح لـه الباب، خفض رأسـه وسأل عن أخي. فإذا كان موجوداً دلف إلى حيث يكون مطرق الـرأس لا يرفـع بصـره ولا يتلفت. وكنت أحيـانـاً ألقـاه فـأحـادثـه وأحس بـه شهمـاً خدوماً.. لو قلت له: ارم نفسك في البحر مثلاً، لذهب ورمى نفسـه في البحر فعلاً، ثم عاد إليك في ثاني يوم مبتل الملابس يقـطر الماء من شعره، ويقطر الخجل من وجهه ويتهته ويقول:

ـ أما المية كانت ساقعة بشكل.

يقولها قاصداً بها أن يلومك ويؤنبك، وهذا كل ما في استـطاعة أحمد أن يؤنب به أحداً..

ولم نكن أصدقاء بالمعنى المفهوم، كنت أراه كل ستة أشهر أو كل سنة، وكنت لا أراه على حالة واحدة أبداً، ففي كل مرة لا بد أن يكون قد حـدث له أو حـدث فيه تغييـر، فهو في لقـاء طالب.. وفي لقاء آخر متخـرج.. وفي ثالث سـاخط يبحث عن عمل.. ومـرة أراه صغيـراً لـم تنبت له لـحيـة، وأفاجـأ به في المـرة التاليـة وقـد فـرعني

طولاً. جاء مرة لزيارتنا بملابس الجيش وفوجئنا به حقاً، وأذكر أننا يومها سلخناه عبثاً وتريقة، نقول له يا دفعة. ونضحك على شعره القصير الذي قصه كما تقضي التعليمات، ونسأله لم ربى شاربه هكذا فيقول:

ـ ح اعمل ايه؟. ما دام مفيش تعليمات تحدد طول الشنب أربيه كده اياك يعوض عن شعري.

ويمضي يحدثنا بطريقته المتلعثمة ويسخر من نفسه ومن زملائه ومن «اليمك» والطوابير المبكرة والبروجى والنظافة، والشاويش الذي يدربهم ولسانه الذي لا يكاد يرى متعلماً من أمثال أحمد حتى ينهال عليه، والتكدير والتزويغ، وتصاريح الأربع والعشرين ساعة، وكيف «يبلف» الضابط حتى يأخذها، ويضحك.. بجسده الضخم كله ومن قلبه، ثم يكف عن سخريته وضحكه فجأة ويتنحنح ليشعرنا أنه ينوي قول شيء جاد. يتنحنح ويقول:

ـ إنما صحتي كويسة!

وأذكر أنه في زيارة أخرى قال لي انه أخذ النمرة النهائية في التنشين. وسألته وأنا أسخر من العبقرية التي هبطت عليه فجأة عن السر في نبوغه، فمضى يشرح لي نظريته، فقد وجد أنهم يعلمون النيشان في الجيش على علامات ثابتة ثم يمتحنونهم على علامات متحركة، ولهذا فمن أول لحظة كان ينشن على العلامة الثابتة كأنها ستتحرك فجأة، وبهذه الطريقة كان يضرب بسرعة ويصيب، وبلغ به

الحماس مداه، وبلغت بي السخرية مداها وهـو يؤكد لي أن الـطريقة التي يعلمون بها الجيش غير مجدية، وأن أهم شيء في الدنيا هو أن يتعود الإنسان أن ينشن على هدف متحرك.

هذا كله أمر معقول. .

أمـا غير المعقـول فهـو مـا حـدث، فلماذا يكلمني أحمـد في التليفون؟

صحيح أني فوجئت بـه، ولكني أقول الحق فـرحت وأحسست أني افتقدته طـويلاً، فهنـاك أناس يفتقـدهـم المرء. . يفتقـد القيم. . فالشرف في ذهن الواحد منا مرتبط بإنسان، والاخلاص بإنسـان آخر. والحنـان والمحبـة بثـالث. وأحمـد عمـر هـذا كـان يـرتبط في ذهني ـ ولست أدري لمـاذا ـ بشيء يمس من قريب أو بعيـد روح شعبنـا. . الشعب الضخم الخجول الذي لا يسعده شيء مثلما يسعده أن يسخر من نفسه وأخطائه.

ولم أسأله لماذا هو في مصر الجديدة، فقد خمنت أن كتيبته لا بـد معسكرة هنـاك تحمي شمـال القـاهـرة، إذ كـان الجيش يستعـد للدفاع عن العاصمة. أما الشيء الـذي حيرني فعـلاً فقد كـان لهجته اللهجـة المتدفقـة المملوءة بالانفعـال، وصوتـه المحشـو بضحكـات موفورة الصحة لا كحة فيها ولا بلغم.

وعجبت.

وسألته كيف يكلمني، وهل عندهم في المعسكر تليفون؟

وأجابني:

ـ احنا معسكرين قريب من هنا.. وجنبي بقال.. ياه.. داحنا شفنا العجب.. دي حرب بجد والله العظيم.. والطيارات والمدافع تك تم.. تك تم.. تصور حضرتك ما غيرتش الشراب بقالي ست أيام لما بقى شربات.. سامع الطيارات؟

وكنت حقيقة أسمع ضجة خافتة بعيدة، وكنت أعرف أن طائرات العدو تركز ضرباتها على تلك المنطقة «مصر الجديدة» ليل نهار..

وانتابني شيء يشبه الخزي وأنا أدرك أن أحمد في الميدان وأنا في المكتب، وسلك طويل يفصل بين القتال الرهيب الدائر هناك والمصلحة التي أنا فيها وروتينها ودرجاتها وعلاواتها..

واندفعت أبثه كل حماسي وسخطي وأشجعه.

وقلت له وأنا أدرك أنه لا بد يريد مني خدمة:

ـ كلنا معاك. عايز حاجة؟ أي خدمة؟ قول. محمد بيسلم عليك.

ولدهشتي أجابني:

ـ مش عايز حاجة أبداً، سلم لي عليه كثير. على فكرة أنا معايا مدفع اهه، أضرب لك طلقة؟

ولعلمي أنه خجول ومن الصعب عليه أن يطلب مني شيئاً إن كان يريد، عدت ألح وأسأله عما يريد، وإذا به ينفي بشدة أنه في حاجة إلى شيء، وسألته إن كان يريد من عائلته ملابس فقال:

سلم لي عليهم.

ـ بس؟

ـ بس.

ـ مش عايز فلوس، هدوم، أي حاجة؟

ـ أبداً أبداً.

وازداد عجبي. ومضى يقول:

ـ اسكت! مش امبارح الله يخرب بيوتهم ضربوا المعسكر بتاعنا.

وكان يقولها ببساطة دفعتني لأن أسأله بنفس البساطة:

وعملت ايه؟ مت؟

وضج التليفون بضحكته وقال:

ـ أبداً.. خمناهم. قبل ما يضربوا المعكسر سيبناه.. وعلى فكرة حصلت حاجة هايلة دلوقت.

وإذا كان لبعض الناس كلمات مختارة، فـ«هايلة» كانت كلمة أحمد عمر المفضلة، كل شيء يحكي عنه لا بد أنه هايل.. وعدت ألح وأستدرجه وأنا متأكد أنه لا بد قد طلبني لأنه يريد شيئاً، ولكنه قهقه وقال:

ـ أبداً.. عاوز حضرتك كويس.. كويسة دي؟ بس على فكرة حصلت حاجة هايلة خالص.

ـ ايه.. حصل ايه؟

فقال:

ـ مش وقعت طيارة؟

فقلت:

ـ ايه طيارة ورق؟

فقال:

ـ لأ.. بجد.. طيارة فرنساوي.. كانت فايتة قدامنا، قلت للقائد: أضرب يا فندم؟ ورحت ضارب قام جناحها انكسر ومالت ووطت، فالقائد زعق وقال لي خلص عليها يا أحمد.. خلص عليها.. خلصت عليها، وتصور.. تصور وقعت.

واستمر يضحك ويقول:

ـ سلم لي على محمد. لما بيجي قول له ان أحمد وقع طيارة.. أنا عارف هو مش ح يصدق زي عوايده. إنما والله العظيم وقعتها أهه.. محروقة في الرملة هناك. أضرب لك طلقة؟

وأخذت أضحك أنا الآخر. فأيامها كانت مودة أن يقول كل واحد أنه أسقط طائرة، فما بالك وأحمد يخبرني بنفس اللهجة التي كان يعلق بها أحياناً على أشكال بنات الجيران، يخبرني أنه أسقط طائرة.

وحتى وأنا أرى صورته في الجرائد في اليوم التالي أكذب نظري وأعود أتمعن في صورته، وأسمع صبحي جاد وهو يحدق في الصفحة ويقول.

ـ أما ولد! دا شارب من لبن أمه صحيح! ده باين عليه زي

الـوحش يهد الـدنيا. شـوف بيبص ازاي؟ الـواحد سنـه ٣٥ سنـة ومـا يعرفش يوقع ناموسة، وده يوقع طيارة بحالها! ويوقعها لوحده!

حتى وأنـا أسمع هـذا كله وأراه، كنت أتأمـل أحمد الـذي في خيالي ولا أكاد أصدق.

لحـظة أن كنت أكلمه كـان كل همي أن أعـرف الخـدمـة التي يريدهـا لأستطيـع القيام بهـا، وأحس أني بهذا أسـاهم بنصيب ما في المعركة، فقلت:

ـ أمال..

وترددت فقد خجلت، ولكني استطردت:

ـ أمال بتكلمني ليه؟

ومـا كـادت الجملة تغـادر فمي حتى أدركت أني قلت شيئـاً سخيفاً.

وأسرعت أتكلم وأمسح أثرها من الحديث كما يمسح الإنسان كلمة كتبها خطأ، أسرعت أقول:

ـ قول يا أحمد.. عايز ايه؟ صحيح عايز ايه؟ أنـا أخوك مفيش داعي للكسوف. قول لي عايز ايه؟.

وسمعت صمتاً في التليفون، وأدركت مدى الخجل الـذي كان يعتريه. وطرقت أذني كلمة: أصل.. وأعقبها صمت قصيـر، أدركت أن أحمـد لا بـد يعض شفتـه السفلى خجـلاً فتلك كـانت عـادتـه، وخمنت أنه سينطلق بعدها كالدفـع ويتكلم، فكما كـان خجله يجعله

يتعثر في أول الحديث فكذلك كان يجعله ينطلق بسرعة في آخره، قال:

ـ أنت عارف.. ادوني ساعة إجازة بعد الحكاية دي. وأنا معرفشي نمرة إلا نمرة حضرتك، قلت أكلم حضرتك. دي حاجة هايلة قوي.. مش كده؟ تصوروا طيارة تقع.. أنا أوقعها.. أنا أوقعها.. أنا مش مصدق. بيتهيأ لي انها وقعت من نفسها، والـلا يمكن حد تاني وقعها.. سلم لي على محمد كتير.

ثم تلجلج كمن لا يعرف كيف ينهي الحديث. وسمعت نحنحة خفيفة فعرفت حينئذ أنه ينوي أن يدخل في الجد.. وجاءني صوته:

ـ إنما صحتي كويسة. أنا متشكر قوي قوي قوي.

وكانت آخر مراحل خجله أن يضحك، وكأنه لا يطمئن إلى الغلافين السابقين فيلف كلامه بغلاف ضاحك ثالث.

وحين وضعت السماعة كنت لا أزال غير مصدق أن أحمد طلبني فقط من أجل أن يخبرني بهذا «الشيء الهايل». وكانت السماعة لا تزال تضحك.. ضحكة دسمة موفورة الصحة.

قاع المدينة

هي . . هي لعبة

الردح كالزغاريد فن مصري أصيل، وكما أن الزغاريد لا تجيدها كل النساء فكذلك الردح هناك متخصصات فيه يحفظن عدداً لا نهاية له من الشتائم والأوصاف، بعضها عادي وبعضها فيه تشبيهات واستعارات وكنايات، وبعضها أدب خالص. ولا يكفي الحفظ بل لا بد أن يكون في استطاعة الواحدة منهن ان تلضم الكلمة في الكلمة بلا تردد أو توقف، وتصنع من الشتائم سيالا متدفقا لا ينقطع ،فاذا انقطع وقع المحال. ولا بد للشتمة المستعملة من وقع وموسيقى، ولا بد أن يكون للصوت المستعمل مقام معين يرتفع في الأماكن المهمة الى«السوبرانو»، وينخفض عند بعض الكلمات الماسة الى«الألتو». فمع أن المسألة شتيمة في شتيمة الا أن هناك على كل حال شتائم لا تصح، ونحن شعب مؤدب وخجول بطبعه. ثم لا بد للرداحة من موهبة فطرية تستطيع بها أن تخرج أرفع الأصوات وأعلاها بأقل مجهود، حتى لا تستنفد طاقتها وحتى تستطيع الصمود. فالردح مسابقة والفائزة هي من يعلو صوتها ويظل عاليا الى النهاية.

والفنون كالغذاء لا بد من مزاولتها على الدوام. . وكان طبيعيا

اذن ألا ينقطع الردح عن الحارة ليلا أو نهارا، ولا يعرف عطلة أو راحة.

وفي ذلك اليوم وشعبان عائد من عمله بعد الظهر بقليل، والدنيا تسبح في أشباه السكون.. في ذلك اليوم ما كاد يضع قدمه في أول الحارة حتى دق قلبه، فقد سمع ردحا عالي الوطيس يواتيه من آخرها. دق قلبه لأنه خاف أن تكون الخناقة مع امرأته.. وامرأته غلبانة من الأرياف، واذا كانت الخناقة معها فعوضه على الله فهي مبتدئة لا تستطيع أن تجاري بطلات المدينة. صحيح انها بدأت في الآونة الأخيرة تتعلم، ولكنها لا تزال(تطبش) كما يفعل الرجال حين يتعلمون السباحة على كبر. كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تقف في النافذة وتوارب الشيش وتحاول الرد على غريمتها. وتخرج ردودها بعد جهد فهي ريفية خجول لا تستطيع أن تحشو فمها بكلمة فارغة مثلما تحشو نساء المدينة أفواههن، ولذلك فمهما قالت فكلماتها تتساقط كأوراق الخريف أمام التيار اللافح الذي يهب عليها من فم غريمتها.

وصدق ظن شعبان فالخناقة فعلا كانت مع امرأته، وكانت واقفة لا حول لها ولا قوة كما توقع وامرأة ابراهيم أفندي قد وقفت في بلكونتهم وصوتها يجيب التائهين. والناس تتفرج بكل قحة، وهي لا تترك شاردة ولا واردة الا قالتها.

وقف الرجل يتسمع عله يعثر على سبب للخناقة أو يرى الى أي حد وصل النزاع، ولكنه ما كاد يتوقف حتى فار الدم في رأسه،

كانت المسألة قد وصلته هو شخصيا وأتت على رجولته ثم تعدته الى أبيه وأمه وذقون أجداده أجمعين.

ودق الباب كثيراً قبل أن تفتح فهيمة امرأته. وامرأته سمعها ثقيل وبابهم أصم ولهذا طال دقه. ثم انفتح الباب وما أن رأته فهيمة حتى شهقت وبكت وأمطرت في الحال دمعا! وكاد يرفع يده ويرنها قلما وهو حانق على خيبتها وقلة محصولها من طول اللسان، ولكنه تردد، فلا بد للخناقة من سبب ولا بد أن يعرف السبب.

وزعق زعيقا هائلا يسأل عن السبب. واعتدلت امرأته واختفت دموعها فجأة كما بدأت وقالت:

ـ ابنك انقتل!

واشارت الى الكنبة. وسقط قلب شعبان بين قدميه وكاد هو نفسه يسقط على الأرض مغشيا عليه لولا أنه حدق في الكنبة.. كان ابنه جالسا القرفصاء فوقها ورأسه معصوبا بمنديل، وعلى المنديل بقعة دم كبيرة، وفي وجهه خرابيش، وفي عينيه نظرة فأر وقع في المصيدة.. ولم يكن مقتولا على اية حال.

وما كاد الولد يرى أباه ينظر ناحيته حتى تولاه رعب هائل وبكى بصوت عال وقال:

ـ أنا مالي؟.. هه.. هو اللي ضربني الأول.. هه..

وملأ شعبان صدره بالهواء بقوة محاولا كتم غيظه، ولو لم

يخرج الهواء ويتنهد لانفجر. القضية كانت قد بدأت تتجسد أمام عينيه، فلا بد أن واحدا من أولاد ابراهيم أفندي هو الذي ضربه وابراهيم أفندي له ثمانية أولاد، لا بد أن الضارب هو الولد الرفيع مثل عود القصب الذي يجري طول النهار ببنطلون أصفر قصير وسيقان جافة.. وهو لن يستحمل منه خبطة ولا لكمة. ولكن هل يمد يده على طفل؟ ثم كيف لم يغلبه ابنه الخائب مثل أمه؟ ابنه صحيح أصغر منه في السن وأدق منه في العود، ولكن كيف يغلب أي ابن في الدنيا ابنه؟ وكيف يجرحه ويبطحه؟

وتقدم شعبان. كان لا بد من رؤية الجرح قبل كل شيء، وما أن رآه الولد يقترب حتى انكمش إلى طرف الكنبة ولم يوقفه عن انكماشه إلا انتهائها، وغمغم شعبان وهو يسبه ويلعن أباه ويهدىء من روعه ويطمئنه الى أنه فقط يود رؤية الاصابة. وامتثل الولد بعد تهديد وظل يرتعش وأبوه يفك المنديل، وصرخ وهو يجذبه. ولم تكن الاصابة قاتلة أو ربع قاتلة.. كاتنت جرحا صغيرا نصفه في الجبهة ونصفه في الشعر، والدم الذي حوله كثير والبن أكثر.. بن يكفي لصنع ثلاث كنكات من القهوة وتبقى منه بعدها تلقيمة.

ومع أن شعبان أحس بالجرح يمتد من جبهة ابنه الى قلبه، الا أن وجهه لم يتغير وغيظه كان لا يزال كما هو. وأعاد رباط الجرح وزغر لابنه، وقال وهو يجلده بملامحه:

ـ وما ضربتوش ليه يا..؟

وبكى الواد وهو يقسم بالقرآن الشريف أنه أشبعه ضربا ولكما وعضا، ولكنه خانه وضربه بزلطة فجرحه.

وبدأت العاصفة.. فهيمة تريد ابلاغ البوليس وعمل محضر وقتل ابن ابراهيم افندي، وان لم يفعل فستأخذ هدومها وعليه أن يوصلها الى باب الحديد لتركب القطار وتعود الى البلد حيث للولد اخوال يستطيعون حمايته والانتقام له. وشعبان ساخط على ابنه المغلوب يهدده بعلقة نصفها الموت حالما يطيب، علقة تصنع منه رجلا يعرف كيف يذود عن نفسه ويجرح بدلا من أن يأتيه مجروحا. ولا يترك لابنه فرصة للنجاة من العلقة الا بأن يذهب في الحال ويجرح ابن ابراهيم أفندي جرحا يمتد من أنفه الى قفاه.

وتمضي ساعة.

وتهدأ العاصفة، ويستعيذ الزوج من الشيطان ومن ساعة الغضب، ويجد أن الناس للناس والطيب أحسن، وأنه لا بد أن يشتكي الولد لأبيه وهو يعرف ابراهيم أفندي رجل جد لن يرضيه ما فعله ابنه، فاذا أدبه كان بها والا فهناك ألف طريقة لتأديبه. وترفض الزوجة هذا الحل بدعوى أنها جرحت هي الأخرى.. جرحتها طويلة اللسان زوجة(سي) ابراهيم وفضحتها، ولا بد من سن بسن وعين بعين والبادي أظلم. ويطمئنها الزوج ويعدها بأن حقها سيأتيها به كاملا غير منقوص، وأن مقامها محفوظ وظفرها عنده بمليون واحدة كامرأة ابراهيم أفندي.

ويظل جو البيت مشحونا، وشعبان يخلع بنطلون الشغل

وقميصه ويرتدي الجلباب ويريح يديه من نوبة السواقة التي بدأت في الخامسة وانتهت حين تصلب ظهره وتورمت كفاه وزغللت عيناه. ويسأل عما طبخته الزوجة وهببته ولا يجدها طبخت ولا هببت، ويلعن العيشة التي لا راحة فيها أبدا. . الشغل أومنيبوس والبيت عربة كارو، وفي كل عودة لا بد أن يجد مصيبة، وكم مصيبة يتحملها العمر؟ والواحد له عمر واحد.

بعد قليل كان شعبان يمسك ابنه المرتجف المرتعش من يده ويدق باب ابراهيم أفندي.

دق مرة فسكتت الأصوات التي كان يسمعها في الداخل. وعاد يدق فماتت الأصوات، وانطلق حينئذ يدق بلا توقف.

وفتح الباب أخيرا، فتح فجأة. . وفجأة أيضا وجد الأسطى شعبان نفسه أمام صالة وفي نهايتها كومة بشرية هائلة. كان الوقت وقت غداء. . والعائلة كلها جالسة تتناوله، والمائدة صغيرة ضيقة لا تتسع لهذا العدد الهائل من أفراد العائلة.

كانت هناك الست شفاعات الزوجة، تخينة ومحنية على المائدة ككيس القطن المثني، وكانت هناك الحاجة تبارك والدة ابراهيم أفندي عجوز جدا وناحلة وشعرها مصبوغ بالحناء ولونه أصفر وأحمر وأبيض. ثم كان هناك ثمانية أطفال بدوا من كثرتهم وتجمعهم اثني عشر أو يزيدون، وكلهم باسم الله ما شاء الله وبلا ضغينة أو حسد أولاد ابراهيم أفندي، وفي الركن وفي مساحة لا تتعدى ورقة البوستة كان

يجلس رجل رفيع رفيع، لونه أصفر باهت ووجناته بارزة كالشرفات، كان هو بلا ريب ابراهيم أفندي عميد العائلة والمسئول عن انتاج هذا العدد الضخم من الكائنات الحية، والمسئول كذلك عن بقائها. وكان الجميع في معركة لا رحمة فيها ولا هوادة، فالطعام قليل والمائدة ضيقة والرغيف مهما كبر لا يحتوي الا على عدد محدود من اللقم، والصراع دائر من أجل البقاء، أو نتش حتة، أو الاعتداء على لقمة أو الحصول على غموس.. صراع رهيب شمل العائلة كلها وشمل كذلك قططها. فالعائلة ـ من العز ـ تحيا معها أربع قطط لها جيش من الأولاد، والقطط وأولادها لا بد أن تأكل، ولا بد لها من خوض صراع أمر وأدهي لتجد فرجة بين ساقين أو ثقبا بين جسدين، لينالها من الوجبة على الأقل لحسة أو عظمة.

وكل شيء يدور في صمت شامل، ولا تسمع الا أصوات الملاعق واحتكاكات الأسنان بالأسنان وجعجعة المضغ واللكزات التي يصوبها الأخ الى أخيه والجار الى الجار القطة.

وما كاد الباب يفتح ويبدو الأسطى شعبان واقفا على عتبته حتى حدث هرج ومرج كثير، وقام ابراهيم أفندي يعزم، وتضايقت الست شفاعات من هذا القادم في وقت الغداء. وأحس الأسطى شعبان بالخجل وتبودلت عبارات مجاملة كثيرة، وحلفت عشرات الأيمانات والأقسام وتزحزحت مقاعد، وماء ولد وصرخت قطة.

وأخيرا جلس الأسطى على الكنبة وهدأت الأصوات، ثم التأم شمل الكومة البشرية مرة أخرى وعاد السكون الذي لا تقطعه

سوى أصوات الأشداق والأسنان وهي تمضغ اللقم وتمزقها. مضافا اليها أصوات ترحيبات كان يرددها ابراهيم أفندي وفمه ممتلىء بالخبر وعقله ممتلىء بالتخمينات.

وكان واضحاً أن عاصفة ستهب بعد قليل.. وانتهز كل فرصة الهدوء الذي يسبقها وراح يعبىء نفسه ويستعد.

الأسطى شعبان جالس مكسوف يرتب ما سوف يقوله وينتقيه، ويجرب بينه وبين نفسه كيف يقوله. وابراهيم أفندي يدرك أن ولدا من أولاده لا بد هو الجاني وهو السبب في الدم الذي جف على منديل ابن شعبان، ولا بد أن امرأته كالعادة تولت علاج الأمر بطريقتها الفاسدة، وأخفت عنه الحكاية ككل مرة وتركته ليواجه المصيبة وحده. ومع هذا كان عليه أن يدفع أول الأمر ببراءة أولاده أجمعين ويتحدث عن طيبتهم، ويأتي بالبراهين على انهم أولاد حلال مسالمين. فإن أفلتت البراءة كان عليه أن يتصيد الحجج ويقيم المعاذير ويعد آخر الأمر بالعقاب الباتر.

والست شفاعات نسيت تماما انها لم تترك أباً لهذا الرجل الجالس أمامها الا ولعنته وطوقته بأبشع التهم منذ وقت قليل، واندفعت ترحب به وفي نفس الوقت تعد ما سوف تقوله دفاعا عن ابنها، ثم ما سوف تقوله دفاعا عن نفسها أمام زوجها إن هو سألها كيف أخفت عنه ما حدث. ولم تنس بطبيعة الحال أن تحسب حساب الضرورة القصوى وتعد نفسها لخناقة، وتعد لشعبان سربا طيبا من الشتائم يليق بوداعه.. والأولاد قلوبهم كانت تدق فالجاني لا بد

منهم، وكل منهم فرح أنه ليس الجاني وأنه سيشهد لتوه محاكمة رائعة يلذ له حضورها كشاهد رؤية فقط وليس كمتهم.

غير أن أمل الأولاد خاب، فبعد قليل جلجل صوت أبيهم يأمرهم بالانسحاب. . ويأمر زوجته بإزالة بقايا الطعام.

وجلجلة صوت أبيهم وإن كانت لا تحدث الا نادراً ولا تحدث الا في حضرة أغراب، الا انها أحياناً تخيف ويحسن طاعتها. ورفعت بقايا الطعام، ولم يكن قد تبقى سوى الصحون والملاعق فقط، وللإنصاف ولم تستطع أصابع الأطفال ولا حتى أظافر القطط أن تصل إليها.

وكان في نية ابراهيم أفندي أن يجلجل صوته مرة ثالثة ويأمر زوجته بتركه مع الأسطى شعبان على انفراد، لولا أنه شك في احتمال طاعته، فآثر السلامة والاحتفاظ بكيانه سليما أمام الضيف لا تجرحه كلمة ولا زغرة أو تعليق.

وهكذا، وليبعدها، أمرها بلهجة رقيقة لطيفة لا يقولها الا زوج غارق في سعادة زوجية دائمة أن تعد القهوة، وأصابته نظرة جانبية مدببة كطرف الابرة أفهمته ان ليس لديهم بن.

وحينئذ افتعل ابراهيم أفندي ضحكة ما، وقال للأسطى شعبان وهو يخبطه فوق ركبته:

ـ والا تشرب شاي أحسن؟. . أنا عارف. . أنت تحب الشاي. كل الأسطوات يحبوا الشاي. . خليه تقيل يا أم نعيمة. .

وبينما كان الشاي يعد كانت أم نعيمة لا تتركهما على انفراد أبدا وكأن في الأمر مؤامرة، فهي غادية رائحة تنقل كرسيا من مكان الى مكان، أو تسأل ابراهيم أفندي إن كان يريد شيئا، وويله ان كان قد أراد شيئا.

وأخيرا آن الأوان وقال ابراهيم أفندي:

ـ خير؟ . .

ولم يقل شعبان حرفا، أشار لابنه وسكت.

وقال ابراهيم أفندي وقد ارتسم أسى أكثر من اللازم على وجهه، وكأنه فوجيء برؤية رأس الولد المجروح:

ـ خير؟ . . ماله؟ . . مالك يا بابا؟ . . مالك؟! . .

فقال شعبان:

ـ ابنك عوره.

ـ ابني مين؟! . .

قالها ابراهيم فندي باستنكار ثم أضاف:

ـ انت متأكد؟ . . يعني واحد من الأولاد اللي كانوا هنا دول هو اللي ضربه؟! . .

ـ أيوه. .

ـ يا ولد! . . يا ولد انت وهوه! . .

قالها ابراهيم أفندي في شموخ وشهامة.

وجاء الأولاد يتدارون في بعضهم البعض، وكش فيهم الأب:

ـ أقف عدل يا ولـد. . أقف عدل. . شيـل ايدك من على كتف أخوك يا قليل الأدب.

ووقف الأولاد وجـاءت وقفتهم أقرب مـا تكـون الى الـطابـور، كانوا ثمـانية وكـانوا يصنعـون مع الأرض مثلثـا أصغرهم طـوله أشبـار وأكبرهم أطول من الوالد نفسه بقليل.

وحـدق فيهم ابراهيم أفنـدي وهو يتفحص ليحـرز من الجاني، ويحس بنوع من الثقة لأنه رئيس هذا الطابور كله يستـطيع أن يحـركه كيف يشاء. وقال لابن شعبان:

ـ مين فيهم اللي ضربك يا بابا؟

وأشار الـولد الى فؤاد الذي يقف في الوسط وقال:

ـ دهـه. .

وهنا ضاع زمام الموقف وهاج كل شيء، وارتفع صوت شعبان يحكي وبعنف وقـد ذهب عنه خجله وحـرجـه، وبـطالب أن يضـرب الجاني علقة. . الآن الآن. . أمام عينيه والا كان ما كان.

ورد عليه ابراهيم أفنـدي بصوت لا يقـل عنه علوا، واشتركت شفاعات بلسانها ويديها ورموشها وعينيهـا. وتناثـر الأولاد في الصالـة بعضهم يـردد كلمـات الأب، وبعضهم يعـزز حـركـات الأم وبعضهم

يقلد كلمـات الأسطى شعبـان ويسخر من كلمـاتـه، وفي تلك الأثنـاء هاجت القطط وانطلقت تموء دون أن يـزعجها أحـد، وسقطت أشيـاء في الحمـام، وقرقعت قباقيب على البـلاط، ورفـع صـاحب القهـوة المجاورة مذيـاعه على الآخـر، وأذن المغرب، وبـدأت صيحات اللبن الزبادي.

وآب كـل شيء فجـأة الى هـدوء حين ارتفـع صـوت ابـراهيم أفندي يقول:

ـ ولـزومـه ايـه كتـر الكـلام؟.. نحقق.. واللي عليـه الحق ينضرب بالجزمة..

وهكذا بدأ التحقيق.

وبدأ الخلاف، فمن من الولدين يحكي أولا؟..

واستقـر الـرأي أخيـرا على أن يبـدأوا بـروايـة المجني عليـه المجروح.

وبدأ ابن شعبان يتكلم، ومـا أن فتح فمـه حتى صمت الجميع وترقبوا وعم السكون، وحينئذ تلجلج ولم يستطع إخراج الكلمات الا بعد أن نظر الى أبيه.. وكش فيه أبوه فانطلق يقول:

ـ كنا.. كنا بنلعب. ويعدين قسمنا قسمنا نفسينا. أنا كنت بدا بـدافـع ودهـه(وأشـار الى فؤاد دون أن ينـظر اليـه) ودهـه كـان الأسطول.. جه جه يزقني ما قـدرش عليّ.

واندفع فؤاد الرفيع يقاطعه:

ـ أنـا ما قـدرتش عليك؟ . . مش احنـا قايلين مفيش طـوب . . ضربتني بالطوبة ليه؟ . .

وهب فيه أبوه يقول اخرس . . فخرس فؤاد. وخرس ابن شعبان أيضاً وعم سكون.

وتنحنح شعبان وقال لابنه:

ـ يا ولد احكي كويس. كنتم بتلعبوا ايه؟

ورفع ابراهيم أفندي جذعـه ورأسه وذراعيـه محتجا على سؤال الأسطى شعبان، طالبا أن يترك الولد ليروي ما حدث دون أي تـدخل أو مساعدة.

وقال شعبان وأمره الى الله:

ـ يا خوانا دانا بس عايز تعرفوا ايه الموضوع . .

ومضى الولد يقول:

ـ جـه يزقني مـا قـدرش عليّ . . فـراح جـايب زلـطة وحـدفني بيها حت ف . . ف . .

وبدا الولد ينهنه لولا أن هب فيه أبوه:

ـ أكتم يا بن الـ . . انت بنت؟ اكتم أوعى تتنفس.

وفعلت كلمات الأب فعل السحر.

ورفـع الابن وجهه لأول مـرة، وحـدق في المـوجـودين بجـرأة وأشار الى فؤاد وقال:

ـ علشان ما . . ما قدرتش علي . . رحت جبت زلطة يا جبان .

وهب فيـه الجميع أن يخـرس فلم يخـرس. ومضى كـالـوحش الصغير يهبهب ويعوي :

ـ عـاملي أسطول؟ . . والله لمـا تكـون انت مليـون أسـطول . . علشان ما قدرتش عليّ؟ حد كان قالك . . قالك العب . . حد . . حد قالك اعمل أسطول؟ . . لما أنت جبان .

وهنـا جاءتـه زغدة(كـده وكده) من أبيـه فسكت وعم السكون. وكان لا بد أن يعم السكـون فإن أحـدا لم يكن قد فهم شيئـا، ثم إن ما تبادله الولدان زاد الأمر تعقيداً، وأصبح هم كل والد أن يعـرف كنه تلك الخناقة بعد أن كان همه أن يعد نفسه للدفاع عن ابنه .

وكـان واضحـا أنهمـا لن يستـطيعـا أن يستخلصـا السبب من المتخاصمين والمجني عليه متحفـز والجاني ينكـر، والحقيقة ضـائعة بين التحفز والإنكار.

وكان لا بد من التدخل للعثـور على الحقيقة. وابـراهيم أفندي الذي لم يرض بتدخل شعبان بدأ هو الذي يتدخل ويسأل على اعتبار أنه والد الجاني فلن يحابي المجني عليه .

وأطـال ابراهيم أفنـدي رقبته ومـد رأسه وقـال كأي وكيـل نيابـة مدرب، موجها السؤال الى ابن شعبان :

ـ اسمع يا شاطر؛ قل لي كنتو بتلعبو ايه؟

فأجاب ابنه بسرعة :

ـ كنا بنلعب لعبة الكنال.

وأسكت ابنه بلعنة وعاد يوجه السؤال للمجني عليه، فقال الأخير:

ـ كنا كنا بنلعب.. لعبة الكنال..

وهز ابراهيم افندي رأسه وعاد يسأل:

ـ لعبة الكنال دي ايه.. كوره؟!

فأجاب الولد:

ـ لأ لأ. لعبة الكنال.. قسمنا.. قسمنا نفسينا..

وهز ابراهيم أفندي رأسه وعاد يسأل:

ـ يا بني ايه لعبة الكنال دي؟

فقال الولد بفروغ بال الصغير:

ـ مانا مانا بقولك آهه.. قسمنا قسمنا نفسينا.. احنا احنا الجيش المصري وهم أسطول الانجليز.. وحطينا حطينا خط كده وقلنا قلنا ده الكنال.

وفي نزق الأطفال، ترك الولد مكانه بجوار أبيه وقد ذهب عنه تحفظه وخوفه تماما، ومضى الى وسط الصالة يمثل:

ـ حطينا خط كده.. يعني يعني الكنال.. والجيش المصري يقف هنا.. وأسطول الانجليز يجي يجي من هنا.. واذا عدوا الخط يبقى اتغلبنا وياخدوا الكنال.

وهنا غمز ابراهيم أفندي لشعبان عله يضحك، ولكن شعبان لم يضحك، كان وجهه لا يزال جادا ولا يزال يريد أن يطمئن ان ابنه كان محقوقا ليضربه أو صاحب حق ليشهد ضرب خصمه. أما الست شفاعات فكانت ساكتة ترقب الولد اللمض في اشمئناط واحتقار، والأولاد كانوا مشغولين بالتفكير في لعبة الكنال، يقلبون الأمر على وجوهه ليروا الى أي الفرق ينضمون اذا لعبوها.

وأحس ابن شعبان بالجو فيه هدوء مريب فسكت، ولكن أباه استحثه ورغده وقال:

ـ هيه.. قول.

فأجاب الولد بفرحة وكأنه أخذ اذنا باللعب في الحارة الى ساعة متأخرة:

ـ أنا كنت في الجيش المصري.. ع اليمه دي.. فأم سحلول جه يهجم عليّ..

وقاطعه ابراهيم أفندي بلهجته الممدودة:

ـ أم سحلول مين؟

فقال الولد على الفور:

ـ دهه.. فؤاد..

ثم استدرك:

ـ أصل احنا مسمينه أم سحلول.

ونظر ابراهيم أفندي الى ابنه شذرا واستدار الى ابن شعبان وقال:

ـ اسمه فؤاد. . أم سحلول ايه دي؟ . .

ـ وعاد ابن شعبان يحكي:

ـ وبعدين اذا اذاأحد. .

والتفت ابراهيم أفندي فجأة الى ابنه وهو يغلي:

ـ بقى كده يا وله يسموك أم سحلول؟ . . اتفرجي على ابنك يا ست هانم. . اتفرجي يا ست أم سح . . .

وكاد يقولها ولكنه أنقذ لسانه في آخر لحظة والتفت لابن شعبان وقال:

ـ كمل. . كمل يا خويا. . كمل يا أم أربعة وأربعين انت راخر. .

وانطلق الولد:

ـ وبعدين اذا واحد من الأسطول قدر يعدي الخط تبقى فرقتنا اتغلبت، أنا كنت مع بندق وخشبة وحسام، وخشبة وحسام اتغلبوا، فأتلمت فرقة أم سحلول كلها على. .

وقاطعه ابراهيم أفندي:

ـ قلنا ميت مره فؤاد. . قلنا فؤاد. . ده دي؟ . .

وتكلم شعبان:

ـ معلش يا إبراهيم أفندي.. عيال.. خليه براحته علشان يحكي كويس..

وزأر إبراهيم افندي بصوت منخفض وعينين جاحظتين:

ـ حكى يحكي، انما أم سحلول ايه؟.. قلنا له اسمه فؤاد.. هي قصة.. ده دي؟

وهنا أشار فؤاد الرفيع إشارة خفية لابن شعبان معناها:

«طيب.. والله لأوريك»..

ولكن ابن شعبان لم يتوقف ومضى يقول:

ـ فضلت أنا وده.. هوه اكمنه أطول مني حب يديني هدر.. قمت أنا شكيته مقص راح نازل على سنانه، فالولاد ضحكوا عليه وفضلوا يضحكوا ويقولوا: ايدن أهه.. ايدن أهه.. العبيط اهه.. العبيط أهه.. فهو اتغاظ ومسك زلطة وراح خابطني في رأسي.

واندفع فؤاد يقول:

ـ أبدا والله.. انت ستين كداب في أصل وشك.. والله يا بابا ما ضربته.. هو اللي وقع.. أنا مالي؟.. أنا ما ضربتوش احنا اتفقنا ان اذا غلبنا منهم اتنين يسلموا.. هو ما رضيش يسلم وقعد يزق فينا.. واحنا نزق فيه فراح واقع على الأرض اتعور.

وكان ابراهيم أفندي يحاول اسكات ابنه طوال الوقت،. ومع هذا فقد تغاضى عنه حتى عثر في كلامه على حجة، وحينئذ أسكته ومط رقبته وسأل ابن شعبان:

ـ انتو اتفقتوا صحيح ان اذا اتنين اتغلبوا تسلموا. . ؟

وانتظر الجميع الجواب بفارغ الصبر. كان كل من بالحجرة قد نسي من الجاني ومن المجني عليه واستحوزت اللعبة على تفكيره. الأولاد كفوا عن الدوشة، وأم نعيمة يدها في خصرها وأذنها متجهة الى مصدر الصوت والمتاعب، وشعبان مائل الى الأمام يراقب ابنه في حماس، والجدة كفت عن المواء، والقطط هي الأخرى كفت عن الأنين واختفت بين طيات ملابس الجالسين.

وقال ابراهيم أفندي وهو ماض كوكيل النيابة في دوره يستدرج الولد:

ـ انتوا اتفقتوا صحيح يا حبيبي؟ . .

وتلجلج ابن شعبان ونظر الى ابيه يستشف ما وراء نظرته ثم قال:

ـ احنا احنا أيوه اتفقنا. . بس بس. .

وتنفس ابراهيم أفندي لأول مرة بارتياح وعوج رأسه وقال وهو يكيل السؤال القاضي:

ـ طيب. . ليه بقى سيادتك مسلمتش زي ما اتفقتوا؟ . .

وواجهه ابن شعبان في دهشة واستغراب وقال:

ـ اسلم ازاي؟!

فعوج ابراهيم أفندي رأسه الى الناحية الأخرى وقال:

ـ زي ما اتفقتوا.. ليه بقى يا سيدي ما سلمتش؟

فقال الولد على الفور:

ـ ما هو.. ما هو إذا سلمت يبقى اتغلبنا.

وأغلق إبراهيم أفندي عينه اليمنى وقال:

ـ تتغلبوا تتغلبوا.

وازداد الاستنكار في وجه الولد وقال في دهشة:

ـ اذا اتغلبنا يكسبوا هم.

وأجاب ابراهيم أفندي وهو يغلق العين الأخرى:

ـ يكسبوا يكسبوا.. ليه ما سلمتش؟

وقال الولد بفروغ بال:

ـ مهم كانوا أخدوا الكنال..

فقال ابراهيم أفندي وهو يمط شفتيه:

ـ ياخدوه يا خدوه..

واندفع الولد بغضب حقيقي يقول:

ـ يا خدوه ازاي؟.. هي.. هي لعبة.. هـ.. هي لعبة؟!

وكذلك اندفع أبوه يقول:

ـ وده اسمه كلام يا أبو فؤاد؟

وكادت تحدث بوادر ضجة، لولا أن ابراهيم أفندي صرخ:

ـ هوس.. هوس.. يا اخوانا ايه اللي جرى؟.. دي لعبة بيلعبوها. قول يا بني ما سلمتش ليه؟.. قول..

فقال الولد:

ـ أسلم ازاي؟

وقال أبوه:

ـ يسلم ازاي؟

وقالت أم نعيمة:

ـ زي الناس يا دلعدي..

واندفع فؤاد النحيل يقول:

ـ شفت يا بابا؟.. هو اللي قلبها جد.. احنا كنا بنلعب.. هو اللي قلبها جد. قلنا له سلم قام شتمنا وقعد يضرب فينا عشان منعديش الخط.. والله هو اللي وقعني وقعد يضرب فيّ.. وعضني.. ثلاث عضات.. أهم.. دا كان.. زي المسروع.. دا مكانش بيلعب.. دا قلبها جد.. وكل.. ده.. عشان مش عايز يتغلب.. وأنا مالي؟.. هو اللي وقع.. ولما وقع اتعور.. أنا مالي؟.. والله ما لمسته.. دا يدوبي قربت عليه نزل فيّ ضرب.

وانخرط الولد في البكاء.

وهنا استعاد ابـراهيم أفندي الشخـطة التي شخطهـا شعبان في ابنه وشخط شخطة أعلى منها وقال:

ـ اخرس. . أنت بتعيط زي النسوان؟. . عمى في عينـك.

وصرخت فيه زوجه:

ـ جرى ايه يا ابراهيم سرعت الواد. . هو قد الشخـطة دي؟. . وايه حكاية النسوان دي رخـره. . ما تقعـد معووج يـا ابراهيم وتتكلم عدل. . اتكلم عدل يا ابراهيم.

وقـرأ ابراهيم أفنـدي في الجملة الأخيـرة انـذارا خفيـا، وفعـل الانذار فعله في الحال.

وهكـذا ضـاع زمـام المـوقف واختلطت الأصـوات. . صـوت الأسـطى شعبان تخين وتصـاحبه حشـرجة كحشـرجة الكـلاكس حين يعلق، وصـوت ابراهيم أفنـدي رفيع أخنف كـأنما يصـدر عن طـاقـة واحدة من طاقتي أنفه، وصوت أم نعيمة حياني نواعمي طويل كحبال الكتان، وصوت الجدة أم ابراهيم أفندي كصوت ابنهـا تمامـا وكأنهـا جـد. وكلمات شعبـان فيها احتجـاج صارخ، وكلمـات ابراهيم فيهـا دعوة للسلام والمحبة، وما يصحش يعملها الصغار ويقع فيها الكبار، وكلمات شفاعات عزف منفـرد لزمـارة كمساوي تـرام، وكلمات تقـال وكلمات لا تقال، ولم يسلم الأمر حتما من بضع دعوات خـرجت من فم الجدة واستقرت على رأس العدو، أي عدو. .

وآب كل شيء الى هدوء حين قال الأسطى شعبان:

ـ زاي بعضه. . احنا مالنا بركة الا بعض. . نصطلح نصطلح.

وقبل الجاني رأس المجني عليه. . وتبودلت بضع نكات تناسب المقام. . وتفضلت الست أم نعيمة وضحكت على نكتة. وتفرق الأولاد وقد انتهت الرواية، وجاء الشاي وشرب الأسطى شعبان وشرب ابراهيم أفندي على حس الضيف. وتكلم الرجلان في السياسة وقال ابراهيم أفندي أن الله معنا وسينصرنا على القوم الكافرين. . وقال شعبان عن الانجليز دول عظمهم دايب من شرب الخمرة. . يدوبك تزق الواحد يقع.

وأخيرا آن الآوان وأخذت الجلسة حقها واستأذن شعبان، وعزم ابراهيم أفندي عليه بالعشاء، عزومة مراكبية، ولكن الأسطى أصر ومضى آخذا ابنه من يده.

وقبل أن يهبط شعبان السلالم سمع أصواتا تأتيه من الداخل، وتلكأ قليلا فعرف صوت ابراهيم أفندي الأخنف وهو يقول:

ـ أحرم يا بابا.

ـ تحرم يا كلب تلعب مع العيال دول؟

وعاد ابراهيم أفندي يقول:

وسمع شعبان صرخة مبالغاً فيها ثم صوت الولد وهو يقول:

ـ تحرم تلعب لعبة الكنال ومش عارف ايه؟

وصرخ الولد وقال:

ـ أحرم يا بابا.

ـ تحرم يعملوك أم سحلول يا خايب؟

ـ أحرم والنبي . .

ـ تحرم تعمللي أسطول وايدن وكلام فارغ من ده؟

ـ أحرم يا بابا أحرم. . والنبي حرمت. .

ولعلع صوت أم نعيمة:

ـ خلاص حرم يا ابراهيم خلاص. . ما عدشي ح يعملها. . قطيعة تقطع ايدل وشورته واللي جابوه. . قول تبت يا واد. . قول تبت. .

* * *

وقبل أن يضع شعبان قدمه على أول درجة من درجات السلم، التفت الى ابنه وملس على رأسه وعلى المنديل الذي يخفي الجرح وقال:

ـ وله. أوعى تكون سلمت في الآخر يا واد. .

ونظر الولد الى وجه أبيه المرتفع، وأمسك يَده الضخمة بكلتا يديه، ثم ألصقها بوجهه الصغير وضمها اليه وتعلق بها، وابتسم ولم يجب. .

ابو الهول

كنا نعزي في الحاج سعد، والمأتم حابك اذ كان الوقت بعد العشاء حيث يكثر المعزون. كانت الخيمة على قد الحال فيها من الثقوب أضعاف ما فيها من قماش، والكلوبات نورها يعاني شحوب الأنيميا الحادة، ومع هذا كان يبدو في الظلام الخرافي المطبق على قريتنا ساطعا براقا يعشي جموع الفلاحين القادمين يعزون والذين لم تتعود عيونهم أبدا الضوء في الليل، فما بالك بنور الكلوبات؟ ولهذا كانوا يتوهون في الخيمة ولا يتعرفون على الناس الا بصعوبة.

وكان الأعيان يحتلون ـ كالعادة ـ مقاعد الصدارة ذات القطيفة الباهتة المتآكلة، والذهب الذي تحول الى جرب، والكسور والرضوض التي أصابت الأذرع والأرجل على مر الزمان. .

وكنت أيامها عميد المتعلمين في بلدتنا اذ كنت طالب طب، وقد أجمع الناس اجماعا رهيبا على تلقيبي بالدكتور، وتبناني أهل بلدنا واعتبروني ثروة قومية يفاخرون بها البلاد الأخرى. وتقول نساء قريتنا لصاحباتهن في الأسواق:

ـ يا بت اختشي داحنا حدانا دكاتره. .

وأمر على الأولاد وهم يلعبون فيكفون عما هم فيه من لعب ويشير إليّ أحدهم قائلا للآخرين:

ـ والنبي ده دكتور حق حقاني يا ولاد.

واذا مررت على الكبار تترى الدعوات خلفي ممن أعرفهم وممن لا أعرفهم، تحرسني من العيون وتخليني لأبي وتنجح لي المقاصد.

وأصبح من حقي وواجبي اذن وقد رفعني الناس الى مصاف الأعيان أن أجلس بينهم. ومع هذا كنت أفضل ويفضل معي بقية المتعلمين أن نجلس مع الغالبية العظمى من أهل بلدنا، الذين كان يقول عنهم الحاج سعد نفسه ـ عليه رحمة الله ـ: «ربنا سبحانه وتعالى خلق الناس اللي بتفهم من تراب الجنة الناعم، وبعدين فضلت شوية نخالة خشنة احتار يعمل فيها ايه، فراح راميها وقال كوني عبادي الفلاحين، فكانت».

كنا نفضل الجلوس الى هؤلاء حيث لا نتكلف ما لا نطيق من التأدب واصطناع الرجولة، وحيث نتحدث كما نشاء بلا ضابط أو رابط أو تشكك، وحيث نجد من يتقبلون كلامنا وكأنه آيات منزلات..

وفي مأتم الحاج سعد أيضا جلست في الركن القريب من الباب ومعي بعض طلبة الجامعة وعدد لا يحصى من «النخالة»، وسرعان ما تضخمت الجماعة بانضمام بعض الذين يتمسحون

بالمتعلمين وعلى رأس هؤلاء أبو عبيد التومرجي في مستشفى حميات المركز، والذي كان يفضل أن تتواجد«الهيئة الطبية» في مكان واحد، فقد كان هو الآخر يزاول الطب يكشف ويشخص ويعطي الحقن، وله بالطو أبيض نظيف وجلابية«دبلان» وطربوش، والحق أنه كان يبدو بملابسه تلك أوجه منا جميعا.

وكان آخر القادمين الى مجلسنا عبد الله المزين، والرجل كان يقوم أحيانا بعمل حلاق الصحة ويبدو أنه هو الآخر كان يعتبر نفسه يمت بصلة ما إلى الهيئة، فكان إذا رآنا جالسين أعطى صبيه شنطة الحلاقة وأجلسه بها في مكان بعيد وكأنه يتخلص من شخصيته كحلاق، ثم يهل علينا قائلا للجميع:

ـ السلام عليكم!

ويلتفت إليّ بسلام خاص قائلا:

ـ نورتنا يا دكتر.

وكان ينطقها«دكتر» ليؤكد لي وللسامعين أنه رجل فاهم، وليبدأ بها شخصيته كعضو ملحق بالهيئة الطبية الموقرة..

كنا جالسين في صمت نستمع الى الشيخ مصطفى مقرىء بلدنا الذي كان قد تسلم دكة الفقهاء، وتسلمنا بعد العشاء مباشرة يصب علينا جام صوته الغليظ القبيح ولا يريد أن يختم أو ينتهي. وكلما تهدج صوته ظننا أن الفرج قريب وأنه سوف يسكت، ولكن يخيب ظننا إذ ما أسرع ما كان يمط رقبته وكأنه يريد انتزاعها من جسده،

ويكشر جدا ولا ندري لماذا يكشر، ويسد أذنه اليمنى ويخفي عينيه ببقية أصابعه ويحزق وتمتلىء رقبته الطويلة الرفيعة بالعروق وبالهواء، وتنتفخ حتى لنخاف عليها وعلينا من الانفجار، ثم ينعص الشيخ مصطفى، وتتطاير شظايا صوته مخترقة فضاء الليل الواسع ترج قريتنا رجا، ويصحو لها نائمون في بلاد أخرى.

وكان الوحيد المباح له الحركة في المأتم هو شيخ الخفراء وقد شنط البندقية في كتفه وراح ينظر الى الناس كمن يقول: نحن هنا. ينظر اليهم ويتمشى في الخيمة قليلا، ثم يسرع الى الخارج يفاجىء الأولاد الذين تجمعوا يتفرجون على المأتم والكلوبات ونقوش الخيمة الغريبة الباهتة، وينهال عليهم ضربا بخيزرانته.

وجاء الفرج وقال الشيخ مصطفى ونحن غير مصدقين: صدق الله العظيم.

وانهال عليه الناس من كل صوب:

- تقبل الله يا أستاذ.. الله يفتح عليك.. حرما.. الله يفتح عليك.. حرما. الله يعمر بيتك.

وكانت الكلمات تخرج من الأفواه حارة لافحة، آخر ما تصلح له أن تكون دعوات..

وامتلأت الخيمة بعدها بهمهمة الجماعات المتقاربة.. وبدأنا

نتكلم نحن الآخرون ونال الشيخ مصطفى من ألسنتنا الشيء الكثير. ثم بدأنا كالعادة نخوض في سير الأعيان، وانتهينا أخيرا الى ذكرياتنا عن القاهرة. كنا نتكلم نحن فقط وكان بلدياتنا الفلاحون ساكتين يسمعوننا ويضحكون، وينظرون الينا ويتأملون كلامنا وكيف ننطقه، ويتحسسون بأعينهم جلابيبنا «الزفير» و «البفتة»، ويتفرجون على طربوش أبو عبيد التمرجي وعلى ساعة يدي وبريقها كلما عكست ضوء الكلوبات ولا يتكلمون. . وهكذا كان دأبهم دائما اذا جلسوا معنا، نرى في وجوههم السمراء المعفرة اقتناعا كاملا بما نقول، وفي عيونهم اعجابا مطلقا بنا، وفي تأييدهم لنا حماسا منقطع النظير. . وكان يهيمن عليهم دائما وجوم لعله خوف منا، ولعله هوة يحسون أنها تفصل بيننا وبينهم، فكان الواحد منهم لا يخاطب الواحد منا، وانما اذا أعجبه كلام قيل يميل على جاره ويهمس له معلقا أو بلكزه. أما اذا بلغ الاعجاب حد الاعجاز فحينئذ تتصاعد منهم التعليقات رغما عنهم. . كلها متشابهة، وكلها في آن متقارب وكأنما تصدر عن جسد حي واحد خشن كبير.

وحينما أوجد ويوجد أبو عبيد التمرجي، كان ينتهز أول فرصة تسنح له ويخبط سؤالا ما. . ولا بد أن يكون السؤال في الطب. كان يزاول العلاج ويهمه أن يثبت للفلاحين وللمتعلمين أيضا أنه عالم كبير يناقش«الدكتور» مناقشة الند للند. وكان اذا تحدث معي أو سألني لا يفعل ذلك بلغة بلدنا المحلية وانما بلغة البندر، والا فما الفرق بينه وبين الفلاحين؟. . ولا يسأل السؤال بطريقة عادية

وانما له أسلوب مؤدب في أدبه برود وتلامة، نفس أسلوبه الذي يعرض به«خدماته» على الناس ويطالب بأتعابه وفوقها«شوية» لبن أو أكلة بامية من بامية الزبائن الحلوة. . ودائما بامية الزبائن حلوة.

وكانت اسئلته تزعجني جدا، فأيامها كنت لا أزال في اعدادي طب اشرح الضفادع وأدرس الديدان، ولا أعلم عن الأدوية والأمراض الا أني«دكتور». وكان هو من كثرة عمله في المستشفيات قد حفظ كام اسم مرض وكام اسم دواء. وليلتها استطرد أبو عبيد يتحدث عن مرض الحاج سعد وكيف أخذه للدكتور حنا طبيب المركز وفشل علاجه، ثم وصف له هو حقن ستروميسين وأقراص سلفات يازين ٣×٣×٥ «هكذا كان يقول»، و م، قلوي، ومنعه عن الطعام منعا باتا، ولكن المرحوم هفت نفسه الى الفسيخ يوم السوق والتهم وحده رطلا . . فحم القضاء . .

وغمغم الجمع الذي حولنا، فهنا وفي مجال القسمة والأعمار يستطيعون الكلام:

ـ بتيجي على أهون سبب . .

ـ اجله كده . .

ـ ما حدش بيفوت يوم من عمره . .

ـ حكمته . .

واذا بدأ أبو عبيد . . فمحال ينتهي . . ولهذا أنشأ يحدثنا عما جرى بعد الوفاة . . فهو الذي استخرج تصريح الدفن رغم عصلجة

الـطبيب. . واستخـرجـه بعـد ميعـاد العمـل الـرسمي. وكـان واضحا أن لولا شطارته لبقي المرحوم بلا دفن الى اليوم التالي.

ولست أذكـر كيف استطعنا «استخراج» الحـديث من أبـو عبيـد وادارتـه بيننا نحن«المتعلمين»، ولكن أذكـر أن المناقشـة دارت حـول الجثة وعن هل من الممكن أن تبقى أياما بـلا دفن. وبعد أن هـدأت حدة النقاش سألني أبو عبيد والاهتمام الشديد ظاهر على وجهه:

ـ الا قوللي يا دكتور؟

وكان يقول لي «دكتور» ليبدو ثمة فارق بينه وبين حلاق الصحة من نـاحية، وبينـه وبين الفلاحين الـذين يقولـون «داكتور» من نـاحية أخرى. .

واستدرت اليه أستعد لسؤاله البايخ، فقال:

ـ هو التخشب الرمي بيظهر بعد الوفاة بعد ايه؟

وصمت المـوجـودون جميعـا، المتعلمين وغيـر المتعلمين، يحملقون مذهولين في كلمة«التخشب الـرمى» وهي لا تزال تـرن في الجو وتحوم حولنا، حتى حلاق الصحة أذهلته الكلمة فـراح ينظر الى أبو عبيد في دهشة وحسد وكأنما يستكثر عليه معـرفة كلمـة كتلك وما لبث أنـظار الجميـع أن تحـولت إليّ تستنجـد بي وتنتـظر الشـرح. وكنت من لحظة أن سمعت الكلمة قد أصابتني حيـرة بالغـة فما كنت أعـرف ما تعنيـه. ولما وجـدت التساؤل حـاصرني ابتسمت ابتسـامـة صفراء وسألته السؤال الذي يكسب به العاجز الوقت:

ـ فيه؟

فقال وكأنه يطرح قضية عامة للمناقشة:

ـ أصلي اختلفت النهارده مع الدكتور صبحي الحكيمباشي بتاعنا. . أنا أقول نص ساعة وهو يقولي يا أحمد ساعتين بس. .

فإيه رأيك يا دكتور؟

وتصنعت لهجة العلماء وقلت:

ـ لأ. . انت غلطان وهو غلطان. . هي تيجي ساعة كده . . ونظرت الى وجوه الجالسين فرأيتهم يسمعون اجابتي ويتبادلون النظرات، والكلمة لا تزال ترن في آذانهم ولا يفهمون. وصمتنا ثوان قليلة رحت اتطلع اثناءها الى أبو عبيد لأرى ان كان قد اقتنع أمْ لا يزال به شك. وكان هو خافضا بصره الى الأرض يحدق في قبضته بأدب جم. وكنت أعرف حركته اللعينة تلك وأعرف أنه يصطنعها كلما ارتبكت أنا حتى لا يحرجني، اذ لا يصح وهو«التمرجي» أن يحرج«الدكتور». .

غير أني فوجئت بصالح ـ الله يعافيه بالعافية ـ يزر عينيه ويسألني:

ـ الا يا دكتور ايه خشب الرمه ده؟. .

وصالح هذا كان فلاحا ولكنه لا يزرع الأرض لحسابه وانما يشتغل عند أحد المستأجرين، أظنه واحدا من عيلة أبو شندي،

يشتغل مقابل طعامه وكسوته وكذا كيلة في العام. وكان لونه لا هو أسمر ولا أصفر، لون رمادي كلون التراب . . وكان طويلا هائلا يخيف الناس مرآه حتى سموه أبو الهول. وعمري ما رأيته مبتسما ولا رأيت عينيه مفتوحتين وكأنما كان يرى برموشه، وكانوا يقولون إن قلبه ميت، وانه لا يخاف ولا يزعل ولا يفرح، وإنه أقوى واحد في بلدنا لولا أنه لا يحب اظهار قوته تواضعا، ومن خشية الله. وكان كلامه بطيئا تحس معه أنه ينتزعه من نفسه انتزاعا، وكان دؤوبا على جلسة المتعلمين ولكنه لا يتكلم فيها أبدا. وكان الناس يعرفون عنه هذا السكوت ولا يحاولون استفزازه، مخافة أن يثور مرة فيقتل من أمامه. . ومع هذا لا يذكر الذاكرون في بلدتنا ـ على كثرة ما فيها من مؤرخين وذاكرين ـ أنه ثار مرة ولا اشتكى أو توجع.

وكادت جماعتنا تضحك للسؤال المفاجىء لولا المأتم، والظاهر أن ابو الهول كان قد عبر بسؤاله عما يدور في الخواطر جميعا، فما لبثت الوجوه أن تطلعت إليّ، كلها متسائلة جادة، ما عدا وجه أبو عبيد الذي راح يتطلع ناحيتي ويبتسم، ويقول بابتسامته:

ـ أقول أنا؟

وعبست أطلب منه السكوت وقلت على البديهة:

ـ أصل يا صالح جسم الانسان ده عجيب قوي . .

وسرحت أحدثهم حديثا عاما عن الجسد، وكيف يجري الدم، ويدق القلب . .

وسكت، لأرى ان كانوا قد نسوا أو اقتنعوا . . ولكن صالح زر عينيه مرة أخرى، وعاد يسألني :

ـ أمال رمة ايه اللي بيقول عليها لفندي؟

وعاد(لفندي) أبو عبيد يقول بابتسامته اللامعة الباردة: تحرم تعمل دكتور؟ ولما وجدني سكت، والسكوت علامة الرضا. اندفع يقول:

ـ بعد اذنك يا دكتور. . أصل بني آدم منا يا اخواننا جسمه من جوه مليان جير وحديد وزرنيخ وسليماني وماركورو كرون. . وطول ما الواحد منا حي الحاجات دي بتبقى سايحة في الجسم فلما بينقضي الأجل ويتوفاه الله بتروح عاقدة على بعضها زي ما بيعقد جالوص الطين في وش البعدا. . تقوم تيجي تحسس على جسم الميت من دول تلاقيه كنه لوح لطزانه تمام.

وسكت أبو عبيد عن الكلام. ويبدو أن ما قاله كان عجيبا غريبا لا يستطيع أحد تصديقه دون شهادة مني. . وعادت العيون تنظر إليّ وتطلب الشهادة، ولم أجد لديّ شيئا يدحض علم أبو عبيد فهززت رأسي موافقا، وحينئذ فقط تصاعدت التعليقات:

ـ يا خبر!

ـ أترن بني آدم رمه يا ولاد وما هوش داري.

ـ عجايب والله.

ـ ما تموت يا واد يا صالح خلينا نعرش بيك الزريبة.

ـ عشان تحمدوا ربنا على لقمة العيش ونفس الهوا يا عالم بذر كتان . .

وأصبح أبو عبيد نجم الحلقة بلا منازع . . وأخذت العيون تلتف حوله وترعاه في تبجيل وكأنه هو الذي يستطيع اذا شاء أن يحيل الواحد منهم الى قطعة من خشب الرمة . .

ولم أحتمل هذا ،فسرعان ما وجدت نفسي أندفع في الحديث عن الوفاة والجثث حديث العارف الخبير. وأخذت أروي لهم النوادر والحكايات عما يحدث في مشرحة كلية الطب وكيف أننا نقضي طيلة النهار والمشارط في أيدينا نقطع الأجساد ونبقر البطون، مع أني لم أكن قد دخلت المشرحة ولا رأيتها في حياتي . .

واستوليت على انتباهاتهم كلها. وغاب عن ذاكرتهم أبو عبيد برمته، والمأتم وكل شيء.

وفي ذلك الوقت صعد الى أريكة الفقهاء رجل ضخم يرتدي الجبة والتفطان. وتبينت فيه الشيخ عبد الحميد واعظ المركز، وكان الرجل ـ والحق يقال ـ نشيطا في اداء وظيفته حتى لهجت الألسن بذكره. كان لا يترك مأتماً في قرية الا ويذهب اليه ويعزي فيه، ليس هذا فقط، بل إنه ما يكاد يجلس قليلا وتخلو دكة الفقهاء حتى يمضي اليها في بطء وقور، ويرتل بصوت هادىء: (بسم الله الرحمن الرحيم) ويعم الصمت المكان وتشرئب الأعناق تتابع درس الشيخ وهو يرويه بصوت حلو، ينغمه ويطيل في نبراته الحلقية، ويضم الصاد، وتخرج الراء لها زغرودة، وتحس اذا ما سمعت

الكلمات المترادفة الممدودة وهي تتهادى من حنجرته ـ بينما وجهه مكتنز أحمر، وشاربه مخطط أسود، وعمامته ناصعة البياض ـ تحس أنه لا بد قد تعشى بخروف دسم قبل أن يلقي الدرس، وأن كلماته تخرج مطمئنة شبعانة لا تشكو قلقا ولا تعبا، وان لا أولاد له ولا زوجة أو مشاكل وأنه ـ بالتأكيد ـ له الجنة.

صعد الشيخ وأخذ يلقي الدرس.. وكان مفروضا أن أسكت مع الساكتين وأسمعه، ولكني كنت قد طرقت بحديثي بابا لا يستطيع أبو عبيد أن ينافسني فيه.. فالحقن والأدوية والأسماء الغريبة له فيها.. أما الجثث.. فسيرتها لا تأتي الا على ألسنة الدكاترة وحدهم.. ولهذا مضيت أتحدث.. وانقسم المأتم.. الغالبية تسمع الواعظ. والأقلية تسمعني، وأنا أوزع انتباهي بين كلامي وكلام الواعظ.. كان الرجل قد وصل في حديثه الى العذاب الذي ينتظر العاصين في الآخرة.. وكان قد استولى على الألباب جميعا.. أقصد ألباب «النخالة».. فالأعيان كنت ألمحهم يتهامسون ويتثاءبون وينظرون في ساعاتهم ويختلفون على أيها أضبط.. أما أصحاب الأجساد الضامرة البالية فكانوا مسمرين في أماكنهم يسمعون، ووجوههم صفراء ذابلة كأوراق القطن الخضراء حين تصيبها الدودة واللطع، وأفواههم مفتوحة وعيونهم محمرة بالرمد والرماد تحاور الضوء وتداوره لتستطيع أن تتابع الواعظ وهو يتحدث حديث العالم الخبير عما يناله المذنبون، وكيف يتولى أمر كل منهم أربعة من زبانية الجحيم الغلاظ الشداد.. يخلعون عنه ملابسه.. ثم

ينهالون عليه ضربا«بمقرعة» من حديد لها أسنان تنهش لحمه، وتدشدش عظامه، حتى اذا ما استوى وشبع أخذوه الى طابق آخر من النار.. وتولوا إدخاله في مواسير جدرانها من اللهب.. يظل يحرق وهو حي، وكلما ذاب جلده كان له غيره ليتجدد عذابه.. فاذا عطش وطلب ماء سقوه من ماء النار، وماء النار من حميم وغساق..

الغالبية كانت تسمع الواعظ، ولا تكاد تعرف ما المقرعة، ولا الحميم أو الغساق، ومع هذا فمن طريقة الشيخ عبد الحميد في الالقاء، ومن غرابة الأشياء التي كان يرويها ورهبتها، كان التأثر قد بلغ بالناس حد البكاء.

والأقلية كانت تتابع حديثي، وكنت قد تعديت حدود كل معقول وأخذت أروي لهم تفاصيل دقيقة مزعجة عن حوادثنا ونوادرنا مع الجثث، وكيف أننا نتناول طعامنا أحيانا في المشرحة وعلى مرأى من البطون المفتوحة، وأحيانا أخرى كثيرة نلعب«الكوتشينة» على صدور الموتى، وكيف أنني صنعت من العظام والجماجم محابر ومساطر وأقلاما.. ثم حكيت لهم قصة طويلة عن الذراع الذي اشتريته مرة من فراش المشرحة، وأخذته معي الى حجرتي، وما أحدثه من هرج ومرج بين سكان البيت.. الخ.. الخ.

وسألني أبو الهول وهو لم يعد يحتمل:

ـ واشتريت الذراع بكام يا داكتور؟

وتصنعت التذكر وقلت:

ـ والله خدته من الراجل يومها بريال.

فقال مبهورا:

ـ أماه.. يا خبر أسود ومنيل.. أمال يا خواتي بني آدم على بعضه يسوى كام يا داكتور؟..

فقلت وأنا أهز أكتافي:

ـ والله ما اشتريتوش.. انما يسوى له جنيه كده والا اتنين.

وانطلق المستمعون يرددون في ذهول:

ـ شوف يا أخي.. أي والله.. صحيح.. ما أرخص من بني آدم..

ـ دي عبر لمن يعتبر..

ـ لازم دول كانوا عملوا في دنياهم عمل يغضب الله..

وسألني أبو الهول وقد بدأت ملامحه تتحرك.. وعينه تتفتح، وملامحه تعلوها دهشة:

ـ وبيجيبوا الناس دول منين يا داكتور؟..

والحق أني ما كنت أعرف.. فزعمت أن هناك متعهدا يورد للكلية ما تحتاجه من جثث«قياسا على متعهد الضفادع في اعدادي»..

وكان الشيخ عبد الحميد في هذه الأثناء قد قارب الانتهاء من

حديثه، والناس قد طال استماعهم الى وصفه الدقيق لما ينتظر العاصين حتى بلغت أرواحهم الحلقوم. فما كاد يستثني من العذاب ويقول: «الا من خشي ربه..» حتى هاج الناس وماجوا يتنفسون الصعداء ـ وقد عثروا أخيرا على طاقة أمل ـ ويثبتون أنهم حقا وصدقا مؤمنون خاشعون، ويقولون في نفس واحد مبهور: «لا اله الا الله»..

ورأيت الشيخ عبد الحميد يتطلع اليهم بوجهه السمين الذي كسته حبات العرق، ويفرك كفيه مسرورا.. فحماسهم ذاك كان خير دليل على الأثر الخطير الذي أحدثه كلامه.

وتطلعت أنا الآخر الى جمهوري.. كان كل شيء على ما يرام.. وكدت أفرك كفي أنا الآخر.. لولا ابتسامة أبو عبيد الباردة التي لم تكن قد جفت بعد من فوق ملامحه..

وأطلقت آخر سهم في جعبتي، ومضيت أحدثهم عن الملل الذي أصابني من طول الاجازة وعن شوقي إلى تدريب يدي ومزاولة التشريح، ولكي أقطع دابر الشك قلت انني حتى مستعد أن أدفع في الجثة خمسة جنيهات.. انما.. أنا فين والجثث فين؟..

وخرجت من المأتم يومها مرفوع الرأس.. حتى إن أبو عبيد قال لي وهو يودعني:

ـ مع السلامة يا بيه..

ولم أراجع نفسي، ولا فكرت بعد هذا فيما قلته، ولا في التخشب الرمي أو مقارع الحديد ذات الأسنان.. كانت في نظري

أحاديث مآتم وجلسات لا أكثر ولا أقـل. . تكون اذا قـامت، وتنفض معها.

ولكني استيقظت ذات ليلة على نباح كثير يهدر أمـام بيتنا حتى خلت أن كلاب جيراننا تطارد عزرائيل. . وسمعت بـابنا يـدق. . ولـم يفزعني ذلك. . فكثيرا ما كـان يدق في أيـة ساعـة من ساعـات الليل ويكون السبب مغص مفاجىء أو بول محتبس.

كـان الدق يـزعج أبي فقط، ويجعله يلعن اليـوم الذي أدخلني فيه الطب. . فقد كان يخاف أن أخرج لرؤية مريض مرة فيتـربص لي واحد في الظلام ويقتلني. أما لماذا يفكر أحد في قتلي فـذلك سؤال لم يخطر لأبي أبدا. .

فتحت الباب ففوجئت بإنسان محني يحمـل فوق ظهـره(زكيبة) مملوءة لحافتها ويقول:

ـ مسيك بالخير يا داكتور. .

الصـوت مألـوف، ولكن رغم الليل كـان يجود بـآخـر أنفـاسـه وشعشعة الفجر قد أوشكت، لم أستطع التعرف على صاحبه. .

ـ مين؟. .

ـ اني صالح. .

ـ أبو الهول؟. .

ـ أيوه أبو الهـول يا داكتـور. . يقالي سـاعة اخبط لمـا الكلاب

كلت رجليه . . وسع شوية . .

وتراجعت الى الوراء قليلا. فاستدار وأنزل الزكيبة على الأرض ثم قال:

ـ الأمانة أهه . .

ـ أمانة ايه؟! . .

كنت أسأله وأنا أنظر الى وجهه، وأحاول ادراك ما لم يستطع قوله . . ولم أر على ضوء «اللمبه السهاري» الا أن ـ أبو الهول ـ يبتسم، وكانت أول مرة أراه يبتسم . . فأدركت أن الأمر أخطر مما توقعت . .

ونطق أبو الهول وقال انه كان عائدا الى الكفر بعد سهرته في البلد فرأى جثة غريق طافية في المصرف . . فقال: بس، وأخرجها من الماء ووضعها على الجسر . . ثم عاد جريا في جري إلى بيت أبو شندي، وشحت منه زكيبة على ذمة الطحين، ورجع إلى المصرف جريا في جري، وعبى الجثة، وحملها، وخرم من الذرة الصيفي حتى لا يراه أحد . . وتسلل الى بيتنا بها . .

ووقفت أتابع كلامه، وأنظر الى طوله وعرضه وعيونه الوارمة وأشم الرائحة الفظيعة التي أدركت أنها تنبعث من الزكيبة، وأنا مذهول مدهوش أكاد لا أعي مما يقول حرفا . .

ووجدت نفسي أنفجر فيه . .

وانتظر الى أن انتهيت وقال:

ـ جرى ايه يا داكتور . . انت طلبك حدانـا غالي قـوي . . احنا بـداك اليوم . . وان كـان ع الخمسه جنيـه أني مش عايـز خمسات . . اللي تحط ايدك فيه أني قابله . .

ولم أعد أحتمل، واندفعت آمره والغيظ يخنقني أن يعيـد الجثة كما كانت تماما . .

وصبر علي حتى جئت بكل ما عندي ، ثم بربش عينيه وقال :

ـ وزعـلان قـوي كـده ليـه يـا داكتـور . . بـلاش نضـرب في العالي . . هات يا سيدي جنيه والعوض على الله . .

وانفجرت فيه مرة أخرى . .

ـ انت اتهبلت . . انت اتجننت . . انت جرى لعقلك . .

فرفع يده في فروغ بال وقال :

ـ الاه يا اخواتي . . بلاش الجنيه راخر . . هات يا سيدي ريـال خلينا ننفض . . عدتها دراع بس يا داكتور . .

وأخيرا جدا . . بعدما ارتفع صوتي ، وبدأ الغضب واضحا تماما في ملامحي استطاع أبـو الهول أن يفهم أني لا أسـاوم، وأن عليه أن يعيد الجثة الى المصرف في الحال . .

وهنـا تجمدت مـلامحه، وعـادت الى جدهـا الذي لا ينفـك، وأغمض عينيه وقال :

ـ كده . . بقى تعملها فيّ يـا داكتور . . هم الأفنـدية كـدابين يا

اخواتي . . تحلف ع المصحف انك ما قلت الواحد بخمسة جنيه . . تحلف . . قلت والا مقلتش . .

وثار بيننا جدل طويل . . أنا أصر على أني لا أذكر شيئا، وهو يعيد على مسامعي ما قلته كلمة كلمة ويعطي الأمارات والشواهد . . ولم أوفق في اقناعه بإرجاعها اذ كنت أتعثر وأنا أقنعه في الخجل الشديد الذي كان يملأ نفسي، ولما لم أجد فائدة هددته بإبلاغ الأمر للعمدة . . وحينئذ اربدت ملامحه وبدا كأنه سيثور ثورة لا يعلم الا الله مداها وقال :

ـ كلام ايه ده يا ولاد . . بقى تعملها فيّ كده والآخر تبلغ . . طب ورحمة ابويا محمد أبو صيام ماني مرجعها واللي معاك اعمله . وبلغ مطرح ما تبلغ . . انت مش قلت الواحد بخمسة جنيه . . قلت والا ما قلتش . . بقى تعملها فيّ كده وتبلغ . طب بلغ . ورحمة أبويا محمد لاسيبهالك وماشي . . قلت والا ما قلت .

ويبدو أن صوتنا كان قد ارتفع حتى أقلق أبي . . فقد وجدته يبرز من باب حجرته ويقول :

ـ ايه جرى ايه؟ . .

وأسرعت اليه أرجوه الا يزعج نفسه . . وأحاول اقناعه ان المسألة مغص لا أكثر ولا أقل ولكني كنت متأخرا . . اذ كان قد لمح صالح واقفا بوجه لا يبشر بخير فقال :

ـ والواد ده عايز ايه . . دا الواد ده حرامي«والظاهر أن الفلاحين

كلهم حرامية عند أصحاب الأرض». . دا بيسرق الكحل من العين وابوه من قبله. . ايه اللي جابك دلوقت يا وله. . عايز ايه. .

كان أبي يقول هذا وهو يتجه الى الباب، والى صالح، ولم استطع أن أتدخل فيما حدث بعد ذلك. . فقد تعثر أبي في الزكيبة، وكاد يسقط وتساءل غاضبا عم جاء بها، وعم جاء بصالح، وقال وهو يتحسسها ويحاول أن يخمن محتوياتها:

ـ ايه ده يا واد يابو الهول. . انت سارق بطيخ يا ابن الـ. . وجايبه هنا ليه يا وله. . والدكتور ماله. . دا مش بطيخ. . أف. . ايه ده يا خويا. . أعوذ بالله. . أعوذ بالله. .

وصرخ أبي صرخة عالية مفاجئة، وكانت تلك أول مرة أراه يصرخ والفزع يملأ عينيه والرعب قد تملكه. . واندفعنا اليه أنا وصالح نسنده حتى لا يتهاوى، وسرت به وحدي الى الفراش والصدمة قد أفقدته القدرة على السؤال أو الاستفسار أو حتى النطق، ولكن لم يدم ذلك سوى لحظات. . استرجع نفسه تماما بعدها، وجلس ينصت لي وأنا أحكي له ما كان من أول ما طقطق الحديث في المأتم. . ينصت وهو يخبط كفا على كف ويقول:

ـ مجرم. . حرامي ابن حرام سل مل. .

ولما عدت الى أبو الهول وجدته جالسا مسندا ظهره الى الحائط ورأسه مائل في تأثر عميق. . وحين رآني وقف وقال:

ـ سلامته لفندي. . يا خبر أسود ومنيل. . ودي كانت شورة ايه

السودة دي . . سلامته .

وهزرت رأسي وأنا أعد الدش البارد الذي جهزته له ولكنه كفاني مؤونة الكلام فقد وجدته ينحني على الزكيبة ويمتحن متانة رباطها ويقول:

ـ والنبي يا داكتور أني عمري ما حلفت برحمة أبويا محمد باطل انما عشان خاطر والدك . . يا خبر أسود يا ولاد . . دا الواحد خزيان من روحه . . يا شيخ داني انبليت م الكسفة . . اللهم اخزيك يا شيطان . ما كنت مروح في حالك يا وله مالك ومال خشب الرمة والزفت ده . . انما تقول ايه . . يا خبر اسود ومنيل . . داني كنت بقول لروحي زمان الداكتور حياخدك بالحضن يا وله . . والختمة الشريفة عمري ما حلفت بحياة ابويا محمد باطل .

وكان قد أوقف الزكيبة فالتفت إليّ قائلا :

ـ والنبي يا داكتور ولا صغرة تسندها سندة صغيرة . . بس أوعى هدومك . . هـه . . يا قوة الله . .

ورفعها بقوة جبارة فوق كاهله ، وتمتمت وأنا لا أكاد أستطيع الكلام :

ـ معلهش يا صالح . . تتعوض . . معلهش .

فقال وهو يستدير وتستدير الزكيبة وراءه ويتجه الى الباب .

ـ والا عليه . . أهي ان طلعت والا نزلت زكيبة . . هي يعني والا المقمعمة اللي بيقول عليها سيدنا الواعظ . . أهي ان طلعت والا

نزلت زكيبة. . حتكون أكتر من اللي بنشيله. . يا شيخ قول يا رب.

وكان قد خرج من الباب، وكاد يختفي في الظلام حين فوجئت به يتوقف. . ثم يستدير ليواجهني ويقول من تحت الزكيبة:

ـ بس افتكر كويس يا داكتور. . بذمتك يا شيخ وديانتك والأمانة عليك. . قلت والا ما قلتش؟ . .

الجرح

فاجأنا الريس حين طلب منا أن ننتظر. قالها بلهجته البحراوية وكان كلامه من لحظة أن عرفناه قليلا. وكان من نوع لا يرحب بالجدل ومع أن كل شيء كان على أتم استعداد، الا اننا سكتنا كلنا ونحن متأكدون أن لا بد هناك ضرورة لهذا الانتظار، غير أن حلمي لم يسكت. . عوج وجهه وأسبل جفنيه وقال للريس: احنا مستعجلين. ولزومه ايه الانتظار؟

ويبدو أن كلامه تبدد ولم يصل الى آذان الرجل، فقد كان مشغولا بشيء ما يعدل من وضعه في«القلع». وأحرج حلمي حين لم يتلق ردا على سؤاله فعاد يقول:

ـ مستنيين ايه يا ريس؟

ونطق الرجل كلمة ولم نتبينها، فقد كان يمسك مسلة بشفتيه بينما يداه مشغولتان. والتفتنا جميعا نحوه فرفع المسلة وقال:

ـ واحدة ست.

قال حلمي هذا وتمدد، وأحدث تمدده انكماشـات في الأرجل وثنيات هنا وهناك، وأصوات احتجاجات كان مبعثها أننا نعرف أنـه لا يريد النوم بقدر ما يريد أن يرينا سخطه على الوقت الضائع.

وركز الريس عليه انتباهه لحظة، ثم ابتسم وقال:

ـ اسم الكريم ايه؟

فقال حلمي وهو يزفر:

ـ زفت.

وعاد الريس يسأله:

ـ ودستورك منين؟

واعتدل حسن وقال:

ـ منين ايه يعني؟ اشمعنى يا ريس؟

فقال الريس وهو يجذب حبلا:

ـ بسأل.

وقال أحدنا:

مصيبة تقيله.

وأجاب آخر:

ـ ع تعطلنا. ويمكن تودينا في داهية.

ولعب ثالث بيده في الماء ونثر قطرات على الباقين وقال:

ولا بد أن دهشة كبيرة انتابتنا فقد تململنا، ونطق أكثر من واحد مرددين:

ـ ايه؟! ست؟!

واحتج حلمي مخفيا غبطته قائلا:

ـ ست ايه؟ وده وقته؟ انت مش فاهم والا ايه يا ريس؟

وأجاب الريس والمسلة بين أسنانه هذه المرة، تقلب الذال جيما، وتعطب الكلمات:

ـ لاجم ناكدها معنا.

وانهالت الأسئلة والاحتجاجات. وانتظر حتى فرغنا وقال:

ـ أنا حالف بالطلاق لازم آخدها.

وارتفعت أصوات احتجاجنا أكثر فأكثر.

ـ دي ساقت عليّ الدنيا، وباتت مع مراتي عشان تضمن تيجي لغاية ما حلفت لها يمين الطلاق.

وأتبع كلامه بابتسامة يرضينا بها. كانت له سنة من بلاتين براق، وكان وجهه نحاسيا أسمر، ورموشه صفراء طويلة، واللاسة التي تعمم بها من حرير، وفانلته زرقاء من الصوف تنتهي بياقة مسدودة تحيط برقبته وأكمام طويلة مثنية، وله سروال.

ـ هـه.. أنام أنا يقى.

ـ مش ممكن ناخدها.

واتفع صوت يسأل:

ـ ودي عايزه تروح ليه؟

ونظر صاحب الصوت إلى الريس وأعاد نفس السؤال.

ولم يرد الريس، وكنا كلنا نتوقع هذا. كان لا يجيب الا على ما يحلو له الاجابة عليه، وأحياناً يكتفي بالتحديق في سائله وهز رأسه.

كان ثمة هدوء على الشاطىء.. هدوء متكاثف ثقيل. والهدوء حين يتكاثف ويستتب يصبح شيئا مروعا. وكانت الدنيا ليلا والبلدة ساكنة هامدة بجوارنا، بيوتها أشد سوادا من الظلام، بيوت قديمة متراصة حيطانها لا تحتمل البرد، وطوابقها متآكلة متساندة كجماعة من خفر الليل العواجيز، وتجاهنا شارع واسع جدا يسمح ضيق البلدة باتساعه، وتلمع فيه برك ماء وتتجمع على حوافه أكوام من قشر الأرز الذي تنفثه ماسورة طويلة تمتد عبر الشارع وتنتهي في مضرب الأرز، أعلى بناء في البلدة، والبناء الوحيد الصاحي، اذ كان يعمل رغم اطفاء الأنوار والأوامر، وتتصاعد دقات وابوره لب دب، لب دب، لب دب، موحشة كثيبة في البلدة المظلمة، كأنها القلب لا يزال يدق في جثة ماتت وشبعت موتا.

وكان قاربنا واقفا على حافة البحيرة وظهر البلد اليه. وكنا اذا التفتنا الى البحيرة ضاعت أبصارنا بين البحيرة الراكدة المظلمة في

السماء، والسماء التي استقرت بنجومها في قاع البحيرة. وكان قلع المركب مطويا نرى بدايته القريبة منا، ولا نرى نهايته المذابة في الظلام. وكنا أربعة، والقارب صغير، وحلمي مضطجع، والريس جالس القرفصاء مستندا الى الصاري، والريح نائمة، ودق الوابور يصل الينا بانتظام يضايقنا انتظامه، وأنفاسنا تتقارب وتتباعد، والأحداث كثيرة، وغريبة ومتتابعة، وكلها تحدث في يوم واحد. ونتنفس بعمق فتمتلىء أنوفنا برائحة الزفارة. كل ما في البلدة يضج بها. . الأرض والبيوت ورغبات الناس والقوارب. . فالبلدة أهلها صيادون، والسمك صناعتهم، وفي كل مكان تجد آثاره، والقارب يهتز اهتزازات خفيفة، يجذبه موج صغير الى الداخل، ثم يدفعه الموج الكبير ليصفع به الشاطىء، والريس كوعه فوق ركبته، ويد من يديه ممدودة الى آخرها، واليد الأخرى فوق الدفة، ورموشه الطويلة مسبلة، وفمه نصف مفتوح، ويكاد شخيره يتصاعد.

واهتز القارب، وتحرك واحد، وخرجت في الظلام علبة سجائر، وتناولناها كلنا، وأخذ الريس سيجارة. . وضعها بين اصبعي يده الممدودة ورفض أن يشعلها.

ومضى الدخان يتصاعد من أنوفنا وأفواهنا في صمت والبقعة التي نحن فيها أصبحت صفحة سوداء، فيها لطع بيضاء تحدد هيكل القارب، وولعة أربع سجائر تتوهج، وفوانيس النجوم الصغيرة تتأرجح، وناب الريس البلاتيني يبرق.

وقال حلمي فجأة:

ـ دا مش كلام، ما نرجع أحسن.

قال هذا وهو ينتفض بشدة ويقوم. ومال القارب حتى كاد ينقلب، وارتطمت جبهته ارتطاما عنيفا بالصاري حتى إنه صرخ. وما كاد القارب يعتدل حتى كانت يده تتحسس جبهته، وحتى كان يقول:

ـ أنا اجرحت يا جماعه. والله اجرحت، ياه! ده فيه دم. ادوني منديل.

وحدثت ضجة، وتناثرت الشتائم من فم حلمي، وكثرت التعليقات. ثم خمد الكلام وانقطع، ودلفنا الى سكون لا يعكره الا صرير الصراصير المتصل الدائم.

ورفع الريس رأسه مرة وحدق الى بعيد، وتمايل القارب حين اندفعنا كلنا لنحدق.

كانت ثلاث كتل سوداء تتحرك مسرعة في اتجاهنا.. كتلة قصيرة صغيرة في المقدمة، والكتلتان اللتان وراءها تحاولان اللحاق بها وتخوضان برك الماء دون جدوى.

ولم يكن القارب قد تحرك، أو حتى كان في نيتنا أن يتحرك، ومع ذلك كانت من في المقدمة لا تكف عن الصياح:

ـ أوع تمشي.. أوع تمشي يا خويا. أنا أهه.. أنا جيت..

وفي غمضة عين كانت قد وصلت وقذفت بنفسها الى القارب، ولولا أننا قمنا جميعا وتلقفناها بأيدينا لكانت قد هوت الى الماء، ومددنا اليها أيادي كثيرة تساعدها، وأمسكت بأيدينا في قوة، وتحفز،

وعصبية، وكانت أصابعها حادة صلبة ذات تجاعيد، والقبضة قبضة أم.

وأفسحنا لها مكانا، ولكنها لم تجلس.. ظلت تتلفت في قلق ولهفة ولا تستكين، وتود أن تقول أي شيء وتسأل عن كل شيء.. وحين وصلت الكتلتان قالت بسرعة وحسم:

ـ روحوا انتم بقى..

قالتها كمن يود رفع الهلب الذي يربطه بالشاطىء لينطلق. وتكلمت المرأتان.. في وقت واحد.. وكلام كثير. واحدة طويلة وعجوزة. وكلامها أيضا طويل عجوز.. والثانية فتاة. لا بد أنها جميلة فصوتها كان فيه رنة من اعتادت الثقة في نفسها وجمالها.. كانتا لا بد أخت وبنت أخت، وكان رد الخالة واحدا حاسما لا يتغير:

ـ روحوا انتم بقى.

ولم ندر لإصغائنا للحوار سببا. وعقولنا بدت لنا كالصفحة البيضاء التي لم يخط فيها حرف.. وما نسمعه كأنه أول كلام عربي نسمعه.

وأفاق واحد وغمز لجاره:

ـ مصيبة وجت لنا على الآخر.

وقال له جاره:

ـ ح تخاف دلوقت وتبهدل الدنيا.

وقالت الخالة مرة :

ـ روحوا انتم بقى .

وخرجت الجملة دون أن يسبقها أو يعقبها رد من الشاطىء. كنا قد ابتعدنا.

وبدت البحيرة لا نهاية لاتساعها وأصبحنا بالقارب والريس والصاري نقطة تافهة في الوجود غير المحدود. وتلك هي البحيرة فقط، فما بالك ونحن من لحظة أن غادرنا القاهرة وطريق طويل يسلمنا الى طريق أطول، والأرض الخضراء على الجانبين. أرض واسعة لا حد لاتساعها أوسع من أي شيء رأيناه، أوسع من السماء، فالسماء تضيق بسطح الأرض، فتنحني السماء وتصنع خط الأفق، والأرض لا ينهيها خط ولا أفق. فبعد كل أفق تجد آفاقا أوسع.

والقرى كثيرة لا حصر لها، بين كل قرية وقرية قرية، وفي كل قرية مئات البيوت، وكل بيت يعج بعشرات الناس، وكل هؤلاء مصريون ـ كلهم مصريون ـ لا يمكن أن يموتوا كلهم أبدا. ونترك أقليما وندخل اقليما والأرض لا تنتهي والناس لا ينتهون. أناس متشابهون، وجوه لها لون أرضنا السمراء، وذقون وشوارب كشوش الأذرة، ونفس السحنات، وكأنهم رجل واحد مصنوع من ملايين الرجال. ويقولون ان سيدنا نوح كان طوله ألف ذراع. ترى كم طول هذا العملاق الذي لم نعثر له على بداية، وظلت السيارات والقطارات تقطع بنا الأميال والأميال ولا نعثر على نهاية. حتى حين

وصلنا المطرية، وانتهت الأرض وبدأت البحيرة، لم ينته العملاق بل تحول الى يد ضخمة، يد ذات عشرات الآلاف من الأصابع، يطلقها في ماء البحيرة فتملك البحيرة وتعتصر من مياهها خير ما فيها، وكما يحدث لليد اذا امتدت الى الماء وطال امتدادها، فالناس تصفر شعورهم، وتبهت بشراتهم، ويصبح لعيونهم زرقة الماء. ويتغير شكل الجسد ولا ينتهي العملاق.

كنا قد ابتعدنا.

وكل شيء أصبح مستقرا ما عدا الريس.. كان دائب الحركة لا يهدأ. المذارة في يده يغرسها في قاع البحيرة ثم يدفعها بصدره، وأرجله تمرق من وراء ظهورها وتدور حول القارب، وأصابع قدميه تتشبث بالحافة في حنكة ودراية وكأنها قد تحولت الى مخالب صقر. وحركته تبهرها، وكأنه يقوم بمعجزة، يميل ليدفع القارب أكثر حتى لنعتبره ساقطا في الماء واذا به يرتد، والمذارة قد انتزعها وكأن ألف حبل خفي تصل بينه وبين الصاري، وتحميه من السقوط.

ولم تكن الراكبة الجديدة انسانة، كانت كتلة قلق حية جعلتنا نحس أن روحا جديدة حلت بيننا وفينا، عيناها تنظران الينا ولا تتفحصانا، وأيديها على ركبها، وأيديها على الحافة، وأيديها تضرع لإله غير منظور ورأسها يدور ولا يستقر، وينثني فجأة الى الشاطىء، ثم يرتد ويعود ويدور. وما كاد الريس يفرد القلع حتى التفتت اليه وقالت:

ـ مش على طول يا خويا..

وقال الرجل بلكنته البحراوية والمدراة لا تزال تحت ابطه :

ـ ايواه . . ربنا يسهل . .

وردت الخالة :

ـ انشالله انشالله الهي يخليك . .

والتفتت الى الجالس بجوارها وسألته :

ـ وانتو كمان .

فأجاب حلمي ويده تتسلل دون وعي وتتحسس مكان الجرح في جبهته :

ـ واحنا كمان . .

وعادت تسأل الريس :

ـ ونوصل امتى . . ؟

فقال حلمي :

ـ حد عارف . .

وأعادت السؤال وابتلهت، فقال الريس :

ـ يا أمي ربك يعدلها . .

واستمرت :

ـ يعني بعد ساعة؟ . . إلهي يخليك لشبابك . . بعد ساعة؟

ولما لم يجب الريس، التفتت الى حلمي وسألته:

ـ بعد ساعة يا بني؟ الهي يخليك. . بعد ساعة والا أكتر؟

وهنا زعق الريس وقال:

ـ دا بتاع ربنا يا ستي. واللي منه لا بد عنه. هو ما فيش صبر؟

والصبر هي الكلمة التي كان يبحث عنها كل منا ليسمي الرائحة التي أشاعتها الخالة من لحظة أن جاءت. كانت ترتدي كمعظم الخالات ثوبا أسود وطرحة سوداء، ولا يظهر من جسدها غير وجهها فقط، وثيابها كانت تبدو وكأنها لم تخلعها منذ أيام كما لو كانت أردية ميدان. وأشاع قدومها تلك الرائحة، رائحة العواجيز التي لا يعرف أحد إن كان سببها هو رائحة الصناديق التي تحفظ فيها الثياب. أو هي رائحة نسيج الملابس نفسه. المهم أنها تذكرك بجدتك، وبالماضي، ومع أنها ليست عطرة الا أنك لا بد تحس بالألفة تجاهها، ولا تتأفف.

ولم تكف الخالة عن الكلام منذ جاءت. . ولم نكن نتكلم. . والريس هو الآخر ساكت. كانت قد مضت ساعات ونحن نترقب، كل ما يهمنا هو اللحظة التالية وما يحدث فيها. والكلام لا يدور في جو الترقب، ولا يدور ساعة الضيق. . وكل شيء قد حدث على حين بغتة. كنا في بيوتنا وأعمالنا وقال كل منا للآخر: يالـلا، واذا بنا في الطريق وكان كأن لا ينقصنا سوى الاحتكاك لنشتعل. وأصبح أهم شيء لدينا أن نرى ونسمع ونجهز انفسنا للمشهد القادم والكلمة

التالية.. ووصلنا المطرية في الضحى، وانتظرنا الى أن يحل المساء لنعبر البحيرة الى هناك، وقضينا اليوم بطوله نعيش في بلدة الانسان والسمك.. والحياة تمضي من حولنا كما اعتادت أن تمضي طوال آلاف من الأعوام.. الرجال ذوو الشعر الأصفر والبشرة الفاتحة والأفواه المفتوحة على الدوام كأفواه البلطي يتزوجون البنات، والبنات شقروات، أجسادهن لها تناسق «المز» ورشاقة الطوبار، وطعمهن أشهى من السمك الطازج اذا شوي في الفرن وأضيف اليه الفلفل والملح والثوم وعصير الليمون. ولهذا فكل يوم زواج، والأطفال كل يوم يولدون، الأسماك هي الأخرى تتوالد، ثم وتتكفل البحيرة بصغار الأطفال وصغار السمك. صغار الأطفال طول النهار في الماء يألفون الماء المالح ويألف الماء المالح أجسادهم، ولا أحد ينهرهم، ولا يخاف عليهم أب، فالبحيرة للصيادين غول مستأنس.

ويكبر الطفل فيكبر حب استطلاعه، ويترك الشاطىء ويتعلم العوم، وصغار السمك أيضا تتعلم العوم. ويصبح طول الطفل متر وطول السمكة قراريط.. ويذوق الطفل طعم السمك، ويذوق السمك طعم الطعم فلا ينسى الطفل حلاوة السمك، ولا ينسى السمك حلاوة الطعم. ويمسك الطفل بسنارة ويخرج سمكة وتهزه الفرحة فقد هزم العالم المجهول الكائن وراء السطح البراق. ويهزمه مرة ذلك العالم المجهول ويعود خاوي الوفاض. ويفهم الطفل أن السنارة نصفها في يده يخضع لإرادته، ونصفها الآخر يعتمد على رغبات مجهولة في العالم المجهول.

ويسمع أباه يقول الحظ، ويردد الكلمة لا يعرفها، ثم يرددها وهو يعرفها ويؤمن بها، يؤمن بقانون آخر يحكم العالم المجهول، قانون لا يخضع لقانون.. ولا يستسلم الانسان حتى لو كان خصمه قانون لا يخضع لقانون، ويبدأ الصراع الرهيب بين الصياد الصغير والبحر المجهول، ولا بد من أشياء تؤنس وحشة الإنسان في ذلك الصراع. لا بد من علامات تشاؤم وتفاؤل، لا بد من موال، لا بد من حدوتة، لا بد من أمل طويل لا ينقطع، لا بد من الصبر.. الصبر.

رائحة الصبر كنا نستنشقها ونتمثلها والقارب قد اندفع وابتعد عن الشاطىء وأصبحنا في قلب البحيرة، وشعاعات خفيفة متباعدة تنتشر في الأفق وتبشر بطلوع القمر، وهدهدة.. أصوات هدهدة هي كل ما يسمع والقارب يرفعه الموج الصغير ثم يرقده بحنان على سطح الماء، والموجات تهتز، والنجوم تهتز، والريس عند المؤخرة يهتز، يد على الدفة ويد ممسكة بحبل القلع توجهه ليعترض الريح. والريح شفاف خفيف، والدنيا برد، والبرد يكاد يتحول الى ابر.. ابر طويلة ثاقبة تخرق أجسادنا حتى تصل الى النخاع، والخالة جالسة، لا منكمشة على نفسها ولا منطوية وكأنها نعسانة أو ميتة.

وقال لها حلمي:

ـ دانة يا خالة؟

فأجابت:

ـ آه.. باقي كتير.. بيجي ساعة يا خويا؟..

ونطق الريس:

ـ أنوي المشيئة يا شيخة.. قولي انشاء الله.

فقالت الخالة على الفور:

ـ انشاء الله يا خويا انشاء الله باذن الله. بعد ساعة؟

وكادت موجة الحديث تنتشر لولا أن الريس أسكتنا، فالهدوء مخيم، والكلام ينقله سطح الماء المستوي الى مسافات بعيدة، والبحر له آذان.

ورحنا نهمس. قالت الخالة:

ـ انتم كمان رايحين؟

فقال حلمي:

ـ أيوه..

وسألتنا كلنا:

ـ ورايحين ليه؟ انتم من هناك؟

ـ لأ..

ـ ليكو قرايب أمال؟

ـ أبدا.

وقال الريس وهو يبتسم:

ـ ما قلتلك دول فداوية يا ست..

وتململنا، فلم نكن من الفدائيين أو المحاربين، وهممنا أن ننطق ولكن الخالة تمعنت فينا وسالتنا:

ـ انتو صحيح فدائية يا ابني؟

فقلنا:

ـ أمال ح نكون ايه يا خالة.

وتركت الحديث ووضعت يدها برفق على كتف حلمي وقالت:

ـ ما تحطش ايدك ع الجرح يا ضنايا لحسن وحش..

وأنزل حلمي يده بعد تردد، واختطف سيجارة من واحد منا وسألها:

ـ وانتي رايحه ليه يا ست؟

ولم تجب ولمحنا دموعا تهطل على الفور من عينيها دون بكاء، واستغربنا، وأعاد حلمي السؤال فقالت:

ـ رايحة أشوف ابني.

ولم تنطق «ابني» حروفا كانت من دموعها أكثر من الحروف وهي تنطقها.

ـ ابنك ماله؟

وأجابت:

ـ ابني يا خويا.. هناك..

ـ بيعمل ايه؟

ـ مجروح . . مجروح يا ضنايا وما شفتوش بقالي شهر.

واندفعت تبكي. وشل بكاؤها ألسنتنا، ولكن حلمي الح:

ـ مجروح ازاي؟

ومضت تتكلم وتبكي وتتكلم:

ـ جتله رصاصتين في رجليه . . الهي ينتقم منهم البعدا.

ـ ليه؟

ـ كان بيحارب في الهوجه ساعة ما نزلوا.

ـ كان بيحارب!؟

قلناها كلنا مبهورين، وكأننا نردد أمنية غالية، وكأننا نطلق دعوة. ولم تكن أمنيتنا وحدنا، كل من قابلناه كان يرددها، وقليلون هم من أتيحت لهم الفرصة، فالمعركة كانت حادة وباترة نشبت فجأة، وانتهت فجأة، ولم تستمر سوى أسبوع وكأنها طعنة خنجر، حتى أصبح في نظرنا البطل هو من كان هناك والمقدس هو من اشترك فيها، أصبح كل من اشترك فيها يحف به في نفوسنا نوع من التقديس وكأنه أسطورة، وكأنه كائن غير موجود، فاذا بالخالة ابنها قد حارب، وجرح، وقلنا لها:

ـ وزعلانة ليه؟ . . ابنك بطل.

ـ عايزه أشوفه . .

ـ دي اصابته بسيطة، ومالك نازله بكا عليه يا ستي؟

ـ بقالي زمان ما شفتوش.. مشتاقاله وجيت مرة المطرية قبل كده.. وركبت القارب.. ووصلنا بور سعيد.. والانجليز حاشونا ثلاثة أيام وكان الرصاص زي الناموس فوق روسنا وبعدين رجوعنا.. ودي تاني مرة.. ح نوصل امتى يا خويا؟.. الهي يخليك.. عايزه أشوفه.. مش قربنا؟

وتناهى السؤال الى وعينا غريبا مدويا. وانطلقت عيوننا نستكشف البحيرة. وفقدنا الابصار في المسطح اللانهائي من الماء، وغابات الحشائش المتناثرة، والسماء ذات الضوء الشاحب والقمر المكسور الذي بدأ يزحف صوب الأفق، ولا شيء سوى هذا.. لا شيء سوى الماء الكثير الآسن، الماء الأسير، الباقي بعد الصراع، صراع النيل والبحر الكبير، النيل الهائل الذي أنشب أظافره في البحر وأسر الكثير من مائه، وحاصره، وصنع البحيرة، لا شيء سوى سكون.. سكون غامض مثير، مليء بأسرار وألغاز، سكون الأسرى ومعسكرات الاعتقال، سكون مرعب مخيف، سكون البحيرة التي عبدها القدماء.

ولم نكن بعد قد عرفنا الكثير عن ابن الخالة.. كنا نود أن نعرف كل شيء عنه من لون شعره لطريقته في المشي.

قالت:

ـ أبدا يا بني.. لما الضرب خصل قال لازم تسافري. قلت ما اسافرش. قال لازم. قلت له يا بني انا ماليش الا انت وربنا. هو

حيلتي من دنياي. . أسيبك ازاي. قال لازم وركبني المركب. ورحت مصر. يقطعني أنا اللي ما استنيت وياه. . يقطعني اللي سبته.

ـ وحارب؟!

ـ وحارب وجتله رصاصتين في رجله.

ـ وعرفتوا ازاي؟

ـ هو في المستشفى وبعت لنا جواب في الصليب الأحمر يا خويا. . وقال الخدمة زي الزفت ومفيش أكل. يا بني يا حبيبي! مين يجيب له يشرب اذا عطش؟ مين يسقيه؟ مين يسأل عنه؟

واعتدلنا جميعا.

كان الأمر يتأرجح في نفوسنا بين الشك واليقين، كنا نعتقد أنها لا بد أم قد لسعها الشوق الى ابنها المحجوز هناك وصممت على رؤيته. وقصص البطولة مودة. كل قاطن هناك لا بد اشترك، وكل قاطن بطل، وكل واحد قتل من الأعداء مئات. وتبادر الينا أن الخالة هي الأخرى تود تضخيم الأمر واختلاق المستحيل لتصل الى هناك. . ولكنا اعتدلنا. . فغير الأم لا يستطيع أن يمثل ابدا دور الأم، وأم غير المجروح لا تستطيع أن تمثل أبدا دور أم ابنها المجروح. وكانت في جلستها التي لم تغيرها، والتي يخيل للانسان اذا رآها أنها واقفة، وواقفة على طراف أصابعها وليست جالسة، وعيونها وهي تنظر الى بعيد ولا تطرف ولا تمل الرؤيا والنظر وكأنها تتشوف إلى حبيب، وكلماتها، والطريقة التي تنطق بها كلماتها، ودموعها التي تغرق

الكلمـات وتغص الحلق، كانت بـلا ذرة شك مجـروحـة وأم مجـروح. اعتدلنا ونحن نحس بقشعريرة انبهار.. وكأننـا ونحن ننظر اليهـا نعبد الخالق أو نصلي للشرف.

وقال حلمي:

ـ خالة..

ـ نعم يا خويا.

ـ انتي زعلانه انه حارب؟

ـ أنا يا بني زعلانه انه مجروح ودلوقت لوحده.

وقهقه حلمي كمن يود أن يغير طعم الحديث، وسألها في سخرية غير لاذعة:

ـ طيب.. افـرضي يا خـالة انـك كنت وياه سـاعتها.. كنتي ح تخليه يحارب؟

وانحدرت دموع كثيرة من عينيها، وقالت في لهجة روتينية:

ـ أيوه كنت أخليه.

وزام حلمي غير مصدق، فتابعت اجابتها بإخلاص هذه المرة:

ـ كنت اخليه اخليه.. انما لازم كنت أحارب ويـاه. رجلي عـلى رجله.

وقال حلمي مستخفا:

ـ تشيلي البندقية؟!

ـ أشيلها..

وتدخل واحد وقال:

ـ طب شيل انت ايدك من ع الجرح يا حدق.

وتنبه حلمي الى أن يده كانت قد عادت إلى مكانها فوق الجرح دون وعي منه، فأنزلها، وتوقف برهة، ثم تابع استخفافه ليداري خجله:

ـ وتضربي نار يا خالة؟

ـ اضرب ما اضربشي ليه؟ أهم بيقولوا ان الستات كانت بتضرب.

وتابع حلمي استجوابه:

ـ طيب افرضي انه تعور وانتي بتحاربي معاه، تعملي ايه؟

وبكت ولم تجب. وأسكتنا حلمي. ولكنه فعل هذا للحظة ثم عاد يسألها:

ـ يا ستي دا الحكاية بسيطة.. وهو في المستشفى، وزمانه طاب. ومالك ملهوفة عليه قوي كده ليه. هو انتي لوحدك. ما كل واحد اتعور له أم زيك كده. ما كنت نستنى لما يخرجوا الانجليز وتروحي في أمان بدال ما تعرضي نفسك للموت كده. انتي لازم ترجعي وتستني.

فأجابته بلهجة هادئة ولكنها حاسمة:

ـ ما اقدرشي استنى.

ـ ليه؟

ـ عايزه اشوفه. زمانه لوحده. عايزه اشوفه بعد اللي حصل. دا كان في الحرب يا بني. الهي ما يحرق قلب أمك عليك.

وضحكنا لذكر أمه، ومع هذا لم يملك كل منا بينه وبين نفسه الا يتذكر أمه، ثم ينفيها على عجل من ذاكرته.

وحلت لحظة صمت..

الريح بدأت تنتعش، ونور السماء قد خفف كثيرا من ظلام البحيرة، والقلع منفوخ، وفم الريس مفتوح، وعيونه لا تغفو، والجو مملوء بالصرير المتصل الذي لا ينضب ولا ينقطع..

وسألها حلمي بصوت شاعري ممدود يقارب لهجتها:

ـ هو كبير يا خاله؟

فقالت دون أن تنظر إليه، وعيناها هائمتان معلقتان فوق نجمة بعيدة في قاع البحيرة:

ـ اهو اسم النبي حارسه ييجي قدك كده.

ـ ومتجوز؟

ـ خطباله..

وارتفع صوت حلمي في هزار مفاجىء:

ـ وزعلانه قوي كده ليه؟ تلقاه كان طول النهار نازل فيكي شتيمة.

ـ أبدا والنبي يا خـويا. . دا لسانه مفيش أنضف منه.

ـ وكان بيشتغل ايه يا خاله؟

ـ عندنا دكـانتنا يـا خويـا. . أمال هـو قعد ليـه؟. . قال لي مـا أسيبش الدكانه للانجليز ينهبوها أبدا.

ـ وكان بيحب مصر يا خاله؟

ـ مصر مين يا خويا؟

ـ مصر بلدنا. .

ـ وحد يا ضنايا يكره بلده. . الهي يخليك. .

وصنعت الـدموع خطين رفيعين لامعـين على وجنتيهـا، وانـدفـع حلمي يقول في حماس مفاجيء:

ـ قا ستي ابنك راجل واتعور في معركة رجالة. اتعور وهو بيدافع عن بلدنا وشرفنا. بكره يكتبوا اسمه في الجرانين وينشروا صوره.

فأجابت وهي تهز رأسها:

ـ بس عايزه اشوفه، عايزه أشوف ايه اللي جرالـه. . الهي يخليك يا ريس. لسه كتير؟

ولم يجب الريس.

وهز حلمي رأسه في يأس، ثم تنبه فجأة وقال بالانجليزية وكأنـه عثر على كنز كبير:

ـ أتعرفون لماذا هي مصرة على رؤية ابنها؟

وقال له واحد بالعربي:

ـ ليه؟

فقال:

ـ انها تدرك بغريزتها أنه لا بد قد تغير بعد المعركة. تريد أن تتبين ما حدث له من تغيير وكيف أمكن لابنها الذي ربته ورأته طفلا، كيف أمكنه أن يحمل السلاح ويحارب. وتريد فوق هذا أن تطمئن الى أنه لا يزال ابنها بعد أن حارب كالرجال وحمل السلاح.

وضرب واحد يد حلمي التي كانت قد تسللت مرة أخرى الى جبهته وقال بالانجليزية أيضا:

ـ يا مغفل أهم شيء هو القوة الرهيبة التي تجذب الأم الى ابنها. القوة التي لا يقف أمامها حائل.

ولم يظفر التعليقان بتعليق، كل ما حدث أن الخالة ظلت تنظر اليهما وهما يتكلمان، ثم التفتت الينا وسألتنا:

ـ أما انتو رايحين ليه يا خويا؟

فأجابها حلمي:

ـ مش قلنا لك فداائية. مش مصدقة والا ايه؟

وكدنا نضحك لولا أن سمعنا الريس يقول:

ـ اسمعوا.

فسكتنا برهة.. وعاد يقول:

ـ سامعين؟

وأصخنا أسماعنا. ومن بعد سحيق تلقفنا صوت هدير غريب على السكون المستتب..

وقال الريس:

ـ دا لنش.

فقال حلمي على الفور:

ـ لأ.. دي طياره.

ـ بقولك لنش.

ـ أقطع دراعي ان ما كانت طياره..

وخيل الينا أننا ظللنا ساعة ننتظر النتيجة، وكان الريس يتكلم:

ـ الانجليز عملوا استعدادات جامده، طياره ام مروحه رايحه جايه على البحيرة، تشوف القوارب وتعرف اذا كان فيه صيادين والالا لأ. وبعدين قبل الشط بشويه تقف والا تضرب بالنار. وبعدين قارب بيجي يفتش. انما دا صوت لنش ما فيش كلام.

وظل الصوت يهدر من بعيد ويقترب حتى رأينا في الضوء الشاحب نقطة فاتحة تتحرك، وكانت تتحرك في نفس اتجاهنا.

وقال الريس بنبرة فيها انتصار قليل:

ـ مش قلتلكم؟ دا لنش. وجاي من ناحية المنزلة كمان. عارفنشي رايح فين؟ . .

وابتسم حتى توهج نابه وأردف:

ـ على هناك برضك.

وسأله حلمي بسخرية:

ـ ايش عرفك؟

فأجاب:

ـ ايش عرفني؟! أنا عارف قوي. . وما تزعلش. . تلاقي فيه ناس كمثلكو برضه.

وتغيرت لهجة حلمي واهتز طرباً وقال:

ـ كده. . طب تيجي ننادي عليهم يا جماعة.

وانهالت الأصوات تعترض. وقال الريس:

ـ خليهم يا محترم في حالهم واحنا في حالنا. خلي كل حي في سكتة.

وكان اللنش أسرع منا، فسبقنا وأوغل في التقدم حتى تبدد صوته. وقال الريس وهو يضرب ركبته المثنية بيده:

ـ يا خويا ايه الحكاية؟ دا المراكب بطلت صيد. أنا واخد م

النـاس ليلة مبارح وليلة أول وكـل ليلة عمـال أحـول في نـاس زيكـو كـده. صفوف ورا صفـوف عمالـه تروح على هنـاك. هو هنـاك ايه؟ مولد؟.

وقاطعته الخالة قائلة لحلمي :

ـ يا حبيبي شيل ايدك من على الجرح. . عمال تحسس عليه ليه. شيل يا خويا.

وجمدت يد حلمي وكـأنما ضبط متلبسـا. . ثم أنـزل يـده وهـو يداري ابتسامة خجل ويتمتم :

ـ لا. . دانا أصلي بس حاسس أني سخن. .

وما لبث أن انثنى الى جاره قائلا :

ـ والنبي تحط ايدك تشوفني سخن والا لأ. . يا أخي شوف.

ولم يترك الجار الا بعد أن أطاعه ووضع يده فوق جبهته.

وكنا قد دخلنا منطقة خاليـة من جزر الحشـائش، والريـح بدأت تقـوى حتى أن الريس ربط حبـل القلع في مؤخـرة القـارب، وأمسـك بالدفة فقط، ولكنه ظل مقطب الملامح، عابس القسمات. صـامتا لا ينطق وكأن أمرا كبير يحيره، أو حزنا مفاجئا داهمه، وكان جالسا ظهره الينـا. وظل على هـذا الوضـع لا يغيره، وكنـا قـد تعبنـا من التفكير والكلام وحتى من مجرد التحديق في السماء والماء، فسكتنا، وماتت الحـركة على ظهـر المركب تمـاما حتى لم نعـد ندري أهـو واقف أو يتحرك؟ وهل نحن نائمون أم مستيقظون؟

وانثنى الريس ناحيتنا فجأة حتى تهدلت اللاسة التي كان يتعمم بها من عنف الحركة، وقال:

ـ قولولي يا سيادنا . .

وقبل أن نسأل ماذا يريد أو نتحرك، قال بنبرات حاسمة وكأنما يتخذ قرارا خطيرا:

ـ انتو مش فداويه؟ . .

ولا ندري لماذا دقت قلوبنا بعنف، وكأنما كنا نسرق وباغتنا الريس.

وظللنا وقتا طويلا صامتين، صمتاً حائراً مضطربا، صمت العاجزين. وكان حلمي أول من تكلم، وقال:

ـ أمال احنا ايه؟ بنلعب؟!

وحدق الريس فينا مرة أخرى وقال:

ـ عليّ الطلاق بالتلاته انتم ما انتم فداوية.

وقال حلمي ساخرا مرتبكا:

ـ أما حكاية! . . أمال رايحين نعمل ايه يا بلدينا؟

فأشار الريس بكفه وهو يقول:

ـ ما هو ده اللي محيرني. رايحين تعملوا ايه؟. رايحين ليه؟ هو أنا عيل؟. دانا افهمها وهي طايره. والناس بتبان. الواحد ياما شاف

فداوية وظباط وجن أحمر. انما اللي محيرني انتو رايحين ليه؟ . .

واستمر حلمي ساخرا مرتبكا:

ـ طيب . . رايحين ليه؟

فأجابه الرجل:

ـ أنت بتسألني انا . . اسألوا نفوسكم! . .

ولم نكن حتى تلك اللحظة قد سألنا أنفسنا أبدا أو ناقشناها. ولم يكن أحد قد سألنا. كل من علم أننا ذاهبون كان يتمنى لنا حظا سعيدا ولا يستغرب. بل ان كل من قابلناه أو رأيناه كان يتمنى أن يأتي هنا. وكنا نأخذ الأمنية على أنها شيء طبيعي لا غرابة فيه، كمن يقول: نفسي آكل، أو نفسي أشرب.

طوال صمتنا كانت الخالة ساكتة. ولكنها لما رأت الصمت طال قالت:

ـ يه . . أمال يا خويا رايحين ليه؟

وتكلمنا كلنا في وقت واحد:

ـ انتي صدقتي الريس؟ إحنا فدائيين صحيح . .

ـ أهو رايحين كده . . نتفرج . .

ـ أصل يا ستي فيه مقاومة شعبيه هناك . . و . .

ـ لنا قرايب يا خالة بس من بعيد رايحين نطمئن عليهم.

ولم يدخل ما قاله كل منا في عقله، ولا في عقول الآخرين، ولا حتى في عقل الخاله.

ومضت تحقق مع حلمي وتسأل وتدقق عن الأسباب التي تدعونا للذهاب وحلمي يحاور ويداور، والريس يبتسم ابتسامة من فقس الفولة، ونحن ساكتون. .

أحيانا يفيق الانسان فيجد نفسه متجها الى مكان معين، هكذا، بلا وعي أو تفكير. وقد جعلنا سؤال الريس نفيق. وحين أفقنا كان كل شيء أمامنا له سبب. . الخالة ذاهبة لترى ابنها، والقارب يتحرك لأن الريح تدفعه، وحلمي جرحت جبهته لأنه ارتطم بالصاري، أما نحن فلماذا نحن ذاهبون؟

رغما عنا رحنا نسأل أنفسنا، لأول مرة. .

ولم نجد جوابا معقولا أو مقبولا. كل ما وجدناه كان احساسا كبيرا لا يترك لنا مجالا للتفكير أو السؤال. احساس ان شيئا هائلا مؤلما قد حدث هناك وأننا يجب أن نكون بالقرب مما حدث.

وانتهى نقاش الخالة مع حلمي حين ارتفع صوتها وكله غضب:

ـ يقى تموتوا ارواحكم كدب في نصب. لا انتم فدائية ولا حرس ولا حاجة ورايحين تموتوا ارواحكو. انتو مالكوش أمهات؟ النبي يا ريس إعمل معروف رجعهم. . رجعهم اعمل معروف. . تكسب ثواب ما تخليهم يهوبوا على البر. الهي ما تحرق قلب أم على ولدها يا رب:

وقال الريس :

ـ مـا تتعبيش نفسـك يـا امي . . الـلي عقله في راسـه يعـرف خلاصه. لازم في نيتهم حاجه. خليهم يا ستي كل حي في سكته.

وكـان يقول الجـزء الأخير وهـو يقف ويتمغط ويتثاءب . ولكنـه كف عن تثاؤبه وقال بإرهاق كثير:

ـ بصوا . .

واتجهنا كلنا الى حيث أشـار. . وهناك. . عنـد نهاية الأفق، وفي ضـوء الفجر المشبع بالبـرودة، كانت تـوجد غمـامة كثيفـة داكنة فيهـا أضواء قليلة صفراء معطوبة تكاد تذبل . .

وقال الريس :

ـ أهه . . خلاص . . وصلنا .

وتركت الخالة ما كانت تهمس به لحلمي وقالت بفرحة منفجرة :

ـ والنبي؟ والنبي يا خويا؟ الهي يخليك لشبابك، الهي يسعدك.

وفي الحال انتفضت على وجناتنا عروق. وفي الحال مضت تدق، شيئا كدق الحـرب ورحنا ننـظر وقـد تـركـزت أرواحنـا في أبصـارنـا وامتلأت صدورنا بدفء مفاجىء، ورغم احتجاجات الريس وصرخاته وتمايلات القارب وقفنا جميعا، وتكاتفنا لنتساند ونتأمل الغمامة الرمادية البعيدة ذات الأضواء. كانت رهيبة كئيبة كناموسية غامقة مسـدلة على مجـروح. مستحيل أن تكـون نامـوسية مسـدلة على مجـروح. لا بد

هناك أناس.. مصريون. لا يمكن أن يكونوا قد ماتوا كلهم أبدا.. ابدا..

انفعالات تفور وتنسكب، والرمادية تختفي لتأخذ مكانها سمرة. أرض سمراء أوسع من السماء. والغمام ينقشع في أذهاننا ويبدو وجه الشمس.. أجمل شمس. وعلى ضوئها تبدو ملايين السحنات التي رأيناها طوال الطريق وكأنها وجه عملاق كبير مصنوع من ملايين الوجوه، وعلى رأسه مليون طاقية، ومليون عمامة ولاسة وكوفية، والعدو أيضا هناك وراء الغمام، عدو بشع كثير، ونحن القادمين قبضه، لماذا لا يأتي كل الناس؟ لماذا لا يتحرك العملاق كله وينقض؟ متى يتحرك العملاق؟

وأقوى من أي انفعال وأعظم، كان شغفنا الخارق أن تنتهي المسافة ونصل الى هناك، ونزيح لفافات الغمام لنرى ما تخفيه..

وفطنا بعد وقت الى أن الريس يتكلم ويقول:

- لغاية هنا وما أقدرشي أتنقل ولا خطوة.. الشط مليان مدافع ودواهي. انتم بقى تتوكلوا على الله من الناحية دي البحيرة مش غريقة.. دي لحد الركبة بس. تخوضوا من هنا على طول.. ح تطلعوا جنب التربة. الصراحه كويسة وبذمتي وديني لو كنت أقدر كنت وديتكو انما العين بصيره واليد زي ما انتو عارفين.. اتوكلوا على الله.

ووقفنا برهة.. تلك البرهة التي تسبق العمل الخطير. الشاطىء أمامنا هادىء هدوءا مريبا كهدوء البركان قبل اندلاعه، والغمام كثيف

يحجب كل شيء.. والخط الممتد أمامنا لا بد كله فوهات بنادق ومدافع، والسماء كأنها تدوي بأزير العشرات من قاذفات القنابل.

بل سمعنا بآذاننا طلقات رصاص.. بعيدة ولها أنين.

وقفنا برهة وترددنا. تلك هي اللحظة الحاسمة.. اللحظة التي ادخرها كل منا ليختبر نفسه وشجاعته. هناك حيث كنا نعيش لم يكن أحد يستطيع أن يميز بين الجبان وبين الشجاع، فكلاهما متاح له ان يعيش. حتى الشخص نفسه لا يستطيع أن يدرك معدنه. في لحظة كتلك يعرف الانسان نفسه، واللحظة حادة وفاصلة، وقلوبنا تدق، وعيوننا ترقب الشاطىء، وأجسادنا متقاربة، ونظرات مختلسة يصوبها الواحد الى نفسه والواحد الى جاره، والبرد قد اشتد فجأة، ولم نعد ندري أهو صادر من البحيرة أم من أعماقنا، والسماء تنبهت وتبهت، وطيور النورس تنقض على سطح الماء ثم تعود وترتفع وفي منقارها سمكة، وتكاكي وتتقاتل، والصوت الذي تحدثه هو الوحيد الذي يسمع.

وقطعت اللحظة تمتمة الريس:

ـ اما وليه غريبه! طب تقول كتر خيرك..

ثم ارتفع صوته أكثر:

ـ مش من هنا يا ست.. خدي يمينك شويه لحسن الحتة اللي قدامك غريقة.

وأدركنا أن الخالة غادرتنا ومضت دون أن تفتح فمها بكلمة، وكادت تصبح على مرمى البصر.. تخوض الماء، وتتمايل، ، وتتوقف برهات، ولكنها لا تتلفت، ولا تكف.

وارتفعت أصواتنا:

ـ استني يا خاله.. استني شويه..

وفوجئنا بها تقف وتستدير الينا وتقول:

ـ لأ.. روحوا روحوا انتم بقى. مع السلامة.. والنبي ينوبك ثواب ما تسيبهم يا ريس.. روحوا انتم بقى.

واستدارت على عجل، وأسرعت كالملهوفة الخائفة أن يفوتها قطار، وأخذ سواد ثيابها يختلط بالضباب والشحوب، ويقترب من رمادية الشاطىء.

ومرة أخرى دوت في آذاننا طلقات الرصاص البعيدة التي تصدر عن مكان غامض.

ورغم كل ما كان يدور في رءوسنا من خواطر واحتمالات، فنحن لم ندر لماذا أسقطناها كلها فجأة، وركزنا انتباهنا وكأننا أطفال سذج على يد حلمي التي كانت وقد عادت تتحسس مكان الجرح بطريقة تلقائية غريزية لا تمت إلى عقل أو منطق.

وخبط الريس بكفه على خشب الصاري وقال:

ـ هيه يا سيادنا؟

وقال حلمي : أحسن طريقة نستنى لما النهار يطلع . .

وسمعنا طرطشة الماء، أيقنا ان واحدا لا بد قد هبط.

وقال حلمي :

ـ أهم شيء ان احنا ما نندفعش. قليل من العقل.

وطـرطش المـاء مـرة أخـرى وهبط واحــد ثـاني. وقــال حلمي بعصبية :

ـ هو أنا بكلم مجانين؟ ما تفهموا أنا بقول ايه . .

وهبط الثالث . .

وضرب حلمي الهواء بيده وقال:

ـ هي شطاره يعني؟ . . طب هه . .

ثم هبط . .

وواحـد وراء الآخر رحنـا نخـوض في المـاء وقـد انتـظمنـا صف متبـاعـد الـوحـدات، وكـأننـا أصـابـع عمـلاق كبـير تتحـرك في اتجـاه الشاطىء، وكل ما يهمنا أن ننتـزع أرجلنا من المـاء والطين، والبحيـرة تشخشـخ حولنـا، والنورس ينقض ويستغيث، والمـاء ﷲ ﴾-﴿ ﷲ + ٢=- ٥﴿ ﷲ • ﴾÷﴿ ﴾×ﷲ +،+، ﷲ﴾ •﴿ ÷﴿ ٥ × ومن البحيـرة، ولم يعد هنـاك سوى نجمـة الفجر، وقـوى قاهـرة وراء الستار تجذبنا الى الجرح الكبير وتعشينا.

...قاع المدينة

- ١ -

يكاد يكون من المستحيل ان يفقد الانسان ساعة يده. فهو اذا خلعها لا بد يضعها في مكان يثق فيه، واذا ارتداها فلها جلدة أو«أستيك» يطبق على معصمه ولا يستطيع أمهر نشال أن يفكه. ولهذا فأغرب ما قد يحدث لانسان ان يقلب يده ليعرف الوقت فلا يجد ساعته في المكان الذي تعود أن يجدها فيه. هو حينئذ يقول لنفسه: لا بد اني نسيتها في مكان ما، ولا بد أن يتذكر أين، فالأمكنة التي يضطر الانسان لخلع ساعة يده فيها أمكنة محدودة جدا ومن السهل تذكرها.
وهذا بالضبط ما حدث للقاضي. ففي الجلسة دفعه الملل من المرافعات الطويلة ومناكفات المحامين إلى النظر في ساعته، وفوجىء حين لم يجدها. وبينما كان محامي المدعي عليه يسوق دفعا فرعيا كان عقل الأستاذ عبد الله القاضي يعمل بسرعة فائقة ليتذكر أين يمكن أن يكون قد نسي الساعة. وخطر له احتمال أكيد. . أن يكون قد تركها في عجلة الصباح فوق التسريحة في حجرة النوم، ولكنه لم يطمئن الى الخاطر وقرر أن يسأل فرغلي الحاجب. وسؤال فرغلي هو أول ما يتبادر

الى ذهنه حين ينقصه شيء أو يحتاج الى شيء أو يشكـو من شيء. اذا لم يجد القلم ففرغلي هو المسئول، واذا تاه دوسيه فهاتوا فرغـلي، واذا كان لديه صداع فأول من يعلم هو فرغلي. ورفع الجلسة أمر سهـل. . كان محامي المدعي عليه لا يزال يفصل في الدفع الفرعي. وحدث أن توقف ليبتلع ريقه وفي الحال قـام القاضي واقفا وانتهز الفـرصة وقـال: رفعت الجلسة. وانتفض كل من بالمحكمة واقفا بينما مضى المحامون يتهامسون ويتساءلون فيما بينهم عما يمكن ان يكـون السبب، وهل لبـلاغة محـامي المـدعي عليه عـلاقة بـرفع الجلسـة يا تـرى، أم أن المحكمة أرادت أن تستشير قانون عقد العمل؟

وحين أصبح الأستاذ عبد الله في حجرته كانت يده تدق الجرس. وجاء فرغـلي قبل أن يـدق الجرس. . ورمقـه القاضي فـوجده كـالعادة منتصبا أمامـه في أدب وقد صنـع من أعوامـه الخمسين عـامودا حيـا لا انحراف فيه ولا اعوجاج، فكرشه قد شفطه تأدبا، وطـربوشـه قد مـال الى اليمـين في اتزان وقـور حتى أصبح الـزر فـوق الأذن اليمني تمـامـا وأطرافه تداعب أعلا الأذن، والوجه جامد كله احترام، والرأس معوج قليـلا الى أمـام لتستـطيـع الأذن أن تلتقط أدق الهمسـات، واليـدان مضمومتا القبضات متحفزتان لأية اشارة. وليس هذا كل شيء، فأفندم تعقب الوقفة، وتخرج كل أفندم مثل الأخـريات فيهـا خناقـة تدل عـلى التواضع، وخفوت يدل عـلى الاستكانـة، وقصر يدل عـلى استعداد تـام للقيام بأية مهمة.

ـ أفندم. .

ورمقه القاضي وتعجب. وسأله عن الساعة.

وانتفضت فتل زر الطربوش واصطكت بجداره الأحمر في عنف، وفرغلي ينفي نفيا أنه رأى الساعة أو له بها أي علم. وكان الأستاذ عبد الله يتوقع اجابته تلك اذ إن فرغلي لا يمكن أن يكون قد رأى الساعة أو له بها علم. كل ما في الأمر أنه كان لا بد أن يسأله حتى ولو ليقول لا.

وأيقن حينئذ أنه لا بد قد نسيها فوق التسريحة في حجرة النوم. وحين عاد الى البيت كان أول ما فعله أن ألقى على التسريحة نظرة خاطفة. وانقبض حين لم يجد الساعة فوقها، وأيقن تماما أن لا بد قد ضاعت أو سرقت. من أين جاءه ذلك اليقين؟ لم يكن يدري. لعله تشاؤم كامن في النفس لا يبرز الا في أوقات مثل تلك! لعله وهم! ومع هذا انطلق يبحث عنها في الأدراج والكومودينو والدولاب وتحت المكتب. ولعل مبعث حماسه للبحث كان فقط لتكذيب ذلك اليقين المفاجىء الذي انتابه وأكد له أن الساعة قد ضاعت ما في ذلك أدنى ريب.

وقلب الأستاذ عبد الله البيت رأسا على عقب دون أن يعثر للساعة على أثر. وجلس.

كان اثناء عملية البحث قد خلع بنطلونه وسترته وبقي بالقميص والحذاء والجورب ليستطيع الانحناء والنظر تحت الفراش والكراسي، وأكياس المخدات، وكل تلك الأمكنة التي ما أن يضيع من الانسان

شيء حتى يتبادر إلى ذهنه على الدوام انها لا بد تحت كنبة أو كرسي أو فوق دولاب. وفي الغالب لا يجـــد في تلك الأماكن سـوى أكوام الغبار والعناكب. ومـع هذا كلمـا ضاع منـه شيء بادر اليهـا، وكأنهـا مخازن أمل يبقيها الانسان ليلجـأ اليها حين يخـاف أن يستحوز عليـه اليأس.

جلس الاستاذ عبد الله على الكرسي، ووضع ساقا عاريـة بيضاء فوق ساق، وراح يفكر ويستغرب.

وانسان مثل الأستاذ عبد الله تعترضه مشاكل من كل نوع ولون، ولكن أن تضيع ساعة يده، مشكلة غريبة ربما لا تحدث ـ اذا حـدثت ـ الا مرة واحدة طوال حياته.

وكـان للمشكلة وجهان. فمن نـاحية كـان ضياع السـاعة حـدثا ضخما يطرق حياته التي أصبحت مملة ورتيبة. ثم أن تختفي السـاعـة من البيت، بل من حجرة لهـا جدران أربعـة صماء شيء يجعـل من المشكلة لغزا كتمارين الهندسة المستعصية يحلو له أن يحله ويجهد فيه عقله.

أما الوجه الآخر للمشكلة فهو الوجه العادي لها، اذ كان منقبضا لضياع الساعة لا لأنها أثريـة أو ذات قيمة أو هـدية حبيب أو شيئـا من هـذا القبيـل. أبـدا، كـانت سـاعـة عـاديـة جـدا لا ذهب فيهـا ولا بلاتين، (أنكر) ١٥ حجرا كان قد اشتراها قبل الحرب وقضت معه سني الحرب وبقيت ملازمة له بعدها، بقيت كالشريك المخالف كل يوم لهـا حادث، زمبلك ومسح وزجاج وتروس، حتى صرف عليها ثمنها وزهق منها وأصبح منـظرها يثـير. لم تكن ثمينة اذن، ولكنـه ما كـاد يوقن أنها

انها ضـاعت حتى انقبض. ان الانسـان لا يعـرف قيمـة الشيء الا اذا فقده. طالما هو معه فهو معتاد عليه بل قد يكون ضيقا بـه، ولكنه مـا يكاد يضيع حتى يحس الانسـان وكأن جـدارا في نفسه قـد انهار، وتبدأ حينئذ قيمة الشيء الحقيقية تأخذ مكانها في نظره.

كان منقبضا. لو كان هو الذي ألقاها بيـده من النافـذة لما أحس بلمحة أسف، ولكن ضياعهـا هكذا عنـوة، ورغما عنـه، شيء يستثير الضيق والتحدي.

كيف تضيع الساعة من فوق التسريحة بكل بساطة؟

القيمة المادية هنا لم تكن ذات وزن. فـالأستاذ عبد الله على كـل حال، لا يمكن يؤثر في مجرى حياته ضياع ساعة. هو رجل مبسوط، بل كان طول عمره مبسـوطا. ولد مبسوطا، وتعلم مبسـوطـا، حتى وهو طالب في كلية الحقوق كانت له عربـة«توبـولينو» صغيـرة، وكان والـده المرحوم على قيد الحياة، وكان ينفق عن سعة وكان وكان.

انه قاض، ولم يتزوج بعد ومع هذا فشقته فاخرة الأثاث، وحياته مليئة بالأرقام ٣٤٤٥، ٢٩٩٨٧٦، ١٠٠٣١، ٦٦، ٨٣٤٥ وهي أرقام عربته وثلاجته وبوليصة التـأمين على حياتـه، وشقته ورقم حسـابه في البنك.

ولا يتسرع أحد ويخمن أن الأستاذ عبد الله فاحش الغنى. هو رجل متوسط الحال، بل يكاد يكون متوسطا في كل شيء. فهو ليس طويلا، ولا يمكن أن تقول إنه قصـير، وكذلـك لا هو بـالرفيـع أو التخين، ولا بالأبيض أو الأسمر. بالاختصار اذا أخذنا مـائة رجـل من جميع أنحـاء

العالم وأخذنا متوسطهم في الطول والوزن والبشرة لوجدنا أمامنا الأستاذ عبد الله.. حتى الشاي، تقول مدام شنـدي وهي توزع السكـر: كام حتة يا عبد الله بك؟ وفي العادة تستدرك نفسها وتقول: آه.. أنا عارفة.. انت بتحبه مضبوط.. حتة ونص.. مش كده؟ ويبتسم هو حينئذويقول وهو يستعد«للترمبت» في البريدج: انتي عارفه يا مدام.. أنا رجل معتدل. ويضحك الموجودون وكأن الأمر نكتة، فنكت القاضي هي الأخرى دائما مضبوطة ومعتدلة الحلاوة.

وليس معنى ذكر البريدج ومدام شندي انه مغرم ببيتها أو مدمن على الذهاب اليه. ان زياراته لعائلة شندي ليست بالكثيرة التي تضايق ولا بالقليلة التي تجلب العتب. انه ايضا في هذا «جنتلمان» كما هو في أي مجال آخر.. جنتلمان له ابتسامة دائمة يتحدث بها الى الغرباء، ولا يبدأ في ازالة ما بينه وبينهم من كلفة الا اذا بدأوه هم. وحين يتحدث يتحدث في بطء قليل، وحديثه دائما متوسط العمق فهو لا يحيط بأي موضوع احاطة كاملة، ومع ذلك لا يترك موضوعا دون تعليق اذ لا بد أن يقول شيئا، ولو كلمة، ولو نوعا من جبر الخاطر.

وبمثل ما نكون تعاملنا الحياة، والحياة تعامل الأستاذ عبد الله في اعتدال هي الأخرى، فلم ترفعه مرة فجأةولم تهوِ به، فمن الكلية الى النيابة الى المحكمة كما قدر لنفسه، وكما قدر له أبوه من قبله، كالقطار الذي تركبه في القاهرة وأنت متأكد تماما أنه بعد قليل سيكون في بنها ثم في الاسكندرية.

أجل! ماذا يفعل ضياع الساعة في حياته؟

كأن المسألة من التعقيد بحيث يستدعى حلها سيجارة. والأستاذ عبد الله لا يدخن ولكن لديه علبة سجائر يحتفظ بها في درج المكتب ليعزم منها على الزوار. وفي أحيان قليلة يدخن، مرة كل شهر مثلا أو كل شهرين. قام ليتناول سيجارة، وعاد إلى جلسته وإلى ساقه الموضوعة فوق ساق. واكتشف بحركته تلك أنه عاري أو يكاد، وأسرع يرتدي البيجامة قبل أن يراه أحد، مع أنه لم يكن في الشقة أحد، فهو يقطن بمفرده اذ هو أعزب. كان قد حدد لنفسه سن الخامسة والثلاثين ليتزوج، وكان في الثانية والثلاثين أي باقي على انقضاء الحكم الذي أصدره على نفسه ثلاث سنوات. أما لماذا حدد الخامسة والثلاثين بالذات ليتزوج فالأمر لا سر فيه ولا يحزنون، اذ هو قدر أنه سيعيش سبعين عاما، ربما لأن والده توفي وهو في السبعين، وأمه في الثامنة والستين، وجده في الخامسة والسبعين، ربما هذا، وربما قرر أنه سيعيش حتى السبعين عاما لسبب لا يدريه أحد. ولهذا قرر أن يتزوج في منتصف عمره تماما. وهو ليس أبله كما قد يظن البعض، اذ ان كثيراً من الناس يقررون أشياء خطيرة في حياتهم اعتمادا على أشياء غامضة لا أساس لها في عرف أو عقل مثل تلك.

دخل الأستاذ عبد الله في البيجامة، وعاد يجلس على الكرسي الهزاز الموضوع بجوار الراديو الضخم. جلس وهو قد استبعد نهائيا أن يكون جعفري هو الذي أخذ الساعة، فهو قد يشك في نفسه ولكنه لا يستطيع الشك في جعفري أبدا.. هو خادم العائلة أبا عن جد، بل يقولون ان أحد أسلافه مات وهو عائد من الفرن بصينية«حمام

بالفريك» التي كانت طعام جده المختار. وضمن ما ورثه الأستاذ عبد الله كان جعفري. وهو انسان طيب جدا، ساذج جدا له ولاء الكلب واخلاصه. هو من أولئك الناس الذين لم يكتفوا بالقناعة بمصيرهم بل عبدوا ذلك المصير وبجلوه. كلمة«سيدي» عندهم لها قداسة ووقع، وحاجة السيد كحاجة الله أرفع من أن تمتد اليها يد. كان معه في بيت المنيرة وحين انتقل الى سكنه الحالي في شارع الجبلاية انتقل معه. وكان يقيم في الشقة، وكان هذا سبب ضيق الأستاذ عبد الله منه.

لم تكن هناك أسباب واضحة لهذا الضيق.. فجعفري أمين نظيف دقيق لا يكاد يتلفظ طوال اليوم بكلمة، والأستاذ عبد الله يحب الصمت، واذا كان هناك كلام فليكن باعتدال، وليكن أيضا في المليان. تضايق منه وكان ذلك من عامين، لأن جعفري كان حجر عثرة، اذ هو يخجل منه وهو خادم العائلة الذي شهد أباه وشهد أمه والذي رآه وهو طفل وحضر كل ما أحرزته العائلة من أمجاد، فلم يكن من اللائق، ولا مما يرضي مزاج الأستاذ عبد الله الحساس أن يدخل عليه مرة مثلا ومعه فتاة. وكان الوقت قد حان، وسنوات العمر تمضي كالرياح، والثلاثين قد ولت، وحياة العزوبة تتسرب من بين يديه دون ان يفيد منها شيئا. والأستاذ عبد الله كان مستقيما، لا لأن غير الاستقامة حرام، أو لأن هذه «الأشياء» لا تصح، أو أو الخ، ولكن لأنه ذات مرة سوداء اشترك مع طالب زميله في الكلية، والتقطا فتاة من الشارع في عربة زميله الكبيرة وأخذاها الى طريق الاسكندرية. وروع

عبد الله ثاني يـوم بأعـراض خطيـرة، وصحيح أنـه عولـج وشفي تماما ولكنـه أقسم بينه وبـين نفسه أنـه لن يقرب امـرأة أبدا الا اذا تـزوج. كـانت اية امـرأة في نظره عبـارة عن ميكـروب يـرتـدي جـوارب نيلون ويضـع على شفتيـه روج ويلدغ كل من يقتـرب منـه. وكـان ممكنـا أن يـدفعه هـذا للزواج، ولكنه كـان قد قـرر منتصف العمر ليفعـل هذا. وظلت الخطة سارية بنجاح تام الى ما بعد الثلاثين وقد بدأت الخامسـة تطل برأسها. وهنا ثـار الأستاذ عبـد الله على نفسـه وحياتـه وصمم أن يودع ـ كما يقولون ـ حياة العزوبيـة. من أجل هـذا حث جعفري عـلى الزواج، بل ساعده، ولما تزوج أخبره أنه لا يـريده طـوال اليوم، عليـه فقط أن يأتي في الصباح ويغادر الشقة بعد أن يعد له الغداء. وكل هذا ليخلو له المسكن ويصبح حرا يستطيع ان يودع عزوبيته كما يشاء.

وبرغم أن الشقة خلت وذاق حلاوة الوحـدة التي كان ينشـدها، وانزاح جعفري بوجوده الدائم، الا أنها بقيت خالية الا منه، فقـد كان يظن أنه حـالما يـذهب عنه الـرجل ستمتـلىء الشقة بـالنساء، كيف؟ لم يتعب نفسـه ويفكر. ولكنـه اضطر الى التفكـير، فهـو قـد أمضى فتـرة طويلة من شبابه دون احتكاك بـالنساء حتى تغلبت رغبتـه العارمـة آخر الأمر، ونسي حكاية الميكروب، وقبل الأمر شكلا وأصبح على استعداد للمجازفة، ولكن أين المرأة؟ عزلته طوال تلك السنين كانت قد حالت بينه وبين الطرق التي تقبل منها النساء، ثم إنه كان قد أصبح قاضيـا في تلك المدة. صحيح أنه شاب لا يزال صغير السن نوعا، ولكنه قاض عليه«أو هكذا خيل اليه» أن يحافظ على كرامة المنصب، ولا يـدع أحدا

يأخذ عليه مأخذا أو يضبطه في موقف حرج. ثم انه لا يستطيع أن يفضي برغبته لأحد، وكل أصدقائه ومعارفه رجال كبار محترمون، مستشار في مجلس الدولة، وكيل نيابة درجة أولى، محام على الأقل من محامي النقض والابرام، أساتذة في الجامعة، المنهراوي بك صاحب محلات الموبيليا الذائعة الصيت، صلاح شوشة ابن اعتماد هانم.. أناس لا يمكن أصلا التحدث معهم في أمر كهذا. حتى زملاؤه من دفعته، والذين كانت عربته الصغيرة سببا من الأسباب التي منعته أن يعرف منهم سوى عدد قليل محدود، حتى هؤلاء الزملاء تفرقوا وتزوجوا وأصبح لهم أولاد، واذا قابل أحدهم تبدو المقابلة أول الأمر عاصفة ذات تهليل وعناق وسلامات، وبعد خمس دقائق يكتشفان أن كل ما بينهما من كلام قد انتهى ويصبح الحديث مجرد ترديد ،أجوف: . . . والله زمان.. وحشتنا.. فين أيامك؟ أو عادة مكررة لذكريات تاريخية قديمة عن مدرس كانت له طباع شاذة.

هذا عن الرجال..

أما النساء فكان مقطوع الصلة بهن تماما. كانت هناك قريباته.. بعضهن كان لا يطيقهن شكلا ولا موضوعا، وبعضهن جميلات كان يخاف منهن، فهن أما متزوجات أو طامحات في الزواج، والعين كانت عليه وهو العريس«السقع» الذي يسيل له اللعاب. غير أنه كان قد صمم تصميماً لا نقض فيه ولا ابرام الا يتزوج من قريباته أبدا ولو قطعوا رأسه. أما لماذا؟ فهو نفسه لا يدري سببا لهذا التصميم. كانت أية محاولة للتقرب منهن ممكن أن تؤخذ

اذن على محمل الاستحسان وقد تنتهي بورطة ودبلة، وقد تنتهي بزواج. أما غير قريباته فكانت هناك مدام شندي، أرملة في الخمسين مولعة بالبريدج الى حد الجنون، ولها أصدقاء من كبار رجال الدولة، ولها صالون ومجلس وتجيد الحديث وادارته، وتجيد الابتسامات الفاهمة والاصغاء الى المتاعب. سمراء غامقة السمار تكاد تكون صعيدية من قلب الصعيد وتقول عن نفسها انها تركية، وكثيرا ما تزورها نساء متزوجات، ولكن كل منهن شخصية قائمة بذاتها. وصحيح أنه يتحدث معهن كثيرا ويناقش شتى الموضوعات ويعلق أحيانا على حذاء أنيق، أو تسريحة جديدة، ويقص عليهن طرائف مما يحدث له مع المتهمين والمفتشين والمحامين، ولكن حديث مثل هذا شيء، وحديث خاص ينتهي بلمسة أو بقبلة شيء مختلف تماما. فهو ليس وسيما، وهو يعرف أن هذا غير مهم في الرجال، ولكنه يعرف أيضا أن وجهه كالصفحة البيضاء لا معالم بارزة فيه، ملامحه عادية جدا ليست جميلة أو قبيحة، ولا تثير اعجابا ولا تبعث على الاشمئزاز ولا يحس لها الناظر بأي انفعال. ليته كان قبيحا! كثيرا ما يتمنى لو كان مشوها حتى.. ثم إنه عالم تماما بخفة دمه ولباقته، فهو يرى الناس يتحدثون، يأتون في كلامهم بأشياء تبرق وتضيء الكلام، وتضيء وجه السامع بابتسامة أو ضحكة أو لمعة أسى. وهو ينصت الى أناس وهم يحكون فيجد لحكاياتهم وقعا لذيذا وكأن كلامهم محلى بالتوابل وفاتحات الشهية. وكان أحيانا ينصت الى نفسه وهو يتحدث ويحاول أن يجد شيئا، شيئا واحدا فقط، كلمة ذكية أو اشارة

مليحة، أو حتى طريقة طريفة لرواية ما يقول، فلا يجد. كلامه مجرد كلام. يسمعه الناس اكراماً له، واكراماً للفظة القاضي الـلاصقة بـه. لا يعني هذا أنه كان عيياً إذ إنه لم تخنه الكلمة أبدا. ليتها خانتـه مرة اذن لحدث لكلامه شيء غير عادي.

لهذا فحديث خاص الى واحدة من السيدات في صالـون مدام شندي شيء لم يخطر له على بال، خاصة وهـو لم يتعود أمثـال ذلك الحـديث، ولم يجرب مـرة واحدة ايقـاع امرأة. وكـان طبيعياً اذن أن يبدو في الصالون مؤدبا خجـولا يملؤه الرعب من النســاء المنثبات من حوله.

وما أن ذهب جعفر وبـدأ يثور على نفسـه ويكبت الثورة أحيـانا ويطلقها، حتى بدأ يتقدم ثم يتأخر ويعود الى الاقدام. وشتمته واحدة مـرة، وقبلت واحـدة أخـرى دعـوة إلى السينما، ورحبت بسهـرة في الاوبرج، ولكن ما كاد يلمس يدها حتى انسحبت وتركتـه يكاد يغمى عليه. وأخيرا دفعته إلى تجربة مدام شندي نفسها.. ولـم يجد لديهـا حماسا كثيرا، وكذلك لم يجد معـارضة تـذكرا! وكـانت استجابتهـا له فيها روتين وتعود، وعاملته كأنه طفـل كبير شقي. وظـل بعدهـا ثلاثـة أيـام يكظم خجله واشمئـزازه، ولم ينس أبداً أنهـا في الخمسينـات، وأنه فعل هذا وهو قاض.

والانســان حين يفشل لا يسكت.. انـه لا يكف عن المحاولـة أبدا وبمضي الوقت قد يصادفه النجاح. وهكـذا استطاع أن يستصحب

نانا الى الشقة بعد مضي ستة أشهر على خروجه معها.

والخروج مع فتاة مثلها كان بالنسبة اليه أمرا صعبا يؤديه كالضريبة الباهظة المفروضة عليه، فهو لا بد أن يختار مكانا بعيدا عن القاهرة، ولا بد أن يذهب اليه قبلها ليتأكد أن واحدا من معارفه أو أصدقائه أو المحامين لا يعرفه، ثم يستصحبها اليه، ويظل في قلق عظيم وهو جالس معها، ولا ينزاح الهم عن صدره الا حين تهبط من عربته بعدما تقرصه في يده قائلة: باي باي.

وأخيرا جاءت معه وكان نصرا أن تجيء، ومع هذا لم يستطع معها الكثير، فهي فتاة وهو خجول، ولولا أنها لا تعد جميلة لما كانت قد رُضيت بالمجيء.. ودعك من الهدايا والتحف. وهكذا ظلت العلاقة بينهما في أخذ ورد حتى ذهب الخجل وقل العناد، وبدأت تنمو عواطف مبهمة تجاهها حتى فكر مرة أن يخطبها فهي بنت ناس، ولطيفة، وتحب القانون، ولكن مسألة قبولها المجيء معه كانت تقض مضجعه وتجعله يرفض مبدأ الخطوبة رفضا باتا. غير أنه ما لبث أن صرف النظر عن التفكير في الخطوبة والزواج، فقد استطاعت علاقته بنانا أن تعلمه أشياء كثيرة، ويكفي أن تعرف فتاة واحدة لتدرك منها الكثير من أسرار الفتيات أجمعين، وتصبح جسورا بعض الشيء، وتستطيع اذا آن الأوان أن تثني على ذوق صاحبة لها، ثم تنتقل من صديقة الى صديقة، وتتعلم أكثر، وتنمو لديك الخبرة، وتستطيع أن تجيد نوع الكلام الذي تحبه الفتيات، وتعرف دقائق الفروق بين لون فستان ولون فستان وكشكشة وكشكشة، وأين

يكمن السكس آبيل في نظرات جريجوري بيك. وتستخدم خبرتك تلك في الأحاديث، ثم لا يعدم الأمر بعض القفشات والنكات والكلمات ذات المعاني، وابتسامات مطعمة بدعوات، ونظرات آخر ما يقصد بها أنها نظرات، واذا بك قد وصلت، واذا بالأستاذ عبد الله يصبح لديه ثلاث أو أربع فتيات. . واحدة لدعوات السينما، وواحدة كانت تعلمه الرقص أو على الأصح تجدد معلوماته عن الرقص، فأخته كانت قد علمته وهو لا يزال «صبيا»، وواحدة تأتي وأخرى تذهب، حتى إنه ذهب إلى كباريه مرة وتعرف هناك بشلة، فوجىء أن بينها أكثر من واحد من الأسرة القضائية، وتعرف براقصة أو على الأصح هي التي عرفته بنفسها، وجلست معه وفتح لها زجاجة «السينالكو» ذات الثمن الغالي، وفتح المحفظة وأصرت هي وهما عائدان منتشيان أن تفتح بنفسها باب الشقة.

مستحيل أن يكون جعفري هو الذي أخذ الساعة.

٢

لا بد انها شهرت.

كان احساس الأستاذ عبد الله بالفرحة لأنه وجد موضوعا عجيبا يملأ حياته يكاد يطغى على أي احساس آخر، أحس أيضا أنه لا يستطيع السكوت على هذا الموضوع الكبير وحصره في نطاق تفكيره الخاص. أحس أنه لا بد من مناقشة ما يدور في رأسه من خواطر وافتراضات مع أحد، لا بد من شرف، وقام الى التليفون وطلب نقابة الممثلين.

وكان من يراه وهو يدير القرص والحماس يطل من عينيه، يحسبه يود مفاجأة صديق بخبر مثير أو أنباء سارة. كان الخط مشغولا، ومع هذا ظل يدير القرص وحماسه لا يفتر. انه لن يجد في العالم كله من يصلح لمناقشة هذا الموضوع معه سوى شرف، ولا بد أن شرف في نقابة الممثلين ولا بد أن يعثر عليه. . هذا اللعين شرف صديقه مذ كانوا يقطنون في بيت العائلة في المنيرة. شرف أيضا كان يقطن هناك ولكنه كان من عائلاتها الفقيرة، ولهذا ولأمر ما كان الأستاذ عبد الله لا يحس أمامه بأي تعقيد ولا يخجل أن يقص عليه أدق خلجات نفسه دون أن يحس بكرامته تهان أو بتأنيب ضمير. كان

يقول له ما لا يستطيع قوله لأصدقائه الأغنياء وأقاربه، ولهذا فقد كان يحبه أيضاً أكثر من كل أصدقائه الأغنياء وأقاربه. هذا برغم أنه لا يحتل مثله أحد مناصب الدولة المهمة أو غير المهمة، فقد ترك المدارس وعمل في عشرات الأعمال، ثم احترف التمثيل الذي كان يهواه دائما وأصبح ممثلا في الاذاعة وأدواره كلها قصيرة، وأطول دور كان ثلاث كلمات، ورغم ذلك فهو يعتد بنفسه كفنان اعتداداً كبيراً، وله آراء في الفن والمسرح والحياة، ومكانه الدائم في نقابة الممثلين.

ورغم ما كان بين الأستاذ عبد الله وبين شرف من حب فقد كانت العلاقة بينهما لها طابع غريب نوعا. الأستاذ عبد الله لديه مشاغل كثيرة، ولكن أحيانا تتبخر كل مشغولياته ولا يجد ما يعمله وتصبح الدنيا خاوية مملوءة بفراغ متثائب لا نهاية له. حينئذ يأتي دور شرف. . يدق التليفون في نقابة الممثلين وهو التليفون الوحيد الذي يدق ويطلب شرف الدين: تعال يا شفشف. هكذا كان يناديه الأستاذ عبد الله. ودون أن يسأل شرف من، يأخذ طريقه الى شارع الجبلاية أحيانًا راكبا تراما، وأغلب الأحيان سائرا على قدميه. هناك كان يجد شقة أنيقة عالية مطلة على النيل، وماء مثلجا وطعاما وعلبا محفوظة، وأحيانا زجاجات بيرة، وكرسيا مريحا يسترخي عليه ليؤدي دوره.

ودوره كان دور المستمع. كان ينصت لصديقه عبد الله وهو يتحدث. واذا تحدث شرف مع عبد الله فلا بد أن يكون الحديث كله عن عبد الله. وأشخاص قليلون جدا هم الذين يستطيع الانسان أن

يحدثهم طويلا عن نفسه دون أن يفكروا في قطع حديثه ليتكلموا هم عن أنفسهم، وكان شرف من هؤلاء. كان عبد الله يشرق ويغرب ويسرد أدق الخواطر والأشياء التي لا تدور الا بينه وبين نفسه، وشرف ينصت ولا يمل، وكان فنانا في انصاته. فهو لا ينصت وهو ضيق بالحديث، أو متعجلا لنهايته، ولا وهو فقط متابعا الكلام يهز رأسه وينفخ دخان سيجارته. أبدا حين ينصت بحماس، وتبرق عيناه حين يتأزم الموقف، ويبتسم حين يحتاج الحديث الى ابتسام، ويقهقه حين يستدعي الموقف قهقهة، وتحس وأنت تتحدث إليه أنك تحادث انساناً يهمه أمرك، ويحفل بكلامك مهما كان، احتفالا كبيرا.

وأحيانا يعثر الانسان على مستمع كهذا تماما، ولكنه يكون عالما أنه ينصت ويتحمس وينفعل مجاملة له لا أكثر ولا أقل، غير أن شرف لم يكن من هؤلاء، كان حماسه حقيقيا، ومشاركته في الحديث مشاركة ايجابية، فهو يستمهل ويستوقف ويناقش ويسأل عن تفاصيل أخرى.

ولا بد أن لحظات حديث الانسان عن نفسه تمتعه ويسعد بها، خاصة اذا كان لهذا الحديث مستمع كهذا. لا بد.. لأن عبد الله كان يحس براحة عظمى بعد هذه الأحاديث. ففي حياته العادية كانت تمر عليه أوقات كثيرة لا يرى نفسه فيها سوى انساناً تافهاً لا قيمة له ولا وجود، خاصة حين يجد نفسه في مجتمع غاص، والجميع يتكلمون بانطلاق وانتعاش وهو وحده الذي يخرج كلامه باهتاً معقماً كالماء المقطر لا طعم له ولا رائحة. كان في جلساته مع شرف ينطلق ويحس بكلامه يخرج موزوناً له ثقل، وفيه حكمة غريبة عليه،

وبلاغة . . حتى فكر عبد الله ذات مرة أن يشتري جهاز تسجيل ليسجل به أحاديثه تلك ويعود ليستمع إليها بعد ذهاب شرف، ويسمعها لأصدقائه ومعارفه، ويربهم أنه ليس به عيب وإنما العيب فيهم وفي مجالسهم. في حديثه مع شرف كان ينطلق وينطق بأشياء معجزة، وإلا لماذا كان يقوم شرف ويقعد لدى سماعها ويطلب منه اعادتها كما يطلب المستمعون من المقرىء اعادة التلاوة وقد بلغ بهم الاستحسان مداه.

كان يبلور في أحاديثه تلك كل فلسفته في الحياة وآرائه في الناس. والانسان اذا وجد في حضرة الجماعة وكان عليه أن يدلي برأي في موضوع فإنه في العادة يقول ما تواضع الناس على قوله. يفعل هذا احتراما للجماعة أو خوفا منها، أو استسهالا، فقد يجره رأي مخالف الى نقاش قد يخرج منه مهزوما مهيض الجناح. قليلون فقط هم الذين يملكون آراء شخصية، وأقل منهم أولئك الذين يستطيعون الجهر بآرائهم تلك دون وجل في حضرة الناس، ونادرون هم أولئك الجريئون الذين يستطيعون الذود عن آرائهم إذا هوجمت، وأقل القليلين هو من تتفق له الجرأة والمنطق فيستطيع ليس فقط أن يعبر عن رأيه ويدافع عنه اذا هوجم، ولكنه يستطيع فوق هذا اقناع الناس به. نادرون جدا أولئك الناس، ولكن هذا لا ينفي الحقيقة، والحقيقة أن كلا منا حكيم في حدود، ولكن ليس كل منا قادرا على التبشير بحكمته.

وكان عبد الله كأي انسان له حكمة استخلصها من تجاربه وما

مارسه، وكان يغلق عليها نفسه ولا يفتحها إلا في حضـرة شرف، ولا يبشر بها إلا له وحده.

والغريب أنه لم يكن يؤمن بحكمته تلك. كان شرف هو الوحيد الـذي يقتنع بكـل آرائه، أمـا عبد الله فكـان لا يقتنع بهـا ولا ينفذهـا ويفضل أن يتبع آراء الآخرين، فأن نعتنق آراءنا عملية في حـاجة الى جرأة هي الأخرى.

ودخل شرف..

كـان طويـلا نحيلا لـه شعر مهـوش وملامـح طويلة ممـطوطة، تحس إذا ما رأيته أنه لا بد «فنـان» من الفنانين، لـه ابتسامـة خجولـة يحتـار دائماً أين يـداريهـا. وإذا ابتسم بـرز لـه ضب صغيـر لا يكـاد يلحظه أحد.

وكعادته توجه الى المطبخ فور دخوله وعاد ومعه كوب من الماء المثلج ظل يرتشفه على قطرات، ثم خلع جاكتته وعلقها على المسند وتمدد. ولـم ينس وهو يمـدد نفسه أن يضـع ساقـاً فوق سـاق ويتناول سيجارة من العلبة التي قدمها له عبد الله.

ظـل القاضي يـراقبـه حتى انتهى من عمليـة جلوسـه ونـظراتـه ترتجف باللهفة، وكأنما يختزن في جوفه بـركانـا.. وكان واضحـا أن شـرف قد أدرك هـذا وتعمد المغـالاة، ولكنه نـطق أخيـرا وقـال وهـو يحـدق في ملامـح عبد الله ويحـاول ان يستشف الأمـر.. وهـل هـو احساس بالوحدة هذه المرة، أم حب جديد، أم رأي طـازج عن نشأة الجريمة بين الأحداث.

ـ ما وراؤك يا همام؟

فقال الأستاذ عبد الله :

ـ حصلت أبدع حاجة النهارده .

ـ خدت الدرجة الرابعه .

ـ لأ . . شهرت سرقت الساعة . .

ـ شهرت مين . . الرقاصة . .

لم تكن هي الراقصة، ولا صديقة أخرى لنانـا، ولا تمت بصلة الى هذا الصنف من النساء كله . . أنها هدية فرغلي الحاجب .

ويـدأت المسـألـة في ثـورة من ثـورات الأستـاذ عبـد الله على نفســه، أو بمعنى أدق على صـديقــاتـه . لم يكن يستـريـح أبــدا لعلاقاتـه بهن . كان هنـاك شيء ما يحـد من سلوكه أمـامهن، كان لا يستـطيع أن يـطلق نفسه على سجيتهـا أمام نـانا أو غيـرها . لا بـد أن يكـون مؤدبا ولا بـد من الرقـة والكلمة الحلوة ولا بـد من ابتسامـة لا تـذبل يضعهـا في عروة فمـه طوال الـوقت الذي يقضيـه مع الـواحدة منهن . كان من فرط احساسه بقلة مواهبه أمامهن يحاول قدر طاقته أن يكون خفيفا كالنسمة وأن يرضيهن ما أمكنه . ولـم تحاول واحدة منهن ارضـاءه أبدا وان حـاولت، كان يحس أنهـا تفعـل ذلـك لسبب، وأن وراء الارضاء ما وراءه .

وفكر مرة في شيء جديد على حياته . لم لا

واصطنع الديمقراطية . ووقف فرغلي الحاجب أمامه في حجرته قبـل الجلسة، وظـل هـو يشكـو من أزمـة الخـدم وكيف أن الـرجـال لصوص والنساء العواجيز متعبات ولا يستطعن العمل . وكان فرغلي لا

يكف عن احناء رأسه علامة الموافقة على كل كلمة ينطقها القـاضي، بل أحيانا يحني جسده كله ليدل على الموافقة التامـة. وفي يوم آخـر بدا على القاضي الضيق الشديد وادعي أمـام فرغلي أنـه طرد الخـادم الجديد. وأبدى فرغلي أسفه البالغ وراح يصب اللعنات على الخـدم أجمعين، وعلى ذلك الخادم المطرود بالذات وكأنه كان يعـرفه ويعلم أنه جدير بكل تلك اللعنات.

وفي المرة الثالثة قالها القاضي صراحة، وسأل فرغلي أن يعرف امرأة أمينة مخلصة تقبل العمل عنده.. واشتـرط أول الأمر أن تكـون كبيرة في السن.. وهز فرغلي جذعه مؤمنا على الشرط. ولكن سعادة البيه تصنع تفكيرا عميقا ثم قال له وكأنه يعـدل عن رأيه: الأحسن ألا تكـون عجوزة جـدا ويستحسن أن تكون نصفـا. وهز فـرغلي جذعـه موافقا. ثم عـدل عن رأيه مـرة ثانيـة وقال: والا أحسن تكـون شابـة تستطيع أن تقـوم بشئون البيت خيـر قيام، ثم أن سلم الخـدم مرتفـع والشقة في الدور السابع. ولم يكتفـ فرغلي بهز جذعه مـوافقا ولكنـه ابتسم هذه المرة ابتسامة المدرك الفاهم المقدر.

وكان اليوم التالي يوم جمعة وهو الميعاد الذي اتفق مع فرغلي على المجيء فيـه. وكانت السـاعـة الثـالثة ودق الجـرس. ولم يكن جعفـري موجـودا بطبيعـة الحال، كـان قـد أدى عمله ومضى، فقـام الأستـاذ عبد الله بنفسـه وفتح البـاب. ووجـد ابتسـامـة فـرغلي تمـلأ فتحتـه.. كـان فـرغلي اذا ابتسم يفتـح فمـه ويغمض عينيـه عـلامـة الانبساط. وكان يرتدي بدلة ملكية غير بدلة الحجاب، بدلة لا بد قد

أنعم عليه بها قاض سابق، فقد كانت قديمة وواسعة متهدلة لم تعرف المكوى أبدا طريقا اليها. وكان للبدلة قميص كان يبدو كالجلباب الذي له ياقة لا أول لها ولا آخر. ومع هذا يصر فرغلي على احاطتها برباط عنق من كثرة استعماله أصبح كفتلة الدوبارة، وأصبحت عقدته رفيعة متينة كعقدة الحبل.

ابتسم فرغلي وقال:

ـ الطلب موجود يا سعادة البيه.

ورنت موجود رنينا حلوا في أذن الأستاذ عبد الله وقال بلهفة:

ـ فين..

ـ تعالي يا شهرت.

وجاءت شهرت.. ودخلت. لم ينظر اليها الأستاذ عبد الله أول الأمر، فقط لمحها. وأحس بخجل حين رآها ترتدي ملاءة لف، وخاف أن يكون أحد من سكان العمارة قد لمحها وهي داخلة شقته. وحين أغلق الباب استراح. ووقفت في ركن من الصالة قريباً من الباب، ودخل هو وفرغلي حجرة المكتب. وجلس وأمر فرغلي أن يجلس، ولكن الرجل أصر على الوقوف وتشبث، وأصر القاضي على أن يجلس. ومع هذا حين رضخ للأمر وجلس أحس القاضي بنوع من خيبة الأمل، وكأنه شك أن يكون قبول فرغلي الجلوس في حضرته ولو بناء على أمره، يعني أنه بدأ يتساهل في احتراماته. وازداد اضطرابه وأصبح يكسوه مزيج من الخجل والتردد والحيرة. لم يكن قد رأى وجهها بعد

فقام ـ وانتفض فرغلي لقيامه ـ وغادر الحجرة الى الحجرة الأخرى، ورمقها بنظرة، وكان في نيته أن تكون خاطفة حتى لا تدرك انه يتفرج عليها. ولكن نظرته تلكأت طويلا عند وجهها وكادت الا ترتد لولا ان انتزعها انتزاعا. لم تكن بالصورة التي تخيلها. كانت تبدو كأمرأة بلدي مثل غيرها من آلاف النساء. المرأة تحس انها زوجة وأم ولا تبدو عليها أبدا سمة الخادمات. الشيء المحير ان وجهها كان يبدو مختلفا غريبا، يلزمه أكثر من نظرة ليستطيع أن يحدد ملامحه. وليعرف ان كانت جميلة أم عادية الجمال. ولكنه وافق. . وحين عاد الى فرغلي سأله عن الأجر. ورفض فرغلي رفضا باتا ان يتحدث في هذه الماديات. ان أعجبته فليعطها ما شاء وان لم تعجبه فغيرها موجود. ومع أنه لم يحس بالارتياح لما قاله فرغلي الا أنه أعطاه سيجارة. وكانت الخطوة التالية هي التخلص منه، ولهذا ناوله خمسين قرشا اجر المواصلات. واحتج فرغلي بملامحه يقبل يده.

وأخيرا ذهب. .

كانت لا تزال واقفة في الصالة وكان هو قد عاد الى حجرة المكتب وجلس فقال لها:

ـ م تيجي . .

وجاءت والملاءة لا تزال ملتفة حولها، ووقفت تواجهه وتسند ظهرها الى الباب المفتوح. وعبرها بنظرة أخرى. . كانت ملامحها قوية ناطقة، وكان وجهها مشربا بحمرة، وتحت ستار

ملامحها القوية أنوثة لا تستطيع أن تحدد موضعها. وقال لها وهو يتعمد الخطأ:

ـ اسمك عفت..

فأجابت:

ـ خدامتك شهرت..

ولاحظ أن صوتها له رنين أنثوي مبحوح يدغدغ الأذن. ثم إنها نطقت خدامتك بلهجة أقرب إلى التأدب منها إلى الذلة والاستسلام.

ـ متجوزة؟

وسكتت قليلا ثم قالت:

ـ أيوه..

ـ ومخلفة؟

فقالت:

ـ بنتين وولد..

وعاد يرمق وجهها بعيون جريئة لا ترمش ولا تخجل. كان يبحث عن شيء ما، ذلك الشيء الذي علمته خبرته ان يبحث عنه كلما التقى بامرأة، الشيء الذي يعني ان لا مانع لديها مثلا. ولكنه لم يجد. فقط فطن الى انها لا تزال ممسكة بالملاءة وقبضتها شديدة فيها. وسألها وكانت الساعة الثالثة:

ـ انغديتي؟

وأنزلت وجهها الى الأرض وقالت:

ـ الحمد لله . .

وفهم انها لم تفعل، بل خيل اليه انها لم تتناول افطارها أيضا. وأمرها أن تذهب إلى المطبخ فهناك بقية من طعام، وغمغمت تصر على ان الحمد لله، ولكنه ألح وأغلظ، وحين وجدها لا تعرف مكان المطبخ قام وأراها الطعام. وعاد الى الحجرة وجلس يفكر. لم يكن يتوقعها هكذا! فيها قوة تلك المرأة. . انها غلبانة وترتدي الملاءة اللف، ولكن ما يضفي على شخصيتها مهابة قل ان تتوفر لامرأة مثلها، لعله ما يصبغ ملامحها من براءة. هل يستطيع؟ إنه خائف. ان البراءة تحتاج الى جهود صعبة للتغلب عليها. وأحس من حركتها انها انتهت من تناول طعامها، فاتجه الى المطبخ ووقف على بابه، وكان يود أن يبدأ حديثا:

ـ انتي اشتغلت عند حد قبل كده؟

ـ لأ . . دي أول مرة.

ولم يصدقها. . انها تريد أن تبدو في نظره من ربات البيوت اللائي دفعتهن الحاجة الى العمل. . تمثيلية قديمة. . وانتهى عند هذا الحديث وكان لا يريد له ان ينتهي. ووجد موضوعا وأمرها ان تخلع الملاءة وكانت لا تزال تلفها حول نفسها. وخلعتها واحتارت اين تضعها وكل ما في المطبخ أنيق ونظيف لا تجرؤ على وضع

الملاءة فوقه. ووضعتها على السجادة في ركن الصالة، وكانت ترتدي تحت الملاءة فستانا من الحرير الباهت جدا.

وقال لها وعلى فمه ابتسامة ماكرة:

ـ تعرفي تعملي قهوة؟

فأجابته وهو تنظر في وجهه باستقامة:

ـ سكر ايه؟

النظرة صريحة، والطريقة التي تنظر بها اليها فيها أنوثة قوية، فأجاب في بطء:

ـ م.. مظبوط.

وضحك دون سبب يدعو للضحك. وأضاف دون ان يكون في نيته ان يضيف:

ـ واعملي لك فنجان.

وأجابت وهي مشغولة في اعداد الكنكة:

ـ كتر خيرك.

وتملكه ارتباك غير قليل. أحس كما لو كانت هذه المرأة شهرت تعرف كل شيء عن نواياه، والدافع الذي حد به الى أن يكلم فرغلي، وتعرف لماذا ضحك من ثوان، ولماذا هو واقف أمامها الآن يحاول أن يتمحك فيها، ولا بد أنها بينها وبين نفسها تسخر منه، وتضحك على القاضي الفاضي.

وتملكـه عناد. ولـوا! فليكن هذا! فلتكن تعـرف كـل شيء! لم يعد أمامه أي خيار.

كـانت شهرت في ذلـك الوقت واقفـة أمـام المـوقـد وممسكـة الكنكة بيدها ورأسها منحن، وعيناها مستغرقتان(أو على الأقـل هكذا كانتا تبدوان) فيما أمامها. فغادر مكانه عند الباب واقترب خطوات ثم قال:

- وانتي ساكنة فين؟

قال هذا دون أن يحفـل بالجـواب، وقالـه وهو يضـع يده على كتفهـا، بل قـاله ليستـطيع أن يضـع يده على كتفهـا. ولم يعلم بماذا أجـابت لأنه في تلك اللحـظة كان يحـاول أن يقيس بأصـابعـه مـدى استجابتها. وأحس بكتفها تحت أصابع يده يتململ ولا استسلام فيه. واقتـرب منها بـلا وعي متحديـا تلك المقاومـة، وأصبح واقفـا خلفها مباشرة وأحس بجسدها كله ينتفض أمامه ويتململ. واقترب منها أكثر وجذب كتفها ليمنع حركتها، وانتفض جسدها انتفاضة كبيرة استدارت اثناءها وسألته:

- الفناجين فين؟

ونبتت نقط عرق فوق جبهته.

وحاول ان يبتلع ريقه الجاف.

وأمرها بلهجة حادة ان تنظف الشقة بعـد ان تنتهي من القهوة. وعـاد الى الكرسي الهـزاز. وأحضرت لـه الفنجان في أدب ووجههـا

جاد. وفي أقل من ثوان كانت الشقة كلها يغمرها الماء ولا شيء على أرضها، وكانت هي منحنية تنظف وتمسح في نشاط زائد. وكان وهو في مجلسه يلمح جسدها المنحني كلما أصبح في متناول بصره. وكانت سيقانها من الخلف بيضاء محمرة، ومن خلال ثوبها المتآكل كان يلمح بعض جسدها. وكان منظر تلك الدوائر من اللحم الحي وهي تطل من النوافذ المبعثرة في ثوبها تفور له دماؤه.

وقام من مجلسه واقترب منها مدعيا أنه يشرف على عملية التنظيف.. وأخذ يأمرها: الحته دي لسه.. كمان هنا.. وطي شوية عشان تطوليها. ووجهها الى الأرض وجسدها كله طوع نظراته.

وانتهت من عملها.

وسألته ان كان هناك شيء آخر؟ وأجاب بالنفي. وحينئذ سألته عن الوقت الذي يجب عليها أن تحضر فيه؟ وقال لها:

ـ كل يوم الساعه الثانية والنصف بعد الظهر.

وكان هذا مناسبا جدا، ففرغلي يذهب في الثانية.

وراودته نفسه أن يحاول معها محاولة أخيرة في ذلك اليوم، ولكنه خاف من فشل آخر فأجل المحاولة. ولفت هي الملاءة حول نفسها ومضت بخطوات قوية فيها مهابة وجلال.

وظل الأستاذ عبد الله يلعن ضعفه بعدما ذهبت. امرأة مثلها لا يقدر عليها؟! امرأة آتية بإرادتها، والشقة خالية،وهو مهما كان شاب ذو مركز، ولا يستطيع؟!

- ٣ -

وكانت تأتي بعد هذا في الثانية والنصف تماماً. وفي كل يوم يفكر. وفي كل يوم يؤجل. الى أن كان يوم وكانت تعيد تنظيم الفراش بناء على أمره(اذ كان جعفري يقوم بهذا في الصباح) وأطبق عليها فجأة وأخذها بين ذراعيه، وحاولت أن تتملص وتقول أنا في عرضك وأنا في طولك ووالنبي. ولم يأبه هو بهذا ولا لمقاومتها، وفي الحقيقة أتعبته كثيرا حتى أجبرها على السكوت.

وما كاد يجبرها حتى انتابته موجة فرح غامرة. وود ان يعرف ان كانت ساكتة لأنها لا تملك شيئا أمام قوته القاهرة ولا تستطيع دفعه، أو ان كانت ساكنة لأنها قد سلمت وخضعت أخيرا. فكف عن اجبارها ولكنها لم تقاوم ولم تدفعه، اذ ما الفائدة بعد كل الذي حدث؟!

وتركها.

وعاد اليها بعد قليل. كان يود أن يحدق في ملامحها القوية ويرى ما حدث لتلك الملامح، ويرى ما جرى للحمرة التي تلون وجهها. وفوجىء بعينيها محتقنتان وخدودها تلمح. وتضايق وسألها:

ـ مالك؟

وكان يتوقع ان تغمغم كعادتها بشيء مثل: ولا حاجة. ولكنها سكتت. فكش فيها:

ـ مالك؟! فيه ايه!

وحدقت في الفراغ وسكتت.

وهز كتفها هزة يختلط فيها قليل من الاشفاق بكثير من الضيق:

ـ مالك؟

فقالت:

ـ أصلي عمري ما عملتها.

وانهمرت الدموع من عينيها.

ولم يصدقها أبدا. تمثيلية قديمة أيضا تجيد أداءها تلك المرأة ذات الشخصية. تريد أن تضحك عليه وتوهمه أن تلك أول مرة. حسبته عبيطا أو ساذجا، أو لا بد تريد زيادة.

غير أنها لم تطلب زيادة في أجرها، ولم تسمح لعينيها بعد ذلك أن تلتقي بعينيه، كانت تحدثه وقليلا ما كانت تحدثه، وهي إما خافضة بصرها الى الأرض أو متشاغلة بشيء.

وكانت قد أعجبته. ولعل ما أعجبه في التجربة أنه أخذ كل شيء بذراعه هو. لم تكن نقوده ولا أدبه ولا مركزه هي التي انتصرت، كانت قبضته وقوته هي التي جلبت له النصر. وكان النصر

حبيبا لأنه قد أنهى به ذلك الصراع الخفي الذي دار في أعماقه بين صلابتها وضعفه، اذ إنه كان يحس على الدوام أنها أقوى منه، وأنها لو لم تكن خادمة وكانت سيدة صالون مدام شنـدي لما استطاع اليها سبيلا. كان النصر حلوا يغري بتكراره.

وفي المرة التالية كانت هناك مقاومة أيضا، ولكنها مقاومة اليائسة من المقاومة.

وتبـدأ الأحداث عاصفة ثم لا تلبث أن تؤوب الى هـدوء واعتياد. وكان وجود شهرت في البيت حادثا. . كان مجرد أن تظهر على الباب بملاءتها ويبدأ شبشبها يدق الباركيه شيئا يستيقظ له إذا كان متناوما، ويعتدل اذا كان جالسا، ويبدأ يفكر. . ترى هل يفعلها أو يؤجلها للغد؟ تراها كيف تبدو وماذا تقول عنه؟ وهل يعجبها؟ وهل يبدأ الآن أم الأنسب بعد تناولها الطعام؟ كان لا يستريح. وكان صوت الأطباق وهي تغسل، أو هفهفة المقشة وهي تعمل، أو اذا سألها سؤالا وهو جالس في حجرة بعيدة وجاء صوتها ذو الرنين الأنثوي المثير يجيبه. . ممدودا طويلا يلف أرجاء الشقة ويداعب أذنيه، كانت أصوات مثل تلك لا تنقطع، وكان وجيب قلبه لا ينقطع أبدا. كانت المسألة في نظره مغامرة دائمة فيها قلق الترقب ولذة المفاجأة. ولكن الأيام والأصوات ـ مهما كانت ـ فالانسان سرعان ما ينساها ويسلاها، وسرعان ما يعتادها ويصبح ما كان يجعله يقشعر لا يكاد يثير انتباهه بالمرة.

وكان كل همه أول الأمر أن يشل مقاومتها تماما حين يكون

معهـا. ثم انتهى عهد المقـاومة وأصبح الأمـر لا يكلفـه أكثـر من أن يمسـك بيدهـا مسكـة ذات معنى، أو يحـدثهـا عن أي شيء ويبتسم بركن فمه ابتسـامة محملة، أو يسـألها عن، أو يسـألها عن «صحتهـا» ويضحك. وكانت تحاول حينئذ أن تبتعد عنه، فإن كانت في الصـالة وأطبق عليها تملصت منه بخفة وتوجهت الى حجـرة النوم. ولم يكن يدري لم تفعل هذا وهي تعلم انه ان آجلا أو عاجلا سينالها؟ كل مـا يحـدث أنه كـان يستثار أكثـر، وبعد أن كـان بادئـا الأمـر على سبيـل المداعبة اذا به يتشبث ويقلبه الى حد يسارع في تنفيذه.

وكانت ما تكاد تلمح رغبتـه وتبدأ تـراوغ، حتى ترتسم على وجهها ابتسامة شاحبة فيها خجل ضعيف، قليل من الفتـور، وكثير من التسليم بالأمر الواقع والقضاء والقدر. غير أنه كان ما يكاد ينتهي منها حتى تنقلب هذه الابتسامة الى شيء آخر، وكأنما تسخر منه، وكـأنما تقول له: ولو!

ما كاد يصبح الأمر عادة حتى بدأ هو الآخر تفعـل العادة فعلهـا فيـه وينطلق على سجيتـه أكثر. كـان يتـرك نفسـه معهـا الى آخـر مـا تستطيعه نفسه. لم يعد يدقق كثيرا ولا يصطنع ابتسـامات. وأصبحت هي بـالنسبة اليـه شيئا كـالمرتبـة الحية التي يتمـرغ عليهـا ويتثـاءب، ويتمطى ويعري ساقه ويستريح. وحين بدأت العادة تفقـد التجربـة ما كـان لها من إثارة، بدأ يبحث عن إثـارات أخـرى. . بـدأ يهمس في أذنها بكلام وقح لتردده لـه، ويتعمد آن يكشـف عن نفسهـا كل غـطاء حتى يطلع على كل مكنوناتها، حتى تلك الأشياء القليلة التي تستحي

أي أنثى محترفة أن تفرط فيها.

وبعد أن سار في الطريق كثيرا، اقتنع آخر الأمر أنها لم تكذب عليه، وأنه كان أول رجل في ينالها بعد زوجها. ومن قد لا يقنعه الكلام فالتجربة والمشاهدات اليومية والتصرفات التي تحدث دون وعي؛ وتلك الأشياء الصغيرة التي لا يستطيع الانسان أن يضع لها اسما أو حتى يملك وصفها، هذه الأشياء تكشف على الندوام الحقيقة، وتقنع. وذات يوم سألها وهو يضمها اليه ويواجهها ليستطيع أن يستشف كل خلجة من خلجاتها:

ـ انتي بتحبيني يا شهرت؟

لم يكن يدري الدافع الذي حدا به الى هذا سؤال كهذا. ولكن السؤال على اية حال كانت له نفسه جذور قوية، ولم يأت صدفة أبدا مع أنه فوجيء بلسانه وهو ينطقه. كانت حاجة في نفسه قد ألحت عليه.

هذه المرأة لها زوج وأولاد. وهي حلوة، وتعرف أنها حلوة. وقد جاءت تدفعها الحاجة الى العمل، ثم نالها. وهو ينالها كلما أراد. أهي تقبل ذلك فقط لمجرد أنه سيدها ورب نعمتها كما يقال؟ أم لأنها تريده وتتمناه؟ وهل اذا كانت تريده، من أجل منصبه وعيشته الفاخرة أم من أجل ذاته والرجل الذي فيه؟

كانت هذه النقطة تؤرقه. كان يتمنى ـ ولو مرة واحدة في حياته ـ أن يكون رجل امرأة ـ أية امرأة ـ ولو كانت شهرت. وظل

يتلمس الشواهد. ولكن الشواهد لم تفده. إنها لا زالت تفرح كلما ترك لها باقيا من نقود. انها أحيانا تسأله أن يقرضها ريالا أو نصف ريال. هل الحاجة هي حقيقة ما تدفعها أم هي ترغب فقط في تغفيله وابتزاز نقوده؟ وهل مواظبتها على ارضائه هو من أجله ومن أجل رجولته؟ أم هو تماما كمواظبتها على تنظيف الشقة ومسحها؟

الشواهد لم تفده. أوقعته في حيرة، لا لأنها متعادلة الجوانب ولكن لأنه أيضا لم يكن يفكر في شهرت بكل ما حولها وبكل ما يربطه بها الا فقط في تلك الدقائق التي يريدها فيها. كانت حياته تمضي كما اعتادت ان تمضي. . العمل، والقضايا، والحيثيات المتأخرة، والبريدج، ومدام شندي، ولقاءات مع فتيات أخريات، ونزهات بالعربة وغيرها وغيرها مما يصنع حياته. كانت الأسئلة تشغل باله في تلك اللحظة التي يخفق قلبه ويدق حين يخطر في باله ذات لحظة أن ينالها. ولهذا لم تشغل الأسئلة تفكيره كثيرا.

ولماذا اللف والدوران؟ قل انه سألها لمجرد العبث أو لمجرد حب الاستطلاع، أو لأنه كان يتمنى فعلا أن تكون قد أحبته.

وسكتت شهرت أسبلت جفونها، وجفونها المسبلة ليست شيئا جديدا عليه. فبرغم ما في عينيها من جمال كانت لا تكاد تحدثه الا وجفونها مسبلة.

وضحك وضغط عليها وضحك وقال:

ـ هيه. . بتحبيني؟!

فابتسمت وتساءلت:

ـ هو اللي بيحب حد يقول له أنا با حبك؟

وخرجت كلماتها ساذجة بسيطة. ولا بد أن الكلمات البسيطة تنبع من الصدق لأنها تنفذ مباشرة الى النفس بطريقة لا يستطيع الانسان حتى أن يرجع اذنيه ليتشكك في صدقها.

وجعلته اجابتها يحتار. من أين أتت تلك المرأة بهذه الاجابة؟ انها تذكره بمحاورات سقراط وأفلاطون. هؤلاء الناس البسطاء كيف يفكرون بمثل هذا الصدق والحق؟ لو كانت متعلمة لكان قد قال لنفسه أنها لا بد قد قرأت تلك الاجابة في كتاب، ولكنها غير متعلمة بل هي لا تعرف القراءة والكتابة. وأعجبه الحديث فمضى يحاورها:

ـ ازاي؟ طبعا... لازم يقول له أنا باحبك.

فأسبلت جفونها وقالت:

ـ ده لما يقول كده يبقى عايز يضحك عليه.

ـ يضحك عليه ازاي؟

ـ الحب في القلب واذا طلع على اللسان يبقى مش حب.

وأعجبه الحديث جدا. ترى ماذا تعرف تلك المرأة عن الحب؟

وما الحب في نظرها؟ انه يقرأ عن الحب، ولكن الذين يكتبون عنه أناس مثقفون وحكماء. وهو يخوض المناقشات حول معنى الحب ومصدره والدافع اليه ولكنه يخوضها مع أمثاله من المتعلمين،

ويا لها من فرصة تلك التي أتاحت له أن ينـاقش امرأة خـام مثلها في الحب. وسألها:

ـ قولي لي يا شهرت. . الحب ده ايه؟

فانثنت وأشاحت بوجهها وقالت:

ـ يوه. . أنا عارفه بقى. . .

وأخذ يرجوها أن تجيب ويلح في الرجاء، فقالت:

ـ أنا عارفه. . . أهم طول النهار يقولوا الحب الحب.

فقال بعصبية:

ـ لأ. . . أنا عايز رأيك انتي. . . يعني في نظرك الحب ده ايه؟

ـ الحب ده حاجة من الله.

ـ يعني ايه من الله؟

ـ يعني لما ربنا لما يريد الواحد يحب.

ـ يحب يعني ايه. . يبقى عايز ايه. . يحس بايه؟

ـ والنبي يا بيه أصلك رايق.

وسكتت. وكان يبدو ان سكوتها لا لأنها لا تجد اجابة ما ولكن لأنها لا تستطيع أن تقولها.

* * *

والانسان قد يبدأ الشيء لمجرد التسلية، واذا به يتحمس له وينقلب الأمر الى جد خطير. وهكذا أثارت له تلك المناقشة مشكلة. انه لا يعرف زوجها، ولا حتى يذكر اسمه ولا يعرف ان كان صالح أو محمود. سألها عنه مرة وأحيانا تردده أمامه، ولكنه لم يعلق بذهنه.. بل انه لا يعرف ماذا يشتغل هذا الزوج. ولكنه زوجها على أية حال وخلف منها أطفالا ثلاثة، فلا بد أن بينهما شيئا. ترى ما هو؟

ولم يسأل الأستاذ عبد الله نفسه هذا السؤال الا لأنه كان قد وضع نفسه بين شهرت وزوجها. ترى هل تحبه أكثر من زوجها، أم تحب زوجها أكثر؟ مشكلة لو كان قد فكر فيها في أي وقت آخر لما كان قد أقام لها وزنا، ولكن في الظروف التي كان يدور فيها الحديث بينه وبين شهرت بدت المشكلة مهمة جدا في نظره. ولهذا قال لها وقد احتواهما الفراش:

ـ شهرت..

فقالت:

ـ نعم!

ـ انتي بتحبيني أكتر والا جوزك؟

خجل من نفسه حين نطق السؤال، وكاد يغير الموضوع، ولكنه ما ان نطق به حتى بدأ قلبه يدق وكأنه ينتظر نتيجة امتحان. أجل! هل تحبه أكثر من زوجها؟

وكان ما غـاظ الأستاذ عبـد الله أنها سكتت . . لم تفتح فمها. فقط اسبلت عينيهـا وابتسمت، وخجلت وسكتت. مـاذا كـان يعني سكوتها؟ بالتأكيد لو كانت تحبه أكثر لأخبرتـه ولو من قبيـل التظاهـر، ولكنها لم تجب. وملأه غيظ صبياني . . هذه الحقيرة ماذا في زوجهـا الذي لا يستطيع الانفاق عليهـا ويجعلها تفضله عليـه؟ أيحسم الأمر ويطردها، فعلا يطردها. ولكن الخطوة كبيرة ولا يستطيع تنفيذها الآن وهو قد تعود عليها، ثم إنها عرفت مزاجه وما يرضيه وما يسخـطه وهو يستريح لوجودها، ثم هذا الشيء الذي لا يمكنه تحديده والذي يشده اليها . . والمسألة مسألة زمن. لقد أمضت مع زوجها سنين ولم تقض معه سوى أيام معدودات. لا بـد أن يعلمها كيف تحبـه، هذه المـرأة ذات الملاءة اللف الغلبانة ألا يستطيع أن يعلمها كيف تحبه؟

وأمضه التفكير في هـذا. كيف يجبرهـا؟ كيف يستولي عليهـا؟ كيف؟

وازداد غيظه حتى كاد ينفجر.

ولكنـه لم ينفجر، بعـد ساعـة واحدة كـان جالسـا الى المكتب غارقا في خضم أربعين قضية عليه أن ينظرها في الغد، وقد نسي كل شيء تقريبا عن شهرت وزوجها والمشكلة الي أثارها بنفسه، حتى إنه حين أمر شهرت أن تعد له فنجانا من الشاي أمرها بنفس اللهجة التي يستدعي بها فرغلي شاهدا من الشهود.

- ٤ -

كـانت التجـربـة في أول الأمـر يلفهـا التـزمت والجـد، يستدعيها بخطة وإصرار ويرهب وجودها، ويرهقه ذلك الوجود وتشغل باله كل حركة من حركاتها. غير أن الموضـوع كله لم يلبث أن أصبح عادة، ثم أصبح عادة مملة.

لم يعد في وجه شهرت ما يخيف أو يجبر على الرهبـة، أصبح وجهها وجه امرأة عاديـة تحت أمره في كـل وقت وكل لحظة وأصبح جسدها في يده كالـورقة المهملة التي يستـطيع متى شاء أن يكورهـا ويلقيها في سلة المهملات.

وحين وصل الأمر إلى هـذا الحد امتـلأت نفسه بنشـوة الفوز. لقد انتصر! ولم يعد يفكر في شهرت كثيرا أو قليـلا. أصبح وجـودها في الشقة شيئا عاديا مثل «الفاز» المـوضوع في ركن «الأنتـريه»، كـل الفرق بينها وبينه أن زهور الفـاز تتغير كـل يوم أمـا شهرت فمـلامحها كالزهور الصناعية التي لا تذبل ولا تنضر ولا يتغير تفتحها.

غيـر أنه في أحيـان قليلة جـدا كـان يسـاءل نفسـه: تـرى هـل انتصاره هذا حقيقي؟ ترى هل استحوز على شهرت تماما؟ تـرى هل

أنساها زوجها وأحبته؟

في معظم الأحيان كـان لا يحفل بـالاجابـة على تلك الأسئلة. الأمر لم يعد يهمه، فحتى لو كان قد أخذها كـليـة أم لا تزال لغيـره، فسيان. ولكنه في نـوبة من نـوبات تلك الأسئلة تحمس وشغله الأمـر حينا فقرر أن يجري تجربة.

قرر أن ينقص ماهية شهرت، فإن كانت قـد تعلقت به فستقبـل الأمـر حتمـا، فـإذا لم تكـن فستتـركـه. ولـم يخـالـجـه أدنى خـوف أن تتركـه، بل كـان في الواقـع يتمنى أن تتـركـه.. وقـد بـدأ كلما سأله فرغلي متملقا عن الحال يعقد وجهه ويحـدثه عن أخـطائها الكثيرة، ويحوم حول عيوبهـا، وملاءتهـا، وعدم قـدرتها على القيـام بعبء الأعمال في البيت.. كان يريد شيئا جديدا.

وفي أول الشهر نفذ الفكرة وأنقص جنيها. واحمر وجه شهـرت وهـو ينهي اليها بـالخبر.. احمـر جدا حتى خيـل اليه أنـه لأول مـرة يشـاهد احمـرارا حقيقيا في وجـه. احمر وجههـا وتلقت منه المـاهية ووضعتها في حافظتها الصغيرة الكالحة ولم تنطق بحرف.

وفي ثاني يوم لم تحضـر. وقلق الأستاذ عبـد الله وأنبه ضميـره قليلا، ولكنه لـم يشأ أن يؤلم نفسه أكثر فنفض عن نفسه مهمة التفكير والتـأنيب وقرر أن يـطلب من فـرغلي أن يبحث لـه عن«طلب» آخـر، ولكنـه نسي أيضـا أن يكلم فـرغلي، اذ كـان تلك الأيـام قـد شغله مـوضوع مهم.. فقـد رأى نانـا ذات مساء خـارجـة من سينمـا راديـو بصحبـة شاب، وظـل يتتبعها ويسـأل ويستقصي حتى عـرف كنـه مـا

بينهما من علاقة. وحينئذ تجدد كل ما دار بينه وبين نانا بشكل حاد، وأصبحت استعادتها هي كل ما يشغله.

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة كان عائدا الى بيته داخلا بالعربة الى الجراج الذي يحتل بدروم العمارة التي يقطن فيها، واذا به يجد شهرت جالسة على الأرض بجوار باب الجراج.

لمحها وتضايق، وقرر أن يتجاهلها ولهذا صعد من الباب الصغير الذي يصل الجراج بمدخل العمارة مباشرة، ولكنه وكما توقع تماما سمع الجرس يدق بعد دخوله الشقة بقليل.

وفتح وكانت شهرت. وابتسم ابتسامة صفراء وسمح لها بالدخول.

لم تتكلم هي، وكان لا يدري ماذا يقول. وراح يراقبها باستخفاف وهي تمضي الى المطبخ وتخلع ملاءتها وتعمل.

كان جالسا في حجرة المكتب فنادى عليها وجاءت. وصحيح أنه كان خجولا ولكنه أصبح لا يخجل من شهرت، بل انها الشخص الوحيد في العالم الذي أصبح لا يخجل منه أبدا قال لها:

ـ جيتي؟

فأجابت وهي تنظر الى أصابعها المبللة:

ـ واحنا نقدر نستغني.

فازدادت جرأته وقال:

ـ مال كنتي مشيتي ليه؟ عشـان الفلوس نقصت يعني؟

وتملكته وهو ينطق السؤال بعض المرارة، فقد تذكر أن انقاص الماهية كان امتحاناً لتمسكها به وأنه فشل في الامتحان. وأجابت:

ـ أصل البنت كانت عيانه وخدتها المستشفى.

ورأى في اجابتها كذبا لا يوصف.

غير أن نسمة اشفاق هبت، لعل مبعثها كانت مـلامح شهـرت. كانت شاحبة بعض الشيء ووجهها يلمع وفيه استسلام وملامحها كلها ذابلة ومدلاة الى أسفل، وكأن كرامتهـا قد استحـالت الى سائـل ذليل يقطر من أنفها وفمها وذقنها. . فقال لها:

ـ هي التلاته جنيه مش كفايه والا ايه؟

فقالت:

ـ نعمه. . . بس منعم أصله ساب الشغل.

ـ منعم مين؟

ـ جوزي.

ـ آه. . وساب الشغل ليه؟

ـ بيقول توفير والا مش عارفه ايه.

ـ هو بيشتغل ايه؟

ـ دباغ.

ـ دباغ ايه؟ . . فين؟

ـ في المدبغة في المدبح .

وزام الأستاذ عبد الله ولم يجب، وأحس في التو بكره هـائل لا يدري لمن يوجهه. وكلما نظر اليها ورأى الشيء الـلامع يتسـاقط من ملامحها ورآها مستكينة، ووراءهـا زوج عاطـل وأولاد، كان يـزداد ما يحس بـه من كره وغثيـان. ويبلغ الغثيـان مـداه حين علم أن زوجهـا يعمـل في مدبغـة، وتختلط في ذهنه أشيـاء. جلد قذر ورائحـة بهائم وغراء وعناق شهرت وفراشه، فينفجر

ـ طب روحي .

ومضت عنه .

ولعن الأستـاذ عبد الله نفسـه مرارا بعـد هذا الحـديث فقد جـر عليـه مشاكـل. كانت المـرأة أول الأمر مغلقـة لا تفتـح فمهـا بكلمـة فبدأت تشكو. اليوم زوجها عثر على عمل في محل ألبان، وغدا ترك العمل، والبنت عندهـا حمى وإسهال، البنت مـاتت، صاحبـة البيت تطاردهم ودوشة كبيرة جرها على نفسه بلا أدنى سبب .

وأصبحت شهرت عالة .

وأصبح التخلص منها ضرورة.

ولكنه خجول، وليس هذا كله شيء فهو انسان على اية حـال، وهل يقبل على انسانيته وهم يجتازون هذا الكـرب؟ من أين يأكلون؟

كان عليه أن يحتمل والاحتمال له حدود، لذلك كـانت ما تكـاد تفتح فمها بالشكوى حتى يقفله.

ثم إنه رجل وشهرت لا تزال المرأة التي أعجبته يـوما ولا تـزال أمـامه مشـاكل الجسـد رغم أنـه يـأنف من عمـل زوجهـا السـابق في المدبغة.

وفوجىء الأستاذ عبد الله ذات يوم بضحكة.. ضحكة رنت في أذنيه رنينا غريبا مختلطا أذهله وحيره.

كانت شهرت رغم كل ما مـر بينها وبينـه امرأة ذات وقـار. كان يراها دائما في ملاءتها.. جسدهـا ملفوف وقـامتها طـويلة ولا انبعاج في أعضـائها أو تـرهل، وكـان وجهها جـادا في أغلب الأحيان ولكنـه ذلـك النـوع السمـح من الجـد، وفي أحيـان قليلة كـانت تبتسم.. ابتسامة كل ما تفعله أنها تزيد السماحـة في وجهها وتدفـع ببريق معين الى نظراتها.

وكان رغم كل ما بينه وبينهـا يكن لها نـوعا من الاحتـرام كانت هي بالتأكيد مبعثه. فلا يذكر أنها لوثت لسانهـا مرة بخـطأ، ولا قللت من احترامها لـه، ولا طلبت منه مـطلبا بـاهظا، وكـانت مطالبهـا كلها متواضعة بسيطة ولا تلجأ الى سؤاله الا في أحوال نادرة.

غير أن تلك الضحكة أزعجته. كانت فيها ميوعة واستهتار وهـو لم يعهد فيها ميوعة أو استهتارا. ونادى عليها:

ـ يا شهرت.

ـ نعم .

ـ وخيل اليه أن«نعم» تخرج أكثر طراوة من فمها .

وجاءت . لم يدر ماذا تقول يقول لها أو لماذا ناداها . ووجد نفسه يسألها ان كانت تخلصت من الصرصار الذي في المطبخ ، وكان قد رآه وأمرها أن تقتله . وابتسمت له وقالت وهي تتدلل :

ـ ده لقيته لايف على صرصراية .

وأطلقت ضحكة رفيعة ، واشمأز منها وحدق فيها ، وخيل اليه انه يلمح في وجهها أشياء لم تكن موجودة ، أو أن وجهها ينقصه شيء كان موجودا . كانت أيام أن جاءت امرأة مصرية بلدي تنظر في وجهها فلا تجد فيه غير زوجة لها أولاد ، واذا به يراها الآن . . أجزاء قد غارت من ملامحها وأجزاء برزت ، وعيناها داخلتان في وجهها وحولهما دوائر وعلامات غير بريئة ، علامات تدل على تحول أصابها . حتى ابتسامتها لم تعد بسيطة ساذجة كعادة ابتسامتها ، أصبحت تحمل جزءا صناعيا ملحقا بها ومفتعلا .

وراعه ما وجده من تغيير .

وظل الأمر يشغل باله . هل هو مسئول عما حدث؟ وهل هو فعلا الذي أحدث فيها هذا التغيير؟ وهل هو الذي انهال على ملامحها المخلصة المتزوجة فأحالها الى ملامح امرأة تباع وتشترى؟

وفي الواقع أحس بنفسه مسئولا ولكنه تجاهل احساسه بتأنيب

الضمير. ان الانسان لا يؤنب نفسه الا اذا خاف من عقاب يتبع فعلته، وهو لم يكن خائفا من أي عقاب.

السبب الحقيقي الذي شغل باله كان شيئا بدأ ينهش صدره.. خوف غامض محير. ترى هل وحده هو وحده المسئول عن ذلك التغيير أم ان شهرت قد أنشأت علاقات أخرى مع أناس آخرين. أحس بالغيرة.. غيرة من نوع مطروق. ليست غيرة الحبيب على الحبيب ولكنها غيرة السيد على خادمته، أو غيرة السيد على نفسه. كان خائفا جدا أن تكون شهرت قد ساوته بصبي مكوجي أو بائع خبز، ولهذا كان قلقا، ولهذا تزايد قلقه.

وفيما توالى من أيام كان لا ينظر الى شهرت الا والشك يملأ عيونه. واذا أرسلها الى قضاء حاجة يستجوبها بدقة بعد أن تحضر، ويحاول أن يستغل فراسته كوكيل نيابة سابق وكل معلوماته عن علم النفس الجنائي لإدراك ما اذا كانت تخدعه أم تقول له الحقيقة.

وكان يسمعها تتضاحك أحيانا وهي تصعد السلم فيسألها حين تدخل، مع من ولماذا كانت تضحك؟ ثم ينتهز أول خطأ ويعاقبها بشدة.

وكان يعجب ويستغرب فقد تحولت شهرت.. كانت أول ما جاءت لا تكاد تستطيع أن ترفع عينيها في وجهه فاذا بها الآن كلما نهرها حدقت فيه وغضبت ولولا بقية من حياء لقالت: وأنت مالك؟ ثم بدأ يلاحظ أن قسوة ما قد صارت لها، وأن شخصيتها تخمد فيها

روح الزوجة الأم وتتصلب وتأخذ شكلا فيه حدة وعصبية وجمود. كانت تناقشه وهي التي لم تكن تجرؤ على نقاشه، وترد على حججه بحجج. وكان يلعن ضعفه، وأحياناً ينتهز نفسه ويسألها: ما الذي يمنعه من طردها؟ ولكنه منذ أن بدأت تقوى بدأ ينكمش، وأحيانا لا يستطيع الاستمرار في مناقشتها.

هل كان خائفا منها؟

هل كان يخاف إن هو أغضبها ان تفضحه مثلا وتسود سمعته؟

أم كان فقط يخجل من مجابتها وهو العليم بلسانه المتواضع؟ لعله كان يخجل. ثم انها كان لها منطق، ومنطقها كان دائما قويا دامغا. كان هو يعتمد في مناقشته لها على أوهام وافتراضات وتخمينات مبعثها ما يدور في رأسه عن سلوكها، وكانت هي تعتمد على حقائق تكاد تدفعها في وجهه دفعا.

والغريب انها كانت كلما اشتطت في موقفها منه ازداد هو أدبا، بل أحيانا كان يتملقها. لا لم يكن ذلك النوع من الملق الذي يزفه كعادة المرؤوسين للمفتشين وكبار رجال الوزارة الذين كانت تربطه ببعضهم العلاقات. لا، نوع آخر أكثر تخفيا. مثلا بدأ يسألها عن زوجها بشكل منتظم وعن أولادها. وكان الزوج يحيره.. كانت شهرت لا تكف عن الشكوى منه وتلعن اليوم الذي دخلت فيه بيته، وسب كسله وخيبته. ولكنها كانت تتلفظ بالشتائم من فوق لسانها فقط وكأنها تنهر ابنها البكر ولا تعني ما تقول. كان أياما يعمل وأياما كثيرة لا يعمل، وهي على الدوام تعمل. وأولادها باستمرار موضوعا مفضلا

لأحاديثها، وهي المسئولة عن كل شيء أمام صاحب البيت. وحتى أمام صاحب العمل الذي يشتغل عنده زوجها. ويعمل زوجها بمسمط يوما، وفي يوم يوزع جبنة على الزبائن، وأحيانا قهوجي، وأحيانا تجهز له هي عجينة الطعمية ويقف على رأس حارتهم يقليها ويبيعها. وكان يأخذ له في كل عمل يومين ويولي. وكان الأستاذ عبد الله يتولاه الذهول كلما فكر في تلك العائلة التي تحيا معلقة بين الأرض والسماء، ويتساءل.. ترى كيف تحيا لو لم تكن شهرت تعمل عنده؟ ولكنه يفكر في كل ذلك كما يرثي الانسان لزلزال يحدث في الملايو ويطيح بالقرى. رثاء.. مجرد رثاء يقضي عليه الملل الذي بدأ يتسرب اليه من شهرت ومشاكلها وعائلتها.

وجاءته في منتصف شهر تطلب منه جنيها، ولم يكن صدفة أن تطلب منه في ذلك اليوم التالي ليوم نالها فيه. وحز طلبها في نفسه وسألها:

ـ كم؟

فقالت وهي تضحك وتتمادى وتتدلع:

ـ سلف.

ورمقها فوجدها تنظر اليه بعينين لا تردد فيهما ولا خجل. فخجل وأعطاها الجنيه. وصمم أن يكون هذا شهرها الأخير. وقال لها بابتسامة فاشلة:

ـ وتجيبيه امتى؟

فأجابته:

ـ نقسطه .

وأعقبت اجابتها بضحكة ارتعشت لها أذنه .

وفوجيء بها بعد أيام وقد حضرت لأول مرة دون ملاءة .

كانت ترتدي«جيب» من قماش كاروهات رخيص، ولكنه جديد، وترتدي فوقه خرفة قديمة ممكن تسميتها مع كثير من التجاوز «بلوزة»، ولم يكن يغطي شعرها شيء. كان رأسها عاريا، وكان ثمة أحمر خفيف ـ لعله صنع بقلم كتابة أحمر ـ على شفتيها. وكان منظرها يبعث على الاشمئزاز.

كان الملاءة تضفي عليها جدا وتجعل لها منظر الأم. أما هذا الزي، صحيح لم يكن فاضحا ولكنه ليس رداء أم بأية حال من الأحوال. ثم إن رأسها حين كشفته غير من وجهها وشعرها، وأظهر ما كان خافيا في وجهها وشعرها وأصبح لملامحها تعبير عمومي. كانت ملامحها فيما مضى لها طابع خاص ونكهة تميزها عن أية امرأة أخرى، ولكنها بدت مجرد امرأة ذات شعر خشن لم ينسكب عليه طلاء أو نعمه زيت، وقد أصبح مفضوحا لا يحجبه منديل ولا تحفظ عليه كرامته ملاءة.

وقال لها باستغراب حقيقي :

ـ عملتي في نفسك كده ليه؟

فأجابته بصوت كأنما كشف عنه الغطاء هو الآخر فأصبح مبحوحا ذا نبرة غريبة :

ـ أصليَ بانكسف من الملاية لما باجي العماره.

وأضافت وهي تخطر أمامه:

ـ مش كده أحسن؟

قالت هذا وهي تنظر إليه عبر كتفها وتلتفت خلفها بعينين فيهما نفس الجرأة والاستهتار.

ومط شفتيه علامة اليأس وقال لها:

ـ جوزك يا ترى قال ايه؟

وطرقع شيء في فمها وقالت:

ـ يا أخي دا اهدى.. هو حد بيشوفه.

ـ ليه سافر والا ايه؟

فقالت وقد تغيرت ملامحها:

ـ بقاله بسلامته تلات أشهر قاعد في القهوة.

ـ ليه.

ـ فنش شغل..

وضحكت ضحكة ذات شهقة، وقالت وهي تغير الموضوع وتخطر أمام مرآة الأنتريه:

ـ مش بذمتك أحسن من بتوع السيما يا بيه؟

وأقسم في سره أن يكون هذا شهرها الأخير..

وعوجت وسطها وقذفت بيدها في حركة تمثيلية متراخية على وجهها في المرآة وقالت:

ـ مش أنفع يا بيه اشتغل في السيما؟

ومضت تصنع «البوزات» وتعقص رقبتها. ولما لم يرد قالت وكأنما ترد على نفسها:

ـ الناس بيقولوا اني أنفع في السيما.

- ٥ -

وثاني يوم حضرت بالملاءة. وسألها عن السبب وهو يضحك بسخرية. فقالت وهي واجمة أن البلوزة التي كانت ترتديها لا تصلح وأنها في حاجة الى بلوزة جديدة، وقد اشترت القماش ولكن يلزمها جنيه آخر للترزي.

وصمم أن لا يعطيها أي مليم. صمم والأمر يشغله.. ترى لماذا هذا التغيير؟ ولماذا تصر على ارتداء ملابس كتلك وهي تبدو أجمل بالملاءة. ولم يفترض حسن النية وهو يجيب واستمر يتساءل: ترى ماذا تفعل بعد انتهائها من عملها عنده؟ وكيف يأكلون؟ لا بد أنها تخرج في الشارع، وذوي الملاءات لا بد أن سعرهن قليل ولهذا تريد الجيب والبلوزة ليرتفع ثمنها.

ومع يقينه في صدق ما يخمنه الا انه راح يستنكر أن يكون ما يفترضه هو الحقيقة. ولم يشأ أن يتعب نفسه.. كانت شهرت بالنسبة اليه قد انتهت. بضعة أيام فقط ويطردها بلا رجعة، فلتفعل ما يحلو لها.

وألحت في اليوم التالي وهي تطلب منه أن يقرضها الجنيه

مـدعيـة أن البلوزة قـد تم تفصيلهـا. ورفض بجفـاف. كـانت قـد استنفدت كل ما لها من نقود. وأي سلف لن يسترده، وهـو قد صمم على ازاحتها ولن ينتظر إلى آخر الشهر. . غدا يقول لها مع السلامة.

ولكنه كان يحدث نفسه بهذا كل يوم. وكل يـوم ينسى. يخرج من الشقة في الصباح وفي نيته أن يفعل، ثم يهبط الى الجراج ويدور حول العربة ويتأكد من نظافتها، ولا بد أن يجد فيها شيئا يستحق أن يلوم صبي الجراج من أجله. ثم تتهادى به العربة الى المحكمة، وما أن يصل حتى تدب الحياة في بنائها. تحيات من اليمين ومن اليسار، وقيام وقعود، وهـرولة وهـرجلة. وفرغلي مـا يكاد يلمـح العربـة حتى يقبل لاهثا ويفتح بابها وينحني ويلفع الشنطة ويتبعه من بعيد، والناس من حـولهمـا راكعـة الـرءوس ولا مجـال للكـلام. ويـدخـل حجـرة الانتظار. . بعض القضايا لم يكن لديه مجال في وقت لمراجعتها وقد أشبعها تأجيلا ولا بد من مراجعتها قبل بدء الجلسة. ويدخـل الكاتب عجوزا وله منظار وبطؤه أكثر كآبة من منظاره، ويأخذ أكثر من خمس دقـائق ليقول صبـاح الخيـر ويتلكـأ، وتـأتي القهـوة ويفـرد دوسيهـات القضايا. ويحس بالوقت يمضي بسرعة والساعة تقترب اقتراباً جنونيـاً من العـاشرة، والجمهـور في القاعـة يتململ وقـد بـدأ يسمـع بـأذنـه أصوات الاستنكار والهمس الخافت حين تعتريه موجات ارتفاع فيغادر مكتبه. وفرغلي واقف على الباب وتدوي كلمتـه: محكمة! تكـاد من فرط علوها وصلابتها أن تصنع قوس نصر ينفذ من تحتـه القاضي إلى كرسيه.

وتبدأ القضايا.. سريعة متلاحقة يهتم بتتبعها أول الأمر، ثم يؤجل تتبعها ويسرح أو يحدق في وجه أعجبه أو لم يعجبه لشاهد من الشهود، أو يستثقل دم محام، أو تطرق باله أحيانا فكرة أن يستقيل من الحكومة ويعمل محاميا.

وينتهي اليوم، وتمضي به العربة ويتركها على باب الجراج ويصعد. وما أن يفتح الشقة ويجد ملاءة شهرت راقدة في الأنتريه كالراية السوداء حتى يذكر أنه نسي أن يفاتح فرغلي في أمر طردها.

ويصمم أن لا ينسى في اليوم التالي.. وينسى في اليوم التالي.

انتهى الأستاذ عبد الله من سرده وهو يخبط كفا على كف. كانت المسألة في غاية الوضوح. . شهرت أخذت الساعة لتبيعها وتدفع ثمن البلوزة بعدما رفض اقراضها وبعدما أحست أنه ينوي طردها. وكانت المسألة من كثرة وضوحها تدعو الى الغيظ. لماذا الساعة بالذات؟ ولماذا اليوم بالذات.

وكان شرف لا يزال ممددا قبالته يستمع، ويبدو أن طول ما رواه عبد الله قد عمل عمله فجعل عقل شرف يسترخي. كان جالسا يكاد يكون لا حول له ولا قوة.

وبلغ الغيظ بالأستاذ عبد الله منتهاه وقد أحس بنفسه يجابه الموقف وحيدا. جاء بشرف ليعينه فاذا به فاتر الحماس والأمر لا يكاد يهمه. خادمة مثلها تأخذ ساعته عيني عينك وهي تعلم أنه حالا سيعرف. انها ليست سذاجة منها أن تفعل ذلك، إنها وقاحة وتحد. وانفجر يحدث شرف ويتحول كلامه الى صياح. كان منفعلا وكأن كرامته هي التي سرقت، وامرأة فاجرة هي التي سرقتها لتحترف بها. إنه لن يسترجع الساعة فقط ولكن شهرت لن تنفذ من

يده.. سوف يريها أنه ليس بالضعف والطيبة التي تتصورها وأنـه ليس من الطير الذي يؤكل لحمه.

وأخذ الرجلان يكدان تفكيرهما ويتشاوران فيما يمكن عمله.

شرف جالس ممدد الساقين.

وعبد الله يروح ويجيء ولا يستقر في الحجرة.

كان يومها يوم الأحد وهو اليـوم الذي تعـودت شهرت أن تـأخذ فيه اجازة، وهي لم تتعـود، هو في الحقيقـة الذي عـودها. لم يفعـل ذلك أول ما جاءت بل هـو تقليد وضعـه مؤخراً بعـدما ضـاق بشهرت ولم يعـد نوالهـا يكفي شغفه، وأصبـح لا بد من العـودة إلى الطريقـة القديمة وإخلاء الشقة لزوار آخرين.

وفكر أول ما فكر أن يبلغ البوليس، ولكنه راجع نفسه، وراجع كـل ما نـظره في حياتـه من قضايـا وكل مـاسمـع عليـه فلم يجـد أن البوليس قد أفلح مرة في اعادة مسـروقات صغيـرة كتلك. ما أن يبدأ البوليس يتدخل حتى تغوص المسروقات في سابع أرض، وليس هذا كل شيء، فإبلاغ البوليس يحتم عليه أن يقر ـ وهو القاضي الأعزب ـ أنـه يستخدم عنـده امرأة. ثم قـد تتوقـح شهرت وتفلت منهـا ألفاظ، ولهذا كان من المستحيل عليه أن يبلغ البوليس.

وكـان فرغلي أول من خـطر له هـو مفتـاح القضيـة. لا بـد من استدعائه وشرح ما حدث له وتحميله المسئولية باعتبار أنه ولي أمـرها وهـو الـذي أحضـرهـا. ثم عليهـا بعـد هـذا أن يكلفه بـاستـدراجهـا والحصـول على الساعـة منها. ولكن شـرف لفت نـظره الى شيء..

شهـرت ليست بالسـذاجة التي قـد يتصورهـا ولن تقع هكـذا من أول هجوم. ثم من يدري؟ لعل حب الاستطلاع يدفع فـرغلي الى توجيـه أسئلة مـا تؤدي الى أسئلة أخرى. لا بـد أن يكون هو المتحدث اليها بنفسه حتى يستطيع أن يرد في الوقت المناسب ويزن الأمور.

ولكن. . . كيف يقابلها؟

هي الآن في بيتهـا ـ والساعـة الثـالثـة ـ وهـو لا يعـرف بيتهـا. فرغلي هو الـذي يعرفـه، وفرغلي الآن في بيتـه، واذا صبر الى الغـد فلن يضمن بأي حال أن تبقى الساعة تنتظره. إنه مؤمن ايمانا راسخـا أن لو أمكنه بطريقة ما أن يفاجىء شهرت في بيتها الآن فسـوف تروع وتعتـرف وتناولـه الساعـة. ولم يفلح شـرف في زلـزلـة هـذا الايمـان واضطر في آخر الأمـر الى متابعـة أفكاره والى أن يبحث معـه مشكلة العثور على فرغلي.

وظـل عبد الله يعمـل فكره. وتـذكـر شيئـا. . تـذكـر انـه نسي المفاتيح مـع فرغلي مـرة ثم استطاع العثـور عليه وعلى بيتـه واستعاد المفاتيح بطريقة ما. ما هي تلك الطريقة؟

وكان الرجل في قمة تـوتره، كـان عقله يعمل بسـرعة وقـوة لم يعمـل بها منـذ سنين، وذهنه حـاضر لامـع متدفق، وثمـة دافع جبـار يتفجر في نفسه ويغـذيه بـالنشاط ولا يكف عن تغـذيته. كـان كقائـد جيش يعـد للهجوم في الفجـر ويعمـل حسـابـا لأدق الاحتمـالات. وتـذكرا أمـرا. . صبي الجراج. تـذكر أنـه كانت لـه علاقـة باستعـادة

المفـاتيـح. وفي الحـال استـدعى البـواب وأمـره أن يستـدعي صبي الجـراح. واستمر يـروح ويجيء حتى دق جرس البـاب ودخل الـولد وفي أعقابه البواب الضخم الأسمر.

كـان الصبي شابـا قمحي اللون مهلهل المـلابس يبـدو الـريف على سيمـاه، بل يبـدو أنه هـارب من أهله في الريف. وظـل الأستاذ عبد الله يسألـه على الأقل خمس دقـائق قبل أن يستخلص منـه شيئا. كان يبدو على الشاب أنه مروع باستـدعائـه أمام القـاضي، مذهـول بالشقة والناس المتطلعين اليه.

وأخيرا هدأ الشاب بعد أن حاول ابتلاع ريقه الجاف وكاد يبتلع حنجرته. وسأله عن فرغلي، وأنكر الولد انكارا تاما أنه يعرفه أو له به صلة. وحـاول القـاضي أن يستـرضيـه بسيجـارة ولم يشـأ أن يـزيـده اضطراباً ويأمره بإشعالها أمامه، وعاد يسأله وهـو يطمئنـه ويربت على كتفـه. وبعد جهـود اشترك فيهـا شـرف والبـواب، تـطوع الشـاب أن يحاول تذكر بيت فرغلي والبحث عنه. وكي تتوفر السرعة الواجبة أمر القاضي البواب أن يستصحبه ويأخذا تاكسيا ولا يعودان إلا بفـرغلي. وأعطاه جنيها يدفع منه مصاريف الانتقال.

وافتـرض الأستـاذ عبـد الله أن فـرغلي قـد جـاء ومضى يكمـل الخطة.

إن الموقف صعب. فرضنا أنه عثر على شهرت وواجههـا. هل يضمن نفسـه؟ انه هنـا ـ وهي في بيته وهي خادمته ـ كـان في أحيـان

كثيرة لا يستطيع أن يبقي عينيه في عينيها طويلا، فما بالك في ظروف كهذه؟ ولم يستقر الخاطر في ذهنه لحظة. كان الغضب يجتاحه ويؤكد له أنه قادر على مواجهة مائة شهرت وأنه ما أن يراها حتى يصبح في امكانه أن لا ينتزع منها الساعة فقط ولكن ينتزع روحها أيضا.

ولكي يطمئن كان لا بد له من الاستعانة بأمر آخر. اذا عن لها أن تكابر وتنكر، واذا استطاعت أن تتماسك أمامه فلا بد من تهديدها. وهو لا يملك وسيلة لتهديدها سوى تخويفها بالبوليس والسجن. ولكي تخاف من البوليس يجب على الأقل أن تراه بعينها. وهو يعرف معاون بوليس قسم ثان الجيزة، وممكن أن يستصحبه الى بيتها فقط لمجرد تهديدها وإخافتها. ثم إن معاون البوليس هذا شاب مرح لطيف يستطيع أن يشرح له الأمور اذا تفوهت شهرت بأقوال تشين. ولكن ماذا لو رفض المعاون أو اعتذر، وبيت شهرت بالتأكيد ليس من اختصاصه.. الا يكون قد كشف نفسه دون داع؟

ولا يدري كيف ساورته الفكرة، ولكنه صافح شرف في التو وهو يهنيء نفسه على ذكائه واكتشافه حلا عبقريا. لكاذا لا يقوم شرف بدور الضابط، والاثنان يتعاونان على اعادة النظام الى شعر شرف المهوش حتى تصلح رأسه لضابط.

ودق الجرس.

وخرج الأستاذ عبد الله ووجد فرغلي واقفا يلهث وقد رفض

البواب ان يجعله يصعد في الأسانسير وجاء به من يده عن طريق سلم الخدم. وفرغلي ببدلته الواسعة القديمة المعتادة، وطربوشه الغامق المائل والعرق ينز من وجهه. وفي كلمات مقتضبة قليلة أنهى اليه القاضي بما حدث.

وما كاد فرغلي يتحقق حتى تراجع الى الوراء كالمذعور، وقال وهو لا يزال يلهث:

ـ ازاي؟ ازاي؟ ازاي بنت الـ . .

وظل يردد الجملة لا يغيرها وثلاثتهم يهبطون السلم.

وركبوا العربة.

القاضي أمام عجلة القيادة في المقدمة، وشرف بجواره، وفرغلي جالس على أطراف الكرسي الخلفي يكاد يقف لو كان سقف العربة يسمح. وكان هو أيضا الذي يتكلم طوال الوقت أو بالأحرى يسب ويستنكر ويعد القاضي أنه سيخرب بيتها وييتم أولادها، ويطردها من الحتة.

وكان فرغلي يتكلم عن «الحتة» كما لو كان القاضي يعرفها. وسأله الأستاذ عبد الله عنها فقال فرغلي بلهجة الواثق:

ـ جنب حارة الروم على طول.

وعاد القاضي يسأل وفرغلي يجيب بأسماء لم يسمع عنها القاضي ولا حتى شرف. وأدرك الاثنان أخيرا أن «الحتة» التي يقصدها فرغلي هي الحارة السد التي تقع في مكان ما وراء الجامع الأزهر.

بـدأ الأستـاذ عبـد الله الـرحلة وهـو في قمـة انشـراحـه. ضمن الوصول الى شهرت، وضمن المفاجأة، وضمن العثور على الساعة، وضمن الخـطة. بدأ الـرحلة تمامـا كالتلميـذ المجتهـد الـذاهب الى امتحانه وهو متأكـد من النجاح وعلى وجهـه اشراقـة النصر. ولم يكن منشرحا فقط بـل كان أيضـا نشوان، ففـوق أنه سيستعيـد ما أخـذ منه غدرا، فقد كان في الطريق الى اختبار ذكائـه ومقدرتـه على التفكير. والمغـامرة في حـد ذاتها لـذيذة.. مغـامـرة جـديـدة رائعـة أن يضبط شهـرت بنفسه ويضبـطها متلبسـة، ويراقب انفعـالاتها بـدقـة، ويـرى ارتباكها ورجفتها وانكارها. أو قد يحدث حادث مفـاجىء لم يعد لـه حسابا ولكنه لا بد سيكون ممتعا وسيكون التغلب عليه أكثـر امتاعـا. المغامرة رائعة حافلة في كل خطوة منهـا متعة، وفي روايـة تفاصيلهـا بعد ذلك لأصدقائه سعادة.

الأحاسيس الدافئة كانت تملؤه والخواطر السوداء كان يـطردها. فقـد لا تكون شهـرت هي السـارقـة رغم دقـة ذكـائـه، أو تكـون قـد تصرفت في الساعة، أو يفشل في مواجهتها ومفاجأتها.

وتتآمر عليه عشرات الاحتمـالات ولكل احتمـال منها وجـاهته، ويحس برأسه يكاد ينفجر. منذ أن عاد من المحكمة وهو لا يكف عن التفكير، والانسان له عقل واحد، وعقله قد تحمل فوق طاقته وما عاد في استطاعته المضي.

وقرر أن يوقف التفكير في شهرت والساعة ـ وما قد يكون ـ في الحال ـ ولم يستطع. في كل مرة يـظهر طـرف سؤال أو احتمال ثم لا يلبث ان يتكامل. . ويصبح مطالبا ببحثه والاجابة عليه. ولهذا قرر أن ينصـرف عن المـوضـوع كليـة، ولـم يجـد أروع من أن يجعـل عقله يستـرخي ولا يفعل شيئـا سوى استقبـال ما يتتـابع أمـامه من مشـاهـد وتأملها وحصر نفسه فيها.

ومن تلك اللحظة بدأ يحس بنفسه ينزلق ويتـوه ولا يستطيـع أن يحدد واقعة بذاتها، أو يتذكر دقـائق حدث معين، أو يعثـر على سبب واضح لما اعتراه. . وكأنما قد حدث كل ما حدث وهو نائم يحلم أن شيئا مما رآه لم يحدث. إنه لا يـزال يذكـر علامـات باهتـة للبدايـة، وكان في شـارع الجبلاية والشارع طويل نظيف تحفـه أشجار مقلمـة فروعها ومرسومة، والمساحات واسعة والعمارات شامخة وعاليـة وكل عمارة لها نمط وشخصية والمارة نـادرون. . والهدوء مخيم والسكـون تـام لا يسمع فيـه الا حفيف العربـات الساريـة، وكلها من مـاركـات فاخرة وموديلات حديثة، والهواء مفتح النوافذ يسـري ناعمـا رقيقا في حرية، وموج النيل يمشي على أطراف أصابعـه حتى لا يعكر قـدسية السكـون المستتب.

والعربة تمضي وكـأنها تمضي فـوق بساط من حـرير، وصـدره

ممتلىء بأحاسيس جياشة وحـواسه تستعـد للمشاهـد المثيرة المقبلة، وشـرف بجـواره يـدخن في صمت ولـذة ويبتسم كلمـا تـذكـر دوره، وفرغلي جالس في المؤخرة متشبث بالمسند الأمامي يكاد يشم رائحته ورائحة بدلته، ورذاذ كلامه يتطاير ويغرق أذنه اليمنى . .

وعند أول الكوبرى تلتقي العربة بأسراب العربات القادمـة من الـزمالـك والجزيـرة والدقي والجيـزة، أسراب جـديدة رائعـة الألـوان كأسراب الطيور تعبـر الكوبـري وهي تكاد تـطير. . وفي دوامـة ميدان قصر النيل تتسرب الموديلات القديمة وعربات الأجرة ويوزع الميدان محتوياته ويملأ بها شوارع المدينة حيث الحركة دائبة والاتساع أقـل، والبنايات متلاصقة متقـاربة، والأصـوات قد بـدأت تشغل الأسمـاع، والألوان تتعدد، والمـاشون على أرجلهم قـد بدأوا في الـظهور. وفي العتبة تختلط العربة بالأوتـوبيسات وعـربات التـرام والمارة والكـارو، وتبدأ الجلابيب، وتعنف الحركة، ولا يبقى ثمة نظام . .

وحين يـدلفـون الى شـارع الأزهـر يصـل الصـراع الى قمتـه . ويختلط في بطن الشارع الحابل بالنابل، والراكب بالماشي . وعـويل العجلات وصراخ الكلاكسات، وزمامير الكمسارية وزئير الموتوراث، وسرسعة أجـراس الأحصنة وصفـافير عسـاكر المـرور، وزعيق الباعـة والمـارة، والحرارة تصـل أوجها والازدحـام منتهاه، ويصبـح لا مكان لفـرد وكـل شيء بـالجملة، الـركـوب بـالجملة والشـراء بـالجملة والحوادث أيضاً بـالجملة، والآلات هي التي تتصارع والبقـاء للأكبـر وبين الحين والحين تسمـع : حـاسب . . كـالصـرخـة الأخيـرة لقتيل يغرق.

وتصبح قيادة العربة عـذاب، وروحه تبلغ الحلقـوم، والمارة لا يكفـون عن سبـه. وفـرغلي لا يكفـ عن رد السبـاب بـأحسن منـه، وتصميمه على تأديب شهرت يزداد. لم يعد كافيا أن يخيفها ويستعيـد الساعة.. لا بـد من الانتقام لكـرامته.. آه لـو يخنقها.. أجـل يلف أصابعه حول عنقها ويـظل يضغط ويضغط على النفير، ولا يسمـع له صوتا ويشدد من ضغطه والضجة تمتص الأصوات وتمنع الصرخات، والازدحام هائل، والتقدم بـطيء يفجر المـرارة، وجامـع الأزهر يبـدو عـاليا مغبـرا أحجاره كبيـرة ـ الحجـر يبني بيتـا ـ وجـداره متين تمـلأه الخرابيش والحفر ولا يهتز بما حوله، ويشهد الصراع القاتل من مئات السنين ولا يحـرك ساكنـا ولا يستطيـع ساكن أن يحـركه.. وتنحـرف العربة إلى اليمين..

ويتركونها بناء على نصيحة فرغلي وتحت مسئوليته، ويكملـون الرحلة سيرا على الأقدام. وبعد خطوات قليلة يحس بفراغ في رأسـه وكأنه أصبح وحيدا في مكان عريق مهجـور. والضجة مـاتت والهدوء قد أصبح شيئا ملموسا وكل ما حوله قد بـدأ يهوي أمـام ناظـريه. إنـه مصري مائة في المائة، أبوه من المنيرة وأمه من العبـاسية ولـه أقارب فقـراء في الصعيد، وسـافر ورأى وانتقـل وحقق ولمس بنفسـه أقصى درجات الحاجة. وهو متأكد انه لا يزال في القاهرة لم يغـادرها، وأن المكان الذي يمشي فيه حي من أحيائها، ولكن المرئيات تتتابع كلما تقدم ويحس بالذهول وبأنه يدلي بحبل في بئر لا قرار له..

الشـوارع أول الأمـر مستقيمـة ذات طـول وعـرض وأسمـاء

مشهورة. . وأسفلت واضح وتلتوار. . والبيوت على الجانبين مزدحمة ومكدسة. . ولكنها بيوت لها أرقام وبلكونات ونوافذ بشيش وزجاج وبوابات ذات زخارف، والحركة مائجة هائجة. . والدكاكين لها أصحاب ومكن وعمال ويفط مكتوبة بخط أنيق، والمارة وجوههم حليقة فاتحة فيها دماء، وملابسهم كاملة زاهية ذات ألوان وتفصيل، واللغة راقية مكونة من جمل وكلمات، والجو تملؤه رائحة الوقود المحترق والمانيفاتورة والعطور. .

ويتقدمون. . وتضيق الشوارع وتقل شهرتها، وتفقد البيوت أرقامها وتنقص أدوارها، وتصغر أبوابها وتصبح نوافذها بلا شيش، وتتحول الدكاكين الى حوانيت صاحبها هو عاملها ويداه هي المكنة، وتشحب وجوه المارة وتزداد سمرة، وتبهت ألوان الملابس ويتقدم بها العهد، وتتحلل اللغة وتصبح كلمة ونداءات وشتائم، وتهب رائحة العطارة والجلود والغراء والخشب المنشور.

ويتقدمون. . وتضيق الشوارع وتضيق وتفضي الى حارات تصك أسماؤها الآذان، وتأخذ مكان الأسفلت كتل صلبة من الأحجار، وينتهي التلتوار. وتتقادم البيوت ويفصلها عن الحاضر أحقاب وأحقاب، وتصبح النوافذ فتحات ليس فيها غير الحديد. وتخفت الحركة، وتندر الحوانيت وتتقطع ويصبح بين البقال والبقال مشوار. . وتتضخم الملامح وتغمق الوجوه وتنبت اللحى وتغزر الشوارب وتتناقص الملابس ويصبح البنطلون بلا قميص والجلباب بلا سروال، وتتفتت اللغة الى أنصاف كلمات وأرباع وتعبيرات لا

يفهمها سوى أصحابها، وتختفي روائح الدكاكين وتمتلىء الأنوف بروائح التقلية والملوخية متصاعدة من البيوت. .

ويتقدمون. . وتتعرج الحواري وتتداخل وتؤدي الى أزقة لها أسماء تضحك غرابتها، وتصبح الأرض من التراب وعلى التراب أوساخ وماء وطين. وتموت الحركة وتختفي الحوانيت وتنتقل البضاعة الى عربات يد أو صناديق معلقة في الحيطان. . وتفقد البيوت ما فوقها من طلاء وما في نوافذها من جديد. ويقل المارة من الكبار ويظهر الأطفال ويتكاثرون وكذلك يفعل الذباب، وتتضخم الملامح وتتورم وكأنما قرصتها دبابير، وتتهرأ الملابس وتتمزق وتفقد الكثير من أجزائها. ويظهر أناس بلا لباس، وتصبح اللغة سرسعة وأصوات وحروفا تتصاعد من حناجر شديدة البروز، وتملأ رائحة الطين والقدم الأنوف.

ويوغلون في التقدم. . وتتلوى الأزقة والمسالك وتؤدي الى مكان ليس له كيان، كل ما فيه يختلط بكل ما فيه، الأرض المرتفعة المكونة من أجيال متعاقبة من القاذورات والأتربة، بالأبنية المنهارة التي ناءت بما فوقها من أكوام وأعمار، ولون الأرض ذات الطين بلون الجدران ذات التراب، والملابس بالخرق المبعثرة في الطريق، ورائحة الناس برائحة الأرض برائحة البيوت، والهمهمات المتقطعة بهبهبة الكلاب بالأبواب الكبيرة وهي تزيق وتفتح، والحركة البطيئة الميتة بالهوام الزاحفة، والمساكن المنخفضة المتربة بالقبور التي ترقد على مرمى البصر، وفرغلي المخلول لا يتغير احترامه ويسبقه بنصف

خطوة لا يريد أن يسبقه كثيراً ولا أن يتأخر، ولا يريد أن يوليه ظهره، ولا يستطيع أن يسير ووجهه الى الخلف، ويجامله بعقد ملامحه اذ المهمة التي جاءوا من أجلها خطيرة تستدعي عقد الملامح، والناس تحييه وهو يرد تحيتهم في اقتضاب. الناس تحييه وتسأله عن الأحوال ويحف به احترام هو الحاجب الذي لا حول له ولا قوة، ولا أحد

يعرفه في شارع الجبلاية هو القاضي الذي له الحول والقوة.

ويمضون وحولهم خراب وبيت تتساند حتى لا تنهار، والناس هي الأخرى تتساند حتى لا تنهار. والعجوز يتحامل على شاب، والأعمى يسحبه صبي، والعليل يسنده جدار، والنبي وصي على سابع جار، وخيط خفي يجمع الكل ويربطهم معا وكأنهم حبات مسبحة وكأنهم روح واحدة تحيا في أجساد كثيرة متفرقة، والزمن لا قيمة له، فالطفل الرضيع على كتف أمه هو الطفل الذي يحبو ويختلط بأكوام الزبالة، هو الطفل الماشي الذي يتمنطق بالأحجبة خوفا من العين،هو الطفل الميت أو الذي عاش،هو الصبي في ورشة أو محل، الغادي الرائح يقلد الممثلين والأراجوز ويتهجى ألفاظ السباب، هو الشاب في عفريتة أو جلباب يجذب أنفاس السجائر المصنوعة من السبارس، هو الرجل العامل أو الرجل العاطل، هو الغائب عن الوعي بجوار حائط، هو الدائخ من الأفيون والبطالة والسيكونال، هو الشيخ الذي يقضي النهار يصلي ويدعو للأولاد ويترحم على ما فات ويجمل لنفسه الآخرة.

والبنت العروس المخطوبة، هي الأم ذات الأطفال، وصاحبة المنديل بأوبة هي المتشحة بالسواد، وضاربة الطفل هي المضروبة من الزوج، والطابخة هي الملهوفة التي تبحث عما تسد به الأفواه.

ويأتيه صوت فرغلي وهو يشير الى البيت الوحيد المتماسك ويقول:

- بيتي.

ويعزم بقوة ويشدد ويلعن شهرت التي جعلت رقبته كالسمسمة.

ويسأل عن الحارة السد ومتى يصلون؟ ويجيب فرغلي أنهم فيها، في الحارة السد. وأن بيت شهرت فريب بعد خطوات. ويمضون وتحف بهم نظرات مستغربة تتوجس، وراء كل نظرة كلمة غريب. ووراء الغريب تساؤل، ووراء التساؤل خطر..

والنساء الجالسات على العتبات ينسجن من السآمة أحاديث ومن الأحاديث مقدمات حزن، يرونهم فيتعجبن وتميل الرءوس على الرءوس وينتقل الهمس من عتبة الى عتبة، وكأن بين العتبات أسلاك.. ويقول بعضهن: بوليس. وتتحشرج الأصوات وهي تنطق الكلمة.. وأخريات يتفاءلن ويقلن: صحة. ثم يرين فرغلي ويتحققن منه فتنخفض الهمسات أكثر.

وأطفال وأطفال، وأطفال يتجمعون أمامهم وخلفهم وعلى الجانبين، عيونهم ذابلة فيها رمد وعماص، ووجوههم صغيرة

تحمل كل ما فوق الطريق، وتتوافد معهم جيوش الذباب. ويصرخ طفل وهو يقذف فرغلي بطوبة ويقول:

ـ محكمة!

ويلعنه فرغلي وينهره بلين. ويلتفت الباقون الى اللعبة، وتصبح «محكمة» على كل لسان، ويطير فرغلي وراءهم فيهربون ويهيج الذباب، ثم يعودون الى التجمع ويعود الذباب الى الطنين.

ويتأكد فرغلي من بيت شهرت ويسأل احدى الجالسات فتشير الى بيت قريب، وينتقل الاسم على كل لسان وكل لسان يضيف كلمة وتخميناً. . ويترك الجالسات جلوسهن ويضمهن موكب الأطفال، ولا يصبح فارق كبير بين سواد النساء وسحنة الأرض وزعيق الأطفال وهمهمة الكبار، والشمس تصب أشعتها وتجعل كل ما فوق الأرض يغلي ويفور وتتصاعد منه الروائح، والنهار يظهر كل شيء ولا يخفي شيئا، يظهر عن عمد واصرار وكأنه ينتقم ويشمت.

وينتظر فرغلي وشرف على الباب وحولهما الركب، ويصعد هو وحده البيت مظلم وبابه كفوهة العجوز الأترم وعود الكبريت لا ينفع ويهوي الى أرض المدخل، اذ الأرض منخفضة ولزجة وكلها طين، والمدخل واسع كقبوة الفرن المهجور. وشهرت في الدور الثاني ـ هكذا قالوا ـ والدور الأول سواد في سواد، والرائحة لا تطاق، والجدران متآكلة وكأنما نهشتها أفواه ثعابين. وعليها تموجات رشح وأملاح وكأن النيل فاض وأغرق البيت ثم انحسر، وامرأة جالسة على

عتبة حجرة في المدخل تغسل وساقها بيضاء مكشوفة تضيء في الظلام تحدق فيه وتتوجس خيفة، وتنعقد يداها فلا تترك الغسيل ولا تغطي فخدها العاري، والسلم متآكل ومتداع وخشبه مخوخ ودرجاته تنقص درجات، والقدم تزيق، وخطر السقوط محدق. وعود كبريت عاشر ينطفىء.. تطفئه ريح تهب من مكان خفي لا يرى، ريح باردة رطبة والجو في الخارج حار، ريح باردة تنفذ الى النخاع فترج النخاع. والدور الثاني لا هو دور ولا هو ثان، عروق عارية كضلوع هيكل عظمي تصنع السقف بينها مهاوي وحفر، وحيطان شاخت ومالت وانحنت، وباب قريب من السلم.. باب مكون من الواح قديمة غير ممسوحة ولم تجر عليها فارة، والخشب قد تغير لونه وأصبح رماديا أزرق، وعلى الباب عجين جاف، وبراز طيور وحيوانات، وكف دم بنية، ووجه رسمه طفل بالطباشير كوجه جنيه.

ويمد يدا لا تريد أن تمتد، ويدق بابا لا يحتمل الدق، ويطل وجه يقولها بها«عايزك في كلمة». ويصفر وجهها وكأنما سلط عليه كشاف في أول الأمر، ما أن يراه حتى يشحب ويظل يشحب ولا يكف عن الشحوب، والعينان صافيتان أول الأمر يعكرهما ارتباك مفاجىء وخوف، ثم يمتد الشحوب الى بياضهما ولا يستقر للحدقتين قرار. هي شهرت قد رحبت به. وخرج صوتها متداعياً منهاراً كله ذهول وحيرة واستغراب. وتفتح الباب ويبدو جسدها يلفه جلباب رجالي قديم فيه شق يقسمه بالطول، والشحوب قد وصل الى قدميها وجعل أظافرها تبيض. ويضطرب. هذه المرأة المرتعشة سرقت ساعته.

الساعة معها لا بد فماذا يمنعه من خنقها؟ ولماذا لم يعد لديه الحماس الأول؟ وعقله يتأرجح بين التقدم والتأخر. لقد جاء وانقضى الأمر.

وكما دبر تماما ها هو ذا يقولها ولكن بغير اللهجة التي دبر ان يقولها بها«عايزك في كلمة». ويصفر وجهها وكأنما سلط كشاف أصفر، وتخاف، وتدعوه للدخول، وتحاول أن تمحو ارتباكها وتبتسم، وترتعش شفتاها وتفشلان في اداء الابتسام. يدخل هو ويعد العدة للتراجع، فممكن أن يحدث أي شيء، قد يقتلوه أو يسرقوه أو تصرخ شهرت وتستغيث. ومن مكان في الحجرة ينـدفع اليها أطفال ثلاثة، بنت في العاشرة طويلة ورفيعة جدا وسمراء وعيونها ضيقة وسوداء كالحبر، ووجهها رفيع وجامد ميت لا ينفع ولا يتحرك ولم يعرف الضحك، وشعرها أسود يلمع، ورائحة جاز، وضفيرة مجدولة وأخرى سائبة، ومشط خشبي مغروز في قمة الرأس، وطفلان آخران. . بنت وولد أو بنتان أو ولدان تشبثا بأمهما وأمسكا بثوبها، ومن الظلام المشبع برائحة الجاز تنصب عليه أربعة أزواج من العيون المستغربة تتطلع وتتساءل ويرتعش. ويبتلع ريقه ويردد كالأسطوانة المعبأة:

ـ عايزك في كلمة.

وتفيق شهرت وكأنما أعطيت حقنة.

وتطرد الأولاد وتغلق الباب، ومع هذا يتشبث الأولاد بالباب المغلق وتبدو عيونهم لامعة من خلال الشقوق كعيون الصراصير ترقب ما يجري في الحجرة. ويلهث ويدور برأسه، الحجرة ضيقة

كالصندوق الذي ضاع مفتاحه، والضـوء يختنق وهو يتسـرب اليها من نافذة علوية، وسرير قديم كالح ذو عمـدان رفيعة كـالبوص، وحـديده كله صـدأ، ومرتبتـه أغمق من الصدأ، وفي نـاحيـة شيء كـالـدولاب قديم، وجوال فيه ثقوب مملوء لحافته ومـركون بجـوار الحائط وعلبـة أرنبة، ومرتبة في الركن الآخر وكراكيب وصفـائح وأخشـاب متناثـرة، وعلى الحائط صورة الامام علي يشق بسيفه رأس كافر، والكافر رأسه مشقوق ومع هذا لا يزال ممتطيا حصـانه واضعـا قدميـه في الركـاب، وعلى المرتبة يتحرك شيء، وإذا بالشيء رجل. . رجل طـويل أسمـر نائم ورأسه كالزلعة الراقد بجوارها، وعلى وجهه رغـم نعاسه تكشيرة، وجبهته معقودة، ممدد بطوله على المرتبـة وحزامـه مفكوك، ومـلابسه الداخلية قديمة سوداء وظاهرة من فتحة بنطلونه، وللمرة الثالثة يقول:

ـ عايزك في كلمة. .

ويعود الكشاف الأصفر ينصب على وجهها وتقول:

ـ خير. .

وتخرج الكلمة مرتعشة معتقدة تمامـا أن لا خير هنـاك. ويقول كالمنوم:

ـ الساعة فين؟. .

ويتخشب جسدها وتدب على صدرها بيدها، وتنكر برموشهـا، وتقسم بـازدياد شحـوبهـا. ويعيـد السؤال، وتتغلظ في القسم، وتصـر

على الانكار، وشيء رفيع ثاقب يخرج عقله ويؤكد له أنها السارقة. ويمضي كالمحكوم عليه في الخطة يكيل لها الكلمات ويركز الاتهام. وتختنق وهي ترد، وتتحشرج الكلمات على فمها وهي تنكر، ويأخذ دور وكيل النيابة وتأخذ دور المتهمة. ويصبح صاحب حاجة وتحاول أن تكون صاحبة كرامة، ويصرخ كالسيد المسروق وتتمسكن كالخادمة السارقة. ويطغى على الحوار صرخات تأتي من الباب.. البنت الكبيرة تبعد اخوتها وهي تسمع ما يوجه الى أمها، والطفلان لا يريدان ترك مكانهما، وكأنما يدركان بغريزتهما أن أمهما شهرت في خطر ولا يستطيعان تركها تواجه وحدها الخطر.

وتزداد عصبيته ويهدد بالبوليس وبأن ضابط المباحث على الباب، ويبدو عليها عدم التصديق، فيفتح الباب ويعوي الباب وهو يفتح، ويأخذها الى النافذة وتطل ويطل، ويقول:

ـ يا حضرة الضابط.

ويقول شرف:

ـ أيوه يا سعادة البيه؟

ويغمز بطرف لسانه ويكاد يضحك. ثم يذهب الهزل عن وجهه فجأة.. وتتجمد ملامحه ويخاف عليه أن تنكشف النمرة، فيرتد عن النافذة. وتتراجع شهرت الى الحجرة ويتبعها ويقول:

ـ يا الساعه يا سنة سجن.

وترتجف خطواتها ويعود فيقول:

ـ وانتي عندك أولاد يتبهدلوا.

ويـلاحظ توقفهـا عن المسير وهـو ينطق الأولاد، فيـردد ما قـاله ويشدد على الأولاد.

وتحاول أن ترغم نفسها على البكاء وتعتصر عينيها، فـلا تبكي ولا تهبط دمعة واحدة، ويتقلب الـرجل النـائم ويغمغم وكأنـه يحلم. وتصيح شهرت:

ـ جوزي . .

ويـزداد عصبية وتتـوتر أعصـابه ويهمس بـالتهـديـد، وشيء في داخله يهمس. . الأم تدافع عن وجود العائلة، والزوج يائس نـائم. . ويـزداد حدة، ويكسي وجهـه بقناع مخيف، ويـطلق تهديـده الأخير. وتتعلق عيناها بعينيـه، وعيناه ليس فيهمـا ذرة رحمة، وليس في نفسه ذرة قسـوة، ولا يدري لمـاذا يهدد ولمـاذا هـو مصـر ولمـاذا لا يـرحم ولماذا لا يزداد قسوة، وتقول له:

ـ فتش.

ويتـأكد لـديه انهـا السارقـة. ويندفـع يفتش بقدمـه. . الجـوال مملوء «بقوالح» الأذرة، وتحت الـسرير عـروسة خشب وخـرق قـديمـة كالجلابيب، والعطن يملأ خياشيمه، وعدة أحذيـة متهالكـة لا تصلح للارتداء فوقها غبـار كثير، ومـاسورة حـديديـة، والدولاب طـوله متـر وطلاؤه بني وفوقه طبقة سوداء سميكة. . وداخله حبة بطاطس مسلوقة عليها صرصار، وبصلتان وورقة ملح لم تفتح، وعنـد الجزء الأسفـل

منه لمعت عيناه فقد وجد أشياء تخصه، علب ملبس ذات زخارف، وصندوق خشبي مطعم، وأقلام حمراء ورصاص وغطاء قلم حبر، ونصف ولاعة قديمة، وتجيئه غمغمة شهرت تفسر وقد أدركت سر لمعة عينيه وتقول:

ـ للأولاد.. يلعبوا بيها.

ويجد جورباً من جواربه ممزقا وقديما وفيه رقع ومغسول، ويحس بخجل يهبط بقلبه الى قدميه ويرتفع بدمه الى رأسه. ويثور في نفسه بركان، ويخرج فحيحا ملتهبا من ملامحه وفمه ولسانه، ويسألها لآخر مرة عن الساعة.

ويتململ الزوج، ويدفع الذباب بيد نائمة، وتعلو ضجة الأولاد عند الباب، وتفتح شهرت فمها وتطبقه، وتخرج من حلقها أصواتا، وشعرها منكوش، ورعبها ينكش شعرها أكثر، وجسدها يهتز في الثوب الرجالي الواسع، ويدها مشلولة على يدها الأخرى، وعيناها تبرقان في سرحان تائه، وهو أحيانا يفيق لنفسه، ويدرك انه يمثل، أنها لا تمثل، وأنها تستحق. وأنها لا تستحق، وأن ملامحها القوية التي أذلته تجف أمامه من العذاب، وأنه لا يحس بنشوة النصر، وقوى عديدة تتجاذبه، ويزداد تحديقه خطورة. وأخيرا تفر دمعة واحدة من عينيها، وتفر من فمها كلمة، وتتبع الدمعة دموع، والكلمة تتبعها كلمات، ويتبين انها تقول:

ـ أنا لقيتها والنبي وكنت ناوية أرجعها.

الساذجة! يا للسهولة؟! كيف تعترف بمثل هذه السرعة؟! لقد أعد نفسه لمعركة طويلة.

وتتحرك وتمد يدها الى الدولاب المفتوح، وتستخرج من رفه الأعلى كوبا زجاجيا مكسورا، وتمد اصبعين يرتجفان داخل الكوب، ويخرج الأصبعان ببطء وبينهما الساعة.. ساعته! وتمدها اليه دون ان ترفع بصرها، ويهبط عليه ماء صاعق بارد، ويهدأ كل شيء في صدره، ويحس بصدره يضيق، وبالحجرة نتنة بشعة، وتبرق الساعة في اليد الممدودة. ويجذبه البريق ويتناولها ويتفحصها، ويفرح بها فرحا صبيانيا كما يفعل الأطفال، ويزجر نفسه ويفرح، ويقلب الساعة بين يديه ويضعها على أذنه ويجدها دائرة، وحشرجات رقاصها لم تزل كما هي، ويجدها مضبوطة وتشير الى الرابعة وخمس وعشرين دقيقة، ويجد نفسه على السلم.

وينتبه ويتوقف، ويركبه احساس خفي أنه أخطأ، وينادي شهرت، وتبدو عند بابها قائلة نعم، وأولادها قد عادوا يتشبثون بها، والبنت الكبيرة عيونها سوداء رهيبة واقفة ترقب أمها بوجه جامد ومن بعيد ويداها ممسكتان بالضفيرة السائبة. وهي ـ شهرت ـ ثابتة في مكانها لا يتحرك لها رمش أو ذراع. ويتردد، ويسألها لماذا أخذت الساعة؟ وتجيبه وتقول:

ـ الماهية ما تكفيش.. وحضرتك.. مرضيتش.

ـ ويسألها فتقول:

ـ البلوزة . . كنت عايزة ادفع حق خياطتها .

فيسألها فتقول :

ـ الملايا تكسف .

وعيناها لا أثـر فيهما لأي انفعـال، محدقتـان في الفراغ، تهبط منهما الدمـوع بلا بكـاء، كالسمـاء حين تمطر بغيـر سحاب . وتجيئـه الاجابات ملفوفة في ضباب، ورأسه يهتز رافضا أن يصدق، ويسألهـا وكـأنه يشـارك في حل مشكلتهـا : لم لم ترهن السـرير أو تبيعـه بـدل السـرقة؟ وتسيـل دموع كثيـرة من عينيها وهي تقـول ان السـريـر ليس سريرهم .

ـ أمال سرير مين؟

ـ سرير أم هانم .

ـ أم هانم مين؟

ـ شريكتنا في الحجرة .

ويكاد يوقف الكلمـات ليفكر فيهـا قبل أن تلمس آذانـه، ولكنه يبتلعها ويتركها تغيب في لا وعيه .

ويرتفع صـوت خشن من الداخـل يسأل عن الضجـة والحكايـة ويتثاءب .

وتستدير لتجيب، ويستدير هو ليهبط على عجل .

وحين يصـل الى الحـارة يتنفس بقـوة، وينـطلق غيـر عـابىء

بالواقفين أمام البيت، ويسرع والهمسات تنمو وتبلغ أسماعه وتنتشر، ثم تبرد وتذبل وتأخذ مكانها همسات جديدة.

ويستحثه فرغلي وهو يبتسم في قبح بشع:

ـ هيه؟!

ولا ينطق بحرف، ويمضي وأناس من حوله تمضي، واسئلة تترى، والعيون المنصبة من الجانبين تتكاثر. عيون واسعة عميقة مستفهمة تزيح رموشها في تثاقل مريض وتتساءل عما فعل الأفندية القادمون بواحدة منهم؟ وتلتقي النظرات عبر الطريق تكاد تصنع أمامه أسوارا شائكة توقفه وتقيده، والحاح فرغلي لا ينقطع، والرذاذ المتطاير من فمه لا يكف، ويحس بالناس تكاد تطبق عليه حبا في الاستطلاع. فيخرج الساعة من جيبه ويلفها حول معصمه ويقفل الابزيم. وتتصاعد الهمهمات من خلفه. ويزعق فرغلي ويسري الخبر. وتتلاصق النسوة وتنخفض الهمسات، وفي أعقابها ترتفع دعوات تطلب للولايا الستر. ويزمجر الرجال ويتضاحك الصبية وينتشر الحادث من نافذة الى نافذة وعبر السطوح، ويحس بشهرت تتمزق وتتهلهل وتتقاذف الأفواه أشلاءها، وهي شاحبة صامتة خائفة مستسلمة لا تملك من أمر نفسها شيئا.

ويدرك العربة وكأنها طوق النجاة، ويتبين أن شرف غير موجود. ويسأل عنه فرغلي فيقول انه نفض يده من الأمر كله فجأة وقال إنه لم يعد يستطيع ومشى. ولا يحس بأية غرابة وكأنه كان يتوقع

من شرف هذا. ويهرب من اعتذارات فرغلي التي يعقبها بو عبده وتهديداته وكأنه سارق الساعة، وكأنه المسئول عن الكون وعمدة الحتة. ويدلف الى العربة ويضغط على محركها كأنما يضغط على ضمير يؤلمه، وتندفع الى الأمام.

وتعود الشوارع تنتظم وتتسع ويصبح لها طول واستقامة، وتعود الملابس تتكامل وألوانها تجد وتزدهر، والذقون تزال، والشوارب تنمق، والملامح تصغر وتدق، وتختلط العربات بالسابلة.. عربات كارو أول الأمر، ثم أجرة مستهلكة، ثم أجرة وملاكي وأوتوبيس. ويتسع صدره وكأنما انزاح عنه كابوس ويزداد اتساعا، ويخف الهواء ويخف، وتقل أحماله وتكبر رفعته، والدنيا تتفتح وتتفتح.

ويجد نفسه في ميدان قصر النيل.

والنسمات بدأت تهب، والوجوه تفيق من حر اليوم، والكوبري يمتلىء بالمتنزهين، والماء كثير كثير، والعمارات بعيدة بيضاء كأبراج الحمام، والمدينة جميلة جميلة، أجمل من أية مرة رآها فيها، والمنظر ضخم وحاشد، وأنفاسه تتلاحق في نهم، ورأسه يدور.

وما يكاد يصل الى الدور السابع من عمارته بشارع الجبلاية حتى يسرع الى الشرفة ويتهاوى على مقعد، ويسند رأسه ويحاول أن يستعرض من جديد كل ما مر به.

- ٨ -

بعد ساعات قليلة كانت حجرة المكتب لا تزال كما هي، ولا تزال لها نفس شرفتها الشاهقة المطلة على النيل.

وكانت الشرفة تشهد ـ كعادتها كل ليلة ـ ما يطرأ على القاهرة من تغيير ساحر مذهل.

النور القوي الذي كان يضيء المدينة طيلة النهار أخذت حدته تهمد، ولونه يشحب ويتغير، وكأن يداً خفية قد امتدت إلى شعلة الشمس الموقدة ومستها. واصفر الضوء فاصفرت المدينة.. وانطلقت من خلالها آلاف من شعاعات الشمس الغاربة وزجاج يعكسها ويزغلل بها الناظر.

واحمر الضوء.

وتلبدت السماء وحدها بالحمرة. أما المدينة فقد كستها رمادية مغربية زرقاء.

ثم اسودت الأرض.

وأظلمت السماء.

وكاد الليل يبتلع المدينة لـولا ملايين من أضـواء صغيرة بـذرت فـوق سـطح الأرض، ومـا لبث أن نبتت وتـغـذت على الـظلام وترعرعت، وأصبحت أنواراً براقة تلمع وتبرق.

ثم نضجت الأضـواء وتفتحت لهـا أزهـار، وانتشـرت في جـو المـدينة أنـوار حمراء وخضـراء وزرقاء وصفـراء ذات أشكال وأسمـاء وأنواع.

واستحال الظلام إلى كرنفال.

كـانت الشرفـة وحدهـا هي التي تشهد التغييـر رغم أن الأستاذ عبـد الله كان لا يـزال جالسـاً فيها، مستلقيـاً على الكرسي المـريح، رأسـه ثابت لا يتحـرك، وعيناه سـاهمتان مثبتتـان كعيني ميت، وعقله هاتم تائه غير مكترث بالنهار الذي ولى أو الليـل الذي أقبـل. يحدق في الفـراغ المطبق المـظلم، ويجوب ـ دون أن يحـرك رأسه ـ سمـاء المدينة ذات المحصول الوافر من الأضواء، ويهيم ويحـاول أن يركـز انتباهه وبصره في نقطة تـائهة في ظـلال الليل، بعيـدة عن الأضواء، واقعة لا بد هناك.. هناك في أقصى المدينة وراء مئذنة الأزهر. يهيم يهيم وبين الحين والحين يبرق معدن الساعة الملفـوفة حـول معصمه فيخطف بصره، ويجـذب عينيه الغـارقتين في الظلام. ويحس بشيء ملتهب ينبثق في صدره كالنزيف، ويكز على شفتيه دون أن يدري كنه ما يتملكه، وينفجـر في رأسه خـاطر ملح: أن يخلع السـاعة ويـرميها على طول يده في النيل.

* * *

غير أنه لم ينفذ الخاطر أبدا.. وطبعا لم يقض الليل في الشرفة. وفي الصباح كان يتوجه إلى عمله كالمعتاد فقط كان قد عاوده ذلك الصداع الملعون.

* * *

ولا تزال الساعة حول معصم الأستاذ عبد الله، كلما رآها تذكر تلك الرحلة الغريبة ذات الكابوس وازداد اعتزازاً بساعته وبنفسه، بل إنه ظل يريها لأصدقائه ومعارفه وكل من يلقاه أياماً كثيرة. وكان يفعل هذا كمقدمة لا بد منها لرواية ما حدث له. وكان يغفل في قصته كثيراً من التفاصيل، ولكنه كان ما يكاد يصل إلى الحارة السد حتى يعاوده ذلك الاحساس بالنزيف، فيندفع ببتر الوصف وينتقل إلى الجزء التالي من القصة، ويصف الهجوم الخاطف الذي انهال به على شهرت فتهاوت أمامه وناولته الساعة.

ولم يسمح لفرغلي أبداً أن يتحدث أمامه عنها، ورغم هذا كان يسمح لأذنه أن تلتقط منه بعض أخبارها وما يوجهه اليها من سباب واتهامات، مبيناً كيف فسدت وأصبحت ذات سمعة وسمت نفسها أميرة.

كل ما حدث أنه ذات يوم رآها.. رأى شهرت في شارع الملكة وهو مار بعربته. فأبطأ من سيره.. كانت واقفة على محطة الأوتوبيس، وكان واضحاً أنها لا تنتظر الأوتوبيس، وكانت تصبغ شفتيها بروج حقيقي وترتدي الجيب الرمادي الذي كانت تأتي به.

وأهم شيء أنها كانت ترتدي فوق الجيب.. بلوزة جديدة.



النداهـــة

النّداهَة

حين دفع «حامد» الباب وفوجىء بالمشهد الهائل المروع مات.. بالضبط مات. وجد نفسه فجأة قد سكنت فيه كل خلجة أو حركة أو فكرة ولم يعد يرى أو يسمع أو يشعر، والدنيا من حوله هي الأخرى سكنت تماماً.. وماتت، وانتهى كل شيء.

كانت «فتحية» زوجته راقدة على أرض الغرفة، والولد الصغير ملتصق برأسها العاري ينتحب مرعوباً وهو يجذب شعرها بشدة، بينما هي عارية الرأس، عارية الساقين والفخذين، عارية كلها أو تكاد.. وفوقها يرقد أفندي بجاكتة وبلا بنطلون أو سروال، وإنما مؤخرته العالية قد ذابت في عري «فتحية» وانتهى الأمر.

مشهد صامت، غارق في ظلام الظهر الذي اعتاد الحجرة واعتادته.. لا صوت فيه ولا صراخ ولا مقاومة. الصوت التالي تماماً، وكأنه جاء بعد عام، كان صوت شهقة.. شهقة بشعة هائلة البشاعة، شديدة اللهفة، مشحونة بالذعر والدهشة والرعب.. شهقة كأنها صادرة عن كل الجسد بأقوى ما يستطيعه من استنكار:

ـ حامد!

شهقـة انتفض لها الـطفل خـائفاً وراح بـأعلى ما يستـطيعـه من صـراخ يبكي، ومع هـذا فلم يعد أحـد يسمع صـراخه، إذ أخـذ كل شيء يشحب ويصفر ويبيض. حتى الظلام، أبيض وعاد مثله مثل كل شيء في الحجرة أو البيت أو الدنيا كلها إلى مواته، وظل ميتاً وكـأنما لعام آخر، إلى أن عادت الحركـة إلى الحجرة. وكـان أول من تحرك فيهـا هو الأفنـدي، إذ في قفزة واحـدة كان قـد رفع بنـطلونه وأصبـح خارج الحجـرة وفي القفزة التاليـة كان البنـطلون في مكانـه المعتـاد وكان هو خارج البيت!.

وحينئـذ فقط تحرك «حـامد»، لأن الحيـاة حين عـادت لم تعـد لعقله إنما عادت فقط لأقدامه، فـإنه وجـد نفسه يقفـز هو الآخـر وقد أودع القفـز كل حيـاته.. قفـزة حملته خـارج الحجـرة، وفي القفـزة الثانية كان قد أصبح مثل الأفندي خارج البيت، ولكنـه وصل متـأخراً قفزة.

وهكذا حين وصل إلى الشارع كان «الأفندي» الواحد قد أصبح عشـرة، أو عشرين، كلهم بجـاكتات، وكلهم ذوو مؤخـرات تغـطيهـا البنطلونات، ومعظمهم يمشون بأسرع من الجـري وأوسع من القفـز، وكل منهم في اتجاه!

في تلك اللحظة ـ فقط ـ كانت الحياة قد عـادت لعقل «حـامد» وأفكـاره، وأحس ـ من أول وهلة ـ أنه لم ينـطلق في أثـر الأفنـدي إلا لأنه انطلق ولأنـه كان عليـه أن يقفز خلفـه. فمنذ الثـواني الأولى وهو

يعرف ان هدفه ليس الأفندي أبداً ـ ولا أي أفندي ـ ولا في الشارع كله أو حتى المدينة بأسرها. هدفه في حجرته. . في زوجته، بل يكاد يكون في ذلك الجزء منها الذي طالما عمر بيوتاً وخرب بيوتاً واقتتل من أجله الناس، جنة الخلق وجحيمها ومثواها.

وهكذا استدار. . هذه المرة لم يقفز فقط استدار، ورفع قدمه بادئاً خطواته وكاد يبقيها في الهواء معلقة. . فعقله والحياة حديثة العودة إليه يأبى أن يعمل إلا كما يعمل عقل طفل صغير واجهته مشكلة، ومشكلته هذه اللحظة أنه خائف، بل مرعوب تماماً. أن هدفه هو أن يعود إلى بيته ـ الحجرة ـ هذا صحيح، ولكن ليس في كيانه كله ذرة رغبة واحدة في العودة. كيف يعود ليواجه زوجة نصفها الأسفل عار، جسدها مبطط لا يزال يحمل آثار كتلة الأفندي وبهيميته؟ أي إنسان في الدنيا، أي زوج يمكن أن تطيعه قدمه ليخطو بها تجاه مشهد كهذا؟

ولكن. . لأن رعبه هذه المرة هو الذي يحركه للعودة، لحظة فيها ألف لحظة! أقواها وأقساها جميعاً لحظة غدر أحس فيها أنه أخذ غدراً. لم تغدر به «فتحية» فقط أو الأفندي ولكن الدنيا كلها بأرضها وسمائها أخذته غدراً. وحينما تغدر بنا الدنيا ونحن صغار فإننا نلجأ لأمهاتنا لنجد في أحضانهن ما يعيد إلينا الثقة في الوجود، وإذا غدرت بنا وكنا كباراً سارعنا إلى زوجاتنا ليؤدين لنا نفس المهمة. فإذا كان الغدر هذه المرة مصدره الأم ـ ذاتها ـ أو الزوجة، فويلك يا «حامد»! حينئذ وأنت مشدود مصلوب ممزق بين رغبتك أن تفر من

«فتحية» ومن الدنيا كلها فلا تعود تراها أبداً. . ورغبتك في أن تسرع بأقصى ما تقدر وترتمي في أحضانها وتشكو إليها حتى لو كانت هي المشكو منها. . رغبتك أن تستجير بها من الدنيا لتجد أن الأولى أن تستجير بالدنيا منها. . بما هو أبشع منها.

أجل! أحس «حامد» أن «فتحية» امرأته، زوجته نصفه الأنثى. . تلك التي كان يعرفها كما يعرف ويضمن يده ورجولته وشهامته، «فتحية» قد تحولت، بل انتفض منها كائن غريب مرعب كأنما سخطت وحشاً راوغه ثم نهشه من ظهره وهو آمن مسلم مستسلم. . وحش من فرط رعبه منه لا يجد ملجأ آخر سواه. ولو كان «حامد» قد قتلها في تلك اللحظة ـ وفكرة القتل نبتت منذ أول ثانية عاد إليه فيها عقله بل ربما قبل عودة عقله، ورغم أي شيء آخر ظلت تدور في رأسه منفصلة تماماً، تعمل عملها باستمرار ولا يريد أن تفارقه أو يفارقها لحظة ـ لو كان قد قتلها في تلك اللحظة بالذات لكان قد فعل هذا ليس لأنها خانته أو انتقاماً لشرفه المهدر، أبداً، لا بدافع الغضب أو الجنون أو الحنق، إنما ومعها جميعاً ـ بل وفي أحيان قبلها بكثير ـ بدافع الرعب المروع منها، كأنما هي قد استحالت في نظره إلى غول أو حية رقطاء تقتلها قبل أن تقتلك، تقتلها ليس دفاعاً عن شرفك وإنما دفاعاً عن نفسك أولاً، كتماً لأنفاس ذلك الوحش الذي غافلك ونهشك وخانك. . ومن يخونك يقتلك، ومن يقتلك لا مأمن لك إلا بقتله. بل أحياناً ما هو أكثر! أحياناً يصبح الاحساس الممض القاتل ان شيئاً في الكون قد اختل،

ولا نجاة إلا بوأد الخلل في مكانه ولحظته. ان شيئاً حدث لذمة الدنيا والعالم، وملكوت السماء والأرض، فخربت. . ثقبت فجأة، وما لم نسارع بسد الثقوب لفغرت الأبدية فاها وابتلعتك أنت والكون الخرب.

كان مرعوباً حقاً! حتى لقد بدأ يرتجف وتصطك أسنانه ويحس أكثر وأكثر بالطعنة القاتلة. ثمة سكين صوبت بيد تعرف تماماً خباياه وأسراره وأصابت فيه أعز ما في داخله. ألم الطعنة لا يزال لا يحسه فالسكين ما تزال سارقاه. ان ما يحسه هو الثقب العميق الغائر الذي خلفته الطعنة، والذي كلما حدق فيه داخ وأحس أن في أعماق هذا الجرح نهايته. بغموض ودوشة وازدحام كان يحس بأن حادثاً خطيراً وقع داخله، وبالضبط حين وقف على عتبة الباب المفتوح.

وكانت «فتحية» قد قفزت قفزتها الأولى، وأحست وهي تفعل وكأن آلافاً من قطع الزجاج المكسور تستجمع نفسها وتتشكل وتقفز. . قفزة لم تفلح في رفع جسدها إنما فقط استطاعت بالكاد رفع يدها والامساك برأس السرير الضيق المنخفض. ولقد أرادت بالقفزة الثانية أن تجري مغادرة الغرفة، أو تقف، أو حتى تجلس، أو بالقليل تجلب ثيابها وتغطي ما تعرى من جسدها، وهو كل ما استطاعت ـ دون ما أرادته جميعاً ـ أن تفعله، إذ كان «حامد» قد وصل إلى العتبة ووقف ممسكاً بكالون الباب ينظر أول ما ينظر إلى الطفل الذي كان قد سكت وانطرح أرضاً وبدا أنه نام أو يغالبه النوم.

هو واقف ممسك بالكالون، وهي ممددة مفتوحة الساقين مبعثرة

الجسد تستنجد برأس السرير ممسكة به. . وهو ينظر إلى الطفل وكأنما قد أصبح أهم شيء عنده، وهي تتجه بوجهها إلى السقف ولكنها لا ترى إلا عيني «حامد». هو ليس في عقله. . مشهد واحد لم ير منذ أن عادت إليه القدرة على الرؤية سواه وكأنما انطبع في عقله وأبى أن يزول. مشهد مؤخرة الأفندي العارية وعري «فتحية»، وقد اندمجا في كتلة بيضاء واحدة. . وهي ليس في عقلها إلا نظرة «حامد» ـ أول وآخر نظرة تراها منه ـ لحظة اكتشاف حضوره. . نظرة قد استحالت في رأسها إلى كابوس لا يرحم تكاد تصرخ من هوله مستنجدة، ولكن قوة قادرة قاهرة تخرس صرخاتها وتكتمها. كابوس ترى فيه عيني «حامد» وقد استحالتا إلى سيخين من حديد محمي إلى درجة تطاير الشرر تقتربان بسرعة ثابتة مستمرة من عينيها الاثنتين وحالاً وحتماً هما مخترقتاهما.

كل الفارق بينهما أن «حامد» ـ كما هي العادة دائماً ـ مطالب أن يكون صاحب البادرة الأولى. أجل لا بد رغم كل الفجيعة والموت والرعب والطعنة والتأمل أن يعمل شيئاً ويعمله حالاً وفي التو. . إذ إن أي تأخر يفسده ويلغيه ويقضي عليه. وهي خلاص ـ وصل كل شيء إلى منتهاه ووقع المحظور الذي كانت تخشاه وطول عمرها تخشاه، ولم يبق سوى العقاب. ما أجمل أن يسرع به «حامد»، فكل إبطاء منه يهدد بأن يمضي بها التفكير فتتأمل ما كان وما حدث! وأبشع عقاب في الدنيا أهون ألف مرة من أن تعود مرة أخرى لتفكر أو تتأمل أو تستعيد ما حدث.

كانت فكرة القتـل قد دفعت نفسهـا من قاع عقله إلى سـطحه، كبيرة الآن مكتملة لا يمكن تجاهلها. لو قتلهـا فأقصى مـا سينالـه من عقاب هو الحبس سنة. . أو ربما أقـل أو يقولـون براءة. فهـل يقتلها الآن؟

هل يتناول عصـاه التي كان يسميهـا «الزقلة» من تحت السـرير وينهال بها عليها حتى يتطاير مخها قطعاً؟

هل يفعلها الآن. . الآن؟ أو يستجوبها؟ . . أو لا يقتلها أبداً؟ . .
السؤال رهيب مستمر دائر لا يتوقف في خواطره أبداً.

والشيء الذي كان يغيظه ويكاد يكتم أنفـاسه حقـاً أن انفعالتـه المحييـة المميتـة الصـاعقـة الأولى قـد مـرت، وأنـه الآن في لحـظة أخرى. . لحظة لا يـرى فيها إلا المشهـد الذي تسمـر عنده بصـره لا يريد أن يبرحه بينمـا عقله يقلب فكرة القتـل مغيظاً. فقـد كان القتـل يبدو هنا شيئاً لا يمت إلى اللحظة أو المشكلة أو الموضوع أو المشهد الدائـر في عقله ولا علاقة له به. . وليس الحل الهدف ولا مـا يريـده تماماً. كيانه كله في واد آخر مشغول بما هو أهم وأخطر، والقتل يبدو شيئاً خارج الصورة تماماً كما لو كان يواجه خطر قطار السكة الحديـد وهـو قادم يـريد أن يسحقـه وعقله مشغول بتقليب فكـرة الدواء الـذي وصفه له حكيم المستوصف، وهل الأجـدى أن يأخـذه قبل الأكـل أو بعده؟ الآن لا يريد لها أن تموت، وهو قطعاً لا يـريد لهـا أن تحيا. . وليست مشكلته أبداً أن تحيـا أو تموت أو حتى كـل هذا الـطوفان من

الأحـداث الذي داهمـه منـذ دفـع البـاب وفتحـه. . مشكلتـه الحـادة الملحة في نفسه في هذا الجرح الغائر العميق الـذي لا قاع لـه، في هذا النزف الهادر الذي انهمر داخله ولا يزال متـزايداً متعـاظماً يقـربه في سـرعة رهيبـة من النهايـة. . نهايتـه. . إذ ها هـو ذا يراهـا تقترب اقتراباً حثيثـاً مرعبـاً حتى ليجعله يحس أنه في اللحـظة التاليـة تمامـاً سيموت وينتهي «حامد» الذي يعرفه ينتهي تماماً نهـاية مفـاجئة غـادرة تتربص له وراء اللحظة التالية، بينما عقله الهـايف الغبي لا يريـد أن يتـزحزح قيـد أنملة عن فكرة هـل يقتلها أو يؤخـر القتل إلى مـا بعـد الاعتراف؟ وهو يعلم تماماً أنه غير قادر الآن على قتل بعوضة، وبعـد غمضة عين لن يكون قـادراً على أي شيء بالمـرة، إذ سيكون بمثـل هذه السرعة المروعة التي يمضي بها قد انتهى.

الغريب أن النهاية نفسها هي المسألة التي كانت مستوليـة على عقل «فتحية» تماماً في هذا الوقت بـالذات. . ولكنهـا نهايـة لا رعب فيها ولا خوف متزايد من خطر ساحق ماحق يقترب في سرعة خرافية، نهاية لا تخـاف منها وتقشعـر وترتجف مثلمـا كان يحـدث «لحامـد». بالعكس! هي هنا تـطلبها وتـريدهـا وتتمناهـا، والمهم أن تأتي حـالاً حتى تجهز عليها قبـل أن يمتد الـوقت ومضـة أخـرى وتجـد نفسهـا مضـطرة أن تفكـر. . وبـالـذات أن تعـود تـرى نفس النظرة في عيني «حـامد». وبمثـل ما كـان «حامـد» يتشبث تشبث المستميت ليمسـك بـآخر أهـداب الحياة حتى لا تفلت منه قبل أن يستمـر في مـواجهـة المـوقف، فهي بكـل إرادة الحيـاة فيهـا كـانت تتمنى أن تنتهي هـذه

الحياة وتموت قبل أن يحدث أي شيء آخر.

إما الموت الداهم السريع وإما أن تحدث المعجزة ـ أجل المعجزة ـ وتمحو كل ما حدث وكأنما تمسحه «بأستيكة» وكأنه ما حدث، وتعود الحياة إلى مثل ما كانت عليه قبل ساعة، أو بالدقة قبل شهر، لا بل لا بد أن تعود كما كانت من خمسة أعوام مضت، بل حبذا لو عادت إلى العمر الذي بدأت فيه تعي وتهتف لها الهواتف. انها على استعداد لأن تملأ بحر النيل دمعاً، مستعدة أن تظل تبكي وتستغفر من يومنا هذا إلى يوم القيامة في مقابل ـ ليس حتى أن يغفر لها الله، ولا أن يمحو تماماً كل ما حدث، وإنما في مقابل أن يجعلها تعيش و«حامد» ليوم واحد، بل لساعة واحدة، بل للحظة واحدة.. واحدة يا رب وكأن شيئاً مما حدث لم يحدث. ولكن المؤلم.. المؤلم ألماً لا يحتمله بشر أن شيئاً مما تتمنى لن يكون، وأن السهم قد نفذ، وأن ما حدث كان وانتهى وقضى القضاء. فالمصيبة الكبرى أن هذا الذي كان ودار ليس غريباً عليها، فلقد شاهدته بعيني رأسها.. كله.. يحدث، طوال الأعوام الخمسة الماضية، وبالذات طوال العام الكثيب الماضي.. والفكرة تراودها وتطاردها، والهاتف يهتف بها، ونفس هذا المشهد الذي دار بنفس تفاصيله الدقيقة، صحيح لم يكن نفس الأفندي، ولكنه أفندي، وبنطلون مخلوع، ورقدة، والباب يدفع ويدخل «حامد».. كله بالضبط رأته وكانت متأكدة تماماً أنه سيحدث، ولهذا هي تعيش هذا كله كما تعيش الحادث المعاد وكأنه جرى قبل هذا مرة، بل ربما جرى مرات.. لم يحدث شيء واحد

غـريب عنهـا أو عمـا كان في رأسهـا وما رأتـه لسنين. . بل إن هـذا الأفندي كان دائم التربص لها. . وأيضاً يترقبها في حقل مشغـولياتهـا اليومية الكثيف. . فجأة والطفـل على صدرهـا ترضعـه، والآخر فـوق كتفهـا ينهش شعـرهـا طلبـاً للطعـام، والـطعـام على النـار، ويـداهـا مشغـولتان بـطهـوه، وعقلهـا مشغـول بتـدبيـر كسـاء الشتـاء ومـطالب رمضان. . فجأة يخرج لها الأفندي عارياً إلى منتصفه. . بـاركاً فجـأة فوقها حتى لتموت رعباً، وفي اللحظة التالية تماماً يفتح البـاب ويقف «حامد» على عتبتـه. . تمامـاً مثلما وقف، ويتم كـل شيء مثلما تم الآن كل شيء.

أتكون شيخة؟ أفي أعماقها التي أصبحت نجسـة مدنسـة ترقـد قديسة مكشوف عنها الحجاب. . ترى المستقبل؟

وإذا لم يكن الأمـر كـذلـك، فكيف تم هـذا كمـا رأتـه مـراراً وعاشته؟

إنه لأمر فـوق قدرتهـا على التفكير والفهم. إنـه لشيء يتوه فيـه العقل وقد تاه فيه عقلها وضل. . حتى تاه عن تحديد ذنبها إن كـانت مـذنبة. . فقـد كـانت تؤكـد لنفسهـا إذا هتف بهـا الهـاتف وارتسمت الصـورة أنهـا بجمـاع نفسهـا ستقـاوم وستمـوت حتمـاً قبـل أن يستطيع ـ أنسياً كان أو أفندياً ـ أن يلمسها. ومع أن الهاتف نفسه كـان يؤكد لها أن مقاومتها لن تفلح، وأنها حتماً ولا بد في النهاية سترضى وتستسلم بحيث تقـع الكارثـة ويكون المقـدر. . إلا أنها كـانت تقاوم

وسوسة الهاتف نفسها وتقسم، وتموت غيظاً مؤكدة لنفسها أن شيئاً مما يقوله لن يكون، ليعود الهاتف يؤكد لها أنه حتماً سيكون، برضاها أو بعدم رضاها سيكون، بل هو كائن وحادث فعلاً ودائم الحدوث. إن هي إلا لحظة يغيب عقلها في أدغال مطالب حياتهم ومشاكلها لتفاجأ ـ كمجيء يوم القيامة ـ بالأفندي يخرج لها عالياً لترتجف منه وترتعش ارتعاش ستنا مريم.. وتقع لها الواقعة!

انها لم تكن معتوهة أو ذات لوثة وليس في سيرها أو سلوكها ما يخدش.. انها بنت طيبة من بنات ريفنا ذات عقل راجح.. نفس العقل الذي جعلها تفضل «حامد» على «مصطفى»، مع أن «مصطفى» خفير نظامي ماهيته مضمونة.. خمسة جنيهات وتسعون قرشاً، ويزرع نصف فدان أيضاً، وله «عجلة».. بينما «حامد» ليس «حيلته اللضى» وأكبر من «مصطفى» في العمر بخمسة أعوام على الأقل، وأسمر غامق السمرة.. ولكنها تظلم عقلها أي ظلم إذا قالت أنه هو الذي اختار، فمن وراء عقلها كان دائماً أصبع يشير.. أصبع ضبابي غامض يكاد يهمس لها ويصر ويطالبها أن تأخذ «حامد» وتترك «مصطفى»، «فحامد» يعمل في مصر وهي على يقين دائم أن حياتها في بلدهم محدودة، وأنها حتماً بطريقة أو بأخرى سيكتب لها أن تعيش في مصر، ذلك المكان الرائع الواسع «أم الدنيا» الفخم الفاخر الذي يجلو الصدأ عن الجلد ويحيل من يعيشون فيه إلى «سناير». ألم تعد منها «فاطمة» بنت خالتها التي كانت تعمل «خادمة» وهي كالخواجات بالكاد استطاعت أن تتعرف عليها وهي هابطة من القطار

بالفستان والشنطة؟ فما بالك وهي لن تكون «خدامة».وإنما زوجة وزوجة لبواب يسكن في عمارة أعلى من السماء من عشرة طوابق؟

يالله ان الهاتف الذي يهتف بها ويؤكد أن مقامها سيكون في القاهرة عنده حق، فهي ـ كما يؤكد لها الكل ـ ليست مخلوقة لتنغرز من طلعة الشمس إلى مغيبها في الطين. إن جسدها الأبيض الناصع البياض مخلوق للبندر وحلاوتها من حلاوة مصر، فبمقاييس القرية كانت «فتحية» حلوة، بل من أحلى البنات، فقد كانت بيضاء وكأنها ابنة أحد الأغنياء، إذ الأغنياء وحدهم هم البيض. بيضاء طويلة نحيفة هذا صحيح.. ولكنها نحافة سببها الزيت والأذرة. غداً حين تأكل العيش الخاص الغلة وتغمس بالسمن «ستسمن». مقامها لا بد في مصر.. هكذا راح يؤكد لها هاتف، والغريب أنه لم يكن من خارجها وإنما من داخل نفسها ذاتها كان يوسوس ويهتف. هناك تقيم حيث الشوارع الواسعة الحلوة النظيفة التي تنام على أسفلتها دون أن تعلق بك ذرة تراب واحدة حيث النور الكثير البراق في الليل يحيل الظلام إلى نهار ساطع بل إلى ما هو أحلى وأروع من النهار الساطع.. هناك حيث الستات حلوين وكأنهن من أوربا، والرجال حمر الوجوه أغنياء يركبون العربات ويصرفون بالجنيه الكامل في اليوم الواحد دون أن يحسوا والنقود تغادر جيوبهم بلذعة الحسرة.. هناك حيث الطعام الكثير والكباب والروائح الحلوة واللوكاندات وبحر النيل الأعظم حيث يبدأ النيل وينبع.

هناك في تلك الجنة سيكون مقامها، هكذا كان يؤكد لها

الهاتف الخفي باستمرار، ولهذا لم تعجب أبداً والأمور ترتب نفسها و«حامد» يتقدم لها وأهلها يترددون ولكنها هي التي تتحمس وتوافق.

وبعد أسبوع واحد تسافر وتصبح أخيراً وكما حلمت ألف مرة ومرة في قلب مصر، وفي العمارة التي طالما حاولت تصور أدوارها العشرة.. صحيح أن مقامها لم يكن في دور منها وإنما في حجرة «حامد» التي بناها له صاحب البيت على عجل تحت «السلم».. بناها بتحريض من زوجته على أمل أن يجدوا في زوجة «حامد» حين يتزوج «خادمة» تحل لهم مشكلة الخدم.

ولكن.. معلهش.. الحجرة فسيحة رغم كل شيء، وفيها سرير بمرتبة حقيقية، ودولاب صغير وتضاء بالكهرباء، واللمبة لها «زر» تدوس عليه هكذا فإذا «بتك» ويغمر النور الوهاج الحجرة.

وصحيح أن «فتحية» الحلوة في قريتهم بدت غريبة في القاهرة، وبدت لسكان العمارة كعروس من مسرح العرائس. فقد كانت بيضاء طويلة، هذا حقيقي، وملامحها جميلة في حد ذاتها، عيناها جميلتان وأنفها صغير جميل لا يمكن أن يكون أنف فلاحة وفمها دقيق بالضبط كخاتم سليمان، ولكن المشكلة أن ملامحها تلك تبدو غير مناسبة مطلقاً لقامتها ولحجمها وكأنها وجه طفلة صغيرة ورأسها قد ركبا لامرأة.. أو كأن الرأس قد صغر بطريقة ما ووضع فوق جسد عادي..

ولكن المهم.. أن «حامد» راق مزاجه وانقلب من «الكلب

الكشر» الذي يعـوي طول النهـار ويصيح، إلى إنسـان مرح ضـاحك كـالنحلة، صـاعـد هـابط، واقف قـاعـد، يحيي، ويـوصـل، ويلبي الطلبات.

أما «فتحية» فقد قبعت في مكانهـا المواجـه للباب من الحجـرة ترقب المدخـل العريض الـواسع، والبـاب الضخم الزجاجي.. باب العمارة. ترقب مصـر، أو بالضبط ذلـك القطاع من الشـارع المواجـه الذي يكون «مصر» في نظرها.

قبعت منكمشـة على نفسها تتفـرج وهي لا تزال أسيـرة الرحلة من باب الحديد إلى العمارة التي واجهت فيها لأول مرة ذلـك الحلم الذي عاشت تحلم به، ويهتف بها الهـاتف من أجله.. مصرا مصـر التي وجـدتها أروع بكثير مما تخيلت أو استـطاعت بنت خـالتهـا أن تصف، أروع وأكبر وأعظم ألف مرة.. مليون مـرة. أيمكن أن تكون الدنيا بهذا الازدحام، أو الشـوارع بذلـك العرض، أو الميـادين بهذا الاتساع؟

أيستـطيـع النـاس أن يعيشـوا وسط هـذا الحشـد الـرهيب من العربات التي تمضي بسرعة البرق، بحيث تلهفك احـداها حتمـاً إذا سهـوت وتلفت خلفـك مـرة؟ والـدكـاكين، والمحـلات، والصـور، والنور. النور ذو الألوان السبعة الذي ينطفىء ويولع بالكهرباء وعلى «الواحدة» كـالمزيكـة.. والهيصة، والـدوشة، والمـولد.. لقـد خيل إليها حين أفلح «حامـد» بعد جهـاد أن يجرهـا إلى وسط ميدان بـاب

الحديد وهي مروعة مذهولة تكاد تجن.. أنـه لا بد في مصـر عيد أو مـولد أو شيء آخـر لا تعرفـه يزدحـم لـه الناس كـل هـذا الازدحـام، وتصدر عنه كل هذه الضجة الهائلة التي ترتجف لها الأذن. فقـال لها «حامد» وهو يضحك ضحكة العارف العالم: «انها حال كل يوم». فيا لها من مدينة تلك التي يحيا الناس فيها كل يوم في مولد وعيد!

ولكنها في منكمشها خلف باب الحجرة الموارب وهي ترى من بعيد هذه المرة وتتأمـل.. بدأت تـرى في مصر، تلك التي تلخصت في قـطاع الشارع المقـابل أشيـاء لم تتصـور مـطلقـاً أن تجـدهـا في المدينة الحلم. رأت فقراء.. فقراء تمـاماً وجـوعى وشحاذين، حتى في قريتهم نفسها لا يوجد الفقر فيها على هذه الدرجـة من البشاعـة. وفيهـا كذب أيضـاً وشتيمة وقلة أدب وحـرامية ونشـالون. حـرامية هم السبب في وجـود أمثـال زوجهـا الـذي يحـدثهـا عنهم وعن حـوادث السرقات المجاورة والبعيدة. وستـات مصر الـلاتي تصورتهن أول مـا رأتهن خـواجات سنـايير، فيهن قبيحـات كثيـرات.. بـل معـظمهـن قبيحات لولا الأحمر والأبيض والطلاء الذي يطلين به وجوههن فتحمر كـالأحذيـة اللامعـة، وتترك صـاحباتهـا أشد قبحـاً. . سيدات بـدأت «فتحيـة» من كثرتهن تحس بنـوع من الرضـا عن نفسهـا. . تلك التي اعتقدت أول الأمر أنها لن تصلح في سوق النساء في مصر إلا خادمة لأقـل سيدة من سيـداتها. ووصـل الغرور إلى درجـة الاعتقاد أنهـا لو لبست مثلهن لأصبحت محط أنظار الناس جميعـاً، ولاعتبروهـا مثلما كانوا يرونها في البلدة ملكة من ملكات الجمال. حتى «حامـد» نفسه

وعمله ذلك الذي لم تفهمه تماماً حين قالوه لها. . انها تصورته شيئا كخفير نظامي للبوابة عليه حراستها في الليل، له نفس احترام وهيبة الخفير ذي البندقية في بلدهم. ها هي تراه شيئاً أقرب ما يكون إلى الخدام، ينحني لهذا، ويسرع في تلبية طلبات الست «أم فلان»، ويشخط فيه صاحب البيت ويؤنبه ويشتمه بألفاظ غريبة لعلها ألفاظ الشتيمة في مصر، ألفاظ لم تعرف لها «فتحية» مطلقاً أي معنى مثل يا «أحمق» أنت «مياس»! حتى موقفه يوم ألح صاحب البيت عليه أن يجعلها تعمل عندهم ورفض هو بإباء وشمم مقسماً أنه لو حكمت ألا يعمل عندهم أو عند غيرهم. لم تستطع أن تهضم ذلك الموقف وهي ترى الحال البائس وترتيبهم في «سلم» الناس في العمارة أو خارجها لا يسمح بهذه «العنجهية» التي لا يقفها إلا إنسان على الأقل في جيبه خمسة جنيهات. تلك فرصة لأكل العيش ولهدمة كستور تلبسها في الشتاء، ولأكلة حلوة نظيفة من المحتمل جداً أن ينالوها بين الحين والحين، ولكن «حامد» يرفض ويركب رأسه. وحين تفتح فمها لتناقشه يصرخ فيها وكأنه صاحب البيت وهي ساكنة الدور الثامن عنده.

والحقيقة أنها في رغبتها للعمل كان أكل العيش حجة. كانت في الواقع تريد أن «تتعرف» على أهل مصر أكثر، وأن تدخل بيتاً من بيوتهم وتحادث ناساً منهم. إذ هي في حبستها في الحجرة هكذا لن تمكنها طبيعتها الخجول المنطوية أن تفعل شيئاً من هذا، بل لا تملك إزاء نظرات سكان العمارة التي تمتد عابرة المدخل مقتحمة

الباب راقمة إياها أني تكون، مستطلعة شكلها وجلستها وزيها باسمة أو مغمغمة أو ساخرة. . لا تملك إلا أن تزداد انغلاقاً وانكماشاً وتزداد القيود حولها أحكم. . قيود من صنعها، فليس سكان العمارة فقط ولكن المدينة من حولها حافلة متحركة مائجة. كل شيء فيها يجري ويختلط مكهرباً ويكهرب. وهي إلى درجة ما وزوجها «حامد» لم يكن باستطاعتها ليس فقط أن يتركا أنفسهما للمدينة وحركتها تفعل بهما ما تفعل بالآخرين، وإنما هذه الحركة الهائجة المائجة نفسها لا تفعل أكثر من أن تخيفهما وتروعهما وتدفعهما للانكماش أكثر. . أو بالأصح تدفعها هي. «فحامد» ـ وبالتحديد منذ أن تزوجها وجاءت ـ استطاع وبطول العهد أيضاً أن يتحرر بعض الشيء ويتحرك ويذهب إلى السيدة زينب ويجوب شبرا مصر ويعرف أن تغير إذا كنت ذاهباً إلى الحسين. وليست حركة فقط إنما فهم أيضاً ودردحة. . فقد بدا «لفتحية» وكأنه أصبح إنساناً آخر غير «حامد» الأسمر شاب بلدتهم الصامت الخجول الذي يدير وجهه إلى الناحية الأخرى إذا قابل موكب حاملات الجرار في الصباح. الآن باستطاعته أن يهزر مع عمال الجراج، ويضحك، ويجمع إيجار العمارة كلها ويحسبه بالمليم، بل وأصبح له أصدقاء من أهل مصر نفسها ومن غير بلدياته وأقاربه. هي وحدها الباقية أسيرة الحجرة. . أسيرة حتى ذلك الشرخ المحدود الذي ترى عالم مصر منه، شاعرة أنه ليس عالماً أو مدينة إنما هو بحر لا بر له ولا قرار، تسير هي على حافته إن سهت مرة وزلت قدمها فقل عليها السلام. والمخيف أنه بحر ليس هادئاً أو

ساكناً أو يأخذ منها نفس موقفها منه، إنما هو بحر جبار صفيق تمتد منه آلاف الأيدي وتطل منه آلاف الابتسامات كابتسامات الجنيات والنداهات، خادعة تدعوها وتسهل لها خوض الماء.. أجل! كلها أيد ماكرة وابتسامات خبيثة. حتى نداء ذلك الساكن الملهوف والنقود في يده والبقال قريب، يد تمتد من البحر تجعل شلل الخوف يجمدها في مكانها لا تتحرك، يد تمتد في مكانها تنكمش أكثر وتزداد انكماشاً وكأنها ما رأت أو سمعت، ملتفتة إلى الناحية الأخرى أو مخفية رأسها هرباً تتمنى أن تحدث معجزة وتنقذها من الموقف. بينما الساكن حين ييأس يصوب لها نظرة لا تراها إنما تحسها رصاصة تخترق رأسها. كثيراً ما يتبع نظرته بغمغمة لا تخطىء أذنها فهم ما بها من سباب.

ولكن خجولاً فلتكن، منغلقة، منكمشة، فلتنكمش ولتنغلق، فللحياة قوانينها التي لا مناص منها ولا مهرب. وهكذا مع الحمل الأول كانت «فتحية» قد غادرت الحجرة واتسع عالمها فاحتوى المدخل. ومع الطفل الثاني الذي أعقب الأول بأشهر كان قد اتسع حتى شمل الرصيف الملاصق بل والمواجه.. والشارع إلى ناحيته من هنا، وإلى الميدان الذي يؤدي إليه من هناك.. والآن أصبحت «فتحية» ترد بل وأحياناً تثير النقاش، وتلبي الطلبات وتستطيع أن تفرق بين عربة المدارس القادمة تحمل ابن الدكتور، من العربة القادمة تحمل ابن الموظف في الإذاعة، وكل قصص السكان عرفتها من «حامد» ومن غيره. بل وبلغ بها الأمر أنها أصبحت هي مصدر

«حامد» في معرفته لأخبار السكان وأحوالهم، وزائر منتصف الليل الذي يطرق شقة البك الموظف في الطيران، بالذات في الليالي التي يكون فيها «نوبتجيا» في المطار. بل ولم تكن هذه آخر ما بدأت «فتحية» تعرفه عن مصر السفلى وأحوالها وأخبارها بحيث أصبحت تدرك أن تحت مصر الوجيهة الغنية المؤدبة الوقور، هناك مصر أخرى مليئة بالفضائح والمخازي والأشياء التي لا يعرفها إلا البواب، أو من هو أدهى في هذه الأمور وأمر، زوجة البواب خاصة إذا كانت رغم صغر عينيها ترى كثيراً وبالذات في الليل، ورغم دقة رأسها تستطيع أن تعرف الفرق بين أخت الزوج الذي تصيف زوجته بأولادها في الاسكندرية بينما هو يا عيني غرقان في الشغل في مصر، وبين إخوته الحقيقيين الذين يزورون الأسرة طول العام.

والغريب أنها كلها أشياء لم تفسد الحلم في عقل «فتحية» تماماً. صحيح نالت منه كثيراً ولكنها أبداً لم تضيعه. بقيت مصر العظيمة هي مصر العظيمة في نظرها والشر في كل مكان. هكذا كانت دائمة الرد على «حامد» حين يجيئها بين كل حين وحين لاعناً مصر وأبو مصر وأهل مصر، الذين فعل أحدهم به كذا أو كيت.

وإذا كان الشر والوحل والقبح في القاع فالنجاة في العوم.

وهكذا تعلمت «فتحية» أن تفعل مثلما يفعل آلاف وملايين الناس الذين تحفل بهم مصر الكبيرة ويكونون حركاتها الجبارة الهائلة وتعوم مثلما يعومون. كل ما كان ينغص عليها حياتها أحياناً هي تلك الانتفاضات التي كانت تفاجئها على هيئة كمين، يخرج لها منه من

بين مشاغلها التي أصبحت كثيرة وكثيفة ذلـك الأفندي العـاري كاليـد المهولة الممتدة، مهددة أن تجذبهـا إلى القـاع مباشـرة حيث الوحـل والقبح والطين. خرج لها ذلـك الهاتف اللعين الـذي طالمـا أكد لهـا وصدق أن ستكون القاهرة مآلها ليؤكد لها أنها واقعة في المحظور مع الأفندي لا محالة ومهما فعلت، مسألة تترك «فتحية» وهي تكاد تنفجر بالغيظ والضيق والاستنكار والتصميم أيضاً. . تصميم قاطـع مانـع أن أبداً لن يكون حتى لـو دفعت حياتهـا ثمناً، فـأبداً لن يكـون. . وبيننا الأيام يا مصر.

* * *

وفي مدينة كبيـرة كهذه مليئـة بالـذئاب. . ذئـاب الليل وذئـاب النهـار. . ذئـاب الأوتـوبيسـات وذئـاب العـربـات. . وحتى الأرصفـة وطوابير الجمعيات الاستهلاكية لها ذئـاب، وفي عمارة كبيـرة كهذه لا يمكن أن يسلم الأمر من وجود ذئب.

والحقيقـة أنه كـان فيها أكثـر من ذئب من العبث التصـدي لهم جميعـاً، فيكفينا ذلـك الشاب الأبيض الحليـوة قاطن الشقـة الوحيـدة بالدور الأرضي، أخف سكان العمارة دماً وأكثرهـم حيـوية وتـواضعاً. كما أنه خدوم شهم يجيد احترام الآخرين ورفع الكلفة معهم. وكل هذا طبعاً لا يعني أنـه ليس بذئب، فـالحقيقة أن هـذا السخ البـراق الخاطف للبصر كان يخفي ليس ذئباً فقط، إنما يخفي صبعا شريراً لا

ذمة له ولا ضمير. . فهو مجنون بالنساء جميعاً، وفي سبيل أن يظفر بالواحدة منهن مستعد أن يفعل المستحيل. مستعد أن يكذب أو ينافق أو يسرق أو يقتل أو يستعمل القنبلة الذرية لو كان يملك واحدة. والمرأة عنده ليلة واحدة يقضيها معها وبعد هذا يبحث عن الثانية، وكأنه أخذ نساء الأرض جميعاً مقاولة وعليه أن ينتهي منهن قبل أن يفرغ عمره. وعمره الآن خمسة وثلاثون عاماً، وسمعته كالذهب، أو عبقريته أنه استطاع أن يخفي حياته الأخرى هذه عن المجتمع الذي يحيا فيه، بحيث يمشي مع الشرفاء مرفوع الرأس لا يعرف ما بداخله سوى ضحاياه. وحتى ضحاياه كثيراً ما غفرن له. . بل وبعضهن أحبه وتعلق به وذاق من العذاب أهوالاً. بالطبع كان قد انتهى من كل من رقن في عينيه من سكان العمارة، وبالضبط وهو عائد ذات يوم من عمله، وبعد ما حياه «حامد» بطريقة البوابين التي كان قد أتقنها والتي كان يستطيع بها أن يوهمك أنه وقف بينما هو في الحقيقة لم يغادر مجلسه، و«فتحية» أمام باب الحجرة جالسة قد احتوت رضيعها تمنحه ثديها الأبيض الناصع الشديد البياض الضامر أيضاً، الضامر إلى درجة لم يكن يملك معها الإنسان العادي إذا رآه إلا أن يرثي لصاحبته!

ولكن أفندينا ـ الساكن ـ لم يرث. ألقى عليها نظرة، ثم بالتفاتة مقصودة أو غير مقصودة ألقى نظرة أخرى على «حامد» الذي عاد يمد ساقه النحيلة فوق الساق الأخرى بحيث يمكنه أن يمد ذراعه ويسند إليه يده ويداعب مسبحة رخيصة ناقصة الحبات، بينما وجهه الأسمر

الحافل بحفر تشهد أن الجديري قد زار طفولته. وجهه ذاك قد عادت تحتله ابتسامة طيبة مليئة بسعادة ساذجة البراءة، وبدا كما لو كان يعود لينهي ـ بحماس فاتر ـ ابنه الأكبر عن تخطيط رخام المدخل بقطعة طباشير عثر عليها. وكان سعيداً بابنه وشقاوة الذكورة فيه سعادة تجعل لسانه ينتقل في نشوة من تأنيب ابنه ونهره إلى مداعبة «فتحية» ومطالبتها بابن ثالث عله يطلع هادئاً وديعاً كأمه.

استوعب الأفندي الساكن هذا كله في الزمن القليل الذي استغرقه ليصل إلى باب شقته ويضع مفتاحه في قفلها. وفي ومضة كان عقله المركب بطريقة' لا بد غريبة بالغة التعقيد، فمشهد كهذا كان يمكن أن يهز بعضهم رأسه لرؤيته أو يبتسم في رثاء مثلاً أو حتى إذا كان شريراً فأقصى ما يفعله أن يسخر بينه وبين نفسه من هذه العائلة الطيبة المسكينة السعيدة.. أما هو فقد كان موقفه أن اتخذ في الحال قراراً لا رجعة فيه، أن يلتهم «فتحية» ويضمها إلى قائمة الضحايا.. هو ليس إذن ذئباً عادياً. انه ·ضبع، أشد ما يجذبه إلى الضحية هو بالضبط نفس الأسباب التي تدفع غيره من الذئاب لأن يبتعد. إن أسعد مغامراته. تلك التي انقض فيها على أرملة في نفس ليلة وفاة زوجها العجوز، أو تلك التي بدأ بها تاريخه حين ضاجع أم زميله الذي كان يذاكر معه.. أما تلك الخائفة المنكمشة على نفسها التي ما خاطبها مرة إلا واستدارت بعيداً مبتعدة أو هاربة، ذات الثدي الأبيض الضامر وزوجة الأسمر الطويل الفلاح «حامد» فلا علاج لانكماشها على نفسها وخوفها منه ومن مصر والمصاروة.. إلا بأن

يأتيها عساها تكف عن الانكماش وتأنس إلى ناس المدينة.

وعبقريته، ولكل عبقريته الخاصة، أنه ما ان يتخذ قراراً كهذا حتى يبدأ عقله يتفتق عن أفكار جهنمية وعن طرق ووسائل لا يمكن أن تخطر على عقل بشر، فهو خامل كسول ممتعض الابتسامة إلى أن يحدث وتقع عينه على الواحدة منهن ويقر قراره، في الثانية التالية تجده قد استحال إنساناً آخر دبت فيه طاقات الحياة، وتفجرت في عقله الأفكار والخطط وأقبل على الحياة بشهية مفتوحة وأصبح كائناً آخر. . لا تكاد تعرفه.

وقبل أن يدير المفتاح كانت يده قد خبطت جبهته علامة الألم للنسيان، وكانت المحفظة قد أخرجت وخمسة جنيهات قد فردت أمام عيني «حامد»، وعلبة سجاير كليوباترا يا «حامد» نسيت شراءها. . هاتها أنت من تحت الأرض بأي ثمن ولو بثلاثين قرشاً، والورقة بخمسة جنيهات معك. لا تعد إلا بها يا «حامد» حتى لو ذهبت إلى شبرا البلد.

يا لمكره وهو يفتح «لحامد» باب الاختلاس المحدود على مصراعيه! الاختلاس المغري بالغياب وادعاء التعب. ويا لطيبة «حامد» وهو يبتلع «الطعم» في الحال ويقرر حتى قبل أن يبرح مكانه، أن ثلاثة قروش على الأقل ستدخل جيبه من هذه الصفقة وعليه أن يبرهن أنه استحقها. . أما أنت يا ست منكمشة ـ فبعد ما

تأكد من ذهاب «حامد» ها هو ذا يعود فاتحاً باب شقته الـذي لا يبعد عن بـاب حجرة «السلم» إلا بضـع خطوات ـ مش تشـرفينـا؟ «فتحية» فعـلاً وأنت «فتحيـة». وابنـك الـرضيـع هـذا؟ «سلطان؟» عـاشت الأسـامي. والثاني «عنتر؟» ياه! عيلة أبـطال صحيح.. والثـالث؟ ما فيش ثالث؟

من هنـا نبدأ.. ونبـدأ بلو كنت من «حامـد» لكان الثـالث على الأبواب.. وعلى هذا البـاب الأخير مضى الـولد القـاهري «المـرقع» يـدق دقاً اكتشف أن «فتحيـة» بالكـاد تعيه. أغبـاء هـذا أم استغبـاء؟ على أي الحالين عليه أن يغيـر الأسلوب.. المال؟ إن هـذا النوع لا يقدر قيمة المال، فلا يعرف قيمة المـال إلا من يعرف كيف يصـرفه، إلا المتعـامل بـالمال.. الحب؟ إن هـذا الصنف أيضاً لا يتـطلع إلى الحب، أو بالذات حبـه.. هم لا يرفعـون عيونهم أبـداً إلى ما فـوق الحـواجب، ولا يتـطلعـون إلا لحب من في طبقتهم.. أو ربمـا إذا تـطلعوا فـإلى الأعلى منها بقليـل. أما هـو البيه الـوسيم الذي يعـامل الخمسـة جنيهـات بهـذا الاستهتـار فمحـال. من أين «أكلك» إذن يـا «بطتي» النحيفة المعضمة؟ بخطة بعيدة المدى لا بد.. خطة تجعـل هذه الخائفة المنزعجة المذعـورة تطمئن إليـه أولاً وتكف عن الخوف منه، ثم يتقدم خطوة ويرفع الكلفة معها، ثم ينتهز الفرصة أو يخلقهـا خلقاً ويحاصرها حصاراً لا تملك معه إلا السقوط.

وما كاد يبدأ التطبيق حتى أدرك أنه رغم كل ذكـائه وفهلوتـه قد خانته فراسته هذه المرة.. فهـو ما كـاد يبدأ الخـطوة الأولى لتطمينهـا

بالحديث معها حتى أدرك أنه ليس أمام إنسانة وإنما هو أمام حيوان كحيوان القواقع. ما تكاد تحس باقتراب صوت أو خيال حتى تنكمش وتنكمش حتى لتستحيل إلى كتلة صماء من اللحم والعظم غير قادرة على الارسال أو الاستقبال. إنه للآن لم يرها رأى العين. إن هي إلا مرة رأى فيها وجهها وما كادت تدرك أنه يراها حتى كان وجهها قد اختفى.. واختفى وهي أمامه لم تبرح مكانها ووسامته من أقوى أسلحته وقد كان يريد لها أن تراه، كان متأكداً أنها إذا رأته مرة وتطلعت إليه ملياً فإن شيئاً ما سيحدث لها، تماماً مثلما كان يحدث للعشرات اللاتي سبقنها. ولكن كيف تراه وهو كلما هم بالتحدث معها أحس أن شيئاً في داخلها يمنعها أن تسمع.. وإذا سمعت يمنعها أن تعي، وإذا وعت يمنعها أن ترد أو تجيب.. أو حتى تتطلع لتعرف من الذي يتحدث؟

وقد كان من الممكن أن يحدث هذا «لفتحية» في أول مقامها بالعمارة، أما بعد أن خرجت وجابت الشارع وأصبحت تتعامل مع السكان وغير السكان فهو موقف إذن من الأفندي وحده. «فتحية» في الحقيقة لم تكن تفعل معه هذا اعتباطاً، فهي ليست غبية ولا فقدت الحذر، وحين تلا حديثهما العابر البريء الأول بحديث أحست به مصطنعاً مفتعلاً استيقظت فيها فجأة كل مخاوفها القديمة تجاه مصر والبحر والأيدي الممتدة، وملأها الرعب من ذلك الأفندي الذي كثيراً ما هتف به الهاتف.. صحيح أن الهاتف لم يحدد شكل الأفندي ولكنه أفندي تحس أنه عن عمد يتقرب إليها. أليس هذا كافياً لكي

يجعلها تحس أنها أصبحت بين أنياب الخطر، وإن هي إلا كلمة تفلت منها أو لين تظهره تجاهه حتى تنتهي هي وينتهي كل شيء. لقد أصبحت من فرط حذرها بالكاد تنام الليل.. ووجود «حامد» نفسه لا يطمئنها، والباب الذي تغلقه وتتأكد أكثر من مرة أنه مغلق لا يفلح في كبت مخاوفها.. فمصيبتها الكبرى أن الهاتف يؤكد لها أن ما يوسوس لها به سيقع.. برضاها سيقع.. برغم رضاها سيقع. إنها تكاد تجن، فلتجن أو فلتمت أو ليحدث أي شيء ولكنها ستقاوم، ولن تسمح لصلة أو حتى كلمة أن تكون بينها وبين ذلك الأفندي، ولتدر المعركة في داخلها في صمت رهيب لا يعلم بها مخلوق.. ولا تستطيع أن تبوح بها لمخلوق.

وبالوسع تصور مقدار الفجيعة التي أصابت ذئبنا الضبع وهو يرى جهوده ووسامته وذكاءه تذهب سدى أمام جبروت هذه الفلاحة البيضاء، وانطوائها على نفسها واغلاق ذاتها دونه. حتى لقد استحالت المسألة عنده من مغامرة كان يعتقد أنها بسيطة عابرة إلى خوف من الهزيمة واهتزاز كامل بالثقة بنفسه حتى أصبح عليه لا أن يخوض مغامرة وإنما أن يثبت لنفسه أنه لا يزال ذلك القادر الذي ما استعصت امرأة عليه قط ولا فشل مرة.

الأيام تمضي بسرعة مذهلة، حتى لقد مضى على قراره شهران وهو لا يزال قراراً لم ينجح لخطوة صغيرة واحدة في طريق تنفيذه. وتفكيره في المغامرة، وفي «فتحية» دائب صباح مساء حتى أصبح هذا الموضوع أهم ما يشغله في حياته، بل لم يعد في حياته سواه.

أحياناً كان يفيق لنفسه ويستنكر أن تكون هذه حاله وأن يكون هو نفسه الذي جاب مملكة النساء بسمائها وأرضها ونجومها، وجربهن جميعاً من الأميرات إلى الغسالات بل والسائلات، هو نفسه الذي يهب كل ذلك الوقت والمجهود والتفكير لامرأة كـ «فتحية»! إن هناك خطأ في الموضوع لا يعرف سره، ومن المحال أن يفشل حتى لو كلفته هذه المغامرة عمره. وأحياناً يفيق ليواجه سؤالاً لم يوجهه لنفسه أبداً: أيكون قد أحب «فتحية»؟ إذا قيس الحب بمقدار الكم من الوقت الذي يقضيه المرء يفكر في حبيبه فهو إذن ليس في حالة حب فقط ولكن في حالة حب عظيم نادر، فلم يحدث من قبل أن تفرغ إنسان للتفكير في إنسانة كما يفعل هو مع «فتحية». بل وها هو ذا حين يجد صدها له كاملاً حاسماً نهائياً وليس ابن يومه فقط أو لحظته، وإنما من الواضح أنه سيظل هكذا إلى الأبد.. حين أدرك هذا ويئس تماماً من كل محاولاته أصبح كل همه وأمله أن لا يحادثها أو تحادثه، ولا حتى أن يحلم أن يوقعها، وإنما أن يراها.. مجرد أن يراها. وحتى هذا الطلب البسيط الشديد التواضع أصبح عسيراً هو الآخر صعب المنال، فلقد تزايد خوف «فتحية» وتزايد بالتالي حذرها إلى الدرجة التي أصبحت نادراً ما تغادر فيها الغرفة، حتى إذا غادرتها مضطرة فلتعود إليها مسرعة لهفى وكأنما في أثرها سرب من التماسيح. وأصبح على ساكننا لكي يراها أن يلجأ للصدف وحدها تدبر له الأمر، ولكي يزيد احتمالات الصدف كان عليه أن يمضي أطول وقت في المدخل أو في باب العمارة أو قريباً من باب شقته، وأن يفعل

هذا و«حامد» موجود مسألة لا بد تدعو للشك ولهذا كان عليه أن يرسله في مشاوير. ولكيلا يفعل هذا بكثرة تثير ريبته وبحجج دائماً وجيهة ومعقولة كان عليه ألا يرسله كثيراً، وبالتالي يقلل من احتمال وجوده قريباً من باب حجرتهم. مشكلة عويصة كانت تستنفد من وقته وجهده الأيام الطوال لكي يتمكن فقط من أن يراها، وحتى لم يكن يراها، كان فقط يلمحها.. يلمح شيئاً يرتدي الجلباب الأسود الذي عادت إليه صاحبته تتحصن فيه بعد أن كانت قد خلعته ولبست مثل أهل مصر.. الملون والمشجر.

* * *

وفي ظهر ذلك اليوم من أيام الصيف في وقت القيلولة تماماً، وقد انتظر أسبوعاً بأكمله ليتمكن من ارسال «حامد» إلى مشوار في شبرا، كان الحب والوجد والقلق قد استبد به إلى درجة لم يعد يحتمل فيها الأمر لثانية أخرى. كان قد انتهى تماماً وأصبح مستعداً لأي شيء من أجل أن يظفر ولو بكلمة واحدة منها، مستعداً أن يبوح لها بحبه وأن يعرض عليها الزواج وأن يتزوجها في الحال، وأن يقتلها إذا رفضت، وأن يقتل «حامد» إذا تعرض له، كان قد بلغ مرحلة اليأس الكامل المطبق ولم يعد أمامه إلا أن يقتحم عليها الحجرة وليكن ما يكون.

ولقد فعل.

ولأن الطفل الكبير كان قد فتح الباب الذي أغلقته أمه وخرج إلى الحارة الجانبية ليلعب، فما كاد يدفع الباب حتى انفتح ، وحتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمامها، وكانت واقفة تحمل الرضيع بجوار رأس السرير. وبرغم كل ما كانت تحفل به نفسه من هموم وقرارات ومشاغل، برغم الكلام الذي كان قد جهزه ليحاصرها ويمطرها به، فإن كل شيء ما لبث أن تبخر من عقله تماماً، لا لمرآها، وإنما لما حدث لها لحظة رؤيته. فالأشباح نفسها إذا ظهرت لها ما كان يمكن أن تحدث نفس الأثر، لا حتى ولا الموت نفسه لو رأته مجسداً! لكأنما رأت شيئاً أعتى من الشيطان والموت والأشباح وكل شرور الدنيا. . لقد كانت مطمئنة اطمئناناً كاملاً إلى كل الاجراءات التي اتخذتها لتصبح في مأمن منه. كانت شيئاً فشيئاً قد بدأت تثق أنها انتصرت على الهاتف والقدر والمكتوب، واثقة أنه قد أصبح مستحيلاً على الواقعة أن تقع ما دامت قد أحاطت نفسها بسياج الاحتياطات تلك حتى أصبح مستحيلاً على ذلك الأفندي مجرد رؤيتها. أما أن تلتفت فجأة لتجده أمامها وجهاً لوجه، في حجرة خالية، بينما «حامد» بعيداً جداً في شبرا البلد. . أما أن تحس أن قدمها قد زلت بغتة من مكانها الحصين المرتفع وأنها في طريقها إلى أن تهوي إلى سابع أرض. . إلى القاع، أما أن تدرك أن إرادة الهاتف انتصرت على إرادتها، وأن الأفندي ها هو، كأنه القدر، كأنه المقدر، كأنه النداهة من دم ولحم ووجود ـ فهي الصاعقة التي انقضت على عقلها فصعقته. لا. . لم تكن إنسانة مرعوبة تلك الواقفة، إنما هي إنسانة

مصعوقة، مشلولة، منتهية، في ومضة واحدة انتقل لونها من البياض إلى الصفرة الرمادية الكاملة، صفرة الموت الرمادية، ومن إنسانة ترى وتسمع وتشعر إلى إنسانة أصابها الصمم وتوقف اللسان في حلقها وتضخم حتى كاد يملؤه. صاعقة بترت تماماً صلتها بالحياة.. كأنها الصاعقة التي انقضت على «حامد» حين رآها، والموت الذي تلا كان كالموت الذي داهمه، وبتلقائية غريزة البقاء وحدها مدت يداً قد بدأت ترتعش ارتعاشاً ظاهراً يرعب مشاهده، تمسك برأس السرير تتشبث بها، بينما الطفل من فوق صدرها ينزلق، وبالغريزة وحدها تحميه بيدها من السقوط المفاجىء فيصل إلى الأرض سالماً قد بدأ يبكي وينتحب. وما كاد هذا يحدث وتطمئن الأمومة حتى لم يعد للحياة نفسها أو التماسك قيمة، فبدأ الجسد يتمايل ويدوخ وينزلق مهدداً بالسقوط، بل سقط سقطة لم تتم، إذ في الحال وبجهد خارق، كان ذئبنا الضبع هناك يتلقاها بيديه الاثنتين وقد فغر فاه بالدهشة، فآخر ما كان يتصوره أن يحدث هذا وأن تسقط الثمرة من تلقاء نفسها بين يديه دون مشقة أو تعب، دون كلمة، دون حتى حركة واحدة أقدم عليها أو جهد ولو ضئيلاً بذله. لقد جاء وفي نيته أن يحارب معركته الأخيرة بكل قواه، واستعد ليواجه ليس فقط «فتحية» أو «حامد» وإنما العالم كله، استعد لأي شيء، للفضيحة أو القبض أو القتل، جاء وهو يائس تماماً أن يظفر منها بشيء.. فالتي تضن عليه بمجرد أن يلمسها أو يراها، هل من المعقول أن تنيله مهما فعل شيئاً أكثر من هذا؟ أكثر من أن تتاح له فرصة أن يراها،

مجرد أن يراها، ولو كان ثمنها فضيحته أو مصرعه، فإذا بها بين يديه طرية كالخرقة، مستسلمة تماماً متاحاً لـه منها كـل ما يمكن أن يحلم بـه، إذا بها أقـرب ما تكـون إلى جثـة، جثة لم تفعـل أكثـر من أنهـا أيقـظت فيه ذلـك الضبع القـديم الذي يسيـل لعابـه لمـرأى الجثث. الضبع الذي كان قد اختفى في أعماق شخص بلغ به الحب والـوجد والشـوق إلى «فتحية»، مستـوى رفعـه إلى مـرتبـة المحبين الكبـار. . محب مدله جرب السهد والسهـر والغيرة والشـك والعذاب، العـذاب الـذي نـال منـه وأوهن جسـده حتى رق ودق وارتقى بمشـاعـره حتى أصبـح يحس ويفكر ويتصـرف كشاعـر! فجـأة نفض الضبـع الكـامن الذي يكاد يختبىء ويموت تحت ما ترسب فوقه من مشاعر وطبقات. نفض عن نفسه هذا كله، وانتصب تلمع عيناه ببـريق الفوز ويـرتجف جسده ترقباً لمائدة المتعة الأكيدة المرتقبـة، لا يفصله عنها إلا لحـظة زمن يريد بكل ما يملك من شر وجشع أن يختصره حتى ليلغيه تمـاماً ويبدأ يلتهمها ويتلمظ.

وهكذا، ومنتهزاً فرصة الغيبوبة الكاملة العابرة كان قـد أرقدهـا على الأرض ودفع الطفل بغل فأبعده، وأطلق الطفل صراخه مـذعوراً عالياً لا يأبه له، بل انـه ليضيف كثيراً من البهـار إلى المائـدة الجثة. وبيد حديدية مدربة طوقها، وبيـد مرتعشـة بالـرغبة مبهـورة بالانتصـار الساحق السريع تكاد لا تصدق نفسها أو ما يحدث، دفع بنطلونه دفعة واحدة تعرى على أثرها تماماً، وبنفس اليد مزق مـلابسها وهـو يحس بالصوت الصادر عن التمزيق بنشـوة دونها أي نشـوة أخرى على وجـه

الأرض، وحتى لو كانت في طريقها إلى الموت على أثر نزيف مثلاً أو سكتة لكانت من غيبوبة الموت الحقيقي قد استيقظت، فللغريزة الحارسة للغريزة سلطان على الجسد أقوى من أي سلطان آخر.

وهكذا ما كاد يحاول أن يصل بانفعاله إلى آخر مدى حتى كانت، وكأنما مسها تيار مكهرب موقظ قد صحت، ومع أن الصحوة كانت صحوة عقل وإدراك إلا أنها بجماع ما تملك من طاقة وقدرة، بآخر رمق، بذلك الكم الضئيل من القوة التي يدخرها الجسد ليقول بها آخر «لا» في حياته، قاومت.. تململ جسدها يقاوم مقاومة لم تفعل أكثر من أنها استدعت إلى الوجود كل قوى الذئب الضبع الكامن وحشدها في ساقيه وذراعيه حتى التفت حولها كقيود من فولاذ لا يرحم، وبآخر ما تملك أيضاً تململت، وبكل ما يملك أطبق. وكان ممكناً أن تصرخ تستنجد بالناس أن يقاوموا لها ولكنها رفضت وأبت فالمعركة معركتها وحدها ولن يفعل ادخال الناس أكثر من فضحها إذ السهم الآن نافذ فعلاً، والمكتوب قد حدث، وقد يمنع الناس استمرار حدوثه ولكنهم أيضاً سيكونون شهود حدوثه، وتلك هي الكارثة التي تواجه الموت أو السقوط الخاص الذي لا يعرفه أحد، ولا تواجهها.

وحين فتحت عينيها ـ وقد ذهب الرعب وحل الغضب ـ تريد التفرس في قاهرها واتسعت عيناها دهشة وحقداً وخوفاً، فعلى بعد قراريط من وجهها كانت ترى وجهه لأول مرة وتتفرس فيه، فهي أبداً

لم تر وجهاً مثل وجهه حليقـاً ناعمـاً أحمر وسيمـاً، وعيناه خضـراوان لهما رموش طويلة، ورائحة حلوة، وأسنـان بيضاء مـرصوصـة بدقـة، وفمه حلو يتمنى أي فم أنثى أن يقبله، وابتسامة كبيرة. . ابتسامة فـوز وفرح تحتل الوجه كله وتظهر له غمازتين عميقتين على جانبي الوجـه وطـابـع حسن. . ابتسـامـة داعية نـاعمـة كـأنهـا واحـدة من آلاف الابتسامات التي كثيراً ما حلمت بهـا هي والأيدي الممـدودة تدعـوها في لطف وإصرار إلى ترك بر الأمان والغوص إلى القاع حيث الأشباح والطين. . ابتسامة ما أن رأتها حتى بدأت تتململ مقاومة من جديد إذ أحست وكأنها ابتسامة القاع نفسه، يدعوها وبخبث ونعومة ودهاء يريد التغرير بهـا. . مقاومـة لم تفعل أكثر من أنها مكنتـه تمامـاً منها حتى أصبح كل جزء فيها ملتصقاً وملتحماً بكل جزء فيه. لقد ظلت تخـاف من العفـريت حتى طلع لهـا، ومن وسـوسـة الهـاتف حتى تحققت. ظلت تصمم وتصـر وتحتاط حتى نفـذ السهم ووقع المحـظور وانتهى كل شيء، والخوف المستمر الدائم والهـاتف والحلم والحقيقة كلهـا قد التقت الآن في لحظة واحدة. . لحظة غريبة مفعمة مليئة محشـودة بآلاف اللحظات والخلجات. لحظة أخـطر ما فيهـا أنها تـدرك أنه لم تعـد هناك فـائـدة. حتى الـرعب والخـوف أصبح لا فـائـدة منهمـا، والمقاومة لم يعد لها داع بالمرة، فالسهم نفذ.

ولم يعـد أمامهـا إلا أن ترجـوه وتستعطفـه. لم يعد أمـامهـا إلا وسيلة العـاجز. . أن تبكـي. ولقـد بكت. . وأن تتـذلـل. . وأنـا في عـرضك، أنـا صاحبـة عيـال. دمـوع وكلمـات لم تكن تفعـل إلا أن

تضيف إلى الأكلة كل ما يتمنى الضبع العجوز إضافته من شطة وسلطة وعصير ليمون وخل، وحين استمرت تبكي وقد ازدادت حرقة البكاء ولوعته لم تكن تريد به مزيداً من رجائه واستعطافه، إنما كانت في الحقيقة تبكي من أعمق أعماق قلبها على نفسها وعلى عجزها.. بكاء.. يا للعجب! لم يستمر طويلاً.

فقد بدأت تحس بأشياء غريبة عجيبة تنفذ إلى ذاتها وجسدها.. أشياء جديدة مذهلة كبريق مصر الخاطف.. أشياء أحست معها كما لو أن كل النيون الأحمر والأزرق والبنفسجي ومهرجان الأضواء والألوان، كل الوجوه الحلوة الحليقة والملابس الغالية الأنيقة، كل الروائح العطرة المنعشة المخدرة، والشوارع الواسعة المزدحمة النظيفة، والمتنزهات، والأشجار.. حتى الأشجار مجففة الأوراق مقصوصة كتسريحات السيدات، كل الترمايات والعربات الفارهة، والسينمات والوجوه الخارجة من السينمات، والكباريهات والراقصات، كل الأطفال الأصحاء النظيفين والأمهات والأجزخانات والأرتستات، كلها تتجمع وتتسرب إليها.. إلى داخلها المرتعش الخائف المهزوم المبهور، وهي حتى في عجزها وادراكها ويقينها بالهزيمة التامة الساحقة بكل ما أوتيت من قدرة تقاوم ولا تكف عن المقاومة، والأشياء الغريبة الكثيرة لا تكف عن التسرب فتعود تقاوم مستميتة أكثر.. تقاوم مدينة بأكملها تتسرب إليها ورغماً عنها تتسلل إلى كل خاف فيها ومستتر، وكان لا بد في النهاية أن تكف عن المقاومة تعباً ويأساً، ثم يقيناً تاماً من اليأس، ويأساً تاماً من

أن معجزة ما لم تحدث وتنقذها في نهاية الأمر، وان بإرادتها وبغير إرادتها تماماً كما كان الهاتف يؤكد، قد حدث كل شيء. أما ما لم يذكره الهاتف ولا كانت تتصور للحظة أن من الممكن أن يحدث. أما أن تبدأ تتحول من استسلام مغلوب إلى استسلام مستمتع.. فهو رغم حدوثه الشيء الذي كان لا يمكن حتى وهو حادث أن تصدقه، فالمشكلة أنها ما كادت تبدأ تحس بهذا حتى كان الباب قد فتح، وعلى عتبته وقف «حامد» طويلاً رفيعاً. مصعوقاً أسمر غامق السمرة.

* * *

طالت وقفة «حامد» عند الباب الذي كان بلا وعي قد أغلقه. و«فتحية» مستلقية لا تزال يدها متشبثة برأس السرير وجسدها مفتوح الساقين مغطى وليس في عقلها سوى رغبة ملحة لا تنتهي أو تتزحزح.. أن يصنعها «حامد» وينتهي. انه الطريق الوحيد الذي لا بد يمتد إليه المقدر والمكتوب، فبعد كل ما حدث كيف يمكن للحياة أن تستمر؟ وكيف باستطاعة أي شيء أن يعود كما كان؟ إن الأمور لا يمكن أن تستقيم، ومستحيل أن يهجع أي منهما أو يرتاح راحته الكبرى إلا بأن تموت «فتحية»، وبيد «حامد» لا أقل.

لا حل للموقف كله إلا بأن يقتلها «حامد» ويستريح، وتستريح، ولكن الغريب أن الهاتف كلما وصل إلى هذا الحد كان يعود يطل برأسه ويؤكد لها أن «حامد» لن يقتلها، وأنها لن تموت، وأنها سيكون لها مصير آخر..

وتعب «حامد» من الوقوف الطويل المتفرس وجلس، وجاء الولد من الخارج «بزيطة» وطلب ملحّ للطعام، وحين أحس بالصمت الملغم المستمر انتابه غير قليل من الخوف فسكت، وما لبث أن نام.

وأظلمت الدنيا وأصبح ظلام الحجرة تاماً شاملاً.

ولم يجسر أحد أن يضيء النور.

بقي «حامد» على جلسته عند الباب يدخن من علبة السجاير الصغيرة التي اشتراها بما توفر له من نقود الأفندي.

و«فتحية» بهدوء شديد تجلس، ثم ترقد، ثم تعود إلى الجلوس، وتنتظر من «حامد» أن يفعلها وينتهي. كل ما كانت ترجوه بينها وبين نفسها ألا يأخذها على سهوة، إنما بطريقة أو بأخرى يرحمها، ينذرها، فلم يعد في جسدها ذرة واحدة قادرة على تحمل المفاجأة.. أية مفاجأة. ويكفيها ما رأت من مفاجآت.

حاولت مرة أن تتكلم فأسكتها «بزومة» منه.. «زومة» حيوان جريح.

وحين غفت عيناها لبرهة وصحت على نهنهة رجالية منخفضة مكتومة كادت تجن، غير مصدقة أخيلتها. هل هو «حامد» الذي يشهق ويبكي؟ أيبكي؟

أكان صنع هذا لو كانوا في بلدهم؟ أأصيب هو الآخر باللعنة وهزمته مصر ورخرخت إرادته وطبيعته حتى لم يعد قادراً على قتل زوجته وهو يضبطها متلبسة مأخوذة؟ أصحيح لزلتها يبكي؟

كادت تزحف إليه راجية أن يكف مطالبة إياه أن ينتهي فوراً عن بكاء النساء ويعود رجل القرية الذي عرفته، ويريحها، ويقتلها. كادت، لأنها حين فتحت فمها ترجوه تصاعدت صرخة كزئير أسد غاضب، سمرتها مكانها بلا حراك.

وفعلاً لم يقتلها «حامد»، وإنما في الفجر كانت العائلة الصغيرة تغادر باب العمارة الضخمة المهيب، وكان «حامد» يحمل عزالهم كله وقد لفه في ملاءة سرير صفراء حملها «بالزقلة» على كتفه، وباليد الأخرى كان يسحب الطفل الكبير نصف النائم، بينما «فتحية» في المقدمة تحمل الطفل الآخر. وبرغم أنهم خارجون إلى مصير مجهول لا تعرفه فقد كان ما تخافه في تلك اللحظة هو أن يبرد الولد فراحت تحوطه بذيل ثوبها الذي رفعته، ومضت تلفه به وتشتد في ضمه بينما نداء أخرس يرتفع منها ويهيب «بحامد» أن يخرج البطانية من اللفة ويحيط بها الطفل الآخر. نداء أبداً لم يغادر فاها، إذ هما لم يتبادلا منذ الأمس كلمة.

وسيراً على الأقدام مضت القافلة الصغيرة تحتمي من برد الصباح الباكر بالجدران، ويتركها ظلام عمارة لتتسلمها ظلال عمارة أخرى إذ كان قمر الفجر قد طلع.

قافلة صغيرة تتسلل منسحبة من المدينة الكبيرة الراقدة في صمت ولا مبالاة، لا تحس بهم ولا بما تحفل به صدورهم من أهوال، نائمة تشخر في براءة وضمير مستريح وكأنها ما فعلت شيئاً،

حتى لقد بلغ الغيظ «بحامد» إلى حد التفكير في أن يلقي «بصرة» العزال جانباً وينهال «بزقلته» ضرباً ودشدشة وتكسيراً على فتارينها المضيئة، وعرباتها اللامعة المستكنة، وحتى أسفلت شوارعها المغسول. كان من جماع قلبه قد أصبح لا يطيق حتى مشيه في شوارعها وهو يغادرها، لم تعد في نظره مدينة.. لقد أصبحت كابوساً خانقاً بشعاً!

وفي أول قطار قطع لهم «حامد» التذاكر.

لكنه عاد لبلدتهم وحده.

فقد غافلته «فتحية» في ازدحام القادمين والراحلين في باب الحديد وهربت.

عادت إلى مصر.. بإرادتها هذه المرة، وليس أبداً تلبية لهتاف هاتف أو نداء نداهة..

مسحوق الهمس

حين هدأت أتأمل الروعة في المسألة، وجدت نفسي أمامها كالطفل الصغير الأبله الذي وقف يحدق في الجسد العاري تماماً لسيدة ناضجة الأنوثة.. وهو غير قادر على الربط بين ما يراه وبين ذاته، أو حتى بين رغباته ومشتهياته الخاصة وبين هذا الجسد، المستسلم العاري الذي أصبح فجأة أمامه وملك ناظريه، ويديه، وحواسه.

كنت باندفاع وتهور وجنون فرحاً، ولكنه فرح لا أدري ماذا أفعل به أو لماذا اعتراني أصلاً؟ كاد اليوم يمر مروره الأزلي الخالد لولا أنه قبل «التمام» ربما بساعة، «ترت ترت» فوجئت ببابي يفتح، وعبد الفتاح الطويل الرفيع الأسمر يظهر. وقبل أن ينطق كانت عصاه الخيزران التي تفتتت نهايتها على ظهور «النبطشية» تدق كعصا «النقرزان» على باب الزنزانة، دقات كمزاج صاحبها في النهار عصبية متعجلة ملحة:

ـ يا لله! لم عزالك يالله! بسرعة يالله! شيل نزامك «نظامك».. برشك وبطانيتك وتعال بسرعة! «النزام» بسرعة بسرعة! يالله بسرعة!

كلماته الخارجة كتكتكة مفرقعة متلاحقة لمسدس أطفال، ودقات العصا «النقرزانية» وازدياد تفتتها، والإلحاح المزعج واللهفة والسرعة، وفي ومضة كنت أحمل كل ما يخصني في الزنزانة حتى «جردل» البول حملته فقد كان جديداً يوفر عليّ مئونة الحبس مع «جردل» قذر، وتبعته واضطراب الفرحة يبعثر خطاي. أعرف أنه مجرد «عزال» لا أفراح فيه ولا زيادة أو حتى أمل في أي منهما، ولكنه حدث هائل يقع، إذ هو جديد لم يحدث بالأمس ولن يتكرر غداً. إلى أين؟ لم يكن مهما.. حتى لو كان مع «الاخوان». لم أستطع ملاحقة خطوات «الأومباشى» عبد الفتاح السريع المضحك الذي يبدو به وكأنه يخوض سباقاً للأرجل الخشبية، وبدأت المسافة بيني وبينه تتسع وأنا أجاهد ولا أستطيع، وكأنني من طول الجلوس نسيت المشي. بعد بضع خطوات بدأت ألهث وأتساءل جاداً هذه المرة عن وجهتنا، إذ كنا قد غادرنا السلم الهابط إلى أسفل، والثاني الصاعد إلى أعلى، وتركنا منطقة «الاخوان» والمحبوسين احتياطياً وتحت التحقيق، ولم تعد سوى أمتار قليلة وينتهي «العنبر». أتكون وجهتنا نهاية «العنبر»؟

بالضبط، عند باب آخر زنزانة وجدت «الأومباشي عبد الفتاح» يتوقف، ويستدير بسرعة إنسان انفلت عياره ويمضي جسده يتململ ويتشنج ضيقاً بتخلفي وراءه:

- بسرعة! بسرعة بسرعة! النزام.. نزامك بسرعة!

- يا أومباشي أنا مش..

ـ من فدلك! من فدلك! ما فيش كلام! ما فيش كلام النزام! بسرعة خش أودتك . . بسرعة بسرعة!

وبسرعة بسرعة دخلت، و«ترت ترت» انغلق الباب ورائي بالمفتاح، ووجدت نفسي جالساً فوق «النظام» مسند الظهر إلى الحائط، نفس جلستي من دقيقتين . . دقيقتان هذا صحيح، ونفس الجلسة، ولكن يا له من فارق! فارق جعلني أخبط جبهتي بيدي خبطة ارتج لها عقلي. إن الزنزانة الجديدة التي انتقلت إليها وإن كانت تقع في نهاية «العنبر» لكن «العنبر» لا ينتهي بها، إذ هي في الحقيقة تقع في منتصفه، فالنصف الثاني كله مخصص لسجن النساء.

النساء!

من قال إن السجن هو فقط مصادرة حرية الإنسان؟ إن فقدان الحرية ليس سوى الاحساس السطحي الأول، فالإنسان يظل يفقد أشياء كثيرة جداً . . كل ما يملكه أو باستطاعته امتلاكه، كل قدراته ومكتسباته، كل صلاته وقراباته وأحلامه وطموحه، كل ما ينفرد به كشخص وكل ما يتساوى به مع المجموع . . كلها بعد معارك استماتة وتشبث طاحنة، لا يلبث أن يجدها رغماً عنه وأمام ناظريه وبقوة الحبس والعزل القاهرة، تتسرب واحدة وراء الأخرى وهو لا يملك لها رداً ولا منعاً، حتى الأمل في خروجه من ذلك «الليمان» والافراج عنه بعد أيام طويلة من المراودة والمطاردة والالحاح، إلى درجة أن يفسر كل فتحة باب على أن الشاويش قادم بأمر الإفراج، وكل حذاء

ثقيل يدق أرض «العنبر» على أنه حذاء المأمور أو المدير جاء يحمل قراراً خاصاً بالافراج. كل شعاع شمس يدخل على أنه آخر صباح، كل غروب أحمر مخنوق شنقت نافذة زنزانته شعاعاته وخنقتها على أنه آخر غروب، حتى تصل الأزمة أحياناً حد تهديد العقل، وفي مرات تطيح به، ثم يصحو الإنسان ذات يوم وهو يحس بالراحة الكبرى وقد انتهت الأزمة، ومات الأمل تماماً وحل اليأس الكامل. حين ذاك فقط تبدأ حياة السجن الحقيقية.. حياة أخرى مختلفة عن حياة الناس. حياة لا أمس لها ولا غد، وإنما طولها يوم واحد بالتحديد ذلك اليوم الذي تحياه.. يولد المسجون مع صاحبه ويحيا أحداثه وكأنها أحداث حياة بأكملها عريضة وافرة الغنى. إن مد فترة الذهاب إلى دورة المياه من ١٠ دقائق إلى ربع ساعة تعادل في الفرحة بها قرار يصدر بمنحه إجازة ثلاثة أشهر يقضيها على حساب المصلحة في أجمل مصايف أوربا. إن تغيير «الحلاوة الطحينية» في العشاء بالعسل الأسود يتجاوز في أثره واحتفال المسجون به قراراً استثنائياً بمضاعفة مرتبه إلى حد ينقله من طبقة تتعشى بالعسل الأسود إلى الطبقة التي تتعشى «بالكافيار والرومي». إن العثور على قطعة ورق من جريدة قديمة حتى لو كان تاريخها يرجع إلى أعوام مضت وقراءة أي خبر فيها عن أي شيء ولو كان العثور على لقيط بجوار مستشفى «أبو الريش»، يعادل الدهشة والذهول الذي ينتاب إنسان الحياة العادية حين يفاجأ بالجرائد تنشر على صدرها بالبنط العريض نبأ اكتشاف سر الحياة. بل كانوا يحضرون لنا الطعمية في الصباح

ملفوفة ـ زيادة في تعذيبنا بمنع أي متعة عنا ولو كانت قراءة الأخبار القديمة في الصحف العربية ـ في جرائد ألمانية لا أعرف من أين استطاع المتعهد الهمام أن يعثر على كل تلك الكميات منها.

وكانت جرائدي اليومية هي تلك القطع المشبعة بالزيت من أوراق الصحيفة الألمانية التي لم أعرف لها اسماً. أما وقد انقطعت عنا تماماً أخبار العالم الخارجي فقد كانت أخبار الصباح بالنسبة لي ليست أحداثاً أو «مانشتات» أو حروباً وثورات واكتشافات، كانت أخباري أن أنجح رغم بقع الزيت في قراءة كلمة ألمانية كاملة ونطقها. كل صباح كنت لا أترك الورقة حتى أنجح في قراءة كلمة، وحينئذ أضع الورقة جانباً وأتنهد بأعظم وأعمق ارتياح. أقسم أنه كان أعظم وأعمق من ارتياح قد يحسه إنسان قرأ مع افطاره كل جرائد العالم وعرف أخباره واطمأن أن كل شيء فيه على ما يرام. أما المتعة الكبرى.. المتعة التي لم يظفر بها إنسان، فهي تلك التي أحسها حين أنجح مستعيناً باللاتينية التي أعرف بعضها وبالانجليزية والفرنسية وبالفهلوة المصرية أن أعرف معنى كلمة نجحت في قراءتها. وأبداً أبداً لا يمكن للزمن أن ينال من فرحتي ذلك الصباح الذي نجحت فيه في معرفة معنى كلمة «فريدان» وخمنت أنها «الحرية».

النساء!

تلك الحياة المسجونة الثانية التي تجد نفسك تحياها وتخضع لقوانينها.. حياة كحياة المشلول أو من أصيب بالعمى أو فقد بعض

عقله ـ أضيق قليلاً من حياة النـاس ـ ولكنها أيضـاً مزدحمـة، بل حتى أناسها ليست لهم شخصيات جديدة لا بد تختلف بـدرجة أو بـأخرى عن شخصيـاتهم التي يعرفهم بهـا الناس في دنيـاهم العاديـة. تفاجـأ أحيـانـاً بمن كـان طبعـه الضجـر والملل والتكشيـر وقـد تحـول إلى «بلياتشو» وأصبحت شهرته أنـه «ابن نكتة» ومجلسـه «مجلس أنس»، والمخيف المرعب وقد تحـول إلى فأر مـذعور، والمتـواضع الغلبـان وقـد انتصب من داخله شجاع عنيـد. وأحيانـاً يضـاف إلى كـل منهم «لحسته الخاصة». . اطلاق الـذقن مرة، أو الاغـراق في الصلاة، أو موهبة قول الشعر وكتابة القصص وقد نمت فجأة وبـلا سابق انـذار. . وتتجمع فثات تلك الحياة الموازية الخاصة وتستديـر كي تصنع حيـاة تكاد تكون كاملة، أقول تكاد لأن أمراً حيوياً واحداً يظل ينقصها.

النساء!

بعـد ما تنتهي من إعـادة تذكـر كـل قصص الحب والعـلاقـات بالنساء في حياتك وتجترها مراراً، بعد ما ترتـوي ما شئت من أحـلام يقظتك ومن تصورك لكل ما استحال عليك بلوغه ممكناً، وكل وقـائع فشلك وقد انقلبت إلى معارك فوز وانتصار. . بعـد ما تستميت دفـاعاً عن كنـوز ذكريـاتـك تلك ضـد العـدو الأوحـد. . السجن وعمله في النفوس، تبدأ تحس أنها رغم استماتتك تتسرب من قبضتك المطبقـة عليها وتتركك وقد بدأت تنسى أنك رجل، إذ قد تلاشى من وعيك كل ما كان يذكرك بـرجولتـك واختفت من عالمـك الجديـد كل لمحـة أو ـاردة تعيد لـك الذكـرى، وهكذا تحيـا ونفسك الجـديدة تعمـر بكل

شيء من آيات الحياة إلا منطقة منها محددة مجدبة قفـراء لا أمل لهـا في ماء أو نماء.

هكـذا جلست أحدق في الحـادث المروع الـذي وقـع والـذي نقلني فجأة من عالم اندثرت فيه الذكورة والأنوثة من زمان وانمحت، إلى وضـع أنا فيـه أرتكن إلى حائط ليس وراءه إلا نسـاء في نساء.. كبيـرات وصغيرات، وسمينـات ورفيعـات، وبيضـاوات وسمـراوات، وعلى كـل لون وبـأي شكل تشتهي وتـريد.. أحـدق مروعـاً مشتتـاً، عاجزاً عن أن أصنع أي شيء بالمرة.

إني في الزنزانة التي يتقاتل المساجين عليها ويقدمون الرشاوي «لشاويشية» الأدوار كي يمنحوهم إياها.. في الزنزانة الشهيرة التي لا يزال السجن يتناقل جيلاً بعد جيل قصـة الواقعـة التي جرت فيهـا يوم أن احتلها أحد «اللومـانجية» الـذي قضى عشر سنـوات في «الليمان» وكان لا يزال أمامه على الافراج عنه عشر سنوات أخـرى، وكان مـاراً على السجن في «ترحيلة»، واكتشفوا في الصباح أنه استطاع بجبروته والاستعـانة «بمـطواتـه» التي مهمـا فتشتـه لا تعثـر لهـا على أثـر، أن «يثقب» الحـائط المبني من «الدبش» والكـائن بين زنزانتـه والزنـزانـة المجاورة في سجن النساء، بحيث أمكنـه أن يصنع «ثغـرة» نفذ منهـا بجسده إلى جاراتـه المسجونـات الثلاث الـلاتي تقبلن الحفر والثقب واللومانجي دون استغاثة بل يقـال أنه «ضـاجع» حـارسة الليـل نفسها حين جذبت انتباهها أصوات عدم الاستغاثة.. منذ ذلك اليوم أقـامت إدارة السجن حائطاً ثانياً سميكاً جعلت مونته من الأسمنت هذه المـرة

من المحـال أن ينجح أحـد في ثقبه حتى لـو كان قـادماً من حـرمـان مؤبد.

أذكر الحادثة لأنها بعد مدة ـ وعقلي أبيض منتفـخ بفكرة حـظي الهـائل.. سـاكن لا يملك حراكـاً ـ حين بدأ يتحـرك كـانت حـركتـه الأولى هـوجاء مجنـونة على هيئـة فكرة أن أثقب الحـائط، وحيث ان المونة من الأسمنت فـلا بد من استعمـال أصبع من الـديناميت أكلف أحد العساكر بشرائـه، وما دامـوا يهربـون كل شيء إلى السجن حتى المخدرات.. فلماذا يستعصي الديناميت؟ ويصنع لي فتحة أدخل بها إلى بيت اللحم المجـاور، اللحم الشهي الحي الذي لم أذق طعمـه من سنوات؟

ومع أني رحت أخرف وأبذر في تخريفي على تلك الصورة وأنا أحس بنفسي سعيداً منتشياً سكـران بالنشـوة، إلا أنه عـاجلاً أو آجـلاً كـان لا بد أن أبـدأ أتبين الوضـع على حقيقته، وأدرك بجلاء ووضوح وثبات أني أصبحت في مكان ليس بيني وبين ما لا يقل عن أربعمـائة امرأة فيه إلا خطوة ـ حتى لو كانت على هيئة حائط فهي لا تعدو كونها خطوة ـ تأملاً بدا مخي معه يسخن وترتفع حرارته حتى يبدأ يفرز عرقاً داخلياً غزيراً على هيئة رذاذ من الأفكار المتلاحقة.. وكنت أعرف أنه مهمـا تنـوعت أفكـاري وتشتت فـلا بـد أن أبـدأ بعـد «التمـام» في الخامسة، أدق..

* * *

إن الحياة الحقيقية للمساجين لا تبدأ إلا بعد أن يزول ارهاب العيون الآمرة الناهية التي لا عمل لها إلا أن تمنعك من كل ما تملك حق منعه، وكأن السجن في الحقيقة ليس إلا كلمة «ممنوع» كبيرة وشاملة.. ممنوع كل شيء إلا ما يبقى عليك الحد الأدنى اللازم كي لا تموت، لا لأنهم يريدون لا سمح الله لك البقاء، ولكنهم يريدون لك أن تحيا حياة الموت معها أرحم، إذ ممنوع عليك فيها كل ما يجعل من الحياة متعة، والمباح فقط هو كل ما يجعلها عبئاً وعذاباً وقيداً ثقيلاً تتمنى لو تخلصت منه واسترحت بالموت. ولكن الغريب أنهم لم يستطيعوا، وأعتقد أنهم أو غيرهم لن يستطيعوا مهما اتخذوا من احتياطات وبالغوا في قائمة الممنوعات أن يخلقوا ذلك السجن الكامل الذي يحلمون به، فقد استطاع الإنسان دائماً أن يجد حرية داخل كل قيد على الحرية، وأن يخلق داخل كل ممنوع ما هو مباح. ولهذا لا تبدأ الحياة الحقيقية إلا بعد زوال حراس المنع من ضباط وشاويشية، والعهدة بالرقابة إلى حرس الليل العزل، وهؤلاء كالمساجين تماماً ما أن تزول عنهم الرقابة حتى - في معظم الحالات - ينطلقوا على سجيتهم. ما أن يدق جرس «التمام» ويطمئن المأمور أن العدد مضبوط ولم ينقص واحد أو يهرب واحد حتى يفرج كل مسجون عن نفسه، فيبدأ يتكلم مع من يشاء من جيرانه، ويسكت حين يشاء، ويزعق إذا عن له، ويغني متى أراد، ويقول رأيه في أحداث اليوم، ويشتم ويسب.. أجل ويسب، وما أكثر كمية السباب التي تغادر الأفواه بعد «التمام» وكأن السباب غريزة ومزاولته ركن من

أركـان الحريـة. وهكذا لا يبقى من السجن الكـامل الـذي أرادوه إلا جدراناً صمـاء هي الوحيـدة المحبوسـة داخل مسـاجين يشبعونهـا دقاً وضغـطاً واختراقـاً بأحاديثهم وصـراخهم دون أن تجسـر على منـع أو اعتراض.

وكـانت حريتي ومـا هـو أكثـر من الافـراج في رأيي، أن تـأتي الخـامسة وتقـوم الضجـة لأستـطيـع محتميـاً بهـا أن أبـدأ أدق وأعلم الجارات بوجودي، إذ من لحظة الوعي فقط سيبدأ أروع وأهم حدث في حياتي تلك..

وقلت وأنـا أدلـل الاحتمـالات تـدليـلاً لا يحـدث إلا والهـدف العظيم في جيبك تداعبه متلذذاً مستثيراً لشهيتك: ربمـا هن لم يعدن بعـد.. ربمـا هن في الحمـام أو في المنسج. ولكن أشعـة الشمس أصبـح بينهـا وبين السقف في زنـزانتي مـا لا يـزيـد عن العشـرة السنتيمتـرات بما معناه تعديها الخامسـة والنصف، وأنا أدق ولا أحـد يجيب. ربما سمك الحائط؟.. بقوة أكبر «بالجـردل» نفسه، بقـدمي وقـوة الساق الهـائلة رحت أدق.. وفي الحقيقة لم أكن أدق بقـدر مـا كنت أطرد بشدة احتمال أن تكون نتيجـة هذا الاحتشـاد والفرحـة إلى درجة الوصول إلى تدليل الاحتمالات أن الزنزانة المجاورة خالية تلك الليلة. ومن يـدري ربما غـداً أيضاً ولليـال كثيـرة مقبلة. كنت أطـرده بشدة لعلمي أن البله الذي قـابلت به المسـألة أول الأمـر كان راجعـاً إلى أنهـا من الضخامـة بحيث لا تصدق، وأني حين صـدقتهـا فعـلاً وبدأت أتصرف كانت قد غورت في كياني وعقلي وأحلامي إلى درجة

أصبحت معها خيبة الأمل إذا حدثت شيئاً بشعاً شريراً لا يتحمله بشر.

في السادسة توقفت عن الدق. لم تكن أول مرة أقرر فيها التوقف ولكنها كانت المرة التي قررت فيها التوقف بلا عودة. لم يعد لديّ أدنى أمل في استجابة أو رد بل حتى الأمل في ذلك. الأمل كان قد انتهى وأصبح عليّ أن أعتبر الموضوع كأن لم يكن، وأن أجهز نفسي لقضاء الليلة في زنزانتي الجديدة تلك مثلما كنت أقضي الليالي في الزنازن القديمة.. أفكر بلا هدف في لا شيء حتى تتزغلل قوى عقلي وتنهار فأنام.

انها لكارثة محققة.

فصحيح أنه لم يكن قد مر أكثر من ساعتين منذ عرفت الخبر. لكن المشكلة ليست أنه استثارني أو هيج كامن أشجاني.. المشكلة أني لم أعد أنا.. أني فجأة وجدت نفسي أمام إنسان آخر انتفض من داخلي مارداً عملاقاً رهيباً، لا علاقة بينه وبين الإنسان الذي كنته طوال ذلك اليوم والأيام الكثيرة التي قبله. الإنسان الذي كنت قد اعتدته وعرفت حدوده وخصاله ومزاياه. لم أدرك أنه كان على تلك الدرجة من الموت إلا حين انبثق ذلك الآخر. إلا حين أحسست وكأنما أرى بعيني الحياة تتدفق ـ لدى ذكر النساء وعالمهن واستحضار المرأة في ذهني ـ غريزة وحشية مكتسحة كأمطار الصيف فوق خط الاستواء. تنهال على سطح البحيرة الآسن الراكد البليد الذي ألت إليه بجسدي وأفكاري وأحلامي وانفعالاتي. مجرد وقع الكلمة على

الأذن «النساء» بذلك التضاد القاهر المكهرب معك، المناقض تماماً لك، الذي تحن إليه وترغبه وتريده كما تريد الحياة نفسها.. مجرد تصورك لأجسادهن المختلفة، لانبعاجاتها المثيرة، لملابسهن - حتى ملابس السجن الواسعة، لروائحهن الخاصة.. دائماً خاصة كبصمات الأصابع، لأصابع أقدامهن الصغيرة كالجرذان الوليدة المنكمشة على نفسها، لأياديهن النحيفة زرقاء العروق، للعيون.. عيونهن واحساسك أنها عيون امرأة ورموش أنثى.. ترسل نظرات تدرك أنها نظرات أنثوية منتزعة من أعماق امرأة ومرسلة إليك مضمخة بأنوثة تلون حتى شعاعات البصر - المرأة - الصدر الحنون والقلب الرحيم والكلمة الحلوة الرقيقة والأفخاذ التي يفقد بينها الرجل صوابه. بركان تفجر لا سبيل إلى إيقافه، قوى وافدة، غريبة، ملايين من شحنات كهربية حية أحسست بها من منبع خفي في جسدي تتفجر كالنهر الغاضب في فيضانه يكتسح. جن وعفاريت وأفكار مجنونة حافلة بذكاء لامع براق وطموح هائل وأحلام شهية تتولد وتتكاثر وتغمر الدينا بأسرها. هكذا لا بد فتك ذلك اللومانجي بالحائط فقد كان باستطاعتي ساعتها أن أثقب الجدران أو أهدها أو أحطم المعبد. قوى لم أعد أقوى على السيطرة عليها فأصبحت حرة تستطيع أن تفعل ما تشاء، تقدم على الفرار أو تقتل حارس الليل، أو تضاجع الحجر. العشاء التهمته في غمضة عين ودار حارس الليل على الزنازن يلم لي ما بقي من طعام، وبنهم جشع رحت أدخن حتى أتيت على نصيب الأيام القادمة الذي قسمته بعناية وادخرته.

أحياناً كنت أمسك رأسي بيدي وأضغط عليه بشدة مخافة أن ينفجر وكل أملي أن تأتي ساعة النوم وأهدأ، ولكني كنت متفائلًا جداً، فها هو برد الزنزانة يشتد، والظلام يقل علامة طلوع الفجر. وليس في عيني أو كياني كله لمحة نوم واحدة.

* * *

في اليوم التالي لم أنتظر «التمام» النهائي في الخامسة.. في ساعة القيلولة دققت دقات عنيفة مختلسة يائسة. وفي نهاية اليوم دققت وكثيراً ما منعت نفسي أن أدق الحائط برأسي غيظاً غير متصور أبداً أن يكون حظي بهذه التعاسة، وأن تظل الزنزانة خالية أيضاً لليوم الثاني. والمضحك أن اسبوعاً بأكمله مضى وأنا كل يوم أدق، وأفعل هذا مع أن حريتي في الدق كانت محدودة بتلك الدقائق التي تعقب «التمام» مباشرة حيث بعد السكون الشامل المفعم تنطلق في أنحاء العنبر ثمانمائة حنجرة تصرخ كلها في وقت واحد، ويزاول أصحابها متعة الكلام بعد اجبار طويل على السكوت. ومع انتهاء الضجة تنتهي محاولاتي وفرحتي، ومع هذا فما أكثر ما غامرت ودققت في ساعات الصمت وأنا أحاول بكل قواي أن أكتم الصوت، بل أحياناً كنت أستيقظ من النوم لأجد نفسي قبل أن أفيق تماماً أدق..

ولا أذكر كيف فقدت الأمل، فقد كان لا بد طال الوقت أم قصر أن أفقده. كان واضحاً أن «عنبر» الحريم يشكو قلة الزبائن، وأنهم يؤثرون هناك أن يجعلوا المنطقة القريبة من «عنبر» الرجال آخر

ما يستعمل. وعلى غير ما كانت البداية حادة ومتفجرة وعنيفة كانت النهاية بطيئة طويلة ممتدة، وكأنما عن عمد.. وكأنما رفضاً للفقدان التام للأمل، والتلكؤ لعل وعسى تحدث المعجزة.

وحتى تلك النهاية التي بدت كالحدث الفاجع أول الأمر، انتهت هي الأخرى كنهاية، ومع الأيام ذابت كي يعود الموات إلى كل شيء وتصبح البحيرة الراكدة أهدأ ما تكون وآسن ما تكون. كل ما في الأمر أن طعماً مريراً ممتداً.. طعم الفشل، كان قد أضيفْ إليها.. طعماً كنت متأكداً أنه هو الآخر لا يلبث أن يزول، ولا تلبث الحياة أن تعود بي إلى ذلك الإنسان الآخر الذي كنته.

بالاستطاعة إذن إدراك هول الزلزال المفاجيء الذي هز أركان نفسي.. حين سمعت ـ أجل سمعت ـ بأذني هذه دقات تأتيني عبر الحائط السميك.. في ضجة ذات «تمام».

وشكراً للسجن الانفرادي أن أحداً لم يرني ساعتها وأنا أقفز في الهواء وأدق الحائط من أعلى ومن أسفل، ثم أستجمع كل قواي وأثب وثبة هائلة أتعلق بها في حديد النافذة وأصرخ وأغني وأقلد طرزان وأتشقلب.. رأسي إلى الأرض وساقاي في الهواء، وأعوي.. بأعلى صوتي أنادي جاراتي جميعهن ناعتهن بألفاظ لا تخطر على بال سكران، وأعود أدق وأدق فقط كي أدق وأنا فرح فرحاً حقيقياً أحس به. ونحن في الحياة العادية التي نتعامل فيها مع الفرح والحزن والاكتئاب والتفاؤل نفقد الاحساس بهذه الانفعالات بكثرة المزاولة..

«نعرفها». . بحيث لا نعود نتوقف عندها أو نكتفي بها. إذا نجح فينا أحد يجد نفسه يكاد لا يحس بالنجاح ساعة وقوعه إذ هو على الفور يبدأ يتساءل عما بعده، عما يفرح أكثر، فالنتيجة أننا لا نفرح في السجن حين يحدث ما يفرح من طول افتقادنا للفرحة، نحس بها. . نلمسها وتضطرب بها أجسادنا وتحفل بطاقات من نشاط الفرحة الغامر، ونرى أبواب أمل واسعة في صدورنا تتفتح، وتنبهر بالنور الكثير يكتسح أمام أعيننا الظلام الكثيف الرابض داخلنا. . فعلاً نفرح، لا يهمنا كثيراً ما بعده بقدر ما يهمنا أنه جاء وأننا نحياه. لكأن كلما ضيقت علينا الحياة اتسع احساسنا بها، وكلما قلت كميتها أصبح لكل دقيقة من دقائقها وقع أروع وأثمن.

ولم أفطن إلى زوال ما بعد «التمام» إلا حينما بدأت أعي أني الوحيد الذي يحدث ضجة، وكما كان على «العنبر» أن يثوب إلى هدوئه الليلي كان عليّ أن أبدأ بروية أكثر. ها بعد طول صبر ويأس وانتظار قد غمزت السنارة. . وهأنذا متأكد أن صيداً سميناً كبيراً على الناحية الأخرى. . صيداً قادماً من تلقاء نفسه، وهو الذي بدأ، وعليّ بكل ما أوتيت من قدرة وحذق أن أظفر به كاملاً. وبانتظام بدأت أدق وأرهف أذني ـ وهذا هو الأهم ـ كي أتسمع الرد. كانت تأتيني أصوات خافتة بعيدة كالقادمة من أعماق بئر، وكانت أذناي تلتقطها وتترجمها وتنقيها وتحولها من دقات إلى لغة. . ومن لغة تتكلمها اليد إلى لغة يحسها الشعور ويدركها العقل. إنها مثلي بمفردها، وهاتان الدقتان السريعتان المتصلتان معناهما أنها قلقة هي الأخرى، خائفة

مثلي أن يحدث ما يقطع الاتصال. تلك الدقة الوحيدة التي لم ترفع اليدين عن الحائط بعد دقها.. إنها ابتسامة اطمئنان، ألمحها. فمثلما يطمئنني قلقها لا بد أن قلقي يطمئنها. ما أعذب هذا! ما أروع أن أعثر في وسط صحراء مترامية الأطراف، في آخر الدنيا هنا، حيث لا حضارة ولا أنس ولا بشر، حيث انتهى العالم من زمن، أعثر على أنثى، أدق لها فتدق لي، وأضطرب خوفاً من فقدانها فتبتسم لي في حنان واطمئنان. لقد عرفت الحب أكثر من مرة.. الحب المحموم المجنون الذي ينهش الصدر ويعتصر الروح، الحب الذي ينسيك من تكون وما كنته وما يجيء به الغد، الحب الذي من طينته خرجت قصص الغرام الكبرى، وجن قيس وانتحر فرتر وماتت جولييت. بعد الحديث القصير الذي تم بالأيدي أحسست وكأنني عثرت على سيدة عمري، أحسست أن حبي الثالث ذلك الذي لا يقاس بجواره أول أو ثان، ذلك الذي طالما حلمت به وخشيته وطالما هفوت إليه وأرعبني مجرد التفكير فيه، عرفت أنه هكذا ودون كلمة أخرى قد بدأ. إن قصتي مع المرأة حرب دامية طويلة بدأت من يوم مولدي ومع أول امرأة عرفتها.. أمي! حرب انتهت بخوفي من المرأة إلى درجة عبادتها، والحقد عليها إلى درجة الرعب المقيم أن يتحول الحقد إلى حب فأودعه كل شوقي المريض إلى المرأة منذ أن كانت أمي إلى أن أصبحت غريمتي وعشيقتي، وأفقد في تلك المعركة.. في الحب.. نفسي تماماً. وهكذا بمقدار تعطشي للحب كانت محاولاتي للهرب، ولكني هذه المرة بإرادتي المدلهة أختاره حتى لو كان فيه ـ وحتماً

فيه ـ هلاكي. هـذه المرة لا صـراع ولا محاولات مستمـرة للتراجـع. إني أندفع بكل قواي وأدق وأكاد أموت متعة وتلذذاً، والرد يـأتيني دقاً أنثوياً واهناً مبحوحـاً. أرى اليد التي تـرسله بيضاء صغيـرة ذات شعر ميكروسكوبي أصفـر، وأظافـر بلون دم الغزال الشـاحب، يد أعـرفها وأقبلها وأقبل كل أصبع فيها. . وبلساني ألثم ما بين الأصابع.

وأصبح واضحاً من دقـاتنا المتتـالية المتشنجة أننا في حـاجة لاقتراب أكثر. لم تعد لغة الأيدي القاصرة قادرة على ترجمة ما يغلي داخلنـا من انفعالات. كـان لا بـد أن نتكلم! وللمسـاجين طـريقتهم الشهيـرة في التخاطب عبـر الجدران هي وضـع «كسـرولـة» الـطعـام الفـارغـة من نـاحيـة فتحتهـا على الحـائط وتقـريب الفم من قـاعهـا للتكلم. . أو الصـاق الأذن بـه لـلاستمـاع. ورحـت من خـلال «الكسرولة» أتحدث وأحاول الانصـات. . ولـم أعجب حين بدا وكـأن لا صوت هناك. كنت أعرف أن الجدار سميك، وهكذا رحت بأعلى وأحد ما أستطيع أهمس محـاذراً أن يسمع الحـارس همسي، والوقت يمضي ومحـاولاتي لا تكف، وحنقي وضيقي قد بلغـا درجة أصبحت معها لا أحفل حتى أن يسمـع الحارس. كـانت تعاستي تكـاد تذهب بعقلي وأنـا أرى نفسي لا يفصلني عن الأنثى التـي استـجـابت لـي وبدأت معها مغامرة العمـر الثالثـة إلا جدار عمـره ما وقف حـائلاً بين مسجـونين. . أقرب مـا تكون مني. . أبعـد ما تكـون عني، وأنـا بين النقيضين مشدود أتمزق غيظاً وألماً.

ولـم يكن لي من منقــذ إلا أن تحـدث معجـزة فيتفق وضعي

«للكسرولة» مـع وضعها بحيث تلتقيـان عند نفس النقـطة من الحائط فيمر الكلام مبـاشرة من إنـائها لإنـائي. وكيف لي أن أعلم أنهـا هي الأخرى وصلت إلى نفس استنتاجي وبـدأت تبحث عن مكاني مثلمـا بدأت أبحث عن مكانها. ويا له من مشهد ذلـك الذي كـان مقدراً أن يراه الرائي لو أتيح لـه أن يشاهـد كلينا في نفس الـوقت بحيث يتابـع تلك اللعبة الخالدة الدائرة ربما منـذ بدايـات الخليقة، ذلـك البحث الـدائب عن ملتقى بين اثنين أقرب مـا يكونـان وأبعد مـا يكونـان، لا يفصلهما سوى بضعة سنتيمترات من حجر أو طبقة أو جنس أو لون.

أناديها بأعلى وأقوى ما أستطيع من همس:

ـ سامعاني؟

وتناديني دون أن أسمع لها صوتاً:

ـ أنت فين؟

وكـلانا أعمى محمـوم بالـرغبـة، يتحسس بـالغـريـزة وحـدهـا والسليقـة طريقـه إلى الآخر، وأبـداً أبداً لا يفقـد الأمـل. وكم بـدت المهمة سهلة أول الأمر، إن هي إلا بضعة أمتار مربعة بـاستطاعتي أن أمسحها طولاً وعرضاً وحتمـاً سأنتهي بـالعثور عليهـا. ويمضي الوقت بطيئاً، قاتل البطء، وتستحيل الأمتار القليلة إلى غابة مترامية الأطراف من المحال أن تلتقي برفيقك أو يلتقي بك بمجـرد بحثك عنـه وبحثه عنك.

ولكن، حتى بقانون الصدفة المحضة كان محتماً أن نلتقي فما بالك وثمة قانون مقدس أعلى كـان يحكمنا في ذلـك الوقت، قـانون

الأنثى والـذكر. ولم أكن في تصـوري أطلب المستحيل وأعتقـد أني سـأستطيـع التحدث إليهـا عبر الإنـاءين بحيث تسمعني وأسمعهـا في وضـوح. كان يكفيني مجـرد أن أسمع صـوتها الأنثـوي . . مجـرد أن أستطيع تمييـز نطقهـا المخالف وأطمئن بـالدليـل المادي إلى أنني لا أحلم ولا أتصور ولا أبني انفعالاتي على وهم، وإنما هناك وراء هـذا الحائط أنثى حقيقية من دم ولحم. وحين حـدث اللقاء وبـدأت أذني المنتبهة أدق انتباه تلتقط ما يأتيني عبـر الحائط، كـدت أصاب بخيبـة الأمل، فقد جاء الصوت وكأنه ليس نافذاً من خلال الحائط وإنما كأن الحائط، أو ما هو أثقل بكثيـر من الحائط. كـأن جبلاً بـأكمله قد مـر على كلماته وحروفه فسحقهـا كما كـان القطار يسحق مـا نضعه فـوق قضيبـه من مساميـر ونحن صغـار فيحيلهـا إلى رقـائق معـدنيـة كحـد المـوسى. لم تكن كلماتٍ أو حروف وإنما مسحـوق همس لا تستطيـع تمييز جمله، تهشمت ودكت بحيث استحالت إلى أصـوات متصلة أو متقـطعة، كـالأنين مرة وكـالصفير مـرة أخرى. . كسين طـويلة بـطول السطر أو كماثة دال متتابعة، وأيضاً لا تعرف حتى نوع الصـوت الآتية به فهو أحياناً غليظ كأصوات الـرجال وأحيـاناً دقيق رقيق كـأن مصدره عصفـور كناريـا. ولا بد أن صـوتي هو الآخـر كان يصلهـا على نفس الصورة. ولكن كما لم تَستـطع الجدران أن تحـول بين قانـون الذكـر والأنثى وبين أن يأخذ مجراه فكذلك لم تقف اللغة المهشمة والهمس المسحـوق حائـلاً، بل مثلمـا أحلنا الجـدار الذي كـان مفـروضـاً أن يفصل بيننا إلى وسيلة اتصال، فكذلك أحلنا اللغـة المهشمة إلى أداة تفاهم.

وبالهمس المسحوق رحنا نتحدث، حديث المحبين الخجول المتعثر المفضي دائماً إلى الحديث عن النفس، والاعتراف، وكان كل منا قد وجد القلب الحنون الذي يهدهد على كلماته ويغفر أخطاءه ويجد المبرر لذنوبه وعثراته.

ومن همسها المسحوق راحت تتجسد لي، وكما يستطيعون في الطب الشرعي أن يعيدوا صنع الإنسان بأكمله إذا عثروا على أصبع من أصابعه مثلاً أو جزء من أعضائه، إذ لا بد لكل أصبع من اليد التي تناسبه، ولا بد لليد من الذراع والجسد والأقدام التي تناسبها، وكل أنف له الأذن والعين والوجه الخاص به. وهكذا يعيدون تركيب الإنسان ليصبح صورة طبق الأصل للضحية. واستطعت من همسها المسحوق أن أراها كاملة، وأقربها، وأضمها، وأعانقها، وتصل منابت شعرها إلى أنفي إذ هي أقل مني طولاً، وعيناها سوداوان غامقتا السواد، وعلى جانبي وجهها المستطيل ينهدل شعرها الأسود الناعم، ومن خلال جلباب السجن الأزرق ينفر ثدياها متباعدتين بلا «سوتيان» كثديي بكر، ولا بد بأزميل فنان صنع فخذيها فهما طويلتان ممتلئتان تتوجهما تلك الاستدارة الطرية الملساء الكاملة. اسمها حتماً فردوس وفي عروقها دم بدوي، وعلى ذقنها بالضبط فوق الغمازة وشم لا يتعدى ثلاث نقاط رمادية باهتة، وفمها ليس صغيراً كفم البنات ولكنه ممتلىء مقلوب الشفة العليا لا تملك لحافتها المشرعة إلى أعلى.. مقاومة، لها في السجن ثلاث سنوات، كان زوجها

يستخدمها في تهريب المخدرات وضبطت بالبضاعة في ديزل الاسكندرية.

وككل إنسان.. كثيرة هي المرات التي يخوض فيها تجربة الجسد مع النساء، حتى لو كان الجسد لحبيبة، ولكني ما حييت لن أنسى كيف استطاع الحديث بيننا أن يرتفع بدفئه درجات مقرباً ما بيننا، حتى بدأت أحس بأجسادنا تتلاصق وتتداخل صانعة البداية لأروع متعة ظفرت بها في حياتي. وأنا من خلال ذلك التيار الصوتي الدائر بيننا أحيل جسدي كله وذكورتي كلها إلى أصوات أنفثها عبر الوعاء الألومنيوم ويسحقها الحائط، ولكني أحس بها تغادره أكثر حدة والتهاباً تخترق وعاءها المعدني وجسدها وتصل إلى مكمن الحياة فيها. وبدوري أتلقف أنوثتها الذائبة في الصوت المطحون المبحوح القادم يئن عبر الحائط، أجذبه وأمتصه، وأجذبها هي نفسها وأمتصها حتى منديل رأسها، وبعنف أكبر تغييني هي في نفسها حتى أظافر القدم.

ولم ننم ليلتها.

ولم أتحرك من زنزانتي طوال اليوم التالي ممدداً فوق «البرش» أجتر سعادتي، وأحس وأنا في أقبح مكان في الكون بجمال للعالم وطعم للدنيا لم يذقه بشر. أشعر أني أصبحت أقوى من سجني وسجانتي ومن سجنوني. كل لحظات الضعف واهتزاز الثقة راحت وتبخرت والرجل فيّ قد عاد للحياة تماماً فعاد للحياة سحرها

ومعناها. والرجل في حالة حب. . حب لم يذقه في كـل ما سبق من قصصـه، فقـد كـانت تجـارب للصـراع المحمـوم وكبـح النفس والاحساس بالخجل وتأنيب الضمير. ولا أدرك أنه كان حباً إلا هنـاك حين ينتهي كـل شيء وتعود الحيـاة إلى بلادتهـا. الآن ومنذ اللحـظة الأولى أعتـرف وأستمتع وأعيش للحب وسعـادتي الكبرى أن فـردوس تحبني. قـد تكون غيـر متعلمة أو مثقفـة أو تجيد استعمـال الماكيـاج وأخذ المواعيد من الترزي. قد لا تستطيع أن تدرك معنى أنني شـاعر أو تفهم تماماً سبب سجني، ولكن حسبي أني رجلها وأنها أنثاي وأن كل ما حدث لي أو حدث لها قبل لقائنا وبالذات قبـل ليلتنا المـاضية كان سراباً وخداعـاً، وأننا منـذ الأمس فقط بدأنـا لأول مرة في حيـاتنا نعيش.

وجاء المساء.

هـذه المرة لا جنـون ولا استعجال إنمـا هو الاطمئنـان العـظيم يغلف كل شيء، وبمثل مـا كان للقلق والخـوف والترقب من متعـة، فللاطمئنان متعة أكبر وأشهى وأعمق.

قبل أن يحل «التمام» وجدت أني لا أستطيع الانتـظار، وقررت مـا دام الكلام مستحيـلاً أن أكتفي بالإنصـات لعلي أسمعهـا تكـح أو تغني أو حتى تستعمـل «الجـردل». ودهشتي كـانت أني سمعتهـا تتحدث. عبر الحـائط أتتني أصوات استـطعت تمييزهـا وإدراك أنها لأكثر من شخص. وفي الحال أحسست بغصـة حادة وكـأنما حـدثت

كـارثة. إنهـا ليست بمفردهـا إذن، هناك مسجـونـات معهـا يتحـدثن ويضحكن ولا بـد أنهن ينمن بجوارهـا. وأحسست بالغصـة تندك في أعمـاقي أكثر. مجـرد أن يزاملهـا أحد حتى ولـو كن نساء مسجـونات متـاحاً لهن منهـا ما ليس متـاحاً لي. . نسـاء يستطعن أن يـرينها رأي العين أو يعـانقنها ولـو أردن. . احتمـال لا أستـطيـع قبـولـه، يخنقني ويلهب غيظي. وما يغضبني أكثر أنها بدورها تحـادثهن، فلابـد أنهن يحتللن من تفكيرها جزءاً، بأي حق تسمح لنفسها بهذا وأنا بكل جزء من عقلي ونفسي وجسدي لها وحدها؟ بلغ غيـظي مداه. وحين حـل «التمام» ودققت، ومضت لحظة قبل أن ترد، لم أعـد أستطيـع الصبر وانهلت على الحـائط لكمـاً وكـأنمـا لتـدرك أني إنمـا أوجـه لهـا هي اللكمات.

ثم جلست في الـركن البعيد غـاضباً أنفس عن غيـظي بإشعـال نصف السيجـارة من نصف السيجـارة متجـاهـلاً تمـامـاً دقـاتهـا وهي تستحيـل من العنف إلى الإلحاح، إلى السكـون لحظة، إلى الغضب القصيـر إلى العودة مـرة أخرى بلين ورقـة، وكـأنمـا تـرجـو وتلح في الرجاء. . رجـاء لم أستطع معـه المقاومـة فعدت إلى الجـدار أدق أنا الآخـر دقـات الصفـح والصلح، ومن خـلال الـوعـاء أهمس همس العتب، وتتعانق الهمسات وتتعانق أجسادنا خلال الهمسـات، وأقبلها في فمهـا الكبير ذي الشفـة المقلوبـة إلى أعلى، أقبلهـا قبلة لا نفيق منهـا إلا على دقات تنهـال على الحائط في احتجـاج وكأن زميـلاتهـا يطالبن باحترام وجودهن.

ولكننا رغم هذا لم نستطع أن نحترم ذلك الوجود، وفي حضورهن ورغم كل شيء قضينا ليلة غرام أخرى.

وعدت إلى نفسي ذات لحظة بعد الأيام القليلة التي تلت لأجد أنني لم أفعل شيئاً طوال تلك الأيام إلا التفكير فيها. لم يدر بعقلي خاطر واحد أو أحلم بشيء آخر خارج نطاقها ونطاق علاقتي بها. إنه الحب إذن بأكمل صوره. وإذا كان الحب في الخارج يستولي على المحب تماماً ويعزله عن الحياة وينفرد به، فما بالك وأنا هنا منعزل ومعزول ولا عمل لي سواه. إن الحدث الصغير التافه الذي قد لا يعلق بالذهن مطلقاً في الخارج.. حتى لو كان ذهن محب، يبدو هنا مهماً خطيراً لا بد من الوقوف عنده طويلاً والعودة إليه مراراً والتفكير فيه وربطه بغيره، والخروج باستنتاج بل باستنتاجات قد تؤدي إلى افتراضات ونتائج لا بد أن تؤدي بدورها إلى عودة للتفكير والتأمل.

وهكذا عرفت عنها - من تلقاء نفسي وتأملاتي لهمسها المسحوق - في أيام قليلة ما لم يكن باستطاعتي أن أعرفه في الخارج بمعاشرتها واحتكاكي المباشر بها في شهور. كل شيء عنها، بطفولتها بأجدادها وعرق البداوة فيها، بالأغاني التي كانت «تدندن» لها جدتها بها قبل أن تنام، بتفاصيل ما دار لها ليلة دخلتها، بالجهود التي بذلتها أمها كي تنزف دماء يسلم لها الشرف الرفيع ويزف على رؤوس الأشهاد.

وقد يستنكر البعض أن يحدث هذا كله دون أن نتبادل كلمة

سليمة واحدة وأن أستطيع أن أدرك كل هذا من خلال همس مسحوق. ولكن فليسأل المستنكر كل من أحب إن كان قد أخطأ مرة في تفسير مواء الحبيبة، أو إن كان قد عجز ـ أقل العجز ـ عن الإحاطة بكل ما يقوله أنينها مهما تشعب ما تقول. ما حاجة المحبين إلى لغة إذا كان الصوت وحده مهما كان مسحوقاً ومن خلال جدار يكفي؟

حتى فعل الزمن في الحب بدأت أستعذبه وأستمتع بحدث الغرام الهائل وقد تحول إلى عادة، وتحولنا من غريبين محبين إلى قريبين، بل ما هو أكثر من زوجين محبين. هذا الاحساس بأنها لي وبأني لها طول الوقت، بالأمس واليوم وغداً أيضاً ستكون لي. هذا الضيق الشديد بالساعات التي تباعد بيننا، هذا القلق المفزع للدقائق التي تفصلنا عن اللقاء، اليقين الذي أصبحت معه أستطيع أن أحدد دون بحث بالضبط أين ستضع وعاءها لأضع وعائي، وأين ستتحدث لأصغي، ومتى تنضج رغبتها للإصغاء كي أتحدث. هذا الهاتف الذي يوقظنا معاً لأدق دقة وتدق دقة، ونقول بهما: صباح الخير. أو بالضبط متى تبدأ تتثاءب لأقول بعدها: يالله ننام! تصبحي على خير!

غير أني وأنا أحيا أطوار الحب كلها وأنعم بها لم يخطر ببالي طور آخر ما أعددت له في نفسي أبداً وما تصورت إمكان وجوده أو حدوثه، فهو في الغالب كالعدو الغادر يداهم فجأة، ومن أول دقة دقفتها ولم يأتني الرد في الحال قال هاتف في نفسي: انتهت علاقتنا

إذن ولن أسمع عنها بعد الآن أو تسمع عني. حدث هذا مع أن تأخرها أو تأخري في الرد كان مسألة عادية تحدث في اليوم عدة مرات.

في الحال أيضاً أخرست الخاطر إذ اني أعرف ذلك الهاتف المتشائم أبداً. الرابض خلف كل انعطافة حدث يبشر بالفاجعة والنهاية. ولم تكن تلك أول مرة يجأر بهتافه، فمنذ قصتنا معاً وكلما واتته الفرصة هتف. ولكن علامات التفاؤل لا تلبث دائماً أن تظهر وتفحمه. هذه المرة مثلما خمنت لم تأت العلامات، وبينما علا عواء الهاتف سعيداً يتحقق فأله، بكل ما أملك من قدرة رحت أكافح وأستدعي إلى الذاكرة أسباباً وتعللات تبرر تأخر الرد، أو حتى غيابه كلية ليلتها لو حدث، ربما هي في التأديب.. ربما في المستشفى.. إن هي إلا ليلة أو على أسوأ الفروض ليلتان وتعود.

ولكنه كان تمسكاً بأهداب وهم أوهى من نسيج العنكبوت. كانت حقيقة قد ذهبت تماماً، هكذا أكدت الأيام والليالي الطويلة التالية. حتى حين ـ بعد أكثر من أسبوع ـ جاءني رد على دقي، أشحت عنه في اشمئزاز وضيق. فقد عرفت على الفور أنه ليس دقها، ليس لها، ليس صادراً عن يدها البيضاء الطويلة الأصابع ذات الشعر الميكروسكوبي الأصفر.

وفي كل مرة انتهت لي فيها قصة حب كنت ـ حين أتأكد من النهاية وبرغم اطباق المأساة ـ أحس بنوع من الراحة وكأن حملاً ثقيلاً

انـزاح عن كـاهلي. ولكن حتى ذلـك الشعـور لم يعتـريني أو يخفف عني، بل ليت ما اعتراني أخذ شكل الحزن القـاهر الـواضح الحـاد! إن هو إلا ذهول مستمر ذو نوبات.. فجأة تتـوقف اللقمة في حلقي، وأنـا ـ وكأنمـا لأول مرة ـ أدرك أن مـا حدث لن يعـود، وأني أبـداً لن أسمع مرة أخرى ذلك الحفيف الواهن الداق يأتيني صادراً تمـاماً عن القلب إذ أحس بـه تمامـاً في قلبي. انتهى وجـودنـا معـاً، وأصبحت وحدي نصف شيء لا يصلح للبقاء، ألم مستمر متصل لا ينقـطع ولا يزول.

المؤلم أكثر أني كنت متأكداً أنه حتى ذلك الألم وتلك النوبات مصيرها إلى زوال. ومصيري إلى العودة إلى حيـاة السجن ذات اليوم المستمر الواحد، ولن أعود أنعم بالتذكر حتى لو جاء على هيئة غصة أو ألم.

المؤلم أني مستمـر.. والحيـاة مستمـرة، والكـون كله قـائم ومـوجود ومستمـر.. وما أبشـع أن يستمـر هـذا كله بغيـرهـا.. بغيـر وجودها وحديثها وروحها وظلها.

بعـد مـرور تلك الفتـرة من أيـام الحـدة الأولى، كـان شغلي الشـاغل هـو تلك الرغبـة العارمـة التي لـم أكن أستطيـع مقاومتهـا.. الرغبة في الحديث عنها لإنسان.. لأي إنسان، وإن لـم يكن بـالذات عنها فعلى الأقل عنهن جميعاً، عن المسجونات النساء، أو حتى عن النساء بشكل عام.

وجاءت مرة فـرصة حين انتهت النـوبة وجـاءت نوبـة جديـدة، وأصبح «الأومباشي عبد الفتاح» العصبي الرفيع ذو العصا حارساً لليل في الدور الذي أحتل إحدى زنازينه.

جاءت الفرصة لأني أعرف أن عبد الفتاح العصبي المتعجل في النهار غيره عبد الفتاج حارس الليل، حيث لا توجد عيون الشاويشية والضباط، وحيث لا عصا، وحيث يعود إلى طبيعته الصعيدية البسيطة ويصبح الطريق إلى قلبه كوب شاي مصنوع على السبـرتو المهـرب، والطريق إلى لسانه سيجارة بلمونت.

وعبر باب زنزانتي المصنوع من عمدان حديدية متينة وقفنا بعـد العشاء ندردش ونتحدث، وبمهارة قدت الحديث إلى قصة اللومنجي الـذي ثقب الحائط ضـاحكاً، قـائلاً إني أنـا نفسي طالمـا فكـرت أن أصنع مثله.. وشخشخ صدر عبد الفتاح وهو يضحك ويقول:

ـ بس المـرة دي ح يـطلع نقبـك على شـونــة. أمّـال.. على شونة.

وسألته: كيف؟

فقال:

ـ دول خـلاص عزلـوا. كـل الحـريم راح القنـاطـر.. كله كله عزل.. كله.. كله.

ودق الخــاطـر في رأسي، إذن هــذا هـو السبب في رحيلهــا المفاجىء لا بد.

وقلت لأتأكد:

ـ أظنهم نقلوهم بقى من حوالي عشرة أيام كده؟

فعادت إليه العصبية وهو يقول:

ـ لالالا.. عشرة أيام إيه؟ أنت نايم حضرتك؟ دول من زمان.. زمان خالص.. من ثلاثة أشهر.. لالالا.. ييجى من أربعة أشهر!

وكدت أتوقف عن التنفس.

وكالتائه سألت:

ـ الله.. بس ده فيه ناس في «العنبر»؟

فقال:

ـ آه! فيه ناس أيوه.. بس دول تراحيل، مرة رجالة مرة ستات. تراحيل، يومين، أسبوع، أسبوعين وأنت وحظك.

وكدت أقهقه قهقهة من فقد العقل، وفي ألف ناحية جرى عقلي يفكر: أليس من الجائز رغم آلام الحب المروعة ألا تكون هناك فردوس بالمرة، بل من يدري؟ أليس من الجائز أن الهمس المسحوق كان همس رجل، ربما كان يعتقد أنه يخاطب به أنثى؟ أو ربما فعلها أو فعلتها للتسلية وكسر الملل في وقت طويل.. طويل متشابه؟

ليلتها، قبل أن أنام قلت لنفسي: أليس هذا أروع ختام لقصة ذلك الحب؟ إنه على الأقل سيعفيني من آلام النهاية ومرارتها.

غير أن الشيء المذهل الغريب.. الشيء الذي لم أتوقعه أبداً ولا يمكن أن يصدقه إنسان، حتى أنا نفسي لا أكاد أصدقه، أن الغصة ظلت تعتريني وظل الألم ممدوداً طويلاً يعكر طعم الحياة في نفسي، وظلت «فردوس» حية في خاطري أكثر حياة من كل من عرفت من النساء.

ما خفي أعظم

٩١١

لم يكن أحد قد رأى وجه امرأته رأي العين. كانت إذا خرجت ترتدي فستاناً لامعاً أسود. . طويلاً إلى حد يجرجر خلفها على الأرض، وطرحة سوداء ملتفة حول الرأس والوجه ومن نسيج ضيق لا يظهر أبداً ما وراءه، وإذا خرجا سوياً لا يسير بجوارها إنما أمامها بمشوار يسير، وبعد أمتار كثيرة تجدها وراءه كظله الأسود الذي انفصل وتجسد ودبت فيه الحياة. ولكنها لم تكن تماماً كظله، فقد كانت سمينة تخينة مدكوكة وكأنها أربع نساء أدمجن معاً. وكان الشيخ «فقر» بعد فصله من الأزهر لرفعه الكرسي على أستاذه، وبعد صرمحته زمناً وإدمانه «للدومينو والكوتشينة» إلى آخر مليم ورثه عن أبيه، وبقائه في البلدة يقتات من النفحات حتى ضاق به الكرام قبل اللئام، قد أخذ في وجهه وصمم على أن يذهب للعمل في الاسكندرية. وقد ظل أسبوعاً يجمع في أجرة السفر، ثم ذهب ولكن أخباره لم تنقطع كلية عن مواطنيه. . بين كل حين وحين يفد إلى البلدة عنه خبر، مرة أنه عمل كاتباً في الميناء، ومرة فتح «كشكاً» للسجاير، ومرة ربح ورقة يانصيب بعشرين جنيها. ومضت سنوات وأخيراً فوجئوا به وقد عاد، ولكنه لم يكن وحده. لقد تزوج وجاءت

معه زوجته، وما كاد يهبط من المحطة وهي خلفه ويراها النـاس حتى كتموا الضحكات، فرغم لثامها الشامـل التام الـذي أحالهـا إلى شبح أسود، فاللثام والسواد لم يستطيعا أن يخفيا تخنها بل ربما أسهمـا في فضحـه أكثر. . تخنـاً لم يره أحـد من قبل أو من بعـد. فنساء القـرية عجفاوات كعيدان القطن الجافة، وهذه «باسم الله ما شاء الله» ككيس القطن، أقصر منـه قليلاً إنمـا في تخنه بـل ربما أتخن. . ولا يـدري أحد سر هذا الأمر بتاتاً. فما يكاد الإنسـان يراهـا إلا ويتصور الشيـخ «فقـر» معهـا في فـراش واحـد، بعصبيتـه التي لا حـد لهـا، وعصـاه الغليـظة التي يسميها «الحكمـدار»، وغضبه الـذي ينشأ كـالـظواهـر الكونية بلا سبب، وينفثىء كالظواهر أيضاً بلا سبب، ووجهه المملوء بحفر قديمة نصف مردومة من آثار هجوم جدري قـديم فاشـل، تنبت بينها شعرات ذقن قليلة متباعدة ولكنهـا كأشجـار السنط البريـة ناشـزة مسنونة. ومـا يكاد النـاظر يتصـورهما معـاً في فراش واحـد على هذا النحو. . هي بتخنها وهو بحدته وعصبيته حتى يظل يضحك ربما إلى أن يصاب بالمغص. والشيخ «فقر» لم يكن طبعـاً اسمه الشيـخ «فقر» إنما كان اسمه الشيخ رابـح، وحتى لقب الشيخ كـان تجاوزاً فهـو لم يكن يرتدي عمامة، إنمـا كان يمنحـه الناس لـه أو بالأصـح يصر هـو على أن ينـادى به. وكـأنما إمعـاناً في انتصـاره على مدرسـه السـابق بالأزهر، ذلك الذي أكد له أنـه أبداً لن ينجـح في حياتـه أو يربـح أو يحمل لقب شيخ من هنا إلى يوم الدين.

وإذا كانت حياة الشيخ رابح معروف أمرها للناس جميعـاً، فقد كانت النساء هي عـلامة الاستفهـام الكبرى في حيـاته. إذ كـان دائماً

يذكرهن بحقد خفي غير معروف المصدر، وإذا مرت من أمامه امرأة نقرها ـ أول ما ينقرها ـ من نهاية سمانة ساقها عند اتصالها بالقدم، ثم يصدر عليها بكل قسوة وبلا تردد حكماً جائراً بأنها «. . . . » غير قابل لأي نقض أو تعديل. ولهذا كانت المفاجأة الكبرى أن يتزوج الشيخ «فقر»، ويتزوج من تلك الكتلة اللحمية الكيسية القطنية الاسكندرانية التي ما أفلح السواد أو اللثام المضروب بعناية حولها أن يخفي أنها امرأة. . وامرأة من نوع يصدر عليها أي إنسان حكمه دون حاجة إلى نظرة يلقيها على «سمانة الرجل» عند اتصالها بالقدم.

وكأنما كانت عودة الشيخ رابح وزوجته على هذه الصورة إيذاناً باندلاع حرب خفية بينه وبين بلدياته حول رؤية وجه امرأته، إذ كان يبدو وكأنما أصدر لها أوامر حازمة باترة مصحوبة بتلويحة مروعة من عصاه «الحكمدار» بأن معنى من يرى أحد ـ سواء كان رجلاً أم امرأة في الطريق ـ وجهها الهلاك المحتم لها، وإذا كان قد قدر لك أن ترى الشيخ «فقر» وهو يهدد وقد انقبض وجهه واحتقن واسود، وتدببت أشجار السنط في ذقنه وتقنفذت، والتقى الخطان العميقان في جبهته على هيئة عقدة دون حلها رابع المستحيل، لآثرت السلامة حتماً وفضلت أن تطيع أوامره. ولكن أوامره مهما بلغت من قسوتها فلم تكن لتحول بين الناس وبين رغبتهم التي تتزايد يوماً بعد يوم لرؤية وجه امرأته المخفي دائماً وراء الطرحة، ولا محاولاتهم المستميتة للعثور على ثغرة في النقاب، أو حتى لضبطها مرة واقفة في حوش منزلهم القديم الواسع أو فوق سطحه الآيل للسقوط، سافرة. ذلك

أمر لم يحدث أبداً، وبدا مصراً على عدم الحدوث إلى درجة أيأست الناس تماماً فسلموا أمرهم وحب استطلاعهم إلى الله ونفضوا أيديهم. أما الذي لم ييأس أبداً ومضى مصراً وبكل ما يملكه من تزمت فهو الشيخ رابح، ليس فقط على اخفاء وجه امرأته.. بل بعد هذا على اخفائها نفسها عن أعين الجميع وكأنها «بضاعة.. والناس جواعة».. بل على أن يمضي في هذا الطريق إلى آخر المدى. فالشيخ «فقر» رغم غضبه السريع والعنجهية التي تستبد به في أحيان، إلا أنه كان دائماً وأبداً قبل ذهابه إلى الاسكندرية إنساناً مرحاً ذا ضحكة وإن كانت أقبح ضحكة ممكن أن تسمعها إلا أنها دائمة الحدوث وبسبب وبلا أي سبب ودائماً تغري على الضحك، بحبوحاً لا تفوته النكتة، وإن فاتته انقلب على نفسه وفقره وحياته وأسرته الكبيرة يسخر منها ـ ويحتد في سخريته ـ حتى إنه هو الذي أطلق على نفسه الشيخ «فقر». ولكنه حين عاد بهذه الزوجة عاد إنساناً آخر، ضاق خلقه إلى أبعد مدى، وحول ضحكاته إلى نظرات نارية جادة يخوف بها القريب والبعيد، وكأنما كان يتصور أنه لو فرط لحظة واحدة في حديثه لاستهان الناس به ومن ثم بامرأته وكشفوا عنها النقاب والغطاء. كان بمثل ما يرهبها ويفرض عليها الحجاب فرض عزيز مقتدر يريد أن يرهب الآخرين ويفرض عليهم غض النظر حتى لو كان النظر إليه، وكأنما التحديق فيه مقدمة مستترة للتحديق فيها. أصحابه القدامى هجرهم ولم يعد يجلس إلا مع الكبار الوقورين يِ الدم الثقيل، حتى هو نفسه أصبح «كقرد قطع» وحيداً صامتاً

معقود الجبهة لا يطيق الناس ـ من تلقاء أنفسهم ـ رؤيته.

إلى أن كان يوم لا يزال الرواة يتذاكرونه، فقد كان يوم شتاء والمطر قد أحال البلدة إلى برك وطين ومستنقعات، وكان الوقت منتصف الليل أو بعده بقليل، وكانت «طوبة» وبردها القارس. وكان صراخ إلى عنان السماء تصاعد في الليل من بيت الشيخ رابح، وظن الناس أول الأمر أنه يضربها، ولكنه أبداً ومنذ قدومه إلى البلدة لم يسمع أحد أنه ضربها، وما حاجته إلى الضرب إذا كانت سحنته تكفي؟ فقط حين طال الصراخ وتزايد، أدرك الناس أنها لا بد تلد. وكانت مفاجأة فأمر حملها كان كالسر لا يعرفه إلا أقرب المقربين من الجارات، فتخنها كان كفيلاً بأن يختفي في طياته عشرة أطفال دون أن يبدو لهم أثر. ولهذا كان طبيعياً جداً أن يكون معرفة الناس بالحمل ساعة الولادة معرفة لم تفعل إلا إطلاق الألسن المكتومة التي تتربص بالفرص للضحك وإشفاء الغليل. وهكذا ظل أناس كثيرون ساهرين يسمعون الصراخ ويتضاحكون تارة على عملية ولادتها نفسها، فداية القرية كانت مريضة، والمرأة غريبة لا أم لها ولا قريبة، والشيخ رابح رأسه وألف سيف إلا أن تلد في بيتها وبمساعدة «أم الخير» الجارة العجوز. مضى بنفسه يشرف على عملية الولادة مزمجراً في كل من تحدثها نفسها من النساء بأن تقترب أو تدق الباب عارضة المساعدة، خالعاً جلبابه، باقياً في عز «طوبة»، بالفانلة والسروال الطويل يتفصد العرق الغزير من وجهه وكل مكان في جسده، مشغولاً مشغولية عظمى وكأنه يشرف بمفرده على معركة حربية ليس لها نظير. وتارة

تنطلق الألسن مندّدة ـ قبل مجيئه ـ بالجنين المقبل، معترضة أن الحمل لم يحدث من الشيخ رابح وإنما تم على أثر وصفة اشترتها المرأة من قرداتي تحتوي على نطفة قرد، فليس من المعقول أن يخلف الشيخ رابح وقد بلغ من العمر أرذله! وما يبدو مستحيلاً أكثر أن تخلف هي! وتارة تركن الألسن إلى قليل من الجد وتتساءل عن أخبار عملية الولادة، تلك التي طالت على غير العادة حتى أصبحت صرخات الاسكندرانية تتلاحق وتشق كالسكين الحامية سكون الليل. مسألة لا بد أنها كانت تدفع الشيخ رابح إلى ما يقرب من الجنون، فإذا كان يرى في وجه امرأته عورة فلا بد أن صوتها لديه عورة أخطر، وتصاعده في الليل على هذه الصورة جريمة أكثر، فلا بد أن القاصي والداني الآن يسمعه، وكيف يمكن أن يقبل الشيخ رابح أن تتسمع الآذان. . آذان كل من هب ودب صوت امرأته ذلك الحرم المقدس الخاص به وحده، الذي لا يصح أن تتسمعه آذان أحد سواه. لو كان الود وده لخنقها حتى يسكتها، أو للف في القرية يسد آذان أهلها بالطين.

المهم أنه. قرابة الفجر، روعت القرية حقيقة حين انفتح باب الشيخ رابح بقوة وخرج منه الرجل حاسر الرأس بالفانلة والسروال، يتصبب عرقاً ويجري كالمجنون يدق أبواب الجيران طالباً الغوث والعون، باكياً ـ هذا الجبار ـ مستحلفاً طين الأرض ـ إذ كان طوبها كله قد تحول إلى طين ـ طالباً من الجميع مساعدته، فالجنين قد خرج نصفه وانحشر نصفه الأعلى لا يريد الخروج، وأمنية حياته

الكبرى ـ تلك التي أخفاها عن الجميع إلى تلك اللحظة . كانت أن يخلف ولداً، والجنين ولد رآه بنفسه وتأكد منه ولكنه محشور، ولا بد ما لم تتداركه العناية أنه مخنوق ومقتول. . وأنا في عرضكم يا ناس، في عرض الصغير فيكم قبل الكبير، والحافي قبل اللابس، انقذوا الولد وسأعيش عمري عبدكم الذليل.

يالله! . . لم يصدق أحد عينيه أبداً ولا أذنيه، فلا يمكن أن يكون المتذلل الباكي هذا هو نفسه الشيخ رابح صاحب «الحكمدار» والنظرات المقطرة سماً، مستحيل أن يكون. ولكنها دهشة لم تدم طويلاً فسرعان ما اختفى الاستغراب وكتمت الضحكات لتحل محلها الشهامة المعتادة.

وكانت المشكلة أنه لا بد من نقل الوالدة فوراً إلى المستشفى، وطلب الاسعاف وانتظاره مسألة لا يمكن أن يفكر فيها عاقل بالمرة. أي اسعاف هذا سيأتي في الفجر والأرض موحلة؟ . . إنه في أثناء النهار وفي الطرق المرصوفة نفسها لا يأتي إلا بعد ساعات، فما بالك في ليلة كهذه وفي ظرف كهذا. . الدقيقة فيه ـ كل دقيقة ـ لها ثمنها الفادح؟ وبينما الشيخ رابح قد تهاوى إلى جوار الحائط غير عابىء بالوحل والطين، تاركاً أمر التصرف في الموقف لأولاد الحلال الذين تجمعوا بالعشرات والمئات داخل بيته وخارجه، كا الناس قد قرروا أن يتولوا بأنفسهم نقل الوالدة إلى المستشفى، وبدلاً من النقالة قرروا أن يستعينوا بسلم يضعون عليه مرتبة ويرقدونها فوقه، ويحملونها ـ جرى من جرى ـ إلى المستشفى الذي لا يبعد عن البلدة

إلا بكيلـو مترين، وانتشـرت موجـة الشهامـة وعمت القريـة كلها حتى استيقـظت عن بكرة أبيهـا. فالقـرية ليس فيهـا إلا شيخ رابـح واحد، ورغم كــل شيء فـالشيــخ قضى عمـره كله يسلي بغضبــه النــاس ويضحكهم، ومن المحـال أن يتخلوا عنه في ورطـة كهذه. أكثـر من «كلوب» أشعـل وجيء به إلى البيت والسـاحـة التي أمـامـه، وفتشت القـرية كلهـا .بحثاً عن سلم متين ورجال أقـويـاء، فـالحمـل الـذي سيحمل حمل غير عادي، والسرعة المطلوبة سرعة غير عاديـة أيضاً. وأخيـراً تم في دقـائق قليلة اعــداد كـل شيء، وبقي أصعب شيء. فـالوالـدة جاءهـا المخـاض وهي نـائمـة في «المقعـد» فـوق السلم، والسلم المؤدي إلى السطح سلم عادي كالسلم الذي ستحمـل عليه، ولابد لكي تهبط سليمة من حملها في وضع أفقي، وانزالها على هذه الصـورة سلمة سلمـة وبحرص شـديـد. . والـدنيـا وحـل، والأقـدام والسـلالم زلقة، وهي تخينـة سمينة في ثقـل حجر الـطاحونـة وربمـا أثقل، ومشاكل كثيرة وعويصة هندسية وميكانيكية وعضلية كان عليهم أن يحلوهـا قبل أن تهبط حـرم الشيخ رابـح إلى الأرض سالمـة. أمـا الشيخ رابح نفسـه فما كـادت اجراءات الحمـل تبدأ حتى انتفض من انهياره واقفاً وليس أمامه سوى مشكلة واحدة قاهرة ملحة أن يفرد فوق امرأته الملاءة السوداء التي أحضروها من بيت العمدة، بحيث تغطيها تمـاماً، وبحيث تحـدث عملية الهبـوط كلها والحمـل إلى المستشفى دون أن يبـدو من جيدهـا قلامـة ظفر. وفعـلاً كـان الـرجـال جميعـاً مشغـولين بحملها بـالمرتبـة التي ترقـد عليها ووضعهـا فوق السلم ثم

حمل السلم والهبوط بـه من فوق السـلالم الناقصـة أكثر من سلمـة، وكان هو مشغولاً تماماً بضبط الملاءة فوق كل بقعة من جسدها. ولقد نجح في هذا إلى أن وصل جسدهـا المحمول إلى رأس السلم حيث بـدأ الارتبـاك الأعـظم، فـالحمــل ثقيـل جـداً والأقـدام تتــزحلق، والمسـافات بين خشب السلم متبـاعـدة، ولـولا لطف الله لكـانت قد تهاوت بمن حملوها أكثر من مرة، وصرخاتها أقوى من صفارات قطار أي بضـاعة أو اكسبـريس تنـطلق بمعـدل عشـر مـرات في الـدقيقـة، وتولول مستغيثة مربكة حامليها. وبمحاولاتـه المستميتة لتغـطيتها كـاد يؤدي الشيـخ رابـح إلى سقـوطهـا أكثـر من مـرة، حتى بـدا واضحـاً استحـالة أن تهبط مغـطاة، أو على الأقل وثمـة أحـد ـ حتى لـو كـان زوجها ـ يمسك بأطراف المـلاءة، ولـم يكن أمامـه إلا أن يستسلـم في النهـاية ويفـرد عليها المـلاءة، تاركـاً أمر بقـائها أو انحسـارهـا للحظ والقدر. وكان أهـل البلدة في الحوش يتـطلعون بقلق إلى محـاولات الانزال، ويرى كل منهم في المشهد عشرات التفاصيـل التي تضحك وتميت من الضحــك فينجـح في كتم بعضهــا وفي أغلب الأحــوال. يفشل. وعلى أضواء خمسة «كلوبات» من كل الماركات قويـة مسلطة على السلم المستعمل كنقالة وسلم الهبوط بحيث تحيل البقعة إلى ما يشبـه المسرح المضـاء بشدة، وتحت وقـع الرذاذ الخفيف الـذي بدأ يتساقط منذراً بقـرب عروق مـطر سخية ـ بـدأت عملية الانـزال.. أو بالأصح الارتباك المهول في الانزال، والأوامر الكثيـرة التي يصدرهـا الجميع إلى الجميع، وصرخات الاستغاثة، وآهـات الألم حين ينزلق

أصبع أو يدوس أحد على قدم أحد، والهرولة تكثر، والسلم المهدد الذي حفل بعشرات المتسابقين إلى حمل السلم الآخر وابقائه أفقياً، وعشرات الأيدي تمتد لتحفظ الوالدة فوق محفتها، والملاءة لم تنزلق فقط عن جزء من جسدها ولكنها سقطت تماماً من فوقها ولاكتها الأرجل والأقدام في الطين.. بحيث ان الشيخ رابح ذلك الذي كان خوفه الأكبر أن يرى أحد وجه امرأته، قدر له أن يرى بنفسه الناس ـ مئات الناس ـ كل أهل القرية وهم يشاهدون، ليس وجهها المكشوف أو ذراعها أو جزءاً من ساقها، وإنما جسدها كله بكل ما هو ظاهر فيه أو مستتر، وبالجنين يطل منه، والأضواء قوية مسلطة تتيح للأعمى نفسه أن يرى ما شاء لأي وقت يشاء، فالمسرح بلا ستارة، والزوجة بلا غطاء ليس فقط كما ولدتها أمها ولكنها عارية عري أمها نفسها وهي تلدها، والأعين كلها مجبرة على تصويب نظراتها لكي يمكن انزال المرأة وانقاذها، والغريب أن هذا كله حين وقع لم يكن يحتل من تفكسر الشيخ رابح واهتمامه إلا أقل القليل. فجزعه الحقيقي كان خوفاً من أن يموت الجنين، وجزعه الثاني من أن تموت الوالدة. جزع كاد يذهب بعقله، جزع كان يدفعه لأن يصرخ بأعلى صوته في الرجال طالباً من هذا أن يمسكها من فخذها حتى لا تسقط، ومن الآخر أن يحتضنها من أعلى حتى لا تتهاوى، ومن ثالث أن يمد يده بين فخذيها ليباعد بينهما حتى لا تهشما الجنين بضغطهما. مرة واحدة فقط أفاق ورمق الجمع الحاشد الذي تنصب نظراته كلها على جسد زوجته، فأحس بالأرض تميد به..

ولكنه في الحال طرد الخاطر. فمن أعمق أعماق نفسه كانت تتصاعد خواطر أكثر قوة وحدة، وأمان كثيرة غير محددة، فهو مستعد والله أن يحدث ما هو أكثر، بشرط أن تكون النتيجة أن ينقذ المولود وتنقذ الوالدة.

وبين عشرات الأشياء التي كانت تدفع الرجال ليسقطوا من أطوالهم ضحكاً، وعشرات الأشياء التي كانت تتطلب منهم العزم والقوة والجدية، وعشرات المربكات والمثبطات والمشجعات، والوحل والمستنقعات والمطر الشديد الذي بدأ يهطل.. من خضم هذا كله هبطت الوالدة وكأنما بمعجزة إلى الأرض، وانطلق بها الموكب الجاري الحافل إلى المستشفى، عشرة يتكاتفون في حمل السلم يسقط منهم تعباً وانهاكاً من يسقط، ويتهاوى من يتهاوى.. ويلعن في سره بأعلى صوته الليلة والشيخ والوالدة والمولود من يلعن، إذ كانوا وكأنما يحملون جاموسة سمينة ومعلوفة أصابها (عرق الأنس) وليس امرأة مثل غيرها من النساء.

ولكن الموكب وصل والطبيب جيء به من حيث يقطن، والعملية أجريت، وحين صدر عن الولد أول صراخ.. بنفسه زغرد الشيخ رابح، وطبلوا له ورقص، وارتفعت من صدر طال عليه الإغلاق قهقهات عمرها أعوام وأعوام.

وحين عادت الزوجة إلى البلدة لم يكن قد تبقى للشيخ «فقر» ما يخفيه عن الناس وقد رأوا جميعاً ما رأوا. ودون حاجة إلى أوامر أو

القاء تعاليم أو تهديدات أصبحت الاسكندرانية تمشي في طرقات البلدة وشوارعها بوجه سافر مكشوف، وأصبح الشيخ «فقر» لا يسبقها أو يتخلف عنها إنما إلى جوارها تماماً يمشي. كل ما في الأمر أن أحداً لم تواته الجرأة يوماً على التطلع في وجهها ـ ليس تعففاً أو تأدباً وإنما خجلاً ـ إذ ليتها ظلت مستترة خلف اللثام والطرحة والنقاب، فالناظر إليهما معاً كان يفضل دائماً أن ينظر إلى وجه الشيخ رابح ذي الحفر القديمة نصف المردومة، واللحية النابتة كالسنط.. فالنظر إلى وجه كوجهه كان ـ والله ـ أرحم.

المرتبة المقعّرة

في ليلة «الدخلة» و«المرتبة» جديدة وعالية ومنفوشة، رقد فوقها بجسده الفارع الضخم، واستراح إلى نعومتها وفخامتها، وقال لزوجته التي كانت واقفة إذ ذاك بجوار النافذة:

ـ انظري.. هل تغيرت الدنيا؟

ونظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

ـ لا.. لم تتغير.

ـ فلأنم يوماً إذن.

ونام أسبوعاً، وحين صحا كان جسده قد غور قليلاً في المرتبة.

فرمق زوجته وقال:

ـ انظري.. هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

ـ لا.. لم تتغير.

ـ فلأنم أسبوعاً إذن.

ونام عاماً، وحين صحا كانت الحفرة التي حفرها جسده في المرتبة قد عمقت أكثر، فقال لزوجته:

ـ انظري . . هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

ـ لا . . لم تتغير.

ـ فلأنم شهراً إذن.

ونام خمس سنوات، وحين صحا كان جسده قد غور في المرتبة أكثر، وقال كالعادة لزوجته:

ـ انظري . . هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

ـ لا . . لم تتغير.

ـ فلأنم عاماً إذن.

ونام عشرة أعوام، كانت المرتبة قد صنعت لجسده أخدوداً عميقاً، وكان قد مات وسحبوا الملاءة فوقه فاستوى سطحها بلا أي انبعاج، وحملوه بالمرتبة التي تحولت إلى لحد وألقوه من النافذة إلى أرض الشارع الصلبة.

حينذاك وبعد أن شاهدت سقوط المرتبة اللحد حتى مستقرها الأخير، نظرت الزوجة من النافذة وأدارت بصرها في الفضاء وقالت:

ـ يا إلهي! لقد تغيرت الدنيا.

معجزة العصر

قـال لي صديقي الـذي لم أره من عشر سنـوات، والذي كـان مقدراً أن أنقذه:

هذه المرة، هل رأيت معجزة العصر؟

بلا دهشة سألته: أية معجزة؟

لم يجب.. ولم نضيـع الوقت في التخمين وكـأن اتفاقـاً بيننا. لف ذراعه حول ذراعي وجذبني وتبعته صـامتاً. حـاولت أن أعرف إن كانت المعجزة هي الوصول إلى القمـر، أو ظهور المهـدي المنتظر، فكاد يغلق فمه تساؤلاً.. قائلاً:

ـ لا تخمن فلن تستـطيع أبـداً ادراكها، ولـو عـرفتهـا من تلقـاء نفسك لكانت معجزة العصر أنك عرفتها.

وبحماس جذبني بقـوة أكبر، وبعـد خطوات كنـا على البلاج. كـانت الدنيـا شتاء والشمس صفـراء تسقط شعاعـاتها المـريضة على الرمل فيبدو مجرد لون أنيمي شاحب.. جـو تتوقـع أن يكون البـلاج معه فارغاً غير أنك تفاجأ به عامراً مزدحماً وكأننا في أغسطس. الناس مكدسون على الرمال بالأكوام، والباعة ينادون على جيلاتي طـوبة..

وسحلب بثونة بـدندرمـة أغسطس. ولـو أغلقت العين لحسبته مجـرد خطأ في ورقة النتيجة، فأصـوات الصيف هي هي، وصخب الأطفال هو هو، حتى ذلك الاحساس الخاص بالصيف.. ذلـك الذي تحس وكأن الحياة بـه أكثر حـلاوة كان مـوجوداً.. إذا غضب الله على قـوم أمطرهم صيفاً، فمـاذا يكون مـوقفه تجـاههم إذا جعلهم يصيفون في الشتاء؟ من الممتع أن تشحذ عواطفنا مشاكل الظواهر الكونية، فحين أسخط على الدنيا تهطل الأمطار، وحين أحظى برضاء حبيبي تشقشق في الكون ملايين من عصافير الكناريا، وإذا كرهت جاري أطبق على المـدينة ضبـاب حتى لا تكاد تـرى ـ وأنت واقف على بـابـك ـ بـاب جـارك. والجار أولى بـالشفعة، إلا جـاري الـذي لم أره من يـوم أن قطنت عمارتنا.. فكلانا وحيد، وكلانا في المدينة المزدحمة قـد فقد الونس حتى أصبح الازدحـام مجرد حبـل معقود يهـدد احتواء رقبتـك فـأنت مرعـوب منه، وخـائف حتى النخـاع. نفس الاحسـاس الـذي شعرت به وازدحـام البلاج يحـويني، كتل من اللحم البشـري مقسمة إلى أذرع مختلطة وسيقان. ويا لمشهد الجسد البشري بعد العشـرين حين يكتنز بالشحم وتبرز له الكروش ويبدأ التفكير في صبغ الشعر أو توزيعه ليغطي الصلعة! حتى الجسد يهجرك ويهرب منك. وفي هـذه الوحدة المزدوجة لا بد أن يهزم الإنسان سريعاً، فنحن كائنات أرضية لا تنمو بصحة إلا معاً، إلا كمحصول واحد، فإذا مـا زرع كل نبـات منا بمفرده أكله «الفلت» وخنقته الطفيليات.

أتكـون المعجزة هي الحصـول على دواء يشفي الغربـة ويعيـد

جمع الناس؟ باء تخميني أيضاً بالفشل، وفقدت عين الحكمة مع أن الحكمة ثرثرة، لابد حسب قوانين التباديل والتوافيق أن ينتظم بعضها على هيئة أقوال رائعة النضج. ولكني سعيد وكأن مجرد رؤيتي الموشكة للمعجزة سيسلحني بطاقية اخفاء أو بخاتم سليمان قادر على تحقيق المطالب. الغريب أن الزحام لم يكن ازدحاماً للتجمع، كان تجمعات للتفرق، فكل مجموعة مكدسة بكليتها إلى شيء مشترك يخصها وحدها، أو ربما تبحث لنفسها هي الأخرى مثلما نبحث عن معجزة عصر، فأنت تقبل على تجمع يشبه من بعيد شكل الكازينو الذي أقيم على عجل، ولكنك حين تقترب لا تجد كازينو أو حتى مكاناً للجلوس. فالناس إما وقوف منحنون أو في حالة رقاد، والكل في شغل عنك بما يبدو وكأنه مأساة داخلية طاحنة. لا أحد يلتفت إليك، الأيدي تلوح في عصبية، والنقاش حاد كطلقات الرصاص.. وبعضهم بمجهود عظيم يضع يديه الاثنتين معاً على فمه محاولاً أن يكتم الضحك فلا يستطيع، وتكون النتيجة أن تفلت الضحكة رغماً عنه. حسبت الصديق يضحك، ولكنه كان يتوقف ويتطلع حوله ثم يحاول أن يخفي نفاد صبره، والعرق رغم الهواء الساقع قد نبت على جبينه، والحيرة الكبرى تتملكه، ويأسه شامل، يكاد لولا الحياء أن يستنجد بالناس ويسألهم أين الطريق لمعجزة العصر!

حسبته يضحك ولكنه كان.. فجأة يلكزني ويشير إلى كازينو قريب قائلاً وقد تهللت ملامحه وكاد يقفز منها الأمل: وصلنا.

ولم تكن فرحتي هذه المرة لأننا نوشك أن نصل، فرحتي كانت

لأننا نوشك أن نصل إلى كازينو حيث نستطيع الجلوس وشرب الماء المثلج والشاي بعد هذا الكدح الطويل من الشاطبي إلى سيدي بشر والمنتزه.

ولكن ما أبشع ما خاب أملي حين لم ينكشف الكازينو إلا عن ازدحام آخر، واحد من عشرات الازدحامات التي كان يحفل بها البلاج! نظرت بحدة إلى الصديق وإلى عينيه اللتين كانتا قد احمرتا تعباً، أو من يدري؟ . . ربما غيظاً، وربما لهذا انطبقت شفتاه في حدة راسمتين في خطوط قاطعة شكل فمه.

أين رأيت ملامح كهذه مرسومة بحدة كتلك الحدة يا ربي؟ . . أين؟ والهمهمة الصادرة عن هذا الازدحام نفس هذه الهمهمة وثيقة بنفس الملامح. وأيضاً بشيء يشبه المعجزة، أين ومتى حدث لي هذا يا ربي؟ لا أعرف، هذه اللحظة عشتها قبلاً، بالتأكيد حدث هذا. ولا بد أنه ذلك الشعور الذي دأب على زيارتي في الفترة الأخيرة. . الشعور بأن الكون يكاد ينتهي، والصمت المطبق بدأ يحل. . صمت سيمتد إلى آلاف وملايين السنين المقبلة، آخر علامات الحياة تختنق، الحركة الهائلة التي حفل بها الكون طوال وجود الإنسان قد انقرضت، وسيعود السكون الأبدي ولا يبقى إلا الشمس والقمر، والليل والنهار، والريح والرمال. الأجساد متراصة موزعة مختلطة لا تكاد تستطيع تمييز ساق الرجل من ساق المرأة، تبدو في أحيان كثيرة خالية من الشعر، والجميع كأنهم يبحثون عن ابرة سقطت في قلب الرمل، ليسوا منحنين فقط ولكنهم ممددون تماماً وقد استندوا بأذرعتهم إلى الأرض، وانكفئوا على الرمال عيونهم

تكاد تخرج من محاجرها بحثاً عن شيء لابد أنه مخبأ بطريقة ما في الرمل.

الأطراف كثيرة، كل حركة منها تثير ثائرة الرمل فيملأ العيون ويسد الأنوف، وتتصاعد صرخات الاحتجاج لأن شخصاً وقف أو سار أو تحرك، وأثار بحركته زوبعة صغيرة في ساكن الرمال. المعجزة.. معجزة العصر.. الشيء الصغير الكائن والموجود في حياتنا منذ وجودها الأول، إنما لكونه صغيراً فالجميع يعبرون به دون أن يحسوا له بأي انفعال أو احتفال، أقدامهم تدميه أو تصطدم به دون أن تشعر أو تحس أنها صدمت شيئاً أو تعثرت بشيء، والشيء دائم الصراخ والعويل، إنه كائن وموجود، دائم الرجاء أن يحظى منها بالتفاتة، أن يتلقى إشارة واحدة من طفل أبله تفيد أنه رآه أو سمعه أو أحس به بلا فائدة. الناس انغماسهم في مشاكلهم أقوى وأكبر من أن يدعهم ولو للحظة يفيقون إلى ما حولهم ويتأملونه بنظرة خالي البال. إننا لم نعد أحراراً في رؤيتنا. أصبحت أنظارنا قصيرة موجهة إلى ما تعرفه أو إلى ما تود معرفته.. أي اننا لم نعد نرى ما ينعكس من داخلنا إلا ما يعكس اهتماماتنا وتفكيرنا وأحلامنا، فقدنا تلك القدرة البكر على تلقي ما هو خارج النفس كما هو، بروعته وتلقائيته وعمقه وبساطته والانفعال له أو عليه، وبناء آرائنا ومعتقداتنا من خلاله، لا نرى إلا لكي نثبت أو نبرهن به أننا على صواب، ولكن في العادة دائماً ما يحدث شيء.. حدث يعرض مصادفة.. شيء لابد رغم إرادتنا يرغمنا على أن نلوي أعناقنا وننظر فنفاجأ أننا أمام حدث خارق

للعادة، أننا أمام شيء وإن يكن صغيراً إلا أنـه بالـغ الدلالـة، وحينئذ تفلت من أحـدنا صـرخة الإدراك الأولى ومعهـا تجر الانتبـاهـات إلى انتبـاهات ليصبـح ذلك الشيء بعـد يوم وليلة محـور اهتمـامنـا الأول ونكتشف وندرك كم نحن بحاجة إليه، وكم كانت تفتقده حياتنا، وكم هو لازم حيوي لها. ونندفع حينئذ انـدفاع من فقـدوا العقول نهتم بـه اهتماماً مبالغاً فيه، ويصبح أمل الإنسان منـا أن يحظى منـه بنظرة، أو نراه رأى العين. هل أصبتم بخيبة أمل؟ أنا نفسي حدث لي ما حدث لكم، ولـدى الإدراكة الأولى كـدت أهيم على وجهي يـائسـاً خـائب الأمل. لنحاول إذن ألا نخطىء خطأنا الشهير الأول.. الشيء خـارج ذواتنـا، الشيء لا كما نـريده وإنمـا كما هـو موجـود وقائم وكمـا كان يمضي الناس عنه غيـر مهتمين أو مدركين. إنـه ليس حشرة غـريبة أو قطعـة من معدن نـادر. كان في الحقيقـة بشراً مثلي ومثلك لـه أذنـان وعينان وأنف وفم وأسنان ولد بها جميعـاً والمفروض أنـه لا يزال إلى لحظتنا هذه يمتلكها. أنا لا أهزل أو أقول غير الحق، فآلاف المواليد تخـرج كل عـام على هيئة مـواليد شـاذة، بعضهـا ملتصق ببعض في أحيان، وأحيانـاً بطن واحـد بصدرين ورأسين من أعلى، ومن أسفـل بحوضين وأربع سيقان وأرجل.. كل الاختلاف أن الشيء في حـالتنا هذه كان جنيناً صغير الحجم، وهذا كل مـا هنالـك.. لا.. لم يكن في حجم كرة القدم ولا حتى في حجم البرتقالة، إن شئتم الدقة كان في حجم نصف عقلة الأصبع، ومع هذا فهو كامل الأعضاء متناسبهـا بـاستطاعتـه أن يصرخ ويـرقص ويرضـع، كل مـا هنالـك أنه يصـرخ

بصوت لا تستطيع سماعه. عليك لكي تسمعه أن تقربه كثيراً من أذنك، وحبذاً لو وضعته كله داخل أذنك لكي تسمع صراخه أوضح ما يكون، صراخ عصبي متشنج يحاول النص نص «هكذا سوف نسميه» أن يفرض إرادته علينا وعلى الحياة. كان صغيراً إلى درجة أن أمه لم تلحظ أنها ولدته، انزلق منها مع الماء الذي كان يملأ الرحم دون أن تحس به. وحسبته الداية قطعة من المشيمة ولكنها حين تناولته وتأملته صرخت صرخة أرعبت سكان المنزل جميعاً ولم تسقط فاقدة النطق وإنما إلى الأبد فقدت النطق.

* * *

وما أتعس الأم! كانت قد حملت به بعد أربعة عشر عاماً من العقم. وطوال حمله كادت تجن وهي تصلي إلى الله أن يجعله ولداً يقر به عين أبيه. وعلى هذا لم تجرؤ على اطلاعه عما أتت به وزعمت له أن الحمل كان كاذباً.. وبعد أن كانت قد قررت أن تلقي بالجنين مع الماء القذر صعب عليها الضنى وأخفته تحت الوسادة، وبالحقنة الرفيعة كانت تستطيع العثور على فمه وتغذيته.. وضبطها الزوج ذات يوم وهي ترضعه، وانهارت واعترفت، وبعد أن ثاب الأب إلى رشده وأيقن أن الخطأ - إن كان هناك خطأ - ليس منه أو منها وأنه يجب أن يرضى بما قسمه الله، رضي وسكن. تلك كانت ظروف ولادته.. أما كيف تربى وتعلم؟ فتلك قصة أخرى. فلقد سمع الأب ذات يوم أن السلطان يهوى جمع التحف النادرة، وأنه يدفع مكافأة

سخية لكل من يحضر له تحفة أصيلة ما امتلكها أحد قبله.

ولم يكن في قلب الرجل «للنص نص» حب أي حب، فحب الابن مسألة يتعلمها الوالد ويكتسبها مثلما يتعلم الولد المشي أو النطق. وكما يعلم الأب ابنه كيف ينطق فالابن يعلم أباه كيف يحبه. فكيف يستطيع «النص نص» أن يعلم أباه، وأبوه يحتاج إلى عدسة كي يرى وجهه أو يعرف بطنه من رأسه؟ الأم وحدها هي التي كانت تحبه، ولهذا كان على الأب أن يساهيها ويأخذه وأن ينفق جزءاً من المبلغ الذي أعطاه له السلطان في شراء ملابس لها ومصاغ. أما السلطان الذي كان يعاني من الفراغ الممتد في حياته وأمور بلاده يسيرها وزيره ورعيته هادئة سلسة، فقد وجد في «النص نص» غايته ومبتغاه والشيء الذي يستطيع أن يكرس له كل نفسه ووقته ويجد في هذا كل المتعة.

كان عليه أن يعلمه كيف يتكلم وينطق، ثم بعد هذا كيف يقرأ ويكتب واعتبر أنه لو حقق هذا لأصبح يمتلك تحفة معجزة يستطيع أن يفرج عليها خلانه وأصدقاءه، وأن يمنحهم ويمنح نفسه بهذا متعة دونها أي متعة أخرى.

كل خوفه كان أن يكبر «النص نص» بمضي الزمن ويصبح عند البلوغ مثلاً أو إذا أصبح رجلاً مجرد قزم ضئيل الحجم. ربما يكون أقصر الأقزام وأقلهم حجماً، ولكنه حتماً سيفقد أهم ميزاته. غير أن «النص نص» كفاه مئونة القلق، فلم يكن ينمو مع الأيام أو يزداد

حجمه أو حتى تتغير ملامحه، بل إنه حين قارب سن الرجولة لم يحدث له أدنى تغيير سوى أن لحية نبتت له فجأة، لحية فيها بالضبط عشر شعرات ما كان أسعد السلطان وهو يحلقها له بنفسه، أو وهو يجتث منها خمس شعرات ويترك خمساً لتنمو وتكون ذقناً بديعة صغيرة كذقون العلماء.

وتعلم «النص نص» النطق فأصبح يحسن استخدام الجهاز الترانزستور الذي كان يضخم صوته ويجعله مسموعاً، وفي نفس الوقت يقوم بمهمة الأذن له بحيث يخفف من موجات الصوت ويهذبها كي تصل إلى أذنه الدقيقة وتصبح في متناول سمعه.

بهذا الاتصال الذي تم مع «النص نص» أمكن للسلطان أن يعلمه القراءة والكتابة وأن يبدأ معه سلم المعرفة الطويل. وفيما عدا ساعتين كان يقضيهما «النص نص» في تناول الافطار والتريض رياضة عنيفة، يسير في أثنائهما فوق المسطرة القدم من أولها إلى آخرها ويقطعها في رقم قياسي لا يتعدى نصف ساعة، أو يزاول العوم لمدة ساعة وأكثر في كوب الماء، ويستطيع أن يدور حول محيطه ثلاث مرات وأحياناً أربع مرات.

فيما عدا هذا كان كل وقت «النص نص» متروكاً للدراسة والتحصيل.. وقد أتاح له السلطان أساتذة كباراً مما جعله ينتهي من المرحلة الابتدائية وهو لم يبلغ الخامسة. وفي العاشرة انتهى من الدراسة الثانوية واستعد لدخول الجامعة.. هنا فقط بدأت امكانيات

«النص نص» المعجزة تظهر، فقد وجد أن منهج كلية العلوم التي اختارها ليدرسها أقل بكثير من أن يستغرق كل وقته، بل إن الطب والعلوم والزراعة معاً كانت أقل من وقته فأخذ بجوارها الآداب والقانون والفنون. وفي السنة الثانية مثلاً نجح في تشريح ثانية طب وميكانيكا ثانية ميكانيكا وكهرباء ومدني ثانية كهرباء ومدني، وكل القوانين المقررة على ثانية حقوق، وفي البكالوريوس قدم في جميع بكالوريوسات الجامعة وليسانساتها. . وبتفوق نجح فيها جميعاً حتى ان خطابات التعيين جاءته ليعين معيداً في أربع عشرة كلية في وقت واحد. وحين ذهب فرحاً ليتسلم مهام أول مناصبه بدأت أشباح مأساته تتراءى، إذ لم يجد أحداً يأبه له أو يعيره اهتماماً، أو حين ينجح في إثارة اهتمامه والحديث معه ينجح في اقناعه بجدية طلبه. كان الجميع ينظرون إليه نظرتهم لا إلى إنسان دفعه حظه السيىء إلى أن يكون صغير الحجم ليس إلا، وإنما باعتباره ظاهرة شاذة وكأنه حشرة قد نجحت في النطق كالآدميين.

ظاهرة تدفع إلى الاستنكار والاشمئزاز مثلما نستنكر جميعاً أن تقوم الحشرة بدور الإنسان في الوقت الذي لا نستنكر فيه مطلقاً من أي إنسان أن يقوم بدور الحشرة. وعاد مهموماً إلى ولي أمره السلطان الذي أدرك كل شيء بنظرة، والذي كان قد رتب للأمر. ومن اليوم التالي كان «النص نص» يحضر لدراسة الدكتوراه. كان قد انتوى أمراً خطيراً، أن يدرس أربع عشرة دكتوراه في نفس الوقت. وبينما كان زملاؤه يؤدون أعمالاً روتينية ويبدؤون في لعن الروتين والسخط

على قوانين الاستخدام، وفي الـوقت الذي كـان بعض آخر منهم قـد يئس من كـل شيء ووهب نفسه كليـة اللتهليس وعب ملذات الحيـاة عبـاً. . نذر نفسـه هو للدراسـة، وفي ثلاث سنـوات كـان قـد أكمـل استعـداده، ولأول مرة في تـاريخ الجـامعـة ـ بـل في تـاريـخ الجنس البشري كله ـ تجتمع أربع عشرة لجنة لأربع عشرة مادة مختلفـة، من الـرياضـة العليا إلى هنـدسة الانتـاج إلى الجراحـة الخاصـة لتمتحن «النص نص» في نفس الـوقت. ومن أجل هـذا الحدث غيـر العـادي غيرت الجامعة من نظام المناقشة وأجلست «النص نص» في منتصف الحجـرة وحولـه تناثـرت مقاعـد الممتحنين الـذين لم يبـد عليهم أي استنكـار لحجم «النص نص» أو شكله، فالمجتمـع لا يهمـه شكلك وأنت تـدرس أو وأنت تمتحن، إنه فقط يبـدأ يدقق ويفحص ويختـار حين تتقدم إليه تطلب العمل!

ولأربع عشرة ساعة راح الممتحنون وأعضاء اللجان يناقشـونه، ولم يكتشفوا لدهشتهم أنه قد هضم واستوعب تماماً كل مادة من مواد الامتحان إنما اكتشفوا أكثر أنه بلغ من استيعابـه للمواد أنـه وصل إلى نظريات عامة جديدة تماماً في عـلاقة ألـوان العلوم والمعارف بعضهـا ببعض. . نظريات أوصلته إلى قوانين خـطيرة تكشف شيئـاً فشيئاً عن جـذور المعرفـة البشريـة والقوانين المـوضـوعيـة للمـاديـة وأشكـالهـا المختلفـة، بحيث انه كـان يتوصـل معهم إلى القـانـون الأول الـذي يحكم علاقات الكـون كله. وتحول النقـاش حينئذ من لجـان تمتحن «النص نص»، إلى تـلامذة يخـرج لهم «النص نص» كنوزه ويحدثهم

عما وصل إليه وهم حيارى مذهولون، قد أدركوا فجأة ليس فقط أنهم أمام عبقري من طراز نادر، ولكنهم اكتشفوا أنهم قضوا حياتهم عبثاً، وأن دراسة الكون كأجزاء منفصلة والإغراق في التخصص قد سلبهم القدرة على النظرة الكلية، وأن خير وسيلة للدراسة والمعرفة هو ما فعله «النص نص»، هو أن يعود العالم مرة أخرى مثلما كان الحال أيام ابن سينا وابن رشد عالماً في كل شيء ليستطيع أن يصل إلى المفتاح السحري للعلم، ذلك الذي يفتح كل باب مغلق. وأيضاً كان لا بد أن يحدث ما حدث، فرغم ما كانوا غارقين فيه من ذهول، ورغم أفواههم الفاغرة تتلقى من «النص نص» وكأنها تتلقى درس الحياة الأول، ما كادوا ينتهون من نقاشه أو بالأحرى ينتهي هو من القاء الدرس عليهم حتى عادوا يغرقون في المناقشات الحامية حول ما أسموه «الظاهرة النص نصية»، وهل هي معجزة فردية لا سبيل إلى الوصول إليها، أو هي أسلوب وطريقة باستطاعة أي إنسان أن يستعملها ويصل بها إلى نفس النتائج. ولما بح صوت «النص نص» وهو يحاول استخراجهم من النقاش ولفت أنظارهم مرة أخرى إليه، وهم مستغرقون في عملية انقسموا تجاهها أيضاً هل يمنحونه أربع عشرة دكتوراه منفصلة، أو يمنحونه درجة علمية جديدة يسمونها دكتوراه الدكتوراهات؟ انسل «النص نص» من وسط الجمع لا يشعر به أحد أو ينتبه إليه أحد أو يوليه اهتمامه، انسل وحيداً، مهموم القلب وقد عاد مرة أخرى إلى مواجهة واقعه الحزين وحظه السيىء، وعاد إلى بيته ليفاجأ بالمأتم قائماً ومنصوباً. كان ولي أمره السلطان

قد مات، وكان منذ الغد عليه أن يرحل. ورحل لا يمت إلى أحد ولا يستطيع حتى أن يمت إلى مكان، فلا صاحب بيت يرضى أن يؤجر له بيتاً، ولا مدير فندق يرضى أن ينزله بفندقه، نفس الاندهاش والتقزز تمتلىء به نفس من يخاطبه ويتفرج عليه برهة ثم لا يلبث ـ كالطفل حين ينتهي من لعبته ـ أن ينفض منه يده ولا يعود يأبه له أو لتوسلاته.

نفس الأساتذة الذين كانوا يشيدون بعبقريته حين كان يلقاهم منفردين في مكاتبهم، كانوا لا يملكون له سوى هز الأكتاف وإلا بتبصيره بالعقبات التي تشل أيديهم وتمنع الواحد منهم أن يعهد إليه بعمل ـ أي عمل ـ لا كدكتور حتى أو كعالم. وإنما كإنسان تجارب عرض نفسه على أستاذ علم الأمراض كي يبقيه في قسمه، مجرد عينة علمية وظاهرة ممكن دراستها للكشف عن هرمونات النمو وأمراضه، اعتذر له الرجل قائلاً: ان قانون الجامعة لا يبيح الاحتفاظ إلا بحيوانات التجارب فقط من أمثال الفيران، والخنزير الغيني، والأرانب. ولكن القانون لا يوجد به مادة تبيح الاحتفاظ بإنسان تجارب.. لو فعلها لحاسبه ديوان المحاسبة حساباً عسيراً ولعاقبته الجامعة. حتى الصحف والتليفزيون والإذاعة حين شاعت قصته في الأوساط العليا جرى مندوبو الصحف يبحثون عنه حتى وجدوه عند أستاذ من أساتذة الجامعة، وأخذوا له عشرات الصور الفوتوغرافية، وأعطى عشرات الأحاديث، وعملوا معه أكثر من لقاء. في التليفزيون، وأمامه وعيني عينك كانوا يحضرون بعض أساتذة الطب

ليقولوا رأيهم فيه، وفي الاستديو كان حين يتكلم يحس بالدنيا كلها منصتة إليه، ويبدأ يتفاعل ويفتح لهم صدره ويطلب منهم أن يجدوا له عملاً يتناسب مع مركزه العلمي ومؤهلاته، وكان ما كان يذكر حكاية العمل وحاجته إليه ويطلبون منه أن يقترح عليهم نوع العمل الذي يريده، وما يكاد يذكر كلمة مدرس أو معيد أو حتى محضر في معمل حتى ينفجروا ضاحكين مقهقهين، مشيرين إليه وإلى حجمه، وسادرين في الضحك عليه لابد. وكالعادة لم تستمر موجة الاهتمام به كثيراً، بعد أسبوع أو أقل فتر الحديث عنه ولم يعد ظهوره في التليفزيون حادثاً كبيراً كما كان الأمر في أوله، إلى درجة أن أحد منتجي القطاع الخاص كان أثناء موجة ازدهاره قد فكر أن ينتج عن حياته فيلماً. خبر أسعد «النص نص» وأفرحه فهو على الأقل سيأخذ ما لا يقل عن شهرين أو ثلاثة من العمل والاستعداد، غير أن هذا الأمل نفسه ما لبث أن خاب حين وجد نفس المنتج أن فكرة الفيلم ممتازة هذا صحيح، ولكن المستحسن أن يقوم اسماعيل يس ببطولتها ويسمونه اسماعيل يس في الجامعة!

وبالعدول عن فكرة الفيلم وانتهاء الحديث عنه في وسائل الاعلام وجد «النص نص» نفسه بين يوم وليلة يحيا في فراغ كامل تام. وجد كل الأبواب التي كان يتخيل أنها مفتوحة على مصاريعها في انتظاره تغلق دونه الواحد وراء الآخر بلا سبب معلوم، وكأن هناك مؤامرة خفية هدفها أن يفقد عقله أو يرتكب عملاً أحمق. وكان قرر أن يرتكب هذا العمل وينتحر، فقد ضاقت به الدنيا حتى أصبحت

أضيق من «خي» حبل المشنقة.

ولم يتطلب منه الأمر تفكيراً كثيراً، وعلى الفور شرع في اتخاذ طريقه إلى مبنى المجمع في ميدان التحرير، وعلى قدميه صعد الطوابق الكثيرة إذ هو لم يكن يستطيع أخذ الأسانسيرات أو ركوب الأوتوبيسات مخافة أن يفعصه أحدهم دون أن يحس أو يشعر. خرج إلى سطح المبنى وأشرف على حركة المرور الهائلة في الميدان.. وراجع حياته وما ينتظره علّه يجد قشة أمل يتعلق بها في لحظاته الأخيرة، ولكن كان واضحاً تماماً أن قصته مع الناس قد انتهت، وأنه لم يعد بإمكانه أن يعيش بالطريقة التي يريدها، كان يستطيع أن يعيش على هامش الحياة مثلما يحيا الآلاف والملايين غيره، يأكل كيفما اتفق، ويسكن كيفما اتفق، ويوجد كيفما اتفق، ولكن كنوز المعرفة التي نهل منها جعلته يرفض أي حياة أخرى إلا الحياة التي يريدها هو. إلا أن يفرض على الحياة حياته، فإذا فشل في هذا الفرض كان عليه في صمت وبطولة أن يموت. وأغلق عينيه وقفز من حافة السور الصغير المقام فوق السطح، وأحس بنفسه يهوي ويهوي، وبوعيه يبهت ويبهت كأنه الشمعة تتعرض لتيار هواء قوي. حالاً ستنطفىء الشمعة، ويفقد الوعي تماماً وإلى الأبد، غير أن اللحظات طالت حتى جرؤ على فتح عينيه فوجد نفسه يقترب من الأرض بسرعة فعاد يغمض عينيه، وفي اللحظات التالية بدلاً من فقدان الوعي اصطدم بالأرض ولم يتحرك من مكانه منتظراً الموت، غير أن الموت لم يأت. كل ما في الأمر أحس بآلام هائلة. آه! كيف فاته وهو العالم

الكبير أن سقوط من في وزنه لا يمكن أن يؤدي إلى وفاته أو حتى كسر عظامه؟ هذه المرة غضب.. وفي غضبته راح يبحث بسرعة عن وسيلة أخرى يقضي بها على نفسه. لم يكن أمامه إلا أن ينام فوق قضيب السكة الحديد وينتظر القضاء تحت عجلات القطار. ولكن القضاء لم يحل، فالهواء الناتج عن القطار القادم تكفل بنفخه حتى طار من فوق القضيب واستقر كالريشة على الزلط. حتى الغرق في النيل جربه، فوجد نفسه وفقط بحجم ما يرتديه من ملابس يطفو على سطح الماء، ولم يفكر في خلع ملابسه مخافة أن تفشل الوسيلة فيضطر إلى أن يعيش عارياً وهو مصير لم يكن يتصوره.

تكفل فشل هذه الوسائل جميعها برد بعض التعقل إليه، وكأن نية الموت لها حد محدود بحيث بعد محاولة أو محاولتين لا يصبح الإنسان قادراً على أن يظل منتوياً الموت. وهكذا وهو طاف على سطح ماء النيل بعد فشله الثالث قرر أن يحيا، أن يكافح ليحيا كما يريد، وينتزع الحياة بأظافره وأسنانه ما دام الناس لا يستطيعون أن يقدموها إليه على طبق من الفضة. ولكي تقرر أن تحيا عليك أن تقرر أيضاً ماذا تفعل بحياتك.. وهكذا في نفس اللحظة كان «النص نص» قد قرر أن يحل بحياته القادمة المقبلة كل ما استعصى على البشرية حتى ذلك اليوم حله.

ونفس الشيء الذي كان يقف حائلاً بينه وبين حقه في الحياة كالآخرين، نفس صغر حجمه توسل به كي يحيا كما يريد. الآن

باستطاعته أن يختار أفخر مكان يريد الإقامة فيه وأحسن مكان يعمل فيه ويجرب. . واختار هيلتون ليقيم فيه، أما رقم حجرته فهو رقم أي حجرة لا يشغلها قاطن، وإن كان الفندق كله مشغولاً فهو رقم حجرة أجمل قاطنة من قاطنيه على شرط أن يصحو قبلها، مخافة أن ترفع البطانية وتكتشف شريكها في الفراش ويغمى عليها من الرعب. . أما العمل فقد اختار معامل الكليات جميعها بعد انتهاء اليوم الدراسي حيث تصبح كلها تحت أمره. والآن وقد توفر له السكن والمعمل والأدوات لم يعد أمامه إلا أن يستغل ما يحفل به عقله من كنوز المعرفة ويعمل. وكان أول موضوع اختاره وأراد أن يلقي به درساً على كل هؤلاء الذين تجاهلوه وازوروا عنه، كان الوصول إلى القمر. وبعد أبحاث لم تستغرق سوى بضعة أسابيع كان قد اكتشف الطريقة، لا لم يستعمل الصواريخ ولا الوقود، استعمل طريقة أبسط من هذا بكثير، فقد اكتشف كنه الجاذبية وأدرك أنها شحنة نوعية. . بمعنى أنك إذا استطعت أن تشحن مادة بنفس شحنة الجاذبية الأرضية فإنها تتنافس مع الأرض وتصعد إلى أعلى. وهكذا استطاع أن يشحن مركبة الفضاء الصغيرة التي صنعها في معمل الميكانيكا بكلية الهندسة بواسطة جهاز صغير مركب داخل السفينة، وبتشغيل الجهاز تنافرت المركبة مع الأرض، وبتقوية الشحنة أمكن أن يسرع بها إلى درجة أنها قطعت المسافة بين الأرض والقمر فيما لا يزيد عن الساعة. وحين اقترب من القمر أعاد شحن السفينة بنفس جاذبية القمر. وهكذا تعادلت قوة تنافرها مع القمر مع قوة اندفاعها الأولى،

وهبطت على سطح القمر بسلام. وطور بعد هذا اختراعه ليستطيع أن يسافر إلى الكواكب الأخرى. وهكذا كان يكفيه أن يشغل الجهاز بحيث يمنع عن السفينة الجاذبية الأرضية، وفي نفس الوقت يشحنها بجاذبية مضادة لجاذبية المريخ أو الزهرة أو أي كوكب يختاره، فإذا بجاذبية ذلك الكوكب تتفاعل مع جاذبية السفينة، ودون حاجة إلى بوصلة أو ملاحة فضائية أو مرشد كانت السفينة تنجذب تلقائياً إلى الكوكب بقوة عظمى، حتى لقد استطاع أن يصل بالسرعة إلى مليون كيلومتر في الثانية وهي أضعاف سرعة الضوء. وهكذا كان يستطيع الوصول إلى القمر في نصف ثانية، وإلى المريخ في ٢٥٠ ثانية.

وهكذا وضع قدمه على الطريق للسفر إلى العوالم الأخرى التي تفصلها عنا مئات السنوات الضوئية، إذ هو لم يجد حياة على المريخ كما كان يتوقع. وبدراساته وتلسكوباته الرادارية أمكنه أن يكتشف أن هناك قانوناً أساسياً من قوانين الكون، قانون التماثل، بمعنى أن كل مجموعة نجمية توجد فيها الشموس والأقمار بنظام واحد، بمعنى أن المجموعة الشمسية المقابلة لمجموعتنا في الكون الآخر لها هي الأخرى شمس مثل شمسنا، وعلى نفس البعد منها يوجد مريخها وزهرتها وأيضاً على بعد ٥٣ مليون ميل منها توجد كرتها الأرضية، وهكذا.. فالحياة لا توجد إلا في الكرة الأرضية الموجودة في المجرة المقابلة لمجرتنا، وهي كرة تبعد عنا بحوالي ٥٢٥,٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل، ويستغرق

الإنسان في قطعها ثمانين مليون سنة ضوئية. فإذا عرفنا أن المسافة بين الشمس والأرض ٩٣ مليون ميل يقطعها الضوء في ثماني دقائق ونصف دقيقة، لأمكن أن نتصور المسافة الهائلة التي لابد تفصلنا عن زميلتنا الكرة الأرضية الأخرى، والتي من أجل الوصول إليها كان على «النص نص» أن يصل إلى جهاز يستطيع أن يولد قوة جاذبية تصل بسفينة الفضاء إلى سرعة أسرع بكثير من سرعة الضوء، وإلا لاستغرق ثلاثين مليون سنة ضوئية للوصول إليها، ونفس المدة في العودة منها. وهكذا أمكن أن يصل بجهازه إلى سرعة توازي مليون مليون مرة سرعة الضوء، وبهذا أمكنه أن يذهب إلى الكرة الأرضية المقابلة ويعود منها في بحر ٧٤ يوماً فقط، وهو شيء خارق للعادة كما ترى.

غير أن بناء هذا الجهاز كان سيستغرق وقتاً إذ هو يقوم به بمفرده دون مساعدة من أحد، ولا بد أن يصنعه متيناً قوياً مزوداً بكميات من الأوكسجين والوقود تكفي لهذه الرحلة الطويلة. ولهذا وفي انتظار أن يتم صنع مركبة فضائية واصل العمل في بحوثه الأخرى فاكتشف «كورس» الأربعة عشر يوماً للوصول إلى درجة العبقرية. ذلك أنه بدراسته للإنسان وللحيوان اتضح أن الذكاء والقدرة العقلية مبعثها هرمون خاص مسئول عن تغذية وتشغيل خلايا المخ. ومع أن طاقة المخ البشري طاقة جبارة إلا أن الجزء المستخدم منها قليل جداً، ذلك أن هذا الهرمون يفرز بكمية قليلة في حين أننا لو زدنا من كميته لاستطاع العقل البشري أن يعمل أضعاف أضعاف ما يعمله الآن

ودون جهد يذكر. وهكذا بواسطة الأربع عشرة حقنة تؤخذ على مدى أربعة عشر يوماً أمكنه أن يصل بالعقل البشري إلى أن يصبح له قدرة شكسبير الشعرية والمسرحية وذكاء اينشتين وحساسية بتهوفن الموسيقية. إنه يضع الإنسان بواسطة هذا «الكورس» على أعتاب العبقرية، ولكنه لا يستطيع أن يصنع له شيئاً آخر إذ الباقي عليه هو وحده أن يقوم به وينتجه. بل إن بحوثه في هذا الاتجاه أوصلته إلى طريقة تركيب الخلية العصبية، وبالذات طريقة تركيب الأحماض الأمينية التي تكون الكروموسومات داخل نواة هذه الخلية، وهي الأحماض الأمينية المسئولة عن صنع الحياة، إذ هي تستطيع أن تحيل المواد العضوية وغير العضوية إلى مواد حية قادرة على الانقسام الذاتي والحركة. كل المشكلة أن العلماء الذين سبقوه لم يستطيعوا الوصول إلى هذا التركيب لأنهم كانوا يدرسون على خلايا الجسم الإنساني والحيواني، في حين أن خلايا الإنسان والحيوان مهما كثر عددها ليست سوى أجزاء من الكائن الحي، ولذلك اتخذ هو حيواناً ذا خلية واحدة ولكنها كبيرة الحجم جداً بحيث تسهل دراستها، اتخذ البيضة.. بيضة الدجاج باعتبارها وحدة حية قائمة بذاتها، وبواسطة الميكروسكوب فوق الألكتروني الذي ابتكره ـ وهو ميكروسكوب قادر على التكبير إلى مليون ضعف ـ أمكنه أن يرى جزيئات الحمض الأميني، بل أمكنه أن يرى هذه الجزيئات وهي تتكون من تلقاء نفسها وتتركب، ولم يكن عليه بعد هذا إلا أن يقلد العملية. وهكذا استطاع بواسطة محاليل من الكربوهيدرات والمواد النيتروجينية والكبريتية،

وبإمرار تيار منشط عبارة عن سيل متدفق من الأشعة فوق البنفسجية، أمكن لهذه المواد أن تختار النسب التي تتحد بها مكونة البروتوبلازم الحي ولأنها مواد معلومة الوزن، وقد أمكنه أن يعرف نسب هذه المواد التي دخلت في تركيب البروتوبلازم، أمكنه أن يصل إلى هذا اللغز المعقد ويعرف سر تركيب المادة الحية. بل أمكنه أن يخلق خلايات حية في كأس زجاجية، الخلية منها في حجم البيضة، تتفاعل بالضوء وتنجذب أو تنكمش لدى اقتراب الخطر، وقادرة على تغذية نفسها، بل وأن تنقسم في النهاية إلى خليتين. وكان يعتقد قبلاً أنه لو وصل إلى هذا الحد لتكشف له سر الحياة ولأمكنه أن يصل إلى تركيب كائنات أرقى بكثير من كائنات الخلية الواحدة، ولكن المشكلة التي واجهته جعلته يكتشف أن هناك لابد سراً آخر غير مجرد التركيب الكيميائي، ذلك السر الذي يبدو وكأنه كامن في الخلية الحقيقية يجعلها لا تنقسم ولا تتكاثر وتتحرك فقط، ولكن يجعلها ـ وهذا هو أهم شيء ـ تتطور لتأخذ باستمرار أشكالاً أخرى. الخلايا التي أوجدها لها نفس تركيب الخلية الحية الكيميائي، فماذا إذن يجعل الخلية الحية قابلة للتطور بينما خلاياه هو خاملة لا تتطور؟ ذلك هو السؤال. سؤال كان يبدو عويصاً إلى الدرجة التي جعلته يؤجل الإجابة عنه ليبتكر للبشرية بعض الأشياء التي تحتاج إليها بشدة مثل السرطان وعلاجه. ولكي يعالجه كان عليه أن يعرف سببه. وقد اكتشف السبب من نفس تجربته السابقة، إذ هناك خميرة معينة داخل الخلايا الحية مسئولة عن انقسام تلك الخلية وتكاثرها. حين يصل

الحجم بالخلية إلى درجة معينة، أو يصل بها العمر إلى زمن معين محدد، تعطي الخميرة الإشارة وتبدأ الخلية تنقسم. هذه الخميرة ليست مستقلة في عملها ولكنها خاضعة لاحتياجات الكائن الحي ككل، بحيث حين لا تستدعي الحاجة يستطيع الجسم أن يؤجل التكاثر والانقسام، أو يشرع به إذا استدعت الضرورة وذلك بواسطة هرمون معين، والسرطان ليس سوى تحرر خمائر الانقسام الموجودة داخل الخلايا من أثر هذا الهرمون، بحيث تبدأ تتكاثر أوتوماتيكياً دون هرمون يزجرها أو يوقفها عند حدها. وعلاجه لا يتعدى تزويد الإنسان بجرعات من هذا الهرمون تعيد اخضاع الخلية للمراكز العليا واحتياطات الجسم.

وهكذا حل «النص نص» مشكلة السرطان. أما السل وبقية الأمراض فلم ينفق وقته في إيجاد علاج لها كل على حدة، وإنما توصل إلى معرفة نوع من المنشطات الحيوية، تلك التي تفرزها الخلية الحية إذا أشرفت على الموت قبل موتها بثوان، وكآخر سلاح لديها تطلق الخلية خميرة سماها العلماء المنشط الحيوي تقضي على كافة أعداء الجسم من ميكروبات وتنقذ المريض في آخر لحظة. استطاع «النص نص» أن يتوصل لمعرفة نوع منها قادر على الفتك بأية ميكروبات مهما بلغت قوتها، بل وبواسطة قرص واحد منها يأخذه الإنسان كل أسبوع يستطيع أن يضمن الإنسان بقاءه سليماً معافى من كل الأمراض.. حتى الأمراض الاجتماعية. وبواسطة لتر من الأنتي كابيتال يوضع في كل مليون متر مكعب من ماء الشرب،

يستطيع هذا العقار أن يغير من أفكار الناس بحيث لا يعودون يطيقون الجشع الرأسمالي، ويصبحون أكثر حساسية في كل ما يتصل بالغير بحيث لا يرضون ظلمه أو الجور عليه، حتى روح الحرب والعدوان يستأصلها إذ هو يضخم مركز الغيرية في المخ، ذلك المركز الذي تصدر منه كافة الأفعال والتصرفات الإنسانية، وتهدف إلى المحافظة على النوع من خلال المحافظة على المجموع. عكس المركز الآخر الذي يضمر بأنتي كابيتال ويذوي، مركز المحافظة على النوع من خلال الذات. حتى السينما والتليفزيون استطاع «النص نص» أن يبتكر عدسة التصوير وعدسة العرض التي تجعل الفيلم يبدو حياً بنفس أضواء الحياة وطعمها وتجسيماتها.

وأخيراً توج «النص نص» أبحاثه في خلال بضعة شهور، بأن استطاع اكتشاف نظرية جديدة لتركيب الكون، إذ كان الناس يتصورون الكون من خلال تصورهم للجزء الذي يستطيعون رؤيته منه، أو حتى من خلال الجزء القادرين على تصور مقياسه، والتصور البشري يبدأ من تصور جزء على عشرة مليون جزء من المليمتر إلى ألف مليون سنة ضوئية، تلك هي المسطرة التي كنا نقيس بها الكون، في حين أن هذه المسطرة لو وضعت على المقاييس الحقيقية للكون لبدت وكأنك تضع مسطرة طولها قدم واحدة على المسافة بين الأرض والشمس. فهناك مقاييس نسميها أصغر بكثير من الجزء على مليون جزء من المليمتر، ومقاييس أكبر بكثير من الألف مليون سنة ضوئية. . أصغر إلى ما نسميه المالانهاية وأكبر من المالانهاية

المزعومة، في حين لا توجد المالانهاية. والذرة ليست سوى كون كامل يشبه مجرتنا، والالكترون الموجود في الذرة ليست سوى كرة أرضية بأكملها، وداخل هذا الالكترون توجد مجموعة الكترونية عبارة عن نواة وحولها أجسام تدور وكل جسم منها عبارة عن فلك كامل، وهكذا إلى أن تصل إلى دقائق تنجذب إلى بعضها البعض بسرعة فائقة حتى تصل إلى الحد الأدنى من القرب، وحينئذ تبدأ تتنافر وتتباعد. وهذا هو نبض الكون، إذ نفس هذا النبض يحدث وبنفس السرعة للأكوان الكبيرة التي تتجاذب إلى الحد الأدنى من المسافة، لتعود تتنافر وتفقد تكوينها مكونة السديم الذي يبدأ يصنع منه التجاذب الأصغر فالأكبر فالأكبر حتى تتكون المجرات والأفلاك ويحدث التجاذب من جديد. سرعة نبض الكون ثابتة ولا يوجد أكبر أو أصغر، فطريق التقائه ليس سوى تجمع لذرات نراها نحن من داخلها في حين أنها من الخارج قد تكون جزءاً من مادة، أو حتى جزءاً من جزيء داخل في تكوين كائن حي من الصعب تصور حجمه. القانون الواحد الذي يحكم هذا الكون كله هو قانون التجاذب للتنافر أو التنافر للتجاذب، على أساسه يمكن تفسير كل شيء، حتى تفسير نشأة الحياة وتعدد الأنواع. فالجزيئات تظل تتجمع وتكبر إلى أن تصل إلى الحد الأعلى، فتتنافر وتنقسم وتتحدد مكوناتها الجديدة مكونة أنواعاً أخرى من الجزيئات حتى يؤدي التجميع إلى الانقسام. وإعادة التكوين إلى جزيء الحمض الأميني الذي يتجمع على هيئة خلية واحدة تظل تنمو إلى الحد الأعلى، ثم

تنقسم ليحدث بين مكوناتها المنقسمة وبين مكونات خلية أخرى مختلفة معها قليلاً نوع من التزاوج، يؤدي إلى ظهور الحيوان عديد الخلايا. وبتكرر العملية تتعدد الأنواع حتى تصل إلى القرود والإنسان الذي يتطور بعد هذا بسبب تطور العلاقات الاجتماعية التي تحكم الصلة بين أفراده.

وعشرات غيرها من الاكتشافات والاختراعات.. حتى انه اكتشف فيما اكتشف دواء لمعالجة الدمم الخربة لأصحاب البيوت، بحيث ان ملعقة منه قبل توقيع العقد تستطيع أن تجعل صاحب البيت يتنازل بمطلق إرادته عن جميع الشروط الواردة بالعقد، وكلها للأسف حقوق لصاحب البيت لدى المستأجر.

وأن يعمل ويكتشف كان مسألة سهلة كان باستطاعته أن يصل إلى ما هو أخطر، وأن يكتشف أشياء أهم بكثير من تلك، ولكن المشكلة التي كانت تؤرقه أنه لم يكن يستطيع أن يفعل بهذه الاكتشافات شيئاً. كان يحملها ويذهب بها إلى أصحاب الشركات وأساتذة الجامعة والمسئولين فينظرون إليه نفس نظرتهم إلى حيوان غريب ويضحكون. وأحياناً يقبضون عليه ويحملونه في جيوبهم ليفرجوا عليه زوجاتهم ويجعلوا الأولاد يلهون به بعض الوقت. وذات يوم ضاق به أحدهم إلى الدرجة التي أمسكه وقذف به من النافذة فسقط فوق رأس فلاح ما كاد يراه حتى استبشر وقال: ياما أنت كريم يا رب، وأخذه إلى بيته في القرية وأبقاه محبوساً ستة أشهر حتى يحين موعد القطن كفأل حسن. وحين لم يزد المحصول كما

كان يتوقع أقسم أن يطعمه لحماره، ولم ينقذه في اللحظة الأخيرة إلا زوجته حين راحت تستحلفه أن يبقيه لكي يجلب لأختها العاقر الحمل. وبالتأكيد لم يستطع أن يجلب شيئاً ولكنه أفلح في الهرب ووصل إلى حيث المعمل ومركبة الفضاء التي كانت قد تمت، وبغيظ أدار الجهاز، وبعد سبعة وثلاثين يوماً كان في الكرة الأرضية المقابلة. وحين هبط فوجىء بأعظم وأروع فرحة في حياته، فقد وجد الناس هناك في مثل حجمه، ورحبوا به وطافوا به أنحاء الكرة ومما لكها باعتباره «إنسان الأرض» الذي ترقبوه طويلاً، ولأنهم كانوا يمرون بنفس الطور الحضاري الذي تمر به كرتنا الأرضية فقد زودهم باكتشافاته التي طبقوها في الحال وجعلت من حياتهم جنة، فأقاموا له التماثيل، وكاد قسم كبير من سكان تلك الأرض يقدسونه ويعبدونه من دون الله سبحانه. ولكنه كان في شغل عن التكريم والتقديس والعبادة بالشوق الغريزي الشديد الذي كان يحسه لكرتنا الأرضية وقاهرته، ومصر، شوق جعله يكتشف قانوناً آخر من قوانين الكون وهو أن المادة الحية تحن إلى المواد الخام المخلوقة منها، وهكذا يحن الإنسان إلى مسقط رأسه، ويحن الجزء من الشيء إذا انفصل عنه للجزء الأكبر، حتى سفينة الفضاء تحن إلى المعمل الذي صنعت فيه. وهكذا جاء عليه اليوم الذي لم يعد يطيق وتحايل حتى وصل إلى سفينة الفضاء؛ وبكل ما يهزه من شوق شغل الجهاز، وما أروعها من أرض كروية وما يغطيها من سحابات تلك التي طالعته في صباح اليوم السابع والثلاثين! ما أروعه من شريط رفيع ينحني ويتهادى

وبرفق يصب في بحره الأبيض! ما أروع مصر التي هبط في صحرائها حيث غادر المركبة قرب أهراماتها، وما لبث أن ضاع في زحمة مدينتها يقيم حيثما اتفق ويأكل وينام كيفما اتفق، وسعادته كلها أنه يحيا على الأرض. . أرضه حتى لو كان قد تخلى عن كل طموحه.

الشيء الذي لم يحسب له «النص نص» حساباً قط هو أن يستخدم أهل الأرض المقابلة معلوماته التي أعطاها لهم إلى درجة أن يصنعوا مراكب فضاء مثل مركبة فضائه، وأن يفاجأ أهل الأرض ذات يوم بسرب من هذه المركبات وقد ظهر يحوم حول مدن الكرة الأرضية الكبرى ويرقب الحياة التي تموج فيها. . ولا تحدث عن الحمى التي اجتاحت الدنيا لهذا الحادث الخطير ولا عن الصحافة والإذاعة والتليفزيون ـ خاصة في أمريكا ـ وقد خرجت تتحدث عن غزو الأرض وتطلب من حكوماتها إخراج ما لديها من قنابل ذرية وإيدروجينية لاستعمالها ضد الغزاة «تماماً نفس العقلية التي كانت تصنع أفلام الفضاء»، ولكن قبل أن يحدث شيء من هذا كان سرب المركبات قد هبط فوق جبال سويسرا وخرج منه سكان الأرض الثانية في حجم عقلة الأصبع، يستعملون أجهزة الترانزستور في تضخيم أصواتهم إلى الآخرين وفي استقبال أصوات الآخرين، واندفعت إلى سويسرا جموع هائلة من الصحفيين والمخبرين ومحبي الاستطلاع يريدون الوقوف على أسرار تلك الحضارة الراقية التي غزت الفضاء بمثل ذلك الإعجاز وغزت الأرض. . وكانت المفاجأة المذهلة حين ذكر رجال الفضاء هؤلاء أن سفن الفضاء تلك ليست من ابتكارهم إنما

هي من ابتكـار واحـد من أهـل الأرض اسمـه «النص نص» من بلد اسمها مصر، كان قد زارهم في مركبة مماثلة منذ عـام مضى وزودهم بمعلومات هائلة عن المـادة والحياة والأحيـاء من ضمنها هـذا الجهاز الـذي أمكنهم به أن يتغلبـوا على جاذبيـة أرضهم وأن يسـافـروا بتلك السرعة الخارقة في الفضاء حتى يتمكنوا من الوصـول إلى بنت عمتهم الأرض.

وهكذا في أقل من ساعة كان الناس قـد فقدوا الاهتمـام بأهـل الكوكب الآخر كلية حتى لم ينتظر أحـدهم ليودعهم وهم في الـطريق مرة أخرى إلى كرتهم، واندفعوا في أعداد هائلة يحجزون الأمكنة في الـطائرات إلى القـاهرة حتى اضـطرت شركـات الطيـران إلى تحويـل خطوطها جميعاً إلى القاهرة.

ولم ينتـظر المصريـون وصولهم، فهم منـذ اعـلان تلك الأنبـاء وجموعهم في حالة بحث دائب عن «النص نص». ولأول مرة يعترف أساتذة الجامعة: الذين امتحنوه، ولأول مرة يذكره أولئـك الذين ذهب يـطلب منهم العمل وهـزءوا به، والجميـع من سائـل إلى مسئول قـد ركبتـه حمى البحث، والكل يحـاول أن يتتبع الخيط، وكـل خيط مـا يكـاد ينمو وينمـو معه الأمل حتى ينقطع فجأة وعلى غير انتـظار ـ حتى الفـلاح الـذي احتفظ بـه كفـأل حسن وقصتـه معـه ـ ثبت خيط تتبعـه الناس إلى أخت زوجته العاقر ثم انقـطع تمامـاً. ولكن كان لا بـد أن تنتهي مرحلة الفوضى التلقـائية تلك، فـالأمر جـد خطيـر للعالم كله، ولا بد من العثور على «النص نص» ومن الشـرق والغرب جـاء خبراء

البحث والتقصي، وأعيد استجواب كل من سبق وكان له «بالنص نص» أي اتصال لمعرفة الأماكن التي يحبها، أو أين كان يمضي وقته، حتى خدم السلطان الذين أصبحوا مرشدين سياحيين في قصره الذي تحول إلى متحف استجوبوهم بدقة، وكانت النتائج دائماً مخيبة للآمال. فقد بدا أن باستطاعته أن يوجد ويعيش في أي مكان بالقاهرة أو بغيرها من المدن، في أي اثني سنتيمتر مكعب يمكنه أن يبقى إلى الأبد مختفياً. النتيجة الإيجابية الوحيدة التي خرج بها الخبراء المحليون والعالميون من بحثهم واستقصائهم أنه قال ذات مرة: انه يحب أن يمشي على بلاج الاسكندرية، خاصة في الشتاء. وإلى هذا البلاج تحول البحث كله، ليس فقط بحث الأجهزة والاخصائيين وإنما بحث الناس العاديين. ناس.. آلاف الناس المزدحمة صيفاً وشتاء لا يطلبون أسرار قوانين الكون والحركة والجاذبية، وإنما يطلبون أشياء تبدو أسهل بكثير.. الأصلع يريد دواء ينبت له الشعر، والآخر الذي يريد القضاء على الشيب، والسيدة العاقر التي تنام وتحلم بالولد، والمقطوع الساق والأعمى والأعور، والأبرص والذي به داء استعصى على الشفاء.. جيوش لمرضى من أيام موسى وعيسى. ومحصول النوايا.. القاهرة التي تفيض بها أضرحة المشايخ وأهل البيت، ورسائل المحبين إليهم بعدد سكان الأرض وسكان مصر، لكل كونه المفقود الذي يبغي العثور عليه، عالمه الطلسمي الذي يود لو عرف قوانينه، والجماعات ـ جماعات وأفراداً ـ في حالة بحث دائب، في الصيف وفي الشتاء، في الربيع وفي الخريف، إلى

أقصى ما يستطيع أن يصعر كل منهم خده ويكبش من الرمال ويغربل.. عله هذه الكتلة، عله تحت هذه المحارة، عله في كومة حشائش البحر تلك، عله من تلقاء نفسه يظهر غداً، ومن كل صوب تنهال الاتهامات: السبب أساتذة الجامعة الذين لم يعيروه اهتماماً، السبب البيروقراطية والبيروقراطيين الجالسين فوق المكاتب يمنعون العبقريات عن الظهور، بل كلنا مسئولون.. هكذا كتب صحفي كبير عن الجريمة، كلنا أهملناه واحتقرنا شأنه، وها نحن اليوم نقلب الأرض بحثاً عنه.. كلنا مسئولون.

* * *

وعن الجماعة التي اتجهنا إليها صدرت صيحة وكأنها صيحة رعب، تلتها اندفاعات وصرخات واستغاثات كأصوات الهنود الحمر حين تهجم أو فرق الصاعقة، وفجأة أيضاً وجدنا المجموعة وقد استحالت إلى كتلة بشرية متكورة، كتل متضاربة متصارعة صارخة مولولة ممزقة ممزّقة. لا تحسبن أنهم عثروا عليه، فهكذا الحال دائماً. أنه واحد منهم خيل إليه أن قطعة الطين التي اصطدمت بها يده هي «النص نص»، وتسابق الآخرون ينتزعونه منه. تلك كانت آخر كلمات صديقي، ليس في ذلك اليوم فقط وإنما في كل الأيام، إذ ما لبثت الكتلة البشرية أن راحت تتضخم وقد فقد الكل عقله،ولم يكن هناك أحد ليتابع. فمنذ اللحظة الأولى يتحدد الوقت وقد كتب عليك الصراع: إما صراع من أجل الحصول على «النص نص»

المزعوم، أو صراع من أجل استخراج نفسك من كثرة البشر المتزايدة المتضخمة المهددة بفعص كل من يقربهـا أو تقربـه. وفجأة تـطلعت فلم أجد صديقي، كانت الكرة قد ابتلعته ولم أره إلا في اليـوم التالي بين عشرات الجثث الممدة فوق رمال الشاطيء.

لم تكن آخر كرة بشرية تتكون أو أول كرة، فهكذا الحال دائماً وكل بضع ساعات أو أيام تحدث الصرخة التي يعقبها التدافع والتكور والفعص.

أمـا «النص نص» فمنـذ أن عــاد إلى الكـرة الأرضيــة ووطىء بقدميه القاهرة فلم يعرف له أحد مكاناً، البحث قاد حقيقة إلى مركبـة فضائه التي استعملها، أما أين وكيف يعيش الآن؟.. فـذلك لغـز لم يستـطع أحد ولن يستـطيع حله، من يـدري ربمـا يكـون هـذه الكتلة البـارزة من الرمـل أو من التراب. ربمـا تحت هذه المحارة أو أسفـل كومة الحشائش، ربما في جيبك أنت.. وأنت لا تدري.

النقطة

٩٦٣

القضبان الحديدية غير شاهقة العلو، كقبة عالية من الرمل والزلط والأخشاب والحديد. الشريط الحديدي طويل طويل موغل في الطول، ينتهي وراء الأفق إلى رمادية صفراء.. لا تلبث أن تدكن وتدكن بحيث لو أمعنت النظر فيها وأصررت على المضي في الرؤية لاستحالت إلى سواد. شريط حديدي طويل يدخل المشهد منحنياً انحناءة قوس عظيم وكأنه القوس الذي تفتحه لتضع داخله ثلاثة آلاف مليون إنسان، سكان الأرض بحياتهم وهمومهم وكل ما دار بخلدهم منذ أن كانوا بضع كائنات إلى أن أصبحوا آلاف الملايين، ويخرج الشريط من المشهد أيضاً منحنياً نفس الانحناءة الخفيفة المهولة ذات الجلال.

غير بعيد شجرة في حالة خريف دائم، أوراقها مصفرة الاخضرار، مخضرة الترابية، معلقة بغصنها برباط ما.. واه. شجرة كلما هب الريح انتزع منها أكثر من بضع أوراق حتى لتخالها في نهاية اليوم ستقف جرداء عارية، ولكنها أبداً هكذا لا تنقص أوراقها ولا تزيد، دائمة الخريف مستمرة الاخضرار المصفرالمترب، لا ثمر

لها ولا زهر. . ولا اسم. . شجرة. . ومساحة، تلك التي تكون دائرة الأفق تتسع إذا وقفت، وإذا صعدت الشريط الحديدي اتسعت أكثر، وكلما علوت اتسعت حتى لكأن باستطاعتها أن تشمل ـ لو أمكنك العلو الكافي ـ الدنيا بأسرها.

المشهد صامت ساكن إلا بين كل حين وحين، حين تهب الريح هبات متقطعة غير ملموسة لا تعرف كيف تبدأ. إنما شيئاً فشيئاً تسمع الأوراق وهي توشوش في خفوت ثم وهي تئز ويستطيل الأزيز. وتتطاير بضع أوراق ومن فوق الأرض يثور بعض الغبار حاملاً معه عيداناً مهرأة من قش أرز قديم، ثم يسكن الصوت والحركة إلا من اختلاجة أخيرة لورقة، ثم يثوب كل شيء إلى صمت. . صمت غير داكن ولكنه في نفس الوقت غير مضيء. صمت هو بالتأكيد كالضوء في المشهد إذ الشمس غير موجودة والنور غير مباشر وقليل، ولكنه مستمر على نفس الدرجة لا يشتد أو يخف ولا حتى تعتريه هزات الحركة، إنما هو كالشريط الحديدي الطويل سادر في وجوده وشموله واستمراره، ضوء كضوء عصر ضيق مترب، يومه التالي يوم القيامة.

وأنا موجود داخل المشهد لا أعرف مكاني على وجه الدقة. ولكني أرى المشهد بزاوية ما، ومهما غيرت من وقفتي أو اتجاهي فأظل أرى المشهد من نفس الزاوية.

إني في انتظار القطار القادم مع أن المكان ليس بمحطة، واحساس طاغ كبير أني لا أنتظر القطار لأركبه، إنما فقط أنتظره بالضبط. أنتظر اللحظة التي فجأة ـ تماماً لا بد أن تكون فجأة ـ تظهر

رأس القطار من كرة الأفق، سوداء فلتكن ولكن لا بد أن تظهر. . تنبثق فجـأة فيدق قلبي هلعـاً أو رعباً أو فـرحاً، وأوجـد وأعيش. أشعر أني لأول مـرة آخـذ نفسي. . الشهيق. . وأني حي. . وأني بــدأت أعي بالوجود. غير مهم بعد هذا أن تستحيل النقطة المفـاجئة إلى شـرطة، والشرطة إلى خط، والخط إلى جسـد القطار الـطويل تتـوجه سحـابة الدخان المتعمدة المتصلة، غير مهم أن يقترب أكثر وأكثـر وأن يصبح أمـامي. . غيـر مهم أي شيء، المهم هـو ذلـك الـظهـور المفـاجئ المروع للنقطة.

أنـا لا أنتظر، فـالإنسان لا ينتـظر إلا شيئـاً يتـوقعـه أو واثق من حدوثه أو حتى علم أو أخبره أحد أنه لا محالة واقع. أنـا رأيت قبـلاً قطاراً يمر ولا البقعة محطة ولا أنا مسافر، ولا شيء على الاطلاق. . على الاطلاق لا علاقة بيني وبين القطار إلا علاقة أني أرى قضبـاناً، ومـا دام هناك قضبان فلا بـد أن يكـون هنـاك قـطار، حتى لـو كـانت القضبـان تلك التي أراها صـدئة صـدأ سميكاً استحـال من طبقة إلى قشرة. ولكن رغم كل الصدأ فمن المؤكد أن قطاراً بل لا بـد قطارات مرت فوقها. لا بد قطارات مرت من هنا. وإلا فيم القضبان؟ أتكـون خطاً فرعياً أقامته السكة الحديد ونسيت أمره؟. أتكون خـطاً حديـدياً أقامه الحلفـاء في أثناء الحـرب وضاع من الخريطة؟ فلتكن أي شيء فالمشهد مستمر وأنا موجود داخله. أرى مهمات سرت أو غيرت موضعي بزاوية، والنور غير مباشر وداكن، والشريط طويل محنى بجـلال، طويـل. . والشجرة قـائمـة خـريفيـة كـأنهـا نبتت من بـذرة

خريف، وبين كل حين وحين وبلا بداية أو نهاية محسوسة تهب قبضة الهواء فتحرك الورق في الشجر، وقش الأرز المترب في الأرض، ثم الاختلاجة الأخيرة لورقة شجرة أو عود قش، ثم الصمت المستمر الساكن.

المشهد. مستمر، والأشياء فيه تتعاقب باستمرار، وحتى كم الحزن الموضوع بطريقة ما في صدري لا يتغير هو الآخر حجمه، ولا تشتد أو تخفت وطأته. حزن لا بد جاء من المشهد إذ تحس لابد أنه مشهد نهاية ما، نهاية العالم، نهاية الحياة على الأرض، نهاية الفرح أو الأمل، ربما حتى نهاية الأحزان. ولكنه بالتأكيد نهاية، نهاية حقيقية كنهايات العلم حيث لا نهاية، إنما النهاية خيط متصل من الشيء ذاته، من السكون ذاته، من الشريط ذاته، من الضوء ذاته، من الخريف المشجر ذاته، من هبات الهواء ذاتها، من الترقب ذاته.

المشهد دائم ومستمر، واحساسي به دائم ومستمر، وحزن النهاية ـ ولو كانت نهاية الحزن ـ دائم ومستمر. لا أذكر كيف بدأ ولا أين أو متى؟ وجدت فيه لكأني وعيت أو حتى ولدت داخله، وسأظل فيه إلى أن تنتهي حياته. كل شيء فيه هو هو لا يتغير أبداً، لا يزيد، لا ينقص، لا ينتهي، لا يبدأ. بل حتى تلك النبضة المتباعدة التي بين النبضة فيها والنبضة التالية مسافة أو زمن كأنه ألف عام، حتى لو كانت تتم في ثانية فهي ثانية طولها ألف عام، نبضة ضعيفة واهنة كالاختلاجة الأولى لجنين القلب داخل قلب الجنين حين دق لأول

مرة، خافتة واهنة ندق على استحياء شديد وبغربة زائدة. دقّ مذعـور يكاد الذعر يسكت نبضه ودق قلبه. نبضة خاطر، إذ فجأة تنبثق النقطة بادئة هناك من لا نهاية الشريط، فجأة أحدّق وأجدها، وغير مهم أبداً ما يحدث بعد هذا أو يكون.

المشهد والاحساس والحـزن وحتى النبضة مستمـرة الحدوث، وأنا فيما عدا هذا غير حزين أو خجـلان أو نائم أو مستيقظ. أنـا أنا، هكذا أيضاً. . باستمرار طويل لا ملل فيه ولا تبرم ولا تغير مطلقـاً في الزمان أو المكان أو درجة الوعي. كل ما في الأمر أني لدي كل نبضة خاطر، قبلها بقليل وكأنما قبل الحدث الكوني الهائل. . وأثناءهـا. . وبعـدهـا أحس بقلبي أنــا. . قلبي الحقيقي يـدق في انفعـــال حي، انفعال خافت مبهور ولكنه حقيقي وملموس. بالضبط قبل وأثناء وبعد الخاطر يكاد جسدي كله يرتعش، وتكاد صرخة تنطلق مني هاتفة: أنا حي. وكأنها اكتشـاف، ومع أنها هي الأخرى مستمرة ودائمة ولا تتغير إلا أن فرحتي بها لم تفقد أبداً، حتى لو كان المشهد قد بدا مع بداية الخليقـة واستمر إلى نهـايتها لم تفقـد أبداً طعمهـا، بل هي لحـظتها فقط، تلك اللحظة المتباعدة التي كان بينهـا وبين التاليـة أو اللاحقـة لها ألف عام لحظتها فقط، هي كل ما يربطني بالحياة.

أجل! أحدق فجأة فألمح، هكذا بمعجزة، النقطة.

وغير مهم بعد هذا أن تصبح النقطة شرطة والشرطة خطاً طويلاً لا نهاية لطوله.

أبداً غير مهم.

العملية الكبرى

- ١ -

ما كن أصعب أيامها ـ وبالذات لحظتهـا ـ أن يشك. بـل هو لا يـزال لا يعرف كيف، كـالبخار المتكـاثف، بدأت تتجمـع السحب. فالمهمة على غرابتها الشديدة بدت أول الأمر مجـرد مهمة أخـرى من المهام الكثيرة التي كان يوكل إليه بهـا. كل مـا في الأمر أنهـا طريفـة وعلى وجـه الدقـة مثيرة لعجب طـريف لا بد تمط لـه شفتيك أو تهـز كتفيك. فمع انتهاء العملية الكبـرى، والجميع في قليـل من الوجـوم يتهيؤون للانصراف، جاءه الأمر من الأستـاذ الكبير أن يبقى بجـوارها حتى تمـوت. ولأن لا طبيب بلا ممـرضة فقـد تـرقب همسـة «الأخت تـريزا» التي ستحـدد الاسم، وما كـاد يسمع «انشـراح» التي نـطقتهـا «انسراح» حتى وجم وكاد يغضب ويدفعه لطلب آخر. ثم رن في أذنه المثـل «خسرانـة خسرانـة»، وأصبح منـاسباً جـداً في نظره أن تكـون «انشراح» بالذات هي شريكته في انتظار الموت.

وحين «صفصفت» الحجرة عليهما ولم يعـد هناك إلا هـو وهي والموت الرابض على صدر السيدة، بدأت المهمة تتحـول من روتين

إلى نوع من الواجب الثقيل. لو كانت شريكته في انتظار النهاية نـاهد مثلاً أو سهير أو مديحة أو حتى كاميليا لانقلب الواجب إلى متعة، أما المتوحشة البـراوية «انشـراح»، الغاضبـة أبداً، المتنمـرة تكاد «تخـانق ذباب وجهها»، فأي أمل له في بعد ظهر هادىء حتى؟

بعـد ظهر كـان قد بـدأ من زمن، وقفزات عقـرب الدقـائق في الساعة التي تتوسط الحائط من احساسك ببطئها تبدو كل مرة كما لـو كانت تفاجئك بحدوثها. بعد ظهر أصبح خوفه أن يطول ويطول حتى ليصل الظهر بالمساء، ومن يدري ربمـا بالليـل أيضاً؟ ومـا دامت ميتة ميتة فلماذا هذا العذاب كله؟ وما دامت هذه الأنفـاس المأخـوذة على هيئة شهقات ـ مفاجئة أيضاً كقفزات العقرب ـ خارجة بسرعة كالزفرة. ما دام هذا هـو تنفس «طلوع الروح» فمـا الداعي لعـذابها بـاستمراره واستمراره؟ ما الداعي «يا ست انشـراح» بلا أي «انشـراح»، العاقـدة ملامحك وكأن المسجاة هي السيدة والدتك، المنكبة حضـرتك على ابر التريكو بأصابعك القمحية الرفيعـة الطويلة كـإبر التـريكو تنجسين بـدايـة «البلوفـر» التي لـم تـزد رغم آلاف الغـرز مسـاحتهـا، وكـأنمـا حضرتها ـ لتغيظه ـ تنسج غرزة وتفك غرزة؟ ما الداعي؟..

لو التفتت إليه لحـظتها أو رفعت رأسهـا لكان ـ ودون نـظر لأي اعتبـار ـ قد بـدأ الشجـار، ذلـك أن غيـظه بعـد انتـظار دام إلى الآن ساعتين وبضع دقائق كان قد بدأ، وهو على وجه التأكيد ليس غيـظه. فـأي شيء كـان يمت إلى الجـراحـة من قـريب أو بعيـد مهمـا تقبله الأخرون بضيق أو تبرم، ما كان ليأخذه هو إلا كآلام الحب لهـا نفس

مذاق المتعة. الغيظ إذن غيظ وافد لا يزال لا يدري مصدره. . غيظ يبدأ عند وجه «انشراح» الجميل حتى في تنمره، ليتزايد كلما انتقل بعده إلى مجال آخر، وكلما اصطدمت عيناه أو اصطدمت حواسه بشيء من آلاف الأشياء التي تحفل بها الحجرة.

بدايات غيظ جعلت روحه بالتدريج تنسحب من اندماجها التام في دورها الجراحي المحبب، ومن اختلاطها الكامل بكل شيء تحفل به حجرة العمليات ـ مهبط الوحي عنده وقدس الأقداس ـ لتبدأ تتخذ موقفاً محايداً وتعود ترى وكأنها لأول مرة ترى، ولتبدأ دهشة كدهشة الإفاقة من حلم تعتريه. لا ليست هذه حجرة العمليات أبداً. أنها مكان مرعب كئيب لم يره من قبل. فأي معركة شيطانية دارت ولا تزال آثارها طازجة. لا يزال الدم أحمر لم يغمق لونه بعد ـ دم واصل حتى السقف الأبيض راسماً خطوطاً متقاطعة ومتقاربة ومتفرقة. . خطوطاً مكونة من مئات النقاط رسمها لابد دم تفجر تحت ضغط شديد. انفجارات دموية كثيرة لابد دارت هنا. . إلى أعلى وإلى الجوانب ترتسم على جدران الحجرة الأربعة، وفي كميات تملأ زجاج الشفاط وتكون بقعاً كبيرة تلطخ المرايل والبلاطي البيض الملقاة هنا وهناك. دم يلوث كل مكان حتى الأحذية المطاطية ذات الرقبة، حتى الأرض الكاوتشوك، بل لم يسلم منه أيضاً زجاج الأضواء الكاشفة البراق والمصفر.

دم كثير من المحال أن تعتقد أن هذه السيدة النحيفة الراقدة يحفل وجهها بسلام كسلام أطفال نائمين. . مصدره. ولكنها بلا شك

كانت المصدر الوحيد، والواضح أنها الطرف المغلوب.

أيكون الغيظ الذي يعتريه الآن غيظاً حقيقياً؟

أيكون ما يراه الآن خدعة أو بداية، أو بالأصح بداية شعور أنه ضحية خدعة شيطانية من المحتم لو صحت أن يفقد لها أثبت العقول وأصلبها الصواب؟

أخذت السيدة شهقة.. قبل أن تكتمل ركبت فوقها شهقة أخرى، وكانت النتيجة شهيق طويل جداً اضطربت له جفونها المسدلة حتى كادت تفتح، وحتى تصور أنه في الشهيق التالي حتماً سيعود إليها الوعي، ومن يدري؟ ربما تحدث المعجزة الكاملة وتعود للحياة.

ولكن رغم دقة القلب العالية الزائدة التي دوت في صدره انفعالاً. فقد بدأ السؤال يلح من جديد: أيكون قد خدع الخديعة يا ترى؟

- ٢ -

ويحدث هذا أين؟.. في نفس حجرة العمليات التي شهدت منذ بضعة شهور أعظم لحظات حياته، اللحظة التي وعى فيها لأول مرة بالحياة.. حياته، وأدرك عن يقين لماذا يريد أن يعيش.

لقد بدأت مشكلته بعد أن تخرج وأصبح طبيباً، واستهلك في بضعة أسابيع كل متع الفرحة بالتخرج والاحساس الغامر الجميل بأنه

انطلق من عقال تلمذة طالت وعليه أن يعب من متع الحياة الصغيرة التي حرم منها طويلاً. واجهته حينذاك مشكلة ماذا يريد أن يكون؟ لقد دخل الكلية بالمجموع وواصل الدراسة ونجح بالرغبة الغريزية في التفوق على أقرانه، وها هو ذا الآن بعد التخرج يستعرض أمام عينيه كل فروع الطب فلا يجد في نفسه مثقال رغبة في أي منها. بل انه حتى بعد أن تخرج وأصبح يزاول المهنة لا يجد في نفسه أي رغبة فيها أصلاً. وكاد يصبح الأمر كارثة، فإنها لمهزلة أن تبدأ بعد وصولك إلى هدف ما قضيت في الوصول إليه أعواماً طوالاً، أن تكتشف أنه ليس هدفك، وأن عليك أن تبحث عن آخر.

ولقد ظل هذا يحدث وهمّ البحث يؤرقه، حتى انتقل إلى العمل بقسم الجراحة. حين دخل ذات صباح باكر هذه الحجرة، ومر بالطقوس المعتادة من ارتداء ملابس العمليات والاغتسال والتعقيم وإحاطة رأسه ونصف وجهه بالقناع الأبيض المشهور، هنا حيث رأى أستاذ الجراحة الكبير لا يصف الدواء ويترك للعمليات الغامضة في الجسم أن تعمل عملها وتشفى، وإنما بأصابعه الطويلة الحادة القوية يقطع ويصل ويستأصل ويعيد التشكيل. هنا حيث بإرادتك أنت وحدك وبقدرتك يتم الشفاء. يدخل المريض يتلوى من شدة الألم أو من اليأس، وبعد ساعة يخرج وقد شفي تماماً وانتهى ألمه. هنا حيث يختلط دور الجراح بدور الساحر القديم، والعلم يصبح حرفة ترتفع إلى مصاف الفن، والعملية السحرية كلها تدور في ذلك المكان البالغ النظافة، الشاحب الضوء، المعقم.. بصمته القدسي الكلمات

في تتحول إلى همسات تختلط بـالفحيح الصـادر من أجهزة التعقيم، وتنسجم مع الحركة الصوتية المتتابعة لتنفس المريض من خلال جهاز التخدير. بالسكون المضمخ بروائح اليوسول واليود والأثيـر، السكون الحي النابض بدق القلب وهو يتحول إلى إشارات موسيقية ضوئية . . السكـون الذي يتنفس تنفسـاً خاشعـاً منتظمـاً. هنا اكتشف الجـراحة كعلم وكسحر، واكتشف أن ها هنا يوجد أمله ومن الآن سيصير هدفه من الحياة.

وكان طبيعياً وقد اكتشف الهدف أن تأخذ السعـادة عنده شكـل الهوس. . حيث لا يعود يأكل أو يستريح أو يحلم إلا وهو يقوم بشيء من أجـل عمله الـذي أصبـح حبـه الأكبـر. سمـاه زمـلاؤه مجنـون الجـراحة، وكـانوا يغيـظونه بقـولهم إنه إنمـا يتفانى ليـرضي الأستـاذ وليتكتك لينال وظيفة «نائب الجـراحة» حين تخلو، مـع أنه يعلم وهـم جميعاً يعلمون ألا أمـل له في هـذه الوظيفـة إذ أن درجاتـه لا تؤهله. ولكنهم معذورون فالعمل عندهم مرتبط بالمصلحـة، ومن المحال أن يستطيعوا هضم أن يعمل الإنسان لأجل متعة العمل نفسها.

ولقد كان يعمل ويتفانى بـلا كلمة تشجيـع واحدة، وحتى وهـو يـدرك أن رئيسه النائب. ينسب معـظم الأعمال أمـام الأستاذ لنفســه. فماذا يهمه أن يعرف الأستاذ اجتهـاده؟ إنه لـم يكن يعمـل ليرضيـه بل ليرضي ذلك الشيء المركب فيه الذي لا يرضى أبداً! نفسه.

بل بدلاً من التشجيع كان بالضرورة يناله كمّ غير قليل من شتائم الأستـاذ الدكتـور أدهم أستـاذ الجـراحـة. . وليس هـذا رئيس القسم

فقط. إنه كبير أساتذة الجراحة في المستشفى كله. والجراح في المستشفى يحتل مكانة لا يحتلها زميله طبيب الأمراض الباطنية أو طبيب الأطفال مثلاً. إنه له بجانب العلم مكانة دنيوية، فهو ليس عالماً فقط ولكنه عالم يزاول العلم أمامك.. وأمامك يحيي ويميت. ولأن المهنة هي التي تفرض الخلق والتصرف فعند الجراح أسهل الطرق البتر، وأي كلام ليس له فاعلية المشرط وحسمه هذر فارغ لا يقال، وما دامت إرادته هي نفسها الدواء فإحساسه بنفسه يتعاظم، وكلمته مهما تكن أمر واجب النفاذ. وليس صدفة أنهم يسمون حجرة العمليات بمسرح العمليات، فالجراح في هذا المسرح هو الإرادة الكبرى والعقل المفكر، والحاضرون جميعاً من بشر أو أجهزة أو عقاقير ليسوا سوى أدوات في يد تلك الإرادة تصنع بهم الشفاء. ولأن احساس الآخرين عند الجراح غير مهم، إذ المهنة تحتم عليه أن يلقي شعوره بإحساسهم إذ هو لو شعر أن جرحه يؤلم لارتعشت يده ولربما نفق مريضه، ولهذا هو أيضاً لا يهتم بوقع كلماته عند الآخرين حتى لو جاءت شتائم ولعنات.. فمسئوليته الخطيرة أن تنجح العملية، وملعون أية حركة أو خطأ يحول دون هذا النجاح.

كانت شهرة الأستاذ أدهم إذن كرئيس لا يرحم تكاد تعادل شهرته كأستاذ جراحة ممتاز، ولأن أطباء الامتياز يحتلون أدنى مرتبة في سلم المستشفى الطبقي فنصيبهم من شتائمه ولكزاته وافر، ومعاملته لهم أسوأ بكثير من معاملته للممرضات أو التمورجية. وويل لمن يفكر في الاحتجاج أو الذود عن كرامته فمعنى هذا نهايته، فهو لا يجر عداوته

أو غضب رئيس القسم فقط، ولكن الدكتور أدهم كان أيضاً كبير الأساتذة والقائم بعمل عميد الكلية ومستشار وزارة الصحة.

ورغم كل ذلك، ومن فرط الحب والانتماء للجراحة وكأنها المبدأ أو العقيدة التي ظل يبحث عنها، فقد راح ينظر للأستاذ أدهم باعتباره قائده لهذا المبدأ ووسيلته للوصول. وليس مثلها سعادة تلك التي يجد الإنسان مبدأه فيها وقد تجسد على هيئة قائد وعقل أكبر. وليكن الأستاذ أدهم شيطاناً مرعباً في نظر الآخرين، ولترتجف له الأوصال إذا حضر وحتى إذا غاب، ليكن! فقد وجد فيه الأستاذ الكبير والراعي والعالم، ويبدو أن الأستاذ أدهم هو الآخر قد وجد فيه نعم التلميذ، فقد راحت شتائمه إليه تقل حتى انتهت وحتى أصبح يناديه باسمه الأول وفي هذا من التكريم ما لم يحلم به أحد، وليأخذ حياته كلها بإشارة منه لو أراد فلم يعد في الحياة شيء يجلب السعادة قدر أن يتلقى عبد الرءوف الأمر، أي أمر، وقدر أن يفني نفسه تماماً لتنفيذه، وقد أصبح رضا الأستاذ أدهم من رضا الضمير، من رضا الله، الله المتجسد بكل قواه وخيره وكماله.

- ٣ -

ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما.

ورواة الحواديت يقولون: كان فيه امرأة.. وكان فيه رجل.. ثم يحدث الحدث.. ويتساءلون: الحق على المرأة أو على الرجل؟

ولكن لا الأقوال المقدسة، ولا الأساطير قد تعرضت بذكر للموقف الذي هو فيه، فهو الرجل صحيح، وانشراح المرأة.. ولكن ثالثهما هو الموت.

وصحيح أنهما ينتظران معاً نهاية السيدة المسجاة أمامهما، وإلى الآن وكل منهما ينتظر الموت بمفرده، فهي منكبة على ابر «التريكو» وهو منكب على خواطره وبينهما ما هو أكثر من الموت.. الحياة نفسها وكل ما سمعه أحدهما عن الآخر. وما سمعه عنها أشياء مرعبة لا تشجع أبداً، فلقد أخطأ أحد زملائه وهو يعمل معها في ظلام غرفة الأشعة مرة وحاول لمسها، وانفتح فمها لتكتسح ظلام. الحجرة ومن بعدها ضجة قسم الأشعة كله وممرات المستشفى وعنابره، حتى ان المسكين لم يجرؤ على أن يرى وجهه لزملائه أو للعاملين بالمستشفى إلا بعد إجازة عشرة أيام، وكان لا يزال وجهه محمراً بالخجل حين عاد منها.

ولابد أنها هي الأخرى سمعت عن عبد الرءوف وعن انكبابه المجنون على العمل، ذلك الذي كان له تفسير واحد عند الممرضات والحكيمات والسسترات: أنه متكبر، وأنه وهو طبيب الامتياز المفعوص يتخلق بأخلاق الجراحين الكبار، وبالذات يصنع كما يصنع الأستاذ أدهم، ويضرب بالشلوت أحياناً.

والحقيقة أن قولهم هذا لم يكن يخلو من الصحة، فقط لاحظ عبد الرءوف على نفسه أنه كثيراً ما يعبس، وأنه لم يضبط مرة متلبساً

بضحكة أو كلمة هزل مع طبيبة أو حكيمة من التي تقال همساً في أركان المستشفى وما أكثرها من أركان. وإذا كان قد تعلم أن يعبس بوعي فما أكثر ما نضح إليه من خصال الأستاذ أدهم بغير وعي منه، ودون أن يلحظ أصبح يبدأ الجمل من نهايتها كما يفعل أستاذه، وتخرج كلماته الأولى همهمات صعبة التمييز، وبنفس طريقة أدهم يترك محدثه يتكلم ثم يفاجئه في منتصف كلامه بتحديقة فاحصة مخترقة من عينيه الواسعتين بحيث يرتج دائماً على المتحدث أو ينهار لو كان يكذب، حتى لازمة أدهم المعروفة: يا اسطى! أصبحت لازمته.

والغريب أنه قد بدأ يتكون له بهذه التصرفات نفسها، ومهما قيل في أصلها ـ مركز متميز بين زملائه أطباء الامتياز، وأوامره أصبحت تقابل باحترام لا يمت بصلة إلى هز الأكتاف الذي تقابل به أوامر الآخرين التي كثيراً ما تأخذ شكل الرجاء. ولكن السبب الأهم في الحقيقة هو تفانيه في العمل في وسط يتعبر فيه العمل واجباً ثقيلاً مفروضاً ولا هدف منه سوى الماهية، وما دامت مضمونة فما الداعي لوجع الرأس.

وكان يومه الأكبر ـ حلمه الدائم طوال أيام الأسبوع ـ هو يوم العمليات.

كان يصحو له من الرابعة صباحاً، ويحس بالسعادة الكبرى بكل عمل يقوم به لتجهيز المرضى للدخول إلى الغرفة المقدسة. ولا يكتفي بواجبات الطبيب إنما بنفسه يشرف على استحمام المرضى

وعلى إزالة شعورهم وعلى تجهيز أوراقهم وأشعاتهم. . ويكفيه شبح ابتسامة رضاء سريعة تلوح على وجه الأستاذ. كانت الانفعالة التي تحدث له في أعقاب هذه المكافأة التي ربما لا يلحظها أحد أروع عنده من كل الشهادات والوظائف والعلاوات.

وكان اليوم يوم العمليات، وناهيك عن العمليات الصغيرة التي ستكون من نصيبه ونصيب زملائه، والتي سيقوم بها النائب والمدرس ومساعد الأستاذ. همه كله كان موجهاً لتلك الحالة النادرة التي جاءت إلى العيادة الخارجية منذ شهرين وأبدى الأستاذ اهتماماً خاصاً بها، فلقد زاول ـ الأستاذ ـ الجراحة حتى أصبحت العيادة الخاصة تدر عليه دخلاً يكفيه مستمتعاً مدى الحياة. ولم يكن يأتي إلى المستشفى الحكومي الكبير إلا ليلتقط بين الحين والحين حالة تشبع مزاجه الخاص، كجراح أصبح لا يزاول الجراحة لشفاء الآخرين بقدر ما أصبح يزاولها لفن الجراحة نفسه، ليضيف إلى أمجاده فيها مجداً جديداً، ويصل إلى أرقام قياسية لعدد ما أجراه من عمليات. وحبذا لو استطاع أن يجري هنا في مصر عملية لم يسبقه إليها جراح آخر، ويتيه بعرض ما قام به في المؤتمرات، ويتلذذ وهو يقرؤها منشورة في مجلات الجراحة في أوربا وأمريكا. ولا أحد باستطاعته أن يستغرب هذا أو يلومه. . فقد وصل إلى مكانة أصبح فيها هو الجراحة، وما يقوم به ليس مجرد تطبيق وإنما هو تجارب يضيف بها إلى العلم وإلى تراث البشر، ولا ضرر أن يفعل هذا لمجد ذاتي يناله، فما من فائدة للعلم أو للبشر إلا والدافع إليها متعة ذاتية.

هذه السيدة بالذات جاءت إلى العيادة بشكوى بسيطة، مجرد خدل في ساقيها واحساس بالتعب السريع إذا مشت طويلاً.

ويومها أزاح الأستاذ أدهم النائب وهو يقوم بفحصها، وفي دقائق كان قد انتهى من فحصها، وكعادته نطق بالتشخيص: ورم خبيث في العمود الفقري.. وعلى وجه الدقة سرطان في الغضروف مكانه بين الفقرة الرابعة والخامسة للبطن. كان من رأيه أن الاعتماد على الفحوص والمعمل فى التشخيص مسألة تحيل الجراح إلى آلة حاسبة، أما الجراح الحقيقى فهو الذى بمجرد الفحص يشخص، وإذا لجأ إلى المعمل أو الأشعة فإنما ليتأكد فقط من تشخيصه وليكتسب الثقة بنفسه أكثر وأكثر.

وهكذا أدخلت الحالة ليس لعلاجها أساساً، وإنما لإجراء الفحوص وليثبت بها الأستاذ أدهم لنفسه ولمجموعة الأطباء التي تعمل معه أنه كان على حق وأن رأيه أبداً لا يخيب.

ولم تكن هذه أول حالة تدخل القسم لهذا السبب، فما أكثرها من حالات لا يتعجب أحد لإدخالها لمجرد البرهنة على صحة التشخيص! فالأستاذ أدهم لا يفعل في الحقيقة إلا أنه يزاول حق التميز.. ذلك الحق الذي يحلم جميع العاملين معه - جميع الطلبة والخريجين - بالوصول إليه.

ومكثت السيدة بالقسم شهرين وأجريت لها عشرات الاختبارات والتحليلات وصور الأشعة، ومع هذا ظل الورم الصغير الذي بالكاد

تلمسه الأصابع في قاع بطنها لغـزاً لا حل لـه . ولـم تكن قد بقيت إلا وسيلة واحد لحل اللغز، أن تجري لها عملية استكشاف فيفتح البطن ويفحص الورم ويصل الأستاذ في أمره إلى قرار.

- ٤ -

في العاشرة كانت كل العمليات الصغرى قد انتهت، وفي ثوان كان المسرح الجراحي قد نظف تماماً وأعيد ترتيبه، وجيء بالسيدة مخدرة وحملت ووضعت فوق منضدة العمليات الرئيسية وسلطت على بطنها العاري أنوار الكشافات القوية، والكل في موقعه مستعد للبدء، بينما «سستر العمليات» الإيطالية تراجع للمرة الثالثة كالتلميذة قبل الامتحان كل ما تتطلبه العملية من أدوات، وكان الأستاذ يغتسل ويتعقم.

في العاشرة وعشر دقائق كان رأس المشرط ينغرز قريباً من «السرة» محدداً نقطة البداية، ثم في خط مواز لمنتصف البطن تسحبه اليد الشهيرة التي أصبحت جزءاً من تاريخ الجراحة في مصر سحبتها السحرية، وفي ومضة ينقض المساعدون بالملاقط يغلقون بها كل الأوعية الدموية الصغيرة التي تقطعت وبلا زمن يربطونها بالخيط الخاص، والجرح قد أصبح نظيفاً بلا نقطة دم يكشف عن دهن ما تحت الجلد.

ولابد أن لحظة رضاء قد مرت بالأستاذ وهو يستمتع بقيادته

لهؤلاء الناس، فهو لم يعد بحاجة أن ينطق بكلمة، فقد تعلموا تماماً أن يفهموه.. حتى والفكرة أو الأمر لا يزالان مشروعين في رأسه كانوا يستطيعون التقاطهما والشروع في تنفيذهما.

حتى ارتدادة عينه من فوق القناع إلى طبيب التخدير ترمقه في هذه اللحظة بالذات، يفهمها الطبيب في الحال، ويمد يده إلى مفتاح الغاز في جهاز التخدير، وترتخي عضلات السيدة تنفيذاً للأمر الذي تلقاه بنظرة العين.

العاشرة والنصف:

لا بد أن يده الآن تلمس الورم، ولا بد أنها بحركتها طولاً وعرضاً تتحسسه وتحدد حجمه وامتداده، ولقد ظل مساعدوه الأربعة ـ وعبد الرءوف لسعادته الكبرى ودوناً عن بقية زملائه يقوم بدور المساعد الرابع ـ يكادون يكتمون الأنفاس استعداداً لكلمته التي سيصدر بها حكمه على الورم، وحين أفلتت شفتاه كلمة: غريبة! لم يجرؤ أحدهم حتى أن يسأل.

وقبل أن يطلب الملقاط القاطع الذي يستخدم لأخذ العينات الحية، كانت يد السستر تضعه في يده المفتوحة. وحين تم أخذ العينة كان على عبد الرءوف أن يطير بها إلى قسم «معمل الأمراض» لتفحص بالميكروسكوب ويصل الاخصائي إلى قرار بشأنها. وحينذاك فقط عرف الجميع أن الأستاذ لم يصل بعد إلى معرفة كنه الورم.

وكالعادة لم يجد عبد الرءوف الأخصائي في مكتبه.. كان قد

ذهب إلى الإدارة لأمر لعله المطالبة بتسوية حالته. وكان عبد الرءوف يستغيث رجاء في التليفون ولم يصل إلا بعد ربع ساعة، وأخذت عملية اعداد الشريحة واعداد الميكروسكوب والصباغة وضبط النور ربع ساعة أخرى. حتماً ستطير رقبته وبالذات حين قرأ في النهاية التقرير الذي كتبه الاخصائي بخط لا يقرأ وأدرك معه أنه لا يستطيع الجزم إن كان الورم نابعاً من العظم أو الغضروف أو أي نسيج آخر، وكذلك من الصعب تحديد إن كانت الخلايا خبيثة أو حميدة.. كارثة!

وظن أن خللاً قد حدث في نظام الكون حين لم يقابل بكلمة لوم واحدة والوجوم الشديد موجود ولا شيء سواه، فقط حين أمسك بالورقة قريباً من عيني الأستاذ وقرأ الأخير التقرير تفجر بركان الغضب وانهالت الشتائم بادئة بالمعيدين أجمعين، مارة بالجامعة والكلية وخراب الذمم والفساد والملعون الأخصائي. أما هو عبد الرءوف فقد نالته لكزة غليظة من كوع الأستاذ.

وكان الغضب قد تسرب إلى الحاضرين جميعاً، وإلى الحجرة كلها بكل ما تحتويه يكاد جوها يرعد ويبرق والتوتر وصل إلى أقصى مداه. ولم يكن أحد يستطيع في وسط هذا كله أن ينطق بكلمة أو يشير برأي، وإنما التصرف كله والرأي والحل لابد أن ينطق به الأستاذ حتى وهو في هذه الحالة.. فهو لا يزال الإرادة العليا. وعليه كان المفروض أن تؤخذ عدة عينات أخرى ثم يغلق جرح البطن وتكون عملية الاستكشاف قد تمت بنجاح، فما دمت لا تعرف كنه

الورم فمن غير المعقول أن تعبث به أو تمد يدك لاستئصاله مثلاً.

ولكنهم ـ حتى قبل أن يصدر أوامره ـ كانوا يعرفون أن من المحال أن ينكص وأن يكتفي من الغنيمة بقفل الجرح. وهكذا حين كظم غيظه لحظة ومن بين شفتيه المطبقتين صدرت الغمغمة المعتادة تقول:

ـ إيه رأيكم؟ الفتحة واتفتحت، والورم مش كبير وشيله مسألة سهلة.

لم ينطق أحد كالعادة ولا هو انتظر أن ينطق أحد.. واصل كلامه بحماس مفاجىء:

ـ شوف النبض كام؟ وضغط الدم؟ والتنفس؟.. ممكن بنج ساعة كمان؟ جهزوا نقل الدم وعقموا الآلات الزيادة.. بسرعة.

بأسرع سرعة تفرق الجمع الملتف حول المريضة الراقدة بلا حول، وتلاحقت سلسلة الأوامر تبعثرهم في كل اتجاه، بينما باشمئناط خلع الأستاذ أدهم قفازه وطلب سجائره وولاعته وانتحى ركناً قريباً من غرفة الاغتسال، ومضى في حجرة العمليات يدخن، والسستر الطليانية ترقبه بغضب لا يراه.

وفي هرج ومرج عقمت الآلات بسرعة وبطريقة بدائية بأن صبوا عليها الكحول وأشعلوا النار، وجلبت أسطوانة أوكسيجين لم يتمكن أحد من فتحها فدفعها الأستاذ بساقه دفعة أسقطتها وأحدث سقوطها دوياً كالقنبلة.. وجيء بأخرى. أما الدم فقد اكتشفوا أن فصيلة دمها

لم تحدد بعد، وكان على طبيب نقل الـدم أن يحضر معـه زجاجـات من كل مجموعة. . وأخيراً ركبت الزجاجة في الحامل، ولكن قبل أن تتسرب منها نقطة واحدة إلى وريد المريضة كان الأستاذ أدهم قد عيل صبره، وكان قد أمسك بالملقط والمشرط بينما مساعدوه الثلاثة ـ وقد أخرج منهم عبد الرءوف ـ يفتحون له الجرح ويزيحون أعضـاء البطن ومصارينه بالمزيحات المعدنية، كاشفين الورم بقدر ما يستطيعون.

كانت العملية الكبرى، عملية الاستئصال قد بدأت.

وعلى مجال رؤية تقـريبي بدأ الأستـاذ يستأصـل الجزء الأعلى من الورم، وبالمشرط والملقط يفصله عن العامود الفقري من الخلف والغشاء، البريتوني والكلية والطحال من أمام، وبدا أن كل شيء رغم كل ما حدث يسير على ما يرام، والصمت يخيم والرقاب مشرئبة علها تلمح الورم أو تستطيع بطريقة ما أن تلقي نظرة على البقعة التي تعمل فيها المشرط والملقط.

وفجأة تفجر من فتحة البطن عـامود دمـوي حاد، وارتـطم الدم المنبثق بزجاج المصباح الكشاف. . عامود مفـاجيء غير متـوقع أبـداً شحبت له الوجـوه جميعاً فهـو يعني أن شريـاناً قـد انقطع، وفي تلك المنطقة التي كانت تدور فيها عملية التشريح لم يكن ثمة شريـان آخر غير أضخم شرايين الجسم. . الأورطي. أتكون قد حدثت الكارثـة، كارثة أبشع من قطع شريان الرقبة، أيكون الأورطي قد قطع؟

- ٥ -

حين أوغل بعد الظهر في تقدمه، وراقب قفزات عقرب الدقائق حتى ملها وأصبحت الساعة تقترب من الخامسة وقد مضت أكثر من ساعتين على العملية الكبرى، بدلاً من الغيظ انتابته فجأة موجة استخفاف. أحس بلا مقدمات أن القداسة تذهب عن كل شيء في محرابه المقدس، وأن حجرة العمليات تتعرى عن ذلك الغموض المعقم الساحر الذي كان يصبغ كل شيء فيها. بل وزحف استخفافه ليشمل ذلك الشيء السخيف تماماً.. المضحك جداً.. الموت.. الذي ربما يبدو مأساوياً رهيباً حين نسمعه كخبر ابن لحظته، وندرك في ومضة أن فلاناً الحي قد مات وانتهى. أما حين يصبح الموت حدثاً يدور أمامك، ويمثله وتنتظر أن ينتهي فلا تبدو له نهاية، حين يصبح لحظة تتكرر ودائمة التكرر، تذهب رهبته تماماً وتصبح شيئاً كالحياة التي لا معنى لها، وأقصى ما تشعر به حينذاك أن تحس بالملل. ولا بد أن ذلك الملل هو الذي دفعه للاستخفاف، ليدفعه الاستخفاف أن يقرر رغم أي اعتبار آخر - أن يحادث «انشراح».

- سمعت آخر نكتة؟

توقفت أصابعها المكوكية وحدقت تجاه عبد الرءوف وجحظت عيناها قليلاً، ثم حين رأته يعني ما يقول جحظت عيناها أكثر.

- سمعتيها؟

- هي إيه يا دكتور؟

عجيب صوتها، أول مرة يسمعه وإن كان كثيراً مـا سمع عنـه، هادىء ومؤدب . . أم هو تمثيل وتأدب؟

ـ النكتة . . آخر نكتة.

حركت تحديقها في وجهه ورمقت السيدة المسجاة، ثم أرخت عينيها وقالت بصوت منخفض:

ـ حرام يا دكتور! حرام! ده وقت نكت؟

ـ أمال وقت تريكو؟

واغمق وجههـا القمحي الشـاب خجـلاً، وكفت أصـابعهـا عن الحركة في الحـال، وجمعت الكرة والنسيـج والإبر في يـد أسقطتهـا بجانبها، ثم بعد ثبات في مكـانها بـرهة انسلت قـائمة متحـركة ببطء ناحية النـافذة العـريضة ذات الزجاج المصنفـر، وفتحت ضلفة منهـا وأطلت برأسها، ثم ما لبثت أن ارتكزت بذقنها على يدها. اعتقد أنها تفعل هذا خجلاً في حين أنها ـ كما أخبرتـه بعد هـذا ـ كانت تحـاول أن تكتم عنه نوبة الضحك الشديدة التي انتابتها.

ولكنه لحظتها، وبوقوفها ومشيتها وارتكازها، تحول انتباهه إلى الشيء الوحيد الـذي غاب عن عينيـه طيلة الوقت: انشـراح الأنثى. الآن وجههـا مختف وجسدهـا الخلفي بكامله أمـام عينيه. وبمثـل ما يرى الإنسان أول مـا يرى وجـه المرأة من أمـام، تسقط عيناه أول مـا تسقط حين يـراها من الخلف على سـاقيها. . وجههـا الخلفي. وجه نادر الجمال. . نادر أن تلتف الساق بلا ترهـل أو نحافـة، وتتسق مع الوسط والأرداف والكتفين.

كيف استطاعت حواري شبرا المختلفة بازدحامها أن تنبت هذا الجسد السمهري المتسق الفارع؟

أيكون تنمرها وتوحشها علامات أنوثة يسيء الرجال فهمها؟

وأي طراز من الرجال يا ترى تفضل؟ مهما كان طرازها فبالتأكيد لا يمكن أن ترى مثله في الشاب النحيف الطويل ذي الشعر الأصفر والعينين الملونتين الذي ـ وإن كان يعجب أغلب البنات والسيدات ـ ولكنها هي بالتأكيد مختلفة، ومزاجها مختلف.

أيحاول بلا مقدمات أن يجس النبض؟

أم يحترم نفسه كما ظل يحترمها ويقنع بالسكوت؟

ـ ٦ ـ

الدم المندفع المفاجىء معناه غلطة. . وغلطة لا يرتكبها طبيب امتياز أو حتى طالب طب، فكيف ومرتكبها هو كبير أساتذة الجراحة؟ كان واضحاً أن هناك سراً وأن شيئاً غير عادي لابد يحدث. ولأنها ليست على ما يبدو غلطة، ولأنه حقاً كبير أساتذة الجراحة، فلم يستغرق الانفجار سوى ومضة. إذ في ومضة كانت يده قد امتدت وانتزعت قطعة كبيرة من الشاش المطبق، وبدقة شديد كتم بها مصدر الانفجار وكف الدم عن التسرب تماماً.

وصحيح أنه لم يقل في لحظتها السبب، ولا أحد استطاع التخمين، ولكن لم يكن من الممكن أن يستمر الغموض طويلاً، فقد

اتضح أن الورم قد أحاط بالأورطي وابتلعه داخله، وأنه في محاولته فصل الورم جرح الأورطي.

والتفت إليهم بعد لحظة هدوء، وقد عادت شخصية الأستاذ الكبير تسيطر:

ـ الجراح الناجح هو اللي ما تهزوش أي مفاجأة تحصل حتى لو انجرح الأورطي. الجراحة أعصاب، واللي ما عندوش أعصاب يدور له على شغلة تانية يا أسطوات. المسألة حلها بسيط زي ما شفتم.. وقفنا النزيف، بعد كده نخيط الجرح.

ولرأب الجرح الذي حدث للوعاء الدموي الكبير فلابد من إحاطته بغرز يضمها خيط واحد تجذب طرفيه وتعقده فتتعلق الفتحة كما تتعلق فتحة كيس النقود.

ولقد تولى الأستاذ المساعد مهمة كتم الجرح ريثما ينتهى الأستاذ من إحاطته بالغرز بإبر خاصة، وبخيط خاص. ولكنه ما كاد يجذب طرفي الخيط ليعلق الفتحة حتى تفتت الجدار من حول الجرح وتفجر الدم في نافورة غزيرة مروعة. هذه المرة كانت قد اتضحت الحقيقة المرة.. جدار الأورطي قد تهرأ حين ابتلعه الورم ولم يعد يحتمل غرزة، وقد حاول ربطه كلية وإذا به ينقطع تماماً ويتفجر بحر من الدماء اندفع هذه المرة في كل اتجاه يغرق أنحاء الغرفة ويلطخ الوجوه ويملأ العيون ويعمي لابسي النظارات ويحيل الأقنعة

البيضاء إلى حمراء قانية. دم كثير وكأن عشرة رجال ينزفون معاً، تعجب كيف أن مصدره الوحيد هو هذه السيدة النحيلة الغائبة عن الوعي.

وكما أصاب الدم الموجود فسوى بين ملامحهما تكفلت الفوضى والارتباك بإحالة الحجرة إلى مكان انتهى منه النظام تماماً.. مليء بالصرخات العصبية والتخبط والجري في كل اتجاه والتعثر في كل خطوة، تلمع الكلمات كالشهب بلا صدى.. نقل الدم، رباط ضاغط، ضاغط، يا ابن الكلب، يا بهايم، امسحوا الدم اللي في عيني، يا غجر امسحوا الدم.

وامتدت كل يد تستطيع الامتداد إلى بطن المريضة وليذهب التعقيم إلى الجحيم. وأخيراً وبلفة قطن بالغة الضخامة وتحت ضغط ثماني أيد أمكن سد فيضان البحر المكتسح سداً مؤقتاً، فالنزيف كان لا يزال مستمراً وبمعدل أسرع من زجاجات نقل الدم الأربع المفتوحة صماماتها إلى آخرها، والجميع وقد أطار عقولهم ما حدث لا يرجون إلا فرصة واحدة ـ ثانية ـ لالتقاط الأنفاس.

وحين جاءت الفرصة وأحكم الضغط على الأورطي تماماً بحيث كفت الدماء عن التسرب، كان الخاطر الذي هبط بثقله على الجميع هو أن السيدة قد حكم عليها ـ هكذا ـ بالموت، وأن العملية التي بدأت لعبة واستكشافاً قد انقلبت إلى مأساة، وأن لا حل.

ـ أظن ما فيش فايدة.

قالها الأستاذ المساعد باستسلام.

والمفاجأة كانت حين ارتفع صوت الأستاذ:

ـ ما فيش فايدة إزاي؟ الكلام ده يحصل مع واحد تاني غير أدهم شفيق. مش أدهم شفيق اللي تموت منه عملية.. الأورطي انقطع حا نشيله كله ونشيل الورم كمان ونحط بداله وصلة من شريان الفخذ. اطلبوا كل الدم اللي في المستشفى وهاتوا اللي في الاسعاف السريع كمان. «تيريزا» إبر خياطة الشرايين وحرير ثلاثة زيرو وشغلوا الشفاط وامسحوا الدم ده كله.. ولا نقطة أشوفها.

كانت أوامر كهذه تهبط عليهم دائماً وكأنها أوامر السماء! تفكيرهم الوحيد هو كيف ينفذونها وبأكمل وجه كأنه كان يخاطب خشباً مسندة هذه المرة. صحيح أنهم تفرقوا يجهزون ما أمر به ولكنهم كانوا كأنهم فقدوا الإيمان بما يقول.

ولقد تم كل شيء كما أراد، وربط الأورطي بعيداً عن أجزائه المتهرئة، واستؤصل الباقي مع الورم، وامتد الجرح إلى الفخذ واقتطعت من شريانه أوسع قطعة وصل بها الأورطي، ودار كل هذا ولا أحد يكاد يصدق أنه يدور فكأنه يحدث في منطقة وراء العقل، أو انقلبت الحجرة بهم إلى فندق تحول فيه الواقع إلى كابوس، والأشخاص والأشياء إلى رموز، والجو ملبد مشحون.

وكان الجميع ـ وربما بما فيهم الأستاذ نفسه ـ يتوقعون أن تنتهي السيدة قبل أن تنتهي العملية، ولكن أغرب شيء أنها رغم كل ما

نزفت وضاع من الدماء، رغم ضغط دمها الذي كان كالبندول يتأرجح ويقترب عشرات المرات من منطقة العدم، والقلب الذي كان ينبض ثم يكاد يكف ليعود ينبض، رغم كل هذا لم تمت مع إدراكهم جميعاً والعلم معهم أنها لابد أن تموت. إلا أنها ـ وكأنما سخرية بهم ـ لم تمت. ولعل هذا هو الذي شجع الأستاذ في الثالثة، وبعد العملية التي استغرقت خمس ساعات طوال أن يقول:

ـ اللي عليّ عملته، وما كانش يخرج من إيد أي جراح في العالم أنه يعمل أكثر م اللي عملته. إنما حنعمل إيه بقى لوزارة الصحة؟.

فالمستشفى في رأيه خال من الخيوط الحريرية ذات السمك المضبوط، والإبر أصغر مما يجب، وغرفة العمليات ليس بها أجهزة تكييف هواء تساعد على هدوء الأعصاب.

ـ واهو كده أو كده كان الورم حايموتها، يبقى العلم اللي كسب. فمصر كسبت عملية عمرها ما اتعملت، وعملية ناجحة قدامكم أهه، والست لسه عايشة أهه، ولو كانت الإبر مضبوطة والخيط مضبوط كانت تعيش عشرين سنة كمان. . إنما حظها كده.

* * *

والحقيقة أن لا الإبر ولا الخيوط ولا أجهزةالتكييف هي السبب، والسيدة ما زالت لم تمت ـ هذا صحيح ـ ولكن الدم يتسرب

من مكـان الوصلة ويكميـات ضخمة، فليس هكـذا توصـل الشـرايين بالشرايين، فالطريقة خاطئة والفكرة من أولهـا خاطئـة. والخطأ ممتـد وبـادىء من اللحظة التي قـرر فيها أن يحيـل عملية الاستكشـاف إلى عمليـة استئصـال كبـرى، بـل الخـطأ ـ هكـذا يـدرك عبـد الـرءوف الآن ـ يمتـد إلى أبعد، إلى ذلـك اليوم الـذي أصبحت الجراحة عند أستاذه تزاول من أجل الجراحة، وأصبحت العمليات وأصحـابها وهـم غالباً من الفقراء الذين بلا حول، ميداناً لإثبات القدرة والأستاذية.

ـ ٧ ـ

الشيء الذي لم يعمل له حساباً قط هو الذي يحتل عقله الآن تماماً. ليست هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها ميتاً يحتضر أو يسمع ذلك الشخير المتصل.. ولكنهـا الأولى التي يعـايش المـوت فيهـا ليست معايشة متفرج، ولكنها معايشة متأمل متـرقب ليرى متى وكيف تكـون النهاية، أو بالأصح نهاية النهاية؟ وكلما تأمل وترقب وانتـظر أحس أنه يغوص أكثر وأكثر في التجربة، حتى بدا وكأنه هو نفسه يعاني نزعات الموت. ولكن حب الاستطلاع يعود يجذبه ويعود يعيش المشهد بكل خلجاته ليرى كيف بـالضبط يمـوت النـاس. وإذا كـان المشـاهـد في المسـرح أو السينما وهـو يعـرف أن مـا يـراه خيـالاً في خيـال ينتفض انفعالاً في انتظار النهاية، فما بالك والمشهد هنا حقيقي والموت فيـه

حقيقي؟ واسم النهاية معروف، ولكن طريقة حدوثها شيء لا يمكن أن يعرف أحد كيف تحدث. أنت هنا لا تضطرب بين اليأس والأمل! إنك تحفر بتفكيرك وترقبك في أعمال اليأس لتصل إلى منتهاه، وكأنك تتوقع أن تموت هذه السيدة الطيبة التي أسلمتهم نفسها بثقة فيهم وفي عملهم ما بعدها ثقة بطريقة لم يسبقها إليها أحد، ما دامت قد اجتازت هذه العملية الكبرى وعاشت بعدها وبطريقة لم يسبقها إليها أحد.

ولم يدرك أنه الآخر قد بدأت تنهد فيه أشياء وتموت مثل الجسد الواهي المسجى أمامه إلا متأخراً. هذا الشهيق المتباعد يبدأ ببطء ويصل إلى منتهاه ببطء ليندفع بعده الزفير فجأة مرة واحدة. هذا التنفس الغريب الذي يسبق الوفاة والذي طال أمده وامتد وانتظم حتى أصبح كالنبض، وانقلب من دليل مؤكد على الموت القادم إلى نبض منتظم.. ليس نبض الحياة وإنما نبض الموت ودقاته تهوي كل نبضة منه كالمطرقة الخرافية البشعة تهد وتسحق الجسد غير الواعي. ولكن الأهم أنها أصبحت تهوي عليه نفسه، وعلى مراكز الحياة فيه فتتهدم وتهوي وتتساقط حتى أصبح وكأنما كلما أمعن في انتظار لحظة النهاية اقشعر بدنه، مخافة أن تأتي معها بنهايته هو الآخر.

وكالفأر الذي أطبقت عليه المصيدة مضى بكل ما يملك من قدرة على الهرب يستنجد بالخيال.. وبأحداث اليوم.. و«بانشراح»

وجسدها الفائر. ولكن الذكريات والخيالات وحتى الحقائق نفسها كانت تهرب منه وتفر من حضرة أخلد حقيقة عرفها الإنسان ـ الموت ـ أقوى الحقائق كلها، الأقوى حتى من حقيقة أنك حي.

وكالاستغاثة الأخيرة ترك مقعده واتجه إلى حيث تجلس «انشراح» ووضع يده على كتفها، ليجد أن جسدها هو الآخر يرتعش وكأنها هي الأخرى قد بدأت تحتضر.

ضمها عساها أن تكف عن الارتجاف فإذا به يبدأ هو الآخر يرتعش، ويمد يده يتناول يدها فإذا بها باردة. . ميتة بغير شك، برودتها أبداً ليست من صنع الجسد وإنما هي وافدة من مكان بعيد سحيق، نفس المكان الذي يقبل منه الموت! تضغط على يده، وبكلتا يديه يعتصر يدها، وتنتقل برودتها إليه وبرودته إليها. . فالسيدة كان رأسها قد بدأ يتململ، وشخيرها يضطرب، وأجفانها ـ مرة واحدة ـ تفتحت إلى آخرها وبرزت من خلفها عينان واسعتان محدقتان بلا نظرات. كان واضحاً أن شيئاً مهولاً يقترب، اما النهاية التي انتظراها حتى أوغل الليل في تقدمه، وأما المعجزة. . وكلاهما مرعب مخيف. فالموت حولهما وفي كل مكان، وهو لا يمكن أن يتراجع! فإذا لم تمت هي فلا بد أن سيكون الموت من نصيبهما.

الموت الكثيف الذي تضبب له جو الحجرة وثقل هواؤها وأصبح النور كالخيوط المنعزلة المخنوقة. .

ماذا بالضبط بدأ وفي قوة عارمة يتدفق في جسديهما؟ . . أبداً ليس خاطراً، ولا انفعالاً، ولا احساساً ولده الخارج أو اندفع من الداخل. وحتى ليس دفقة الحياة الأخيرة حين ينتاب الإنسان ذلك النوع الوحيد من الرعب الذي لا يحسه المرء إلا مرة واحدة في عمره، الرعب من «الموت» الذي يصل إلى درجة أن يميت هو إذا غاب الموت أو اختفى سببه.

ليس جنوناً أيضاً أو فقدان سيطرة.

الحقيقة ليس شيئاً أبداً قابلاً للإخضاع والمناقشة والتفسير.

والعجيب أنه كان يحدث لهما معاً وفي نفس اللحظة، كالآلتين تعزفان نفس النغمة، أو كأنهما أصبحا جسداً واحداً وكائناً متكاملاً.

اشتد التصاقهما حتى وقفا، وتراجعا إلى حافة «المنضدة» حيث اقتربا، وتفتحت أذرع أربع لتضم الجسدين.

وكأنما هو مسوق بها وهي مسوقة به وكلاهما مسوق بقوة أكبر، دفعا معاً «الترولِلي» المجهز لتحمل عليه السيدة بعد وفاتها ووضعاه حتى أصبح امتداداً لمنضدة العمليات، وبدا ألا قوة على سطح الأرض تستطيع منعهما. ومعاً خلعا ملابسهما، وبمساعدته صعدت فوق «الترولِلي» وصعد هو الآخر، والسيدة كفت عن التلفت والتحديق واستقرت عيناها ـ لا تزالان متسعتين أيضاً وبلا نظرات ـ على الجسدين العاريين تماماً أمامها.

وغير مهم إن كانت ترى أو لا ترى. . المهم أنها استمرت

تحدق حتى حين عاد إليها نبض الموت وعادت تتنفس شخيراً منقطعاً غير منتظم.

والتهب جسده وأحس بها بين ذراعيه تلتهب وكأنهما محمومان، وضمها بشدة، واستماتت هي متعلقة به وكأنما بألف ساق وذراع.

ومضى هو يرد على تحديق العينين المثبتتين عليهما بتحديق كأنما يدفع به الموت المنصب من عينيها، وبتحديق هاتف يقول له للموت: لا.. إلى اللحظة التي بدأ فيها وكأن نبض الحياة قد اتحد بنبض الموت، وأصبح للكائنات الموجودة بالحجرة ـ ميتة وحية ومترددة بين الموت والحياة ـ نبض واحد متسق لا نشاز فيه.

وقبل أن يفقد وعيه بوجودها أحس أن السيدة لابد قد استردت وعيها للحظة، فقد بدا من نظراتها أنها، لأول مرة تراهما رأي العين وتدرك تماماً ما يدور.. وأنها ما كادت تسترد الوعي حتى انتهى، ولكن اللحظة كانت كافية لتصنع ملامحها شيئاً كالابتسامة.. ابتسامة مندهشة قليلاً كابتسامة طفل فتح عيناه لأول مرة على الحياة فيدهشه ما يرى.

وما كاد يستعيد الوعي ويعود يحدق في السيدة حتى وجد أن كل شيء لا يزال كما تركه، وابتسامة الدهشة القليلة لا تزال قائمة وموجودة، والعينان أيضاً مفتوحتان على آخرهما بأوسع اتساع. شيء

واحـد فقط هو الـذي غـاب. . نبض المـوت، إذ قـد انتهى الشخيـر والشهيق والزفير والتنفس.

* * *

وكأنه أيضاً للحظة قد توحد كل شيء، واشتبكت اغماءة النهاية باغماءة البداية، أول البداية ونهاية النهاية. . لحـظة خروج الحي من الميت والميت من الحي، لحـظة كـأنمـا أبت السيـدة الـطيبـة إلا أن تحتشد وبآخر ما تملك تسجل بشبكتيها للمشهد صورة. . صورة تبقى في عينيها وتخلد إلى الأبد.

دستور . . يا سيدة

المربع الأول

الظهر.. ظهرها كله أصبح مربعات كبيرة محمرة داخلها مربعات أصغر، فيها ألم. بالراحة.. بالعقل.·. بالحنية.. أبداً أبداً ليس هكذا أرادت أو تريد، لا بد أن تهتف صارخة دافعة إياه بكل غلظة:

حاسب.. اوعى.. اوعى!

مفاجأة لم تكن متوقعة! المفروض أن يتحول إلى وحش.. إلى كائن مرعب يخضعها. ولكن على نصف جانب.. وثنية رجل ويد شبه مرفوعة في الهواء حيرى ماذا تفعل؟ سكن. العيون.. عيناه مفتوحتان في دهشة، والملامح تنطق بشعور طفل أذنب رغم أنفه ويريد البراءة. ماذا حدث؟ سألها خائفاً أن يقترب أو يلمسها. لم تجب.. ماذا تقول؟ كيف تجعله يفهم أشياء هي نفسها وإن كانت تحسها لكنها لا تعرف كيف تصوغها كلمات محددة مفهومة. أهذا وقت التراجع والعدول النهائي؟ كيف؟ وما تصورته الأفظع والأبشع والمستحيل قد تم..

أحسست في قمة الغضب التعس بيده تقترب، كقطة متلصصة تعرف أن ما تـريده ليس من حقهـا. دفعت اليد جـانباً بقـوة وقسوة لم تردها أبداً، ولا تخصها. . لكأنها قسوة امرأة أخرى داخلها، امـرأة لا تعرفها.

صمت.

أمـا التسليم المطلق أو إعـلان الفشل وإحـالتـه من شعـور إلى واقع.

صمت أيضاً.

اختفت من خـلالـه وفي كثافته حشـرجـات السـوق والشـارع وصراع الأطفال العابث اللاعب، وأزيز الدنيا.

أتعاقبها السيدة زينب؟

اقشعرت.

أتفقد العقل؟ أتصـرخ؟ أتجري شبـه هاربة هكذا وتقـول لكل الناس أنها أم فلان البيه وفـلان المديـر ومع هـذا تفعل مـا هي الآن تفعله؟

أتقتل نفسها؟

وذاب عقلها في ضياع. وقبل أن تفكر في أي شيء آخـر رمقته بحـدقة عينيهـا فقط، ودون أن تتحـرك كـرة العين في المحجـر ربـع نظرة. . انتهت بعدها تماماً. . تماماً.

بلا صوت، أو اعتصار لذاته، أو احتشاد، أو حتى تغيير لوضعه، كانت جفونه مسبلة ومن بينها يتساقط دمع بطيء تلمع آثاره على الوجنة، وبقيته تتوالى نقطة عزيزة بعدها نقطة.

من جديد ـ وكالإعصار ـ تحرك ذلك الاحساس الطاغي الذي ينسيها أي شيء إلا أن تنتفض هالعة مقبلة عليه، محيطة إياه بذراعين تثلجتا بالحنان، وبقبلات منهمرة مذعورة تركزت فيها كل قدراتها على الفعل ودفع الشر تغمره وتغسل وجنتيه وتلعق أجفانه، ولفرط رغبتها تستعذب طعم الدموع.

لقد انتهت! فليكن أجرم فليجرم! فليكن الثمن حياتها نفسها فلن يبكي مرة أخرى. انها المقادير. . مقاديرها وحظها رتبت كل شيء. الازدحام عند باب السيدة زينب، والدفعة التي جاءتها فجأة من الخلف وفي نفس اللحظة التي كانت ساقها لا تزال لم تصل بعد إلى الأرض. واعتقدت تماماً أنها ساقطة لا محالة، وأصبح رجاؤها كله ألا يرتطم رأسها بالبلاط المربع الكبير. ولكنه الترتيب المحكم. . وبالضبط وهي تهوي وقد سلمت بالكارثة المحققة، تأتيها اليد وكأن ليس لها صاحب، يد من السماء ربما توقف لولا سقوطها، وحين تفقد التوازن كنتيجة لهذا تأتيها الذراع قوية مشمرة تلتف حولها، ولومضة. . لومضة سريعة تشعرها، ربما منذ زمن بعيد حتى قبل أن يموت زوجها، أنها في أمان كامل. . ذلك الأمان.

لم تسقط ولم يكسر لها ساق أو قدم.

ولكن السيدة ـ أم هاشم وأم العواجز ـ على حق. أنا محقوقة

لك يا سيدة حقك عليّ. الشنطة! ها هي اليد الأخرى تقدمها. وحين ذاك فقط تبدأ تدرك أن يده الأولى لا تزال تحيطها وتحتضنها. ومع الشكر والتراجع وارتباك الإفاقة من مصير محتوم.. ماذا قال؟ لا تعرف. في النهاية نظرت في وجهه، والمفاجأة.. أنها كانت طوال الوقت تخاطب وتعامل وتشكر رجلاً. ولكن هذا.. إنه.. إنه بالكاد له شارب.

ـ بتعيط ليه؟ أنا عملت حاجة؟ أنا زعلتك؟

ـ زقتيني.

ـ ودي تزعل؟

ـ أيوه بقوة وكره. انتي بتكرهيني. انتي عايزة أفندي واللا بيه غني ومعتبر. وأنا فقير والفقير عندكم ما عندوش احساس.

وتفجرت رغماً عنه، أو ربما برضاه، دمعة.

واحتضنته.

إنه لا يفهم.

مستحيل أن يفهم.

كيف يفهم؟

بأي قوة تستطيع أن تطلعه على ذلك الشعور الذي لا يقاوم والذي جعلها تنسى أي شيء إلا أنها وجدته، وأنه في تلك اللحظة بالذات أعز عليها من الدنيا بما عليها.

ـ أعمل إيه علشان تصدقني؟

ـ ما تزقنيش.

ـ بس أنا يا ابني زي أمك.

ـ أمي ماتت من عشر سنين. أنا زي ما أنت شايفة يتيم.

واختنق حلقه بدموع تريد التحول إلى كلمات، وكلمات تصدر عن احساس في نفسه.. احساس كبير كالقصر المهجور الذي دبت فيه الحياة فجأة. في نفس اللحظة التي أحاطها بذراعه وأحس بجسدها، وإن لم يكن سميناً رجراجاً إلا أنه «هوانمي» طري، ناعم حتى من خلال ملابسها الكثيرة الحريرية السوداء. كان ممكناً أن يتقبل الشكر ويمضي ولكنه توقف.. تلكأ.. تمنى لثانية أن تحتاج إليه.

والخطوة التالية لم يرتبها القدر.. صحيح أن قدمها التوت، ولكن كان باستطاعتها احتمال الألم الخفيف والسير بمفردها.

لماذا إذن ـ حين حاولت الخطو ـ بالغت في التألم والعرج؟

أتكون قد لاحظت أنه تلكأ، وأنه يا للغرابة يبدو أنه يحتاج منها أن تحتاج إليه؟

دون كلمة عرض أو إيماءة قبول كان بجوارها.. ويده تحت ابطها.. بكل ما يستطيع من رقة يساعد في حمل الجسد، رقة حنون افتقدتها من زمن، رقة حنون كرقة الأبناء الأطفال قبل أن يصبحوا رجالاً وينقلوا رقتهم تلك إلى حبيباتهم وزوجاتهم.

كان مفروضاً أن يتوقف موكبها لدى أول محطة ترام أو أوتوبيس

أو عند أول تاكسي ولكن الموكب استمر. لم تطلب. لم يسأل. . بل ولا حديث إلا بين الحين والحين: تعبتك؟ فتجيئها إجابته مستنكرة، مغرقة في الاستنكار لدى كل مرة تالية:

ـ أعمل إيه عشان أقنعك إني بأعزك قوي؟

ـ ما تزقيش.

ـ بس أنا يا ابني زي أمك. . عيب!

إنها دائماً تعود إلى موضع الألم. ولكن الطريقة التي تنطق بها كلمة أمك كأنما تعنيها ولا تريده أن يصدقها. لقد حرمته أمه بموتها من نفسها ومن النساء. هذه «الست» تعيد إليه كل شيء مرة واحدة وكأنه في حلم. إنه يكتشف الآن فقط أنه جوعان محروم ضائع، يكاد يجن وهو يحس بها ترتكز على يده ارتكازة جسد أليف محب. لو تكون محرومة من الخلفة وتتبناه وكل يوم ترتكز عليه بهذه الألفة! ولكن ذراعه بدأت وكأنما تحيا حياة أخرى بعيدة عن كل أفكاره! فالجسد الذي تحتويه بدا من فرط ما فيه كالزبدة يسيح. ذراعه الممزقة عنها «الأوفرول» في أجزاء، تشركه رغماً عنه، وتنقل له من خلال ملابس غالية ـ وإن كانت أكثر مما يحتمل الجو ـ ذلك الاحساس، ونعومة جسد الأم تفقد كل صفاتها الأخرى ولا يبقى فيها سوى تلك الرجرجة الشحمية المرتاحة. . رجرجة الستات المرتاحات. . رجرجة تبقي السيدة أنثى ولو وصلت إلى الستين، ولكنها لا يبدو أنها وصلت أبداً إلى الخمسين. . بل إن ما فيها من

أنوثة أكثر بكثير من زوجة جارهم سائق التاكسي التي تبدو بعد عـامها السابع من الزواج وكأنما جفـ فيها كل ما يمت إلى النساء بصلة .

ـ تعبانة؟

ـ شوية .

ـ كده أحسن .

وبكـل ذراعه أحـاطها حتى أصبحت في حضنـه، وأصبحـا في حارة، وأصبحت تعرف أنه في الثامنة عشرة، وأنـه يعمل مـع أبيه في تصليح البوتاجازات، وأنهما يقطنان قريباً، وأنه وحيد، وأن أمه ماتت في عملية .

وأيضاً أصبحت تعرف سبب غضب السيدة زينب منها . فليست هذه أول مرة تأتي إليها مضطرة .

بعد المشوار الطويل . . بعد أن تصبح جدة للمرة الرابعة، وأماً لمـديـر عـام شاب لامـع، ولدكتـور في جامعـة يؤكدون أنـه الـوزيـر القـادم، والثـالث تـاجـر سيـارات مستعملة وأغنـاهم جميعـاً، وبنت تزوجت وتعمل أيضاً في الخارجية .

سعادة الاكتفاء موجودة ولا حد لها . المهمة تمت بنجاح ساحق رغم أن المرحوم مات في ثلاثة أرباع الطريق . الجميع يتـوجونهـا أماً مثـاليـة، ويـأتي أولادهـا كـل عيـد، وكـل منـاسبـة، وانتي، وانتي، وانتي . . ولكنها كلمات .

الـرجال والابنـة الذين لم يعـودوا في حاجـة إليها . . يـدللونهـا

ويهزلون معهـا ويبدءون يسخـرون من الأشياء القـديمة المتـراكمة في الشقة، تلك التي نموا وهم يحملون لهـا الحب والتقديس. صحيـح أن هناك روابط كثيرة تجمعها بهم وتجمعهم بها، نفس الـروابط التي تنزعج لها إذا علمت بمرض أحد، وينزعج لها الأبنـاء أو جزء الابنـة إذا ارتفع لديهـا معدل الضغط أو نسبـة السكر. ولكنـه جزء مخـالف تمـاماً لمثيله أيام كانوا أولادهـا وأيام كـانت فعلاً أمهـم. جـزء على اللعبـة القـديمـة ذات الشعـرات البيضـاء التي نحـاول أن نحفـر في صـدرها كلمـا ضممناه عسـانا نعثـر على قـطرة واحـدة من نبـع كـان يروينا، وكانت تتعاظم بنا وبها السعادة إذا روانا جزء الزمالة ربما في المجتمع الأكبر الذي أصبحنا فيه أولاداً وبنات وأمهـات وزملاء، وإن كانت تفرق بينـا بعض السنين. حتى غداء الجمعة، من الصباح البـاكر تكـدح لتصنع مـع خادمتهـا العجوز لكـل منهم مـا يفضله. وبـزيـطة وابتهاج يبدءون يقبلون والابن الواحد الـذي لا تزال تـذكركم بـه كان نحيفاً شاحباً وهو طفل صغير أصبح اليوم زوجاً، زوجاً قديماً لـه أولاد وبنات ينادونها بيا «تانت» ويا «تيزة» ويا «جدتي». أصبح الولد عـائلة بأكملها وأصبحت له أسراره الخاصة وهمساته وغمـزاته مـع زوجته أو مع أخيه الآخـر، وهي الوحيـدة البعيدة عن اللعبـة. ويوضـع الطعـام ويـأكلون، وبينما في أعمـاقهم قد أدركـوا من زمن أن طعام أمهم من الأحسن لها ولهم أن يبقى ذكريات حلوة، ومذاقاً يعطيه حاجـز الزمن قيمة ومتعة. فالواقع الحاضر أنهم قد فقدوا الرغبـة تمامـاً فيه، وأنهم بـالكاد يـزدردونه، فلقـد جـاءت الـزوجـات معهن بـأطعمـة أخـرى،

وبأصناف لم تخطر للأم على بال، حتى الطعام وتعليقاتهم البالغة في استحسانه أصبحت عادة قديمة تبتلعها على مضض، فإنها لتحس بالأمر كله، وبيوم الجمعة وكل ما يحدث فيه تمثيل في تمثيل يجيء فيه الأبناء ليروا أبناءهم تحضنهم الجدة العجوز، ويتسلون بتدريبهم على نطق اسمها، وربما يثير اليوم في نفس أحدهم ذكرى أو حادثة طفولة. تمثيلية سرعان ما يمل الممثلون القيام بها، فإذا بكل واحد قد انزوى مع زوجته في ركن أو على فراش، أو قد اجتمع أربعة منهم يناقشون موضوعاً لا صلة لها به. كل ما في الأمر أنه بين الحين والحين، وربما على دقات جرس ضمير بطيء المفعول، يتعطف عليها أحدهم بكلمة، أو بثناء، أو بقبلة سريعة، لا تلبث أن تدرك أنها وهي في بيتها تأويهم وتطعمهم قد أصبحت عبئاً هم مضطرون للخلاص منه بعد قليل. فسرعان ما تبدأ سلسلة الاكتشافات، وينظر أيهم في ساعته ثم يشهق مروعاً: أنا نسيت ميعاد المحاضرة. وما أتعسها من دقائق أو ساعات تلك التي يقضيها الباقون وتقضيها معهم وهي محرجة تدرك أن كلاً منهم لا بد يبحث لنفسه عن اكتشاف جديد أو عذر وجيه. حتى الأطفال ملوا سماع حواديتها ويطالبون بالتليفزيون. بل ـ امعاناً ـ تذهب إلى المطبخ أحياناً لتجد الملاذ في الخادمات، فإذا بهن هن الأخريات مشغولات بتبادل أنباء فضائح الأسياد والسيدات والجيران، وأحدث الزيجات والطلاقات بين نجوم الغناء والسينما. وفي النهاية.. وبعد كل الضجيج الهائل والازدحام تصبح مرة أخرى وحيدة تماماً في الشقة الكبيرة ذات السقف العالي.

فحتى الخادمة العجوز تأخذ بعد ظهر اليوم نفسه إجازتها.

لا لوم! فهكذا الدنيا.. وأولادها لم يعودوا بحاجة إليها إلا كديكور أم محنط في شقة «العيلة»، ولكن الأم فيها لم تنته بعد.. لم تمت! ما زالت تدق داخل قلبها الكبير. وحين مات المرحوم لم تفكر لحظة في الزواج أو في تغيير حياتها مع أولادها، فلقد كانوا هناك.. صبية صغار وبنات لا يسمحون لها أن تغيب عن أعينهم لحظة لشدة حاجتهم إليها، ولا تسمح هي لنفسها أن تتغيب لحظة لشدة ما تريدهم أن ينهلوا من صدر أمومتها ويروون بذلك النبع الأخضر الريان في أعماقها. سعادتها الكبرى أن تعطيهم، وكان طبيعياً جداً أن يأتي اليوم الذي لا يعودون بحاجة إليها وقد أصبحوا بدورهم آباء وأمهات يريدون هم أنفسهم البذل لأولادهم والعطاء. ماذا تفعل والأم فيها لا تزال قادرة موجودة يقظة، فقد تزوجت صغيرة وخلفت صغيرة ولا تزال بعد لم تصل إلى الخمسين.

ـ يا ريت تزوري السيدة!

وكأنما هبط الاقتراح كالحل العبقري لمشكلة أبناء يريدون فرض اليأس والشيخوخة على أمهم فرضاً: يريدون فرض اللاحول واللاقوة والسكون والسلبية التامة.. فرض الموت عليها فوق سطح الأرض انتظاراً للحظة الانتقال إلى باطنها. أبناء يريدون هذا وكأنما ليزيحوا عن خواطرهم الواقع الحي الناطق أنها بعد لم تصبح شيخة. صحيح أنها لم تعد شابة مثلما كانت حين مات أبوهم، ولكنها بالقطع والتأكيد لم تعد تصبح ـ وباستماتة تأبى أن تصبح ـ في القريب

العاجل شيخة. وليست الشيخة أيضاً كي يفرضوا عليها الشيخوخة فقط، إنما لكي ـ وهذا هو الأهم ـ ويفرضوا عليها الوحدة. فالوحدة إذا كانت حراماً على الأنثى أو الشابة فهي حلال على الشيخة، وما لم تصبح شيخة فعليهم أن يحلوا هم مشكلة وحدتها، ومن هنا يعتبر اقتراح زيارة السيدة إذن حلاً عبقرياً.

ـ ان شالله يا سيدة.

أجل، يوم الجمعة بعد الغداء الحافل، بعد أن تستمتع بهم مرصوصين حول مائدة الطعام الفخمة.. الرجال من أبنائها والبنت مع زوجها، وبعد أن تحمل أحفادها كل بدوره وتهدهده وبأسماء تدليله. عليها أن تذهب للسيدة وتقضي بقية اليوم تدعو وتتعبد. وفي العام القادم بإذن الله تحجين وأمانة عليك أن تقرئي لنا الفاتحة يا ست الحبايب، ولا تنسي أن تدعي «لمنى» بالنجاح، «ولحمادة» بالشهادة، ولابنك ـ أنا ـ باستقالة رئيس مجلس الإدارة ليفرغ منصبه.

ـ وإيه رأيك يا ستي؟

والتفت الكل إلى الأخ الصغير فقد بدا وكأنه وجد الضالة المنشودة:

ـ الجمعة السيدة، وإن زهقتي يبقى الاثنين الحسين، وإن حبيتي يبقى سيدي الحنفي الخميس.

واحنا مستعدين.

أجل! هم دائماً مستعدون لكي يحولوا العواطف والمجاملات

والواجبات إلى معادلة نقدية، ربما لأنهم أصبحوا يمتلكون النقود. . بينما لم يعودوا في حاجة إلى العواطف والمجاملات.

بالتأكيد مشروع سقوطها كان من غضب السيدة عليها، فهي أبداً لم تذهب بدافع من ذات. . تريد، إنما مدفوعة لا إلى زيارة أو قراءة فاتحة وإنما إلى مصير لا تملك دفعه.

ـ ياه! احنا مشينا كثير. أنا اتأخرت. . نشوف تاكسي؟.

ـ زهقتي؟

وتطلعت. . هذا الوجه، تلك الملامح الطفلية التي يسكب فيها سن الثامنة عشرة أول كم من عصير الرجال فيصبح لها ـ للسن ـ جمالها الخاص بحيث يضيء وجه كل فتى وكل فتاة، حتى المحرومين من الجمال، بنور جميل طازج. . نور تلك السن. شاربه النابت المحلوق الذي تكاد تعد جذور الشعر فيه شعرة شعرة، بينما الذقن تتسلل من الصدغين هابطة على استحياء. ولكنها في وسط الذقن تماماً، وحول وداخل طابع الحسن تنطلق فجأة. . كنافورة شعرية مستديرة. العينان فيهما نظرة، ليست لها صفاقة نظرات الرجال أو مجال أبصارهم الخاضع للإرادة والوعي والتحديد. . وليس فيها شقاوة الصبية إنما هي نظرة بدأت تدرك وجود الآخرين، وكما ترى الناس باستطاعة الناس أن يروا ما بداخلها. . داخلها المليء في تلك اللحظة إلى الحافة بنداء أقوى ما رأته عيناها من نداء. . ألا تذهب. . أن تبقى. نداء حقيقي صاعد ربما رغم أنف صاحبه، شتان بينه وبين نظرة الدكتور أو المدير ابنها وهو يقول

بينما هو يستعد لإغلاق الباب خلفها بعد انتهاء زيارتها:

ـ وحياتك. . وحياتك يا ماما تقعدي تتعشى معانا.

ـ حضرتك عايزة تروحي؟ مش تستريحي شوية. . على بال الوجع ما يخف؟

عادت ترمق النداء قوياً ملحاً في عينيه، لا تملك عصيانه. نداء يحرجها. . فهو لا يتبع بكلمات تلح الإلحاح الكافي، إنما هو يترك لها هي الرأي والقرار. . يترك لها أن تضغط بكل ما تملك من رغبة على كل ما تملك من مقاومة، وتسأل:

ـ أنا الحقيقة تعبانة. . بس أستريح فين؟ لازم أروح.

ولكنه وبحداقة أهل حي الحنفي قدم الحل البديل، فأبوه في الدكان، وعلى بعد أمتار يوجد بيتهم المكون من حجرة واحدة وصالة صغيرة. أيليق بالمقام؟

أي مقام والساذج لا يدرك أنها، منذ أن استقبلت النداء قوياً صادقاً مجتاحاً قد أصبح له على الفور المقام الأعلى، وأصبح أقصى ما تتمناه أن تعمل وبكل ما تملك لإسعاده. منذ النداء قد انتفض داخلها مارد قادر على كل شيء، حي نابض بالحياة، مارد تجاهلته وحاولت قتله، وتجاهله أبناؤها وكل من حولها وبكل ما يملكون من قيم وعظات وحكم ومثل، حاولوا خنقه أو سجنه ليموت جوعاً واهمالاً وحرماناً. . مارد حين انتفض يرتد من النقيض إلى النقيض، ويعود بها وكأنما ببساط سحري إلى أرض شابة حية مدمدمة بحركة

الحياة، وكل ما فوقها وعليها وداخلها ينبض.. أرض.. مرعبة.. مرعبة تماماً.

النظرة ليست كلها احتياج، هناك وراءها مكونة مركزها وقلبها رغبة، رغبة ملتهبة صامتة كأنها العواء بلا عواء، ولكن فليكن وراءها جهنم نفسها، إنها هي وإرادتها الكفيلتان بأي شيء، بأن تأخذ من النظرة ما تشاء وترغمه على التخلي عن أي شيء آخر. إنه طفل.. ليس سوى طفل حتى وإن بدا أطول منها قامة، حتى وإن أطل لها كاللص بصيص من ذات ذاتها يحاول أن يرى في الفتى كل ما ليس بطفل فيه، كل الأشياء التي يمكن أن تتلصص عليها المرأة.. أية امرأة.

مخاطرة فلتكن واثقة من أن رأيها هو الرابح، واثقة أنها في النهاية ستعطيه أماً ولو لساعات، وستأخذ منه ربما رغم أنفه ابناً ولو لدقائق، وأنها أبدا أبداً لم تعد تستطيع الهرب من ذلك القدر.

الغريب، وذراعه لا تزال تحت ابطها تسندها، والعيون في شارع الحنفي كثيرة لا عمل لها سوى التحديق بحثاً عن لمحة إثارة.. الغريب أن العيون لم تستنكر، حتى الجيران اعتبروها الخالة الغنية لا بد تبحث ـ بالوفاء ـ عن أقاربها من الفقراء. والناس في تسليمهم بكل ما تواضعوا عليه أبداً لا يبدءون هم بالشك. قريباً من رأس السلم المؤدي إلى شقة السطوح حيث يقطنون، انزلقت يده التي تسندها وتحتضنها: متحسسة الظهر. يد اكتسبت ـ بطول الاحتكاك ـ بعض الجرأة.

ولم تشأ للوقت أن يضيع فيما لم توطن نفسها عليه. أفهمته بلطف أنها إنما جاءت معه لا لكي تستريح وإنما لأنه حرك أمومتها «وكان طبيعياً جداً أن تكذب هنا وتقول إن السبب أنه يشبه ابنها الذي فقدته في مثل سنه بالوفاة» فإذا كان هو يتيماً ماتت أمه فهي العكس تماماً، الأم التي كف الأبناء أن يثيروا فيها أو يحتاجوا إلى أمومتها. ستكون أمه إذن لبعض الوقت، وإذا أساء الفهم فإنها من هنا وقبل أي خطوة ثانية ستعود.

وطبعاً استنكر وأكد وقبل، واثقاً أنها تعني حقيقة ما تقول. مقرراً بينه وبين نفسه أن يطاوعها ويستمتع أولاً بالأم فيها، وحبذا لو فاز بعد هذا بالمرأة أيضاً.

ـ يعني أنا زي ابنك دلوقتي؟

ـ وأنا زي أمك.

ـ فكرة والله.. طب وحا نعمل إيه بقى؟

ـ اللي بتعمله الأمهات.

خلعت فستان الخروج الأسود وبقيت بثوبها الداخلي الرقيق، وبينما الماء يغطي أرض الشقة التي لم تنظف من أجيال وهي بكل همة ـ ورغم الألم ـ قد انحنت تمسح وتنظف، كان هو يخرج ويدخل هائصاً يغني.. باختصار.. سعيد. وأرسلته «بالسبت» والنقود وعاد ملهوفاً باللحمة والخضار، وبدأت رائحة «التقلية» تتصاعد، وبينما كان «البوتاجاز» القديم يطهو الطعام على مهل وفي حجرة قد نظفت تماماً ونظمت، كانت هي في الحمام منخرطة في غسل الملابس، كل ما

تحـويه الشقـة من ملابس حتى «الأفـرول» الذي يـرتديـه أصـرت أن يخلعـه لتغسله وعليـه أن يبقى بلبـــاس داخلي انتقتـه لــه من «سـرة» ملابسه القديمة وهو طفل لا يزال.

وبالغسيل يكاد ينتهي، ورائحة الطعام قـد نضجت، وغناؤه قـد علا وتخللته قهقهات لأتفه الأسبـاب، كانت سعيـدة سعادة لم تـذقها ربما في شهر عسلهـا الأول نفسه. فلم تكن قـد تزوجت حبيبـاً، إنما تزوجت كما كـان يفعل النـاس في أيامهـا من عريس جـاء عن طريق قريب. ولولا العشرة الطويلة والخلفة والطباع الحلوة لكانت كـرهته، ومن يدري ربما كانت قد أحبته، أو على الأقل جـربت شعوراً ملتهبـاً غيـر مستقـر يجعلهـا تبـرد وتغلي وتتفجـر بـدلاً من هــذا الاحسـاس المتصل الطويل لا تعلو له قمـة ولا يهبط إلى قاع، سعـادة لم يذقهـا الفتى وأمه نفسها عائشة، فقد كانت رغم قبلاتها الـطويلة الخانقـة لا تناديه إلا مسبـوقاً بلفظ سبـاب، وإذا احتوتـه جرحت مشـاعره البضـة شوكات حنانها الخشنة. . حنان ما حاولت مرة تليينه أو اعطاءه نعومـة الأم الأنثى إلا وغلب عليهـا الطبـع في النهـايـة وعـادت إلى طبيعتهـا الخشنـة. إنه الآن يكـاد لا يذكـرهـا، يكـاد ينسى كيف كـان مـوقفـه حيالها، فلحظة الحاضر جاءت تغرق كل ما فات، وها هو بكـل نزق وضحـك وجري ودلال وشقـاوة، يعيش كمـا لم يعش أبـداً، كمـا لم يحلم بعيش كهـذا من قبل. وقـد صح مـا توقعتـه تمامـاً، فالأم فيهـا أعادت إليه الطفل، والطفل فيه أعاد لأمومتها لمســات وملامـح ذبلت وجفت وماتت من سنين. لكأنها تصبح أماً لأول مرة.

واندفع بنزق صبياني يرفع غطاء الحلة ويلتقط بعض قطع اللحم الملتهبة التي لا تزال في طريقها إلى النضج. ونهرته ووضعته أمام الأمر الواقع، فقد أصبح كل شيء نظيفاً ما عداه. ولا بد أن يستحم.. وأيضاً قبل الطعام. ويا له من شعور لذيذ انتابه وهو يحاول مماطلتها وتأجيل «علقة» الحمام إلى ما بعد الغداء، وهي تصر اصرار أمومة ناعم تحسبه قابلاً للتعديل، ولكنك لا تلبث أن تدرك أن نعومته أشد صلابة من اصرار يملؤه النهر والسباب.

بدلع قال:

ـ يبقى تحميني.. مش أمي؟.. أمي تحميني.

وكان يعرف أن الاقتراح مرفوض، فما هو بالرضيع أو الصبي، ولكنه ربما قاله ليسبر الغور ويعرف إلى أي مدى أصبحت أماً، وإلى أي مدى استترت المرأة. وفي دفعتها له من ظهره لتدخله الحمام وتجذب الباب أحس أنها ليست أبداً دفعة استنكار شديد، هي تمضي في سياق واتساق مع لعبة الابن والأم وما وراءها غامض كل الغموض.

ـ ادعكي لي ظهري.. من يوم ما ماتت أمي ما حدش دعكهولي.

ولو أوتيت كل قدرات العالم النفسي لما استطاعت أبداً أن تدرك لماذا قبلت، ولماذا صرخت قبل أن يدخل تطلب منه الجلوس القرفصاء وإعطاء ظهره للباب، وماذا بالضبط كان شعورها والليفة

المتآكلة لا تمنع يدها من تلمس جسده، والاحساس بعضلات صلبة بمثل ما لم تكن تتوقع، متناسقة، تجعل من كومة اللحم الحي المنحنية على نفسها تصدر العواء والأصوات كتلة مجهولة ذات خطر، كتلة شاب كبير الجسد دافئه.

وتسأله إن كان قد غسل خلف أذنيه بالليفة، وتكتشف بعد سلسلة من الأسئلة أنه لا يعرف بعد كيف يحمي نفسه، لا أحد قد علمه. أنه ليس يتماً واحداً ما يصاب به الصبي، إنه يتيم من الحب، من الصدر الحنون، من الالحاح عليه بالافطار، من تنظيف كامل وأمين لجسده.. ألف يتم.

وحين انتهت من مهمتها، والماء ينصب ويتلوى الفتى لانصبابه، وكأنها فجعت ودهشت، روعتها النظرة الخاطفة حين ألفتها فكشفت لها عن معالم الرجل فيه. وفي الحال واجهت نفسها ـ فالأمر لم يعد يحتمل الخداع ـ لقد كانت لساعات طويلة توهم نفسها بابن حبيب عثرت عليه اليوم صدفة، ولكن هذا الشاب الممشوق الجسد وما به من رجولة ليس أبداً ذلك الابن، إنه غريب عنها، جسده كله جاء من امرأة أخرى، وله أب لم تره في حياتها، وحياة طويلة قبلها لم تر منها إلا عرض أصبع.

ومضة! ولكنه أدرك.. وفهم، واعتراه الارتباك في نفس لحظة ذهولها وارتباكها. وشتان بين احساس تلقائي منساب كجداول الطبيعة بالنبوة والأمومة وقد انقطع ـ بترته النظرة العابرة ـ ليكملا الدور بعمد

هذه المرة، وبارتباك وبإشراك هائل للإرادة، محاولاً هو فيه أن يخفي علامات الرجولة فيه، ومحاولات دائمة منها ألا ترى سوى الطفل، محاولات كانت لا تزيدهما إلا ارتباكاً. . محاولات أنهت الحمام فجأة وفي خفوت متعمد، وكأنه كان السبب في مأساة.

وعجيب حقاً أن تتسع نفسها بعد كل هذا المزيج المتناقض من الأحاسيس بإحساس جديد مرق كالشرارة، احساس بفرحة صغيرة. . فرحة أي أم حين تكتشف في ملابس ابنها الداخلية ذات يوم أنه بعد لم يعد طفلاً، السؤال المعلق ـ وقد بدأ المساء يحل في دكان أبيه ـ سؤال لم تنطقه، ومع هذا فقد جاءها الجواب بغير عناء: انه مع أصدقائه في حي «الباطنية» مجتمعين حول «الجوزة» ويشدون أنفاساً تقهقه لها «الجوزة» ويقهقهون، ويثوبون بعد القهقهة العنيفة إلى سعال طويل. جلسة لن تنتهي قبل أن ينتصف الليل. ودون سؤال منه فالسؤال كان لنفسها جاءتها الإجابة: إن شيئاً لا ينتظرها سوى جدران الشقة الكبيرة العالية، الفارغة وسجادة الصلاة، ولا شيء بعد هذا أبداً.

ـ أنا بردان. . باين الوساخة كانت مدفياني!

ضحكت للنكتة وظننته يدعي.

ولكن أسنانه فعلاً بدأت تصطك.

واندفع إلى «الكليم» المهري الذي يغطي أرض الحجرة، الوحيدة.

واصطكت أسنانه بشدة، وعطس أكثر من مرة.

لو كانت هناك مدفأة أو أخشاب لأشعلتها، ولكنها في بحثها الدائب المنخلع القلب عما يمنع عنه البرد والرجفة، ورعبها أن يمرض لم تجد هناك سوى نفسها، وأدارت ظهره إليها واحتضنته دافعة بساقيها وتقوسات بطنها وظهرها لتشمل انحناءات جسده كله، وأصبحت يداها تضمانه بشدة.

وشيئاً فشيئاً كف ارتعاشه.

وشيئاً فشيئاً بدأ يحل بجسده احساس غامر شامل بالراحة والسلام والأمن. وهي في نفس الوقت نشوي وحضنها قد فعل فعله، نشوة أم أرضعت ابنها كل ما يؤرق ثديها من لبن.

وليس أبداً لأن جسده استكان تماماً إلى دفئها.

إنما ـ هكذا ـ وربما في نفس اللحظات بدا حضنها نفسه ينسيه المرأة فيها.. ويمر عابراً بالأم.. ويستقر عند أول الطريق إلى شعور آخر مخالف تماماً، جديد تماماً ذلك الذي يجعل القلب يدق.. لا من الرغبة وإنما بما هو أقوى.. بالانفعال، بالعاطفة.

وكان مفروضاً أنها بعد أن استكان إلى حضنها وشبعت أمومتها أن يبدأ قلبها هو الآخر يدق، لكل ما هو غريب في فتاها وليس لكل ما هو قريب.

ولكنها ولفرط ما هي خائفة كبتت الشعور.

وهكذا بينما ـ رغم التصاقهما الشديد ـ بدأت تنمو وتترعرع ضبابة عاطفية تغطيهما تماماً وتربطهما تماماً، يفرزها جسداهما لتثير

كل ما لا باستطاعته أو يملك الجسد اثارته.

أيكون الحب؟

المربع الثاني

ليكم، فإن كان المقياس المعزّة، فإن أحداً على ظهر الأرض حتى أولادها أنفسهم ليسوا بأعز عليها منه. أما هو فقد استكان إلى ملجأ غريب لم يجربه أبداً.. أحس معه بكل ما عاناه ويعانيه، بكل شظف العيش مع أب حشاش عجوز، ونساء يشتهينه حتى ليلتصقن به عامدات فوق السلم الضيق، بكل شيء كأنه ما كان ولن يكون، كأنه يولد هذه اللحظة ولادة تحف بها كل أحلامه، كل ما حرم منه، كل ما سوف يحرم منه.

ليكن الحب!

لتكن الجنة!

لتكن أقصى سعادته الآن أن يستسلم للأحلام التي بدأت تخلعه من الواقع وتحمله بتؤدة إلى النوم. ولتكن إغفاءتها هي الأخرى علامة شبع بعد مائدة انتظرتها، جوعى تتلوى لسنوات.

ليكن! لولا أنه مع الدفء وبعيداً عنهما تماماً وعن العقل والأحلام والمتعة المتخيلة، بدا ثمة جسد يحس بجسد، مباشرة وبلا واسطة، تاركة العقول تسبح فيما تشاء، عاقدة هي وبلا أي قوة تستطيع إيقافها الصلة والاتفاق.

والأجساد لا تتخيل وتحلم، انها لا تعرف للتعبير عن نفسها إلا الالتحام والاحتواء، بينما الأحلام تلتقي وردية لقاء الخيال والعالم اللاملموس.

وبدأ الجذب.

رغم ارادتيهما معاً.

هو ـ بحركات لا يمكن رصدها ـ يكور ويصغر نفسه أكثر وأكثر وكأنما لو ترك لعنانه لأحال نفسه إلى طفل يستكن في بطنها كالجنين.

وهي ـ بإيجابية السلب المطلق، بالقدرة على الاحتواء ـ تضمه، بادئة بيده التي أنقذتها من حادث محقق تعتصرها بين أصابعها، إلى وجوده الجسدي الكبير الغريب المتكور، إلى حياته كلها وأبيه وحجرته وملابسه المعلقة تجف، تحتويها كلها، وتضمه وكأنما لتعيده إلى حيث يجب أن يكون، إلى بطنها وذاتها.

عاطفة الحب التي بدأت لا جسدية بالمرة وكأنها من صنع الخيال، ما ان بدأت الاجساد تتقارب حتى استحالت إلى قوة تلهب الجذب، وتشرك فيه الاحساس والمعنى والخيال.

ولو كان ملاكاً وكانت هي قديسة.

ولو كان الجزاء الموت حرقاً أو فوق خازوق.

ولو اجتمعت الدنيا كلها لتوقف قوة الجذب الخارقة لوقفت عاجزة.

فما يحدث كان في الواقع سره من سر الحياة، وقوته من قوتها.

الحياة حين يصبح هدفها الأوحد من البقاء والوجود والاستمرار أن تتحد.

الحياة حين تخلق العاطفة قوة تجذب، فإذا تلامس الحيان فلا شيء بإمكانه أن يفرق بينهما. لقد استعانت بأولياء الله ومشايخه، وبالسيدة، وبصبرها الذي طال عشرين عاماً، بابتسامة أبيها الحنون، بأمها المرحومة ذات العشر حجات، بالفاتحة وآية الكرسي وكل ما يطرد الشياطين. واستعان هو بشيخ طريقته، وتعاليمها، وكل ما تراكم في ذاكرته من أوامر ومحرمات.. ولكن جوع الجلد إلى الجلد، جوع الضلوع إلى الضلوع، وظمأ الفم إلى الفم، والسيقان لتلتف حول السيقان كان هو الذي كل مرة ينتصر، ويقهر.

جذب من جذب ذلك الكون الشاسع القادر على تعليق كوكبنا، بل شمسنا، وملايين غيرها.. في فراغه المخيف بلا شيء سوى جذب التجاذب وجذب التنافر. جذب لا يدري للآن أحد سره.. ذلك الذي يجذب المرأة إلى رجل بالذات لتستعمله كوسيلة تحصل بها على نسخة من صنعها هي لهذا الرجل. على ابن ما أروعه لو جاء تماماً كأبيه لتستميت في حبه. وحبذا لو أبيح لها أن تختار هذا الابن نفسه لينتج لها ومن ذات نفسها أيضاً ابناً آخر.. أكثر قرباً لما تريد وتهفوا.

جسدان راقدان متجاوران متلاصقان هذا صحيح، من ساعات

كـانا مجـرد كـائنين مثلهمـا مثـل المـلايين الأخـرى من الكـائنـات، ملتصقان وكأنما بفعل مغناطيس قانونه الأوحد أن يتجاذب قطباه حتى لو كان أحدهما في الخمسين والآخر لم يبلغ العشرين، بـل حبذا لـو كان أحدهما في الخمسين والآخر دون العشرين.

جسدان خلفتهما قوانين حياة لا تقهر. قوانين أكثر تعقيداً وهولاً من كل نزعات الانسانيـة للتخلص منها. قـوانين غريبـة ساريـة تحيل الفـراغ بينهمـا، ان كـان قـد بقي فـراغ، إلى جحيم من الانفعـالات المكبوتة، والقـاهرة المنـطلقة، والمنـاطق المحرمـة التي شيئاً فشيئـاً تستباح، وهي مستميتة تتشبث بخط دفاعها الأخير كأم لأولاد مقـربين نـاجحين متعلمين، تستحضرهم بكـل ما لـديها من يـأس لتمنـع بهم المشهـد القـائم، أو تـوقف التحـرك إلى المشهـد الفـاجـع التـالي. لينقذوها على الأقل من كهارب وتيارات وأحاسيس تشل إرادتها شيئـاً فشيئـاً، وتعمق لديهـا احسـاس الأم. ليـوقفـوا الحفـر الـدائب داخله وداخـل قـدرتهـا على العـطاء حتى لا تبلغ هـذه القـدرة على العـطاء والمنـح أقصى مداهـا، بحيث ـ أعوذ بـالله، أعوذ بـالله ـ تنقلب بفعل أي دفعة أخرى بسيطة إلى رغبة في الأخذ والاستقبال، وتمضي قـدماً في خط الأمـومـة لتصـل إلى أقصـاهـا حيث الأنثى، ومن رغبـة إلى الشـاب إلى رغبة ملحـة في الحصول على صفـاته ومـلامحه، وعليـه كله، مصغراً وفي حجم بويضتها المتربصة المنتظرة.

بينمـا تبلغ به رغبتـه فيهـا كـأم إلى حـد لم يعـد يحتمله، إلى حد يصبح كل أمله ومناه أن تكون أمه وحده. بحيث تنغلق عليه دون

سـواه من البشر أو الأخـوة أو الأزواج والأبناء. تبلغ بـه الـرغبـة حـداً يجعله يحتاج إليها كـأم إلى الدرجـة التي لا يعود يكتفي فيهـا بمعالـم الأمومة الظاهرة، إنما يبحث وإلى آخر رمق حتى يصل ويستولي على كنه الأمومة فيها، على الأنثى فيها. فالأم دائماً أكبر من أيِ ابن، ولكن الأنثى لا ينالها إلا رجل واحد وتكون له وحده.

ومهما كانت الردود وفعل الردود، والاقدام مـرة والخجل مـرة، بحضور تاريخ طويل من النواهي والأوامر مرة، واختفائه خلف قوانين الحياة العظمى مرة أخرى، به حين يبدأ يتصـرف كشاب فتنهـره كأم، وبها حين تضمه مؤملة أن تسكته بأمومتها فتتحول الأمومـة بفعل النـار الموقدة إلى أنوثة. بالأربعة معاً الابن والأنثى والأم والشاب في صراع لا رحمـة فيـه بين بعضهم البعض، وبينهم وبين أشبـاح الآخـرين الحاضرة وأشباح غابت ومقدسات لها مفعول الأزل، بهذا كله ترتفـع الحـرارة حتى يتشعب اللهب، وعلى لهيبهـا تحتـرق أشيـاء كـانت لا تقبـل الاحتراق، وتـذوب النـواهي، ويـذوب كـل مـا كـان وكـل مـا سيكـون، ولا يبقى سوى المـرأة المحتمية بـالأم فيها، والابن التـائـه يبحث عن أنثاه المختفية داخل المرأة الأم.

ولـو الأمر أمـر الأجساد وتلقـائيتها لانعكس التيـار الصـادر عنهـا يعطيه الأنوثة أمومة، إلى تيار يستقبل العطاء ويحيل البنوة ذكورة.

ولكن الانسان ليس جسداً فقط. انه ليمتلك في جسده عضواً غريباً ساحر المفعول اسمه العقل، ودون اشراكه وموافقتـه فلن يصدر

عن الجسد فعل أي فعل. . أو يتحرك مستقلاً قيد أنملة.

وبـاستماتـة، وكأنمـا استجابـة لـدعـائهـا الحـار بـالأولاد وقـد استجمعتهم كـالجيش «العـرمــوم» جـولهـا يتـواثب منـه أحفـادهـا ويستنكرون مسلك الجدة بينما آباؤهم يتطلعون بعيون زوجاتهم اليها، حيت استحضـرت المـرحـوم هـو الآخـر وسنـوات الكفـاح والـرفض المستميت للزواج من بعده، حين حشدت التاريخ الماضي كله ليمنع لحـظة فاصلة. . حـدثت المعجزة، واستعـادت الأم والأرملة العـذراء سيطرتها، وانتابتها من هول ما هي فيه رعدة وأفلتته.

ولكن ربمـا لقصر في تـاريخه، ربمـا بحكم السن، لم يستطع هـو أن يعود للحـاضر أو يخفي عنهـا أو عن نفسه رجـولتـه ولا رغبـة الـرجل في الأنثى. . أي أنثى التي أصبحت تعميـه. كان قـد وصـل بشعـوره إلى نقطة لا عـودة فيها، بنفس استحـالـة أن تحـدث أصبـح المستحيل تماماً أن يعود.

المربع الثالث

المـربعات التي تـآكلت سطوحهـا فبرزت حـوافهـا الملتصقـة، مـربعات الـدبش الأبيض الكبير التي تكـون أرض الحجـرة والشقـة، المربعات التي لا يفلح «الكليم» الـرقيق الرخيص في تغـطية حـواف الدبش وعلاماته. المربعات والكنبة الكبيرة العالية، والمنضدة المعدنية ذات الأرجل الثلاث، ونـافذة الحجـرة الحافلة بغسيله المنشور، كان

الشهـود ليسوا شهـوداً على شاب في الثـامنة عشـرة قـد جـاءت معـه بقدمها ـ ولو ملتوية ـ امرأة إلى حيث يقطن حتى وإن كانت قـد بلغت الخمسين، لا ولا بين طـرف رافض وطرف يـرغب، ربما الأدق أنهـا كانت معركة بين كل منهما ونفسه، معركة مبهمـة غير واضحـة، فثمة سحب كثيرة من خجـل ذي درجـات تلفهـا وتشمـل المكـان كله، درجات تبدأ بالخجل البسيط، خجل الأم أن يكتشف ابنها أنها أنثى، وخجل الابن أن تكتشف أمه أنه رجل. فجأة يثور فيه الشاب فيحتوي الرقبة ويقبلها قبلات شابة محمومة.

وبحسم تهمس:

ـ عيب أنا زيّ أمـك.. أنـا.. ولادي أكبـر منـك.. أنـا جـدة والله..

فلتكوني جدة أو جنية فالمهم أنك الآن أمامي أنثى، وأنا الذكر حتى ولو كنت أمي نفسها وأوصلتني إلى هذه الدرجة فلا تتوقعي أبداً أن تجدي فيّ الابن.

يصبح الكلام بلا فائدة فتستعمل اليـد.. يدهـا، وتدفعـه برفق دفعة الأم لابنها المناكف، فيعود يقبل عليها بإصرار الابن المنـاكف. تريه الشعر الأبيض في رأسها ليصـدق.. ليكتشف هو وتكتشف معه أن ناره لا تزيد إلا اشتعالاً، وأنها كلما قربت نفسها من صـورة أمه أو حاولت أن تستثير فيـه الابن، لا يفعل هـذا كله إلا أن يؤجج الشـاب الذي بدا وكأن ما أصبح يثيره فيهـا أنها أم، أمـه. بل وصلت إلى مـا

هو مرعب أكثر، انها هي كلما شعرت وأقنعت نفسها أنه لا يعدو كونه ابناً، كلما أحست ومنها له انطلقت من أعماقها الأنثى.. أنثى ترعبها فهي أبداً ليست تلك التي عاشت ابنة مطيعة ورباها أب وأم وعلماها وزوجاها وأنجبت أبناء أنجبوا بدورهم أبناء.. أنثى أكثر أنوثة من كل ما تصورته في حياتها عن نفسها كأنثى.. أنثى حبيسة شيطانية تدمدم مهددة بانفجار لا يعلم سوى الله مداه.... أنثى كأنها الأذرع الطويلة القوية لأمومتها تختلج متحركة في كل اتجاه، وتريد ارادة لا وسيلة لقهرها أن تطبق على الشاب الصغير اطباقة تبتلعه فيها وتحتويه ليعود مرة أخرى جزءاً منها. الشاب الذي ـ وأولادها حاضرون محدقون شاهدون ـ تراه هو الغريب أكثر قرباً وبنوة منهم جميعاً. الشاب المضطرب بين خجله منها ورغبته فيها، الخجل حتى من ذكورته، بل خجل أكثر من أنوثتها. الشاب الذي وكأنما يريد اعتصار الأمومة فيها إلى حد الأنثى، أو يريدها كأنثى إلى درجة اعتصار كل ما قد يكون فيها من أمومة تخصه وحده دون سواه. ظمآن إلى المرأة من زمن.. أماً أو أنثى. لم يعد يكفيه أن يطوقها أو يرقد ساكناً في حضنها وإنما يقترب منها بكل ما يستطيعه من اندفاع كي ينتمي اليها كما يذوب فيها ويتلاشى وكأنه الكوكب يعود بعد طول دوران إلى أمه النجم.

ولكنها رغم هذا كله كان هناك في داخلها شيء لم يكف عن الصراخ أبداً أو إشعارها بوجوده، شيء يقول بأعلى صوت ومذ كانا على عتبة السيدة.. لا..لا..لا.. شيء قد يضعف أو يخفق

ولكنه أبداً لم يمنح ولم يكف ولم يتوقف للحظة، بل ظل يستجمع نفسه بكل قواه إلى أن انتفضت مرعوبة ملتاعة دافعة اياه وبكل ما تملك من قوة وعنف بعيداً عنها. دفعة كالصخرة ارتطمت برأسه فأفاق، وأحس أن كل ما راوده أحلام، وأنه لا يزال ذلك اليتيم المنبوذ.

وحينذاك.. وحينذاك فقط ورغماً عنه بدأت الدموع تتجمع في مأقيه وتطفر، بينما عيناه تنظران إلى أمام.. تلك النظرة الملتاعة المفجوعة المتأكدة أنها وبلا أمل، قد فقدت حقيقة الأم.

نظرة اليتيم حين يرمق طوابير الرجال والنساء مقبلة تعانق أطفالها ويتقافز حولها الأطفال، وهو الوحيد الذي ليس له بينهم أم، بل وأب أيضاً.

تلك النظرة الغارقة في الدموع التي لمحتها بربع عينها وأحست بعدها أنها انتهت تماماً، وأن على أي شيء أن يحدث ولكنها أبداً لن تجعله يشعر بيتمه الثاني.

نظرة الأم لابنها في لحظة خطر يهدد أمومتها له أو بنوته.

وكان هذا الاندفاع والاحتضان والقبلات تغسل بها دموعه وتهدهد بها فوق ملامحه الكسيرة.

ـ أمال بتزقيني ليه؟

ـ مش ح ازقك.

لم يكن رداً . . كان قراراً، وإلى جهنم مباشرة فلتذهب.

ـ تعال. . تعالالي.

وجاء. . ولم تحتوه أو يحتـوها، انمـا فقط ذابت المسافـة التي استمرت طويلاً بينهما، وذاب الزمن.

وبين القطبين الأعظمين تمت شرارة الالتحام الصاعقة.

صاعقة تزلزل لها بلاط الحجرة المربع واصطكت نـوافذهـا ولو استمرت أكثر لتهدم البيت كله.

المربع الرابع

وحين عـادت إلى شقتها الكبيـرة وجدتهـا صغيرة، وفي المـرآة طالعها تعبير لم تره في وجهها منذ ثلاثين عاماً.

وحين جـاء يوم الجمعـة فوجىء أولادهـا جميعاً بـالشيخة التي أرادوها وقد تفجرت فيها دفقة حياة جعلتها تبدو أكثرهم حركة ونشاطاً وطاقة على خلق المرح، وكأنها عادت شابة.

ـ مش قلت لك آدي بركات الست ظهرت!

والأعجب أنها كانت أول من استأذن، والحجة جاهزة، فالسيدة لا تستطيع الانتظار.

وأشيـاء كثيرة كـانت تختـل في الكـون وفي الـدنيـا وفي نـظام البشر، ولكن لم يحدث أبداً أن اختلت مواعيد زيارتها للسيدة. بعـد ن تشبـع بطونهم من الـطعام وتغـذيهم بحنان غـريب وكأنـه اندفـاعة

البترول في بئر مهجورة وترعاهم، وتغمرهم بأمومة أصبحت ربما أكثر من طاقتهم على الأخذ. تستأذن وتزور السيدة.

وفي كل مرة وبرهبة ترمق الضريح مبتعدة وتتمتم: دستورك يا سيدة، وكأنما أيضا توقف بها الزمن وفعل الزمن عند ذلك اليوم. ولم يتحرك إلا في يوم كانت على الدوام تحسب حسابه وتتوقع مجيئه، ولكن في الحق فاجأها حين جاء، وظلت في مكانها مشدوهة لا تريد أن تصدق أن اليد لم تعد هناك، وأنها لن تقودها هذه المرة إلى حجرة المربعات في الحنفي.

ثم حين تمضي الساعات ولا يجيء تبدأ تقدم رجلاً وتؤخر رجلاً إلى الدكان القائم غير بعيد عن الجامع والضريح.

ولكنها قبل أن تصله تتوقف.

كان هناك وقد أصبح صاحب الدكان بعد ما مات الأب.

ولكنه لم يكن وحده.

أمام الدكان كانت فتاة في الثامنة عشرة ربما، أو أقل، فقد كانت لا تزال محتارة كيف تلف الملاءة بإتقان حول جسدها.

وكان يساومها على تصليح البوتاجاز.

مساومة ذات معان، تبدأ من «الفونية» إلى المفتاح، والفرن ونار الفرن.

والفتاة تضحك.. وهو يبتسم..

وبحدة نظرت إليه من جديد.

نـظرة، وكأنهـا ثاني مـرة تـراه فيهـا بعـد المـرة الأولى، المـرة الأولى . .

كان انساناً آخر تماماً . . كانت قد أصبحت لـه ذقن غزيـرة غير حليقة نابتة وسوداء كثة، وكان صـوته قـد غلظ وضحكته قـد أصبحت رجالية خشنة، صوت له ارادة ونظراته لم تعد تستقبل العالم وتـدهش له . أصبحت فقط تراه لتحدد مسارها فيه لا غير.

لقد أصبح رجلاً كبيراً، هذا واضح .

أصبـح واحـداً من قـافلة الـرجـال . . والأمهـات على الـرجـال عبء .

وقبل أن تئن أو تدور بها الدنيا .

أحست أنها لا تريد الأنين، وأن باستطاعتها أن تـوقف الدوار. فهي ليست عاتبة أو حـزينة أو منـدهشة أو حتى حـاقدة على الفتـاة أو عليه . أدركت ـ من خلال احساس غير واضح وبلا ضغينـة ـ أنها هي الأخرى لم يعد لديها ما تعطيه أو تمنحه، لا فـائض أمومـة ولا فائض عواطـف، والبركان الأخضر الريان لم تعد به قطرة واحدة .

وفي مرآة حقيبتها رأت البيـاض في شعرهـا واضحاً تمـاماً رغم الصبغة، والتجاعيد كثيرة حول جفونها ورقبتها .

وتحركت . .

مبتعدة . .

ومقتربة من المسجة . .

واستأذنت في سرها، وكأن جاءها الإذن . . ففي خشوع وتسليم

ورغبة دخلت، وإلى المقام اتجهت..

وقفت طويلاً لا تعرف ماذا تقول أو تفعل.

ثم.. وكأنما بالوحي أو السليقة اقتربت من السور النحاسي المقام حول الضريح، وأمسكت مع الممسكين والممسكات بحلقة من حلقات النحاس الناعم الذي أثخنته كثرة الاستعمار. أمسكت بالحلقة وضغطت عليها وتشبثت تماماً بها وكأنما الأرض تحتها. تنفتح لتبتلعها.

لا أحد يحتاج إليها الآن.

ولم تعد هي بحاجة إلى أحد.

انها الوحدة الحقيقية كما لم تتصور وقوعها يوماً.

ها هي مثل بوادر الشتاء وبلا ضجيج، قد جاءت.

وحدة حقيقية لا مهرب منها. الوحدة الفاصلة بين الابن وبينه هو نفسه حين يصبح أباً، وبينها وقد نفدت أمومتها أو ما تبقى منها وبين عودتها من جديد لتصبح هي نفسها ابنة.. ابنة لأم لا وجود لها، وربما لهذا سموها أم العواجز. فالإنسان لا يستطيع البقاء انساناً إلا ابناً كان أو أباً، فإذا انتهت رجولته وأبوته عاد ابناً، وإذا انتهت أمومتها عادت ابنة، قاعدة ليس لها شواذ. ولكنها الآن في لحظة واحدة فاصلة، كوحدة السيدة زينب نفسها وقد تجمع حولها وأمسك بحلقات ضريحها أناس كثيرون، رجال ونساء، وكلهم وكلهن وحيدون ووحيدات مثلها. كلهم وكلهن قد أصبح أملهم أن يعودوا أبناء وبنات، وحبذا لأم العواجز.. الوحيدة في قبرها رغم ما حوله

من ازدحام، يحاول كل متزاحم أن يتشبث إلى درجة البكاء والعويل بحلقة من حلقات الضريح، وكأنما ليلغي ما بينه وبين صاحبة الضريح من مسافة، وينجح في النهاية أن يخرج من وحدته ويحس بها أمه، ولو كانت أم الجميع. فهي أيضاً رغم كل شيء وحيدة.

وحيدة في قبرها.

وحولها يتشبث الوحيدون والوحيدات.

والفاتحة لها ولهم.

«تمت».

المحتويات

رقم الإيداع ١٩٥٨ ١٩٩٠
الرقم الدولي ٢ ـ ٤٠٥ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

يوسف إدريس

القصص القصيرة ١